سيمون دوبوفوار

Simone de Beauvoir

الجنس الآخر II

Le deuxième sexe, tome II

التجربة الحياتية

L'expérience vécue

ترجمة: د. سحر سعيد

سيمون دوبوفوار

Simone de Beauvoir

الجنس الآخر

II

التجربة الحياتية

ترجمة

د. سحر سعيد

الجنس الآخر

II

التجربة الحياتية

الجنس الآخر II (التجربة الحياتية)

تأليف: سيمون دوبوفوار

ترجمة: د. سحر سعيد

الطبعة الأولى 2015

الإخراج الفني: فايز علام

تصميم الغلاف: مناف عزام

الناشر:

الرحبة للنشر والتوزيع

العنوان البريدي ـ دمشق:

أمية، ص. ب. 7634

دمشق، سوريا

الموقع الإلكتروني: http://www.musawasyr.org

البريد الإلكتروني: info@musawasyr.org

العنوان الأصلي للكتاب بالفرنسية

Le deuxième sexe, tome II : L'expérience vécue

Simone de Beauvoir

Folio essais

Gallimard

الفهرس

«أيّ مأساةٍ أن تكون امرأةً!

مع ذلك فالمأساة الكبرى عندما تكون امرأةً هي ألا تفهم أنها كذلك».

كيركغارد *Kierkegaard*

«يجب التشكيك بكلّ ما كتبه الرجال حول النساء، لأنهم خصمٌ وحَكمٌ في الوقت نفسه».

جان بول سارتر *J. P. Sartre*

مقدمة

نساء اليوم منهمكاتٌ في إسقاط خرافة الأنوثة. بدأن بالتأكيد على استقلالهنّ بشكلٍ محسوسٍ؛ لكنهن ينجحن بصعوبةٍ في أن يعشن وضعهنّ كإنسانٍ بشكلٍ كاملٍ. وإذ ربّتهن نساءٌ، ضمن عالمٍ أنثويٍّ، فمصيرهن الطبيعي هو الزواج، الذي يجعلهن أيضًا تابعاتٍ عمليًّا للرجل. لم تُلغَ المكانة الذكورية: مازالت تعتمد على أسسٍ اقتصاديةٍ واجتماعيةٍ. من الضروري إذًا أن ندرس بعنايةٍ مصير النساء التقليدي. سأحاول أن أصف كيف تتدرّب المرأة على وضعها، وكيف تحسّ به، وفي أيّ عالمٍ تجد نفسها سجينةً، وما هي الحرّية المسموحة لها. عندها فقط سيمكننا أن نفهم ما هي المشكلات التي تعاني منها النساء اللواتي يجهدن في صنع مستقبلٍ جديدٍ، مثقلاتٍ بماضٍ موروثٍ. عندما أستخدم كلمة «امرأة» أو «مؤنّث» فأنا لا أرجع بالطبع إلى أيّ نموذجٍ أصليٍّ، وإلى أيّ جوهرٍ ثابتٍ؛ بعد معظم تأكيداتي يجب أن نأخذ بالاعتبار «الواقع الراهن للتربية والأعراف». لا يتعلّق الأمر هنا بقول حقائق أزليّةٍ ولكن بوصف الأساس المشترك الذي يُلغى فوقه كل وجودٍ أنثويٍّ خاصٍّ.

القسم الأول

التشكيل

الفصل الأول

الطفولة

لا يولد المرء امرأةً: إنّه يصبح كذلك. لا يوجد أيّ قدرٍ بيولوجيٌّ أو نفسيٌّ أو اقتصاديٌّ يستطيع تحديد الصورة التي تبدو عليها الأنثى البشرية ضمن المجتمع. إنّ مجمل الحضارة هو الذي يصنع هذا المنتج الذي يقع بين الذكر والخصيّ والذي يصفونه بالمؤنث. فقط تدخّل الآخرين يمكنه أن ينشئ شخصًا كآخر. وعلى اعتبار أنّ الطفل موجودٌ لذاته فهو لا يدرك أنّه متمايز جنسيًا. الجسد هو أولًا ازدهار ذاتيّةٍ لدى البنات والصبيان، الأداة التي تقوم بفهم العالم: فهم يدركون العالم عبر العيون، والأيدي، وليس عبر الأجزاء الجنسية. وتتم مأساة الولادة والفطام بالطريقة نفسها لدى الرضّع من الجنسين؛ فلديهم الاهتمامات نفسها والمتع نفسها؛ فالمصّ هو أولًا مصدر أكثر مشاعرهم إمتاعًا؛ ثم يمرّون بطورٍ شرجيٍّ يحصلون فيه على أكبر قدرٍ من الرضى من وظائف الإطراح المشتركة بينهم؛ وتطوّرهم التناسلي متماثلٌ؛ فهم يستكشفون جسدهم بالفضول نفسه واللامبالاة نفسها: ويحصلون عبر البظر والقضيب على المتعة المبهمة نفسها؛ وبقدر ما تصبح حساسيّتهم موضوعيّةً، تتّجه نحو الأم: إنه اللحم الأنثوي الناعم، الأملس، المرن، الذي يثير الرغبات الجنسية وهذه الرغبات طاغيةٌ؛ وتقبّل البنت، كما الصبي، أمها بطريقةٍ عدوانيةٍ مثيرةٍ، وتجسّها، وتداعبها؛ ولديهم الغيرة نفسها إن وُلِد طفلٌ جديدٌ؛ ويظهرونها بالسلوك نفسه: الغضب

والحرد واضطرابات التبوّل؛ ويلجؤون إلى الغنج نفسه لكسب حبّ الكبار. وتظلّ الفتاة حتى سنّ الثانية عشرة بالقوّة نفسها التي لأشقّائها، وتبدي القدرات الفكرية نفسها؛ ولا يوجد أيّ مجالٍ تُمنع فيه من التنافس معهم. وإذا بدت لنا محدَّدةً جنسيًا قبل البلوغ، وأحيانًا حتى منذ طفولتها الباكرة، فليست الغرائز الخفيّة هي التي توجهها نحو السلبية والغنج والأمومة: إنّ تدخّل الغير في حياة الطفل هو الأساس تقريبًا ويتم توجيهه بتعسّفٍ منذ سنواته الأولى.

لا يوجد العالم بالنسبة للوليد إلا بصورة أحاسيس متأصّلةٍ؛ ما يزال غارقًا ضمن العالم كما كان في ظلمات البطن؛ وسواء تغذّى عن طريق الثدي أو زجاجة الإرضاع، فدفء جسد الأم يحيط به. ويتعلّم تدريجيًا أن يحس بالأشياء متميّزةً عنه: وهو يتميّز عنها؛ في الوقت نفسه، بطريقةٍ خشنةٍ قليلًا أو كثيرًا، فهو منفصلٌ عن الجسد المغذّي؛ وأحيانًا يكون ردّ فعله على هذا الانفصال نوبةً عنيفةً[1]؛ في جميع الأحوال، عندم يتم هذا الانفصال ـ في سنّ الستة أشهرٍ تقريبًا ـ يبدأ بإظهار رغبته في اجتذاب الغير عبر إيماءاتٍ، تصبح فيما بعد تهريجاتٍ حقيقيةً. لا يحدّد هذا السلوك بالطبع خيارٌ عقلانيٌّ؛ ولكن لا يكفي أن نفكّر بوضعٍ كي يصبح حقيقةً. يعيش الرضيع بشكلٍ مباشرٍ المأساة الأصليّة التي تعيشها كل الكائنات أي علاقته بالآخر. يغلّف القلق شعور الإنسان بتخلّي الآخرين عنه. ويتمنى أن يتوه في خضمّ العالم، هاربًا من حرّيّته، وذاتيّته؛ وهنا أصل أحلامه الكونيّة والحلوليّة، ورغبته في النسيان والنوم والنشوة والموت. وهو لا يتوصّل أبدًا إلى إلغاء أناه المنفصلة: إنه يتمنّى على الأقلّ أن يبلغ وحدته الداخلية، أن يتجمّد على هيئة شيءٍ؛ ويشعر بأنه كائنٌ بالأخصّ عندما تسمّره نظرة الغير. وضمن هذا المنظور يجب تفسير سلوك الطفل: فهو يكتشف التناهي والوحدة والهجر، بشكلٍ شهوانيٍّ، في عالمٍ غريبٍ؛ ويحاول تعويض هذه الكارثة مستلبًا وجوده في صورةٍ يؤسّس الآخرون حقيقتها وقيمتها. ويبدو أنّه اعتبارًا من اللحظة التي يدرك فيها صورته في المرايا ـ وهي لحظةٌ تتوافق مع لحظة الفطام ـ يبدأ في تأكيد هويّته[2]: فتختلط أناه بهذا الانعكاس بشكلٍ كبيرٍ بحيث لا يتشكّل إلا عندما يستلب. وإن لعبت المرآة بحد ذاتها

1- تروي جوديث غوتييه Judith Gautier في ذكرياتها أنها بكت وذوت على نحوٍ مثيرٍ للرثاء عندما انتزعوها من مربّيتها بحيث اضطروا إلى جمعهما من جديدٍ. ولم تفطَم إلا بعد ذلك بكثيرٍ.

2- اقترح هذه النظريّة الدكتور لاكان Lacan في «عقد عائلية في تشكيل الفرد». يفسّر هذا الأمر الشديد الأهمية أن الأنا أثناء التطوّر تحتفظ بصورة المشهد المتناقض.

دورًا كبيرًا أو صغيرًا، فمن المؤكّد أن الطفل يبدأ في حوالي الشهر السادس في فهم إيماءات أبويه ويدرك نفسه كشيءٍ أمام نظراتهما. لقد أصبح شخصًا مستقلًا ينطلق نحو العالم: لكنه سيلاقي نفسه فقط بشكلٍ مستلبٍ.

وعندما يكبر الطفل، يناضل بطريقتين ضد الهجر الأصلي. فيحاول إنكار الافتراق: فيلوذ بحضن أمه، ويبحث عن حرارتها الحيّة، ويطلب مداعباتها. ويحاول تبرير سلوكه بكسب رضى الغير. ويبدو البالغون آلهةً بالنسبة له: فلديهم القدرة على منحه وجوده. ويحسّ بسحر النظرة التي تحوّله تارةً إلى ملاكٍ صغيرٍ رائعٍ، وتارةً إلى وحشٍ. لا تلغي إحدى طريقتي الدفاع هاتين الأخرى: على العكس إنّهما تتكاملان وتتداخلان. عندما ينجح الإغراء، يجد شعور التبرير تأكيدًا جسديًا في القُبل والمداعبات التي يتلقّاها: إنها اللامبالاة السعيدة نفسها التي يحس بها الطفل في حضن أمه وتحت نظراتها العطوفة. ولا يوجد في السنوات الثلاث أو الأربع الأولى اختلافٌ بين سلوك البنات وسلوك الصبيان؛ إنهم يحاولون جميعًا تخليد الوضع الهنيء الذي سبق الفطام؛ ونجد لدى هؤلاء كما لدى هاته سلوك إغراءٍ واستعراضٍ: فهم يرغبون كما ترغب أخواتهم بإثارة الإعجاب، باستجلاب ابتساماتٍ، بالحصول على استحسانٍ.

إنكار الألم أكثر إثارةً للرضى من تجاوزه، وأن يتيه المرء في قلب العالم أمرٌ أكثر جذريةً من أن يجمّده وعي الغير: يخلق الاندماج الجسديّ استلابًا أعمق من كل تنازلٍ تحت نظرة الغير. ويمثّل الإغراء والاستعراض مرحلةً أكثر تعقيدًا، وأقلّ سهولةً، من الاستسلام البسيط لحضن الأم. سحر نظرة الكبير متقلّبٌ؛ ويريد الطفل أن يكون غير مرئيٍّ، ويشارك الأبوان في اللعبة، فيبحثان عنه على رؤوس أصابعهما، ويضحكان ثم فجأةً يعلنان: «أنت تزعجنا، أنت لست غير مرئيٍّ البتة». وإن قال الطفل جملةً أضحكتهما، يكرّرها: وهذه المرّة، يرفعان أكتافهما. في هذا العالم غير الثابت لهذه الدرجة، غير المتوقّع كعالم **كافكا**، يتعثّر المرء في كلّ خطوةٍ[3]. ولهذا يخشى كثيرٌ من الأطفال أن يكبروا؛ ينتابهم اليأس إن كفّ أهلهم عن

3- في *البرتقالة الزرقاء* *LÒrange bleue*، تقول ياسو غوكلير Yassu Gauclère بشأن أبيها: «كان مزاجه الحسن يبدو لي مخيفًا بقدر نفاد صبره لأن لا شيء كان يفسّر لي ما الذي يمكن أن يحرّكه... كنت غير أكيدةٍ من تقلّبات مزاجه كما كنت لأكونه أمام نزوات إلهٍ، كنت أحيّيه بقلقٍ... كنت أرمي كلماتٍ كما لو كنت ألعب بالطرّة أم النقشة، =

إجلاسهم فوق ركبهم، وعن قبولهم في أسِرَّتهم: ويشعرون بشكلٍ قاسٍ أكثر فأكثر وعبر الكبت الجسدي بالتخلّي الذي لا يدركه الإنسان إلا قلقًا.

هنا تبدو الفتيات الصغيرات أولًا ذوات حظوةٍ. فطامٌ ثانٍ، أقل عنفًا، وأكثر بطءًا من الأول، ينزع جسد الأم من عناق الطفل؛ لكنّ يتمّ بشكلٍ خاصٍّ رفض قبلات الصبيان ومداعباتهم بالتدريج؛ بينما يُستمَرّ في تغنيج البنيّة، ويُسمَح لها بالعيش معلّقةً بتنّورة أمها، ويجلسها الأب على ركبتيه ويداعب شعرها؛ ويلبسونها أثوابًا رقيقةً كالقبلات، ويتساهلون أمام دموعها ونزواتها، ويسرّحون شعرها بعنايةٍ، ويسلّيهم مظهرها ودلالها: وتحميها ملامساتٌ جسديةٌ ونظراتٌ مجامِلةٌ من الشعور بالقلق من الوحدة. وعلى العكس، يُمنَع الصبي الصغير حتى من الغنج؛ وتزعجهم محاولاته للإغراء، ومهازله. ويقولون له: «لا يطلب الرجل أبدًا أن يقبّلوه... لا يتأمل الرجل نفسه في المرآة... الرجل لا يبكي». يريدون أن يكون «رجلًا صغيرًا»؛ إنه يحصل على رضى الكبار عندما يتحرّر منهم. وينال الإعجاب عندما لا يبدو عليه أنه يسعى إليه.

كثيرٌ من الصبيان، الخائفين من الاستقلال القاسي الذي يُفرض عليهم، يتمنّون عندها لو كانوا فتياتٍ؛ عندما كانوا في البداية يلبسونهم مثلهنّ، غالبًا ما كانوا يبكون عندما يستبدلون الثوب بالبنطال، وعندما يقصّون خصلات شعرهم. ويختار البعض الأنوثة بعنادٍ، وتلك إحدى أساليب التوجّه نحو المثلية الجنسية، ويروي **موريس ساكس**[4] Maurice Sachs ما يلي: «كنت أتمنى بحرارةٍ أن أكون فتاةً وبلغ عدم شعوري بعظمة أن أكون رجلًا حدّ أن أرغب بأن أتبوّل جالسًا». مع ذلك إذا بدا الصبي في البدء أقل حظوةً من شقيقاته، فلأن هناك مخططاتٍ أكبر مهيّأة له. وتمنحها المتطلّبات التي يفرضونها عليه على الفور قيمةً. ويروي **موريس** من ذكرياته أنه كان يغار من أخٍ أصغر كانت أمه وجدّته تدلّعانه: فأمسكه أبوه من يده واصطحبه خارج الغرفة، وقال له: «نحن رجالٌ، فلندع هاته النسوة». يقنعون

= متسائلةً كيف سيتلقّاها». وبعد قليلٍ تروي الطرفة التالية: «ذات يومٍ، بعد أن وبّخني، بدأت لازمتي: طاولة عجوز، فرشاة الأرض، فرن، حوض، زجاجة حليبٍ، مقلاة فخّار، إلخ.. سمعتني أمي وانفجرت ضاحكةً... بعد بضعة أيامٍ، حاولت استخدام لازمتي لاستلطاف أمي التي كانت قد وبّختني ثانيةً: لم ينجح الأمر هذه المرة. بدل أن أضحكها، تضاعفت صرامتها وجلبت لي عقابًا إضافيًا. أعتقد أنّ سلوك الكبار غير مفهومٍ بالفعل».

4- السبت. Le Sabbath

الطفل بأن المطلوب من الصبيان أكبر لأنهم أعلى مكانةً؛ لتشجيعه على السير في طريقه الصعبة، فيوحون إليه بالفخر بذكوريته؛ ويأخذ هذا المفهوم المجرّد بالنسبة إليه شكلًا محسوسًا يتجسّد في القضيب؛ إنه لا يشعر بصورةٍ عفويّةٍ بالفخر بعضوه الصغير المتراخي؛ لكنه يشعر به عبر سلوك محيطه. فالأمهات والمربيات يكرّسن التقليد الذي يماثل القضيب بفكرة الذكر: إن كنّ يعرفن منزلته إعجابًا أو خضوعًا، أو أنهنّ يشعرن بالثأر لرؤيته لدى الرضيع بصورةٍ مهينةٍ، فهنّ يعاملن القضيب الطفولي بمراعاةٍ خاصّةٍ. ويخبرنا رابليه Rablais بألعاب المربّيات وألفاظهنّ في غارغانتوا[5]، ويذكر التاريخ قصص مربيات **لويس الثالث عشر**. مع ذلك تطلق نساءٌ أكثر حشمةً اسمًا مداعبًا على عضو الطفل الصغير، ويحدثنه عنه كما لو كنّ يتحدّثن عن شخصٍ صغيرٍ هو نفسه وسواه في آنٍ معًا؛ ويصنعن منه، كما ذكرنا سابقًا، «أنا أخرى أكثر مكرًا عادةً، وأكثر ذكاءً، وأكثر حذقًا من الشخص»[6]. تشريحيًا، القضيب مناسبٌ تمامًا لتأدية هذه المهمّة؛ فهو منفصلٌ عن الجسد، ويبدو كلعبةٍ صغيرةٍ طبيعيةٍ، دميةً نوعًا ما. إذن نعطي للطفل قيمةً حين نعطي قيمةً لمُزدوجه. روى لي أبٌ أن أحد أبنائه كان ما يزال يتبوّل جالسًا في سنّ الثالثة؛ كان طفلًا خجولًا وحزينًا، محاطًا بشقيقاتٍ وبنات عمومةٍ: وذات يومٍ اصطحبه أبوه معه إلى المرحاض قائلًا له: «سأريك كيف يفعل الرجال». منذئذٍ أصبح الطفل الفخور بالتبوّل واقفًا يحتقر البنات «اللواتي يتبوّلن عبر ثقبٍ»؛ لم يكن احتقاره آتيًا في الأصل من أنه ينقصهنّ عضوٌ، ولكن لأنهنّ لم يتلقّين مثله تعليم الأب وتمييزه. وهكذا وعلى النقيض من كون القضيب امتيازًا فوريًا ينال الطفل منه شعورًا بالتفوق، يبدو إعطاءه قيمةً تعويضًا عن قسوة الفطام الأخير، اخترعه الكبار وقَبِله الطفل بحرارةٍ: بذلك يُبرّأ من تهمة الأسف على كونه لم يعد رضيعًا، وليس بنتًا. وسيتمثّل تفوّقه وسيادته المتغطرسة فيما بعد في عضوه[7].

مصير البنت مختلفٌ جدًا. فلا تقوم الأمهات والمربيات بأي لفتات تكريمٍ أو حنانٍ تجاه أعضائها التناسلية؛ ولا يلفتن نظرها إلى هذا العضو السرّيّ، الذي لا يظهر منه سوى غلافه

5- ...«وبدأ يلعب بفتحة بنطاله التي تزيّنها مربياته كل يومٍ بباقاتٍ حلوةٍ وشرائط جميلةٍ وزهورٍ بديعةٍ، ويمضين الوقت في تقليبه بين أيديهنّ، وتقهقهن ضاحكاتٍ كما لو أن اللعبة راقتهن. وكنّ يطلقن عليه أسماءً مداعبةً».

6- أ. بالنت A. Balint، «حياة الطفل الخاصة»، ص101.

7- انظر: الجنس الآخر، الجزء الأول، الفصل 2، ص68.

والذي لا يمكن إمساكه؛ وبمعنىً ما، ليس لديها عضوٌ. وهي لا تشعر بأن هذا الغياب نقصٌ؛ فجسدها بالطبع بالنسبة إليها كمالٌ؛ لكنها تجد أن موضعها في العالم مختلفٌ عن وضع الصبي؛ ويمكن لمجموعةٍ من العوامل أن تحوّل هذا الاختلاف في نظرها إلى شعورٍ بالدونيّة.

ناقش علماء النفس «عقدة الإخصاء» الأنثوية الشهيرة أكثر من غالبية المسائل الأخرى. ويقرّ معظمهم اليوم بأن الرغبة في القضيب تتجلّى حسب الحالات بأشكالٍ متنوعةٍ للغاية[8]. فهناك أولًا كثيرٌ من الفتيات اللواتي يجهلن حتى سنٍّ متقدمةٍ تشريح الذكر. ويقبل الطفل بشكلٍ طبيعيٍّ أن هناك رجالًا ونساءً كما هناك شمسٌ وقمرٌ: ويعتقد بوجود ذاتٍ ضمن الكلمات، ولا يكون فضوله تحليليًا في البدء. وبالنسبة لكثيرين، لا أهمّيّة لقطعة اللحم الصغيرة المتدلية بين ساقي الصبيان هذه وحتى أنها تبدو سخيفةً؛ إنها تميّزٌ مثل تميّز الملابس والتسريحة؛ وغالبًا ما تُكتَشَف لدى أخٍ صغيرٍ وليدٍ، وتقول هـ. دويتش H. Deutsch: «عندما تكون الفتاة صغيرةً جدًا لا يبهرها قضيب أخيها الصغير»؛ وتذكر مثال فتاةٍ عمرها 18 شهرًا ظلّت لا مبالية تمامًا لدى اكتشافها القضيب ولم تعطه أهميةً إلا بعد وقتٍ طويلٍ، قياسًا إلى اهتماماتها الشخصية. ويحدث حتى أن يُعتَبر القضيب تشوّهًا: فهو استطالةٌ، شيءٌ مبهمٌ يتدلى كالأكياس الدهنية، والحلمات، والثآليل؛ يمكن أن يثير الاشمئزاز. وأخيرًا هناك حالاتٌ كثيرةٌ تهتم فيها البنت بقضيب أخٍ أو رفيقٍ؛ لكن ذلك لا يعني أنها تشعر بغيرةٍ جنسيةٍ منه، ولا أنها تشعر انها مصابةٌ بغياب هذا العضو؛ إنها ترغب بامتلاكه كما ترغب بامتلاك أي غرضٍ؛ لكن هذه الرغبة قد تظلّ سطحيةً.

من الأكيد أن وظائف الإطراح وخصوصًا وظائف التبوّل تهمّ الأطفال بشدةٍ: فالتبوّل في الفراش هو غالبًا احتجاجٌ على تفضيل الأهل الواضح لطفلٍ آخر. هناك بلدانٌ يتبوّل فيها الرجال جالسين ويحدث أن تتبوّل النساء واقفاتٍ: وهذا ما يجري لدى الكثير من الفلاحين وسواهم؛ ولكن في المجتمع الغربي المعاصر، تفرض الأعراف عمومًا عليهنّ أن يقرفصن بينما تبقى وضعية الوقوف حصرًا على الذكور. هذا الاختلاف هو أكثر التمييز الجنسي

8- فيما عدا مؤلفات فرويد وآدلر، هناك كتبٌ كثيرةٌ حول هذا الموضوع. أبراهام كان أول من أطلق فكرة أن البنت تعتبر عضوها جرحًا ناجمًا عن إخصاءٍ. وقد درست كارن هورني، وجونز، وجان لامب دو غروت، ودوتش، وأ. بالنت الموضوع من وجهة نظر علم النفس. سوسور حاول أن يوافق التحليل النفسي مع أفكار بياجت ولوكيه. انظر أيضًا بولاك، *أفكار الأطفال حول اختلاف الجنسين*.

وضوحًا بالنسبة للفتاة. فهي مضطرةٌ لجلوس القرفصاء كي تتبوّل، وأن تخلع جزءًا من ملابسها، وأن تختبئ. إنها عبوديةٌ مهينةٌ وغير مريحةٍ. ويزداد الخجل في حالاتٍ كثيرةٍ حين ينتابها تبوّلٌ لا إراديٌّ، في حال نوبات الضحك الشديد مثلًا؛ فالصبيان يضبطون أنفسهم بشكلٍ أفضل منها. فالوظيفة البوليّة لديهم تبدو لعبةً حرّةً فيها نفس متعة كلّ الألعاب التي يمارسونها بحرّيّةٍ؛ يمكنهم تحريك القضيب، يمكنهم التصرّف به، وهو إحدى اهتمامات الطفل الأساسيّة. لقد صرّحت فتاةٌ صغيرةٌ لدى رؤيتها صبيًّا يتبوّل: «كم هذا مريحٌ!»[9] يمكن تحريك الرشق كما نشاء، ويُقذَف البول بعيدًا: وينتاب الصبيّ من ذلك شعورٌ بالقدرة التامّة. لقد تحدّث **فرويد** عن «التوق اللاهب للمدرّات القديمة»؛ وناقش **ستكل** Stekel هذه الجملة بوعي، لكن صحيحٌ كما تقول **كارن هورني**[10] أنّ «قذف البول لدى الذكر تواكبه تخيّلات قدرة كلّيّةٍ وخصوصًا طبعٌ ساديٌّ»؛ هذه التخيّلات التي تحدث لبعض الرجال[11] هي كبيرةٌ لدى الطفل. ويتحدث **أبراهام** Abraham عن «المتعة الكبيرة التي تشعر بها النساء عندما يروين الحديقة بالخرطوم»؛ أعتقد، موافقةً نظريات **سارتر** Sartre **وباشلار**[12] Bachelard، أنّ تمثّل الخرطوم بالقضيب[13] ليس بالضرورة مصدر هذه المتعة؛ فكلّ رشقٍ للماء يبدو معجزةً، تحديًا للجاذبيّة: توجيهه، والتحكّم فيه هو انتصارٌ صغيرٌ على قوانين الطبيعة؛ على كلّ حالٍ في ذلك بالنسبة للصبيّ الصغير تسليةٌ يوميّةٌ ممنوعةٌ على شقيقاته. عدا ذلك، يسمح له، في الريف خصوصًا، أن ينشئ عبر رشق البول علاقاتٍ متعدّدةً مع الأشياء: الماء والتراب والطحالب والثلج.. إلخ. هناك فتياتٌ صغيراتٌ يستلقين على ظهورهنّ لخوض هذه التجربة ويحاولن قذف البول «نحو الأعلى» أو يتمرّنّ على التبوّل وقوفًا. ويحسدن الصبي أيضًا حسب رأي **كارن هورني**، لأنه يُسمَح له بإظهار جسمه. قالت **كارن هورني**: «صاحت إحدى المريضات فجأةً، إثر رؤيتها لرجلٍ يتبوّل في الشارع: «لو كنت أستطيع طلب هديّةٍ من العناية الإلهيّة، لكانت أن أستطيع مرّةً واحدةً في حياتي أن أتبوّل كرجلٍ». ويبدو للبنات أنّ

9- ذكرتها أ. بالنت.

10- The genesis of castration complex in women. *International Journal of Psychanalyse* (1923- 1924).

11- Montherlant's "Les Chenilles", *June Solstice*.

12- انظر الجزء الأول، القسم الأول، الفصل الثاني.

13- مع ذلك فهو واضحٌ في بعض الحالات.

الصبيّ، باعتباره يملك الحقّ في لمس قضيبه، يستطيع أن يستخدمه كلعبةٍ بينما أعضاؤهنّ مُحرّمةٌ. تؤكّد الكثير من التحقيقات والبوح لدى الأطباء النفسانيين أن مجمل هذه العوامل يجعل العديدات منهنّ يرغبن في تملّك عضوٍ ذكريٍّ. ويذكر **هافلوك إليس**[14] Havelock Ellis هذه العبارات لسيّدةٍ يشير إليها باسم زينيا Zènia: «كان دائمًا بالنسبة لي مثيرًا جدًّا صوت نافورة ماءٍ، تخرج خصوصًا من خرطوم ريٍّ طويلٍ، يذكّرني بصوت رشق البول الذي كنت أراه في طفولتي لدى أخي وسواه». وتروي أخرى، السيدة ر. س أنها عندما كانت طفلةً كانت تحب كثيرًا أن تمسك بيديها قضيب رفيقٍ صغيرٍ؛ وذات يومٍ، أعطوها خرطوم سقايةٍ: «بدا لي الإمساك به لذيذًا كما لو كنت أمسك قضيبًا». وألحّت على فكرة أنّ القضيب لم يكن يمثّل لها أيّ معنىً جنسيٍّ؛ كانت تعرف فقط وظيفته البولية. والحالة الأكثر إثارةً للاهتمام هي حالة فلوري التي رواها **هافلوك إليس**[15] والتي أعاد تحليلها ستيكل Stekel فيما بعد. وسأعطي تقريرًا مفصّلًا عنها:

> **هي امرأةٌ ذكيّةٌ جدًا، فنانةٌ، نشيطةٌ، وطبيعيةٌ بيولوجيًا وغير شاذّةٍ. تروي أن الوظيفة البولية لعبت دورًا كبيرًا في طفولتها؛ كانت تلعب مع إخوتها بألعابٍ بوليةٍ وكانوا يبلّلون أيديهم دون أيّ اشمئزازٍ. «كانت أولى مفاهيم تفوّق الذكور لديّ مرتبطةً بالأعضاء البوليّة. كنت عاتبةً على الطبيعة لأنها حرمتني من عضوٍ مريحٍ وتزيينيٍّ بهذا القدر. لم يكن أيّ إبريق شايٍ مجرّدٍ من زلّومته ليشعر بالتعاسة بقدر ما كنت أشعر. لم يكن أحدٌ بحاجةٍ إلى تلقيني نظرية السيطرة والتفوّق الذكوري. فقد كان لدي برهانٌ ثابتٌ عليها أمام عينيّ». كانت هي نفسها تجد متعةً كبيرةً في التبوّل في الريف. لم يكن أيّ شيءٍ بالنسبة إليها يقارَن بصوت الرشق الساحر على الأوراق الميتة في إحدى زوايا الغابة وكانت تراقب كيف تمتصه. لكن ما كان يسحرها أكثر من سواه، كان أن تتبوّل في الماء. إنها متعةٌ يشعر بها كثيرٌ من الصبية الصغار وهناك رسومٌ صبيانيّةٌ وبذيئةٌ تُظهِر صبيانًا وهم يبولون في مستنقعاتٍ أو جداول. وتشكو فلوري من أن شكل بنطالها كان يمنعها من أن تقوم بالتجارب التي كانت تودّ ممارستها؛ وغالبًا ما كان يحلو لها خلال نزهاتٍ في الريف أن تحبس نفسها أطول وقتٍ ممكنٍ وفجأةً تبول واقفةً. «أذكر تمامًا الشعور الغريب والممنوع**

14- انظر هافلوك إليس Havelock Ellis، حورية البحر LÒndinisme.

15- هـ. إليس، دراساتٌ في علم نفس الجنس، ج 13.

بهذه المتعة وأيضًا دهشتي لأني استطعت قذف البول وأنا واقفةٌ». وبرأيها أن شكل الثياب الطفولية ذو أهمّيةٍ قصوى في نفسية المرأة عمومًا. «لم يكن مصدر الإزعاج الوحيد لي أن أضطرّ إلى حلّ بنطالي ثم أنخفض كيلا ألطّخه من الأمام، ولكن الوجه الخلفي الذي كان يجب سحبه والذي يكشف المؤخرة وهذا يفسّر لماذا يكون الحياء لدى كثيرٍ من النساء مقصورًا على الجزء الخلفي وليس الأمامي. أول تمييزٍ جنسيٍّ فُرِض عليّ، الاختلاف الكبير في الواقع، كان تبوّل الصبيان واقفين والبنات مقرفصاتٍ. وهكذا على الأرجح ارتبطت أقدم مشاعر الحياء لديّ بمؤخرتي أكثر منها بالعانة». اتّخذت كل هذه الانطباعات لدى فلوري أهمّيّةً قصوى لأن أباها كان يجلدها بالسوط غالبًا حتى يدميها وإحدى المربيات ضربتها على مؤخرتها لجعلها تتبوّل؛ كانت تجتاحها أحلامٌ وتخيّلاتٌ مازوشيّةٌ ترى نفسها فيها تُجلَد بالسوط من قِبَل معلّمةٍ تحت أنظار كلّ المدرسة متبوّلةً عندئذٍ رغمًا عنها، «وهي فكرةٌ كانت تمنحني شعورًا غريبًا حقًا بالمتعة». وحدث لها عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها، وتشعر بحاجةٍ ملحّةٍ للتبوّل، أن تبوّلت واقفةً في شارعٍ مقفرٍ. «بتحليل مشاعري، أعتقد أن الأمر الأكثر أهميةً كان الخجل من كوني واقفةً وطول المسافة التي كان على البول أن يسلكها بيني وبين الأرض. هذه المسافة هي التي جعلت من هذه القضية شيئًا هامًا ومضحكًا، حتى وإن كانت الثياب تغطيه. في الوضعية العادية، كان هناك عنصر حميميّةٍ. عندما كنت طفلةً، وحتى كبيرةً، لم يكن بإمكان رشق البول أن يجتاز مسارًا طويلًا ولكن في سن الخامسة عشرة كنت طويلة القامة وشعرت بالخجل لمجرّد التفكير بطول المسار. أنا واثقةٌ من أن السيدات اللواتي تحدّثت عنهنّ[16]، واللواتي كنّ يهربن خائفاتٍ من مبولة بورتسموث الحديثة، وجدوا غير لائقٍ البتّة لامرأةٍ أن تقف مباعدةً ساقيها، وترفع تنورتها وتصنع رشقًا طويلًا بهذا القدر تحتها». وكرّرت هذه التجربة في سنّ العشرين وكثيرًا بعد ذلك؛ كانت تشعر بمزيجٍ من الخجل واللذة الحسّيّة لمجرّد التفكير في أن أحدًا قد يفاجئها وأنه لن يكون بمقدورها التوقّف. «كان الرشق يبدو خارجًا منّي رغمًا عني ومع ذلك كان يمنحني لذّةً أكبر مما لو كنت أطلِقه بإرادتي[17]. هذا الإحساس الغريب بأنّ قوىً خفيّةً أخرجته منك وجعلتك تقوم بذلك هو متعةٌ أنثويّةٌ حصرًا وسحرٌ حاذقٌ. هناك سحرٌ حادٌّ في

16- إشارةٌ إلى مرحلةٍ روتها سابقًا: افتتحوا في بورتسموث مبولةً عموميةً للنساء تفرض وضعية الوقوف؛ وتُرى جميع الزبونات يخرجن فور دخولهنّ.

17- الكلام لفلوري.

الشعور بالسيل يخرج منك بإرادةٍ أقوى منك». فيما بعد، استفاضت فلوري في شرح شهوانيّةٍ مرتبطةٍ بالجَلْدِ ممزوجةٍ دائمًا باستحواذاتٍ بوليّةٍ.

هذه الحالة كبيرة الأهمّيّة لأنها توضح عدة عناصر من الخبرة الطفولية. لكنّ ظروفًا خاصّةً بالطبع هي التي تضفي عليها تلك الأهمّيّة الكبيرة. بالنسبة لفتياتٍ صغيراتٍ تلقّين تربيةً عاديّةً، تَميّزُ الذكر البولي شيءٌ ثانويٌّ للغاية لا يؤدي مباشرةً إلى شعورٍ بالدونية. والمحللون النفسانيون الذين يفترضون بعد **فرويد** أن اكتشاف القضيب وحده يكفي لإحداث صدمةٍ يجهلون تمامًا العقليّة الطفولية؛ فهي أقلّ عقلانيّةً بكثيرٍ مما يفترضون. إنها لا تضع تصنيفاتٍ حاسمةً ولا يزعجها التناقض. عندما تعلن الفتاة الصغيرة لدى رؤيتها لقضيبٍ: «كان لديّ مثله أيضًا» أو «سيكون لديّ مثله أيضًا»، أو حتى «لديّ مثله أيضًا»، فهذا ليس دفاعًا بسوء نيّةٍ؛ الوجود والغياب لا يستبعدان بعضهما؛ فالطفل ـ كما تثبت رسومه ـ يصدّق ما يراه بعينيه أقلّ بكثيرٍ مما يصدّق الأنماط ذات الدلالة التي رسّخها مرّةً وإلى الأبد: إنه يرسم غالبًا دون أن ينظر وفي كلّ الأحوال لا يجد في إدراكه الحسّيّ إلا ما يضعه فيه. ويذكر **سوسور**[18] Saussure، الذي يؤكّد تحديدًا على هذه النقطة، ملاحظة **لوكيه** Luquet شديدة الأهميّة هذه: «عندما يرسم الطفل خطًا مغلوطًا، فكأنه غير موجودٍ، لا يعود يراه البتّة، مأخوذًا نوعًا ما بالخط الجديد الذي يحلّ محلّه، ولا يهتم كذلك بالخطوط الموجودة عبثًا على ورقته». ويشكّل جسد الذكر شكلًا قويًا يفرض نفسه غالبًا على البنت؛ ولا تعود ترى جسدها ذاته حرفيًّا. ويذكر **سوسور** مثال فتاةٍ صغيرةٍ تبلغ الرابعة من العمر كانت تحاول التبوّل كصبيٍّ بين قضبان سورٍ وتقول أنها تريد «شيئًا صغيرًا طويلًا يسيل». وكانت تؤكّد في الوقت نفسه أنها تملك قضيبًا ولاتملكه، ما يتطابق مع فكرة «المشاركة» التي وصفها **بياجيه** Piaget لدى الأطفال. تظن الطفلة بطيب خاطرٍ أنّ كل الأطفال يولدون بقضيبٍ ولكن فيما بعد يقطع الأهل بعضًا منها ليصنعوا منه فتياتٍ؛ ترضي هذه الفكرة اصطناعيّة الطفل الذي يؤلّه أهله «معتبرًا إياهم سبب كلّ ما يملكه»، كما يقول **بياجيه**؛ فهو لا يرى أولًا أن الإخصاء عقابٌ. ولكي يأخذ شكل حرمانٍ لا بدّ من أن تكون البنت مستاءةً من وضعها لسببٍ أو لآخر؛ كما تلاحظ **هـ. دويتش** H. Deutsch بالتحديد، لا يستطيع حدثٌ خارجيٌّ كرؤية

18- المجلة الفرنسية للتحليل النفسي Psychogenèse et psychanalyse، عام 1933.

قضيبٍ أن يثير تطوّرًا داخليًّا، فتقول: «يمكن أن يكون لرؤية العضو الذكريّ تأثيرٌ صادمٌ، شرط أن تكون قد سبقته سلسلةٌ من الخبرات السابقة القادرة على إحداث هذا التأثير» إذا شعرت البنت الصغيرة أنها غير قادرة على إشباع رغباتها بالعادة السرّيّة أو إظهار جسدها، إذا كان والداها يقمعان استمناءها، وإذا كان لديها انطباعٌ بأنها محبوبةٌ أو محترمةٌ أقلّ من أشقائها، عندئذٍ ستعكس عدم اكتفائها على العضو الذكريّ «اكتشاف الفتاة الصغيرة للاختلاف التشريحي بينها وبين الصبيّ هو تأكيدٌ لحاجةٍ شعرت بها سابقًا، وعقلنةٌ لها إن صحّ القول»[19]. وألحّ آدلر Adler خصوصًا على أنّ إعطاء الأهل والمحيط قيمةً للصبي هو ما يمنحه منزلةً ويصبح القضيب تفسيرًا ورمزًا لذلك في عيني الطفلة. يُعتَبر أخوها أفضل؛ ويفخر هو نفسه بذكوريته؛ وبالتالي تحسده وتحس بنفسها مكبوتةً. وأحيانًا تلوم أمها على ذلك، وبصورةٍ أقلّ أباها؛ أو أنها تتّهم نفسها بأنها بترت جزءًا منها، أو تعزّي نفسها بالتفكير بأن القضيب مخبّأ في جسمها وأنه سيخرج ذات يومٍ.

من المؤكّد أن غياب القضيب يلعب دورًا هامًا في مصير الفتاة، حتى وإن كانت لا تحسد صاحبه جديًا. الامتياز الكبير الذي يناله الصبي من ذلك هو أنه، باعتباره يملك عضوًا يمكن إظهاره وإمساكه، يستطيع على الأقلّ أن يُختَزَل فيه. إنه يعكس خارجًا غموض جسده، وأخطاره، ما يسمح له بإبعادها: إنه يشعر بالتأكيد أنّ خطرًا يتهدّد قضيبه، ويخشى الإخصاء، لكن هذا خوفٌ يَسْهُل السيطرة عليه أكثر من القلق الشامل الذي تحسّ به الطفلة تجاه «داخلها»، قلق سيدوم غالبًا طيلة حياتها كامرأةٍ. إنها مهمومةٌ جدًا بما يدور داخلها، منذ البداية كانت ترى نفسها أقلّ وضوحًا بكثيرٍ وأكثر عرضةً لغموض الحياة المضطرب من الذكر. ولأن لدى الصبيّ الصغير أنا أخرى يجد نفسه فيها، فهو يستطيع بجرأةٍ أن يضطلع بذاتيّته؛ ويصبح الشيء الذي يُختَزَل فيه رمزًا للاستقلال والتفوّق والقوّة. ويقيس طول قضيبه؛ ويقارن مع رفاقه طول رشق البول؛ فيما بعد يصبح الانتصاب والقذف مصدر رضىً وتحدٍّ. في هذه الأثناء لا تستطيع الفتاة الصغيرة أن تتمثّل بأي جزءٍ منها. وكتعويضٍ يضعون بين يديها شيئًا غريبًا كي يلعب دور الأنا الأخرى بالنسبة لها: دميةً. يجب أن نذكر

19- انظر هـ. دويتش H. Deutsch علم نفس النساء. تذكر أيضًا تأثير ر. أبراهام R. Abraham و ج. هـ. وارم أوفنجسن J. H. Warm Ophingsen.

أنهم يسمّون أيضًا «دميةً» ذلك الضماد الذي يلفّونه حول إصبعٍ مجروحٍ: يُنظَر إلى الإصبع المكسوٌّ، المنفصل، بتسليةٍ ونوعٍ من الفخر، ويبدأ الطفل بشأنه بتشكيل عملية استلابٍ. لكنّ تمثالًا صغيرًا بوجهٍ بشريٍّ ـ أو بدلًا منه عرنوس ذرةٍ، أو حتى قطعةٌ من الخشب ـ يحلّ محلّ هذا الصّنو بأكثر الطرق مدعاةً للرضى، محلّ هذه اللعبة الطبيعية، التي هي القضيب.

الاختلاف الكبير هو أن الدمية تمثّل الجسد بكلّيّته من جهةٍ، وهي شيءٌ سلبيٌّ من جهةٍ أخرى. سيشجع ذلك البنت على أن تُستَلب بشخصها كاملًا وتعتبر الدمية مُعطىً خاملًا. وبينما يبحث الصبي عن نفسه في القضيب كشخصٍ مستقلٌ، تغنّج البنت دميتها وتزيّنها كما تحلم أن تُزَيّن وتُغَنّج؛ وبالعكس تفكّر أنها دميةٌ رائعةٌ[20]. وبين الثناء والتوبيخ، بين الصور والكلمات، تكتشف معنى كلمات «جميلة» و «قبيحة»؛ وتحاول أن تشبه صورةً، وتتنكّر، وتنظر إلى نفسها في المرايا، وتقارن نفسها بأميرات وجنّيّات الحكايا. لقد أعطتنا **ماري باشكيرتشف** Marie Bashkirtseff مثالًا صارخًا على هذا التأنّق الطفولي. حتمًا ليس وليد الصدفة، وقد فُطِمت بشكلٍ متأخّرٍ ـ كان عمرها ثلاث سنواتٍ ونصفًا ـ، أنها شعرت بعمر الرابعة أو الخامسة بحاجةٍ قويّةٍ لنيل الإعجاب، أن توجد بالنسبة للآخرين: لا بدّ أنّ الصدمة كانت قويّةً على طفلٍ أكثر نضجًا ولا بدّ أنها حاولت بشغفٍ أكبر أن تتغلّب على الافتراق الذي فُرِض عليها. وكتبت في مذكراتها: «في سنّ الخامسة، كنت أرتدي ملابس أمي المخرّمة، وأضع زهورًا في شعري وأذهب لأرقص في البهو. كنت الراقصة العظيمة «بتيبا» وكل المنزل كان ينظر إليّ...».

تظهر هذه النرجسية بصورةٍ مبكرةٍ للغاية لدى الطفلة، وستلعب في حياتها كامرأةٍ دورًا أساسيًا بحيث يعتبرونها نابعةً من غريزةٍ أنثويةٍ غامضةٍ. لكننا رأينا منذ قليلٍ أنّ ما يملي عليها سلوكها ليس في الحقيقة شكلها التشريحيّ المفروض عليها. فالاختلاف الذي يميّزها عن الصبيان هو أمرٌ كان بإمكانها الاضطلاع به بعدة طرقٍ. يمثّل القضيب بالتأكيد امتيازًا، لكن قيمته تنقص بالطبع عندما يفقد الطفل اهتمامه بوظائفه الإطراحية ويندمج بالمجتمع: وإذا ظلَّ محتفظًا بها بنظره، بعد عمر الثامنة أو التاسعة، فهذا يعني أنه أصبح

20- يستمر التماثل بين المرأة والدمية في سن البلوغ، بالفرنسية تسمّى المرأة بابتذالٍ دميةً، وبالإنجليزية، يقال عن امرأةٍ متزيّنةٍ أنها «Dolled up» أي دمية.

رمز ذكوريّةٍ يقدّرها المجتمع. تأثير التربية والمحيط هنا هائلٌ في الحقيقة. يحاول جميع الأطفال معاوضة افتراق الفطام بسلوكيات إغواءٍ واستعراضٍ، ويُرغَم الصبي على تجاوز هذه المرحلة، يُحَرَّر من نرجسيّته بتركيزه على قضيبه؛ بينما يؤكّدون ميل الفتاة إلى أن تكون شيئًا، وهو أمرٌ شائعٌ لدى جميع الأطفال. تساعدها الدمية في ذلك، لكنها لا تملك هي الأخرى دورًا محدّدًا؛ يمكن للصبيّ أيضًا أن يتعلّق بدبٍّ، بمهرّجٍ يتمثّل به؛ وبالشكل العام لحياتهما يكون لكل عاملٍ دوره: القضيب، والدمية.

وهكذا، فالسلبية التي ستحدّد أساسًا مواصفات المرأة «الأنثى» هي مسارٌ يتطوّر لديها منذ سنواتها الأولى. لكن من الخطأ أن ندّعي أن ذلك معطىً بيولوجيٌّ؛ في الحقيقة، إنه مصيرٌ فرضه عليها مُربّوها والمجتمع. حظّ الصبيّ الهائل، هو أنّ طريقته في الوجود من أجل الغير تشجّعه على أن يكون لذاته. ويتعلّم أن يعيش منطلقًا نحو العالم، ويتنافس بالصلابة والاستقلال مع الصبيان الآخرين، ويحتقر البنات. وبتسلّقه الأشجار، وعراكه مع الرفاق، مواجهًا إياهم بألعابٍ عنيفةٍ، يرى جسده وسيلةً للسيطرة على الطبيعة وأداة قتالٍ؛ ويفخر بعضلاته كما بعضوه؛ وعبر الألعاب، والرياضة، والمصارعة، والتحدّيات، والمحن، يجد استعمالًا متوازنًا لقواه؛ وفي الوقت نفسه، يتعلّم دروس العنف القاسية؛ وكيف يمتصّ الضربات، ويحتقر الألم، ويرفض دموع الطفولة. إنه يباشر، ويبتكر، ويجرؤ. إنه يمتحن نفسه بالتأكيد أيضًا «من أجل الغير»، فيطرح ذكوريته على بساط البحث وينتج عن ذلك مشاكلُ عدّةٌ بالنسبة للكبار وللرفاق. لكن ما هو شديد الأهمّيّة، هو أنه لا يوجد هناك تعارضٌ أساسٌ بين اهتمامه بهذه الصورة الموضوعية التي هي صورته وبين رغبته بتأكيد نفسه في مشاريع ملموسةٍ. إنه يكون بالعمل، بحركةٍ واحدةٍ. وعلى العكس لدى المرأة، هناك في البدء صراعٌ بين وجودها المستقلّ وبين «كونها آخر»؛ يعلّمونها أنها كي تنال الإعجاب يجب أن تحاول أن تناله، يجب أن تجعل من نفسها شيئًا؛ عليها بالتالي التخلّي عن استقلاليتها. وتُعامَل كدميةٍ حيّةٍ ويرفضون منحها حرّيّتها؛ وهكذا تنشأ دارةٌ معيبةٌ؛ لأنها كلما مارست بصورةٍ أقلّ حرّيتها كي تفهم وتدرك وتكتشف العالم المحيط بها، كلما وجدت فيه مصادر أقلّ، وكلما جرؤت بصورةٍ أقلّ على تأكيد نفسها كذاتٍ؛ ولو شجعوها على ذلك لكان بإمكانها إظهار نفس حيوية الصبي ونشاطه، وفضوله، وروح المبادرة لديه، وجرأته. هذا ما يحدث

أحيانًا عندما تُعطى تأهيلًا ذكوريًا؛ تتفادى عندئذٍ العديد من المشاكل[21]. من المهمّ أن نشير إلى أن ذلك هو نوع التربية التي يمنحها الأب طوعًا لابنته؛ فالنساء اللواتي تربّين على يدي رجلٍ يتفادين قسمًا كبيرًا من عيوب الأنوثة. لكنّ الأعراف تعارض أن تُعامَل الفتيات مثل الصبيان تمامًا. رأيت في إحدى القرى بناتٍ في سنّ الثالثة والرابعة ألبسهنّ أبوهنّ سراويل؛ كان جميع الأطفال يلاحقوهنّ: «أنتنّ بناتٌ أم صبيانٌ؟» وكانوا يحاولون التحقّق من ذلك؛ بحيث أنّهنّ توسّلن كي يُلْبَسن أثوابًا. وحتى لو سمح الأهل بأساليب صبيانيّةٍ، فإن ذلك سيصدم محيط الفتاة الصغيرة وصديقاتها وأساتذتها، إلا إن عاشت في عزلةٍ. ستكون هناك دومًا خالاتٌ وجدّاتٌ وبنات عمومةٍ يعاكسن تأثير الأب. ويكون دوره عادةً تجاه بناته ثانويًا. إنّ إحدى اللعنات التي تثقل على المرأة ـ أشار إلى ذلك **ميشليه** Michelet ـ هي أنها تُركَت في طفولتها بين أيدي النساء. الصبي أيضًا تربّيه أمه في البدء؛ لكنها تحترم ذكوريته ويُفلِت منها سريعًا[22]؛ بينما تنوي دمج البنت في العالم الأنثوي.

وسنرى فيما بعد كم هي معقّدةٌ علاقة الأم بالبنت: فالبنت بالنسبة للأم نسخةٌ منها وواحدةٌ أخرى في الوقت نفسه، والأم تغنّجها بتسلّطٍ وتعاديها في آنٍ معًا؛ وتفرض على الطفلة مصيرها ذاته: إنها طريقةٌ لتطالب بأنوثتها بفخرٍ، وطريقةٌ أيضًا لتنتقم من هذه الأنوثة. ونجد نفس العمليّة لدى اللوطيّين ولاعبي القمار، ومدمني المخدّرات، ولدى كل هؤلاء الذين يتباهون بالانتماء إلى أخويّةٍ ما ويخجلون بها: يحاولون بالتبشير المتحمّس أن يكسبوا أنصارًا. وهكذا، عندما يُعهَد بطفلةٍ إلى النساء، ينهمكن في حماسٍ تختلط فيه الكبرياء بالحقد، في تحويلها إلى امرأةٍ شبيهةٍ بهنّ. حتى أيّ أمٍ كريمةٍ تبحث بصدقٍ عن خير ابنتها ستظن كالمعتاد أنه من الأكثر حذرًا أن تصنع منها «امرأةً حقيقيةً» بما أن المجتمع سيستقبلها بسهولةٍ أكثر بهذا الشكل. بالتالي يقدمون لها بناتٍ صغيراتٍ أخرياتٍ كصديقاتٍ، ونساءٍ كمدرّساتٍ، وتعيش بين سيّداتٍ كما في زمن ربّات الخدور، ويختارون لها الكتب والألعاب التي تؤهّلها لمصيرها، وتُلقى على مسامعها كنوز الحكمة النسويّة، وتُعرض عليها فضائل أنثويّةٌ، فيعلّمونها الطهي والخياطة وأعمال البيت وفي الوقت نفسه التزيّن

21- على الأقل في طفولتها الباكرة. في وضع المجتمع الحالي، يمكن لأزمات المراهقة على العكس أن تتفاقم.

22- هناك طبعًا استثناءاتٌ عديدةٌ: لكن لا يمكن هنا دراسة دور الأم في تشكيل الصبي.

والسحر والحياء؛ ويلبسونها ثيابًا غاليةً غير مريحةٍ يجب أن تعتني بها، ويسرّحون شعرها بطريقةٍ معقّدةٍ، ويفرضون عليها قواعد الحركة: ابقي مستقيمةً، لا تمشي كالبطة، ولكي تكون أنيقةً عليها كبت حركاتها التلقائية، ويُطلبُ منها ألا تسلك مسلكًا صبيانيًا، وتُمنَع من أداء التمارين العنيفة، ومن العراك: بالاختصار يرهنونها لتصبح، كسابقاتها، خادمةً ومعبودةً. اليوم، بفضل انتصارات الحركة النسويّة، أصبح عاديًا أكثر فأكثر تشجيعها على الدراسة، وممارسة الرياضة؛ لكنهم يسامحونها أكثر من الشاب إن لم تنجح فيهما؛ ويجعلون النجاح صعبًا عليها مطالبين إيّاها بإنجازاتٍ أخرى: على الأقل يريدون منها أن تكون امرأةً أيضًا، وألا تفقد أنوثتها.

وتستكين لهذا المصير في السنوات الأولى دون صعوبةٍ. يتحرّك الطفل على صعيد اللعب والحلم، يلعب بأن يكون وأن يفعل؛ الفعل والكون لا يتميّزان بشكلٍ واضحٍ عندما لا يكون الأمر سوى إنجازٍ خياليٍّ. تستطيع الفتاة تعويض التفوّق الحالي للصبيان بالوعود التي يتضمّنها مصيرها كامرأةٍ والتي تحققها بألعابها. وبما أنها لا تعرف سوى عالمها الطفولي، تبدو لها أمها أولًا مزوّدةً بسلطةٍ أكثر من الأب؛ وتتخيّل العالم كنوع من نظامٍ أموميٍّ؛ فتقلّد أمها، وتتماهى فيها؛ وغالبًا حتى ما تقلب الأدوار فتقول لها بطيب خاطرٍ: «عندما سأصبح كبيرةً وتصبحين صغيرةً...» والدمية ليست فقط نسخةً عنها: إنها أيضًا طفلها، وظائفُ تتنافى بقدر ما الطفل الحقيقيّ هو أيضًا بالنسبة للأم «أنا أخرى»؛ عندما توبّخ وتعاقب دميتها، ثم تواسيها، فهي تدافع عن نفسها تجاه أمها وتكتسب هي نفسها مهابة الأم: إنها تختصر الزوجين، وتبوح لدميتها بأسرارها، وتعلّمها، وتؤكّد عليها سيطرتها، حتى أنها تقتلع ذراعيها أحيانًا، وتضربها، وتعذّبها: أي أنها تنجز عبرها تجربة التأكيد الذاتي والاستلاب. غالبًا ما تُضمُّ الأم إلى هذه الحياة الخيالية: فالطفلة تلعب دور الأب مع الدمية ودور الأم مع أمها، إنهما زوجان أُقصي الرجل عنهما. وهناك أيضًا لا توجد أيّ «غريزةٍ أموميّةٍ» فطريّةٍ وغامضةٍ. تلاحظ الفتاة الصغيرة أنّ العناية بالأطفال تعود إلى الأم، ويعلّمونها ذلك؛ إذ تسمع قصصًا وتقرأ كتبًا وكلّ تجربتها الصغيرة تؤكّد ذلك؛ وتُشَجَّع على الانبهار بهذه الكنوز المستقبليّة، وتُعطى دمىً كي تأخذ منذ الآن طابعًا ملموسًا. وتُلَقَّن «موهبتَها» بتسلّطٍ. وبما أنّ الطفل يبدو لها جائزةً، وبما أنّها كذلك تهتمّ «بداخلها» أكثر من الصبي، تكون الطفلة الصغيرة فضوليّةً

بشكلٍ خاصٍّ لسرّ الإنجاب؛ فتكفّ بسرعةٍ عن الاعتقاد بأن الأطفال يولدون في الملفوف أو تأتي بهم طيور اللقلق؛ خصوصًا عندما تنجب الأم إخوةً أو أخواتٍ لها، فتتعلّم بسرعةٍ أنّ الأطفال يتشكّلون في بطن الأم. فضلًا عن ذلك فآباء اليوم لم يعودوا يجعلون من الأمر سرًّا كما كان يفعل الآباء في الماضي؛ ويسحرها هذا الأمر أكثر مما يخيفها لأن الظاهرة تبدو لها كالسحر؛ وهي لا تدرك بعد كلّ مضمونها الفيزيولوجي. إنها تجهل أولًا دور الأب وتفترض أن الأم تصبح حاملًا إذا أكلت بعض أنواع الأطعمة، وهي خرافةٌ قديمةٌ (نجد في الروايات ملكاتٍ يلدن فتاةً صغيرةً أو صبيًّا جميلًا بعد أن يأكلن فاكهةً ما، أو نوعًا من الأسماك) ما يُحدِث لدى بعض النساء فيما بعد صلةً بين فكرة الحمل والجهاز الهضمي. يحتلّ مجموع هذه المشاكل وهذه الاكتشافات قسمًا كبيرًا من اهتمامات الطفلة ويغذّي خيالها. سأذكر مثالاً نموذجيًّا ذكره جونغ[23] Jung ويبدي تطابقًا يلفت النظر مع مثال هانس الصغير الذي حلّله فرويد في نفس الحقبة تقريبًا:

بدأت آنّا في حوالي سنّ الثالثة تسأل أبويها عن مصدر الأطفال؛ بعد أن سمعت ما يقال عن أنهم «ملائكةٌ صغارٌ»، بدا أولًا أنها تتصوّر أنّ الناس عندما يموتون، يذهبون إلى السماء ويعودون متقمّصين شكل رُضّعٍ. في سنّ الرابعة أصبح لديها أخٌ صغيرٌ؛ لم يبدُ أنها لاحظت حمل أمها لكنها لمّا رأتها مستلقيةً بعد الولادة، نظرت إليها بانزعاجٍ وريبةٍ وسألتها أخيرًا: «ألن تموتي؟» وأرسلوها لبعض الوقت لعند جدّتها؛ ولدى عودتها، كانت هناك ممرّضة قرب السرير؛ كرهتها أولًا ثم تسلّت بلعب دور الممرّضة؛ وغارت من أخيها: فكانت تضحك هازئةً، وتروي لنفسها حكاياتٍ، وترفض الأوامر، وتهدّد بالذهاب من جديدٍ لعند جدّتها؛ وغالبًا ما كانت تتّهم أمها بعدم قول الحقيقة، لأنها كانت تشكّ بأنها كذبت بشأن ولادة الطفل؛ شاعرةً بشكلٍ مبهمٍ أن هناك فرقًا بين «حصول» المربية أو الأم على طفلٍ، كانت تسأل أمها: «هل سأصبح امرأةً مثلك؟» واعتادت أن تنادي أبويها ليلًا بصراخٍ عالٍ؛ وبما أنّهم كانوا يتحدّثون كثيرًا عن زلزال «مسّينا»، تذرّعت به لتبرير مخاوفها؛ وكانت تطرح أسئلةً حول هذا الموضوع دون توقّفٍ. ذات يومٍ سألت بغتةً: «لماذا صوفي أصغر مني؟ أين كان فريتز قبل أن يولد؟ هل كان في السماء؟ ماذا كان يفعل هناك؟ لماذا نزل منها الآن فقط؟» وأخيرًا شرحت لها أمها أن الأخ الصغير نما في بطنها كما تنمو النباتات في الأرض.

23- جونغ Jung، صراعات الروح الطفوليّة.

وبدت آنّا مسحورة بهذه الفكرة. ثم سألت: «هل خرج لوحده؟ - أجل، - ولكن كيف بما أنه لا يمشي؟ - خرج زاحفًا، - إذًا هل هناك فتحةٌ؟ (وأشارت إلى صدرها)، أو أنه خرج من الفم؟»، ودون انتظار الردّ، أعلنت أنها تعرف جيّدًا أنّ اللقلق هو الذي أحضره؛ ولكن في المساء، قالت فجأةً: «أخي[24] في إيطاليا؛ لديه بيتٌ من قماشٍ وزجاجٍ لا يمكن أن ينهار»؛ وكفّت عن الاهتمام بالزلزال وعن المطالبة برؤية صورٍ عن الاندفاع. كانت ما تزال تحدّث دماها عن اللقلق ولكن دون قناعةٍ. مع ذلك سرعان ما استرعت فضولها أشياء جديدةٌ. فقالت بعد أن رأت أباها في السرير: «لماذا أنت في السرير؟ هل لديك أنت أيضًا نبتةٌ في البطن؟»، وروت حلمًا؛ حلمت بطوف نوح: «وكان هناك تحته غطاءٌ انفتح وسقطت من هذه الفتحة كل الحيوانات الصغيرة»؛ في الواقع، كان طوف نوح يُفتح من السقف. وفي ذلك الحين انتابتها كوابيس من جديدٍ: كان واضحًا أنها تتساءل عن دور الأب. وأتت سيّدةٌ حبلى لتزور أمها، ورأت الأم آنّا في اليوم التالي تضع دميةً تحت تنّورتها وتسحبها ببطءٍ، ورأسها للأسفل، قائلةً: «أترين، ها هو الطفل الصغير يخرج، لقد أصبح تمامًا تقريبًا في الخارج». وبعد فترةٍ، قالت وهي تأكل برتقالةً: «أريد أن أبتلعها وأجعلها تنزل إلى الأسفل، إلى آخر بطني، عندئذٍ سأحصل على طفلٍ». وذات صباحٍ كان والدها في المرحاض، فقفزت فوق سريره، واستلقت على بطنها وراحت تهزّ ساقيها قائلةً: «أليس هذا ما يفعله بابا؟» وخلال خمسة شهورٍ، بدا أنها تخلّت عن ما يشغلها ثم بدأت تبدي ريبةً تجاه الأب: واعتقدت أنه أراد إغراقها، إلخ.. وذات يوم كانت تتسلّى بطمر بذورٍ في التراب تحت رقابة البستانيّ، فسألت والدها: «هل زُرِعت العينان في الرأس؟ والشعر؟» وشرح لها أبوها أنها كانت أصلًا مبذورةً في جسد الطفل قبل أن ينمو. عندئذٍ سألت: «ولكن كيف دخل فريتز الصغير داخل أمي؟ من الذي زرعه في جسمها؟ وأنت، من زرعك داخل أمك؟ ومن أين خرج فريتز الصغير؟» فقال والدها باسمًا: «ماذا تعتقدين عن ذلك؟» عندئذٍ أشارت إلى أعضائها التناسليّة: «هل خرج من هناك؟ - أجل، - ولكن كيف دخل إلى بطن أمي؟ هل بذروا فيها بذورًا؟» عندئذٍ شرح لها والدها أن الأب هو الذي يعطي البذار. وبدت راضيةً تمامًا وفي اليوم التالي قالت ممازحةً أمها: «روى لي بابا أن فريتز كان ملاكًا صغيرًا وأن اللقلق أحضره». وبدت أكثر هدوءًا بكثيرٍ من ذي قبل؛ مع ذلك حلمت بأنها ترى بستانيين يبولون وبينهم أبوها؛ وحلمت أيضًا، بعد أن رأت البستاني يصقل دُرْجًا، أنه كان يصقل أعضاءها التناسليّة؛ كانت بالطبع

24- تتحدث عن أخٍ كبيرٍ وهميٍّ كان يحتلّ دورًا كبيرًا في ألعابها.

مهمومةً بمعرفة دور الأب الصحيح. ويبدو أنها، بعد أن اكتملت معلوماتها تقريبًا في سنّ الخامسة، لم تعد تشعر بأي اضطرابٍ فيما بعد.

القصّة وصفيّةٌ، رغم أنّ الطفلة غالبًا ما تتساءل عن دور الأب بشكلٍ أقلّ تحديدًا أو أنّ الأهل يتفادون الحديث عن هذا الموضوع. كثيرٌ من الفتيات يخفين وسائد تحت وزرتهنّ ليلعبن دور الحامل، أو أنهنّ ينزّهن الدمية في طيّات التنّورة ويدعنها تسقط في المهد، ويرضعنها. ويُعجَب الصبيان كالبنات بغموض الأمومة؛ لجميع الأطفال خيالٌ «عميقٌ» يجعلهم يحسّون داخل الأشياء بكنوزٍ سرّيّةٍ؛ يتأثّرون جميعًا بمعجزة التداخل، دمىً تخبئ داخلها دمىً أخرى أصغر منها، علبٌ تحتوي على علبٍ أخرى، تصاوير تُنسَخ داخلها بشكلٍ أصغر؛ الكل يُدهشون عندما يُفتَح برعمٌ أمام أعينهم، عندما يرون صوصًا ضمن قشرة البيضة أو عندما تحدث في وعاء ماءٍ مفاجأة «الزهور اليابانية». لقد صاح طفلٌ صغيرٌ، مسحورًا، عندما فتح بيضة فصحٍ مليئةً ببيوضٍ صغيرةٍ من السكّر: «أوه! إنها أمٌّ!». إخراج طفلٍ من البطن هو أمرٌ جميلٌ كألعاب الخفّة. وتبدو الأم مزوّدةً بقدرة الجنّيّات العجيبة. ويأسف كثيرٌ من الصبيان لأنّهم لم يحظوا بمثل هذا الامتياز؛ وإذا أخرجوا البيض من العشّ فيما بعد، وداسوا النباتات الصغيرة، وخرّبوا الحياة حولهم بنوعٍ من الغضب الشديد، فذلك لأنهم ينتقمون لكونهم غير قادرين على جعلها تتفتّح؛ بينما تفرح الفتاة الصغيرة بأن تخلقها ذات يومٍ.

عدا هذا الأمل الذي تجسّده لعبة الدمية، تمنح حياة المنزل البنت أيضًا إمكانية تأكيد الذات. قسمٌ كبيرٌ من العمل المنزلي يمكن لطفلٍ صغيرٍ جدًا القيام به؛ ويُعفى منه الصبيّ عادةً؛ ولكن يُسمَح لأخته، بل ويُطلَب منها أن تكنس وتمسح الغبار وتقشّر الخضار، وتنظّف رضيعًا، وتراقب القدر على النار. وبصورةٍ خاصّةٍ تساعد البنت الكبرى أمها في أعمالها؛ وترمي عليها الأم عددًا كبيرًا من مهامّها إما لتستريح أو بعدائيّةٍ وساديّةٍ؛ وبذلك تُدمَج باكرًا في عالم الأمور الجادّة؛ ويساعدها إدراك أهمّيّتها على تأكيد أنوثتها؛ لكنّها تُحرَم من السطحية المبهجة ومن اللامبالاة الطفولية؛ وتعرف باكرًا جدًا الحدود التي تفرضها هذه الخصوصية على الإنسان كونها أصبحت امرأةً قبل الأوان؛ وتبلغ المراهقةَ راشدةً، ما يضفي على تاريخها صفةً مميّزةً. يمكن للطفلة المثقلة بالمهام أن تصبح عبدةً بصورةٍ مبكرةٍ، محكومةً بحياةٍ دون بهجةٍ. ولكن حتى وإن لم يُطلَب منها سوى جهدٍ يوازي طاقتها، فهي تشعر

بالفخر لإحساسها بأنها فعّالةٌ كشخصٍ كبيرٍ وتبتهج لأنها تتعاون مع الكبار. هذا التعاون ممكنٌ لأنه ليست هناك مسافةٌ بعيدةٌ بين الطفلة وربّة المنزل. بينما تفصل الرجل المختصّ في مهنته عن المرحلة الطفولية سنواتٌ من التدريب؛ وأعمال الأب شديدة الغموض بالنسبة للصبيّ الصغير؛ فالرجل الذي سيكونه في المستقبل يبدأ بالكاد في التكوّن داخله. وعلى العكس، تستطيع الفتاة ممارسة أعمال الأم؛ ويقول أهلها: «لقد أصبحت امرأةً صغيرةً»، ويرون أحيانًا أنها نضجت قبل الصبيّ: في الحقيقة إن كانت أقرب منه إلى مرحلة الرشد فذلك لأن هذه المرحلة تبقى تقليديًا أكثر طفوليةً لدى معظم النساء. الأمر أنها تشعر أنها نضجت، وأنهم يمتدحونها لأنها تلعب دور «أمٍّ صغيرةٍ» تجاه أصغر الأطفال؛ وتصبح مهمّةً بطيب خاطرٍ، وتتكلّم بمنطقٍ، وتعطي أوامر، وتتّخذ موقعًا متفوّقًا على أشقّائها المحتجزين في حلقة الطفولة، وتتحدّث إلى أمها على قدم المساواة.

رغم هذه التعويضات، فهي لا تقبل المصير المحدّد لها دون أسفٍ؛ فعندما تكبر تحسد الصبيان على ذكوريّتهم. ويحدث أنّ الأبوين والجدّين لا يفلحون في إخفاء أنهم كانوا ليفضّلون ولدًا ذكرًا بدل الأنثى؛ أو يبدون عطفًا أكبر للأخ بدلًا من الأخت: كما أظهرت تحقيقاتٌ أنّ معظم الأهل يتمنون إنجاب أبناءٍ بدل البنات. وهم يتحدّثون إلى الصبيان بجدّيّةٍ أكثر، واحترامٍ أكثر، ويُمنَح الصبيان حقوقًا أكثر؛ ويعاملون البنات باحتقارٍ، ويلعبون مع بعضهم، ولا يقبلون البنات في مجموعتهم، ويشتمونهنّ: ويسمّونهنّ «متبوّلاتٍ» وغير ذلك، مُذكين بهذه الكلمات إذلال البنات السرّي الطفولي. في فرنسا، في المدارس المختلطة، تضطهد مجموعةُ الصبيان مجموعةَ البنات عمدًا وتضايقها. مع ذلك، إذا أرادت هذه الأخيرات الدخول في منافسةٍ معهم، والتعارك معهم، يتعرّضن للتوبيخ. ويَحسُدن بشكلٍ مضاعفٍ الأنشطة التي يتفرّد بها الصبيان: فلديهنّ رغبةٌ تلقائيّةٌ بتأكيد قدراتهنّ في العالم وهنّ يحتججن ضد الوضع الأدنى الذي يوضعن فيه. ويعانين من منعهنّ من أشياء كثيرةٍ بينها تسلّق الأشجار والسلالم والأسطحة. ويلاحظ آدلر أن لمفاهيم «فوق وتحت» أهمّيّةً كبيرةً، فكرة إعلاء المكانة تتطلّب تفوّقًا روحيًّا، كما نرى ضمن العديد من الخرافات البطوليّة؛ فبلوغ الذروة، أو القمّة، يعني الظهور أمام العالم المحيط كشخصٍ ذي سيادةٍ؛ وهو موضوع تحدٍّ شائعٍ بين الصبيان. أما الفتاة التي تُمنَع من الاشتراك بهذه المآثر، والتي

تقبع أسفل شجرةٍ تنظر إلى الصبيان المنتصرين في الأعلى، فهذا يجعلها تشعر بالدونيّة جسدًا وروحًا. وكذلك إذا بقيت في المؤخّرة ضمن سباقٍ أو مباراةٍ للقفز، أو إذا أُلقِيت أرضًا أثناء عراكٍ أو إذا استُبعِدت بكلّ بساطةٍ.

وكلما نضج الطفل، كلّما ازداد عالمه اتّساعًا، وازداد رسوخ الفوقيّة الذكوريّة. وغالبًا ما لا يعود التماهي مع الأم يشكّل حلًا مُرضيًا؛ وإذا كانت الفتاة تقبل في البداية موهبتها الأنثويّة، فهذا لا يعني أنها تنوي التخلّي عن حقوقها: ولكن لأنها تريد بالعكس أن تسود؛ تريد أن تكون سيّدةً لأن مجتمع السيّدات يبدو لها ذا امتيازاتٍ؛ ولكن عندما تنتزعها صداقاتها ودروسها وألعابها من دائرة الأم، تفهم أن الرجال وليس النساء هم سادة العالم. وهذا الاكتشاف هو الذي يغيّر إدراكها لنفسها، أكثر من اكتشاف القضيب.

وتنكشف تراتبيّة الجنسين لها أولًا عبر التجربة العائلية؛ تفهم شيئًا فشيئًا أنه إذا لم تكن سلطة الأب واضحةً في الحياة اليومية، فهي السائدة؛ إنها تزداد تألّقًا لأنها مستمرّةٌ؛ حتى وإن كانت الأم هي التي تسود كربّةٍ للمنزل، فهي عادةً لبقةٌ بحيث تضع إرادة الأب في المقدمة؛ في اللحظات الهامّة، فتطلب وتكافئ وتعاقب باسمه ومن خلاله. وتُحاط حياة الأب بإجلالٍ غامضٍ: فالساعات التي يقضيها في البيت، والغرفة التي يعمل فيها، والأشياء التي تحيط به، وأعماله، وعاداته، تتّخذ طابع المقدّس. إنه هو من يعيل الأسرة، وهو المسؤول عنها والقائد. وهو يعمل في الخارج عادةً ومن خلاله يتّصل المنزل ببقية العالم: إنه يمثّل هذا العالم المغامر الفسيح الصعب والرائع؛ إنه التسامي، إنه إله[25]. هذا ما تشعر به الطفلة جسديًا في قوّة الذراعين اللتين ترفعانها، وقوّة هذا الجسد الذي تلوذ به. إنه ينتزع الأم من عرشها كما انتزع رع إيزيس في الماضي وكما انتزعت الشمس الأرض. لكن وضع الطفلة يتغيّر بذلك كثيرًا: لقد كانت مؤهّلةً لتصبح ذات يومٍ امرأةً شبيهةً بأمها القويّة ـ ولن تكون أبدًا الأب السيّد؛ فالرباط الذي يشدّها لأمها كان منافَسةً نشيطةً ـ ولا يمكنها أن تتوقّع مستكينةً من الأب سوى إعطاءها قيمةً. ويدرك الصبي الفوقيّة الأبوية من خلال شعورٍ بالمنافسة: بينما تخضع لها الفتاة بإعجابٍ عاجزٍ.

25- قالت السيدة دونواي de Noqilles متحدّثةً عن أبيها: «كان شخصه الكريم يوحي إليّ بحبٍّ كبيرٍ وخوفٍ هائلٍ... في البدء كان يدهشني. الرجل الأول يدهش فتاةً صغيرةً. كنت أشعر أن كلّ شيءٍ يتعلّق به».

قلتُ سابقًا أنّ ما يسمّيه فرويد «عقدة إلكترا» ليس رغبةً جنسيّةً كما يدّعي؛ إنها تنازلٌ عميقٌ من الشخص الذي يوافق على أن يجعل من نفسه شيئًا عبر الخضوع والعبادة. إذا أظهر الأب لابنته بعض الحنان، تشعر أنّ هناك مبرّرًا رائعًا لوجودها؛ فهي مزوَّدةٌ بكل المزايا التي يكتسبها الآخرون بصعوبةٍ؛ إنها راضيةٌ ومُبجَّلَةٌ. وربما تقضي حياتها باحثةً بشيءٍ من الحنين عن هذا الإشباع وهذا السلام. إذا لم تُمنَح هذا الحب، قد تشعر للأبد أنها مُذنبةٌ ومدانةٌ؛ أو يمكنها أن تبحث في مكانٍ آخر عن قيمةٍ لنفسها وتصبح لا مباليةً بأبيها أو حتى معاديةً له. فضلًا عن أنّ الأب ليس الوحيد الذي يملك مفاتيح الكون: يتشارك كلّ الرجال عادةً بالمكانة الذكورية؛ ولا داعي لاعتبارهم «بدائل» عن الأب. فورًا يسحر الجدود والإخوة الأكبر والأعمام وآباء الرفاق وأصدقاء الأسرة والأساتذة والكهنة والأطباء الفتاة الصغيرة. يكفي الاحترام المتأثّر الذي تبديه النسوة البالغات للرجل لوضعه على نُصُبٍ[26].

ويساهم كل شيءٍ في تأكيد هذه المراتب في عيني الفتاة. ثقافتها التاريخية والأدبية والأغاني والأساطير التي يلقونها على أسماعها تمجيدٌ للرجل، فالرجال هم الذين صنعوا اليونان والإمبراطورية الرومانية وفرنسا وكل البلدان، واكتشفوا الأرض واخترعوا الأدوات التي تسمح باستغلالها، وهم الذين حكموها وملأوها بالتماثيل واللوحات والكتب. وتعكس كتب الأطفال والأساطير والحكايا والقصص الخرافات التي ابتدعها غرور الرجال ورغباتهم: تكتشف الفتاة العالم بعيون الرجال وتقرأ فيها مصيرها. والتفوّق الذكري ساحقٌ: **برسيه** و**هرقل** و**دافيد** و**أخيل** و**لانسلو** و**دوغوسكلين** و**بايار** و**نابوليون**، كلّهم رجالٌ مقابل **جان دارك** واحدةٍ؛ تظهر وراءها الصورة الذكريّة الكبيرة **للقديس ميشيل** رئيس الملائكة! ولا شيء يبعث على الملل أكثر من الكتب التي تروي قصة حياة نساءٍ شهيراتٍ: إنها صورٌ شاحبةٌ مقارنةً بصور الرجال العظماء؛ وغالبيتها تستفيء بظلّ بعض الأبطال الذكور. لم

26- من اللافت للنظر أننا نرى الولع بالأب خصوصًا لدى الابنة الكبرى: فالرجل يهتم أكثر بأول أولاده؛ وهو غالبًا الذي يواسي ابنته كما يواسي ابنه، عندما تنشغل الأم بالأطفال الأصغر سنًّا، وتتعلق به بشدةٍ. وعلى العكس، البنت الأصغر لا تتملك أبدًا أباها دون منازعٍ؛ وهي تغار عادةً منه ومن أختها الكبرى؛ وهي تركّز تفكيرها على هذه الأخت الكبرى التي تكسبها مراعاة الأب مكانةً كبيرةً، أو أنها تلتفت نحو أمها، أو تثور على أسرتها وتبحث عن الإنقاذ خارجًا. وفي الأسر الكبيرة العدد، أصغر الأخوات تجد مكانًا مميّزًا بطريقةٍ أخرى.. وبالطبع يمكن لظروفٍ عديدةٍ أن تولد لدى الأب تفضيلًا خاصًا. ولكن كل الحالات تقريبًا التي أعرفها تؤكد هذه الملاحظة حول وضع الكبرى والصغرى المتعاكس.

تُخلق حوّاء لنفسها ولكن كرفيقةٍ لـ آدم ومستخرجةٍ من جنبه؛ ولا توجد في الإنجيل نساءٌ كثيراتٌ ذوات أعمالٍ ذائعة الصّيتِ: لم تفعل روث شيئًا سوى أن تجد لنفسها زوجًا. ونالت إستر عفو اليهود بركوعها أمام أسويروس، وكذلك لم تكن سوى أداةٍ طيّ=عةٍ بين يدي ماردوشيه؛ وجوديث كانت أكثر جرأةً لكنها كانت هي أيضًا تطيع الكهنة وكان إنجازها مشكوكًا به، لا يمكن مقارنته بانتصار الشاب دافيد الصريح والساطع. وربّات الأسطورة طائشاتٌ أو مزاجيات وكلّهن يرتعدن أمام جوبيتر؛ بينما تسرق بروميتيه النار من السماء ببراعةٍ، وتفتح باندورا علبة الشرور. هناك فعلًا بضع ساحراتٍ، وبضع عجائز يمارسن في الحكايا قدرةً مخيفةً. وفي حديقة الفردوس لـ أندرسن Andersen تذكّرنا صورة أم الريح بالربّة البدائيّة العظيمة: يطيعها أولادها الأربعة الضخام مرتعدين، وتضربهم وتحبسهم في أكياسٍ عندما يسيئون السلوك. ولكن هذه الشخصيّات غير جذّابةٍ. والجنّيّات وعرائس وحوريّات البحر اللواتي لا يخضعن لسيطرة الذكر أكثر سحرًا؛ لكنّ وجودهنّ غير مؤكّدٍ، وبالكاد يمكن تمييزهنّ؛ إنهنّ يتدخّلن بعالم البشر دون أن يكون لديهنّ مصيرٌ خاصٌّ بهنّ؛ وما إن تصبح عروس البحر الصغيرة لدى أندرسن امرأةً حتى تعرف عبوديّة الحب وتعاني من الألم. والرجل هو البطل المتميّز في القصص المعاصرة كما في الأساطير القديمة. وكُتُب مدام دو سيغور Mme de Sègur هي استثناءٌ غريبٌ: فهي تصف مجتمعًا أموميًا يكون للرجل فيه ـ عندما لا يكون غائبًا ـ شخصيّةٌ سخيفةٌ؛ ولكن صورة الأب عادةً مكلّلةٌ بالمجد كما في الواقع. وبرعاية الأب المعظّم الغائب تجري المآسي الأنثوية في «نساءٌ صغيراتٌ». وفي قصص المغامرات الرجال هم من يقوم برحلةٍ حول العالم، ويسافرون كبحّارةٍ على متن السفن، ويتغذّون في الأدغال بثمرة شجرة الخبز. كلّ هذه الأحداث الهامّة يصنعها رجالٌ. ويؤكّد الواقع هذه الروايات وهذه الأساطير. إذا قرأت الفتاة الصغيرة الصحف، وإذا أصغت إلى حديث الأشخاص الكبار، ستلاحظ أن الرجال يقودون العالم اليوم كما فعلوا فيما مضى. رؤساء الدول والجنرالات والمستكشفون والموسيقيون والرسّامون الّذين تُعجَبُ بهم هم رجالٌ؛ وهم من يجعل قلبها يخفق حماسةً.

وتنعكس هذه المكانة في عالم ما وراء الطبيعة. بصورةٍ عامّةٍ، ونتيجةً للدور الذي يلعبه الدين في حياة النساء، الفتاة الصغيرة التي تسيطر عليها أمها أكثر مما تفعل مع أخيها

تخضع أكثر للتأثيرات الدينية. غير أنّ الله الأب، في الديانات الغربية، هو رجلٌ، عجوزٌ يتحلّى بصفةٍ ذكوريةٍ بشكلٍ خاصٍّ: لحيةٍ موفورةٍ بيضاء[27]. والمسيح ملموسٌ أكثر أيضًا بالنسبة للمسيحيين فهو رجلٌ من لحمٍ ودمٍ ذو لحيةٍ طويلةٍ شقراء. والملائكة بحسب رجال اللاهوت ليس لها جنسٌ؛ لكنها تحمل أسماءً مذكّرةً وتتجلّى بصورة شبابٍ وسيمين. ورسل الله على الأرض: البابا، والأساقفة الّذين نقبّل خواتمهم، والكاهن الذي يتلو القدّاس، وذاك الذي يعظ، وذاك الذي نجثو أمامه في سرّيّة كرسي الاعتراف، هم رجالٌ. وبالنسبة لفتاةٍ صغيرةٍ تقيّةٍ، علاقاتها بالأب الخالد مماثلةٌ لعلاقاتها بالأب الدنيوي؛ وبما أنها تجري في عالم الخيال، فهي تشعر بتنازلٍ أكبر. وتمارس الديانة الكاثوليكية عليها تأثيرًا شديد الإرباك[28]. تلقّت العذراء كلمات الملاك جاثيةً على ركبتيها، وتجيب: «أنا خادمة الربّ»، وانهارت ماري مادلين خائرةً على قدمي المسيح ومسحتهما بشعرها النسائيّ الطويل. وتصرّح القدّيسات جاثياتٍ بحبّهنّ للمسيح الساطع. وتستسلم الفتاة جاثيةً على ركبتيها، ضمن رائحة البخور، إلى نظرة الربّ وملائكته: نظرة رجلٍ. ويؤكّدون غالبًا على التطابق بين اللغة الشهوانية واللغة الروحانيّة كما تتحدّثها النساء؛ فمثلًا كتبت القديسة تيريز عن الطفل يسوع ما يلي:

> **«آه يا حبيبي، بِحُبّك أقبل ألا أرى هنا في الأسفل نعومة نظرتك، وألا أشعر بقبلة فمك التي لا يمكن التعبير عنها، لكني أرجوك أن تلهبني بِحُبّك...**
>
> **يا حبيبي دعني على الفور ألمح النعومة في ابتسامتك الأولى**
>
> **آه! دعني في هذياني المحموم، نعم، دعني أختبئ في قلبك!**
>
> **أريد أن تسحرني نظرتك الإلهيّة، أريد أن أقع فريسة حبّك. آمل أنك، ذات يومٍ، ستنقضّ عليّ آخذًا إيّاي إلى مسكن الحبّ، وستُغرِقني أخيرًا في هذه الهاوية اللاهبة لأصبح إلى الأبد ضحيّتها السعيدة».**

27- تروي ياسو غوسيير Yassu Gaucie`re في البرتقالة الزرقاء «من ناحيةٍ أخرى، لم أعد أعاني من عدم قدرتي على رؤية الله لأني نجحت مؤخّرًا في أن أتصوّره بشكل جدّي المتوفي؛ كانت هذه الصورة بشريّةً بالأحرى؛ لكني ألّهتها بفصل رأس جدي عن صدره ووضعها في ذهني على خلفيةٍ من سماءٍ زرقاء حيث كانت غيومٌ بيضاء تشكّل له عقدًا».

28- لا شك في أن النساء هم أكثر سلبيةً بكثيرٍ، يُعطَون للرجل، خانعاتٍ وذليلاتٍ في البلدان الكاثوليكية: إيطاليا، إسبانيا، فرنسا،أكثر من البروتستانت: البلدان الاسكندينافية والأنجلوساكسون. يأتي هذا في قسمٍ كبيرٍ من وضعهنّ الخاصّ: فعبادة العذراء والاعتراف يدعوانهم إلى المازوشية.

ولكن يجب ألا نستنتج أن تدفّق العواطف هذا جنسيٌّ دائمًا؛ بالأحرى، عندما يتطوّر الجنس الأنثويّ، تخترقه مشاعر دينيّةٌ خصّت المرأة الرجل بها منذ الطفولة. صحيحٌ أنّ الفتاة الصغيرة تشعر بقرب من تعترف له وحتى أمام المذبح بارتعاشةٍ قريبةٍ جدًا من تلك التي تشعر بها بين ذراعي عشيقها: لأن الحبّ الأنثوي هو أحد أشكال الخبرة التي يصبح الوعي ضمنها شيئًا لشخصٍ يُصَعّده وهو أيضًا تلك الملذّات السلبية التي تتذوقها الفتاة التقيّة داخل الكنيسة.

وتحسّ، خائرةً، ووجهها مدفونٌ بين يديها، بأعجوبة إنكار الذات: فهي تصعد إلى السماء وهي جاثيةٌ على ركبتيها؛ ويؤمّن لها استسلامها بين ذراعي الربّ صعودًا مبطّنًا بالغيوم والملائكة. وهي تستنسخ من هذه التجربة المدهشة مستقبلها على الأرض. يمكن للطفلة أيضًا أن تكتشف ذلك عبر العديد من الطرق الأخرى: فكلّ شيءٍ يدعوها إلى الاستسلام في الحلم لذراعي الرجل لتنتقل إلى سماء المجد. وتتعلّم أنها يجب أن تكون محبوبةً كي تكون سعيدةً؛ ولكي تكون محبوبةً عليها انتظار الحبّ. المرأة هي الجميلة النائمة، جلد الحمار، سندريلا، بيضاء الثلج، تلك التي تتلقّى وتخضع. في الأغاني والحكايا، نرى الشاب ينطلق مغامرًا بحثًا عن المرأة؛ يهاجم تنّيناتٍ، ويصارع عمالقةً؛ وهي تنتظر: سجينة برجٍ، أو قصرٍ، أو حديقةٍ، أو مغارةٍ، أو مقيّدةً بالسلاسل إلى صخرةٍ، أو أسيرةً، أو نائمةً. سيأتي أميري يومًا... سيأتي الرجل الذي أحبّ وحده يومًا... وتبعث فيها الأغاني الشعبية أحلام صبرٍ وأملٍ. الضرورة القصوى بالنسبة للمرأة، هي أن تسحر قلب ذكرٍ؛ وتنال البطلات المكافأة التي يطمحن إليها بالإلحاح والمغامرة؛ وغالبًا لا يُطلَب منهنّ سوى جمالهنّ كفضيلةٍ. نفهم بالتالي كيف يصبح اهتمام الفتاة بمظهرها الخارجي هَوَسًا؛ سواء كُنّ أميراتٍ أو راعياتٍ، فعليهنّ دائمًا أن يكُنّ جميلاتٍ ليكسبن الحبّ والسعادة؛ ويُجمَع القبح بقسوةٍ مع الشرّ ولا نعرف تمامًا عندما نرى المآسي التي تنهال على القبيحات إن كان القدر يعاقب جرائمهنّ أو قبحهنّ. وغالبًا ما تظهر الشابّات الحسناوات الموعودات بمستقبلٍ ماجدٍ في البداية بدور الضحيّة؛ وقصص **جنفييف دوباربان وغريزليديس** ليست بريئةً كما تبدو؛ إذ يتداخل فيها الحبّ والعذاب بطريقةٍ مُحَيِّرةٍ؛ عندما تسقط المرأة في قاع السفالة تحصل على أطيب انتصاراتها؛ سواء تعلّق الأمر بالله أو بالرجل، وتتعلّم الفتاة أنها تصبح ذات

قدرةٍ كبيرةٍ بقبولها بأكبر التنازلات: ترضى بمازوشية تعِدُها بانتصاراتٍ فائقةٍ. **القديسة بلاندين** Sainte Blandine، بيضاء دامية بين براثن الأُسود، وبيضاء الثلج قابعةً كالميتة في تابوتٍ زجاجيٍّ، والجميلة النائمة، وأتالا مغمىً عليها، مجموعةٌ من البطلات الرقيقات جريحاتٍ، سلبياتٍ، جاثياتٍ، ذليلاتٍ، يعلّمن أخواتهنّ الشابات الحظوة الساحرة للجمال الشهيد، المهجور، المستكين. ومن غير المدهش، بينما يلعب أخوها دور البطل، أن تلعب الفتاة بطيب خاطرٍ دور الشهيدة: فالكفّار يرمونها للأسود، وذو اللحية الزرقاء يجرّها من شعرها، وزوجها الملك ينفيها في أعماق الغابات؛ وهي تستكين، وتتعذّب، وتموت ويكلّل المجد جبينها. وقد كتبت **مدام دونواي**: «عندما كنت صغيرةً جدًا، كنت أتمنى استجرار عطف الرجال، أن أقلقهم، وأن ينقذوني، وأموت بين كلّ الأذرع». نجد مثالًا واضحًا على تخيّلات المازوشيّة هذه في «النقاب الأسود» لـ **ماري لوهاردوين** Marie Le Hardouin.

في سنّ السابعة، شكّلت رَجُلي الأول لستُ أدري من أيّ ضلعٍ، كان طويلًا، نحيلًا، شابًا، يرتدي بذلةً من الساتان الأسود ذات أكمامٍ طويلةٍ تصل حتى الأرض. كان شعره الأشقر الجميل ينسدل على كتفيه في خصلٍ ثقيلةٍ... أسميته إدمون... ثم أتى يومٌ أعطيته فيه أخوين... هؤلاء الإخوة الثلاثة: إدمون وشارل وسيدريك، ثلاثتهم يرتدون الساتان الأسود، وثلاثتهم رشيقون وشقرٌ، جعلوني أشعر بسعادةٍ بالغةٍ غريبةٍ. كانت أقدامهم جميلةً للغاية في جوارب حريريّةٍ وكانت كلّ حركاتها تبلغ روحي... أصبحتُ أختهم مارغريت... كنت أحبّ تخيّل نفسي خاضعةً لمتع إخوتي وتحت رحمتهم بشكلٍ كاملٍ. وكنت أحلم بأن أخي الأكبر، إدموند، كان له حق التصرف بحياتي. لم يكن يُسمَح لي بأن أرفع ناظريّ نحو وجهه. كان يجلدني لأتفه سببٍ. وعندما كان يوجّه كلامه إليّ، كنت أضطرب قلقًا واحترامًا بحيث لم أكن أستطيع الردّ عليه وكنت أتمتم باستمرارٍ كلمات «نعم سيدي»، «كلا سيدي» كنت أستمتع من خلالها بالشعور الغريب بأني حمقاء... وعندما كان يخضعني لعذابٍ شديدٍ جدًا، كنت أتمتم «شكرًا سيدي»، وعندما حانت لحظةٌ كنت فيها خائرة القوى تقريبًا من الألم وضعت شفتيّ على يده كيلا أصرخ بينما حطّم اندفاعٌ حيويٌّ قلبي أخيرًا وبلغت إحدى هذه الحالات التي يرغب المرء فيها أن يموت من فرط السعادة.

في سنٍّ مبكرةٍ نوعًا، تحلم البنت أنها بلغت سنّ الحبّ؛ في التاسعة، في العاشرة، تتسلّى

بالتزيّن، وتحشو صدر ثوبها، وتتنكّر في زيّ سيّدةٍ. مع ذلك فهي لا تحاول القيام بأيّة تجربةٍ شهوانيّةٍ مع صبيانٍ صغارٍ: إن حدث أن ذهبت معهم إلى ركنٍ منعزلٍ ولعبوا «بتبادل إظهار الأشياء»، فهذا بدافع الفضول الجنسيّ فقط. لكنّ رفيق التخيّلات الغرامية هو شخصٌ بالغٌ، إما من نسج الخيال، أو مأخوذٌ من أشخاصٍ حقيقيين: وفي هذه الحالة، تشعر الطفلة بالاكتفاء بحبّه عن بُعدٍ. ونجد مثالًا جيّدًا جدًا على هذه التخيّلات الطفوليّة في ذكريات **كوليت أودري**[29] Colette Audry؛ التي تروي أنها اكتشفت الحبّ منذ سنّ الخامسة.

لم يكن لذلك بالطبع صلةٌ بمتع الطفولة الجنسية الصغيرة، الإشباع الذي كنت أشعر به مثلًا عندما أمتطي كرسيًا ما من كراسي غرفة الطعام أو أن أداعب نفسي قبل النوم... السمة الوحيدة المشتركة بين الشعور والمتعة هي أني كنت أخفيهما كليهما بعنايةٍ عن المحيطين بي... كان حبّي لهذا الشاب يتألف من التفكير فيه قبل أن أنام متخيّلةً قصصًا رائعةً... في بريفاس وقعت في غرام كل مدراء مكتب والدي بالتتالي... لم أحزن لذهابهم أبدًا بشكلٍ عميقٍ لأنهم لم يكونوا سوى وسيلةٍ لترسيخ تخيّلاتي الغرامية... وفي المساء عندما كنت مستلقيةً كنت أثأر لنفسي من شبابي وخجلي الزائدين. كنت أحضّر كلّ شيءٍ بعنايةٍ، ولم يكن عندي أي صعوبةٍ في استعادته إليّ، هو، الحاضر، لكني كنت أتحوّل أنا بحيث كنت أستطيع رؤية نفسي من الداخل لأني أصبحت «هي» وكففتُ عن أن أكون «أنا». أولًا كنت جميلةً وكان عمري ثمانية عشرة سنةً. وساعدتني كثيرًا علبة حلوى: علبة ملبّسٍ طويلةٌ مستطيلةٌ ومسطّحةٌ كانت تمثّل شابتين محاطتين بالحمائم. كنت ذات الشعر الأسود بخصلاته القصيرة، أرتدي ثوبًا طويلًا من الموسلين. كان قد غاب عني لعشر سنواتٍ. وعاد وقد تقدم في السن قليلًا وارتبك لرؤية هذه المخلوقة الرائعة، وبدا أنها بالكاد تتذكّره، كانت طبيعيةً، لا مبالية، سريعة البديهة. كنت أؤلف من أجل هذه المقابلة الأولى محادثاتٍ باهرةً حقًا. تتلوها أسواء فهمٍ، ومحاولات غزو قلبٍ صعبةٌ، وساعاتٌ قاسيةٌ من الإحباط والغيرة بالنسبة له. وأخيرًا، بعد أن يفيض به الكيل، كان يعترف بحبه. وكانت تصغي إليه في صمتٍ وعندما كان يظنّ أن كلّ شيءٍ ضاع كانت تخبره أنها لم تكفّ أبدًا عن حبّه وكانا يتعانقان قليلًا. كان المشهد يدور عادةً فوق مقعدٍ في حديقةٍ، في المساء. كنت أرى شكل الاثنين متقاربين، وأسمع همس الأصوات، وأشعر في الوقت ذاته بتلامس الجسدين الحارّ. ولكن بعد ذلك كان كلّ شيءٍ ينحلّ... لم

29- في عيون الذكرى. Aux yeux du souvenir

أصل أبدًا إلى الزواج[30]... في اليوم التالي كنت أفكر في ذلك قليلًا عند الاستيقاظ. لا أعلم لماذا كان الوجه المغطى بالصابون الذي كنت أنظر إليه في المرآة يسحرني (بقية الوقت لم أكن أجدني جميلةً) ويملأني بالأمل. كنت أستطيع البقاء ساعاتٍ أنظر إلى هذا الوجه الغائم المقلوب نوعًا الذي كان يبدو أنه ينتظرني من بعيدٍ على طريق المستقبل. لكن كان عليّ أن أسرع؛ ما إن أمسحه حتى ينتهي كل شيءٍ، وأعود إلى شكلي العادي كطفلة، والذي لم يعد يهمني.

توجّه الألعاب والأحلام الفتاة الصغيرة نحو السلبية؛ لكنها إنسانٌ قبل أن تصبح امرأةً؛ وتعرف منذ ذلك الحين أن قبولها ذاتها كامرأةٍ يعني أن تتنازل وتخسر قسمًا منها؛ وإن كان التنازل مغريًا، فخسارة جزءٍ أمرٌ كريهٌ. فالرجل والحبّ ما زالا بعيدين في ضباب المستقبل؛ تبحث الفتاة الصغيرة في الوقت الحاضر كإخوتها عن النشاط والاستقلالية. وعبء الحريّة ليس ثقيلًا على الأطفال لأنه لا يفرض مسؤولياتٍ؛ يعرفون أنهم في أمانٍ بمعزلٍ عن الكبار: لا يشعرون برغبةٍ في الهروب من أنفسهم. إن اندفاع الفتاة التلقائي نحو الحياة، وميلها للعب، والضحك، والمغامرة، يجعلها تجد الحلقة الأمومية ضيّقةً، خانقةً. وتودّ التملّص من سلطة أمها. إنها سلطةٌ تُمارِس بطريقةٍ يوميةٍ وحميمةٍ أكثر من تلك التي تُفرض على الصبيان. ونادرةٌ هي الحالات التي تكون فيها متفهّمةً ومتكتّمةً مثل هذه الـ «سيدو» التي رسمتها **كوليت** بحبٍّ. دون ذكر الحالات المرضيّة تقريبًا ـ وهي كثيرةٌ[31] ـ تكون الأم فيها نوعًا ما كالجلّاد، تشبع غريزة السيطرة لديها وساديّتها في الطفلة، فابنتها هي الشيء المميّز الذي تستطيع أمامه أن تؤكّد سيادتها المطلقة كذاتٍ؛ وذلك يدفع الطفلة إلى أن تهبّ ثائرةً. وصفت **أودري** هذه الثورة لفتاةٍ صغيرةٍ طبيعيةٍ تجاه أمٍّ طبيعيّةٍ:

لم يكن بإمكاني قول الحقيقة مهما كانت بريئةً، لأني لم أكن أشعر بنفسي بريئةً أبدًا أمام أمّي. كانت هي الشخص الكبير الأساس وكنت أحقد عليها لذلك السبب لدرجة أني لم أُشفَ من ذلك إلى اليوم. كان في أعماقي جرحٌ صاخبٌ ومفترسٌ بحيث

30- على عكس تخيّلات م. لوهاردوين المازوشية، تخيّلات أودري ذات طابع ساديّ. إنها تتمنى أن تجرح الحبيب، وتضعه في خطر، وتنقذه ببطولةٍ، بعد أن تذلّه. نجد هنا لمسةً شخصيةً، وصفيّةً لامرأةٍ لن تقبل السلبية أبدًا وستحاول كسب استقلالها كإنسانٍ.

31- انظر ف. لودوك، الاختناق V. Leduc - Làsphyxie – وس. دوترفاني، الكره الأمومي S de Tervagnes, La Haine maternelle – وهـ. بازان، أفعى في القبضة H. Bazin, Vipère au poing.

ما زلت أعاني منه... لم يجُل في خاطري أنها صارمةٌ جدًا أو أنها لم تكن تملك الحق. كانت تنتابني فكرةٌ واحدةٌ: لا، لا، لا، بكلّ قواي. لم أكن ألومها على سيطرتها، ولا على الأوامر أو النواهي التعسّفيّة، ولكن على رغبتها في ترويضي. كانت تقوله أحيانًا: وعندما لم تكن تقوله، كانت عيناها تقولانه، وكان صوتها يقوله. أو أنها قالت لسيّداتٍ أنّ الأطفال يصبحون طيّعين أكثر بعد العقاب. بقيت كلماتها في حلقي لا تُنسى: لم أكن أستطيع أن أتقيّأها، ولا أن أبتلعها. كان هذا الغضب يشعرني بالذنب تجاهها وبخجلي تجاه نفسي (لأنها كانت تخيفني، ولم يكن لدي ما أثأر به منها سوى بضع كلماتٍ عنيفةٍ أو وقحةٍ) لكن بانتصاري أيضًا، رغم كلّ شيءٍ، ما دام الجرح هناك، حيًّا، والجنون الأخرس الذي ينتابني ويجعلني فقط أردّد: ترويض، طيّعةٌ، عقابٌ، إذلالٌ، لن يروّضوني.

وتزداد الثورة عنفًا بقدر ما تفقد الأم هيبتها. فتبدو مثل تلك التي تنتظر، وترضخ، وتشكو، وتبكي، وتقوم بثوراتٍ: وفي الواقع اليومي لا يقود دور الجاحدة هذا إلى أيّ تمجيدٍ؛ فإن كانت ضحيّةً فهي مُحتَقَرةٌ، وإن كانت شرسةً فهي مكروهةٌ؛ ويبدو مصيرها مثل نموذج التكرار الباهت: بها تتكرّر الحياة بغباءٍ دون بلوغ شيءٍ؛ وتتشبّث بدورها كربّة منزلٍ، فتوقف اتّساع الوجود، إنها عقبةٌ وإنكارٌ. ولا تودّ ابنتها أن تشبهها. وهي تشعر بإعجابٍ شديدٍ بالنساء اللواتي أفلَتن من العبودية النسوية: الممثّلات، والكاتبات، والأستاذات؛ وتبذل نفسها بحماسةٍ للرياضة، والدراسة، وتتسلّق الأشجار، وتمزّق ثيابها، وتحاول أن تتنافس مع الصبيان. وغالبًا ما تختار صديقةً قريبةً تفضي إليها بأسرارها؛ إنها صداقةٌ خالصةٌ كعاطفةٍ غراميّةٍ تتضمّن في العادة تبادل أسرارٍ جنسيّةٍ: وتتبادل الفتاتان المعلومات التي نجحتا في الحصول عليها وتعلّقان عليها. ويحدث غالبًا أن تتشكّل ثلاثيّةٌ، فتُغرَم إحدى الفتاتين بشقيق صديقتها: وهكذا سونيا في «الحرب والسلم» هي صديقة ناتاشا الحميمة وتحبّ أخاها نيكولا.

في كلّ الأحوال يلفّ الغموض هذه الصداقة، وبصورةٍ عامةٍ تحبّ الطفلة في هذه المرحلة أن يكون لديها أسرارٌ؛ تجعل من أتفه الأشياء سرًّا: وهكذا تتصرّف ضد التكتّم الذي يقابَل به فضولها؛ تلك أيضًا طريقةٌ لإعطاء نفسها أهمّيّةً؛ تحاول بشتّى الطرق اكتسابها؛ وتحاول أن تتدخّل في حياة الناس الكبار، وتخترع بشأنهم رواياتٍ لا تصدّق سوى نصفها وتلعب ضمنها

دورًا كبيرًا. وتبادل الصبيان مع صديقاتها احتقارًا باحتقارٍ؛ ويصنعن مجموعةً منفصلةً، ويضحكن ويهزأن بهم. ولكنّها في الواقع تشعر بالزهوّ ما إن يعاملونها على قدم المساواة، وتطلب رضاهم. وتودّ أن تنتمي إلى المجموعة ذات الحظوة. نفس الحركة التي تُخضِع المرأة للسيطرة الذكرية في القبائل القديمة، تتجلّى لدى كلّ من اطّلعت حديثًا برفضٍ لقَدَرها: التسامي لديها يدين الكمون الغريب. تثور لأن قواعد اللباقة تزعجها، تضايقها ثيابها، وتستعبدها الأعمال المنزليّة، ويُكبَحُ جماحها في كلّ ما تفعل؛ لقد قاموا بالعديد من التحقيقات حول هذه النقطة أعطت جميعها[32] تقريبًا نفس النتيجة: أعلن كلّ الصبيان ـ مثل **أفلاطون** فيما مضى ـ أنهم لا يطيقون أن يكونوا بناتٍ؛ وكلّ الفتيات تقريبًا يأسفن لعدم كونهنّ صبيانًا. وتبعًا للإحصائيات التي قدّمها **هافلوك إليس** Havelock Ellis، صبيٌّ من أصل مئةٍ كان يتمنى لو يكون فتاةً؛ بينما أكثر من 75% من البنات تمنّين تغيير جنسهنّ. وتبعًا لتحقيقٍ لـ**كارل بيبال** Karl Pipal (أوردها **بودوان** Baudoin في كتابه حول الروح الطفولية) من أصل عشرين صبيًّا بين الثانية عشرة إلى الرابعةعشرة، ثمانية عشر قالوا إنّهم كانوا ليفضّلون أن يكونوا أيّ شيءٍ في العالم سوى فتياتٍ؛ وتمنّت عشر نساءٍ من أصل اثنتين وعشرين لو كُنّ صبيانًا؛ وكنّ يعطين لذلك الأسباب التالية: «الصبيان أفضل: إنهم لا يعانون مثل النساء... كانت أمي ستحبني أكثر... عمل الصبي أكثر أهمّيّةً... الصبي أقدر على متابعة الدراسة... كنت لأتسلى بإخافة البنات... لن أخاف من الصبيان...إنهم أكثر حرّيّةً... ألعاب الصبيان مسلّيةٌ أكثر... لا تضايقهم ملابسهم..».

وتتكرّر هذه الملاحظة الأخيرة غالبًا: تشكو الفتيات جميعهنّ تقريبًا من أنّ أثوابهنّ تضايقنهنّ، ولا تدعهنّ يتحرّكن بحرّيّةٍ، وتجبرهنّ على مراقبة تنّوراتهنّ أو زيّهنّ الفاتح الذي يتّسخ بسهولةٍ. في حوالي سنّ العاشرة أو الثانية عشرة، معظم الفتيات الصغيرات هن بالفعل «صبيٌّ ناقصٌ»، أي طفلات تنقصهنّ شهادة صبيٍّ. ليس فقط أنهن يعانين من ذلك كحرمانٍ وظلمٍ، لكن النظام الذي يُحكَم عليهنّ باتّباعه غير صحّيٍّ. هناك سدٌّ في

32- هناك استثناءٌ مثلًا في مدرسةٍ سويسريةٍ حيث يشترك الصبيان والبنات بنفس التعليم المختلط ضمن ظروفٍ متميّزةٍ من الرفاهية والحرّيّة، أعلنوا أنهم جميعًا راضون: ولكن مثل هذه الظروف استثنائيّةٌ. بالتأكيد، يمكن أن تكون الفتيات سعيداتٍ بقدر الصبيان، ولكنهن لسن كذلك في الواقع في المجتمع الحالي.

وجه ازدهار حياتهنّ، وتتحوّل قواهنّ غير المستخدمة إلى عصبيّةٍ؛ ولا تستهلك أعمالهنّ الهادئة جدًا طاقتهنّ الكبيرة؛ إنهنّ يشعرن بالسأم وكي يعوّضن عن الدونيّة التي يعانين منها؛ يندفعن في تخيّلاتٍ كئيبةٍ وعاطفيّةٍ؛ ويستسغن طعم هذا الهروب السهل ويفقدن معنى الواقع؛ ويستسلمن لانفعالاتهنّ بحماسٍ فوضويٍّ؛ ويتكلمن لأنهنّ لا يستطعن التصرّف، مازجاتٍ عمدًا كلامًا جادًّا بكلامٍ لا معنىً له؛ ويبحثن عن مواساةٍ ضمن مشاعر نرجسيّةٍ لأنهنّ مهجوراتٍ و«غير مفهوماتٍ»: فينظرن لأنفسهنّ كبطلات قصصٍ، ويُعجَبن بأنفسهنّ ويشكون؛ من الطبيعي أن يصبحن أنيقاتٍ وممثّلاتٍ: وتزداد هذه العيوب لحظة البلوغ. فتتجلّى أزمتهنّ بشكل قلّة صبرٍ، ونوبات غضبٍ، ودموعٍ؛ إنهنّ يمِلنَ إلى الدموع ـ ميلٌ يظلّ بعدئذٍ لدى كثيرٍ من النساء ـ والسبب الأكبر في ذلك أنهنّ يحببن لعب دور الضحيّة: إنه احتجاجٌ على قسوة المصير وطريقةٌ لإثارة الشفقة في آنٍ معًا.

وقد روى دوبانلو Dupanloup ما يلي: «تحب الفتيات الصغيرات البكاء وقد صادفت بعضًا منهنّ كنّ يبكين أمام مرآةٍ ليستمتعن بهذا الأمر بشكلٍ مضاعفٍ». تتعلّق معظم مآسيهنّ بعلاقاتهنّ بالأسرة؛ يحاولن تحطيم رباطهنّ مع الأم: فأحيانًا يعادينها، وأحيانًا يحتجن بشدّةٍ إلى حمايتها؛ يرغبن في الحصول على حبّ الأب؛ إنهنّ غيوراتٌ، مشكّكاتٌ، متطلّباتٌ. ويخترعن غالبًا رواياتٍ؛ ويفترضن أنهنّ طفلاتٌ متبنّياتٌ، وأنّ والداهنّ ليسا والديهنّ؛ ويجعلن لهم حياةً سرّيّةً، ويحلمن بعلاقاتهم؛ ويتخيّلن أن الأب غير مفهومٍ، وأنّه تعيسٌ، لا يجد في زوجته الشريكة المثاليّة التي يمكن أن تكونها ابنته بالنسبة إليه؛ أو أن الأم تجده على العكس فظًّا وعنيفًا وهي محَقّةٌ في ذلك، وتشمئزّ من كل علاقةٍ جنسيّةٍ معه. تخيّلاتٌ، وتمثيليّاتٌ، ومآسٍ، وحماسٌ زائفٌ، وتصرّفاتٌ غريبةٌ، يجب أن نبحث عن أسبابها في وضع الطفلة وليس في روحٍ نسويّةٍ غامضةٍ.

إنها تجربةٌ غريبةٌ لإنسانٍ يشعر أنّه ذاتٌ، استقلالٌ، تسامٍ، مطلقٌ، أن يكتشف الدونيّة في نفسه كجوهرٍ محدّدٍ؛ إنها تجربةٌ غريبةٌ لذاك الذي يطرح ذاته لنفسه كالواحد ويكتشف أنه غيريةٌ. وهذا ما يحدث للفتاة الصغيرة التي تدرك نفسها كامرأةٍ عندما تتعرّف على العالم. فالفضاء الذي تنتمي إليه مغلقٌ من كلّ جهةٍ، محدودٌ، يحكمه العالم الذكري: وكلما رفعت نفسها أكثر وكلما غاصت في مغامراتٍ أبعد سيكون هناك على الدوام سقفٌ فوق رأسها،

وجدرانٌ تسدّ طريقها. آلهة الرجل في سماءٍ بعيدةٍ بحيث لا توجد آلهةٌ بالنسبة إليه في الواقع: تعيش الفتاة الصغيرة وسط آلهةٍ ذات وجوهٍ بشريّةٍ.

هذا الوضع ليس فريدًا. إنه كذلك وضع سود أمريكا، المندمجين جزئيًّا في حضارةٍ تعتبرهم مع ذلك مجموعةً أدنى؛ يشعر **بيغ توماس**[33] Big Thomas بكثيرٍ من الحقد منذ نعومة أظفاره بتلك الدونيّة النهائيّة، هذه الغيريّة اللعينة المدوّنة على لون جلده: ينظر إلى طائراتٍ تعبر ويعرف أنّ السماء محرّمةٌ عليه لأنّه أسود. ولأن الفتاة امرأةٌ، تعرف أنّ البحر والقطبين، وأنّ ألف مغامرةٍ، وألف متعةٍ، محرّمةٌ عليها: لقد وُلِدَت في الجهة السيّئة. الاختلاف الكبير، هو أنّ السود يخضعون لمصيرهم بثورةٍ: إذ لا يعوّض أيّ امتيازٍ قسوته؛ بينما المرأة مدعوّةٌ للتواطؤ. ذَكَّرتُ فيما قبل[34] بأنّه إلى جانب المطالب الأصلية للشخص الذي يطلب حرّيّةً، هناك لدى الوجود رغبةٌ غير أصليّةٍ بالتخلّي والهروب؛ إنها متع السلبيّة التي يغري بها الآباءُ والمربّون، والكتب والخرافات، والنساء والرجال؛ الفتاة الصغيرة في طفولتها الباكرة، ويعلّمونها أن تستمتع بها؛ ويصبح الإغراء ماكرًا أكثر فأكثر؛ وتستسلم له بشكلٍ حتميٍّ بقدر ما يصطدم تساميها بمقاوماتٍ أكبر. ولكنها بقبولها سلبيّتها تقبل أيضًا أن تخضع لمصيرٍ يُفرَض عليها من الخارج، وتخيفها هذه الحتميّة. أما الصبيّ، فسواء كان طموحًا أو طائشًا أو خجولًا، فسيصبح بحّارًا أو مهندسًا، وسيظلّ في الحقول أو يذهب للمدينة، وسيرى العالم، وسيصبح غنيًّا؛ ويشعر بنفسه حرًّا أمام مستقبلٍ تنتظره فيه فرصٌ غير متوَقَّعةٍ. ستصبح الفتاة زوجةً، وأمًّا، وجدّةً؛ وستدير منزلها تمامًا كما تفعل أمها، وستعتني بأطفالها كما اعتُنِي بها: عمرها اثنتا عشرة سنةً وقصّتها مكتوبةٌ منذ الآن في السماء؛ ستكتشفها يومًا بعد يومٍ دون أن تصنعها أبدًا؛ إنها فضوليّةٌ لكنها خائفةٌ عندما تذكر هذه الحياة التي جميع مراحلها متوقَّعَةٌ سلفًا ويقودها نحوها كلُّ يومٍ بصورةٍ حتميّةٍ.

لهذا تشغل بال الفتاة الأسرار الجنسيّة أكثر من إخوتها بكثيرٍ؛ يهتمّون بذلك بشغفٍ هم أيضًا بالتأكيد؛ ولكنّ ما يشغل بالهم أكثر من سواه في مستقبلهم ليس هو دورهم كزوجٍ وأبٍ؛ ويكمن مستقبل الفتاة كله في الزواج والأمومة، وما إن تبدأ بتوقّع خفاياها حتى يبدو

33- انظر: ر. رايت،الصبي الأسود R.Wright, Native Son.

34- الجنس الآخر، الجزء الأول، المقدمة.

لها جسدها مهدّدًا بشكلٍ بغيضٍ. ويتلاشى سحر الأمومة: وسواءً كانت قد أُعلِمَتْ بذلك باكرًا أم لا، بطريقةٍ منطقيّةٍ أم لا، فهي تعرف أن الطفل لا يظهر في بطن الأم بمحض الصدفة وأنه لا يخرج منها بلمسة عصًا سحريّةٍ؛ وتتساءَل بقلقٍ. وغالبًا ما لا يعود يبدو لها رائعًا بل فظيعًا أن يتوالد داخل جسمها جسمٌ طفيليٌّ؛ وترعبها فكرة هذا الانتفاخ الكريه. كيف سيخرج الطفل؟ حتى وإن لم يحدّثوها أبدًا عن الصرخات وآلام الولادة، فقد سمعت بعض الكلمات، وقرأت كلام الإنجيل: «ستلدين في الألم»؛ وتستشعر عذاباتٍ لا يمكنها تخيّلها؛ وتختلق عمليّاتٍ غريبةً في منطقة السرّة؛ وإذا افترضت أنّ الجنين سيُقذَف عبر الشرج، فهذا لن يطمئنها أكثر: رأينا فتياتٍ يُصَبن بنوبات إمساكٍ عصابيّةٍ عندما اعتقدن أنهنّ اكتشفن عمليّة الولادة. والتفسيرات الصحيحة لن تساعدها كثيرًا: فستطاردها صور التورّم والتمزّق والنزيف. وتزداد حساسية الفتاة لهذه الرؤى بقدر ما يكون خيالها خصبًا؛ لكن لا تستطيع أي فتاةٍ أن تنظر إليها مواجهةً دون أن ترتعد. وتروي **كوليت** أن أمها وجدتها مغمىً عليها بعد أن قرأت لدى **زولا** Zola وصف ولادةٍ.

> **كان الكاتب يصف الولادة بإسهابٍ مفاجئٍ وفجٍّ في التفاصيل، ودقّة في النواحي التشريحية، واللون، والوضعية، والصرخة التي لم أعتدها بخبرتي الهادئة كفتاةٍ من الحقول. شعرت بنفسي ساذجةً، مرعوبةً، مهدَّدَة المصير كأنثى صغيرة... كلماتٌ أخرى أمام ناظريّ رَسمَت اللحم الممزّق، والبراز، والدم المتّسخ... سقطت على العشب رخوةً مثل أحد هذه الأرانب الصغيرة التي كان الصيّادون يحضرونها إلى المطبخ، مقتولةً حديثًا.**

تترك تهدئة الكبار الطفلة قلقةً؛ وتتعلّم ألّا تصدق كلامهم عندما تكبر؛ وغالبًا ما تكتشف كذبهم فيما يخصّ أسرار جيلها، وتعرف أيضًا أنهم يعتبرون أكثر الأشياء فظاعةً أمرًا طبيعيًّا؛ إذا شعرت بصدمةٍ جسديّةٍ عنيفةٍ؛ كاستئصال اللوزتين، واقتلاع سنٍّ، وخرّاجٍ فُتِح بالمشرط، فستعكس على الولادة القلق الذي اختزنته ذاكرتها.

تفترض الصفة الجسديّة للحمل والولادة فورًا أن يجري «شيءٌ جسديٌّ ما» بين الزوجين. وكلمة «دم» التي نصادفها غالبًا ضمن تعابير مثل «أطفالٌ من نفس الدم، دمٌ نقيٌّ، دمٌ مختلطٌ» توجّه الخيال الطفولي أحيانًا؛ فيَفترِض أن الزواج يرافقه شيءٌ كنقل دمٍ احتفاليٍّ.

ولكن غالبًا ما يبدو «الشيء الجسديّ» وكأنّه مرتبطٌ بالجهاز البوليّ والإطراحي الغائطي؛ ويفترض الأطفال خصوصًا وبطيب خاطرٍ أن الرجل يبول داخل المرأة. ويفكّرون في العمليّة الجنسيّة على أنها شيءٌ قذر. من هنا يأتي اضطراب الطفل لدى رؤيته الأشياء «القذرة» تحاط بهذه السرّيّة الصارمة: كيف إذًا يدمجها الكبار في حياتهم؟ لا يشعر الطفل أصلًا بالاستنكار وذلك لغرابة ما يكتشفه: فهو لا يجد أيّ معنىً للروايات التي يسمعها، لما يقرأه، وما يكتبه؛ ويبدو له كلّ شيءٍ غير حقيقيٍّ. وفي كتاب **كارسون ماكولر** Carson Mc Cullers اللطيف «عضو الزفاف»، تفاجئ البطلة الشابة جارين عاريين في السرير؛ ولا يثير اهتمامها هذا الأمر لأنّها تجده غريبًا.

كان ذلك يوم أحد في الصيف وكان باب آل مارلو مفتوحًا. كان بإمكانها رؤية قسمٍ فقط من الغرفة، جزءٍ من الصوان وفقط أسفل السرير الذي كان مشدّ السيدة مارلو مرميًا عليه. ولكن كان هناك في الغرفة الهادئة صوتٌ لم تكن تفهمه وعندما تقدّمت نحو العتبة، صُعِقَت من دهشتها من المشهد الذي جعلها من النظرة الأولى تولّي هاربةً نحو المطبخ وهي تصيح: السيّد مارلو أصيب بنوبةٍ! وأسرعت برينيس نحو القاعة ولكن عندما نظرت إلى داخل الغرفة لم تفعل سوى زمّ شفتيها وصفقت الباب... حاولت فرانكي أن تسأل بيرينيس لتعرف ما الأمر. لكن بيرينيس قالت فقط أنهم أناسٌ عاديّون وأضافت أنه مراعاةً لشخصٍ معيّنٍ كان عليهما إغلاق الباب على الأقلّ. كانت فرانكي تعرف أنها هي ذلك الشخص ومع ذلك لم تكن تفهم. وسألت: ماهو نوع هذه النوبة؟ لكنّ بيرينيس أجابت فقط: «ليست سوى نوبةٍ عاديّةٍ يا صغيرتي». وفهمت فرانكي من نبرة صوتها أنه لم يكن يقال لها كلّ شيءٍ. فيما بعد، تذكّرت فقط آل مارلو كأشخاصٍ عاديّين...

عندما نحذّر الأطفال من الغرباء، وعندما نفسّر أمامهم حدثًا جنسيًا، نحدّثهم بطيب خاطرٍ عن مرضى ومهووسين ومجانين؛ إنه تفسيرٌ مريحٌ؛ فالفتاة التي يجسّها جارها في السينما، وتلك التي يفتح أمامها عابرٌ أزرار بنطاله، تظنّان أنهما أمام مجنونين؛ ومقابلة الجنون أمرٌ بغيضٌ بالتأكيد: نوبة صرعٍ، نوبة هستريا، شجارٌ عنيفٌ، توحي بخللٍ في نظام عالم الكبار؛ ويشعر الطفل الذي يشهدها أنه بخطرٍ؛ ولكن في نهاية الأمر، مع أن في المجتمع المتناسق مشرّدين ومتسوّلين ومقعدين ذوي جروحٍ كريهةٍ، فقد يكون فيه بعض الناس غير

الطبيعيين دون أن يخلخل ذلك أسسه. عندما يُشَكُّ بأنّ الآباء والأصدقاء والمعلّمون يقيمون في السرّ طقوسًا سوداء، عندها يخاف الطفل فعلًا.

عندما حدّثوني للمرة الأولى عن العلاقة الجنسيّة بين الرجل والمرأة قلتُ إن هذا مستحيلٌ بما أنّ ذلك يفترض أن والديّ يفعلان ذلك أيضًا وكنت أحترمهما كثيرًا بحيث لم أصدّق ذلك. كنت أقول أنّ الأمر كان مقزّزًا جدًا بحيث لم أكُن لأفعله أبدًا. لسوء الحظّ اكتشفت بعدها بقليلٍ أني كنت مخطئةً عندما سمعت ما كان والداي يفعلانه... كانت هذه اللحظة فظيعةً؛ خبأت وجهي تحت الغطاء مغلقةً أذنيّ وتمنيت لو كنت بعيدةً الف كيلومترٍ من هناك[35].

كيف ننتقل من صورة أناسٍ لابسين ومحترمين، هؤلاء الناس الذين يعلّمون الاحتشام، والتحفّظ، والعقل، إلى صورة حيوانين عاريين يلتحمان؟ هنا يتعارض الكبار مع نفسهم حيث يزعزعون قاعدتهم، ويغرقون السماء في الظلام الدامس. يرفض الطفل غالبًا الحقيقة البغيضة بعنادٍ قائلًا: «والداي لا يفعلان هذا». أو يحاول أن يعطي لنفسه صورةً محترمةً عن الإيلاج، وقد قالت فتاةٌ صغيرةٌ: «عندما يريد المرء طفلًا، يذهب إلى الطبيب؛ ويخلع ملابسه، ويعصب عينيه، لأنه يجب ألّا ينظر؛ ويوثق الوالدين ببعضهما ويساعد كي تسير الأمور كما ينبغي»؛ لقد غيّرت العمل الغرامي إلى عمليّةٍ جراحيّةٍ، غير مستحبّةٍ كثيرًا بالتأكيد، ولكن محترمةٍ كجلسةٍ لدى طبيب الأسنان. ولكن رغم الرفض والتهرّب، يتغلغل الانزعاج والشك إلى قلب الطفلة؛ وتنتج ظاهرةٌ مؤلمةٌ كالفطام: لم يعد الأمر اقتلاع الطفل من جسد أمه، ولكن العالم الحامي ينهار حوله؛ ويجد نفسه بلا سقفٍ فوق رأسه، متروكًا، وحيدًا للغاية أمام مستقبلٍ مظلمٍ. وما يزيد قلق الفتاة، هو أنها لا تنجح في الإحاطة تمامًا باللعنة الغامضة التي تُثقِل كاهلها. فالمعلومات التي حصلت عليها غير متوافقةٍ، والكتب متناقضةٌ؛ حتى المؤلّفات العلمية لا تبدّد الظلال الكثيفة؛ وألف سؤالٍ يُطرَح: هل العملية الجنسية مؤلمةٌ؟ أو ممتعةٌ؟ وكم تستغرق من الوقت؟ خمس دقائق أم الليل بطوله؟ نقرأ أحيانًا أن امرأةً أصبحت أمًا بعد عناقٍ، وأحيانًا ظلّت عقيمةً بعد ساعاتٍ من اللذة الحسّية. هل «يعمل الناس ذلك» كل يومٍ؟ أو نادرًا؟ يحاول الطفل الحصول على معلوماتٍ بقراءة

35- ذكرها الدكتور ليبمان، الشباب والجنس. dr.Liepmann, Jeunesse et esxualitè.

الإنجيل، والتنقيب في المعاجم، وسؤال رفاقٍ ويتلمّس طريقه في العتمة وفي الاشمئزاز. حول هذه النقطة هناك وثيقةٌ هامةٌ، وهي التحقيق الذي قام به الدكتور ليبمان؛ وهذه بعض الردود التي أعطته إياها فتياتٌ تتعلّق بتعرّفهنّ على الجنس:

تابعت التجوال بأفكاري المشوّشة والغريبة. لم يتطرّق أحدٌ للموضوع، لا أمي ولا معلّمة المدرسة؛ لم يعالج أيّ كتابٍ المسألة بعمقٍ. شيئًا فشيئًا كان نوعٌ من الخطر الغامض والقبح يُنسَج حول الفعل الذي بدا لي في البدء طبيعيًا. كانت الكبيرات اللواتي بلغن سن الثانية عشرة يستخدمن المزاح الفجّ لخلقِ ما يشبه الجسر بينهنّ وبين رفاق صفّنا. كان كلّ هذا أيضًا غير واضحٍ ومثيرًا للاشمئزاز بحيث كانت النقاشات تدور حول نقطة معرفة أين يتشكّل الأطفال؛ إذا كان الأمر لا يتمّ سوى مرةٍ واحدةٍ لدى الرجل بما أن الزواج كان مناسبةً لمثل هذه الجلبة. وكان الطمث الذي بدأ لديّ عندما بلغت الخامسة عشرة مفاجأةً جديدةً لي. وجدت نفسي بدوري مجرورةً إلى داخل الحلقة بشكلٍ ما...

... التعرّف إلى الجنس! إنه تعبيرٌ كان يجب عدم الإشارة إليه في منزل والديّ!... كنت أبحث في الكتب، لكني كنت أعاني وأتوتّر في بحثي دون أن أعرف كيف أجد الطريق الذي يجب أن أسلكه... كنت أدرس في مدرسةٍ للصبيان: بالنسبة للمعلّم كانت المسألة تبدو غير موجودةٍ... كتاب هورلام «صبيٌّ صغيرٌ وبُنيّةٌ»، Horlam Garconnet et fillette أوصلني أخيرًا للحقيقة. تبدّدت لديّ حالة التشنّج وفرط التهيّج غير المحتملة، رغم أني أصبحت عندئذٍ تعيسةً جدًا واحتجت إلى وقتٍ طويلٍ لأعترف وأفهم أنّ الشهوانيّة والجنس يشكّلان الحبّ الحقيقيّ.

مراحل تعلّمي: 1- الأسئلة الأولى وبعض المفاهيم الغائمة (غير المُرضِية أبدًا). منذ سنّ الثالثة والنصف وحتّى الحادية عشرة... لا أجوبة على الأسئلة التي كنت أطرحها في السنوات التالية. عندما بلغتُ السابعة عندما كنت أطعم أرنبي فرأيت فجأةً صغارًا عاريةً تزحف تحتها... وقالت لي أمي إنّ الصغار تنمو لدى الحيوانات وأيضًا لدى الإنسان في بطن الأم وتخرج من خاصرتها. بدت لي هذه الولادة من الخاصرة غير منطقيّةٍ... روت لي إحدى الخادمات كثيرًا من الأشياء حول الحمل والطمث... وأخيرًا، سألت أبي حول وظيفته الحقيقية، فأجابني بقصصٍ غامضةٍ

عن غبار الطلع والمدقّة. 2- بعض محاولات التعلّم الشخصيّة (11-13 سنةً): أ) في الحياة اليومية؛ ب) في المؤلّفات العلمية.

عندما بلغت الثامنة، كنت ألعب غالبًا مع صبيٍّ في مثل سنّي. تطرّقنا إلى الموضوع ذات مرّةٍ. كنت أعرف قبلاً من امّي أن المرأة لديها بيوضٌ كثيرةٌ في جسمها... وأن الطفل يولد من إحدى هذه البيضات كلّما شعرت الأم برغبةٍ شديدةٍ في ذلك... وعندما شرحت نفس الأمر لرفيقي الصغير، تلقّيت منه هذا الجواب: «أنت حمقاء جدًا! عندما يرغب جزّارنا وزوجته بطفلٍ، يذهبان إلى السرير ويقومان بأشياء مشينةٍ». شعرتُ بالاستنكار... كان لدينا حينها (حوالي الاثنتي عشرة ونصف) خادمةٌ كانت تروي لنا كل أنواع القصص الشنيعة. لم أكن أخبر والدتي بكلمةٍ منها لأني كنت أشعر بالخجل؛ لكني سألتها إن كانت الفتاة تلتقط طفلاً عندما تجلس على ركبتي رجلٍ. فشرحت لي كلّ شيءٍ بقدر المستطاع.

عرفت في المدرسة من أين يخرج الأطفال وشعرت بأنّ ذلك كان شيئًا فظيعًا. ولكن كيف كانوا يأتون إلى العالم؟ كنا نجعل من الأمر كلتانا فكرةً مخيفةً نوعًا ما، خصوصًا منذ ما حدث ذات صباحٍ شتائيٍّ وأنا ذاهبةٌ إلى المدرسة، في العتمة، صادفنا معًا رجلاً أظهر لنا أعضاءه التناسليّة وقال لنا مقتربًا منّا: «ألا يبدو لكما هذا لطيفًا جدًا؟» كان نفورنا نحن الاثنتين لا يوصف وشعرنا بالاشمئزاز. حتى سنّ الواحدة والعشرين كنت أتصوّر أن الأطفال يأتون إلى العالم عبر السرّة.

أخذتني فتاةٌ جانبًا وسألتني: «هل تعرفين من أين يخرج الأطفال؟» وأخيرًا قالت لي: «عجبًا! كم أنت غبيّةٌ! الأطفال يخرجون من بطون النساء وكي يأتوا إلى العالم، يجب أن يفعلن مع الرجال شيئًا مثيرًا للقرف!» بعد ذلك، شرحت لي هذا القرف بالتفاصيل. لكن ذلك جعلني أتغيّر، رافضةً حتمًا أن أتصوّر أن مثل هذه الأمور تجري. كنا ننام في نفس الغرفة مع والدينا... وفي إحدى الليالي التالية سمعت ما لم أكن أصدّق أنه ممكنٌ عندها شعرت بالخجل، أجل، شعرت بالخجل من والديّ. كلّ هذا جعلني شخصًا آخر. كنت أشعر بآلامٍ روحيّةٍ فظيعةٍ. كنت أعتبر نفسي مخلوقةً فاسدةً جدًا لأني أعرف مثل هذه الأشياء.

يجب القول أنّ التعليم المنطقيّ نفسه لن يحلّ المشكلة؛ رغم كلّ نوايا الأهل والأساتذة الطيّبة، لا يمكن وضع التجربة الشهوانيّة ضمن كلماتٍ ومفاهيم؛ لا يمكن فهمها إلا إذا عشناها؛ وكلّ تحليلٍ، مهما كان جادًّا، سيكون له جانبٌ هزليٌّ وسيفشل في نقل الحقيقة. أما فيما يخصّ غراميّات الزهور الشاعريّة وأعراس الأسماك، مرورًا بالكتكوت والقطّ والجدي، ارتقاءً حتى النوع البشري، فيمكنها نظريًّا إيضاح غموض الفعل الجنسيّ: أما غموض الشهوة والحبّ الجنسي فيبقى كما هو. كيف نفسّر لطفلٍ هادئ المشاعر متعة مداعبةٍ أو قبلةٍ؟ نُعطي ونتلقّى قُبَلًا ضمن الأسرة وأحيانًا حتّى على الشفاه: لماذا يثير التقاء المخاطيّات هذا الدُّوار في بعض الحالات ؟ كأننا نصف الألوان لشخصٍ أعمى. طالما فُقِد حدس التشوّش والرغبة اللّذين يعطيان للوظيفة الجنسيّة معناها ووحدتها، تبدو عناصرها المختلفة صادمةً، مخيفةً. تثور الفتاة بصورةٍ خاصّةٍ عندما تفهم أنها عذراء ومختومةٌ، ولكي تصبح امرأةً ينبغي أن يخترقها عضو رجلٍ. وبما أن عرض الجسد هو شذوذٌ شائعٌ، فقد رأت كثيرٌ من الفتيات قضيبًا بحالة الانتصاب: على كلّ حالٍ لقد راقبن أعضاء حيواناتٍ ومن المؤسف أن عضو الحصان هو الذي يلفت نظرهنّ غالبًا؛ ويخيفهنّ بالطبع. الخوف من الولادة، والخوف من العضو الذكريّ، والخوف من «النوبات» التي تتهدّد الأزواج، والقرف من ممارساتٍ قذرةٍ، والاستهزاء بحركاتٍ مجرّدةٍ من كل معنىً، كلّ هذا يدعو الفتاة غالبًا إلى أن تقول: «لن أتزوج أبدًا»[36]. ذاك هو أفضل دفاعٍ ضد الألم، والجنون، والفحش. وعبثًا نحاول أن نشرح لها أنه عندما يحين اليوم لن يبدو لها فضّ البكارة ولا الولادة أمرًا بهذه الفظاعة، وأنّ ملايين النساء خضعن له ولم يتأذّين. عندما يخشى الطفل حدثًا خارجيًّا نحرّره منه، ولكن ليس بأن نقول له إنه سيتقبّله بصورةٍ طبيعيةٍ فيما بعد: إنه يخشى أن يجد نفسه في أعماق المستقبل مجنونًا ضائعًا. وتطوّر اليرقة التي تصبح عذراء وفراشةً يصيب القلب بانزعاجٍ:

36- كتبت يوسو غوسيير Yussu Gauciere في البرتقالة الزرقاء: «مفعمةً بالقرف، رجوت الله أن يمنحني نزعةً دينيةً تسمح لي ألا أتبع أبدًا قوانين الأمومة. وبعد أن فكّرت مليًّا بالأسرار المثيرة للاشمئزاز التي كنت أخفيها رغمًا عني، مستمدّةً القوة من كلّ هذا النفور كما لو كان إشارةً إلهيّةً، استنتجت ما يلي: لا شكّ أنّ العفّة هي نزعتي». فكرة الثّقب وسواها ترعبها. «هذا إذًا ما يجعل ليلة الزفاف رهيبةً! هذا الاكتشاف يقلقني، مضيفًا إلى القرف الذي كنت أشعر به من قبل الرعب الجسديّ من هذه العمليّة التي كنت أتخيّلها مؤلمةً للغاية. كان خوفي ليصبح أكبر لو افترضتُ أن الولادة تتمّ عبر هذا الطريق، ولكن بما أني علمت قبل زمنٍ طويلٍ أن الأطفال يولدون من بطن أمهم، كنت أعتقد أنهم كانوا ينفصلون عنه بالانقسام».

أما زالت هي نفس اليرقة بعد هذا النوم الطويل؟ وهل تتعرّف إلى نفسها تحت هذه الأجنحة اللامعة؟ لقد صادفتُ فتياتٍ كانت رؤية عذراء تغرقهنّ في حلمٍ مفزعٍ.

ومع ذلك يحدث التطوّر. لا تدرك الفتاة نفسها معناه، لكنها تدرك أن شيئًا ما يتغيّر خفيةً، في علاقاتها بالعالم وبجسدها: فهي حسّاسةٌ لبعض اللمسات والنكهات والروائح التي كانت سابقًا لا تعني لها شيئًا؛ وتدور في رأسها صورٌ غريبةٌ؛ ولا تتعرّف جيّدًا على نفسها في المرآة؛ تشعر أنها «مضحكةٌ»، وأنّ للأشياء هيئةً «مضحكةً»؛ إنها إميلي الصغيرة التي وصفها ريتشارد هيوز Richard Hughes في «إعصارٍ في جامايكا»:

> **كانت إميلي قد جلست في الماء حتى بطنها لتتبرّد وكانت مئات الأسماك الصغيرة تداعب بأفواهها الفضوليّة كلّ بوصةٍ من جسدها؛ كأنّها قبلاتٌ خفيفةٌ دون معنىً. كانت قد بدأت مؤخّرًا تكره أن يمسّها أحدٌ، لكن هذا كان كريهًا. لم تستطع تحمّله أكثر: فخرجت من الماء وارتدت ثيابها.**

حتى تسّا Tessa المتناسقة لمارغريت كندي Margaret Kennedy تعرف هذا الاضطراب الغريب:

> **فجأةً، شعرت أنها تعيسةٌ للغاية. نظرت عيناها بثباتٍ إلى عتمة البهو الذي قسمه إلى نصفين ضوء القمر الذي كان يدخل كالموج من الباب المفتوح. لم تستطع البقاء. نهضت بقفزةٍ مطلقةً صيحةً صغيرةً مبالغًا بها: «أوه! كم أكره العالم بأسره!»، عندئذٍ ركضت لتختبئ في الجبل، خائفةً وغاضبةً، يلاحقها حدسٌ حزينٌ بدا يملأ المنزل الهادئ. وتعثّرت في الممرّ وتمتمت من جديدٍ لنفسها: «أودّ أن أموت، أودّ أن أكون ميتةً».**
>
> **كانت تعلم أنها لم تكن تعني ما كانت تقول، لم تكن ترغب البتّة في الموت. لكن كان يبدو أنّ عنف هذه الكلمات يرضيها...**

في كتاب كارسون ماك كولر الذي ذكرناه قبلًا يصف مطوّلًا هذه اللحظة المُقلِقة.

> **كان ذلك في الصيف الذي كانت فرانكي تشعر فيه بأنها مشمئزّةٌ ومتعبةٌ لكونها فرانكي. كانت تكره نفسها، أصبحت متشرّدةً ولا تصلح لشيءٍ تجول في أرجاء المطبخ: متّسخةً وجائعةً، بائسةً وحزينةً. عدا عن ذلك، كانت مجرمةً... كان هذا الربيع فصلاً**

غريبًا لا نهاية له. بدأت الأشياء تتغيّر ولم تكن فرانكي تفهم هذا التغيّر... شيءٌ ما في الأشجار المخضرّة وأزهار نيسان كان يجعلها حزينةً. لم تكن تعرف لماذا هي حزينةٌ، ولكن بسبب هذا الحزن الخاصّ، فكّرت أنّه كان عليها أن تغادر المدينة وتذهب بعيدًا. لأن الربيع المتأخر هذا العام كان فاترًا وحلوًا. كانت فترات بعد الظهر الطويلة تمرّ ببطءٍ وكانت عذوبة الفصل الخضراء تثير اشمئزازها... كانت أشياء كثيرةٌ تجعلها فجأةً ترغب في البكاء. في الصباح الباكر، كانت تخرج أحيانًا إلى الباحة وتبقى هناك فترةً طويلةً ترقب الفجر؛ وكأنّ سؤالًا كان يولد في قلبها ولم تكن السماء تجيب عليه. أشياء لم تكن أبدًا قد لاحظتها من قبل وبدأت تلمسها: أنوار المنزل التي كانت تلمحها مساءً وهي تتنزّه، وصوتٌ غير معروفٍ آتٍ من طريقٍ مسدودٍ. كانت تنظر إلى الأنوار، وتسمع الصوت وشيءٌ ما بداخلها يتصلّب منتظرًا. لكن الأنوار كانت تنطفئ، والصوت يسكت، ورغم انتظارها، كان ذلك كلّ شيءٍ. كانت تخاف من هذه الأشياء التي كانت تجعلها تتساءل فجأةً مَن هي، وماذا ستصبح في هذا العالم، ولماذا كانت هناك، تنظر إلى نورٍ أو تصغي، أو ترمق السماء: وحيدةً. كانت خائفةً وانكمش صدرها بشكلٍ غريبٍ.

...كانت تتنزّه في المدينة وكانت الأشياء التي تراها وتسمعها تبدو ناقصةً وكان هناك هذا القلق داخلها. وسارعت لفعل شيءٍ: لكنه لم يكن أبدًا ما يجب فعله... بعد أوقات الغسق الطويلة في الفصل، عندما كانت قد ذرعت كل المدينة، كانت أعصابها تنفعل كلحن جازٍ كئيبٍ، وكان قلبها يتصلّب وبدا أنه يتوقّف.

ما يجري في هذه الفترة المضطربة، هو أنّ الجسد الطفوليّ أصبح جسد امرأةٍ تملؤه الشهوة. تبدأ نوبة البلوغ[37] في حوالي الثانية عشرة أو الثالثة عشرة إلا في حالة وجود قصورٍ غُدّيٍّ حيث يظل الشخص في المرحلة الطفولية. تبدأ هذه النوبة لدى الفتاة بصورةٍ باكرةٍ أكثر بكثيرٍ منها لدى الصبي وتجلب تغيّراتٍ أكبر بكثيرٍ. وتعبرها الفتاة بقلقٍ، وانزعاجٍ. عندما يتطوّر الثديان والأشعار، ينمو شعورٌ يتغيّر أحيانًا إلى فخرٍ لكنه يكون مخجلًا في الأصل؛ وفجأةً، تُبدي الفتاة حياءً، وترفض أن تظهر عاريةً حتى أمام أخواتها أو أمها، وتفحص نفسها باستغرابٍ ممزوجٍ بالفزع وتتابع بقلقٍ انتفاخ هذه النواة القاسية، المؤلمة قليلًا، التي ظهرت تحت الحلمة التي كانت إلى فترةٍ قريبةٍ غير ضارّةٍ كالسرّة تمامًا. وتشعر

37- وصفنا عمليّة البلوغ الفزيولوجيّة المحضة في الجزء الأول، الفصل الأول.

بالقلق لأنها تشعر بنقطةٍ ضعيفةٍ لديها: لا بد أن هذا الجرح خفيفٌ مقارنةً بآلام الحرق، أو نوبة ألم الأسنان؛ ولكن سواءً كانت الآلام بسبب حادثٍ أو مرضٍ فهي دومًا أشياء غير طبيعيةٍ؛ بينما الثدي الشابّ تسكنه عادةً لا ندري أيّ ضغينةٍ صمّاء. شيءٌ ما يحدث، وهو ليس مرضًا، فرضه قانون الوجود نفسه ومع ذلك هو صراعٌ، وتمزّقٌ. بالتأكيد، منذ الولادة حتى البلوغ كبرت الفتاة، لكنها لم تشعر أبدًا أنها كبرت: يومًا بعد يومٍ، كان جسدها موجودًا بالنسبة لها كشيءٍ صحيحٍ مكتملٍ؛ الآن هي «تتشكّل»: الكلمة ذاتها تخيفها؛ والظواهر الحياتية ليست مُطَمئِنةً إلا عندما تتوازن وتتخذ هيئة زهرةٍ يانعةٍ، أو حيوانًا برّاقًا؛ لكن الفتاة تشعر بتبرعم ثديها بغموض كلمة «حيّ». إنها ليست ذهبًا ولا ماسًا، لكنها مادةٌ غريبةٌ، متحرّكةٌ، غير مؤكّدةٍ، تتفاعل في داخلها كيمياء غير نقيّةٍ. إنها معتادةٌ على شعرٍ ينفرد بهدوءِ شلّةٍ من الحرير؛ لكنّ هذا النموّ الجديد تحت إبطيها، وأسفل بطنها، وتغيّر الشكل إلى حيوانٍ أو طحالب. وسواءً أكانت قد نُبِّهت أم لا، فهي تحسّ في هذه التغيّرات غائيّةً تنتزعها من نفسها؛ هاهي ذي مرميّةٌ داخل حلقةٍ حيويّةٍ تتجاوز لحظة وجودها نفسه، وتدرك وجود تبعيّةٍ تكرّسها للرجل، وللطفل، وللقبر. ويبدو الثديان بحدّ ذاتهما تكاثرًا فاضحًا لا فائدة منه. كان لكلّ شيءٍ حتى الآن استعمالٌ واضحٌ: الذراعان، والساقان، والجلد، والعضلات، وحتى الأليتين المستديرتين اللتين نجلس عليهما؛ وحده العضو التناسليّ الموصوف بأنه عضوٌ بوليٌّ كان مريبًا بعض الشيء، ولكنّه كان سرًّا لا يراه الغير. كان الثديان يقبعان تحت القميص والكنزة، وهذا الجسد الذي كانت الفتاة تخلط بينه وبين ذاتها يبدو لها شيئًا شهوانيًا؛ إنه شيءٌ ينظر إليه الآخرون ويرونه. قالت لي امرأةٌ: «ظللتُ خلال سنتين أرتدي قميصًا فضفاضًا كي أخفي صدري لفرط ما كنت أخجل به». وقالت أخرى: «ما زلت أذكر الاضطراب الغريب الذي شعرت به عندما انحنت صديقةٌ لي في نفس عمري لتلتقط كرةً، وكان جسمها قد نما قبل جسمي، لمحتُ من فتحة قميصها ثديين كبيرين: عبر هذا الجسد القريب جدًا من جسدي، والذي سيصبح جسدي مثله، احمررت خجلًا من نفسي». وقالت لي امرأةٌ أخرى: «كنت أتنزّه في سن الثالثة عشرة، عارية الساقين بثوبٍ قصيرٍ، وأصدر رجلٌ تعليقًا هازئًا على ربلتيّ البدينتين. في اليوم التالي، جعلتني والدتي أرتدي جوارب وأزيد تنورتي طولًا: لكنّي لن أنسى أبدًا الصدمة المفاجئة التي شعرت بها لأن أحدًا رآني». تشعر

الفتاة أن جسدها يُفلِت منها، أنّه لم يعد التعبير الواضح لفرديتها؛ أصبح غريبًا عنها؛ وفي نفس الوقت يعتبرها الغير شيئًا: يتابعونها بنظراتهم في الطريق، ويعلّقون على شكلها؛ تتمنى لو كانت غير مرئيّةٍ؛ وتخشى أن تصبح جسدًا شهوانيًّا وتخشى إظهار جسدها.

ويتجلّى هذا الاشمئزاز لدى العديد من الشابّات بالرغبة في النحول: فلا يعدن يرغبن في الأكل؛ ويتقيّأنَ إن أُجبِرنَ عليه؛ ويراقبن وزنهنّ باستمرارٍ. وتصبح أخرياتٌ خجولاتٍ بشكلٍ مرضيٍّ؛ ويصبح دخول قاعةٍ أو الخروج إلى الشارع عذابًا. انطلاقًا من ذلك تتطوّر أحيانًا أمراضٌ نفسيّةٌ. مثالٌ نموذجيٌّ على ذلك هو مثال المريضة التي تصفها **جانيت** تحت اسم **ناديا** في «الهواجس والهبوط النفسي Les Obsessions et la psychasthènie»:

كانت ناديا شابةً تنتمي إلى عائلةٍ ثريّةٍ وذكيّةً بشكلٍ لافتٍ؛ أنيقةً، فنانةً، كانت موسيقيّةً ممتازةً بشكلٍ خاصٍّ؛ ولكنّها بدت منذ الطفولة عنيدةً وسريعة الهياج: «كانت ترغب جدًّا بأن تكون محبوبةً وتطالب الجميع بحبٍّ جنونيٍّ، والديها، أخواتها، وخادماتها: ولكنها ما إن تتلقّى بعض الحنان حتى تصبح متطلّبةً ومسيطرةً إلى درجةٍ تنفّر الناس؛ وهي مشكّكةٌ بشكلٍ فظيعٍ، وكانت سخرية أولاد عمها الذين كانوا يرغبون في تغيير طباعها تصيبها بشعورٍ بالخجل ينصبّ على جسدها». من جهةٍ أخرى كانت حاجتها لأن تكون محبوبةً توحي إليها بالرغبة في البقاء طفلةً، أن تظلّ على الدوام طفلةً صغيرةً يداعبونها ويمكنها طلب أيّ شيءٍ، وبكلمةٍ واحدةٍ كان تفكيرها بالكبر يصيبها برعبٍ... وزاد البلوغ المبكّر من فداحة الأشياء مازجًا مخاوف الاحتشام بمخاوفها من الكبر: أود أن أبقى نحيلةً على الدوام بما أن الرجال يحبّون النساء البدينات. يضاف إلى المخاوف السابقة رعب أشعار العانة، ونموّ الثديين. منذ سنّ الحادية عشرة، بما أنها كانت ترتدي تنوراتٍ قصيرةً، بدا لها أن الجميع ينظرون إليها؛ ألبسوها تنوراتٍ طويلةً وخجلت من قدميها، ومن أردافها، إلخ. وجعلها ظهور الطمث نصف مجنونةٍ؛ عندما بدأت أشعار العانة بالظهور، اقتنعت بأنها وحدها في العالم بهذه الفظاعة وحتى سنّ العشرين كانت تعمل على نتف الأشعار «لإخفاء زينة المتوحّشين هذه». وزاد نموّ ثدييها هذه الهواجس لأنها كانت دائمًا تخشى البدانة؛ لم تكن تكرهها لدى الغير؛ لكنها كانت تعتبر وجودها لديها عيبًا. «لا يهمّني أن أكون جميلةً، لكن ذلك كان ليصيبني بالخزي الشديد إن أصبحت منتفخةً، كان ذلك ليصيبني بالهلع؛ إذا أصبحت بدينةً لسوء الحظّ فلن أجرؤ على إظهار نفسي لأحدٍ».

عندئذٍ بدأت تبحث عن كل الوسائل كيلا تزداد طولاً، واتخذت كثيرًا من الاحتياطات، وقيّدت نفسها بأيامين وعهودٍ: أقسمت أن تكرّر خمس أو ستّ مرّاتٍ صلاةً، أن تقفز خمس مراتٍ على قدمٍ واحدةٍ. «إذا لمست أربع مراتٍ إصبع بيانو في نفس القطعة، أوافق على أن أكبر وألا أعود محبوبةً من أحدٍ». وقررتْ أخيرًا ألا تأكل. «لم أكن أريد أن أسمن ولا أن أزداد طولاً، ولا أن أبدو كامرأةٍ لأني كنت أودّ أن أبقى طفلةً صغيرةً على الدوام». ووعدتْ علنًا ألا تقبل أي غذاءٍ؛ ونقضت هذا العهد أمام تضرّعات أمها، لكنها شوهدت عندئذٍ تمضي ساعاتٍ جاثيةً على ركبتيها تكتب عهودًا وتمزّقها. بعد موت أمها عندما كانت في الثامنة عشرة، فرضت على نفسها النظام التالي: طبقان من الحساء الخفيف، صفار بيضةٍ، وملعقةٌ من الخلّ، وفنجانٌ من الشاي مع عصير ليمونةٍ كاملةٍ، هذا كل ما تأكله خلال اليوم. ونهشها الجوع. «كنت أمضي ساعاتٍ كاملةً أحيانًا أفكّر في الطعام لفرط جوعي: كنت أبتلع ريقي، وألوك منديلي وأتدحرج على الأرض لشدة رغبتي في الأكل». لكنها كانت تقاوم الإغراء. ورغم أنها كانت جميلةً، فقد كانت تزعم أن وجهها منتفخٌ ومغطىً بالحبوب؛ وإن أكد الطبيب أنه لا يراها كانت تقول إنه لا يفهم شيئًا، وإنه لا يعرف «كيف يشخّص حبوبًا بين الجلد واللحم». وانفصلت أخيرًا عن أسرتها لتسكن شقّةً صغيرةً لم تكن ترى فيها سوى الحارس والطبيب؛ لم تكن تخرج أبدًا؛ وكانت تقبل زيارة أبيها لها بصعوبةٍ؛ وأحدث لديها نكسةً خطيرةً عندما قال لها ذات يومٍ أنها تبدو بصحّةٍ جيّدةٍ؛ كانت تخشى أن يبدو وجهها بدينًا، وبشرتها مشرقةً، وعضلاتها ضخمةً. وكانت تعيش دائمًا تقريبًا في الظلام لأنها لم تكن تحتمل أن يراها أحدٌ.

كثيرًا ما يسهم سلوك الأهل في شعور الفتاة بالخجل من مظهرها الشكلي. قالت إحدى النساء[38]:

كنت أعاني من شعورٍ بالدونيّة شكلاً زادته انتقاداتٌ مستمرّةٌ في المنزل... كانت أمي بزهوّها المبالغ به تريد دائمًا أن تراني بصورةٍ خاصّةٍ بأبهى منظرٍ وكان لديها دومًا كثيرٌ من التفاصيل والملاحظات التي تبديها للخيّاطة كي تخفي عيوبي: الأكتاف متهدّلةٌ، الأرداف سمينةٌ، المؤخرة مسطّحةٌ، الثديان كبيران، إلخ. وبما أن عنقي كان منتفخًا لسنواتٍ، لم يُسمح لي بكشف عنقي... كنت أنزعج خصوصًا بسبب

38- ستيكل Stekel، المرأة الباردة.

قدميّ اللتين كانتا قبيحتين جدًا خلال فترة البلوغ. وكانوا يضايقونني بسبب طريقتي في المشي... كان هناك حتمًا شيءٌ من الصحة في كل هذا، لكنهم جعلوني تعيسةً لدرجةٍ كبيرةٍ، خصوصًا كمراهقةٍ، وكنت أحيانًا أخجل لدرجة أني لم أكن أعرف كيف أتصرّف؛ وحين كنت أصادف أحدًا، أول ما كان يتبادر إلى ذهني دومًا هو «لو كنت فقط أستطيع أن أخفي قدميّ».

يدفع هذا الخجل الفتاة إلى التصرّف بشكلٍ أخرق، والاحمرار بمناسبةٍ وغير مناسبةٍ؛ ويزيد هذا الاحمرار من خجلها ويصبح بحدّ ذاته مبعث خوفٍ. يروي **ستيكل** Stekel قصّة امرأةٍ[39] «كانت تحمرّ بشكلٍ مرضيٍّ وعنيفٍ عندما كانت شابّةً لدرجة أنها ظلّت خلال سنةٍ تضع ضماداتٍ حول وجهها مدّعيةً أنها تعاني من ألمٍ في الأسنان».

أحيانًا، في الفترة التي يمكن تسميتها فترة ما قبل البلوغ والتي تسبق ظهور الطمث، لا تكون الفتاة تشعر بعدُ بالاشمئزاز من جسدها؛ فهي فخورةٌ بأن تصبح امرأةً، وتتابع برضىً نضج صدرها، وتحشو صدر ثوبها بمناديل وتتفاخر أمام الفتيات الأكبر سنًّا؛ ولا تدرك بعدُ معنى الظواهر التي تحدث لها. ويكشفها لها طمثها الأول وتظهر مشاعر الخجل. وإن كانت موجودةً قبلًا فهي تترسّخ وتزداد اعتبارًا من هذه اللحظة. وتتشابه كلّ الشهادات: يبدو الحدث للطفلة دومًا مقرفًا ومُخزيًا، سواءً أخبروها أم لا. وكثيرًا ما يحدث أن تكون أمها قد أهملت تحذيرها؛ وقد ذكروا[40] أن الأمهات يكشفن لبناتهن بطيب خاطرٍ أسرار الحمل والولادة وحتى العلاقة الجنسية أكثر مما يكشفن أسرار الطمث؛ ذلك أنهنّ نفسهنّ يخشين هذه العبوديّة الأنثويّة، خشيةً تعكس الرعب القديم الخرافي من الذكور ينقلنها لأولادهنّ. عندما تجد الفتاة في ثيابها الداخليّة بقعًا مشبوهةً تعتقد أنها تعرّضت لإسهالٍ أو نزيفٍ مميتٍ، أو مرضٍ مخجلٍ. تبعًا لتحقيقٍ قام به **هافلوك إليس** Havelock Ellis على 125 تلميذةً في مدرسةٍ ثانويّةٍ أمريكيّةٍ، 36 لم يكنّ يعرفن مطلقًا في لحظة أول طمثٍ لهنّ أيّ شيءٍ عن الأمر، وكانت لدى 39 معلوماتٌ مبهمةٌ؛ أي أنّ أكثر من النصف من بينهنّ كنّ جاهلاتٍ.

39- المرجع السابق.

40- انظر مؤلفات دالي Daly وشادويك Chadwick، التي ذكرتها هـ. دويتش H. Deutsch، في سيكولوجية النساء Psychology o Women.

وبحسب **هيلين دوتش**، لم تتغيّر الأمور مطلقًا في عام 1946. ويذكر **إليس** حالة شابّةٍ ألقت بنفسها في نهر السين في سانتوان لأنها كانت تظنّ أنها مصابةٌ «بمرضٍ مجهولٍ». ويروي **ستيكل** أيضًا في «رسائل إلى أمٍّ» حكاية طفلةٍ حاولت الانتحار، لأنها رأت في نزيف الدورة الشهرية علامة عقابٍ عن الشوائب التي كانت تلطّخ روحها. من الطبيعي أن تخاف الفتاة: إذ يبدو لها أنّ حياتها تُفلِتُ منها. وبحسب **كلاين** Klein ومدرسة التحليل النفسي الإنجليزية، يعبّر الدم في نظرها عن جرحٍ في الأعضاء الداخليّة. حتى وإن خفّفت بعض الآراء الحذرة من مخاوفها الحادّة، فهي خجلى، تشعر أنها متّسخةٌ: وتسارع إلى المغاسل، وتحاول غسل أو إخفاء ملابسها الداخليّة الملوّثة. نجد لهذه التجربة روايةً نموذجيّةً في كتاب **كوليت أودري** «في أعين الذكرى»:

> **وسط هذا الهيجان، المأساة الحادّة والمغلقة. ذات مساءٍ وأنا أخلع ملابسي، ظننت أنني مريضةٌ؛ لم يفزعني ذلك ولم أروه لأحدٍ أملاً في أن يزول في الغد... بعد أربعة أسابيع، عاودني الداء، أكثر عنفًا. ذهبت بهدوءٍ لألقي سروالي الداخلي في سلّة الغسيل خلف باب الحمّام. كان الجوّ حارًا لدرجة أنّ بلاط الممرّ كان فاترًا تحت قدميّ العاريتين. وعندما استلقيت في سريري لدى عودتي فتحت أمي باب غرفتي: أتت لتشرح لي الأمر. لا أستطيع أن أتذكّر وقع كلماتها عليّ في تلك اللحظة، ولكن بينما كانت تهمس، مدّت كاكي رأسها فجأةً. رؤية هذا الوجه المدوّر والفضولي أخرجني عن طوري. صرخت عليها كي تذهب وتوارت خائفةً. رجوت أمي أن تذهب لتضربها لأنها لم تقرع باب الغرفة قبل أن تدخل... هدوء أمي، وهيئتها المطّلعة والسعيدة الهادئة أسهما في جعلي أفقد صوابي. وعندما ذهبتْ، غرقت في ليلٍ متوحّشٍ.**
>
> **أمران عادا إلى ذاكرتي فجأةً: قبل بضعة أشهرٍ، كنّا عائدتين من نزهةٍ مع كاكي، كنا أنا وأمي قد قابلنا طبيب بريفاس العجوز، ذا القامة المربّعة كالحطّاب واللحية الكثّة البيضاء. وقال ناظرًا إليّ: «أصبحت ابنتك كبيرةً يا سيدتي»؛ وفورًا كرهته دون أن أفهم شيئًا. بعد ذلك بقليلٍ، لدى عودة والدتي من باريس وضعت في صوانٍ صرةً فيها مناشف صغيرةٌ جديدةٌ. وسألت كاكي: «ما هذا؟» واتّخذت أمي ذلك المظهر الطبيعي الذي يتّخذه الأشخاص الكبار الذين يكشفون لك جزءًا من الحقيقة مخفين الأجزاء الثلاثة الباقية: «هذا من أجل كوليت، قريبًا». ظللتُ بكماء، غير قادرةٍ على طرح سؤالٍ واحدٍ، كرهتُ أمي.**

قضيت تلك الليلة أتقلّب في سريري. كان ذلك غير ممكنٍ. سأستيقظ. أخطأت أمي، سيزول ذلك ولن يعود ثانيةً... في اليوم التالي، متغيّرةً وملوّثةً سرًا، كان عليّ مواجهة الآخرين. نظرت بكرهٍ إلى أختي لأنها لم تكن تعرف بعدُ، لأنها أصبحت فجأةً، دون أن تدري، تتمتع بتميّزٍ ساحقٍ عليّ. ثم بدأت أكره الرجال الذين لن يجرّبوا هذا أبدًا، والذين كانوا يعرفون. وأخيرًا كرهت أيضًا النساء لأنهن يقفن إلى جانبهم بهدوءٍ. كنت متأكّدةً أنهنّ لو كنّ قد أُعلِمن بما يحدث لي، كنّ ابتهجن جميعًا. كنّ سيفكّرن «ها أنت تمرّين به بدورك». ما إن كنت أرى إحداهنّ حتى أقول لنفسي، هذه أيضًا. وتلك. لقد قهرني العالم. كنت أمشي محرَجةً ولا أجرؤ على الركض. كان يبدو أن التراب، والخضرة الحارّة بسبب الشمس، والغذاء، تطلق رائحةً مريبةً... مرت الأزمة وعدت آمل خلافًا لكل منطقٍ ألّا تتكرّر. بعد شهرٍ، اضطررت للخضوع للأمر الواقع وقبول الداء بصورةٍ نهائيّةٍ، بدهشةٍ كبيرةٍ هذه المرة. من الآن أصبح في ذاكرتي «ما قبل». كلّ ما تبقّى من وجودي لن يصبح سوى «ما بعد».

تجري الأمور بشكلٍ مماثلٍ بالنسبة لمعظم الفتيات الصغيرات. تكره كثيراتٌ منهنّ أن يفشين سرّهنّ لمحيطهنّ. روت لي صديقةٌ أنها كانت تعيش دون أمٍّ بين والدها ومعلّمةٍ، وأمضت ثلاثة أشهرٍ نهبًا للخوف والخجل، مخبّئةً ثيابها الداخليّة الملطّخة، قبل أن يُكتَشَف أنّ الطمث بدأ لديها. حتى الفلاحات اللواتي قد نظنّ أنّهنّ صلباتٌ بفضل المعرفة التي اكتسبنها من أكثر مظاهر الحياة الحيوانية جلافةً يشعرن فَزِعاتٍ بهذه اللعنة بما أنّ الطمث ما زال موضوعًا محرّمًا في الريف. عرفتُ فلاحةً شابّةً ظلّت شتاءً بكامله تغسل ثيابها الداخلية خفيةً في الجدول المتجمّد، وترتدي من جديدٍ قميصها المبلل على الجلد مباشرةً، لتخفي سرّها الذي لا يمكن البوح به. أستطيع أن أذكر مئة حدثٍ مشابهٍ. حتى الاعتراف بهذا الشقاء المدهش لا يمثّل خلاصًا. لا شكّ أنّ هذه المرأة التي صفعت ابنتها بقسوةٍ قائلةً: «أيتها الغبية! أنت ما زلت صغيرةً جدًا على ذلك» هي استثناءٌ. لكن العديدات منهنّ يظهِرن استياءً؛ معظمهنّ لا يعطين الطفلة شرحًا كافيًا وتظلّ هذه مليئةً بالقلق أمام الوضع الجديد الذي بدأته أول نوبة طمثٍ: فتسأل نفسها إن كان المستقبل يخبئ لها مزيدًا من المفاجآت المؤلمة؛ أو تتخيّل أنها من الآن فصاعدًا قد تصبح حاملًا لمجرّد وجود رجلٍ أو ملامسته، وتشعر تجاه الذكور برعبٍ حقيقيٍّ. حتى لو أُزيح عنها هذا القلق بواسطة تفسيراتٍ

منطقيّةٍ، فلن يعيد لها ذلك سلامها الداخلي. فيما مضى، كانت الفتاة تستطيع بشيءٍ من سوء النيّة أن تفكّر أنها ما تزال كائنًا لا جنسيًا، كانت تستطيع ألا تفكّر؛ كان يحدث لها حتى أن تحلم أنها ستستيقظ ذات يومٍ وقد تحوّلت إلى رجلٍ؛ الآن، تهمس الأمهات والخالات بهيئةٍ فخورةٍ: «إنها الآن فتاةٌ كبيرةٌ»؛ لقد ربحت جمعية السيّدات، وضممنها إليهنّ. وها هي تُنَسَّق نهائيًّا إلى جانب النساء. أحيانًا تكون فخورةً بذلك؛ وتفكّر بأنها قد أصبحت شخصًا كبيرًا وسيحدث انقلابٌ في حياتها. تيد مونييه[41] Thyde Monier مثلًا تروي ما يلي:

> **أصبحت العديدات منّا «فتياتٍ كبيراتٍ» خلال عطلتهنّ؛ وأصبحت أخرياتٌ كذلك في المدرسة نفسها. وعندئذٍ، كانت الواحدة تلو الأخرى تجلس على الكرسيّ في مراحيض الباحة كملكةٍ تستقبل رعاياها، وكنا نذهب «لنرى الدم».**

لكن سرعان ما يخيب أمل الفتاة، لأنها تدرك أنها لم تحرز أيّة مكاسب وأن الحياة تتابع سيرها. الشيء الجديد الوحيد، هو الحدث القذر الذي يتكرّر كلّ شهرٍ؛ هناك طفلاتٌ يبكين خلال ساعاتٍ عندما يعرفن أنهنّ محكوماتٌ بهذا المصير؛ وما يزيد ثورتهنّ أيضًا هو أن الرجال نفسهم يعرفون هذا العيب المخزي: فهنّ يرغبن على الأقل أن يظلّ هذا الوضع النسوي المهين محاطًا بالغموض بالنسبة لهم. ولكن لا، الآباء، والإخوة، وأبناء العم، والرجال، يعرفون وحتى يمزحون بشأنه أحيانًا. عندئذٍ يولد لدى الفتاة أو يزيد الاشمئزاز من جسدها الجنسيّ أكثر مما يجب. مع ذلك وبعد مرور المفاجأة الأولى، لا يُمحى الانزعاج الشهري: تشعر الفتاة كلّ مرّةٍ بالقرف نفسه أمام هذه الرائحة الباهتة الآسنة التي تنبعث تلقائيًّا ـ رائحة المستنقع، والبنفسج الذابل ـ أمام هذا الدم الأقل حمرةً، والمريب أكثر من الدم الذي كان يخرج من جروحها الطفولية. ستفكّر ليل نهار بتبديل ثيابها، وتراقب ملابسها الداخليّة، وملاءاتها، وتحلّ ألف مشكلةٍ صغيرةٍ عمليّةٍ ومثيرةٍ للاشمئزاز؛ في الأسر المقتصِدة، تُغسَل الفوط الصحيّة كلّ شهرٍ وتعود إلى مكانها بين أكداس المناديل؛ يجب إذًا إعطاء الأيدي المكلّفة بالغسيل، الغسّالة، والخادمة، والأم، والأخت الكبرى، هذه النفايات الخارجة من الشخص. أنواع الفوط التي تبيعها الصيدليات في علبٍ بأسماء زهورٍ: كاميليا، ادلويز، تُرمى بعد الاستعمال؛ ولكن في السفر، والاصطياف والرحلات القصيرة

41- أنا.

ليس من السهل التخلّص منها، بما أن رميها في المراحيض ممنوعٌ قطعيًّا. بطلة «يوميات تحليل نفسي»[42] Journal psychanalytique الشابة تصف كرهها للفوط الصحيّة؛ حتى أمام أختها لا تقبل أن تخلع ملابسها إلا في الظلام في وقت الدورة الشهرية. هذا الشيء المزعج، المُربِك، يمكن أن ينفصل خلال تمرينٍ عنيفٍ؛ وهو أمرٌ مخزٍ أكثر من سقوط السروال الداخلي وسط الشارع: هذا الاحتمال الشنيع يؤدي أحيانًا إلى حدوث هوسٍ نَهَكيٍّ psychasthenique. وبحركةٍ خبيثةٍ من الطبيعة، لا يبدأ الانزعاج والآلام غالبًا إلا بعد النزيف الذي يمكن ألا يُلاحظ في بدايته؛ وتعاني الشابّات غالبًا من اضطراب الطمث؛ ويتعرّضن لمفاجأةٍ خلال نزهةٍ، في الشارع، عند أصدقاءٍ، يخاطرن ـ مثل **السيدة دوشفروز**[43] ـ بتلويث ملابسهنّ، ومقعدهنّ؛ وبعضهن يجعلهنّ مثل هذا الاحتمال يعشن بقلقٍ دائمٍ. وكلما كانت الشابّة تشعر بالنفور من هذا العيب النسائيّ، كلما كانت مرغمةً على التفكير فيه بانتباهٍ كيلا تتعرّض للإذلال الفظيع من حادثٍ أو إسرارٍ.

وها هي مجموعة الأجوبة التي حصل عليها في هذا الشأن الدكتور **ليبمان**[44] خلال تحقيقه حول الجنس الشبابي:

> **في سنّ السادسة عشرة بدأ الحيض عندي وكنت خائفةً جدًا عندما وجدته ذات صباحٍ. في الحقيقة، كنت أعرف أن هذا سيحدث؛ لكنني شعرت بالخجل من ذلك إلى درجة أني بقيت مستلقيةً طيلة نصف النهار وكنت أجيب على كل الأسئلة بجملةٍ واحدةٍ: لا أستطيع النهوض.**
>
> **بقيت ساكتةً من الدهشة عندما بدأ الحيض عندي، وكنت لم أبلغ الثانية عشرة بعدُ. صُعِقتُ من الخوف وبما أن أمي اكتفت بإعلامي بشكلٍ جافٍّ بأن هذا سيتكرّر كل شهرٍ، اعتبرته أمرًا شنيعًا ورفضت قبول فكرة أنه لا يحدث للرجال أيضًا.**
>
> **هذه المغامرة جعلت أمي تقرّر إعلامي، دون أن تنسى الدورة الشهرية في الوقت نفسه. عندها أصبت بالخيبة الثانية لأنني ما إن حدث الحيض لديّ حتى هرعتُ**

42- ترجمة كلارا مالرو Clara Malraux.

43- تنكّرت السيدة دوشيفروز de Chevreuse بزيّ رجلٍ خلال العصيان وبعد مسيرٍ طويلٍ على ظهر حصانٍ، كُشف أمرها بسبب بقع دمٍ شوهدت على السرج.

44- انظر الدكتور و. ليبمان، W. Liepmann، الشباب والجنس.

مشرقةً من الفرح إلى أمي التي كانت ما تزال نائمةً وأيقظتها صائحةً: «أمّاه، لقد حدث الحيض!» واكتفت بالرد: «أمن أجل هذا توقظينني؟». رغم كل شيءٍ، اعتبرت الأمر انقلابًا حقيقيًا في وجودي.

شعرتُ بأكبر رعبٍ عندما حدث لدي الحيض للمرة الأولى لما لاحظت أن النزيف لم يتوقف بعد بضع دقائق. إلا أني لم أذكر كلمةً لأحد ولا لأمي. كنت قد بلغت للتوّ سنّ الخامسة عشرة. إضافةً إلى ذلك لم أعاني من ذلك إلا قليلاً. مرةً واحدةً أصبتُ بآلامٍ حادّةٍ لدرجة أنه أغمي عليّ وبقيت حوالي ثلاث ساعاتٍ في غرفتي ممدّدةً على الأرض. لكني لم أقل شيئًا كذلك.

عندما حدث الطمث لدي للمرة الأولى كنت في الثالثة عشرة من عمري تقريبًا. كنت قد تحدثت عنه مع رفيقاتي قبلًا وشعرت بنفسي فخورةً لأني أصبحت بدوري واحدةً من الكبيرات. وبكثيرٍ من الأهمّيّة شرحتُ لأستاذ الرياضة أني اليوم غير قادرةٍ على المشاركة في الدرس لأني كنت في فترة الحيض.

لم تعلمني أمي. في التاسعة عشرة من عمرها فقط بدأ لديها الحيض، وخوفًا من أن تُعَنَّف لأنها لوّثت ثيابها الداخليّة، دفنتها في الحقل.

بلغت سنّ الثامنة عشرة وعندها حدث لديّ الحيض[45] للمرة الأولى. لم تكن لديّ أيّ فكرةٍ عن الموضوع... في الليل أصبتُ بنزفٍ غزيرٍ مصحوبٍ بمغصٍ شديدٍ ولم أرتَح لحظةً واحدةً. منذ الصباح ركضت إلى أمي وقلبي يخفق وطلبت منها النصيحة دون أن أتوقف عن النشيج. لكني لم أحصل سوى على هذا التأنيب القاسي: «كان يجدر بك أن تنتبهي لذلك باكرًا وألا تلوّثي الملاءات والسرير هكذا». كان هذا كل شرحٍ حصلت عليه. بالطبع، بذلت جهدي لأعرف أيّة جريمةٍ اقترفتُ وشعرتُ بقلقٍ شديدٍ.

كنت أعرف الموضوع قبلاً. حتى أني كنت أنتظر الأمر بنفاد صبرٍ لأني كنت آمل أن تكشف لي أمي عندئذٍ طريقة تشكّل الأطفال. وأتى اليوم المشهود: لكن أمي لزمت

45- هي شابّةٌ تنتمي إلى عائلةٍ فقيرةٍ من برلين.

الصمت. إلا أني كنت فرحةً، أقول لنفسي: «الآن تستطيعين أيضًا صنع أطفالٍ: أنت سيّدةٌ».

تحصل هذه الأزمة في سنٍّ غضّةٍ؛ لا يبلغ الصبي سنّ المراهقة إلا حوالي سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة؛ وتتغيّر الفتاة إلى امرأةٍ بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة. لكن اختلاف تجربتهما لا يأتي من ذلك؛ ولا يكمن كذلك في المظاهر الفزيولوجية التي تمنح هذه التجربة أثرها الفظيع في حالة الفتاة: يأخذ البلوغ لدى الجنسين معنىً مختلفًا جذريًّا لأنه لا يؤذن بنفس المستقبل.

بالتأكيد يشعر الصبيان أيضًا وقت بلوغهم أنّ جسدهم شيءٌ مربكٌ، ولكنّهم يصعّدون لحظة تشكّلهم نحو هذه الذكورة باعتبارهم فخورين بذكورتهم منذ طفولتهم؛ ويظهرون بفخرٍ الأشعار التي تنبت على سيقانهم وتجعل منهم رجالًا؛ ويصبح عضوهم موضع مقارنةٍ وتحدٍّ أكثر من أي وقتٍ مضى. أن يصبحوا راشدين هو تغيّرٌ يصيبهم بالخجل: يشعر كثيرٌ من المراهقين بالقلق عندما تلوح حرّيّةٌ ذات شروطٍ؛ لكنهم يبلغون حظوة الذكر ببهجةٍ. وبالعكس، لكي تتغيّر الفتاة لتصبح شخصًا كبيرًا عليها أن تقبع ضمن الحدود التي تفرضها عليها أنوثتها. يستحسن الصبي في أشعاره النامية وعودًا غير محدّدةٍ: وتبقى هي حائرة أمام «المأساة الحادّة والمغلقة» التي تجمّد مصيرها. وفي حين يأخذ القضيب قيمته المميّزة من السياق الاجتماعي، يجعل هذا السياق نفسه من الحيض لعنةً. الواحد يرمز إلى الذكورة، والآخر إلى الأنوثة: ولأن الأنوثة تعني الغيرية والدونيّة فهي تُستَقبَلُ باستنكارٍ. وتبدو حياة الفتاة لها دائمًا محدّدةً بهذا الجوهر غير المحسوس الذي لم يفلح غياب القضيب في منحه صورةً إيجابيّةً: إنها تكتشف نفسها في هذا النزيف الأحمر الذي يخرج من بين فخذيها. إذا كانت قد تحمّلت مسؤوليّة وضعها فهي تستقبل الحدث ببهجةٍ... «أنت الآن سيّدةٌ». ويصعقها الحكم الدامي، وإن رفضته دائمًا؛ وتتردّد غالبًا: فالتلويث الطمثي يشدّها نحو الاشمئزاز والخوف. «هذا إذًا ما تعنيه هذه الكلمات: أن تكوني امرأةً!» القدر الذي كان يثقل عليها حتى الآن بشكلٍ مشوّشٍ ومن الخارج، متلبّدٌ في بطنها؛ لا توجد وسيلةٌ للإفلات منه؛ وتشعر أنها مُطارَدَةٌ. لو كانت في مجتمعٍ يتساوى فيه الجنسان ما كانت لتعتبر الطمث سوى وسيلتها الخاصّة لبلوغ حياتها كفردٍ راشدٍ؛ يتعرّض الجسد الإنساني لدى الرجال والنساء لعبوديّاتٍ

أخرى أكثر إثارةً للنفور: ويعتادون عليها بسهولةٍ إذ باعتبار أنّها شائعةٌ لدى الجميع فهي لا تمثل عيبًا بالنسبة لأحدٍ؛ يوحي الطمث للصَّبيّة بالفظاعة لأنه يلقي بها في زمرةٍ أدنى ومشوّهةٍ. ويُثقِل شعور الانحطاط هذا عليها كثيرًا. كانت ستظلّ فخورةً بجسدها الدامي لو لم تفقد كرامتها كإنسانٍ. ولو نجحت في الحفاظ عليها، لكانت ستشعر أقلّ بالخجل من جسدها: الشابّة التي تشقّ لنفسها دروب التسامي عبر أنشطةٍ رياضيّةٍ واجتماعيّةٍ وثقافيّةٍ وروحانيّةٍ لن ترى في خصوصيّتها تشويهًا، وستتغلّب عليها بسهولةٍ. وإذا كانت الشابّة تصاب غالبًا في هذه الفترة تقريبًا بذُهاناتٍ فذلك لأنها تشعر أنها عزلاء أمام قدرٍ أصمّ يحكم عليها بمحنٍ لا يمكن تخيّلها؛ فأنوثتها تعني في نظرها المرض والعذاب والموت وهي محكومةٌ بهذا المصير.

كمثالٍ يُظهِر بشكلٍ ساطعٍ هذه المخاوف، نورد قصة المريضة التي وصفتها هـ. دويتش تحت اسم مولّي.

> **كان عمر مولي أربعة عشر عامًا عندما بدأت تعاني من اضطراباتٍ نفسيّةٍ؛ كانت رابع طفلٍ لعائلةٍ مكوّنةٍ من خمسة أطفالٍ؛ كان الأب صارمًا للغاية ينتقد بناته عند كلّ جلوسٍ إلى المائدة، وكانت الأم تعيسةً ولم يكن الأبوان غالبًا يتبادلان الحديث. وهرب أحد الإخوة من البيت. كانت مولي موهوبةً جدًا، كانت ترقص الكلاكيت بشكلٍ بارعٍ، لكنها كانت خجولةً ومتأثّرةً جدًا بجوّ الأسرة؛ وكان الصبيان يخيفونها. تزوجت أختها الكبرى رغم إرادة أمها وأثار حملها اهتمامها: وكانت ولادتها عسيرةً اضطروا معها إلى استخدام الملقط؛ وكانت مولي تعرف تفاصيل ذلك وعلمت أن كثيرًا من النساء يتوفين خلال الولادة وتأثّرت بذلك للغاية. واهتمت بالرضيع فترة شهرين؛ وعندما تركت الأخت المنزل، حدث هناك مشهدٌ عنيفٌ أغمي على الأم خلاله؛ وأغمي على مولي أيضًا: كانت قد رأت زميلاتٍ لها يغمى عليهنّ في الصف وانتابتها هواجس الموت والإغماء. وعندما بدأ لديها الطمث، قالت لأمها بهيئةٍ مُحرَجَةٍ: «حدث الأمر» وذهبت لتشتري فوطًا صحّيّةً مع أختها؛ وعندما صادفت رجلًا في الطريق خفضت رأسها؛ وبشكلٍ عامٍّ كانت تشمئزّ من نفسها. لم تكن تتألّم خلال الدورة الشهريّة لكنها كانت تحاول دائمًا إخفاءها عن أمها. ذات مرّةٍ، بعد أن لاحظت أمها بقعةً على الملاءة سألتها إن كانت في الدورة الشهريّة، وأنكرت ذلك رغم أنه كان حقيقةً. وذات يومٍ قالت لأختها: «يمكن أن يحدث لي كلّ شيءٍ الآن. أستطيع إنجاب طفلٍ». قالت أختها: «من**

أجل ذلك يجب أن تعيشي مع رجلٍ»، فأجابت مولي: «ولكني أعيش مع رجلين: أبي وزوجك».

لم يكن الأب يسمح لبناته بالخروج وحدهنَ مساءً خوفًا من أن يتعرّضن للاغتصاب: ساهمت هذه المخاوف في إعطاء مولي فكرة أنّ الرجال كانوا أشخاصًا مخيفين؛ واعتبارًا من بدء الطمث لديها بلغ الخوف من الحمل والموت أثناء الولادة درجةً جعلتها شيئًا فشيئًا ترفض أن تغادر غرفتها، حتى أنها كانت تريد أن تظلّ في السرير طيلة النهار؛ وكانت تنتابها نوبات قلقٍ رهيبةٌ إذا أُجبِرَت على الخروج، وإذا كان عليها الابتعاد عن المنزل تصيبها نوبةٌ ويُغمى عليها. أصبحت تخاف من السيارات، وسيّارات الأجرة، ولم يعد بإمكانها أن تنام، فتعتقد أن لصوصًا يدخلون المنزل ليلًا، وتصرخ وتبكي. وحدث لديها هوسٌ غذائيٌّ، كانت أحيانًا تأكل كثيرًا لتتفادى الإغماء؛ وتخاف كذلك إذا أحست أنها سجينةٌ. لم يعد باستطاعتها الذهاب إلى المدرسة ولا أن تعيش حياةً طبيعيّةً.

قصّةٌ مشابهةٌ، ليست مرتبطةً بأزمة الطمث ولكن يتجلّى فيها القلق الذي تشعر به الفتاة تجاه داخلها، هي قصّة نانسي[46]:

كانت الفتاة الصغيرة في حوالي الثالثة عشرة قريبةً بشكلٍ حميمٍ من أختها الكبرى وكانت فخورةً بتلقّي أسرارها عندما كانت قد خطبت سرًّا ثم تزوّجت: مشاركة شخصٍ كبيرٍ سرّه يعني أن تُقْبَلَ بين الكبار. عاشت بعض الوقت في بيت أختها؛ ولكن عندما قالت لها هذه أنها «ستشتري» طفلًا، أصبحت نانسي تغار من صهرها والطفل القادم؛ لم تتحمّل أن تُعامَل ثانيةً كطفلٍ تُخفى عنه أمورٌ. وبدأت تشعر باضطراباتٍ داخليّةٍ وأرادت أن يستأصلوا لها الزائدة الدوديّة؛ ونجحت العمليّة، ولكن خلال إقامتها في المستشفى، عانت نانسي من هيجانٍ فظيعٍ؛ كانت تتشاجر بشكلٍ عنيفٍ مع الممرضة التي كانت تكرهها؛ وتحاول إغواء الطبيب، وتضرب له مواعيد، وتثيره، وتطالبه عبر نوباتٍ عصبيّةٍ بأن يعاملها كامرأةٍ؛ وكانت تتّهم نفسها بأنها مسؤولةٌ عن موت أخٍ صغيرٍ حدث قبل سنواتٍ؛ وكانت متأكّدةً بشكلٍ خاصٍّ أنهم لم يستأصلوا لها الزائدة، وأنهم نسوا مشرطًا في معدتها: وطالبت بأن يجروا لها تصويرًا بأشعة X بحجة أنها كانت قد ابتلعت قطعة نقودٍ.

46- ذكرتها أيضًا هيلين دويتش، علم نفس النساء H. Deutsch, Psychology of Women.

تُصادَف هذه الرغبة في إجراء جراحةٍ ـ وخصوصًا استئصال الزائدة الدوديّة ـ كثيرًا في هذه السنّ؛ تعبّر الشابات بذلك عن خوفهنّ من الاغتصاب، والحمل، والولادة. يشعرن بتهديدٍ غامضٍ في بطونهنّ ويأملن أن ينقذهنّ الجرّاح من هذا الخطر المجهول الذي يترصّدهنّ.

ليس ظهور الطمث فقط هو ما يعلن للفتاة مستقبلها كامرأةٍ. إذ تحدث لها ظواهر أخرى مريبةٌ. كان شبقها حتى الآن بظريًّا. من الصعب معرفة إن كانت الممارسات السرّيّة أقلّ انتشارًا لديها منها لدى الصبيان؛ فهي تمارسها في السنتين الأوليتين، وربما حتّى منذ الأشهر الأولى من حياتها؛ ويبدو أنها تتركها في عمر السنتين لتعود إليها فيما بعد؛ هذا البرعم المغروس في الجسد المذكّر يسترعي الملامسات بشكله التشريحي أكثر من مخاطيّةٍ خَفيّةٍ: لكن حدوث احتكاكٍ ـ والطفلة تمتطي آلاتٍ رياضيةً، تتسلّق أشجارًا، على درّاجةٍ ـ أو ملامسة ثيابٍ، أو لعبةٍ، أو أيضًا تعليم رفيقاتٍ، أو الأكبر سنًّا، أو البالغين، تكشف غالبًا للبنت أحاسيس تحاول استعادتها ثانيةً. على كلّ حالٍ المتعة إحساسٌ مستقلٌّ عندما نبلغها: لديها خفّة وبراءة كلّ المتع الطفوليّة[47]. لم تربط أبدًا بين هذه اللذّة الحميمة وبين مصيرها كامرأةٍ؛ كانت علاقاتها الجنسية مع الصبيان، فيما لو حدثت، قائمةً بشكلٍ رئيسيٍّ على الفضول. وهاهي ذي تشعر بانفعالاتٍ محيّرةٍ تجتاحها فتكاد لا تعرف نفسها فيها. تنمو حساسية المناطق المولّدة للإثارة وهي لدى المرأة كثيرةٌ بحيث يمكن اعتبار جسدها كلّه مثيرًا للرغبة: هذا ما تكشفه لها المداعبات العائليّة، والقُبَل البريئة، والملامسة غير المقصودة من خيّاطةٍ، أو طبيبٍ، أو حلّاقٍ، أو يدِ صديقةٍ على شعرها أو رقبتها؛ فتتعلّم وتبحث بنفسها غالبًا عن اضطرابٍ أعمق ضمن علاقات لعبٍ أو عراكٍ مع الصبيان أو البنات: وهكذا شعرت جيلبرت بارتخاءٍ غريبٍ وهي تتصارع مع بروست في الشانزليزيه أو بين ذراعي مراقصينها، تحت نظرات أمها الساذجة. ثم حتى لو كانت الشابّة تحت الحماية اللصيقة فهي معرّضةٌ لتجارب محدّدةٍ أكثر، ففي الأوساط «المحترمة» يتمّ التكتّم بشكلٍ متّفقٍ عليه على هذه الحوادث المؤسفة؛ لكنّ من الشائع أن بعض مداعبات أصدقاء الأسرة،

47- عدا بالطبع الحالات العديدة حيث يجعل تدخّل الأهل المباشر أو غير المباشر، أو نواهي دينيّةٍ، الأمر خطيئةً. تتعرّض البنات الصغيرات أحيانًا لملاحقات فظيعةٍ، بحجة تخليصهنّ من «عاداتهنّ السيّئة».

والأعمام، وأبناء العم، وكذلك الأجداد والآباء، لا تكون غير مؤذيةٍ بالقدر الذي تظنّه الأم: ربّما تجرّأ أستاذٌ، أو قسٌّ، أو طبيبٌ، وتجاوزوا حدود التحفّظ. نجد قصصًا عن مثل هذه التجارب في اختناق **فيوليت لودوك** Violette Leduc، في الكره الأمومي لـ **س. دوترفاني** S. de Tervagnes والبرتقالة الزرقاء لـ**ياسو غوسيير** Yassu Gaucière. ويقدّر **ستيكل** أن الأجداد من بين الأكثر خطورةً غالبًا.

تروي إحدى النساء ما يلي[48]: كنت في الخامسة عشرة من عمري. عشيّة الدفن، كان جدّي قد أتى لينام في المنزل. في اليوم التالي، كانت أمي قد استيقظت، وسألني هل يستطيع أن يأتي إلى سريري ليلعب معي؛ فنهضت فورًا دون أن أجيبه... كنت قد بدأت أخشى الرجال.

شابّةٌ أخرى تذكر أنها تلقّت صدمةً جدّيّةً في سنّ الثامنة أو العاشرة عندما داعب جدّها، وهو عجوزٌ في السبعين، أعضائها التناسليّة. كان قد أجلسها على ركبتيه مُدخِلًا إصبعه في مهبلها. شعرت الطفلة بقلقٍ هائلٍ لكنها مع ذلك لم تجرؤ أبدًا على الحديث عن ذلك. منذئذٍ أصبحت تخاف للغاية من كلّ ما هو جنسيٌّ.

غالبًا ما تكتم الفتاة هذه الحوادث بسبب الخجل الذي تسبّبه لها. ومع ذلك، إذا حكت عنه لأهلها، يكون ردّ فعلهم غالبًا توبيخها: «لا تقولي حماقاتٍ... أنت شكّاكةٌ». وتتكتّم أيضًا على سلوك بعض الغرباء الغريب. روت فتاةٌ للدكتور **ليبمان**[49] Liepmann ما يلي:

كنا قد استأجرنا من حذّاءٍ غرفةً في القبو. عندما كان صاحب البيت وحيدًا، كان يأتي لعندي غالبًا، ويحتضنني ويقبّلني طويلًا طويلًا وهو يتحرّك إلى الأمام وإلى الخلف. عدا عن أنّ قبلته لم تكن سطحيّةً؛ لأنه كان يدخل لسانه في فمي. كنت أكرهه بسبب طريقته هذه. لكني لم أبُح بكلمةٍ واحدةٍ أبدًا لأني كنت خائفةً جدًّا.

وغير الرفاق المغازلين، والصديقات الفاسقات، هناك في السينما هذه الركبة التي تضغط على ركبة الفتاة، واليد التي تمتد ليلًا في القطار على طول ساقها، هؤلاء الشباب الهازئين لدى مرورها، وهؤلاء الرجال الذين تبعوها في الشارع، وهذه المعانقات، هذه

48- المرأة الباردة La Femme Frigide.

49- ليبمان، الشباب والجنس Liepmann, Jeunese et sexualitè.

الملامسات الخاطفة. إنها لا تفهم جيّدًا معنى هذه المغامرات. هناك غالبًا فوضىً غريبةٌ في رأس فتاةٍ في الخامسة عشرة، لأن المعلومات النظريّة والتجارب المحسوسة لا تتكرّر. فهذه اختبرت سابقًا كلّ لهيب الاضطراب والرغبة، لكنّها تتخيّل أنّ قبلةً من رجلٍ تكفي لتجعلها أمًّا ـ مثل **كلارا ديليبوز التي ابتدعها فرانسيس جيمس** Francis Jammes ـ؛ وتلك لديها معرفةٌ صحيحةٌ بالجهاز التناسلي ولكن عندما يعانقها مُراقِصُها تظنّ أنّ الانفعال الذي ينتابها صداعٌ. الشابّات بالتأكيد أكثر اطّلاعًا اليوم ممّا مضى. مع ذلك، بعض أطبّاء النفس يؤكدون أن العديد من المراهقات ما زلن يجهلن أن للأعضاء التناسليّة وظيفةً أخرى غير الاستعمال البولي[50]. على كلّ حالٍ، إنهنّ لا يربطن كثيرًا بين انفعالهنّ الجنسي ووجود أعضائهنّ التناسليّة، بما أنّه لا توجد أيّة علامةٍ دقيقةٍ كالانتصاب الذكوريّ توضح لهنّ هذه العلاقة. هناك فجوةٌ شاسعة بين تخيّلاتهنّ الرومانسيّة المتعلّقة بالرجل، والحبّ، وبين فجاجة بعض الأمور التي تكشّفت لهنّ بحيث لا يقِمن بين الأمرين أيّ رابطٍ. تروي **تيد مونييه**[51] أنها تعاهدت مع بعض الصديقات على أن يحاولن معرفة شكل جسم الرجل ويحكين عنه للأخريات:

> **بما أني دخلت غرفة والديّ عمدًا دون أن أقرع الباب، وصفت مايلي: «إنّه يشبه نهاية فخذ خروفٍ، أي أنه كاللفافة وفي طرفه شيءٌ مستديرٌ». كان من الصعب شرحه. رسمت ثلاثة رسومٍ وأخذت كلّ واحدةٍ منّا رسمها في صدر ثوبها ومن حينٍ لآخر كنّا نطلق ضحكاتٍ مكتومةً عندما ننظر إليه ثم نظلّ ساهماتٍ... كيف لفتياتٍ بريئاتٍ مثلنا أن يقمن رابطًا بين هذه الأشياء والأغاني العاطفية، والقصص الصغيرة الجميلة الرومانسية التي يكون الحبّ فيها احترامًا وحياءً وتنهّداتٍ وتقبيل الأيادي فيُصَعّد حتى يجعلوا منه خصيًّا؟**

إلا أنّ الشابّة، عبر هذه القراءات، وهذه الأحاديث، والمشاهد والكلمات التي فوجئت بها، تُعطي معنىً لاضطراب جسمها؛ فتصبح نداءً ورغبةً. ويأخذ جسدها أبعادًا جديدةً مُقلِقةً في ما ينتابه من الحمى والارتعاش والتعرّق والوعكات المبهمة. يطالب الشاب بميوله

50- انظر هيلين دويتش، علم نفس النساء، 1946.

51- أنا Moi.

الجنسيّة لأنه يعيش ذكورته مبتهجًا؛ والرغبة الجنسيّة لديه عدوانيّةٌ، قابضةً؛ يرى فيها تأكيدًا لذاتيّته وتساميه؛ ويتباهى بها مع أقرانه؛ ويظلّ عضوه بالنسبة له غموضًا يتباهى به؛ والاندفاع الذي يدفعه نحو الأنثى مماثلٌ للاندفاع الذي يدفعه نحو العالم، كما يجد نفسه فيه. وعلى العكس، كانت حياة الفتاة الجنسيّة دائمًا سرّيّةً؛ وعندما تتحوّل رغبتها وتجتاح جسدها بأكمله، يصبح غموضها مُقلِقًا: فتتلقّى الاضطراب كمرضٍ مُخجِلٍ؛ إنه غير فاعلٍ: إنه حالةٌ، وحتى بالتخيّل لا يمكنها الخلاص منه ولا بأي قرارٍ مستقلٍّ؛ إنها لا تحلم بالامتلاك، بالدعك، بالاغتصاب: تظلّ انتظارًا ودعوةً؛ وتشعر أنّها تابعةً؛ وأنها في خطرٍ في جسدها المستلب.

لأن أملها الواسع وحلمها بالسلبية السعيدة يكشفان لها جسدها بجلاءٍ كشيءٍ مخصّصٍ لآخر؛ فهي لا تودّ معرفة التجربة الجنسيّة إلا في تأصّلها؛ إنها تطلب ملامسة يد جسدٍ آخر وفمه، وليس اليد والفم والجسد الغريب؛ وتدع في الظلّ صورة الشريك، أو أنها تغرقها في ضبابٍ مثاليٍّ؛ لا يمكنها مع ذلك أن تمنع وجودها من أن يطاردها. وتتّخذ مخاوفها ونفورها الطفولي تجاه الرجل شكلًا أكثر غموضًا من ذي قبل وبالتالي أكثر إثارةً للقلق. كانت هذه المخاوف تولد سابقًا من افتراقٍ عميقٍ بين العضويّة الطفوليّة ومستقبلها كبالغة؛ وتنبع الآن من هذا التعقيد نفسه الذي تشعر به الشابّة في جسدها. إنها تفهم أنها مُعَدَّةٌ للامتلاك بما أنها تطلبه: وتثور ضد رغباتها. تتمنى وتخشى، في آنٍ معًا، السلبيّة المخجلة للطريدة الخانعة. وتصيبها فكرة التعرّي أمام رجلٍ باضطرابٍ؛ ولكنّها تشعر أيضًا أنها ستكون نهبًا لنظراته دون معينٍ. اليد التي تأخذ، التي تلمس، لها حضورٌ أكثر نفوذًا حتى من العينين: فهي تخيف أكثر. لكن أكثر رموز الامتلاك الجسدي وضوحًا والمكروه أكثر هو إيلاج عضو الذكر. هذا الجسد الذي تخلط الشابّة بينه وبين نفسها، تكره أن يُثقَب كما يُثقب الجلد، ويُمَزَّق كما يمزّق القماش. ولكنّ ما ترفضه الفتاة أكثر من الجرح والألم الذي يرافقه هو أن يكون الجرح والألم مفروضين. قالت لي شابّةٌ ذات يومٍ: «فظيعةٌ هي فكرة أن يثقبك رجلٌ». ليس الخوف من العضو الذكري هو الذي يُحدِث الخوف من الرجل، ولكنّه تأكيده ورمزه. تأخذ فكرة الاختراق معناها الفاحش والمخزي ضمن شكلٍ عامٍّ أكثر، تكون هي بالمقابل عنصرًا أساسيًّا منه.

ويتبدّى قلق الفتاة بالكوابيس التي تعذّبها والتخيّلات التي تطاردها: في اللحظة التي تشعر فيها بداخلها بتواطؤٍ مخادعٍ تصبح فكرة الاغتصاب ملحّةً في كثيرٍ من الحالات. وتتجلّى في الأحلام وفي السلوك عبر كثيرٍ من الرموز الواضحة قليلًا أو كثيرًا. تستكشف الشابّة غرفتها قبل أن تنام، خوفًا من أن تكتشف فيها لصًّا ذا نوايا مشبوهةٍ؛ وتظنّ أنها تسمع صوت لصوصٍ في المنزل؛ أو معتدٍ يدخل عبر النافذة، مسلحًا بسكّينٍ يطعنها به. يوحي إليها الرجال بالخوف بطريقةٍ حادّةٍ قليلًا أو كثيرًا. بدأت تشعر نحو أبيها بنوعٍ من الاشمئزاز؛ لم تعد تتحمّل رائحة تبغه، وتكره دخول الحمّام بعده؛ حتى وإن استمرّت معزّتها له، فهذا النفور الجسدي شائعٌ؛ ويأخذ وجهًا حانقًا إذا كانت الطفلة سابقًا معاديةً لأبيها، كما يحدث غالبًا لدى الفتيات الأصغر سنًّا. يقول الأطباء النفسانيون أنهم صادفوا حلمًا يتكرّر لدى مريضاتهم الصغيرات: يتخيّلن أن رجلًا يغتصبهن تحت بصر سيّدةٍ مسنّةٍ وبموافقتها. من الواضح أنهنّ يطلبن رمزيًّا من أمّهنّ الإذن في الاستسلام لرغباتهنّ. لأن النفاق هو من أبشع الضغوط التي تثقل عليهن. الفتاة منذورةٌ «للطهارة»، للبراءة تحديدًا في اللحظة التي تكتشف فيها داخلها أو فيما حولها خفايا الحياة والجنس المضطربة. يريدونها بيضاء مثل الثلج، شفّافةً مثل الكريستال، يلبسونها الأورغاندي الرقيقة، ويبطّنون غرفتها بستائر بألوان الملبّس، ويخفضون صوتهم لدى اقترابها، ويمنعونها من قراءة الكتب الماجنة؛ غير أنّه لا توجد هناك أيّة فتاةٍ تقيّةٍ ساذجةٍ لا تتخيّل صورًا ورغباتٍ «فظيعةً». وتجهد في إخفائها حتى عن أعزّ صديقاتها، وحتى عن نفسها؛ لم تعد تريد أن تعيش ولا أن تفكّر إلا عبر الأوامر؛ يضفي عليها شكّها بنفسها هيئةً ماكرةً، تعيسةً، مرضيّةً؛ وفيما بعد، سيصبح صعبًا عليها مقاومة هذه النواهي. ولكنّها تشعر، رغم كل هذه الضغوط، أنها تنوء بحمل أخطاءٍ تعجز عن وصفها. لا يتمّ تحوُّلها إلى امرأةٍ فقط بخزيٍ، ولكن بندمٍ لأنها تحملته.

نفهم أن سنّ المراهقة هو بالنسبة للفتاة مرحلة اضطرابٍ مؤلمٍ. فهي لا تريد أن تبقى طفلةً. لكن عالم الكبار يبدو لها مخيفًا أو مملًا:

> **قالت كوليت أودري: «إذًا كنت أتمنى أن أكبر، ولكني لم أفكّر أبدًا بشكلٍ جدّيٍّ بأن أعيش حياةً كحياة الكبار... وهكذا أيضًا نمت فيَّ الرغبة في أن أكبر دون أن أتحمّل أبدًا مسؤولية ظروف الكبار، دون أن أتضامن أبدًا مع الآباء، وربّات المنازل، وسيدات البيوت، وزعماء الأسرة.**

أرادت أن تتحرر من تسلّط أمها؛ لكنها أيضًا بحاجةٍ ماسّةٍ لحمايتها. الأخطاء هي التي تُثقِل ضميرها: الممارسات السرّيّة، والصداقات الغامضة، والقراءات السيّئة، التي تجعل هذا الملاذ ضروريًّا بالنسبة لها. الرسالة التالية وصفيّةٌ[52]، وقد كتبتها فتاةٌ في الخامسة عشرة لصديقتها:

تريد أمي أن أرتدي ثوبًا طويلًا في حفل آل... ثوبي الطويل الأول. وهي تستغرب ألّا أريد ذلك. رجوتها أن تتركني أرتدي ثوبي القصير الورديّ للمرة الأخيرة. أنا خائفةٌ. يبدو لي أنّي إذا ارتديت الثوب الطويل ستذهب أمّي في رحلةٍ طويلةٍ لا أعرف متى ستعود منها. أليس هذا سخيفًا؟ وأحيانًا تنظر إليَّ كما لو كنت فتاةً صغيرةً. آه! لو كانت تعلم! لكانت أوثقت يديّ إلى السرير وكانت احتقرتني!

نجد في كتاب ستيكل «المرأة الباردة»، وثيقةً لافتةً للنظر حول طفولةٍ أنثويّةٍ. إنها فتاة هوىً من فيينا كتبت في حوالي سنّ الواحدة والعشرين اعترافًا مفصّلًا. وهو يشكّل حصيلةً ملموسةً لكل اللحظات التي درسناها منفصلةً.

«في سنّ الخامسة، اخترت أول رفيق لعبٍ لي، صبيًّا، ريشار، الذي كان في السادسة أو السابعة من عمره. كنت أريد دومًا أن أعرف كيف يُعرف إن كان الطفل صبيًّا أم بنتًا. كانوا يقولون لي بواسطة الأقراط، أو الأنف... كنت أكتفي بهذا الشرح شاعرةً أنّهم يخفون عني شيئًا ما. فجأةً، أراد ريشار أن يتبوّل... خطر ببالي أن أعيره الوعاء الذي أبول فيه في غرفة النوم. لدى رؤية عضوه، وهو شيءٌ مفاجئٌ جدًا لي، صحتُ بمنتهى الفرح: «ولكن ماذا لديك هناك؟ ما أجمله! يا لله، أودّ لو يكون لديّ واحدٌ مثله». في الوقت نفسه لمسته بشجاعةٍ..». فاجأتهما خالةٌ ومن وقتها والطفلان مراقبان بشكلٍ وثيقٍ. في سنّ التاسعة، كانت تلعب لعبة الزفاف مع صبيّين آخرين في سنّ الثامنة والعاشرة، وكذلك لعبة الطبيب؛ يلمس كلٌّ أعضاءه التناسليّة وذات يومٍ لمسها أحد الصبيّين بعضوه، ثم قال أن والديه فعلا الشيء نفسه عندما تزوّجا: «استنكرت ذلك لأبعد حدٍّ: أوه! كلّا، لم يفعلا شيئًا قبيحًا كهذا!، وتابعتُ طويلًا هذه الألعاب وكانت لديها صداقةٌ غراميّةٌ وجنسيّةٌ كبيرةٌ مع الصبيّين. وعرفت خالتها بذلك ذات يومٍ وحدثت مشكلةٌ مخيفةٌ حيث هدّدوا بوضعها في إصلاحيّةٍ. وكفّت عن رؤية أرثر الذي كانت تفضّله وتألمت لذلك جدًّا؛ وبدأت تهمل دروسها، وساء خطّها،

52- ذكرتها هيلين دويتش.

وأصبحت تَحُول عينيها. وبدأت صداقةً أخرى مع والتر وفرانسوا. «كان والتر يشغل كلّ أفكاري وحواسّي. وسمحتُ له أن يلمسني تحت تنورتي، واقفةً أو جالسةً أمامه أكتب صفحاتٍ... ما إن كانت أمي تفتح الباب، حتّى كان يسحب يده وأنا كنت أكتب. أخيرًا قامت بيننا علاقاتٌ طبيعيّةٌ كرجلٍ وامرأةٍ، لكني لم أكن أسمح له كثيرًا؛ ما إن كان يعتقد أنه دخل إلى مهبلي حتّى كنت أنتزع نفسي منه قائلةً إنّ أحدًا هناك... لم أكن أعتقد أنّ ذلك خطيئةٌ».

انتهت صداقاتها مع الصبيان ولم يبق لديها سوى صداقاتٍ مع شابّاتٍ. «تعلّقتُ بإيمي، وهي شابّةٌ حسنة التربية ومثقّفةٌ. ذات مرّةٍ، في عيد الميلاد، في سنّ الثانية عشرة، تبادلنا قلوبًا صغيرةً ذهبيّةً حُفِرت أسماؤنا داخلها. كنّا نعتبر ذلك نوعًا من الخطوبة متعاهدتين على «الإخلاص الأزلي». أدين بجزءٍ من تعليمي لإيمي. أخبرتني أيضًا عن المشاكل الجنسيّة. في الصف الخامس كنت قد بدأت أشكّ في قصة اللقلق الذي يأتي بالأطفال. كنت أعتقد أنّ الأطفال يأتون من البطن وأنه كان يجب فتحه ليستطيعوا الخروج. أخافتني إيمي خصوصًا من مسألة العادة السرّيّة. في المدرسة فسّرت لنا عدّة أناجيل المسائل الجنسيّة. مثلًا عندما أتت القدّيسة مريم لترى القدّيسة إليزابت: «كان الطفل في أحشائها يقفز فرحًا»، ومقاطع أخرى غريبةٌ من الإنجيل. كنّا نضع خطًّا تحت هذه المقاطع، وكاد الصف يأخذ علامةً سيّئةً في السلوك عندما اكتُشِف ذلك. كانت تُريني أيضًا «ذكرى تسعة أشهرٍ» التي يتحدّث عنها شيللر Schiller في «الأشرار». انتقل والد إيمي وبقيتُ وحيدةً من جديدٍ. تراسلنا بكتابةٍ سرّيّةٍ كنّا قد اخترعناها ولكنّي، بما أني كنت أشعر بالوحدة، تعلّقتُ بفتاةٍ صغيرةٍ يهوديّةٍ: هيدل. فاجأتني إيمي ذات مرةٍ خارجةً من المدرسة مع هيدل. وتعرّضت لشجارٍ بسبب الغيرة. بقيت مع هيدل حتى دخولنا المدرسة التجاريّة وكنّا أفضل صديقتين، نحلم بأن أصبح زوجة أخيها فيما بعد لأني كنت أحب أحد إخوتها وكان طالبًا في الجامعة. كنت أرتبك عندما يحدّثني إلى درجة أني كنت أردّ عليه بشكلٍ مضحكٍ. وعندما كان يعزف على البيانو، في الغسق، وأنا وهيدل متلاصقتين على الأريكة، كنت أبكي بدموعٍ ساخنةٍ، دون أن أعرف لماذا».

«قبل صداقتي مع هيدل، عاشرت لفترة عدة أسابيع واحدةً اسمها إيللا، فتاةٌ فقيرةٌ. كانت قد راقبت والديها في خلوتهما، وقد أيقظها صرير السرير. أتت تقول لي أن والدها استلقى فوق أمها التي صرخت بشكلٍ رهيبٍ وقال الأب: «اذهبي فورًا لتغتسلي

كيلا يحدث شيءٌ». استغربتُ تصرّف الأب، وكنت أتحاشاه في الطريق وأشفق كثيرًا على أمها (لا بدّ أنها تألّمت كثيرًا لتصرخ بهذا الشكل). وتحدّثتُ إلى رفيقةٍ أخرى عن طول القضيب، سمعتهم يتحدّثون مرّةً عن اثني عشر إلى خمسة عشر سانتيمترًا؛ وخلال درس الخياطة كنّا نأخذ المتر لنقيس اعتبارًا من الموضع المعلوم طول البطن تحت تنّوراتنا. كنّا نصل بالطبع إلى السرّة على الأقلّ وكنّا مذعوراتٍ من فكرة أن نتخوزق تمامًا عندما سنتزوج».

«نظرتُ إلى كلبٍ يضاجع كلبةً. «إذا رأيت حصانًا يبول في الطريق، لم يكن بإمكاني تحويل نظري عنه، أعتقد أن طول القضيب كان يدهشني». وراقبَت الذباب والحيوانات في الريف».

«في سنّ الثانية عشرة، أصبتُ بالتهابٍ حادٍّ في الحلق واستشاروا طبيبًا صديقًا؛ وهو جالسٌ بقرب سريري، وضع يده فجأةً تحت الأغطية لامسًا «المكان» تقريبًا. انتفضتُ صارخةً: «ألا تخجل!» وأسرعت أمي، وكان الطبيب محرَجًا بشكلٍ فظيعٍ وادّعى أنني كنت وقحةً صغيرةً وأنه أراد فقط أن يقرص ربلة ساقي. وأجبِرت على الاعتذار منه... وعندما حصل الطمث عندي أخيرًا واكتشف والدي فوطي الملوّثة بالدم، انهال علينا بالتوبيخ. لماذا كان، هو الرجل النظيف، «مضطرًّا للعيش بين كلّ هاته النسوة القذرات»، بدا لي أني كنت مخطئةً لأن الطمث حدث لدي». في الخامسة عشرة، لديها صديقةٌ أخرى تتواصل معها «بطريقة الاختزال» «كيلا يستطيع أحد أفراد أسرتينا قراءة رسائلنا. كان هناك الكثير مما نكتبه عن غراميّاتنا. كانت ترسل لي أيضًا عددًا كبيرًا من أبيات الشعر وجدَتها على جدران المراحيض؛ أذكر أحدها لأنه كان ينزل بالحب إلى درجة القذارة بينما كنت أتخيّله ساميًا للغاية: «ماهو هدف الحب الأسمى؟ أربع ألياتٍ معلّقةٌ بطرف جذعٍ». قررتُ ألا أصل أبدًا إلى ذلك؛ لا يمكن لرجلٍ يحبّ فتاةً أن يطلب منها شيئًا مماثلًا. في الخامسة عشرة والنصف، ولد لي أخٌ، كنت في غاية الغيرة لأني كنت دائمًا طفلةً وحيدةً. كانت صديقتي تطلب مني دومًا أن أنظر إلى تكوين جسم أخي، لكني لم أكن أستطيع أبدًا إعطاءها المعلومات التي تريدها. في تلك الفترة، صديقةٌ أخرى وصفت لي ليلة الزفاف، وبعد ذلك خطر لي أن أتزوج، بسبب الفضول؛ فقط «اللهاث كالحصان»، حسب وصفها، كان يؤذي حسّي الجمالي... أيّ واحدةٍ منا لم تكن لترغب في الزواج لتترك زوجها الحبيب يخلع ملابسها ويحملها إلى السرير، كان ذلك مغريًا جدًّا...».

قد يقال ـ رغم أن الحالة طبيعيةٌ وليست مرضيّةً ـ أن هذه الطفلة كانت ذات «فسادٍ» استثنائيٍّ؛ لكنّها كانت فقط مُراقَبَةً بشكلٍ أقلّ من غيرها. إذا كان فضول ورغبات الشابّات «حسنات التربية» لا تُترجَم إلى أفعالٍ، فهي تكون على شكل تخيّلاتٍ وألعابٍ. لقد عرفت فيما مضى شابّةً تقيّةً جدًّا وبريئةً بشكلٍ محيّرٍ ـ أصبحت بعدئذٍ امرأةً مكتملةً، قابعةً ضمن الأمومة والإخلاص ـ باحت مرتعشةً لرفيقةٍ تكبرها سنًّا بما يلي: «كم هو رائعٌ أن تتعرّي أمام رجلٍ! فلنفترض أنك زوجي»؛ وبدأت تخلع ثيابها، مرتعشةً من الانفعال. لا توجد تربيةٌ تمنع الفتاة من أن تشعر بجسدها وتحلم بمصيره؛ على الأكثر يمكن أن تُفرَض عليها أوامر صارمةٌ تثقل بعدئذٍ على كلّ حياتها الجنسيّة. ربما كان من الأفضل تعليمها، على العكس، أن تقبل نفسها دون مراعاةٍ ودون خجلٍ.

نفهم الآن أيّة مأساةٍ تمزّق المراهِقة لحظة البلوغ: لا يمكنها أن تصبح «شخصًا كبيرًا» دون أن تقبل أنوثتها؛ لقد كانت تعرف مسبقًا أن جنسها يحكم عليها بوجودٍ مبتورٍ ومتحجّرٍ؛ والآن تكتشفه بصورة مرضٍ نجسٍ وجريمةٍ غامضةٍ. لم تكن تعي دونيّتها في البدء إلا كحرمانٍ: وانقلب غياب القضيب إلى تلوّثٍ وغلطةٍ. فانطلقت نحو المستقبل جريحةً، خجلى، قلقةً، مذنبةً.

الفصل الثاني

الشابة

كانت الفتاة خلال كلّ طفولتها مزعوجةً ومبتورةً؛ لكنها مع ذلك كانت تشعر بنفسها كشخصٍ مستقلٌ؛ في علاقتها بوالديها، وأصدقائها، وفي دراستها وألعابها، والآن تكتشف نفسها كتفوّقٍ: لم تكن تفعل شيئًا سوى الحلم بسلبيتها المقبلة. وعندما تبلغ لا يقترب المستقبل فقط ولكنّه يستقرّ في جسدها؛ ويصبح أكثر الحقائق رسوخًا. ويحتفظ بصفته الحتميّة التي لازمته على الدوام؛ وبينما يسير المراهِق بحيويّةٍ نحو سنّ الرشد، تترقّبُ الفتاة افتتاح هذه المرحلة الجديدة غير المتوقَّعة التي حُبِكت سلفًا والتي يجذبها الزمن إليها. وإذ انفصلت عن ماضيها كطفلةٍ لا يبدو لها الحاضر سوى انتقالٍ؛ فلا تكتشف فيه أيّة غايةٍ ذات قيمةٍ ولكن انشغالاتٍ فقط. وبشكلٍ مقنَّعٍ قليلًا أو كثيرًا، يتبدّد شبابها بالانتظار. تنتظر الرجل.

يحلم المراهق أيضًا بالتأكيد بالمرأة، يشتهيها؛ لكنها لن تكون أبدًا سوى عنصرٍ من عناصر حياته: لا تلخّص مصيره. منذ الطفولة، سواءً تمنّت الفتاة تحقيق ذاتها كامرأةٍ أوتخطّي حدود أنوثتها، فقد انتظرت من الذكر إكمالًا وتسليةً؛ له وجه «برسيه» المُبْهِر، والقديس جورج؛ إنه المُخَلِّص؛ وهو غنيٌّ وقويٌّ أيضًا، يملك مفاتيح السعادة، إنه أمير

الأحلام. وتستشعر أنها ستشعر تحت تأثير مداعباته بتيار الحياة الكبير يجرفها كما عندما كانت في حضن أمها؛ وستجد في خضوعها لسلطته الرقيقة نفس الأمان الذي تشعر به بين ذراعي أبيها: سيجعلها سحر العناق والنظرات من جديدٍ صنمًا جامدًا. كانت دائمًا مقتنعةً بالتفوّق الذكري؛ وامتياز الذكور هذا ليس سرابًا خادعًا طفوليًّا؛ بل لديه أسسٌ اقتصاديّةٌ واجتماعيةٌ؛ الرجال هم حقًّا سادة العالم؛ وكلّ شيءٍ يقنع المراهقة أن من مصلحتها أن تجعل من نفسها تابعًا لهم؛ يزجّها والداها في ذلك، والأب فخورٌ بالنجاحات التي تحققها ابنته، وترى فيها الأم بواكير مستقبلٍ مزدهرٍ؛ والرفيقات يحسدن تلك التي تحصد أكبر عددٍ من الإعجاب الذكوري ويعجبن بها؛ في الثانويّات الأميركية، تُقيّم كلّ طالبةٍ حسب عدد «المواعيد» التي تجمعها. فالزواج ليس فقط مسيرة حياةٍ مشرّفةً أقلّ تعبًا من سواها: وحده يسمح للمرأة بأن تحقّق ذاتها جنسيًّا كحبيبةٍ وأمٍّ. فمحيطها يرى مستقبلها ضمن هذا الإطار و تراه هي نفسها كذلك. ويوافق الجميع على أن الفوز بزوجٍ ـ أو بعشيقٍ في بعض الحالات ـ هو بالنسبة لها أهمّ مشروعٍ. الآخر يتمثّل لها في الرجل، كما يتمثّل للرجل فيها: ولكن هذا الآخر يبدو لها أساسيًّا وتحسّ بنفسها أمامه غير أساسيّةٍ. ستتحرّر من بيت أهلها، من سلطة أمها، وستفتح مستقبلها ليس بواسطة عملٍ نشيطٍ ولكن بوضع نفسها ثانيةً سلبيّةً مطيعةً تحت سلطة سيّدٍ آخر.

كثيرًا ما ادّعوا أنها إذ تستكين لهذا التنازل، فلأنها بالتالي أصبحت جسديًّا وفكريًّا أقلّ من الصبيان وغير قادرةٍ على منافستهم: فهي تتخلّى عن منافسةٍ حقيقيّةٍ وتبقى عضوًا في الطبقة العليا لتؤمّن سعادتها. لا يأتي خضوعها في الحقيقة من دونيّةٍ معطاةٍ؛ بل يؤدّي على العكس إلى قصورها كلّه؛ تمتد جذوره إلى ماضي المراهقة، وفي المجتمع المحيط بها، وتحديدًا في هذا المستقبل الذي يقترحونه عليها.

يغيّر البلوغ جسم الشابّة بالتأكيد. فيصبح أكثر هشاشةً من ذي قبل؛ وتصبح الأعضاء الأنثوية ضعيفةً، وعملها دقيقًا؛ فالثديان غريبان ومزعجان، يشكّلان عبئًا؛ يضايقان خلال التمارين العنيفة، فيرتعشان ويؤلمان. من الآن فصاعدًا تصبح قوة المرأة العضلية وتحمّلها ومهارتها أقل من الرجل. ويخلق اضطراب الإفراز الهورموني عدم استقرارٍ عصبيٍّ ووعائيٍّ. والأزمة الشهرية مؤلمةٌ: صداعٌ وتشنّجاتٌ عضليّةٌ وآلامٌ في البطن تجعل الأعمال العادية

شاقّةً وحتى مستحيلةً؛ يضاف غالبًا إلى هذا التوعّك اضطراباتٌ نفسيّةٌ؛ من الشائع أن تمرّ المرأة كل شهرٍ بحالة نصف استلابٍ لأنها تصبح عصبيّةً وسريعة الاستثارة؛ فلم يعد هناك سيطرةٌ للمراكز على الجملة العصبية والجملة الودّيّة؛ وتجعل اضطرابات الدوران وبعض الانسمامات الذاتيّة من الجسد حاجزًا بين المرأة والعالم، ضبابًا محرقًا يُثقِل عليها، ويخنقها ويفصلها: عبر هذا الجسد المكتئب السلبي، يصبح الكون بأسره عبئًا ثقيلًا للغاية. تغدو متضايقةً ومرهقةً غريبةً عن نفسها بما أنها غريبةٌ عن بقيّة العالم. وتتفكّك التراكيب، ولا تعود اللحظات متّصلةً ببعضها، ولا يعود الغير معرَّفًا إلا عبر تعرّفٍ مجرّدٍ؛ وإن بقي التفكير والمنطق سالمين كما في الهذيانات الاكتئابيّة، فهما موضوعان في خدمة البديهيات العاطفيّة التي تظهر وسط اضطرابٍ عضويٍّ. هذه الوقائع في غاية الأهمّيّة: لكن المرأة تعطيها وزنها عبر طريقتها في إدراكها.

نحو سنّ الثالثة عشرة يتعلّم الصبيان العنف فعلًا، وتنمو عدوانيتهم، ورغبتهم في السيطرة، وميلهم للتحدّي؛ في هذه اللحظة بالتحديد تتخلّى البنات عن الألعاب الخشنة. وتبقى أمامهنّ الرياضة، ولكنّ الرياضة المختصّة الخاضعة لقواعد موضوعةٍ لا تعادل اللجوء العفويّ والمعتاد إلى القوّة؛ فهي تقع على هامش الحياة؛ ولا تعطي معلوماتٍ عن العالم وعن الذات بنفس الشكل الذي يعطيه عراكٌ فوضويٌّ أو تصاعدٌ غير متوقّعٍ. لا تشعر الريّاضيّة مطلقًا بالزهوّ المنتصر الذي يشعر به صبيٌّ تغلّب على رفيقه. عدا عن أنه، في كثيرٍ من البلاد، معظم الفتيات لم يتلقّين أيّ تدريبٍ رياضيٍّ؛ بما أنهنّ ممنوعاتٌ من العراك والتصعيد فهنّ لا يفعلن سوى الخضوع لجسدهنّ بسلبيّةٍ؛ عليهن أن يتخلّين، أكثر بكثيرٍ مما فعلن زمن الطفولة، عن الظهور من الجهة الأخرى من العالم المعطى، وتأكيد ذاتهنّ فوق بقية البشريّة: يُمنعنَ من الاكتشاف والتجرؤ وتوسيع حدود الممكن. ويجهلن تقريبًا بصورةٍ خاصّةٍ وضعية التحدّي، الشديدة الأهميّة لدى الشباب؛ تقارن النساء أنفسهن بالأخريات بالتأكيد، لكنّ التحدّي أمرٌ آخر يختلف عن هذه المواجهات السلبيّة: حرّيّتان تتواجهان باعتبار أن لهما سيطرةً على العالم الذي تدّعيان أنهما توسّعان آفاقه؛ التسلّق أعلى من رفيقٍ، وثني ذراعٍ، هو تأكيد السيّادة على كلّ الأرض. هذا السلوك المتبجّح غير مسموحٍ للفتاة، ويُحظَر العنف خصوصًا عليها. لا شكّ في أنّ القوة العنيفة لا تلعب دورًا كبيرًا في

عالم الكبار في الأوقات العاديّة؛ ولكنها تلازمه مع ذلك؛ كثيرة هي التصرفات الذكريّة القائمة على أساسٍ من العنف المحتَمل: في كلّ زاوية طريقٍ تندفع مشاحناتٌ؛ وفي غالب الأحيان تتوقّف؛ ولكن يكفي للرجل أن يشعر في قبضتيه بإرادته في تأكيد ذاته لكي يحسّ أنه راسخ السيادة. تجاه كل مجابهةٍ، وكلّ محاولةٍ لتحويله إلى شيءٍ، يلجأ الذكر إلى الضرب والتعرّض للّكمات: إنه لا يدع الغير يصعّده، بل يجد نفسه في قلب ذاتيّته. العنف هو التجربة الحقيقية لالتصاق كلّ شخصٍ بنفسه، بميوله، بإرادته الشخصيّة؛ ورفض العنف جذريًّا هو حرمان النفس من كلّ حقيقةٍ موضوعيّةٍ، وسجنها في ذاتيّةٍ مجرّدةٍ؛ والغضب والثورة اللذان لا يمرّان بالعضلات يظلّان خياليين. إنه إحباطٌ فظيعٌ ألا يستطيع المرء تسجيل حركات قلبه على وجه الأرض. من المستحيل قطعًا أن يستخدم أسودٌ العنف تجاه البيض في جنوب الولايات المتّحدة؛ هذه الـ«فرائض» هي مفتاح لغز «الروح السوداء»؛ الطريقة التي يتحقّق فيها الأسود من نفسه في عالم البيض، والتصرّفات التي يتلاءم معه عبرها، والمعاوضات التي يبحث عنها، يمكن تفسير كلّ طريقته في الإحساس والتصرّف انطلاقًا من السلبيّة التي هو محكومٌ بها. أثناء الاحتلال، الفرنسيون الذين قرّروا ألّا ينساقوا إلى تصرّفاتٍ عنيفةٍ ضد المحتلّين حتى في حال الاستفزاز ـ سواء كان ذلك عن حذرٍ أنانيٍّ أو لأن وظائفهم تمنعهم من ذلك ـ كانوا يشعرون بأن وضعهم في العالم مضطربٌ بشكلٍ عميقٍ، أسير نزوات الغير، بحيث استحالوا إلى أشياء، ولم يعد بإمكان ذاتيّتهم أن تتجلّى بشكلٍ ملموسٍ، فهي ليست سوى ظاهرةٍ ثانويّةٍ. وهكذا يغدو للكون وجهٌ مختلفٌ بالنسبة للمراهق الذي يُسمَحُ له أن يُبرِز نفسه بصَلفٍ عنه بالنسبة للمراهِقة التي تكون مشاعرها مجردةً من الفعّاليّة الفوريّة؛ الواحد يعيد التفكير في العالم دون توقّفٍ، ويستطيع في كلّ لحظةٍ أن يثور ضد المعطى وبالتالي لديه انطباعٌ بأنه يؤكّده بنشاطٍ عندما يقبله؛ والأخرى تتلقّاه فقط؛ فالعالم يتحدّد من دونها ولديه وجهٌ لا يتغيّر. يتجلّى هذا العجز الجسدي بخجلٍ عامٍ: فهي لا تعتقد بوجود قوّةٍ لم تختبرها في جسدها، ولا تجرؤ على أن تبادر وتثور وتبتكر: مكرّسةً للطاعة، والاستكانة، لا تستطيع سوى أن تقبل في المجتمع مكانًا جاهزًا. روت لي امرأةٌ أنها خلال شبابها، أنكرت بسوء نيّةٍ عنيفٍ ضعفها الجسديّ؛ قبولها به كان يعني فقد الرغبة والشجاعة في عمل أيّ شيءٍ، حتى وإن كان في مجالاتٍ ثقافيّةٍ وسياسيّةٍ. عرفتُ شابّةً تربّت بطريقةٍ

صبيانيّةٍ وقويةً بشكلٍ استثنائيٍّ كانت تعتقد أنها بنفس قوّة الرجل؛ رغم أنها كانت جميلةً جدًّا، ورغم أنها كانت تعاني كلّ شهرٍ من طمثٍ مؤلمٍ، فلم تكن تدرك أنوثتها أبدًا؛ كان لديها فظاظة الصبي وحيوية حياته ومبادرته وجرأته: ولم تكن لتتردّد في التدخّل في الشارع بلكماتٍ إذا رأت طفلًا أو امرأةً يتعرضان للعنف. وأوضحت لها تجربةٌ تعيسةٌ أو اثنتان أنّ القوة العنيفة هي في صفّ الذكور. وانهار جزءٌ كبيرٌ من ثقتها بنفسها عندما أدركت ضعفها؛ وكان ذلك بداية تطوّرٍ قادها إلى أن تعتني بأنوثتها، وتصبح سلبيّةً وتقبل التبعيّة. فقد الثقة بالجسم يعني فقد الثقة بالنفس. تكفي رؤية الأهمّيّة التي يوليها الشباب لعضلاتهم لفهم أنّ كلّ شخصٍ يدرك جسده كتعبيرٍ موضوعيٍّ.

تؤكّد هذه الاندفاعات الشهوانية الفخر الذي يشعر به الشاب بجسده: إنه يكتشف فيه علامة السموّ وقوّته. تستطيع الشابة أن تنجح في تلبية رغباتها: لكنّها تظل غالبًا ذات طابعٍ مخجلٍ. تشعر بإحراجٍ من جسدها بأكمله. الارتياب الذي كانت تشعر به وهي طفلةٌ تجاه «بواطنها» يسهم في إعطاء الدورة الشهريّة صفة المشبوه التي تجعلها بغيضةً. وينجم عن الموقف النفسي أن تشكّل العبودية الشهرية عجزًا ثقيلًا. وقد يبدو التهديد الذي يثقل على الفتاة خلال بعض الفترات غير محتملٍ بحيث تتخلى عن رحلاتٍ ومتعٍ خوفًا من انكشاف بشاعة وضعها. وينعكس الرعب الذي يوحي به هذا الوضع على العضوية ويزيد الاضطرابات والآلام. رأينا أن إحدى كوارث الفزيولوجية الأنثوية، هي الصلة الوثيقة بين الإفرازات الغدّيّة والتنظيم العصبي: هناك تأثيرٌ متبادل؛ فجسد المرأة ـ وخصوصًا الشابّة ـ هو جسدٌ «هيستيريٌّ» من حيث يصح القول أنّ لا مسافة بين الحياة النفسية وتحققها المادي. يزيد الارتباك الناجم لدى الشابة من اكتشاف اضطرابات البلوغ هذه. لأن جسدها مشبوهٌ بالنسبة لها، وهي تتتبّعه بقلقٍ، يبدو لها مريضًا. رأينا أن هذا الجسد في الحقيقة هشٌّ تتمّ فيه اضطراباتٌ عضويةٌ بحتةٌ ؛ لكن الأطباء النسائيين يتفقون في القول أن تسعة أعشار زبوناتهنّ مريضاتٌ بالوهم، أي إمّا أنّ أزماتهنّ ليست لها أيّ حقيقةٍ ماديةٍ، أو أن الاضطراب العضوي هو بذاته آتٍ من وضعٍ نفسيّ. القلق من كونك امرأة هو السبب الأكبر الذي ينهش الجسد الأنثوي.

نرى أنه إذا كان الوضع البيولوجي للمرأة يشكل لها إعاقةً، فذلك بسبب المنظور الذي

يسجنها. فالهشاشة العصبية، وعدم التوازن الوعائي الحركي، عندما لا تصبح مرضيّةً، لا تمنعها من مزاولة أيّة مهنةٍ: وهناك تنوعٌ كبيرٌ في المزاج بين الذكور ذاتهم. انزعاج يومٍ أو يومين في الشهر، مع الألم، ليس عقبةً؛ والعديد من النساء يعتدن على ذلك في الواقع وخصوصًا تلك اللواتي يمكن أن تضايقهنّ «اللعنة» الشهريّة بشكلٍ أكبر: الريّاضيّات والمسافرات واللواتي يمارسن عملًا شاقًّا. معظم المهن لا تتطلّب طاقةً أكبر مما تستطيع المرأة تقديمه. والهدف المرجوّضمن الرياضات ليس نجاحًا مستقلًا عن الكفاءات الجسديّة: إنه إنجاز أفضل ما يستطيعه كلّ جسدٍ؛ بطل وزن الريشة يساوي بطل الوزن الثقيل؛ وبطلة التزلّج على الجليد ليست أقل من البطل الأسرع منها: إنهما ينتميان إلى زمرتين مختلفتين. والريّاضيّات تحديدًا، المهتمّات بصورةٍ إيجابيّةٍ بإنجازهنّ الخاص، يشعرن أنهنّ الأقلّ إعاقةً بالنسبة للرجل. يبقى أنّ ضعف المرأة الجسديّ لا يسمح لها بمعرفة دروس العنف: لو كان بإمكانها تأكيد نفسها ضمن جسدها وأن تبرز في العالم بشكلٍ آخر، يمكن تعويض هذا القصور بسهولةٍ. إن تسبح، وتتسلّق القمم، وتقود طائرةً، أو تناضل ضد عناصر الطبيعة، وتخاطر وتغامر، فلن تشعر أمام العالم بالخجل الذي تحدّثتُ عنه. تأخذ هذه الخصائص قيمتها بالمجمل من وضعٍ لا يترك لها آفاقًا وليس مباشرًا وإنما بتأكيد عقدة الدونيّة التي تطوّرت لديها من طفولتها.

ستلقي هذه العقدة أيضًا بثقلها على إنجازاتها الفكريّة. لاحظنا غالبًا أنّ الفتاة اعتبارًا من البلوغ تتراجع في المجالات الفكريّة والفنّيّة. هناك أسبابٌ عديدةٌ. أحد أكثرها تواترًا، هو أن المراهقة لا تصادف حولها تشجيعًا كما يقَدَّم لإخوتها؛ بل على العكس، يراد أن تكون أيضًا امرأةً ويجب عليها إضافة أعباء عملها المهني إلى الأعباء التي تفرضها أنوثتها. وقد أبدت مديرة مدرسةٍ مهنيّةٍ بهذا الشأن الملاحظات التالية:

> **تصبح الشابة فجأةً كائنًا يكسب لقمته بالعمل. لديها رغباتٌ جديدةٌ لم يعد لها علاقةٌ مع الأسرة. يحدث كثيرًا أن تضطرّ للقيام بجهدٍ كبيرٍ... وتعود ليلًا إلى أسرتها منهكةً بتعبٍ هائلٍ ورأسها محشوٌ بكلّ أحداث اليوم... كيف يستقبلونها عندئذٍ؟ ترسلها الأم بسرعةٍ لشراء حاجيّاتٍ. وعليها أيضًا إتمام الأعمال المنزليّة المعلّقة وعليها أيضًا أن تهتمّ بخزانتها. من المستحيل إبراز الأفكار الحميمة التي**

ما تزال تشغل بالها. تشعر بالتعاسة، وتقارن وضعها بوضع أخيها الذي ليس لديه أيّ واجبٍ يؤدّيه في المنزل وتثور[53].

الأعمال المنزليّة أو الأعباء الاجتماعيّة التي لا تتردّد الأم في فرضها على الطالبة والمتدرّبة تزيدها إرهاقًا. رأيتُ أثناء الحرب تلميذاتٍ كنت أعِدّهنّ في مدرسة «سيفر» مرهقاتٍ بأعباء أسريّةٍ تضاف إلى عملهنّ المدرسيّ: أصيبت إحداهنّ بداء بوت[54] Pott، وأخرى بالتهاب السحايا. وتعادي الأم ـ كما سنرى ـ تحرّر ابنتها بشكلٍ عنيدٍ، وبطيب خاطرٍ أو لا، وتدأب على مضايقتها؛ ويُحتَرَم الجهد الذي يبذله المراهق كي يصبح رجلًا ويُمنح حرّيّةً كبيرةً. ويُفرض على الفتاة البقاء في المنزل، وتُراقَب عند الخروج: ولا تُشَجَّع البتّة على تولّي أمر تسلياتها ومُتَعها. من النادر رؤية نساءٍ ينظّمن وحدهنّ رحلاتٍ طويلةً، أو رحلةً على الأقدام أو الدرّاجة أو يزاولن لعبةً كالبليارد، أو الكرات، إلخ. وعدا عن غياب المبادرة الذي ينجم عن تربيتهنّ، يجعل العرف استقلالهنّ صعبًا. إن تسكّعن في الشوارع، ينظرون إليهنّ، ويدنون منهنّ. أعرف فتياتٍ لا يجدن أيّة متعةٍ في التنزّه وحدهنّ في باريس رغم أنهنّ لسن خجولاتٍ البتة لأنهن يتعرّضن للإزعاج دون توقّفٍ، وعليهنّ الاحتراس طول الوقت: وهذا ما يفسد كلّ متعتهنّ. وإذا سارت مجموعة طالباتٍ مرحاتٍ في الشوارع كما يفعل الطلّاب، يصبحن فُرجةً؛ فالمشي بخطواتٍ واسعةٍ، والغناء، والكلام بصوتٍ مرتفعٍ، والضحك المسموع، وأكل تفّاحةٍ، هو استفزازٌ، ويتعرّضن للإهانات أو للملاحقة أو للتحرّش. وتصبح اللامبالاة فورًا قلّة احتشامٍ؛ هذه الرقابة الذاتيّة التي تُرغَم المرأة عليها والتي تصبح طبيعةً ثانيةً لدى «الشابّة حسنة التربية» تقتل التلقائيّة؛ وتزعج الازدهار الحيويّ. ينتج عن ذلك توتّرٌ ومللٌ. وهذا الملل مُعدٍ: فسرعان ما تملّ الشابّات من بعضهنّ؛ ولا تتشاركن التعلّق بسجنهنّ؛ وهذا أحد الأسباب التي تجعل صحبة الصبيان ضروريّةً بالنسبة لهنّ. ينتج عن هذا العجز عن الاكتفاء الذاتيّ خجلٌ يمتدّ على طول الحياة ويُلاحَظ حتى في عملهنّ. فيعتقدن أن الانتصارات الباهرة حكرٌ على الرجال؛ ولا يجرؤن على التطلّع إلى الأعلى. ورأينا أنّ الفتيات في سنّ الخامسة عشرة حين يقارنّ بالصبيان كنّ يقلن: «الصبيان

53- ذكرت من قبل ليبمان، الشباب والجنس.

54- داء بوت هو سلّ العمود الفقري (المترجمة).

أفضل». هذا الاقتناع مُضنٍ. إنه يشجّع على الكسل والرداءة. إحدى الشابّات ـ التي لم يكن لديها أيّ احترامٍ خاصٍّ للجنس الأقوى ـ كانت تعيب على رجلٍ جبنه؛ ولفتوا نظرها إلى أنها هي نفسها جبانةٌ للغاية: فأعلنت بلهجةٍ مسايرةٍ: «آه! المرأة شيءٌ مختلفٌ».

السبب العميق لهذه الانهزاميّة هو أنّ المراهِقة لا تعتقد أنها مسؤولةٌ عن مستقبلها؛ وترى أن من غير المفيد أن تتطلّب الكثير من نفسها بما أنّ مصيرها لا يتعلّق بها في آخر الأمر. وعلى نقيض أنها تكرّس نفسها للرجل لأنها تفكّر أنها أقلّ منه، ولأنها مكرّسةٌ له وبقبولها فكرة دونيّتها فهي تصنعها.

في الواقع لن يمنحها الرجال جائزةً إن زادت في قيمتها الإنسانيّة: بل إن تقولبت حسب أحلامهم. وعندما تكون قليلة الخبرة لا تدرك ذلك دائمًا. يحدث أن تُبدي نفس عدوانيّة الصبيان؛ وتحاول كسب إعجابهم بواسطة سلطةٍ خشنةٍ وصراحةٍ متعجرفةٍ: وهذا السلوك يؤدّي حتمًا إلى فشلها. من الخنوع التامّ إلى منتهى التكبّر، يتعلّمن كلّهنّ أنّهنّ مضطرّاتٌ للاستسلام لكي ينلن الإعجاب. تفرض عليهنّ أمهنّ ألا يعاملن الصبيان كرفاقٍ، وألّا يكنّ المبادِرات معهم، وأن يقمن بدورٍ سلبيٍّ. وإن أردن إقامة صداقةٍ، أو علاقةٍ، فعليهنّ أن يتحاشين بعنايةٍ إظهار أنهنّ يأخذن زمام المبادرة فيها؛ فالرجال لا يحبّون المتصبينات، ولا المتحذلقات، ولا الذكيّات، وتخيفهم الجرأة الزائدة، والثقافة، والذكاء، والشخصية القويّة. وفي معظم الروايات، يلاحظ ج. إليوت G.Eliot أن البطلة الشقراء الغبيّة هي التي تفوز على السمراء ذات الطبع الذكوري؛ وفي «الطاحونة على نهر فلوس»، تحاول **ماغي** عبثًا أن تقلب الأدوار؛ وتموت في نهاية الأمر وتتزوج **لوسي** الشقراء **ستيفن**؛ وفي «آخر الموهيكان»، تحتلّ **أليس** الباهتة قلب البطل وليس **كلارا** الشجاعة؛ وفي «نساءٌ صغيراتٌ» ليست جو العذبة بالنسبة **لـلوري** سوى رفيقة طفولةٍ: إنه يكرّس حبّه لآمي التافهة ذات الشعر المصفّف. كونك أنثى يعني أن تبدي تافهةً عاجزةً سلبيّةً، مطيعةً. على الشابة ليس فقط أن تتزيّن وترتدي أجمل الثياب، ولكن أن تكبح تلقائيّتها وتستبدلها بالظُّرف والسحر المدروس الذي تعلّمها إياه الأكبر منها سنًّا. كلّ تأكيدٍ لذاتها ينقص أنوثتها وحظوظها في الإغواء. ما يجعل انطلاق الشابّ في الوجود سهلًا نسبيًّا، هو أنّ نزعتيه كإنسانٍ وكذكرٍ لا تتعارضان: فطفولته كانت تُعلِن مسبقًا هذا المصير السعيد. وهو يكتسب قيمته الاجتماعية وامتيازه الذكوري في

آنٍ معًا عبر اكتماله كاستقلالٍ وحرّيّةٍ: الطّموح مثل «راستينياك» ينشد المال والمجد والنساء بحركةٍ واحدةٍ؛ إحدى الأنماط المقولبة التي تحفزه، هي نمط الرجل القويّ الذي يتزلّفون إليه. أمّا الشابّة، فعلى العكس، هناك افتراقٌ بين وضعها الإنساني ونزعتها الأنثويّة. ولهذا فالمراهَقة بالنسبة للمرأة هي فترةٌ صعبةٌ وحاسمةٌ للغاية. حتى الآن كانت فردًا مستقلًا: عليها التخلّي عن سيادتها. ليس فقط أنها ممزّقةٌ مثل إخوتها، وبصورةٍ أكثر حدّيّةً، بين الماضي والمستقبل؛ ولكن بالإضافة إلى ذلك ينشب صراعٌ بين مطالبها الأصليّة التي هي أن تكون ذاتًا، نشاطًا، حرّيّةً، ومن جهةٍ أخرى ميولها الجنسيّة والمطالبات الاجتماعيّة التي تدعوها إلى تحمّل مسؤوليّة نفسها كموضوعٍ سلبيٍّ. هي ترى نفسها تلقائيًّا كأساسيٍّ: كيف ستقبل أن تصبح غير أساسيٍّ؟ ولكن إن كنت أستطيع أن أكتمل كآخر، كيف سأتخلّى عن أناي؟ هذا هو المأزق المُقلِق الذي تكافح ضدّه المرأة الصغيرة. ما تزال معلّقةً بين لحظة الاستقلال الطفولي ولحظة الخضوع الأنثوي، متأرجحةً بين الرغبة والاشمئزاز، بين الأمل والخوف، رافضةً ما تطلبه؛ هذا التردّد هو الذي يعطيها لدى خروجها من المراهقة طعم الفاكهة الفجّة الحامضيّ.

ويكون ردّ فعل الفتاة على وضعها مختلفًا جدًّا حسب خياراتها الداخليّة. فقد تستكين «المرأة الصغيرة»، «السيّدة الناشئة»، بسهولةٍ لتحوّلها، مع ذلك يمكنها أيضًا أن تستقي من وضعها «كأمٍّ صغيرةٍ» ميلًا للسيطرة يودي بها إلى الثورة على النير الذكوري: إنها مستعدّةٌ لبناء أسرةٍ أموميّةٍ، وليس لأن تصبح موضوعًا جنسيًّا وخادمًا. هذه غالبًا حال الشقيقة الكبرى التي حملت صغيرةً جدًّا مسؤوليّاتٍ كبيرةً. عندما تكتشف «الفتاة الصبيانيّةُ» أنها امرأةٌ، تشعر أحيانًا بخيبةٍ حارقةٍ قد تقودها مباشرةً إلى المثليّة الجنسيّة؛ مع ذلك، كانت تحاول امتلاك العالم عبر الاستقلال والعنف: يمكن ألّا تريد التخلّي عن سلطة أنوثتها، وعن خبرات الأمومة، عن جزءٍ من مصيرها. عمومًا، عبر بعض المقاومة، قبلت الشابّة أنوثتها: أصلًا، في مرحلة الغنج الطفوليّة، أمام أبيها، في تخيّلاتها الجنسيّة، عرفت سحر السلبيّة؛ واكتشفت نفوذها؛ وسرعان ما يختلط الزهوّ بالخجل الذي يوحي لها به جسدها. هذه اليد التي أثارت أحاسيسها، هذه النظرة التي أربكتها، كانتا نداءً، تضرّعًا؛ ويبدو لها جسدها مزوّدًا بمزايا سحريّةٍ؛ إنه كنزٌ، وسلاحٌ؛ وهي فخورةٌ به. ويُبعَثُ غنجها الذي اختفى غالبًا

خلال سنوات الطفولة المستقلّة. فتجرّب مساحيق تجميلٍ، وتسريحاتٍ؛ وبدل إخفاء ثدييها، تدلّكهما كي يكبرا، وتدرس ابتسامتها في المرايا. الصلة بين الاضطراب والإغراء لصيقةٌ إلى درجة أنّه، في كلّ الحالات التي لا تستيقظ فيها الحساسيّة الجنسيّة، لا نلاحظ لدى الذّات أيّة رغبةٍ في نيل الإعجاب. وقد أظهرت تجاربٌ أنّ مريضاتٍ يعانين من قصورٍ في الغدّة الدرقيّة وبالتالي من الفتور والتجهّم، استطعن التحوّل بعد حقن خلاصاتٍ غدّيّةٍ: بدأن يبتسمن، وأصبحن مرحاتٍ وظريفاتٍ. وأعلن علماء نفسٍ مُشبعون بالميتافيزيقا الماديّة أنّ الغنج «غريزةٌ» تفرزها الغدّة الدرقيّة؛ لكنّ هذا التفسير المبهم لم يعد ينطبق هنا إلا على الطفولة الأولى. الواقع أنّه في جميع حالات القصور العضوي: الكسل، وفقر الدم، إلخ... يؤخذ الجسد على أنه عبءٌ؛ لايأمل ولا يعِد بشيءٍ، لأنه غريبٌ، عدائيٌّ. وعندما يعود إلى توازنه وحيويّته، تتعرّف عليه الذات على الفور أنّه يخصّها، وعبره تتسامى نحو الغير.

بالنسبة للشابّة، التصعيد الجنسيّ هو أن تصبح فريسةً كي تأخذ. تصبح موضوعًا؛ تدرك نفسها على أنها موضوعٌ؛ وتفاجأ باكتشاف هذا الشكل الجديد من وجودها: يبدو لها أنها تزدوج؛ وبدلًا من أن تتطابق تمامًا مع نفسها، ها هي تبدأ بالوجود خارجًا. وهكذا، في «الدعوة إلى الفالس» لريموند لومان Raymond Lehmann، نرى أوليفيا تكتشف في مرآةٍ وجهًا غير معروفٍ: إنها هي ـ الموضوع واقفًا فجأةً أمام الذات؛ تشعر من ذلك بانفعالٍ سرعان ما يتبدّد، لكنه يشوّشها:

> **منذ بعض الوقت، كان انفعالٌ خاصٌ يرافق اللحظة التي كانت تنظر إلى نفسها فيها من رأسها حتى قدميها: بطريقةٍ غير متوقّعةٍ ونادرةٍ، كان يحدث أن ترى أمامها غريبةً، شخصًا جديدًا.**
>
> **جرى ذلك مرّتين أو ثلاثًا. كانت تنظر إلى نفسها في المرآة، وترى نفسها. ولكن ما الذي يجري؟... ما كانت تراه اليوم كان شيئًا آخر: وجهًا غامضًا، مكفهرًا ومشرقًا في آنٍ؛ شعرًا فيّاضًا بالحركة والقوّة كما لو أن تيّارًا كهربائيًا اجتازه. كان جسدها - أكان ذلك بسبب الثوب - يبدو لها أنّه يتجمّع فيتناسق، ويتمركز، ويزدهر، مرنًا وثابتًا في آنٍ: حيًّا. كان أمامها، كلوحةٍ، شابّةٌ ترتدي الورديّ، تبدو كأنّ كلّ أشياء الغرفة المنعكسة في المرآة تحيط بها، تقدّمها، متمتمةً: هذا أنت...**

ما يبهر أوليفيا، هي الوعود التي تظنّ أنها تقرؤها في هذه الصورة حيث ترى أحلامها الطفوليّة والتي هي نفسها؛ لكن الشابّة تحبّ أيضًا في حضورها الجسديّ هذا الجسد الذي يبهرها كما لو كان جسد أخرى. إنها تداعب نفسها، وتقبّل استدارة الكتف، والمرفق، وتتأمّل صدرها، وساقيها؛ وتصبح العادة السرّيّة حجّةً للتخيّلات، تبحث فيها عن تملّكٍ عذبٍ للذات. هناك تعارضٌ لدى المراهق بين حبّ الذات والحركة الشهوانيّة التي ترمي به نحو الشيء الذي يرجو تملّكه: فتختفي نرجسيّته عمومًا في لحظة النضج الجنسيّ. في حين أنّ المرأة بما أنها موضوعٌ سلبيٌّ بالنسبة للعشيق كما بالنسبة لها، تملك في شهوانيتها عدم تمييزٍ بدائيٍّ. وتسعى إلى تمجيد جسدها بحركةٍ معقّدةٍ عبر إعجاب الذكور الذين يكرَّس هذا الجسد لهم؛ ومن تبسيط الأمور أن نقول إنها تودّ أن تكون جميلةً كي تسحر، أو أنها تحاول أن تسحر كي تؤكّد لنفسها أنها جميلةٌ: في وحدة غرفتها، في الصالونات حيث تحاول جذب الأنظار، لا تفصل الرغبة في الرجل عن حبّ ذاتها. هذا الاختلاط واضحٌ لدى ماري بشكيرتشف. رأينا قبلًا أنّ فطامًا متأخّرًا أهّلها أكثر من أيّ طفلٍ آخر لأن ترغب في أن تسترعي نظر الغير وإعجابهم؛ فمنذ سنّ الخمس سنواتٍ وحتى خروجها من المراهقة، كانت تكرّس كلّ حبها لصورتها؛ فتُعجب جدًّا بيديها، ووجهها، وأناقتها، وتكتب: «أنا بطلة نفسي...» وتودّ أن تصبح مغنّيةً لينظر إليها جمهورٌ مبهورٌ ولكي ترمقه بالمقابل بنظرةٍ مزهوّةٍ؛ لكن هذا «التوحّد» يتجلّى بأحلامٍ حالمةٍ؛ إنها مغرمةٌ منذ سنّ الثانية عشرة: ذلك أنها تتمنى أن تكون محبوبةً ولا تبحث في الحبّ الذي تتمنى الحصول عليه سوى عن تأكيد حبّها لذاتها. تحلم بأن الدوق الذي تحبّه، دون أن تكلّمه أبدًا، ينبطح على قدميها: «سيبهرك بهائي وستحبني... أنت تستحق امرأةً كما أتمنى أن أكون».

إنه نفس التجاذب العاطفي الذي نصادفه لدى ناتاشا في «الحرب والسلم»:

> **أمي أيضًا لا تفهمني. يا إلهي، كم أنا نبيهةٌ! يا لها من ساحرةٍ ناتاشا هذه! وتتابع هكذا متحدّثةً عن نفسها بضمير الغائب وواضعةً هذا التعجّب على لسان شخصيّةٍ مذكّرةٍ تسبغ عليها كلّ كمال جنسها. لديها كلّ شيءٍ. إنها ذكيّةٌ ولطيفةٌ وجميلةٌ وبارعةٌ. إنها تسبح، وتمتطي الجواد بخيلاء، وتغنّي بشكلٍ ساحرٍ. أجل، يمكن القول، بشكلٍ ساحرٍ!...**

ذلك الصباح كانت قد عادت إلى حبّ الذات هذا، وإلى هذا الإعجاب بشخصها اللذين كانا يشكّلان حالتها الروحيّة المعتادة. كانت تقول، جاعلةً شخصًا ثالثًا يتحدّث، شخصيّةً عامّةً ومذكّرةً: «يا لها من ساحرةٍ، ناتاشا هذه! إنها شابةٌ وجميلةٌ، وصوتها جميلٌ، ولا تزعج أحدًا؛ دعوها إذًا وشأنها!».

وصفت كاترين مانسفيلد Katherine Mansfield أيضًا، ضمن شخصيّة بيريل، حالةً يمتزج فيها بشكلٍ وثيقٍ نرجسيّة مصير امرأةٍ ورغبتها الحالمة:

في قاعة الطعام، وفي الضوء المتراقص لنار الحطب، كانت بيريل تعزف على الغيتار، جالسةً على وسادةٍ. كانت تعزف لنفسها، وتغني بصوتٍ خفيضٍ وتنظر إلى نفسها. كان بريق اللهب ينعكس على حذائها، وعلى جسم الغيتار الأحمر وعلى أصابعها البيضاء...

وفكّرت: «لو كنت خارجًا وأنظر إلى الداخل عبر النافذة، لكنت صُعِقتُ بمنظري هذا». وعزفت الموسيقى المصاحبة بقطعة الخشب الخافضة للصوت؛ لم تعد تغنّي، ولكن كانت تصغي.

«أوّل مرةٍ رأيتك فيها، أيتها الفتاة الصغيرة، أوه! كنت تظنّين أنك وحيدةٌ! كنتِ جالسةً بقدميك الصغيرتين على وسادةٍ وكنتِ تعزفين الغيتار. ياإلهي! لا يمكنني أن أنسى أبدًا...» رفعت بيريل رأسها وبدأت تغنّي:

حتى القمر مُتعَبٌ

لكنّ ضرباتٍ قويّةً كانت تقرع الباب. وبدا وجه الخادمة القرمزيّ... ولكن لا، لن تتحمّل هذه الفتاة الغبيّة. أسرعت إلى البهو المعتم وبدأت تمشي جيئةً وذهابًا. آه! كانت مضطربةً، مضطربةً. كانت مرآةٌ تعلو واجهة المدفأة الجداريّة. وأسندت ذراعيها ونظرت إلى صورتها الشاحبة. كم كانت جميلةً! ولكن لم يكن هناك أحدٌ ليرى ذلك، لا أحد... ابتسمت بيريل وكانت ابتسامتها حقًّا جميلةً بحيث ابتسمت من جديدٍ... (تقاسيم).

لا تتجلّى عبادة الأنا هذه لدى الشابّة بالافتتان بشكلها فقط؛ إنها تتمنّى أن تملك أناها بكاملها وتُبخِّرها. ذاك هو الهدف الذي تبعته عبر هذه المذكّرات التي تسكب فيها روحها بطيب خاطرٍ: مذكّرات ماري بشكيرتسف شهيرةٌ ونموذجٌ من نوعه. تتحدّث الشابّة

إلى دفترها كما كانت سابقًا تتحدّث إلى دُماها، إنه صديقها، وبيت سرّها، يُسأل كما لو كان شخصًا. بين الصفحات حقيقةٌ مدونةٌ تُخفى عن الأهل والرفيقات والأساتذة، كاتبها متعصّبٌ لرأيه. فتاةٌ في الثانية عشرة من عمرها، تكتب يوميّاتها حتى سنّ العشرين، كانت قد كتبت في رأس الصفحة:

أنا الكرّاس الصغير
لطيفٌ وجميلٌ وكتومٌ
أفضِ إليَّ بكلّ أسرارك
أنا الكرّاس الصغير[55]

وتُعلَن أخرياتٌ: «لا تُقرَأ إلّا بعد موتي» أو «تُحرَق بعد موتي». يزداد مفهوم السرّ الذي يتطوّر لدى الفتاة الصغيرة في فترة ما قبل البلوغ. تحبس نفسها في عزلةٍ قاسيةٍ: ترفض أن تكشف لمحيطها الأنا المخبّأة التي تعتبرها أناها الحقيقيّة والتي هي في الواقع شخصيّةٌ خياليّةٌ: فتتخيّل أنها راقصةٌ مثل **ناتاشا تولستوي**، أو قديسةٌ كما كانت **ماري لونيرو** تفعل، أو ببساطةٍ هذه التحفة الفريدة الّتي هي نفسها. هناك دومًا اختلافٌ كبيرٌ بين هذه البطلة والوجه الموضوعي الّذي يعرفها به أهلها وأصدقاؤها. كما أقنعت نفسها أنّهم لا يفهمونها: وبذا غدت علاقتها بنفسها أكثر حرارةً: فأصبحت تنتشي بعزلتها، وتحسّ أنها مختلفةٌ، متفوّقةٌ، استثنائيّةٌ: وعاهدت نفسها على أن يكون المستقبل ثأرًا لضآلة حياتها الحالية. فصارت تهرب عبر الأحلام من هذا الوجود الضيّق والحقير. لطالما أحبّت أن تحلم: فتستسلم دائمًا لهذه الرغبة؛ وتخفي عالمًا يخيفها وراء أفكارٍ شاعريّةٍ، وتحيط العضو الذكري بهالةٍ من ضوء القمر، والغيوم الورديّة، والليل المخمليّ؛ وتجعل من جسدها معبدًا من رخامٍ، من يَشْبٍ، من صَدفٍ، وتروي لنفسها حكايا سحريّةً غبيّةً. ولأنها لا تؤثّر على العالم تغرق غالبًا في البلاهة؛ لو كان عليها أن تتصرّف لكان يجب أن ترى الأمور بشكلٍ واضحٍ؛ بينما تستطيع أن تنتظر وسط الضباب. يحلم الشاب بدوره: يحلم خصوصًا بمغامراتٍ يلعب فيها دورًا فاعلًا. بينما تفضّل الفتاة الأشياء الرائعة على المغامرة؛ وتنثر على الأشياء وعلى

55- ذكرها دوبيس Debesse، أزمة الإبداع الشبابي.

الناس نوعًا من النور السحريّ. فكرة السِّحر، هي فكرة قوّةٍ سلبيّةٍ؛ على المراهِقة أن تؤمن بالسحر، لأنها مُكرَّسةٌ للسلبيّة مع أنّها ترغب بالسلطة: بسحر جسدها الّذي سيجعل الرجال تحت سلطتها، وبصورةٍ عامةٍ بسحر القدر الّذي يغمرها بالرضى دون أن يكون عليها عمل أيّ شيءٍ. أما بالنسبة للعالم الحقيقيّ، فهي تحاول أن تنساه.

كتبت إحدى الفتيات[56]: «أحيانًا في المدرسة لا أدري كيف أهرب من الموضوع المشروح وأحلّق في بلاد الأحلام... عندها أكون مستغرقةً بأوهامٍ لذيذةٍ بحيث أفقد تمامًا مفهوم الواقع. مسمَّرةً في مقعدي، أُذهل عندما أستيقظ لأجد نفسي بين أربعة جدرانٍ».

وكتبت أخرى: «أفضّل أن أحلم على أن أكتب أشعارًا، أن أبدأ في رأسي قصصًا جميلةً لا رأس لها ولا ذيل أو أخترع أسطورةً ناظرةً إلى الجبال في ضوء النجوم. هذا أجمل بكثيرٍ لأنه أكثر غموضًا ويترك انطباعًا بالراحة، والانتعاش».

وقد تأخذ أحلام اليقظة شكلًا مرضيًّا يجتاح الوجود بكامله كما في الحالة التالية[57]:

ماري ب...، طفلةٌ ذكيّةٌ وحالمةٌ، في لحظة البلوغ الّذي بدأ في حوالي سنّ الرابعة عشرة، انتابتها نوبة هياجٍ نفسيٍّ مع أفكار العظمة. «فجأةً أعلنت لأهلها أنها ملكة اسبانيا، وراحت تتّخذ وضعيّاتٍ مترفّعةً، وتلتحف بستارةٍ، وتضحك، وتغنّي، وتتحكّم، وتأمر». وخلال عامين، تكرّر هذا الوضع خلال الطمث؛ ثم عاشت حياةً عاديّةً لمدّة ثماني سنواتٍ، لكنها كانت حالمةً جدًّا، تحب الترف وتقول دومًا بمرارةٍ: «أنا ابنة مُستَخدَمٍ». في حوالي الثالثة والعشرين، أصبحت بليدةً، تحتقر من حولها؛ وتبدي مفاهيم طامحةً؛ وذوت إلى أن أدخلوها مصحّة سانت آن، حيث أمضت ثمانية أشهرٍ؛ وعادت إلى عائلتها حيث لازمت الفراش ثلاث سنواتٍ، «مزعجةً، شرّيرةً، عنيفةً، مزاجيّةً، عاطلةً، محوّلة حياة المحيطين بها إلى جحيمٍ حقيقيٍّ». أعادوها إلى سانت آن، ولم تخرج منها بعد ذلك. لازمت الفراش ولم تعد تهتمّ بشيءٍ. في بعض الفترات - التي كان يبدو أنّها توافق فترات الدورة الشهريّة - كانت تنهض، وتلتحف بأغطيتها وتتّخذ وضعيّاتٍ مسرحيّةً، متصنّعةً، وتبتسم للأطباء أو تنظر إليهم بسخريةٍ... وغالبًا ما كانت ألفاظها تعبّر عن بعض الشهوانيّة ووضعيّتها المترفّعة عن مفاهيم العظمة.

56- ذكرتها مارغريت إيفارد Marguerite Evard، في «المراهقة».

57-عن بوريل وروبن Borel et Robin، الأحلام المرضيّة، ذكرها منكوفسكي، الشيزوفرينيا.

وغرقت أكثر فأكثر في أحلام اليقظة التي تتخلّلها ابتسامات رضىً تمرّ على وجهها؛ لم تعد تغتسل البتّة وصارت حتّى تنفر من سريرها. وتعرض زينةً غريبةً. فتظهر بلا قميصٍ، وغالبًا بلا ملاءاتٍ، ملتفّةً بأغطيتها عندما لا تعرض نفسها عاريةً، رأسها مزيّنٌ بتاجٍ من ورق القصدير، تحمل ذراعاها، ومعصماها، وكتفاها، وكاحلاها عددًا لا حصر له من الأساور المصنوعة من الخيطان والشرائط. تزيّن أصابعها خواتم من نفس النوع». مع ذلك، تبوح بأسرار وضعها بشكلٍ واضحٍ تمامًا. «أذكر النوبة التي مررتُ بها سابقًا. كنت أعرف في أعماقي أنّ ذلك لم يكن حقيقيًا. كنت كطفلةٍ تلعب بالدمية وتعرف جيّدًا أنّ دميتها ليست حيّةً ولكنّها تريد أن تقنع نفسها بذلك... كنت أصفّف شعري وألتحف. كان ذلك يسلّيني ثمّ أصبح بالتدريج رغمًا عني، كنت كالمسحورة؛ كأنّي أعيش حلمًا... كنت كممثّلةٍ تلعب دورًا. كنت في عالمٍ خياليٍّ. كنت أعيش عدّة حيواتٍ وفي جميعها كنت الشخصيّة الرئيسيّة... آه! كانت لديّ كثيرٌ من الحيوات المختلفة، مرةً تزوّجت من أمريكيٍّ وسيمٍ للغاية يضع نظّاراتٍ ذهبيّةً... كان لدينا قصرٌ كبيرٌ ولكلٍّ غرفته. يا للحفلات التي أقمتها!... عشت في زمن رجل الكهوف... أقمت عرسًا فيما مضى. لم أحصِ عدد كلّ هؤلاء الّذين ضاجعتهم. نحن متأخّرون قليلًا هنا. لا يفهمون لماذا أتعرّى وأضع إسورةً ذهبيّةً حول فخذيّ. فيما مضى، كان لديّ أصدقاءٌ أحبّهم جدًّا. وكنت أقيم حفلاتٍ في منزلي. كان هناك زهورٌ، وعطورٌ، وفراء السمّور. عندما أندس عاريةً في فراشي، يذكّرني هذا بحياتي السابقة. كنت مولعةً بنفسي في المرآة، كفنّانةٍ... وفي غمرة الافتتان، كنتُ كلّ ما أردتُ. حتى أنّي ارتكبت حماقاتٍ. أدمنت على المورفين والكوكائين. كان لديّ عشّاقٌ... كانوا يتسلّلون إلى بيتي ليلًا. كانوا يأتون اثنين اثنين. وكانوا يصطحبون حلّاقين وكنّا ننظر إلى البطاقات البريديّة». كانت تحبّ أيضًا أحد الأطبّاء الّذي أعلنت أنها عشيقته. وأنّ لها ابنةً في الثالثة من عمرها. وأخرى في السادسة، غنيّةً، تسافر. أبوها رجلٌ فائق الأناقة. «هناك عشر رواياتٍ مشابهةٍ أخرى. كلّ واحدةٍ منها تحكي قصة وجودٍ مزيّفٍ تعيشه في الخيال».

نرى أنّ أحلام اليقظة المَرضيّة هذه كانت مخصّصةً لإشباع نرجسيّة الشابّة التي تعتقد أنّ حياتها لا تناسبها والتي تخشى مواجهة حقيقة الوجود؛ لم تفعل ماري ب...سوى أن تندفع إلى الحدّ الأقصى في عمليّة معاوضةٍ شائعةً لدى العديد من المراهقات.

مع ذلك عبادة الفتاة الفرديّة هذه لنفسها لا تكفيها. إنها بحاجةٍ لأن تكون في وعيٍ

آخر لكي تكتمل. وتبحث غالبًا عن العون لدى رفيقاتها. عندما كانت أصغر سنًّا كانت صديقتها المقرّبة تساعدها لكي تهرب من دائرة الأم، وتكتشف العالم وخصوصًا عالم الجنس؛ الآن هي شيءٌ يقتلع المراهِقةَ من حدود أناها وشاهدٌ يعيد تشكيلها لها في آنٍ معًا. بعض الفتيات يستعرضن عريهنّ بين بعضهنّ، ويقارنّ صدورهنّ: ربما نذكر مشهد «شابّاتٍ في الزيّ الرسميّ» الّذي كان يُظهِر ألعاب نزيلات المدرسة الداخليّة الجريئة هذه؛ فهنّ يتبادلن مداعباتٍ منتشرةً أو محدّدةً. وكما قالت **كوليت** Colette في «كلودين في المدرسة» وبشكلٍ أقلّ صراحةً **روزاموند ليمان** Rosamond Lehmann في «غبار»، هناك ميولٌ للمثليّة الجنسيّة لدى جميع الشابّات تقريبًا؛ بالكاد تتميّز هذه الميول عن اللذّة النرجسيّة: بالإضافة إلى ذلك، نعومة جلدها هي، وشكل استداراتها التي تشتهيها كلّ واحدةٍ؛ وبالمقابل عبادتها لذاتها تتضمّن عبادة الأنوثة عمومًا. جنسيًّا، الرجل ذاتٌ؛ فالرجال إذًا يفترقون في العادة بالرغبة التي تدفعهم نحو شيءٍ مختلفٍ عنهم؛ لكنّ المرأة هي موضع رغبةٍ مطلقٌ؛ مع ذلك، في المدارس الثانويّة، والابتدائيّة، والداخليّة، والمشاغل، تزدهر كثيرٌ من «الصداقات الخاصّة»؛ بعضها روحيٌّ بحتٌ، وأخرى شهوانيّةٌ للغاية. في الحالة الأولى، تكتفي الصديقات بفتح قلوبهنّ لبعضهنّ ويتبادلن الأسرار؛ ودليل الثقة الأكبر هو إطلاع الصديقة الحميمة على دفتر المذكّرات الخاصّ؛ وعوضًا عن العناقات الجنسيّة، تتبادل الصديقتان مظاهر الحنان الفائق وغالبًا ما تتبادلان بطرقٍ غير مباشرةٍ دليلًا مادّيًّا على مشاعرهما: وهكذا أحرقت **ناتاشا** ذراعها بمسطرةٍ محمّاةٍ حتى الاحمرار لتثبت حبّها لسونيا؛ وتتناديان بعضهما بصورةٍ خاصّةٍ بألف اسمٍ مداعبٍ، وتتبادلان الرسائل الملتهبة. وكمثالٍ نورد ما كتبته **إميلي ديكنسون** لمحبوبتها وهي شابّةٌ متزمّتةٌ من نيو إنجلاند:

> **أفكر بك اليوم بكامله وحلمت بك طيلة الليل الفائت. كنت أتنزّه معك في أروع الحدائق وكنت أساعدك في قطف ورودٍ ولم تكن سلّتي لتمتلئ أبدًا. وهكذا طيلة اليوم، أصلّي لأتنزّه معك؛ وعندما يدنو الليل، اشعر بالسعادة وأعدّ بصبرٍ نافدٍ الساعات التي تفصل بيني وبين الظلام وأحلامي والسلّة الّتي لا تمتلئ أبدًا...**

يذكر **مندوس** Mendousse في كتابه «روح المراهِقة» عددًا كبيرًا من الرسائل المشابهة:

> **عزيزتي سوزان... كنت لأودّ أن أنقل هنا بعض أبيات نشيد الأناشيد: كم أنت جميلةٌ**

يا صديقتي، كم أنت جميلةٌ! كالحبيبة السرّيّة كنت تشبهين وردة سارون، وزنبقة الوادي ومثلها كنتِ لي أكثر من شابّةٍ عاديّةٍ؛ كنتِ رمزًا، رمز أشياء كثيرةٍ جميلةٍ وراقيةٍ... وبسبب ذلك، يا سوزان البيضاء، أحبّك حبًا نقيًا لا مصلحة فيه، فيه شيءٌ من العبادة.

وتعترف أخرى في مذكّراتها بمشاعر أقلّ سموًّا:

كنتُ هناك، تهصر خصري هذه اليد الصغيرة البيضاء، وترتاح يدي على كتفها المستدير، وذراعي على ذراعها العاري الدافئ مضغوطةً على نعومة ثديها، وأمامي فمها الجميل مفترًا عن أسنانها الصغيرة... كنتُ أرتعش وأشعر بوجهي الملتهب[58].

في كتابها حول المراهِقةِ، جمعت مدام إيفار Mm Èvard أيضًا عددًا كبيرًا من هذا الفيض الحميم:

إلى جنيّتي المحبوبة، عزيزة قلبي، جنيّتي الحلوة. آه! قولي لي أنك ما زلتِ تحبّينني، قولي لي أنّي ما زلت بالنسبة لك الصديقة الوفيّة. أنا حزينةٌ، أحبّك جدًا، آه يا ل.. ولم أستطع أن أحدّثك، أن أقول لك محبّتي كلّها؛ لا توجد كلماتٌ تصف حبّي. الولع كلمةٌ قليلةٌ بالمقارنة لما أشعر به؛ يبدو لي أحيانًا أنّ قلبي سينفجر. جميلٌ جدًا أن تحبّينني، لا أستطيع تصديق ذلك. آه يا حلوتي، قولي لي، هل ستظلّين تحبينني طويلًا؟... إلخ.

يتمّ الانزلاق بسهولةٍ من هذه العواطف المتحمّسة إلى غراميّاتٍ شبابيّةٍ آثمةٍ؛ أحيانًا تسيطر إحدى الصديقتين على الأخرى وتمارس سلطتها بساديّةٍ؛ ولكن الأمر يكون غالبًا عبارةً عن غراميّاتٍ متبادلةٍ دون إذلالٍ أو صراعٍ؛ يظلّ منح المتعة وتلقّيها بريئًا بقدر ما كان الأمر عندما كانت كلاهما تمارس العادة السرّيّة دون أن يكون لها شريكٌ. لكن هذا البياض نفسه باهتٌ؛ عندما ترغب المراهِقة في دخول الحياة، والوصول إلى الآخر، تريد أن تبعث من جديدٍ لمصلحتها سحر النظرة الأبويّة، وتطالب بحبّ معبودةٍ وبمداعباتها. وتتوجّه إلى امرأةٍ أقلّ غرابةً من الذكر وأقلّ إرعابًا منه: امرأةٌ لديها مهنةٌ، تكسب عيشها، ولديها واجهةٌ اجتماعيّةٌ نوعًا ما، تكون ساحرةً بقدر الرجل: نعرف كم «شُعلةً» تلتهب في قلوب تلميذاتٍ

58- أوردها أيضًا مندوس Mendousse، روح المراهِقة.

تجاه معلّماتٍ ومشرفاتٍ. في «كتيبة النساء»، تصف كليمنس دان Clèmence Dane بنمطٍ عفيفٍ غراميّاتٍ ملتهبةً. أحيانًا تبوح الشابّة لصديقتها الحميمة بعاطفتها المتّقدة، يحدث حتّى أن تتشاطرا ذلك وأن تصرّا على إثباته بحماسٍ. وهكذا تكتب تلميذةٌ لرفيقتها المفضّلة:

أنا في السرير، مصابةً بالزكام، لا أستطيع إلا أن أفكّر بالآنسة س... لم أحبّ معلّمةً أبدًا بهذا القدر. كنت أصلًا أحبّها كثيرًا في السنة الأولى؛ ولكنّه الآن حبٌّ حقيقيٌّ. أظنّ أنّي شغوفةٌ أكثر منك. يبدو لي أنّي أقبّلها؛ يكاد يغمى عليّ وأبتهج بالعودة إلى المدرسة لأراها[59].

وتجرؤ غالبًا على الاعتراف بمشاعرها لمعبودتها نفسها:

أنا أمامك بحالةٍ لا يمكن وصفها يا معلّمتي العزيزة... أنا مستعدّةٌ عندما لا أراك لأعطي أيّ شيءٍ في العالم كي ألتقيك؛ أفكّر بك كلّ لحظةٍ. وعندما ألمحك، تمتلئ عيناي بالدموع، وأرغب في الاختباء؛ أنا صغيرةٌ للغاية وجاهلةٌ مقارنةً بك. عندما تتحدّثين إليّ، أشعر بالحرج، والانفعال، ويبدو لي أنّي أسمع صوت جنّيّةٍ عذبًا وأصوات أشياء جذّابةٍ، من المستحيل تفسيرها؛ أتابع أقلّ حركاتك، ولا أتابع الحديث وأتمتم بكلماتٍ غبيّةٍ: ستقرّين يا معلّمتي العزيزة بأن هذا كلّه فوضى. أرى فيه شيئًا واضحًا، هو أنّي أحبّك من أعماق روحي[60].

روت مديرة مدرسةٍ مهنيّةٍ ما يلي[61]:

أذكر في شبابي أنّنا كنّا نتنازع على الورقة التي كانت إحدى أستاذاتنا الشابّة تحضر فيها غداءها وكنّا ندفع ثمن قطعها عشرين قرشًا. كانت بطاقات المترو خاصّتها المنتهية صلاحيّتها موضع هوسنا بالجمع أيضًا.

من المفضّل ألا تكون المرأة المحبوبة متزوّجةً بما أنّه عليها أن تلعب دورًا ذكوريًّا: ولا يثبّط الزواج دومًا من عزيمة المغرمة الصغيرة لكنّه يزعجها؛ فتكره أن تبدو معبودتها خاضعةً لسلطة زوجٍ أو عشيقٍ. تتمّ هذه الغراميّات غالبًا في السرّ، أو على الأقلّ على صعيدٍ

59- ذكرتها مارغريت إيفار Marguerite Èvard، المراهِقة.

60- ذكرتها مارغريت إيفار، المراهِقة.

61- ليبمان، الشباب والجنس

أفلاطونيّ بحتٍ؛ لكنّ الانتقال إلى شهوانيّةٍ ملموسةٍ أسهل بكثيرٍ هنا ممّا لو كان المعشوق من الجنس الذكري؛ فالجسد الأنثوي لا يخيف الشابّة، حتّى وإن لم تكن لها تجارب سهلةٌ مع صديقاتٍ في مثل سنّها؛ لقد عرفت غالبًا مع شقيقاتها وأمّها حميميّةً اخترقت فيها الشهوانيةُ الحنانَ بدقّةٍ، وبقرب المحبوبة التي تُعجَبُ بها يتمّ الانزلاق من الحنان إلى المتعة أيضًا بطريقةٍ غير محسوسةٍ. في «شابّاتٌ بالزيّ الرسميّ» عندما كانت **دوروثي ويك** تقبّل شفتيّ **هرتا ثيل**، كانت هذه القبلة أموميّةً وشهوانيّةً في آنٍ معًا. يوجد تواطؤٌ بين النساء يتغلّب على الحياء؛ يكون الاضطراب الّذي تحدثه إحداهما لدى الأخرى دون عنفٍ عمومًا؛ والمداعبات المثليّة لا تتطلّب فضّ بكارةٍ ولا اختراقًا: فهي تُشبِعُ شهوانيّة الطفوليّة البظريّة دون أن تتطلّب تحوّلاتٍ جديدةً مقلقةٍ. تستطيع الشابّة أن تحقّق نزعتها كشيءٍ سلبيٍّ دون أن تشعر باستلابٍ عميقٍ. هذا ما تعبّر عنه **رينيه فيفيان** Renèe Vivien في هذه الأشعار، حيث تصف علاقات «النساء الملعونات» وعشيقاتهنّ:

أجسادنا مرآةٌ أخويّةٌ لأجسادهنّ،
قبلاتنا الخياليّة ذات رقّةٍ شاحبةٍ
أصابعنا لا تلامس وبر خدٍّ
ويمكننا عندما ينحلّ الزنّار
أن نكون عشيقاتٍ وأخواتٍ معًا[62]

وفي هذه:

لأنّنا نحب الأناقة والرقّة
وامتلاكي لا يرضّ نهديك...
وفمي لن يعضّ فمك بشراسةٍ[63]

تعِدُ صديقتها بألّا تكون عنيفةً معها. توجّه المراهِقة غالبًا حبّها الأول إلى فتاةٍ تكبرها سنًّا بدل أن توجّهه إلى رجلٍ، يعود سبب ذلك في جزءٍ منه إلى خوفها من العنف

62- «ساعة الأيدي المضمومة».

63- Sillage.

والاغتصاب. والمرأة المسترجلة تجسّد لها ثانيةً الأب والأمّ: لديها سيطرة الأب، وتساميه، فهي منبع القيم ومقياسها، وتبرز من الجهة الأخرى للعالم المعطى، إنها إلهيّةٌ لكنّها تبقى امرأةً: إن كانت المراهقة قد حُرِمت كثيرًا وهي طفلةٌ من مداعبات الأمّ، أو أنّ أمها على العكس غنّجتها لفترةٍ طويلةٍ، فتحلم مثل إخوتها بحرارة الثدي؛ وتجد بعفويّةٍ في هذا الجسد القريب من جسدها هذا الالتحام الفوريّ مع الحياة والّذي خرّبه الفطام؛ وعبر هذه النظرة الغريبة التي تغلّفها، فتتغلّب على الافتراق الّذي يفرّدها. بالطبع، كلّ علاقةٍ إنسانيّةٍ تفرض صراعاتٍ، وكلّ حبٍّ غيرةً. لكنّ كثيرًا من الصعوبات التي تقف بين العذراء وعشيقها الأول تُذَلّل هنا. يمكن أن تتّخذ تجربة المثليّة الجنسيّة صورة حبٍّ حقيقيٍّ؛ يمكن أن تمنح الشابّةَ توازنًا سعيدًا بحيث ترغب في أن يستمرّ، ويتكرّر، وتحتفظ منه بذكرىً مشوبةٍ بالحنين؛ يمكنها أن تكشف ميلًا للسحاقيّة أو تصنعه[64]. ولكن على الأغلب، لن تُمثّل إلا مرحلةً تنهيها سهولتها ذاتها. في الحبّ الّذي تكرّسه لفتاةٍ أكبر سنًّا، تشتهي الشابّة مستقبلها نفسه: تريد أن تتماهى مع المعبودة؛ وتفقد هذه ألقها بسرعةٍ ما لم تكن ذات تفوّقٍ استثنائيٍّ؛ عندما تبدأ الأصغر في تأكيد ذاتها، تَحكُم، وتقارن: الأخرى التي تمّ اختيارها تحديدًا لأنها كانت قريبةً ولا تسبّب الرهبة ليست «آخر» بما يكفي لتفرض نفسها طويلًا؛ الآلهة الذّكريّة مستقرّةٌ بشكلٍ أشدّ ثباتًا لأن سماءها أبعد. ويدفع الفضول والشهوانيّة الفتاة إلى أن ترغب بعناقٍ أعنف. غالبًا لم تطلب المغامرة المثليّة منذ البدء إلا كتحوّلٍ وتعلّمٍ، وانتظارٍ؛ لقد مارست الحب والغيرة والغضب والتكبّر والبهجة والعذاب ضمن فكرةٍ قد لا تعترف بها وهي أنّها تقلّد دون مخاطرةٍ كبيرةٍ المغامرات التي تحلم بها ولكنّها لم تكن تجرؤ بعدُ أو لم تكن لديها فرصة تجربتها. إنّها مكرّسةٌ للرجل، تعرف ذلك، وتريد مصير امرأةٍ طبيعيًّا وكاملًا.

يبهرها الرجل ومع ذلك يخيفها. لكي توفّق بين المشاعر المتناقضة التي تشعر بها تجاهه ستميّز لديه الذكر الّذي ينفّرها عن الآلهة المشرقة التي تعبدها بورعٍ. نزقةً، متوحّشةً، ذات أصدقاء ذكورٍ، تعبد الأمراء الساحرين من بعيدٍ: ممثّلي السينما الّذين تعلّق صورهم فوق سريرها، والأبطال المتوفّين أو الأحياء ولكن بعيدي المنال على كلّ حالٍ، والمجهولين الّذين تلمحهم صدفةً وتعلم أنّها لن تراهم ثانيةً أبدًا. لا تطرح مثل هذه الغراميّات أيّة مشكلةٍ.

64- انظر الفصل الرابع.

تتوجّه غالبًا إلى رجلٍ ذي قيمةٍ اجتماعيّةٍ أو ثقافيّةٍ ولكنّ شكله لا يثير: مثلًا إلى أستاذٍ عجوزٍ مضحكٍ نوعًا؛ هؤلاء الرجال المتقدّمون في السنّ يبرزون أبعد من العالم الّذي تكون المراهِقة حبيسةً فيه، يمكن أن تُخَصَّص لهم سرًّا، تُكَرَّس لهم كما يكرّس المرء نفسه لله: لا إذلال في مثل هذه الهبة، إنّها مقبولةٌ بما أنّها لا تشتهيهم جنسيًّا. تقبل المغرمة الحالمة عن طيب خاطرٍ حتّى أن يكون للشخص المختار مظهرٌ متواضعٌ، وأن يكون قبيحًا، مثيرًا للسخرية بعض الشيء: فذلك يشعرها أكثر بالأمان. وتتظاهر بأنّها تأسف للعوائق التي تفصلها عنه؛ ولكنّها في الحقيقة اختارته تحديدًا لأنّه لا يمكن أن تنشأ أيّ علاقةٍ بينهما. وهكذا يمكنها أن تجعل من الحبّ تجربةً مجرّدةً، ذاتيّةً بحتةً، لا تمس طهارتها؛ يخفق قلبها، وتعاني ألم الغياب، وعذاب الحضور، والغمّ، والأمل، والضغينة، والحماس، ولكن دون نتيجةٍ؛ لا التزام من جانبها.

من المسلّي أن نلاحظ أن المحبوبة اختيرت برّاقةً بقدر ما هي أكثر بعدًا: من المفيد أن يكون أستاذ البيانو الّذي نصادفه يوميًّا مضحكًا وقبيحًا؛ ولكن إن أغرِمنا بغريبٍ يتحرّك ضمن فلكٍ لا يمكن بلوغه، عندئذٍ نفضّله ذكرًا وسيمًا. المهمّ بطريقةٍ أم بأخرى هو ألّا تُطرَح المسألة الجنسيّة. هذه الغراميّات الفكريّة تطيل السلوك النرجسيّ وتؤكّده حيث لا تظهر الشهوانيّة إلا في مُثوليتها، دون وجودٍ حقيقيٍّ للآخر. كثيرًا ما تنمّي المراهقة حياةً خياليّةً قويّةً بشكلٍ مدهشٍ لأنّها تجد في هذه الغراميّات ذريعةً تسمح لها بتحاشي تجارب ملموسةٍ. وتختار أن تمزج تخيّلاتها بالواقع. من بين عدة أمثلةٍ اختارت **هيلين دويتش**[65] مثالًا معبّرًا للغاية: يروي قصّة شابّةٍ جميلةٍ ومغريةٍ، كان بإمكانها بسهولةٍ نيل الإعجاب وكانت ترفض كل علاقةٍ مع الشباب في محيطها؛ مع ذلك اختارت وهي في الثالثة عشرة أن تتولّع سرًّا بشابٍّ في السابعة عشرة، قبيحٍ بالأحرى ولم يسبق أن وجّه الحديث إليها قطّ. وحصلت على صورةٍ له، كتبت عليها بنفسها إهداءً، وظلّت تكتب مذكّراتٍ يوميةً طيلة ثلاث سنواتٍ تسرد فيها بتفصيلٍ تجاربها الخياليّة: كانا يتبادلان قبلاتٍ، وعناقًا شغوفًا؛ كان هناك أحيانًا بينهما مشاحناتٌ ودموعٌ كانت تخرج منها بعينين حمراوين ومنتفختين فعلًا؛ ثمّ كانا يتصالحان، فترسل لنفسها زهورًا، إلخ... وعندما فرّقها عنه تغيير مكان الإقامة، كتبت له رسائل، لم

65- سيكولوجية النساء.

ترسلها له أبدًا، لكنّها كانت تردّ عليها بنفسها. كانت هذه القصّة بالطبع دفاعًا ضدّ تجارب حقيقيّةٍ كانت تخشاها.

هذه الحالة مرضيّةٌ تقريبًا. لكنّها تُظهِر عمليّةً تُصادَفُ عادةً، وتضخّمها. نرى لدى **ماري بشكيرتسف** مثالًا أخّاذًا لحياةٍ عاطفيّةٍ خياليّةٍ. الدوق «هـ»...الّذي تدّعي أنّها مغرمةٌ به، لم تتحدّث إليه قطُّ. ما تتمنّاه في الواقع، هو تمجيد أناها؛ ولكن باعتبارها امرأةً وخصوصًا في تلك الحقبة والطبقة التي تنتمي إليها، لم يكن واردًا بالنسبة لها أن تنال النجاح بواسطة وجودها وحده. في سنّ الثامنة عشرة، كتبت بجلاءٍ: «أكتب إلى ك... أنّي أودّ أن أكون رجلًا. أعرف أنّ باستطاعتي أن أصبح شخصًا هامًّا؛ لكنّ أين تريدني أن أذهب مرتديةً تنّورةً؟ الزواج هو درب النساء الوحيد؛ للرجال ستٌّ وثلاثون فرصةً، وليس للمرأة سوى واحدةٍ، الصفر، كما في المصرِف». بالتالي هي بحاجةٍ إلى حبِّ رجلٍ؛ ولكن ليكون قادرًا على أن ينعم عليها بقيمةٍ ذات سيادةٍ، عليه أن يكون هو ذاته إدراكًا سياديًّا. وكتبت: «لن يعجبني أبدًا رجلٌ في مركزٍ أقلّ من مركزي. الرجل الغنيّ مستقلٌّ، يحمل معه الكبرياء وهيئةً مريحةً. للثقة مظهر المنتصر نوعًا ما. أحب في «هـ»... هذا المظهر المتقلّب الأهواء، المغرور والقاسي: لديه شيءٌ من نيرون». وأيضًا: «يجب أن يكون هذا الانمحاء للمرأة أمام تفوّق الرجل المحبوب مصدر أكبر متع الكبرياء الّذي يمكن أن تشعر به امرأةٌ متفوّقةٌ». وهكذا تقود النرجسيّة إلى المازوشيّة: كنّا نصادف قبلًا هذه الصلة لدى الطفل الّذي يحلم بذي اللّحية الزرقاء، في غريزليدس، في عيد الشهداء. تتشكّل الأنا كما من أجل الغير، عبر الغير: كلما كان الغير قويًّا، كلّما كان للأنا غنىً ونفوذٌ؛ عندما تأسر سيّدها، تأخذ لنفسها كلّ الفضائل التي يملكها؛ إذا أحبّ نيرون **ماري بشكيرتسف**، ستصبح هي نيرون؛ التلاشي أمام الغير، هو صنع الغير في نفسه ومن أجل نفسه في آنٍ معًا؛ في الواقع حلم العدم هذا إرادةٌ فخورةٌ بالكينونة. وبذلك لم تصادف **ماري بشكيرتسف** أبدًا رجلًا رائعًا بما يكفي لتقبل بأن تُستَلَب عبره. شيءٌ مختلفٌ أن يركع المرء أمام إلهٍ صنعه بنفسه ويبقى على مسافةٍ منه، شيءٌ مختلفٌ أن تستسلم لذكرٍ من لحمٍ ودمٍ. كثيرٌ من الشابّات يتعنّتن طويلًا في متابعة حلمهنّ من خلال العالم الحقيقيّ: فيبحثن عن رجلٍ يبدو لهنّ متفوّقًا على كلّ الآخرين بمركزه وميزاته وذكائه؛ يرِدنَه أكبر سنًّا منهنّ، صنع لنفسه مكانًا في هذا العالم، يتمتّع

بالسلطة والمكانة؛ وتسحرهنّ الثروة والشهرة: يبدو المُختار كالذّات المطلقة سينقل إليهنّ بحبّه روعتَه وضرورته. يجعل تفوّقه الحبّ الّذي تكنّه الفتاة له مثاليًّا: كونه ذكرًا ليس هو ما يجعلها ترغب في منح نفسها له، بل لأنّه هذا الكائن المصطفى. كانت إحدى الصديقات تقول لي فيما مضى: «كنت أريد عمالقةً ولا أجد سوى رجالٍ». باسم هذه المتطلّبات العليا، ترفض الشابّة خطّابًا عاديّين وتتحاشى مشاكل الجنس. إنها تحبّ أيضًا في أحلامها، ودون مخاطرةٍ، صورتها التي تسحرها كصورةٍ، رغم أنّها لا تقبل أبدًا أن تتطابق معها. وهكذا تروي **ماري لو هاردوين**[66] أنّها كانت تستمتع برؤية نفسها ضحيّةً مخلصةً لرجلٍ بينما كانت فعليًّا متسلّطةً.

> **بنوعٍ من الحياء، لم أستطع أبدًا أن أعبّر في الواقع عن ميول طبيعتي المخفيّة هذه التي طالما عشتها في الحلم. كما تعلّمت أن أعرف نفسي، أنا بالفعل متسلّطةٌ، عنيفةٌ، غير قابلةٍ للانحناء في الواقع.**
>
> **تلبيةً لحاجةٍ لإلغاء نفسي، كنت أتخيّل أحيانًا أنني امرأةٌ تثير الإعجاب، لا تعيش إلا للواجب ومغرمةٌ حتى الغباء برجلٍ كنت أجهد في تنفيذ أدنى رغباته. نتخبّط وسط حياة فقرٍ بغيضةٍ. ويجهد نفسه في العمل ويعود مساءً منهكًا شاحبًا. وكنتُ أتعب عينيَ بقرب نافذةٍ معتمةٍ أرتق ثيابه. أحضّر له بعض الأطباق المتواضعة في مطبخٍ ضيّقٍ مدخّنٍ. كان المرض لا يكفّ عن تهديد حياة ابننا الوحيد. مع ذلك، كانت ابتسامةٌ ذات رقّةٍ مصطنعةٍ تخفق دومًا على شفتيَّ وكان يظهر دومًا في عينيَّ هذا التعبير غير المحتمل عن الشجاعة الصامتة التي لم أستطع أبدًا تحمّلها في الواقع دون اشمئزازٍ.**

عدا عن هذه المجاملة النرجسيّة، تشعر بعض الشابّات بشكلٍ ملموسٍ بالحاجة إلى دليلٍ، إلى سيّدٍ. في لحظة إفلاتهنّ من سيطرة الأبوين، يجدن أنفسهنّ حائراتٍ باستقلالٍ لم يعتدن عليه: فلا يعرفن سوى استخدامه بشكلٍ سلبيٍّ؛ فيقعن في النزوة والغرابة؛ ويتمنّين إعفاءهنّ من حرّيّتهنّ من جديدٍ. حكاية الشابّة ذات النزوات، المغرورة، المتمرّدة، التي لا تحتمل والتّي تدع ـ مُغرَمةً ـ رجلًا عاقلًا يضبطها هي صورةٌ من الأدب الرخيص والسينما:

66- النقاب الأسود.

إنّها فكرةٌ مبتذلةٌ تتملّق الرجال والنساء. إنها الحكاية التي ترويها السيّدة دوسيغور Mme de Sègur من جملة ما ترويه «يا للطفلة الرائعة!» عندما كانت جيزيل طفلةً، خاب أملها بسبب أبٍ متساهلٍ أكثر مما ينبغي، فتعلّقت بخالةٍ عجوزٍ قاسيةٍ؛ عندما كانت شابّةً، خضعت لسيطرة شابٍّ معنِّفٍ، جوليان، كان يوبّخها بقسوةٍ، ويهينها، ويحاول إصلاحها؛ وتزوجت من دوقٍ غنيٍّ دون شخصيّةٍ كانت تعيسةً جدًا معه وعندما ترمّلت، وقبلت حبّ مرشدها المتطلّب، وجدت أخيرًا البهجة والحكمة.

في كتاب «الزوجات الصالحات» للويزا آلكوت Louisa Alcott، بدأت جو المستقلّة تُغرم بزوجها المستقبلي لأنه يلومها على طيشٍ ارتكبته؛ كان يؤنّبها هو أيضًا، وتسارع هي إلى الاعتذار، للخضوع. رغم تكبّر النساء الأمريكيّات النكِد، قدّمت لنا أفلام هوليود مئة مرّةٍ طفلاتٍ شقيّاتٍ روّضتهنّ الخشونة الصائبة لعاشقٍ أو زوجٍ: زوجٌ من الصفعات أو «علقةٌ» على المؤخّرة تبدو وسيلةً أكيدةً للإغواء. ولكن العبور في الواقع من الحبّ المثاليّ إلى الحبّ الجنسيّ ليس سهلًا. كثيرٌ من النساء يتحاشين بعنايةٍ الاقتراب من موضع عاطفتهنّ ربما خوفًا من خيبةٍ. إذا بادلهنّ عشقهنّ البطل، العملاق، نصف الإله، وحوّل هذا العشق إلى تجربةٍ فعليّةٍ تنفر الشابّة؛ يصبح معبودها ذكرًا تتحوّل عنه مشمئزّةً. هناك مراهقاتٌ غَنِجاتٍ يفعلن كلّ شيءٍ لإغواء رجلٍ يبدو لهنّ «مثيرًا للاهتمام»، أو «ساحرًا»، لكنّهنّ ينزعجن بصورةٍ متناقضةٍ إن أبدى لهنّ بالمقابل شعورًا متأجّجًا؛ كان يعجبهنّ لأنه كان يبدو بعيد المنال: فإن أصبح عاشقًا أصبح عاديًّا. «إنه رجلٌ كالآخرين». تلومه الشابّة على سقوطه؛ وتتّخذ ذلك عذرًا لترفض الملامسات الجسديّة التي تخيف حساسيّتها البكريّة. وإذا استسلمت الشابّة «لمثلها»، تبقى بلا حسٍّ بين ذراعيه ويقول ستيكل[67]: «يحدث أن تنتحر شابّاتٌ متحمّساتٌ بعد مثل هذه الأحداث حيث ينهار كل بناء الخيال الغراميّ لأن المثال تكشّف عن شكل «وحشٍ عنيفٍ». وكذلك بسبب رغبةٍ في المستحيل كثيرًا ما تقع الشابّة في غرام رجلٍ عندما يبدأ في مغازلة إحدى صديقاتها وكثيرًا ما تختار كذلك رجلًا متزوّجًا. ويسحرها أشباه دون جوان بسهولةٍ؛ تحلم بأن تخضع وتُعلّق بها هذا الساحر الفتّان الّذي لا تتمكّن أيّ امرأةٍ من الاحتفاظ به أبدًا، وتداعب الأمل في إصلاحه: لكنّها تعرف بالفعل أنّها ستُخفِق في مهمّتها

67- المرأة الباردة.

وهذا أحد أسباب اختيارها. وتتأكّد بعض الشابّات من أنّهنّ عاجزاتٌ نهائيًّا عن معرفة حبٍّ حقيقيٍّ وكاملٍ. فيبحثن طوال حياتهنّ عن مثالٍ يستحيل بلوغه.

ذلك أنّ هناك صراعًا بين نرجسيّة الفتاة والتجارب الّتي تحضّرها لها جنسيّتها. لا تقبل المرأة نفسها كغير أصليٍّ إلا بشرط أن تجد لنفسها أصليًّا ضمن استسلامها. عندما تجعل من نفسها شيئًا، تصبح معبودةً ترى نفسها فيها بفخرٍ؛ لكنّها ترفض الجدليّة القاسية التي تفرض عليها العودة إلى غير الأساسيّ. تريد أن تكون كنزًا ساحرًا، وليس شيئًا يؤخذ. تحبّ أن تبدو حِرزًا رائعًا محمّلًا بعطرٍ سحريٍّ، وليس أن ترى نفسها جسدًا يترك الآخرين ينظرون إليه، ويجسّونه، ويهرسونه: وهكذا يحبّ الرجل المرأة الطريدة لكنّه يهرب من الغولة ديميتير.

فخورةً باجتذاب الاهتمام الذكوري وإثارة الإعجاب، يثير حنقها أن تُجتَذَب بدورها بالمقابل. لقد تعلّمت الخجل مع البلوغ: ويظلّ الخجل ممزوجًا بغنجها وبغرورها، تتملّقها نظرات الذكور وتجرحها في آنٍ معًا؛ فهي لا تريد أن يُرى منها إلا ما تريد إظهاره: فالعيون ثاقبةٌ دومًا أكثر مما ينبغي. من هنا يأتي التشوّش الّذي يحيّر الرجال: فهي تكشف صدرها، وساقيها، وتحمرّ ما إن يُنظَر إليها وتثور. وتتسلّى بإثارة الذكور ولكن إن لاحظت أنّها أثارت لديهم الرغبة تتراجع باشمئزازٍ: فالرغبة الذكريّة هي إهانةٌ بقدر ما هي تكريمٌ؛ وبقدر ما تشعر أنّها مسؤولةٌ عن سحرها، وبقدر ما يبدو لها أنّها تمارسه بحرّيّةٍ، تفتنها انتصاراتها: ولكن بما أنّ تقاطيعها وشكلها وجسدها هي مُعطاةٌ ومحتملةٌ، فهي تريد أن تخفيها عن هذه الحرّيّة الغريبة وغير المتكتّمة التي تطمع فيها. وهذا هو المعنى العميق لهذا الحياء الأصلي، الّذي يتداخل بطريقةٍ مربكة مع أكثر أساليب الدلع جرأةً. قد تكون الفتاة الصغيرة جريئةً بشكلٍ مدهشٍ لأنّها لا تدرك أن مبادراتها تكشف سلبيّتها: ما إن تدرك ذلك حتى تجفل وتغضب. لا شيء أكثر التباسًا من نظرةٍ؛ إنها تقبع على مسافةٍ، وبهذه المسافة تبدو أنّها تحترمها: ولكنّها تستحوذ بشكلٍ ماكرٍ على الصورة المأخوذة. وتتخبّط المرأة الصغيرة في هذه الفخاخ. وتبدأ في الاستسلام لكنّها تتشنّج على الفور وتقتل الرغبةَ في داخلها. في جسدها الذي لم يتأكّد بعدُ، تشعر بالمداعبة كمتعةٍ رقيقةٍ حينًا، وكدغدغةٍ مزعجةٍ حينًا آخر؛ تؤثّر فيها القبلة في البدء، ثم فجأةً تجعلها تضحك؛ وتُتبِع كلّ مسايرةٍ بثورةٍ؛ تستسلم

للقبلة، لكنّها تمسح فمها بتصنّعٍ؛ إنها باسمةٌ رقيقةٌ، ثم فجأةً متهكّمةٌ وعدائيّةٌ؛ تمنح وعودًا وتنساها متعمّدةً. هكذا هي **ماتيلد دولامول** الّتي أغواها جمال **جوليان** وفضائله النادرة، ورغبت في الحصول عبر حبّه على مصيرٍ استثنائيٍّ، ولكنّها رفضت بشدّةٍ سيطرة أحاسيسها وسيطرة إدراكٍ غريبٍ، وتنتقل من العبوديّة إلى العجرفة، من التوسّل إلى الاحتقار؛ وتتقاضى حالًا ثمن كلّ ما تعطيه. كذلك هي أيضًا حال «**مونيك**» التي خطّ ملامحها **مارسيل آرلان** Marcel Arland، التي تمزج الاضطراب بالخطيئة، والتي ترى في الحبّ تنازلًا مخجلًا، ذات الدم المتأجّج ولكن الّتي تكره هذا التوقّد، والتي لا تخضع إلا متمرّدةً.

تدافع «الفاكهة الفجّة» عن نفسها تجاه الرجل بأن تعرض طبيعةً طفوليّةً وفاسقةً. غالبًا ما وصفوا الشابّة بهذه الصورة نصف البرّيّة نصف الحكيمة. ومن بين آخرين رسمتها **كوليت** في «كلودين في المدرسة» وكذلك في «القمح الفِجّ» في تقاطيع **فنكا** الساحرة. تهتمّ بحماسةٍ بالعالم القائم أمامها والّذي تسوده؛ لكنّها أيضًا ذات فضولٍ، ورغبةٍ حسّيّةٍ وحالمةٍ بالرجل. **فينكا** تكشط جلدها بالشوك، وتصيد القريدس، وتتسلّق الأشجار، ومع ذلك ترتعش عندما يلمس زميلها «**فيل**» يدها؛ فتعرف الاضطراب حيث يصبح الجسد شهوةً والّذي هو أوّل إظهارٍ للمرأة كامرأةٍ؛ فتبدأ، مرتبكةً، في الرغبة بأن تكون جميلةً. فتصفّف شعرها أحيانًا، وتتزيّن، وترتدي أثواب الأورغاندي الهفهافة، ويسلّيها أن تكون مغناجةً فاتنةً؛ ولكن بما أنّها تريد أيضًا أن تكون من أجل ذاتها وليس فقط من أجل الغير، تحزم نفسها أحيانًا أخرى في ثيابٍ قديمةٍ زريّةٍ، في سراويل غير لائقةٍ؛ هناك جزءٌ منها يلوم التأنّق ويعتبره تنازلًا: وكذلك تتعمّد أن تلوّث أصابعها بالحبر، وأن تظهر مشعّثة الشعر، قذرةً. تجعلها هذه الثورات خرقاء وتشعر بذلك مغتاظةً: فيزعجها، وتحمرّ، وتزيد رعونتها وتكره محاولات الإغواء المُجهَضة هذه. في هذه المرحلة، لا تعود الشابّة ترغب في أن تكون طفلةً، لكنّها لا تقبل أن تصبح راشدةً، وتلوم نفسها على طيشها تارةً وعلى استكانتها كأنثى تارةً أخرى. فهي في وضع الرفض الدائم.

هذه هي السمة التي تميّز الشابّة وتعطينا مفتاح معظم تصرّفاتها؛ إنّها لا تقبل المصير الّذي تفرضه عليها الطبيعة والمجتمع؛ ومع ذلك، لا ترفضه إيجابيًّا: إنّها ممزّقةٌ من الداخل بحيث لا يمكنها مصارعة هذا العالم؛ وتكتفي بالهروب من الواقع أو أن تعترض عليه بصورةٍ

رمزيّةٍ. يرافق القلق كلّ واحدةٍ من رغباتها: وهي نهمةٌ لامتلاك مستقبلها، لكنّها تخشى القطيعة مع ماضيها؛ تتمنّى أن يكون لديها رجلٌ، وتأنف من أن تكون غنيمته. ووراء كلّ خوفٍ تختبئ رغبةٌ: يفزعها الاغتصاب لكنّها تتطلّع إلى السلبيّة. لهذا ربّما هي محكومٌ عليها بسوء النيّة وكلّ الحيَل؛ ربّما هي مهيّأةٌ لكلّ أنواع الهوس السلبيّ التي تكشف عن التجاذب بين الرغبة والقلق.

إحدى أشكال الاعتراض التي نصادفها غالبًا لدى المراهِقة، هي السخرية. طالبات الثانوية، والفتيات الطائشات «يقهقهن» ضاحكاتٍ عندما يروين لبعضهنّ حكاياتٍ عاطفيّةً أو ماجنةً، وهنّ يتحدّثن عن مغازلاتهنّ، عندما يصادفن رجالًا، عندما يرين عشّاقًا يتبادلون القبلات؛ لقد عرفتُ طالبات مدارس كنّ يمررن بحدائق اللوكسمبورغ في ممشى العشّاق، من أجل الضحك؛ وآخرياتٌ كنّ يرتدن الحمّامات التركيّة كي يسخرن من السيّدات البدينات ذوات البطون الثقيلة، والأثداء المتهدّلة، اللواتي يصادفنهنّ فيها؛ السخرية من الجسد الأنثوي، والتهكّم على الرجال، والضحك من الحبّ، هي طريقةٌ لإنكار الجنس: هناك في هذه الضحكات، المشبعة بتحدّي البالغين، طريقةٌ للتغلّب على انزعاجهنّ؛ يلعبن بالصور وبالكلمات كي يقتلن سحرها الخطير: وهكذا رأيت تلميذات الصفّ الرابع[68] «يقهقهن» عندما وجدن في نصٍّ لاتينيٍّ كلمة «فخذٍ». ولأسبابٍ أكبر، إذا استسلمت الفتاة لقبلةٍ أو ملامسةٍ تثأر لنفسها ساخرةً من رفيقها أو مع رفيقاتها. أذكر ذات ليلةٍ في مقصورة قطارٍ، شابّتين كانتا تدعان أحد الوكلاء الجوّالين يلاطفهما الواحدة تلو الأخرى سعيدًا بهذه النعمة: وبين كلّ مرحلةٍ كانتا تضحكان بشكلٍ هيستيريٍّ، جامعتين بين الجنس وقلّة الحياء في سلوكٍ عاد بهما إلى سنّ المراهقة. في نفس لحظة الضحك الجنونيّ، تلجأ الشابّات إلى الألفاظ: نجد في فم بعضهنّ، ألفاظًا تجعل بذاءتها إخوتهنّ يحمرّون خجلًا؛ بقدر ما ينفرن منها، دون شكٍّ لا توحي إليهنّ التعابير التّي يستخدمنها بصورٍ محدّدةٍ، نظرًا لكونهنّ نصف جاهلاتٍ؛ عدا عن أنّ الهدف إن لم يكن منع تشكيل الصور فعلى الأقلّ تخفيفها؛ القصص البذيئة التي ترويها طالبات الثانويّة لبعضهنّ هي موجّهةٌ لنفي الجنس أكثر من إشباع الغرائز: فلا يرين فيه سوى الجانب المضحك، كعمليّةٍ آليّةٍ شبه جراحيّةٍ. ولكن استعمال لغةٍ

68- ما يعادل نهاية المرحلة الإعدادية في بلادنا (المترجمة).

بذيئةٍ، كالضحك، ليس فقط احتجاجًا: إنّه كذلك تحدٍّ للبالغين، نوعٌ من التدنيس، سلوكٌ فاسقٌ. فالفتاة إذ ترفض الطبيعة والمجتمع، تستفزّهما وتجابههما بالعديد من الأشياء الخاصّة. كثيرًا ما رأينا لديها عاداتٍ غذائيّةً مستهجنةً: فتأكل رصاص الأقلام، ومعجون ختم الرسائل، وقطع خشبٍ، والقريدس الحيّ، وتبتلع عشرات أقراص الأسبرين، وحتّى تبتلع الذباب، والعناكب؛ عرفت واحدةً، مع أنّها عاقلةٌ للغاية، كانت تصنع خليطًا كريهًا من القهوة والنبيذ الأبيض كانت ترغم نفسها على شربه، وأحيانًا أخرى، كانت تأكل سكرًا مغموسًا بالخلّ؛ رأيت واحدةً أخرى، وجدت دودةً بيضاء في الخسّة، فقضمتها بعزمٍ. يتعلّق كلّ الأطفال باختبار العالم بالعينين، واليدين، وبصورةٍ أكثر حميميّةً بالفم والمعدة: ولكن في سنّ المراهقة، تستمتع الفتاة بشكلٍ خاصٍّ في استكشافه ضمن ما فيه من تشوّشٍ مثيرٍ للقرف. كثيرًا ما يجذبها ما هو مثيرٌ للاشمئزاز. إحداهنّ، وكانت جميلةً وأنيقةً عندما تشاء وتعتني بمظهرها، كانت تُفتتن بكلّ ما هو «قذرٌ»: كانت تمسك حشراتٍ، وتتأمّل فوطها الداخليّة المتّسخة، وتمصّ دم جروحها. اللعب بأشياء وسخةٍ هو بالطبع وسيلةٌ لتجاوز القرف؛ ويأخذ هذا الشعور أهمّيّةً كبرى لحظة البلوغ: فالفتاة تشمئزّ من جسدها الشهوانيّ أكثر مما ينبغي، ومن دم الطمث، وممارسات الكبار الجنسيّة، والذكر الّذي هي مكرّسةٌ له؛ فترفضه عبر سرورها تحديدًا بكلّ ما يثير اشمئزازها. «بما أنّه يجب أن أنزف كلّ شهرٍ، أثبت بابتلاعي دم جروحي أن دمي لا يخيفني. بما أنّه علي أن أخضع لتجربةٍ منغّصةٍ، لماذا لا أقضم دودةً بيضاء؟» وبطريقةٍ أكثر وضوحًا، يتأكّد هذا السلوك في البتر الذاتيّ الشائع في هذه السنّ. فالشابّة تشطّب فخذها بموسى الحلاقة، وتحرق نفسها بالسجائر، وتجرح نفسها، وتكشط جلدها؛ شقّت إحدى صديقاتي أيام الصّبا قدمها بضربة بلطةٍ صغيرةٍ كيلا تذهب إلى حفلٍ مملٍّ، لدرجة أنّها اضطرّت إلى ملازمة السرير ستة أسابيع. هذه الممارسات السادو–مازوشيّة هي استباقٌ للتجربة الجنسيّة وثورةٌ ضدّها في الوقت نفسه؛ بتحمّلها هذه المحن عليها تقوية نفسها ضدّ كلّ محنةٍ ممكنةٍ جاعلةً إيّاها بذلك غير مؤذيةٍ، بما في ذلك ليلة الزفاف. عندما تضع الشابّة بزّاقةً على صدرها، وعندما تبتلع أنبوبًا من الأسبرين، عندما تجرح نفسها، تتحدّى عشيقها المقبل: لن تفرض عليّ أبدًا ما هو أبغض ممّا أفرضه على نفسي. تلك هي تدريباتٌ كئيبةٌ وفخورةٌ على المغامرة الجنسيّة. فهي تطالب بحرّيّتها

حتّى في تحمّل الألم والقرف لأنّها معَدَّةٌ لأن تكون غنيمةً سلبيّةً. وعندما تفرض على نفسها جرح السكّين، وحرق جمرةٍ، هي تحتجُّ على الاختراق الّذي يزيل بكارتها: إنّها تحتجّ ملغيةً إيّاه. مازوشيّةً، بما أنّها تستقبل الألم بسلوكها، تكون ساديّةً خصوصًا: كذاتٍ مستقلّةٍ، تجلد هذا الجسد التابع وتهينه وتعذّبه، هذا الجسد المحكوم عليه بالخضوع الّذي تكرهه دون أن تتميّز عنه مع ذلك. لأنّها لا تختار بكلّ هذه الظروف أن ترفض مصيرها رسميًّا. يتطلّب هذا الهوس السادومازوشي سوء نيّةٍ أساسيٌّ: إذا انساقت الفتاة إليه، فهذا يعني أنها تقبل مستقبلها كامرأةٍ، من خلال رفضها المتكرّر؛ لم تكن لتبتر جسدها كارهةً لو لم تكن ترى نفسها في البدء جسدًا. حتّى ثورات عنفها تزول على أساسٍ من الاستكانة. عندما يثور شابٌّ ضدّ أبيه، ضدّ العالم، ينساق إلى عنفٍ فعّالٍ؛ فيحاول التشاجر مع زميلٍ، ويقاتل، ويفرض نفسه بقبضته كذاتٍ: يفرض نفسه على العالم ويتفوّق عليه. ولكن تأكيد الذّات، فرض النفس ممنوعٌ على المراهقة، وذلك ما يضع في قلبها كلّ هذه الثورة: لا تأمل بتغيير العالم، ولا بأن تنبعث منه؛ إنّها تعلم أنّها مقيّدةٌ، أو تعتقد ذلك على الأقلّ، وربّما حتّى تريده: لا تملك سوى أن تحطّم؛ هناك يأسٌ في غضبها؛ وأثناء سهرةٍ مزعجةٍ، تكسر أكوابًا، وألواح زجاجٍ، وأواني زهورٍ: ليس من أجل التغلّب على القدر؛ فهذا ليس سوى احتجاجٍ رمزيٍّ. تتمرّد الشابّة من خلال عجزها الحالي على عبوديّتها المقبلة؛ ولا تخلّصها ثوراتها العبثيّة من أغلالها بل غالبًا ما تزيدها إحكامًا. العنف ضدّ نفسها أو ضدّ الكون الّذي يحيط بها هو دومًا ذو طابعٍ سلبيٍّ: إنه استعراضيٌّ أكثر من كونه فعّالًا. الصبي الّذي يتسلّق صخورًا، ويتقاتل مع الرفاق، ينظر إلى الألم الجسديّ، والجروح والكدمات، كنتيجةٍ تافهةٍ للأنشطة الإيجابيّة التي يقوم بها؛ لا يبحث عنها ولا يهرب منها بحدّ ذاتها (إلّا في حال مركّب نقصٍ يجعله في وضعٍ مشابهٍ لوضع النساء). وتنظر الفتاة إلى نفسها وهي تتعذّب: فتبحث في قلبها عن طعم العنف والثورة أكثر من بحثها عن نتائجهما. يأتي انحرافها من أنّها تظلّ قابعةً في العالم الطفوليّ الّذي لا تستطيع أو لا تريد حقًّا الهروب منه؛ إنّها تتخبّط في قفصها أكثر ممّا تحاول الخروج منه؛ تصرّفاتها سلبيّةٌ، ردود أفعالٍ، رمزيّةٌ. وهناك حالاتٌ يأخذ فيها هذا الفساد أشكالًا مقلقةً. فعددٌ كبيرٌ من العذراوات الشابّات مصاباتٌ بمرض السرقة؛ ومرض السرقة هو «تصعيدٌ جنسيٌّ» ذو طبيعةٍ ملتبسةٍ؛ الرغبة في خرق القوانين، وانتهاك المحرّم،

وإغراء الفعل الممنوع والخطير أمرٌ أساسيٌّ بالتأكيد لدى السارقة: لكنّه ذو وجهين. أخذ أشياء دون حقٍّ، هو تأكيد الاستقلال بوقاحةٍ، هو طرح النفس كذاتٍ أمام الأشياء المسروقة من المجتمع الّذي يدين السرقة، إنّه رفض النظام القائم وتحدّي حرّاسه؛ لكنّ لهذا التحدّي أيضًا مظهرًا مازوشيًّا؛ اللّصّة مفتونةٌ بالخطر المتوقّع، بالهوّة الّتي ستُلقى فيها إن أمسكوا بها؛ خطر الاعتقال هو ما يعطي فعل الأخذ جاذبيّةً مثيرةً؛ بالتالي ستحقّق ذاتها بشكلٍ كاملٍ ونهائيٍّ كشيءٍ، تحت هذه النظرات المليئة باللّوم، واليد الموضوعة على كتفها، والعار. هنا تكمن اللعبة الخطرة للجنس الأنثويّ في المراهقة. تحمل كل التصرّفات الفاسدة والإجراميّة الّتي نصادفها لدى الشابّات نفس هذا المعنى. يتخصّص بعضهنّ في إرسال رسائل مغفلةٍ، وتتسلّى أخرياتٌ بخداع محيطهنّ: أقنعت صبيّةٌ في الرابعة عشرة من عمرها قريةً بأكملها بأنّ أحد المنازل كان مسكونًا بالأرواح. يستمتعن بممارسة سلطتهنّ سرًّا برفضهنّ للإطاعة وتحدّيهنّ للمجتمع وخطر انكشافهنّ؛ إنّه عنصرٌ هامٌّ من عناصر متعتهنّ لدرجة أنّهنّ يكشفن أنفسهنّ، وحتّى يتّهمن أنفسهنّ أحيانًا بأخطاءٍ أو جرائم لم يرتكبنها. من غير المدهش أن يقود رفض المرء أن يكون شيئًا إلى أن يعيد تشكيل نفسه كشيءٍ: إنها عمليّةٌ شائعةٌ لدى كلّ هوسٍ سلبيٍّ. في حالة الشلل الهيستيريّ يخشى المريض الشلل ويرغب به ويحقّقه في آنٍ معًا: ولا يُشفى منه إلّا عندما يكفّ عن التفكير فيه؛ ونفس الأمر بالنسبة للعرّة لدى المصابين بالوهط النفسيّ. إنّ عمق سوء نيّة الشابّة هو ما يجعلها تنتمي إلى هذه الأنماط العصابيّة: الهوس، والعرّة، والمؤامرة، والفسق، ونجد لديها الكثير من الأعراض العصابيّة بسبب هذا الازدواج بين الرغبة والقلق الّذي أشرنا إليه. من الشائع مثلًا أن تهرب؛ فتذهب دون مقصدٍ معيّنٍ، وتهيم على وجهها بعيدًا عن المنزل الأبويّ وتعود من تلقاء نفسها بعد يومين أو ثلاثة أيّامٍ. وذلك ليس رحيلًا حقيقيًا، قطيعةً حقيقيّةً مع الأسرة؛ إنه فقط تمثيليّة الهروب وغالبًا ما تضطرب الفتاة إذا ما اقتُرِح عليها انتزاعها نهائيًّا من محيطها: إنها تريد ولا تريد تركه. يرتبط الهروب أحيانًا بتخيّلاتٍ عن البغاء: فتحلم الشابّة أنّها بغيٌّ، وتلعب هذا الدور بخجلٍ كثيرٍ أو قليلٍ؛ فتتزيّن بشكلٍ صارخٍ، وتطلّ من النافذة وتوجّه غمزاتٍ للمارّة؛ وفي بعض الأحوال، تترك المنزل وتندفع بعيدًا في اللعبة بحيث تمتزج بالواقع. تعبّر هذه التصرفات غالبًا عن اشمئزازٍ من الرغبة الجنسيّة وشعورٍ بالذنب، وتقول

الشابّة لنفسها: بما أنّ لديّ هذه الأفكار، هذه الرغبات، فلست أفضل من بغيٍّ، أنا مثلها. تحاول أحيانًا أن تتحرّر من ذلك وتقول لنفسها: فلننتهِ منه، لنذهب إلى النهاية. تريد أن تثبت لنفسها أنّ الجنس غير مهمٌّ بأن تمنح نفسها لأول قادمٍ. في الوقت نفسه، مثل هذا التصرّف يظهِر غالبًا عدائيّةً تجاه الأم، فإمّا أنّ الشابّة تكره فضيلتها المتزمّتة، أو أنّها تشكّ بأنّها هي نفسها متحلّلةٌ أخلاقيًّا؛ أو أنّها تعبّر عن الحقد تجاه الأب الّذي بدا غير مكترثٍ البتّة. على كلّ حالٍ في هذا الهوس ـ كما في تخيّلات الحمل الّتي تحدّثنا عنها سابقًا والّتي ترافقه ـ نصادف هذا التشوّش المعقّد بين الثورة والتواطؤ الّذي يميّز دوار الوهط النفسي. من اللافت للنظر أنّ الشابّة في كلّ هذه التصرّفات لا تحاول تجاوز النظام الطبيعيّ والاجتماعيّ، لا تطالب بتوسيع حدود الممكن ولا القيام بتحويلٍ للقيم؛ بل تكتفي بإظهار ثورتها ضمن عالمٍ قائمٍ ذي حدودٍ وقوانين محفوظةٍ؛ ذلك هو الوضع الّذي عرّفناه غالبًا بـ«شيطانيٌّ» والّذي يفترض غشًّا أساسيًّا: يُعَرّفُ الجيّدُ كي يُهان، وتوضَع القاعدةُ كي تُنتَهَك، ويُحتَرَم المقدّس لكي يكون من الممكن تدنيس الحرمات. يتحدّد سلوك الشابّة أساسًا بأنّها، في ظلمات سوء النيّة المُثيرة للقلق، ترفض العالم ومصيرها وفي الوقت نفسه تقبل بهما.

خلال ذلك، لا تكتفي بالاحتجاج السلبيّ على الوضع المفروض عليها؛ تحاول أيضًا أن تعوّض قصوره. إن كان المستقبل يخيفها فالحاضر لا يرضيها؛ تتردّد في أن تصبح امرأةً؛ وتنزعج لأنّها ما زالت طفلةً؛ لقد تركت ماضيها ولم تنخرط في حياةٍ جديدةٍ. إنها تنشغل لكنّها لا تفعل شيئًا: ولأنّها لا تفعل شيئًا، لا تملك شيئًا، هي لا شيءٌ. تحاول جاهدةً أن تكمل حياتها عبر تمثيليّاتٍ ومخاتلاتٍ. وتُلامُ غالبًا لأنها ماكرةٌ، كاذبةٌ، وتخلق «مشاكل». والأمر هو أنّها محكومةٌ بالسرّيّة والكذب. في سنّ السادسة عشرة، تكون المرأة قد مرّت بتجارب مؤلمةٍ: البلوغ، والطمث، وصحوة الجنس، والاضطرابات الأولى، وارتفاعات الحرارة الأولى، والمخاوف، والقرف، والتجارب المشبوهة، لقد حبست كلّ هذه الأشياء في قلبها؛ وتعلّمت أن تكتم أسرارها جيّدًا. مجرّد اضطرارها لإخفاء فوطها الصحّيّة، وإخفاء طمثها، يجرّها إلى الكذب. في قصّة *Old Mortality*، يروي ك.أ. بورتر C.A.Porter أنّ الشابّات في جنوب أمريكا اللّواتي عشن في حوالي 1900 كنّ يمرضن أنفسهنّ بابتلاع مزيجٍ من الملح والليمون لإيقاف طمثهنّ عندما يذهبن إلى الحفل: كنّ يخشين من أن يعرف الشباب حالتهنّ

من عيونهنّ المحاطة بالهالات، وملمس أيديهنّ، ورائحةٍ ما، وكانت هذه الفكرة تصيبهنّ باضطرابٍ. من الصعب لعب دور المعبودات والجنّيّات والأميرات البعيدات عندما نشعر بين ساقينا بفوطةٍ قذرةٍ؛ وبصورةٍ عامّةٍ أكثر، عندما نعرف المأساة الأصليّة بأن نكون جسدًا. الحياء، الّذي هو رفضٌ تلقائيٌّ لأن نؤخذ كجسدٍ، يكاد أن يكون رياءً. ولكن خصوصًا، الكذبة الّتي تضطرّ إليها المراهقة، هو أنّ عليها أن تتظاهر بأنّها شيءٌ، وشيءٌ رائعٌ، بينما هي تشعر أنّها وجودٌ غير مؤكّدٍ، موزّعٌ، وتعرف عيوبها. والتزيّن والخصل المستعارة والمشدّات ورافعات النهد «المحشوّة» هي كذباتٌ؛ الوجه نفسه يغدو قناعًا: تُثارُ فيه بفنٍّ تعابير تلقائيّةٌ، وتُقلّد فيه سلبيّةٌ مذهلةٌ؛ لا شيء أكثر إثارةً للدهشة من اكتشافٍ مفاجئٍ خلال ممارسة وظيفتها الأنثويّة لسحنةٍ نعرف مظهرها المعتاد؛ تعاليها ينكر نفسه ويقلّد تأصّلها؛ لم تعد النظرة ترى، إنّها تعكس؛ والجسد لم يعد يعيش: إنّه ينتظر؛ وتغدو كلّ الحركات والابتسامات نداءً؛ لم تعد الشابّة سوى زهرةٍ مقدّمةٍ، فاكهةٍ للقطاف، عزلاء، متوافرةٍ. الرجل هو من يشجّعها على هذه الخديعة مطالبًا بأن يكون مخدوعًا: بعدئذٍ يثور ويتّهم. ولكنّه يظلّ لا مباليًا بالصبيّة غير الماكرة وحتى عدائيًّا لها. لا تسحره سوى تلك الّتي تنصب له شراكًا؛ هي المعروضة الّتي تترقّب فريسةً؛ وتخدم المهمّةَ سلبيّتها، وتجعل من ضعفها أداة قوّتها؛ بما أنّه ممنوعٌ عليها أن تهاجم صراحةً، فهي مضطرّةٌ للحيل والحسابات؛ ومصلحتها هي في أن تبدو معطاةً مجّانًا؛ كذلك يلومونها على أنّها خادعةٌ وخائنةٌ: وهذا صحيحٌ. ولكن صحيحٌ أيضًا أنّها مرغمةٌ على منح الرجل وهم خضوعها بما أنّه يطالب بأن يسيطر عليها. وهل يمكن أن نطلب أن تكتم عندئذٍ أكثر مطالبها جوهريّةً؟ لن تكون مسايرتها سوى فسادٍ منذ البداية. عدا عن أنّها لا تغشّ فقط بالحيل المعدّة. بما أنّ كلّ الطرق مسدودةٌ أمامها وأنّها لا تستطيع أن تفعل، وعليها أن تكون، فتجثم لعنةٌ فوق رأسها. عندما كانت طفلةً كانت تمثّل دور راقصةٍ، أو قدّيسةٍ؛ فيما بعد، تمثّل دورها هي نفسها: ما هي الحقيقة فعلًا؟ هذه كلمةٌ لا معنى لها في المجال الّذي حبسوها فيه. الحقيقة هي الواقع مكشوفًا والكشف يتمّ عبر تصرّفاتٍ: لكنّها لا تتصرّف. يبدو لها أنّ الروايات الّتي تحكيها عن نفسها ـ والّتي غالبًا ما تحكيها أيضًا للآخرين ـ تنقل الإمكانيّات الّتي تشعر بها في نفسها بصورةٍ أفضل من التقرير المسطّح عن حياتها اليوميّة. لا تستطيع أخذ احتياطاتها: تعزّي نفسها عبر تمثيليّاتٍ؛ تقيم شخصيّةً تحاول إعطاءها

أهمّيّةً؛ وتحاول أن تتميّز من خلال مبالغاتٍ لأنّه من غير المسموح لها أن تتفرّد ضمن أنشطةٍ محدّدةٍ. وتعرف أنّها غير مسؤولةٍ، ولا أهمّيّة لها في عالم الرجال هذا: إنّها تخلق «قصصًا ومشاكل» لأنّها لا تملك شيئًا جدّيًّا آخر تعمله. **إلكترا** «جيرودو» هي امرأةٌ ذات قصصٍ، لأنّ على **أوريست** وحده أن يقوم بجريمةٍ حقيقيّةٍ بسيفٍ حقيقيٍّ. وكالطفلة، تُفني الشابّة نفسها في مشاجراتٍ وغضبٍ، وتمرض، وتُبدي اضطراباتٍ هيستيريّةٍ كي تسترعي انتباه وتكون شخصًا ذا قيمةٍ. ولكي تصبح كذلك تتدخّل في مصير الغير؛ فكلّ سلاحٍ مناسبٌ؛ وتفضح أسرارًا، وتخترع أسرارًا، وتخون، وتطلق الشائعات، وتحتاج إلى مأساةٍ حولها لتشعر أنّها تعيش بما أنّها لا تجد عونًا في حياتها هي. ولنفس السبب هي متقلّبة المزاج، فالتخيّلات الّتي تشكّلها، والصور الّتي تهدهد مخيّلتها متناقضةٌ؛ الفعل وحده يوحّد اختلاف الزمن. ليست للشابّة إرادةٌ حقيقيّةٌ ولكن رغباتٌ وتقفز من واحدةٍ لأخرى دون تنسيقٍ. ما يجعل تناقضاتها خطيرةً أحيانًا، هو أنّها في كلّ لحظةٍ، غير منخرطةٍ إلّا في الحلم تنخرط فيه بكلّيّتها. تتموضع على صعيد التشبّث والتطلّب؛ لديها ميلٌ للنهائيّ والمطلق: ولعدم تمكّنها من المستقبل، تودّ بلوغ الأزليّ. كتبت **ماري لونيرو** Marie Lenèru: «لن أتنازل أبدًا. أريد كلّ شيءٍ دائمًا. أنا بحاجةٍ إلى اختيار حياتي كي أقبلها». وكصدىً لهذه الكلمة تقول **أنتيغون آنوي** Anouilh: «أريد كلّ شيءٍ، حالًا». لا يمكن أن نرى هذه التسلّطيّة الطفوليّة إلّا لدى شخصٍ يحلم بمصيره: فالحلم يهدم الزمن والعقبات، هو بحاجةٍ إلى أن يغتاظ ليعوّض واقعه القليل؛ أيُّ شخصٍ لديه مشاريع حقيقيّةٌ يعرف محدوديّةً هي ضمان قدرته الملموسة. تريد الشابّة أن تتلقّى كلّ شيءٍ لأنّ لا شيء يتعلّق بها. من ذلك ياتي طبعها «كطفلةٍ مشاكسةٍ» أمام الكبار والرجل خصوصًا. لا تقبل الحدود الّتي يفرضها على الشخص اندماجه في العالم الحقيقيّ؛ إنّها تتحدّاه وتتجاوزها. وهكذا تنتظر **هيلد**[69] أن يمنحها **سولنس** مملكةً: ليس عليها هي أن تفوز بها، كذلك تريدها دون حدودٍ؛ تطلبُ أن يبني أعلى برجٍ بُنَي على الإطلاق، وأن «يصعد إلى أعلى ما بناه»: ويتردّد في الصعود، فهو يخشى الدوار؛ وهي الّتي بقيت على الأرض تنظر وتنكر العارض والضعف الإنساني، لا تقبل أن يفرض الواقع حدودًا لأحلامها في العظمة. يبدو البالغون دائمًا لتلك الّتي لا تتراجع أمام أيّة مخاطرةٍ حقيرين

69- راجع إيبسن Ibsen، سولنس البنّاء.

وحذرين لأنه لا شيء لديها لتخسره؛ سامحةً لنفسها بالحلم بأكثر الجسارات إدهاشًا، في الواقع هي تحفزها لأن تعادلها. بما أنّه ليست لديها الفرصة لخوض الامتحان، تتحلّى بأكثر الفضائل إدهاشًا دون أن تخشى تكذيبًا لها.

مع ذلك، تولد حيرتها أيضًا من غياب الرقابة هذا؛ وتحلم بأنّها أزليّةٌ؛ وليست أقلّ استلابًا بسبب ذلك ضمن الشخصيّة الّتي تعرضها طلبًا لاستحسان الغير؛ فهي مرتبطةٌ بهذه الضمائرالغريبة: إنّها في خطرٍ ضمن هذا الازدواج الّذي تعتبره مجسّدًا للنفس لكن تخضع لوجوده بسلبيّةٍ. ولهذا هي مشكّكةٌ ومغرورةٌ. أقلّ انتقادٍ، سخريةٍ، تجعلها بكلّيّتها موضع سؤالٍ. وتأخذ قيمتها من آراء الآخرين وليس من جهدها الذاتي. لا تتعيّن قيمتها بفعّالياتٍ خاصّةٍ ولكنّها تتشكّل عبر شهرتها العامّة؛ فتبدو إذًا قابلةً للقياس كمًّا؛ ينقص سعر البضاعة عندما تصبح أكثر شيوعًا: بالتالي الشابّة ليست نادرةً، استثنائيّةً، لافتةً للنظر، رائعةً، إلّا إذا لم تكن أيّ واحدةٍ أخرى كذلك. رفيقاتها منافساتٌ لها، عدوّاتٌ؛ تحاول إنقاص قيمتهنّ وإنكارهنّ، فهي غيّورةٌ وعدوانيّةٌ.

نرى أنّ كلّ العيوب الّتي نلوم المراهقة عليها تعبّر عن وضعها. إنّه وضعٌ صعبٌ أن تعرف أنّها سلبيّةٌ وتابعةٌ في سنّ الأمل والطموح، في السنّ الّتي تتأجّج فيها إرادة الحياة واحتلال مكانٍ في هذا العالم؛ في هذه السنّ الغازية تتعلّم المرأة أنّه لا يُسمَح لها بغزو أيّ شيءٍ، أنّ عليها أن تنكر ذاتها، أنّ مستقبلها يتعلّق بمتعة الرجال. على الصعيد الاجتماعيّ كما على الصعيد الجنسيّ لا تستيقظ لديها طموحاتٌ جديدةٌ إلّا وتجد نفسها محكومةً بالبقاء دون إشباعٍ؛ تُغلَق فورًا كلّ اندفاعاتها الحيويّة أو الروحيّة. نفهم لماذا تجد صعوبةً في إيجاد توازنها. مزاجها المتقلّب، دموعها. نوباتها العصبيّة هي علامة عدم تأقلمها العميق أكثر من كونها ناجمةً عن هشاشةٍ فزيولوجيّةٍ.

أثناء ذلك، يحدث أيضًا أن تضطلع الشابّة بصورةٍ أصليّةٍ بمسؤوليتها في هذا الوضع الّذي تهرب منه بألف طريقةٍ غير أصليّةٍ. إنّها مزعجةٌ بعيوبها: لكنّها تثير الدهشة أحيانًا بميزاتٍ خاصّةٍ. ولهذه كما لتلك الأسباب نفسها. يمكنها برفضها للعالم، وانتظارها القلِق، وعَدَمها، أن تصنع نقلةً نوعيّةً وتبرز عندئذٍ ضمن وحدتها وحرّيّتها.

الشابّة كتومةٌ، قلقةٌ، نهبٌ لصراعاتٍ صعبةٍ. وهذا التعقيد يغنيها، وتتطوّر حياتها الداخليّة بشكلٍ أعمق من حياة إخوتها؛ هي أكثر انتباهًا لحركات قلبها الّتي تصبح بذلك أكثر دقّةً، أكثر تنوّعًا؛ لديها أحاسيس نفسيّةٌ أكثر من الصبيان الملتفتين نحو أهدافٍ خارجيّةٍ. وهي قادرةٌ على إعطاء وزنٍ لهذه الثورات الّتي تواجه بها العالم. تتفادى فخاخ الأمور الجادّة والتقليدية. وتسخر من كذبات محيطها المنظّمة وتكشفها. وتشعر يومًا بيومٍ بغموض وضعها: عدا الاحتجاجات العقيمة، يمكن أن تجد الشجاعة لطرح مسألة التفاؤل القائم، والقيم الجاهزة، والأخلاق المنافقة والمُطَمئِنة. ذاك هو المثال المؤثّر الّذي تقدّمه **ماغي** في «الطاحونة على الفلوس» حيث أعادت **جورج إليوت** George Eliot تجسيد شكوك شبابها وثوراتها الشجاعة ضدّ انجلترا الفيكتوريّة؛ ويؤكّد الأبطال ـ وبصورةٍ خاصّةٍ **توم**، شقيق **ماغي** ـ بعنادٍ المبادئَ المقبولة، ويجمّدون الأخلاق في قواعد جازمةٍ: تحاول **ماغي** أن تُدخِل فيها نفَسًا حيًّا، وتقلبها، وتذهب إلى أعماق وحدتها وتبرز كحرّيّةٍ نقيّةٍ من الجانب الآخر لعالم الذكور المتحجّر.

ولا تجد المراهقة ما تفعله بهذه الحرّيّة سوى شيئٍ سلبيٍّ. مع ذلك يمكن أن تؤدّي جاهزيّتها إلى قدرةٍ قيّمةٍ على قابليّة التلقّي؛ فتبدو عندئذٍ قابلةً للتأثّر متفانيةً، منتبهةً، متفهّمةً، مُحِبّةً. و بهذا الكرم المطيع تتميّز بطلات **روزاموند ليمان** Rosamond Lehmann. في «دعوةٍ إلى الفالس»، نرى **أوليفيا** الّتي ما تزال خجولةً وخرقاء، بالكاد متأنّقةً، تتفحّص بفضولٍ متأثّرٍ هذا العالم الّذي ستدخله غدًا. تصغي بكلّ قلبها إلى الراقصين الّذين يتتابعون بقربها، وتتبذل جهدًا في الردّ عليهم بما يتمنّون، تجعل من نفسها صدىً، تهتزّ، تستقبل كلّ ما يُمنَحُ. لبطلة «غبار»، **جودي**، نفس الصفة الجذّابة. لم ترفض متع الطفولة؛ تحبّ أن تسبح عاريةً ليلًا في نهر المتنزّه؛ تحبّ الطبيعة والكتب والجمال والحياة؛ لا تستسلم لعبادةٍ نرجسيّةٍ؛ دون كذبٍ أو أنانيّةٍ، ولا تحاول من خلال الرجال أن تؤجّج أناها: حبّها عطاءٌ. تبذله لكلّ شخصٍ يغويها، رجلًا كان أم امرأةً؛ **جنيفر** أو **رودي**. تهب نفسها دون أن تضيع: تعيش حياة الطالبة المستقلّة، لديها عالمها الخاصّ ومشاريعها. لكنّ ما يميّزها عن الصبي هو وضعيّة الانتظار، ووداعتها الرقيقة. وبأسلوبٍ رقيقٍ، تؤهّل نفسها للآخر رغم كلّ شيءٍ: للآخر في نظرها بعدٌ رائعٌ لدرجة أنّها مغرمةٌ في الوقت نفسه بكلّ شبّان العائلة المجاورة،

بمنزلهم، بأختهم، بعالمهم؛ وتسحرها **جنيفر** ليس كرفيقةٍ، بل كآخر. وتسحر رودي وأبناء عمّه بقابليّتها للانصياع لهم، والتقولب حسب رغباتهم؛ إنّها صبورةٌ، لطيفةٌ، تقبل وتتعذّب بصمتٍ.

وتظهر لنا تسّا، في «الحوريّة ذات القلب المخلص» **لمارغاريت كندي** Margaret Kennedy، مختلفةً، ولكن آسرةً أيضًا بأسلوبها باستقبال كلّ هؤلاء الّذين تعزّهم في قلبها، تلقائيّةً، برّيّةً وممنوحةً. ترفض التنازل عن أيّ شيءٍ من نفسها: تشمئزّ من الزينة، ومساحيق التجميل، والتنكّر، والرياء، واللطف المصطنع، والحذر وخضوع الأنثى؛ وتتمنى أن تكون محبوبةً، ولكن ليس وراء قناعٍ؛ وتخضع لمزاج **لويس**: ولكن دون عبوديّةٍ؛ فهي تفهمه، وتهتزّ على إيقاعه؛ ولكن إن تشاجرا يومًا، يعلم **لويس** أنه لن يستطيع إخضاعها بمداعباتٍ؛ بينما **فلورنس** المتسلّطة والمغرورة تُقهَر بالقبلات، وتنجح **تسّا** في صنع المعجزة بأن تبقى حرّةً في حبّها، ما يسمح لها بأن تحبّ دون عدائيّةٍ ولا غرورٍ. تسحر طبيعيّتها بقدر ما يفعل المصطنع؛ لا تبتر نفسها أبدًا لكي تُعجِب، ولا تتضاءل أو تتجمّد كشيءٍ. محاطةً بفنّانين كرّسوا كلّ وجودهم للإبداع الموسيقي، لا تشعر بداخلها بهذا الشيطان المفترس؛ تكرّس كلّ ذاتها لتحبّهم، وتفهمهم، وتساعدهم: وتقوم بذلك دون جهدٍ، بكرمٍ رقيقٍ وتلقائيٍّ ولهذا تبقى مستقلّةً تمامًا حتّى في اللحظات الّتي تنسى فيها نفسها لمصلحة الغير. وبفضل هذه الأصالة الخالصة، تتفادى صراعات المراهقة؛ قد تعاني من قسوة العالم، فهي ليست مجزّأةً في داخلها؛ وهي متجانسةٌ كطفلةٍ لا مباليةٍ وكامرأةٍ عاقلةٍ للغاية في آنٍ معًا. الشابّة الحسّاسة والكريمة، المتقبّلة والمتوقّدة، إنّها مستعدّةٌ لتصبح عاشقةً كبيرةً.

عندما لا تصادف الحبّ، يحدث لها أن تصادف الشِّعر. لأنّها لا تتصرّف، تنظر، وتحسّ، وتدوّن؛ يجد اللون أو الابتسامة لديها صدىً عميقًا؛ لأنّ مصيرها ينتشر خارجها، في المدن المبنيّة قبلًا، على وجوه الرجال ؛ إنّها تلمس وتتذوّق بطريقةٍ شغوفةٍ وأكثر مجّانيّةً من الشاب. ولكونها غير مندمجةٍ بالعالم الإنسانيّ، ولديها صعوبةٌ في التأقلم معه، فهي كالطفل قادرةٌ على رؤيته؛ وبدل أن تهتمّ فقط بالإمساك بالأشياء، تهتمّ بمعناها؛ وتدرك أشكالها الخاصّة، والتغيّرات غير المتوقّعة. من النادر أن تشعر في نفسها بجرأةٍ خلّاقةٍ وغالبًا ما تخذلها التقنيّات التّي كان يمكن أن تسمح لها بالتعبير عن نفسها؛ ولكن يحدث أن تُظهِر حساسيّةً

أصليّةً في أحاديثها ورسائلها وتجاربها الأدبيّة ومسوّداتها. تلقي الشابّة بنفسها بتوقّدٍ نحو الأشياء، لأنّها ليست بعدُ مبتورةً من تساميها؛ وباعتبار أنّها لا تكمل شيئًا، وأنّها ليست شيئًا، يجعل ذلك اندفاعها أكثر تأجّجًا: فارغةً وبلا حدودٍ، ما تحاول بلوغه ضمن عدمها، هو كلّ شيءٍ. ولهذا تهب الطبيعة حبًّا خاصًّا: فتكرّس لها عبادةً أكثر من المراهِقة. الطبيعة الّتي لا يمكن ضبطها، اللاإنسانيّة، تختصر بجلاءٍ كلّ ماهو موجودٌ. لم تخصّ المراهِقةُ نفسها بعدُ بأيّ جزءٍ من العالم: وبفضل هذا الفقر فهو بأكمله مملكتها؛ عندما تتملّكه تتملّك نفسها أيضًا بفخرٍ. كثيرًا ما روت لنا **كوليت**[70] قصّة هذا الفيض الشبابيّ:

لأنّي كنت أحبّ الفجر كثيرًا كانت أمّي تمنحني إياه كمكافأةٍ. كانت توقظني في الساعة الثالثة والنصف، وكنت أنطلق، حاملةً بكلّ ذراعٍ سلّةً فارغةً، نحو سبخاتٍ كانت في ثنية النهر الضيّقة، نحو الفريز والكشمش وعنب الديب.

في الساعة الثالثة والنصف، يكون كلّ شيءٍ نائمًا في زرقةٍ أصليّةٍ، رطبةٍ وغامضةٍ وعندما كنت أهبط الطريق الرمليّ، كان الضّباب الثقيل يغسل أولًا ساقيّ، ثم صدري الصغير حسن التكوين، ويبلغ شفتيَّ، وأذنيَّ ومنخريَّ الأكثر حساسيّةً من كلّ بقيّة جسمي... على هذا الدرب، وفي هذه الساعة، كنت أدرك جائزتي، وحالة النشوة الّتي لا توصف وتواطئي مع أوّل هبّة ريحٍ، أوّل عصفورٍ، والشمس الّتي لا تزال بيضاويّةً، مشوّهةً بتفتّحها... كنت أعود مع جرس أوّل قدّاسٍ. ولكن ليس قبل أن أشبع، ليس قبل أن أذرع في الغابات مسارًا كبيرًا لكلابٍ صيدٍ تصيد وحدها وأتذوّق ماء نبعين مخبأين كنت أحبّهما...

تصف لنا ماري ويب Marie Webb أيضًا في «ثقل الظلال»، المتع المتأجّجة الّتي يمكن لشابّةٍ أن تعرفها في حميميّة منظرٍ مألوفٍ:

عندما كان جوّ المنزل يصبح عاصفًا كانت أعصاب آمبر تتوتّر حتى لتكاد تنقطع. كانت عندئذٍ تذهب إلى الغابة في الأعالي. كان يبدو لها أنّه بينما كان أهالي «دورمر» يعيشون تحت سيطرة القانون، كانت الغابة لا تحيا إلّا بدافعٍ داخليّ. ولفرط تفتّحها على جمال الطبيعة، بلغت إدراكًا خاصًّا عن الجمال. بدأت ترى مُتماثلاتٍ؛ لم تعد الطبيعة تجمّعًا عارضًا من التفاصيل الصغيرة ولكنّها انسجامٌ، قصيدة شعرٍ صارمةٌ

70- سيدو Sido.

ومهيبةٌ. الجمال يسود هنا، نورٌ ساطعٌ لم يكن حتّى نور الزهرة أو النجمة... ارتجافٌ بسيطٌ غامضٌ وأخّاذٌ يبدو أنّه يجري كالنور عبر كلّ الغابة... كان خروج آمبر في عالم الخضرة هذا شيئًا يشبه طقسًا دينيًا. ذات صباحٍ حيث كان كلّ شيءٍ هادئًا، صعدت إلى بستان العصافير. هذا ما كانت تفعله كثيرًا قبل أن يبدأ نهار الإزعاجات الحقيرة... كانت تجد بعض العزاء في بساطة عالم العصافير العبثيّة... وصلت أخيرًا إلى أعالي الغابة وعلى الفور أمسكت بالجمال. كان هناك بالنسبة لها شيءٌ يشبه المعركة تمامًا في هذه الأحاديث مع الطبيعة، شيءٌ من هذا المزاج الّذي قال ما يلي: «لن أدَعك تذهبين حتّى تباركينني...» مستندةً على جذع شجرة تفاحٍ برّيّةٍ، أصبحت مدركةً فجأةً بنوعٍ من السمع الداخلي لصعود النسغ الحيويّ والقويّ إلى درجة أنّها كانت تتخيّله هادرًا كالمدّ. ثمّ مرّت هبّة هواءٍ تحت أفرع الشجرة المزهرة واستيقظت من جديدٍ على واقع الأصوات، وأحاديث الأوراق الغريبة... كان يبدو لها أنّ كلّ بتلةٍ، كلّ ورقةٍ ترنّم موسيقى تُذكّر هي أيضًا بالأعماق الّتي هي آتيةٌ منها. كانت كلّ واحدةٍ من هذه الزهور المحدّبةٍ برقّةٍ تبدو لها مليئةً بالصدى الوقور بشكلٍ يناقض هشاشتها... من قمّة التلال، أتت نفحةٌ من الهواء المعطّر الّذي ينزلق بين الأغصان. أمام هذا الشئ الّذي كان يمرّ هناك، بلا شكلٍ، فائق الوصف، ارتعشت الأشياء الّتي كان لها شكلٌ والّتي كانت قابلةً للزوال. بسببها، لم تعد الغابة تجمّعًا بسيطًا، ولكن مجموعةً رائعةً ككوكبة نجومٍ... كانت تملك نفسها ذاتها ضمن وجودٍ مستمرٍّ لا يتغيّر. كان ذلك ما يشدّ آمبر، المأخوذة بفضولٍ كان يقطع أنفاسها، في هذه الأماكن الطبيعيّة السحريّة...

عرفت نساءٌ مختلفاتٌ كإميلي برونتي Emily Brontè وآنّا دونواي Anna de Noailles في شبابهنّ ـ واستمرّ فيما بعد خلال حياتهنّ ـ مثل هذه الحماسة.

تُظهِر النصوص الّتي ذكرتها جيّدًا السند الّذي تجده المراهقة في الحقول والغابات. تسيطر الأم والقوانين والعادات والروتين في المنزل الأبويّ، وتريد هي انتزاع نفسها من هذا الماضي؛ تريد أن تصبح بدورها ذاتًا مسيطرةً: ولكنّها لا تبلغ حياتها كبالغةٍ اجتماعيًّا إلّا عندما تصبح امرأةً؛ تشتري التحرّر بالتنازل؛ بينما وسط النباتات والحيوانات هي إنسانٌ؛ هي متحرّرةٌ من أسرتها ومن الذكور في آنٍ معًا، ذاتٌ، حرّيّةٌ. وتجد في سرّ الغابات صورةً عن وحدة روحها وفي الآفاق الواسعة للسهول الصورة الحسّاسة لسموّها؛ إنّها هي نفسها هذه الأرض البور غير المحدودة، هذه القمّة المرميّة نحو السماء؛ يمكنها أن تسلك هذه

الدروب الّتي تسافر، نحو المستقبل المجهول، وستسلكها: جالسةً على قمّة التلّ، تشرف على كلّ ثروات العالم المسكوبة على قدميها، مبذولةً؛ تشعر ببهجةٍ، ودموعٍ، ونشواتٍ ما زالت تجهلها عبر اختلاج الماء، وارتعاش الضوء؛ إنّها مغامرات قلبها ذاته الّتي تعدها بها بغموضٍ تجعّدات البركة، وبقع الشمس. تتحدّث الروائح والألوان لغةً غامضةً تنفصل عنها كلمةٌ بجلاءٍ منتصرٍ: كلمة «حياة». الوجود ليس فقط مصيرًا مجرّدًا يدوّن في سجلّات البلديّة، إنّه مستقبلٌ وغنىً جسديٌّ. لم يعد امتلاك جسدٍ يبدو عيبًا مخجلًا؛ في هذه الرغبات الّتي ترفضها المراهقة تحت نظرة الأم، ترى النسغ الّذي يصعد في الأشجار؛ لم تعد ملعونةً، إنّها تطالب بأنفةٍ بقرابتها للأوراق والأزهار؛ إنّها تجعّد زهرةً، وتعرف أنّ طريدةً حيّةً ستملأ ذات يومٍ يديها الخاويتين. لم يعد الجسد دنسًا: إنّه بهجةٌ وجمالٌ. وبامتزاج الفتاة بالسماء والأرض البكر تغدو تلك النفخة غير المتميّزة الّتي تحرّك الكون وتؤجّجه، وهي كلّ قشّة خلنجٍ؛ مخلوقٌ متجذّرٌ في الأرض وإدراكٌ أزليٌّ، إنّها في الوقت نفسه روحٌ وحياةٌ؛ وجودها مسيطرٌ ومنتصرٌ كما الأرض ذاتها.

من الجانب الآخر من الطبيعة، تبحث أحيانًا عن حقيقةٍ أبعد وأكثر إبهارًا أيضًا؛ إنّها مهيّأةٌ لتضيع في نشوةٍ صوفيّةٍ. في عصورالإيمان، كان عددٌ كبيرٌ من الشابّات يطلبن من الله أن يملأ فراغ كيانهنّ؛ لقد انكشفت دعوة **كاترين دوسيين** Catherine de Sienne، **وتيريز دافيلا** Thèrèse d Avila [71] في سنٍّ غضّةٍ. كانت جان دارك شابّةً. في أزمنةٍ أخرى تبدو الإنسانيّة الهدف الأسمى؛ عندئذٍ يجري الاندفاع الصوفيّ في مشاريع محدّدةٍ؛ ولكنّ رغبةً صغيرةً بالمطلق ولّدت لدى السيّدة **رولان**، ولدى روزا **لوكسمبورغ**، الشعلة الّتي غذّت حياتهما. تستطيع الشابّة أن تنهل أكبر جرأةٍ من عبوديّتها، من فقرها، من أعماق رفضها. تواجه الشعر؛ وتواجه البطولة أيضًا. إحدى طرق الاضطلاع بكونها غير مندمجةٍ بالمجتمع، هي أن تتجاوز آفاقه المحدودة.

سمح غنى وقوّة طبيعة بعض النساء، وظروفهنّ السعيدة، بإبقاء مشاريع المراهقة الحماسيّة في حياتهنّ كبالغاتٍ. لكنّهنّ استثناءٌ. لم تُمِتْ **جورج إليوت ماغي توليفر**،

71- سنعود إلى الصفات الخاصّة للصوفيّة النسائيّة..

ومارغاريت كندي تيسًا دون سببٍ. لقد عرفت الأخوات برونتي مصيرًا قاسيًا. تثير الشابّة الشفقة، لأنها تنتصب، ضعيفةً ووحيدةً، في وجه العالم؛ لكنّ العالم قويٌّ جدًّا؛ إن تعنّتت في رفضه تتحطّم. حسناء زويلن، الّتي كانت تبهر كلّ أوروبا بقوّة تفكيرها اللاذعة وطرافته، كانت تخيف كلّ خُطّابها: حكم عليها رفضها لأيّة تنازلاتٍ بالبقاء لسنواتٍ طويلةٍ في عزوبيّةٍ كانت ثقيلةً عليها، بما أنّها كانت تصرّح بأنّ تعبير «عذراء وشهيدة» هو لغوٌ. هذا العناد نادرٌ. في الغالبيّة العظمى للحالات، تدرك الشابّة أنّ المعركة غير متكافئةٍ البتّة، وينتهي بها الأمر إلى الاستسلام. كتب ديدرو Diderot إلى صوفي فولان: «ستمتن جميعكنّ في الخامسة عشرة». عندما لا تكون المعركة ـ كما يحدث غالبًا ـ سوى ثورةٍ رمزيّةٍ، فالهزيمة محتّمةٌ. تجعل الشابّة البالغين يبتسمون مع بعض الشفقة، متطلّبةً في الحلم، مليئةً بالأمل ولكن سلبيّةً؛ إنّهم يكرّسونها للاستكانة. وفي الواقع، الطفلة المتمرّدة والمنفّرة الّتي كانوا قد تركوها، وجدوها بعد سنتين أكثر تعقّلًا، مستعدّةً لقبول حياتها كامرأةٍ. وهذا هو المصير الّذي تكهّنت بهِ كوليت لفينكا؛ وهكذا بدت بطلات قصص موريياك Mauriac. أزمة المراهقة، هي نوعٌ من «العمل» مماثلٌ لما يسمّيه الدكتور لاغاش Lagache «عمل الحِداد». تدفن الشابّة طفولتها ببطءٍ، هذا المخلوق المستقلّ والحازم الّذي كانته؛ وتدخل بخضوعٍ إلى الوجود الراشد.

لا يمكن طبعًا أن نقيم فئاتٍ حاسمةً اعتمادًا على العمر فقط. هناك نساءٌ يبقين طفوليّاتٍ طول حياتهنّ؛ وتدوم السلوكات الّتي وصفناها أحيانًا حتّى سنٍّ متقدّمةٍ. إلّا أنّه، هناك في المجمل اختلافٌ كبيرٌ بين «فتاة الخامسة عشرة الصغيرة» و«شابّةٍ كبيرةٍ». فهذه معتادةٌ على الواقع؛ لم تعد تتحرّك البتّة على صعيد الخيال، وهي أقلّ تمزّقًا في ذاتها من ذي قبل. كتبت ماري بشكيرتسف في حوالي سنّ الثامنة عشرة:

> **كلّما تقدّمت في السنّ كلّما ازددتُ لا مبالاةً. قليلٌ من الأشياء تحرّكني وكان كلّ شيءٍ يهزّني.**

ودوّنت إيرين ريوليوتي Irène Reweliotty:

> **لكي يقبلني الرجال، يجب أن أفكّر وأتصرّف مثلهم، بدون ذلك يعاملونك كغنمةٍ جرباء وتصبح الوحدة من نصيبك. وأنا الآن مللت من الوحدة وأريد الحشد حتّى**

ليس من حولي بل معي... أن أعيش الآن وليس أن أكون وأنتظر وأحلم وأروي كلّ شيءٍ لنفسي وفمي مغلقٌ وجسدي هامدٌ.

وبعد ذلك بقليلٍ:

لكثرة ما تملّقوني، وغازلوني، إلخ... أصبحت طموحةً بشكلٍ رهيبٍ. لم تعد هناك سعادة سنواتي الخمس عشرة المرتعشة، المفتونة. إنه نوعٌ من النشوة الباردة والقاسية أن أثأر من الحياة، أن أصعد. أغازل، وألهو بالحبّ. لا أحبّ... أنتصر بذكائي، بشجاعتي، بالوعي المعتاد. وأخسر قلبي. كأنّه حطّم نفسه... خلال شهرين، تركت طفولتي.

وتقريبًا تتكرّر نفس الأفكار في بوح شابّةٍ في التاسعة عشرة[72]:

أيّ صراعٍ في السابق ضدّ عقليّةٍ كانت تبدو غير متوافقةٍ مع هذا العصر ونداءات هذا العصر ذاته! الآن أشعر بالارتياح. كلّ فكرةٍ جديدةٍ كبيرةٍ تدخل فيَّ بدل أن تثير اضطرابًا مؤلمًا، يأتي تخريبٌ وإعادة بناءٍ مستمرّان ليتأقلما بشكلٍ رائعٍ مع ما يوجد فيّ أصلًا... الآن، أنتقل دون إحساسٍ من الأفكار النظريّة إلى الحياة الجارية دون انقطاعٍ في الاستمراريّة.

انتهى الأمر بالشابّة ـ إلّا إذا كانت غير محظوظةٍ بشكلٍ خاصٍّ ـ إلى قبول أنوثتها؛ وتكون غالبًا سعيدةً في الاستمتاع مجّانًا بالمتع والانتصارات الّتي تجنيها منها قبل أن تستقرّ نهائيًّا في مصيرها؛ بما أنّ لا مهمة تنتظرها بعدُ، وهي غير مسؤولةٍ، مستعدّةٌ، مع ذلك لا يبدو لها الحاضر فارغًا ولا مخيّبًا للآمال بما أنّه ليس سوى مرحلةٍ؛ ما زال للتزيّن والغزل خفّة لعبةٍ وأحلامها المستقبليّة تقنّع عبثيّتها. وهكذا تصف ف. وولف انطباعات شابّةٍ مغناجةٍ أثناء سهرةٍ:

أحسّ أنّي برّاقةٌ وسط الظلام. ساقاي الحريريّتان تفرك إحداهما الأخرى بنعومةٍ. أحجار عقدٍ باردةٌ تسترخي على رقبتي. أنا مزيّنةٌ، أنا مستعدّةٌ... شعري مصفّفٌ كما يجب. شفتاي حمراوان كما أريد. أنا جاهزةٌ للالتحاق بهؤلاء الرجال وهاته النساء اللّذين يصعدون السلّم. إنّهم أقراني. أمرّ أمامهم، معرّضةً لنظراتهم كما هم معرّضون لنظراتي... في جوّ العطور هذا، والأنوار، أنتعش كنبتة سرخسٍ

72- ذكرها دبيس Debesse، أزمة الأصالة في المراهقة.

تفرد أوراقها المجعّدة... أشعر بألف إمكانيّةٍ تولد في داخلي. أتنقّل بين النشاط والمرح والفتور والكآبة. أتماوج فوق جذوري العميقة. أنحني إلى اليمين، مُذَهّبةً، أقول لهذا الشاب: «اقترب...» فيقترب. يأتي نحوي. هذه أكثر لحظةٍ عشتها إثارةً حتّى الآن. أرتعش، وأتمايل... ألسنا ساحرين ونحن جالسان معًا، أنا مرتديةً الساتان، وهو بالأسود والأبيض؟ يستطيع أقراني أن ينظروا إليّ الآن، جميعًا، ماداموا هناك، رجالًا ونساءً. أردّ لكم نظراتكم. أنا واحدةٌ منكم. أنا هنا في عالمي... يُفتَح الباب. يُفتَح الباب باستمرارٍ. عندما سيُفتح في المرّة المقبلة، ربما ستتغيّر حياتي بأكملها بسببه... البابُ يُفتَح. أقول لهذا الشاب وأنا أنحني نحوه كزهرةٍ كبيرةٍ ذهبيّةٍ «أوه، اقترِب». أقول له «اقترِب»، ويأتي نحوي[73].

مع ذلك، كلّما نضجت الشابّة، كلّما ازداد ثقل سلطة أمها عليها. إن كانت تمارس في البيت حياة ربّة منزلٍ، فهي تتألّم لأنّها ليست سوى مساعِدةٍ، وتتمنّى أن تكرّس عملها لمنزلها الخاص، لأطفالها هي. وغالبًا ما يشتد التنافس بينها وبين أمّها: وخصوصًا البنت الكبرى الّتي تغتاظ إن وُلِد لها أيضًا إخوةٌ أو أخواتٌ صغارٌ؛ فتعتبر أنّ أمّها «قد أخذت حصتها من الحياة وأنّ عليها هي الآن أن تنجب وتسيطر. وإن كانت تعمل خارج المنزل، تتألّم عندما تعود إلى البيت وتُعامَل أيضًا كفردٍ بسيطٍ من الأسرة وليس كشخصٍ مستقلٍّ.

وتصبح أقلّ خيالًا من ذي قبل، فتبدأ تحلم بالزواج أكثر مما تحلم بالحبّ. ولا تعود تحيط زوج المستقبل بهالةٍ من التعظيم: ما تتمنّاه، هو أن يكون لها في هذا العالم وضعٌ مستقرٌّ، وأن تبدأ بعيش حياتها كامرأةٍ. هكذا تصف فرجينيا وولف تخيّلات شابّةٍ ثريّةٍ ريفيّةٍ:

قريبًا، في ساعة الظهر الحارّة حيث تطنّ النحلات حول نبتة صريمة الجدي، سيأتي حبيبي. لن يلفظ سوى كلمةٍ واحدةٍ ولن أجيبه إلا بكلمةٍ واحدةٍ. سأمنحه كلّ ما كبُر لديّ. سيكون لديّ أطفالٌ، وخادماتٌ يرتدين مآزر وعاملاتٌ يحملن مشاعل. سيكون لديّ مطبخٌ سيحضرون إليه حملانًا مريضةً في سلالٍ كي تتدفأ، حيث ستتدلّى قطع لحم الخنزير من العوارض الخشبيّة وتلتمع مشكاكات البصل. سأكون كأمّي، صامتةً، مغطّاةً بمئزرٍ أزرق ممسكةً بيدي مفتاح الخزائن[74].

73- الأمواج Les Vagues.

74- الأمواج.

حلمٌ مشابهٌ يسكن مخيّلة برو سارن[75] المسكينة:

كنت أظنّ أن البقاء دون زواجٍ البتة شيئٌ فظيعٌ. كلّ الفتيات يتزوّجن. وعندما تتزوّج فتاةٌ، يصبح لديها منزلٌ وربّما مصباحٌ تضيئه مساءً ساعة عودة زوجها؛ ولا يختلف الأمر إن لم يكن لديها سوى شموعٍ لأنّها تستطيع وضعها بقرب النافذة، عندئذٍ يقول: «زوجتي هناك، لقد أشعلت الشموع». ويأتي يومٌ آخر تصنع لها السيدة بغويلدي فيه مهدًا من الخيزران؛ ويومٌ آخر يقبع فيه طفلٌ جميلٌ مهمٌّ وتُرسَل رسائل دعوةٍ للعماد؛ ويهرع الجيران حول الأمّ كما تفعل النحلات حول ملكتها. وغالبًا عندما تسوء الأمور، كنت أقول لنفسي: «لا يهمّ، يا برو سارن! ستصبحين ملكةً ذات يومٍ في قفيرك الخاص».

بالنسبة لمعظم الشابّات، سواءً كانت حياتهنّ كادحةً أم عابثةً، سواءً كنّ قابعاتٍ في المنزل الأبويّ أو يهربن منه أحيانًا، يصبح اصطياد زوجٍ ـ أو على الأقلّ عشيقٍ جديٍّ ـ عمليّةً ملحّةً أكثر فأكثر. يؤذي هذا الهمّ غالبًا الصداقات النسائيّة. فتفقد «الصديقة الحميمة» موقعها المميّز. وترى الشابّة في رفيقاتها منافساتٍ أكثر من شريكاتٍ. عرفتُ إحداهنّ، كانت ذكيّةً وموهوبةً ولكنّها اختارت أن ترى نفسها «أميرةً بعيدةً»: وهكذا كانت تصف نفسها في أشعارٍ وتجارب أدبيّةٍ؛ كانت تعترف بصراحةٍ أنّها لا تشعر بأيّ تعلّقٍ برفيقات طفولتها: لم يكنّ يحزن على إعجابها إذا كنّ قبيحاتٍ وغبيّاتٍ؛ وكانت تخشاهنّ إن كنّ فاتناتٍ. انتظار الرجل بنفاد صبرٍ التي تفترض غالبًا مناوراتٍ، وحيلًا، وإذلالًا، تسدّ الأفق في وجه الفتاة؛ فتصبح أنانيّةً وقاسيةً. وإذا تأخّر أمير الأحلام عن الظهور، ينشأ الاشمئزاز والمرارة.

يعبّر طبع الشابّة وتصرّفاتها عن وضعها: إذا تغيّر هذا الوضع، تبدو صورة الفتاة مختلفةً أيضًا. أصبح ممكنًا لها اليوم أن تمسك مصيرها بيديها، بدل أن تعود إلى الرجل. و تتحرّر من سلطة الذكر إن كانت مشغولةً بدراسةٍ أو رياضةٍ أو تدريبٍ مهنيٍّ أو نشاطٍ اجتماعيٍّ وسياسيٍّ، وتهتمّ أقلّ بكثيرٍ بصراعاتها العاطفيّة والجنسيّة. مع ذلك، لديها صعوباتٌ أكثر بكثيرٍ من الشاب في إكمال نفسها كشخصٍ مستقلٍّ. قلت إنّ أسرتها والأعراف لا تساعدانها. عدا عن ذلك، حتّى إن اختارت الاستقلال، لن تدعه يحتل في حياتها مكانًا أكبر مما تمنحه للرجل والحب. ستخاف دائمًا إن وهبت نفسها كلّيًّا لمؤسسةٍ أن تفشل حياتها كامرأةٍ. ويبقى

75- ماري ويب، سارن Marie Webb.

هذا الشعور مكتومًا: لكنّه موجودٌ، ويفسد كلّ إرادةٍ مخطّطةٍ، ويضع حدودًا. على كلّ حالٍ، تريد المرأة العاملة أن تنسّق بين نجاحها المهنيّ ونجاحها البحت كأنثى؛ وهذا لا يتطلّب أن تكرّس وقتًا طويلًا لزينتها، وجمالها، ولكن الأخطر من ذلك، أنّه يتطلّب تقسيم اهتماماتها الحيويّة. على هامش البرامج، يتسلّى الطالب بألعابٍ فكريّةٍ مجّانيّةٍ وتولد من ذلك أفضل اكتشافاته. تخيّلات المرأة موجّهةٌ إلى مكانٍ مختلفٍ: تفكّر بمظهرها الخارجيّ، وبالرجل، والحب، ولا تمنح دروسها ومهنتها إلّا القسط الضروريّ، بينما تحتاج هذه المجالات إلى كلّ شيءٍ من الضروريّ وحتّى الكماليّ. لا يتعلّق الأمر هنا بضعفٍ عقليٍّ، أو عجزٍ عن التركيز: ولكن عن انقسامٍ بين مصالحها غير المتوافقة. هنا تُطبِق دارةٌ معيبةٌ: يستغربون غالبًا من رؤية السهولة التي يمكن للمرأة أن تتخلّى بها عن الموسيقى والدراسة والمهنة، ما إن تجد زوجًا؛ ذلك أنّها كانت قد كرّست القليل جدًّا من ذاتها لهذه المشاريع بحيث لا تجد في اكتمالها فائدةً كبيرةً. ويتضافر كلّ شيءٍ كي يكبح طموحها الشخصيّ، ومع ذلك يدعوها ضغطٌ اجتماعيٌّ هائلٌ إلى أن تجد في الزواج موقعًا اجتماعيًّا، مسوّغًا. من الطبيعي ألّا تبحث عن إيجاد مكانها في هذا العالم بنفسها أو ألّا تبحث عنه إلّا على استحياءٍ. طالما لم تتحقّق مساواةٌ اقتصاديّةٌ كاملةٌ في المجتمع وطالما تسمح الأعراف للمرأة بالاستفادة كزوجةٍ وعشيقةٍ من الامتيازات الّتي يملكها بعض الرجال، ستبقي على حلم نجاحٍ سلبيٍّ لديها وستكبح إنجازاتها الخاصّة.

مع ذلك مهما كانت أساليب الشابّة في تصدّيها لوجودها كراشدةٍ، فلم ينته تدريبها بعدُ. بالتدريج أو فجأةً، عليها تلقّي تعليمها الجنسيّ. هناك شابّاتٌ يرفضن ذلك. إذا كانت حوادث مؤلمةٌ جنسّيًا قد طبعت طفولتهنّ، إذا كانت تربيةٌ خرقاء قد غرست فيهنّ ببطءٍ الرعب من الجنس، يحتفظن تجاه الرجل باشمئزازهنّ كفتياتٍ بالغاتٍ. يحدث أيضًا أن تقود الظروف بعض النساء، رغمًا عنهنّ، إلى عذريّةٍ طويلةٍ. ولكن في الغالبيّة العظمى للحالات **تكمل الشابّة في سنٍّ متقدمةٍ كثيرًا أو قليلًا مصيرها الجنسيّ. الطريقة الّتي تواجهه فيها هي بالطبع ذات صلةٍ وثيقةٍ بكلّ ماضيها. ولكن هناك أيضًا تجربةً جديدةً تطرح نفسها في ظروفٍ غير متوقّعةٍ وتردّ عليها بحرّيّةٍ. هذه هي المرحلة الجديدة الّتي علينا الآن تأمّلها.**

الفصل الثالث

التدريب الجنسيّ

يبدأ التدريب الجنسيّ للمرأة كما للرجل في سنّ الطفولة الباكرة نوعًا ما. هناك تدريبٌ نظريٌّ وعمليٌّ يتتالى بطريقةٍ مستمرّةٍ منذ الطور الفمويّ، فالشرجيّ، فالتناسليّ، حتى سنّ الرشد. لكنّ التجارب الشهوانيّة للشابّة ليست استمرارًا بسيطاً لنشاطاتها الجنسيّة السابقة؛ تكون غالبًا ذات صفةٍ غير متوقّعةٍ وفظّةٍ، تشكّل دائمًا حدثًا جديدًا يخلق قطيعةً مع الماضي. كلّ المشاكل الّتي تحدث للشابّة تُختَصَر بشكلٍ مُلِحٍّ وحادٌّ في الوقت الّذي تجتازها فيه. في بعض الحالات، تُحَلُّ الأزمة بسهولةٍ؛ وأحيانًا تتشابك ظروفٌ مأساويّةٌ لا تُصَفّى فيها إلّا بالانتحار أو الجنون. على كلّ حالٍ، ترهن المرأة قسمًا كبيرًا من قدرها بالطريقة الّتي تتفاعل بها فيه. ويتّفق كلّ الأطبّاء النفسيّين حول الأهمّيّة القصوى الّتي تأخذها بالنسبة لها هذه البدايات الشهوانيّة: وانعكاسها على بقيّة حياتها كلّها.

يختلف الوضع هنا تمامًا بين الرجل والمرأة، من وجهة النظر البيولوجيّة والاجتماعية والنفسيّة معًا. بالنسبة للرجل، يكون العبور من الجنس الطفوليّ إلى النضج بسيطًا نسبيًّا: هناك تجسيدٌ للمتعة الشهوانيّة الّتي بدلًا من أن تتحقّق في حضورها المتأصّل تقصد شخصًا متساميًا. الانتصاب هو تعبيرٌ عن هذه الحاجة؛ يتّجه الرجل بكلّ جسده نحو شريكته،

العضو، واليدان، والفم، لكنه يظلّ الذات في قلب هذه العمليّة كما عمومًا أمام المواضيع الّتي يلمسها والأدوات الّتي يتلاعب بها؛ فيندفع نحو الآخر دون أن يفقد استقلاليّته؛ والجسد الأنثويّ بالنسبة له طريدةٌ ويدرك فيها الخصائص الّتي تطلبها أحاسيسه من كلّ موضوعٍ؛ لا ينجح في امتلاكها دون شكٍّ: لكنّه على الأقلّ يعانقها، ويداعبها، والقبلة تؤدّي إلى نصف فشلٍ: لكن هذا الفشل نفسه هو محفّزٌ ومتعةٌ. يجد فعل الحُبِّ وحدته في اكتماله الطبيعيّ، الرعشة. وللإيلاج هدفٌ فزيولوجيٌّ محدّدٌ؛ إذ يتخلّص الذكر بالقذف من إفرازاتٍ تُثقِل عليه؛ ويحصل بعد النزو على خلاصٍ كاملٍ تصاحبه متعةٌ بالتأكيد. حتمًا لم تكن المتعة وحدها الهدف المنشود؛ وتصاحبها غالبًا خيبةٌ: فالحاجة اختفت بالأحرى بدل أن ترتوي. في جميع الأحوال تمّ تنفيذ فعلٍ محدّدٍ ويجد الرجل نفسه بجسدٍ نزيهٍ: اختلطت الخدمة الّتي قدمها للنوع بمتعته الشخصيّة. شهوانيّة المرأة معقّدةٌ أكثر بكثيرٍ وتعكس تعقيد الوضع الأنثويّ. رأينا[76] أنّه بدلًا من دمج القوى النوعيّة في حياة الأنثى الشخصيّة فهي فريسةٌ للنوع الّذي تنفصل مصالحه عن غاياتها الخاصّة؛ يبلغ هذا التناقض ذروته لدى المرأة؛ ويتجلّى من ضمن أشياء أخرى بتعارض عضوين: البظر والمهبل. يكون الأول في المرحلة الطفوليّة مركز الشهوانيّة الأنثويّة: ويدعم بعض علماء النفس فكرة وجود إحساسٍ مهبليٍّ لدى بعض الفتيات الصغيرات، لكنّ هذا الرأي منتقدٌ بشدّةٍ؛ وليس له على أيّ حالٍ سوى أهمّيّةٍ ثانويّةٍ. لا تتغيّر الجملة البظريّة في سن الرشد[77] وتحتفظ المرأة طيلة حياتها بهذا الاستقلال الشهوانيّ؛ والتقلّص البظريّ هو كالنشوة الذكريّة نوعٌ من التنفيس الّذي يُحصَل عليه بطريقةٍ آليّةٍ تقريبًا؛ لكنه ليس مرتبطًا بإيلاجٍ طبيعيٍّ إلّا بصورةٍ غير مباشرةٍ، ولا يلعب أيّ دورٍ في الإنجاب. تُختَرق المرأة وتُلَقَّح عبر المهبل فقط؛ ولا يصبح مركز شهوانيّةٍ إلّا بتدخّل الذكر ويشكّل هذا التدخّل دائمًا نوعًا من الاغتصاب. كانت المرأة فيما مضى تُقتَلَع من عالمها ويُلقى بها في حياتها كزوجةٍ عبر اختطافٍ حقيقيٍّ أو مصطنعٍ؛ إنّه عنفٌ يبدّلها من فتاةٍ إلى امرأةٍ: يقال أيضًا «سلب» عذرية فتاةٍ، و«أخذ» زهرتها. فضّ البكارة هذا ليس نهايةً منسجمةً لتطوّرٍ مستمرٍّ، إنّه قطيعةٌ حادّةٌ مع الماضي، وبداية دورةٍ جديدةٍ. عندئذٍ تُبلَغ

76- انظر الجزء الأول، الفصل الأول.

77- إلا إذا أجري الختان السائد لدى بعض البدائيّين.

المتعة عبر تقلّصاتٍ للسطح الداخليّ للمهبل؛ هل تنتهي هذه التقلّصات في رعشةٍ دقيقةٍ ومحدّدةٍ؟ ما تزال هذه النقطة موضع نقاشٍ. معطيات التشريح غامضةٌ جدًا. يقول تقرير كينزي Kinsey فيما يقول: «يمكن القيام بالعديد من العمليّات الجراحيّة داخل المهبل دون اللّجوء إلى التخدير. لقد أُثبِتَ أنّ الأعصاب داخل المهبل متوضّعةٌ في منطقةٍ تقع في الجدار الداخليّ قريبًا من قاعدة البظر». مع ذلك، عدا إثارة هذه المنطقة المُعَصَّبة «يمكن للأنثى أن تشعر بدخول شيءٍ في المهبل وخصوصًا إذا كانت عضلات المهبل متقلّصةً؛ لكن الإشباع الّذي تحصل عليه يتعلّق ربّما أكثر بالمقوّيّة العضليّة منه بالإثارة الشهوانيّة للأعصاب». إلّا أنّه لا شكّ في وجود المتعة المهبليّة؛ وتبدو حتّى العادة السرّيّة المهبليّة ـ لدى النساء البالغات ـ أكثر شيوعًا مما يقوله كينزي[78] لكنّ من المؤكّد أنّ رد فعل المهبل معقّدٌ جدًّا، يمكن وصفه بالنفسي الفزيولوجي لأنّه لا يخصّ فقط مجمل الجملة العصبيّة، ولكن لأنّه يتعلّق بكلّ الوضع الّذي تعيشه الذات: يتطلّب موافقةً عميقةً من الفرد بأكمله؛ الحلقة الشهوانيّة الجديدة الّتي يفتتحها أوّل إيلاجٍ تتطلّب كي تتمّ نوعًا من «تركيب» الجملة العصبيّة، وصنع شكلٍ لم يُبدأ بعدُ وعليه أن يشمل أيضًا الجملة البظريّة؛ وتستغرق وقتًا طويلًا كي تتحقّق وأحيانًا لا تنجح أبدًا في أن تتحقّق. من المدهش أن لدى المرأة الخيار بين دورتين تديم الأولى الاستقلال الطفوليّ، بينما تكرّسها الثانية للرجل والطفل. تجعل العمليّة الجنسيّة الطبيعيّة المرأة في الواقع تابعةً للرجل والنوع. إنّه هو ـ كما جميع الحيوانات تقريبًا ـ من يملك الدور العدوانيّ، بينما تخضع هي لعناقه. هي جاهزةٌ دومًا عادةً لتقبّل مضاجعة الرجل، بينما لا يستطيع هو مضاجعتها إلّا إن كان في وضعيّة الانتصاب؛ ويمكن تجاوز الرفض الأنثوي إلّا في حالة ثورةٍ عميقةٍ بحيث يختم تشنّج المهبل المرأة بشكلٍ أكبر من غشاء البكارة؛ كما يترك تشنّج المهبل للذكر إمكانيّة إشباع نفسه بجسدٍ تسمح له قوّته العضليّة بوضعه تحت رحمته. بما

78- نلاحظ استخدام القضيب الاصطناعي دون انقطاعٍ منذ أيّامنا حتى العصور الكلاسيكية القديمة وحتى ما قبلها... هذه لائحةٌ بأشياء وُجِدت في السنوات الأخيرة في المهابل أو في المثانات ولم يمكن إخراجها إلّا عبر عمليّاتٍ جراحيّةٍ: أقلامٌ، قطع شمع الأختام، مشابك شعرٍ، بكراتٌ، مشابك عظميّةٌ، مكواة تجعيد الشعر، إبر خياطةٍ أو حياكةٍ، غمد إبرٍ، فرجارٌ، سدّادات كريستال، شمعدانٌ، سدّادات فلين، أقداح، شوكاتٌ، مسواكاتٌ، فراشي أسنان، أنابيب مراهم (في حالةٍ ذكرها شرودر كان الأنبوب يحوي خنفساء وبالتالي كان بديلًا عن rinutama japonais)، بيض دجاجٍ، إلخ.. الأشياء الكبيرة كانت موجودةً في مهبل النساء المتزوّجات. (هـ. إليس H.Ellis، دراسة في علم نفس الجنس، الجزء الأول).

أنها موضوعٌ، لا تبدّل عطالتها كثيرًا دورها الطبيعيّ: لدرجة أنّ كثيرًا من الرجال لا يهتمّون بمعرفة إن كانت المرأة الّتي تشاطرهم سريرهم تريد الإيلاج أو تخضع له فقط. يمكن حتّى مضاجعة امرأةٍ ميّتةٍ. لا يتمّ الإيلاج دون موافقة الذكر والنهاية الطبيعيّة له إشباع الذكر. ويمكن أن يتمّ الإلقاح دون أن تشعر المرأة بأيّة لذّةٍ. ومن جهةٍ أخرى، لا يمثّل الإلقاح لها اكتمال العمليّة الجنسيّة؛ على العكس في هذه اللّحظة تتحقّق الخدمة الّتي يطلبها النوع منها ببطءٍ وصعوبةٍ في الحمل والولادة والإرضاع.

«القدر التشريحيّ» للرجل والمرأة إذًا مختلفٌ تمامًا. وكذلك وضعهما المعنويّ والاجتماعيّ. لقد نذرت الحضارة الأبويّة المرأة للعفّة؛ ويُعتَرف بشكلٍ صريحٍ أو سرّيٍّ بحقّ الذكر في إشباع رغباته الجنسيّة بينما تُحصَر المرأة في الزواج: فالفعل الجنسيّ بالنسبة لها، إذا لم يبرّره القانون المدنيّ، والزّواج، هو غلطةٌ، سقطةٌ، هزيمةٌ، ضعفٌ؛ عليها الدفاع عن عفّتها، وشرفها؛ تثير الاحتقار إذا «استسلمت»، إذا «سقطت»؛ بينما هناك استحسانٌ حتّى في اللّوم الّذي يلقونه على قاهرها. منذ الحضارات البدائيّة وحتّى أيّامنا هذه، اتّفقوا على أن الفراش كان بالنسبة للمرأة «خدمةً»، يشكرها عليها الذكر بهدايا أو بالقيام باحتياجاتها: ولكن الخدمة تعني أن تتخّذ لك سيّدًا؛ ولا يوجد في هذه العلاقة أيّ تبادلٍ. والدليل على ذلك بنية الزواج، وكذلك وجود المومسات: تمنح المرأة نفسها، ويدفع لها الرجل أجرها ويضاجعها. لا شيء يمنع الرجل من السيطرة، من مضاجعة مخلوقاتٍ أدنى: طالما تسامحوا بالغراميّات مع الخدم، بينما يحطّون اجتماعيًّا من قدر البورجوازيّة الّتي تمنح نفسها لسائقٍ، أو بستانيٍّ. كانت الأعراف تسمح للأمريكيين الجنوبيّين شديدي العنصريّة بمضاجعة نساءٍ سودٍ، قبل حرب الانفصال كما اليوم: وهم يستخدمون هذا الحق بصلافة الإقطاعيّ: بينما إذا خالطت بيضاءُ أسودَ في زمن الرقّ كانت تُقتل، وكان المجتمع ليعاقَبها اليوم. كي يقول رجلٌ إنّه ضاجع امرأةً، يقول إنّه «امتلكها»، إنّه «أخذها»؛ وبالعكس كي يقال إنّ شخصًا «تمكّن» من شخصٍ آخر يقال أحيانًا بفظاظةٍ إنّه «ضاجعه»؛ كان اليونانيّون يسمّون المرأة الّتي لم تعرف ذكرًا «Parthenos adamtos»، عذراء غير خاضعةٍ؛ وكان الرومان يصفون **ميسالين** بـ«invecta غير المقهورة»، لأنّ أحدًا من عشّاقها لم يمنحها متعةً. فعل الحبّ إذًا غزوٌ وانتصارٌ بالنسبة للعشيق. إذا كان الانتصاب يبدو غالبًا

لدى الآخرين صورةً هزليّةً فكلّ واحدٍ يراه مع ذلك مدعاةً للفخر نوعًا ما عندما يتعلّق الأمر به. وتستوحى الألفاظ الشهوانيّة لدى الذكور من التعابير العسكريّة: فللعشيق جموح جنديٍّ، وينتعظ عضوه كقوسٍ، وعندما يقذف «يطلق»، إنّه رشّاشٌ، مدفعٌ؛ يتحدّث عن الهجوم، الانقضاض، والانتصار. يرى في النزو طعم البطولة. كتب بندا[79] Benda: «الفعل الإنجابي الّذي يتكوّن من احتلال شخصٍ لشخصٍ آخر يفرض وجود فاتحٍ من جهةٍ، وشيءٍ مُكتَسَبٍ من جهةٍ أخرى. وحتّى عندما يتحدّثون عن علاقاتهم الغراميّة الأكثر تحضّرًا يتحدّثون عن الغزوات، والهجوم، والحصار، والدفاع، والهزيمة، والاستسلام، مستنسخين تمامًا فكرة الحبّ عن فكرة الحرب. هذا العمل، المتضمّن تلوّث شخصٍ بشخصٍ آخر، يفرض على الملوِّثِ نوعًا من الفخر وعلى الملوَّث بعض الإذلال حتّى وإن كان راضيًا». هذه الجملة الأخيرة تُدخِل خرافةً جديدةً: أنّ الرجل يفرض على المرأة تلويثًا. المنيّ في الواقع ليس فضلاتٍ؛ ويُدعى «تلوّثًا ليليًّا» عندما يكون محوَّلًا عن غايته الطبيعيّة؛ يمكن أن تلطّخ القهوة ثوبًا فاتح اللّون ولكن لا يقال إنّها قذارةٌ وإنّها تلوّث المعدة. يؤكّد رجالٌ آخرون على العكس أنّ المرأة غير طاهرةٍ لأنّها هي «المُلَطَّخة بالمفرزات»، وأنّها تلوِّث الذكر. أن تكون ذاك الّذي يلوِّث لا يمنحك في كلّ الأحوال سوى فوقيّةٍ ملتبسةٍ. يأتي الوضع المميّز للرجل في الواقع من اندماج دوره البيولوجيّ العدوانيّ بوظيفته الاجتماعيّة كزعيمٍ، كسيّدٍ، من خلال هذا تأخذ الفوارق الفيزيولوجيّة كامل معناها. لأنّ الرجل سيّدٌ في هذا العالم، ويطالب كعلامةٍ لسيادته بعنف رغباته؛ يقال عن رجلٍ مؤهّلٍ بقدراتٍ شهوانيّةٍ كبيرةٍ إنّه قويٌّ، قادرٌ؛ وهي نعوتٌ تصفه بأنّه فعّاليّةٌ وتسامٍ؛ وعلى العكس، بما أنّ المرأة ليست سوى موضوعٍ، يقال عنها إنّها «ساخنةٌ أو باردةٌ»، أي أنّها لا تستطيع أن تبدي أبدًا سوى صفاتٍ سلبيّةٍ.

بالتالي المناخ الّذي يستيقظ فيه الجنس الأنثوي مختلفٌ تمامًا عن ذاك الّذي يصادفه المراهق حوله. من جهةٍ أخرى، في اللّحظة الّتي تواجه فيها المرأة الذكر للمرّة الأولى، يكون تصرّفها الشهوانيّ معقّدًا للغاية. ليس صحيحًا، كما ادّعوا أحيانًا، أنّ العذراء لا تعرف الرّغبة وأنّ الرجل هو من يوقظ شهوانيتها؛ هذه الخرافة تفضح مرّةً أخرى الميل للسيطرة لدى الذكر الّذي يريد ألّا يكون أيّ شيءٍ لدى شريكته مستقلًّا، ولا حتّى رغبتها فيه؛ بالنسبة

79- تقرير أورييل Uriel.

للرجل أيضًا في الواقع، ملامسته المرأة هي غالبًا الّتي تثير الرغبة، بالمقابل تطلب معظم الشابّات بحرارةٍ مداعباتٍ قبل أن تكون أيّة يدٍ قد لامستهنّ أبدًا.

تقول إيزادورا دنكان Isadora Duncan في «حياتي»:

أردافي الّلتي كانت البارحة تمنحني هيئة صبيٍّ استدارت، وبكلّ كياني، كنت أشعر بانطباعٍ هائلٍ بالانتظار، نداءٍ كان يصعد فيَّ واضح المعنى: لم أعد أستطيع النوم ليلًا، كنت أتقلّب، وأتخبّط، محمومةً ومتألّمةً.

وتروي شابّةٌ أفضت لستيكل باعترافاتٍ طويلةٍ عن حياتها ما يلي:

بدأت بمصاحبة الشبّان بشغفٍ. كنت بحاجةٍ إلى «دغدغة الأعصاب». شغوفةً بالرقص، كنت أغمض عينيّ وأنا أرقص مستسلمةً تمامًا لهذه المتعة... كنت أعبّر بالرقص عن نوعٍ من الاستعراض لأنّ الشهوانيّة كانت تغلب الحياء. خلال السنة الأولى، كنت أرقص بشغفٍ. كنت أحبّ النوم وأنام كثيرًا وأمارس العادة السرّيّة غالبًا حتّى يبلّلني العرق، ثم كنت أغفو غير قادرةٍ على المتابعة بسبب التعب... كنت أحترق وكنت لأقبل ذلك الّذي كان ليرغب في تهدئتي. لم أكن أبحث عن الفرد، ولكن عن الرجل[80].

الأمر بالأحرى هو أنّ الاضطراب العذري لا يتجلّى بحاجةٍ محدّدةٍ: لا تعرف العذراء بالتحديد ماذا تريد. تبقى لديها شهوانيّة الطفولة العدوانيّة؛ كانت دوافعها الأولى قابضةً وما زالت لديها الرغبة في العناق والامتلاك؛ الطريدة الّتي تبحث عنها، تتمنّاها مؤهّلةً بالميزات الّتي انكشفت لها عبر الذّوق والشمّ واللّمس كقيم؛ لأنّ الجنس ليس مجالًا معزولًا، إنّه يطيل أحلام الشهوانيّة ومتعها؛ يحب أطفال ومراهقو الجنسين الأملس، المرهميّ، الناعم، المطّاطيّ: هذا الّذي يتأثّر بالضغط دون أن ينهار أويتفكّك، وينزلق تحت النظرة أو تحت الأصابع؛ تُفتَن المرأة كالرجل بنعومة كثبان الرمل الساخنة الّتي طالما شُبّهت بالنهود، وبحفيف الحرير، ورقّة لحافٍ أزغب، ونعومة زهرةٍ أو فاكهةٍ؛ وتحب الشابّة بشكلٍ خاصٍّ ألوان الباستيل الشاحبة، وأقمشة التول والموسلين الهفهافة. لا تحبّ الأقمشة الخشنة، والحصى، والنكهات اللاذعة والروائح الحامضة؛ جسد الأمّ هو ما داعبته وأحبّته أولًا

80- المرأة الباردة.

كإخوتها؛ كانت تطرح نفسها كذاتٍ ضمن نرجسيّتها وتجاربها الجنسيّة المثليّة المنتشرة أو المحدّدة وتبحث عن امتلاك جسدٍ أنثويٍّ. وعندما تواجه الذكر، لديها في راحة يديها، وعلى شفتيها، الرغبة في مداعبة طريدةٍ بصورةٍ فاعلةٍ. لكنّ الرجل بعضلاته القاسية، وملامحه المنحوتة بخشونةٍ لا يبدولها مثيرًا للرغبة، حتّى أنّه يوحي إليها بالنفور. هذا ما تعبّر عنه رينيه فيفيان عندما تكتب:

أنا امرأة، لا أملك الحق في الجمال

...حُكِم عليّ بالقباحات الذكوريّة

حرّموا عليّ شَعرَك، وعينيك

لأنّ الشعر طويلٌ ومضمّخٌ بالروائح.

إذا كان الميل للقبض والتملّك يظلّ الأقوى لدى المرأة، فستتّجه نحو الجنسيّة المثليّة كرينيه فيفيان. أو أنّها لن تتعلّق إلّا بذكورٍ يمكنها معاملتهم كنساءٍ: وهكذا بطلة «السيّد فينوس» لراشيلد Rachilde، تشتري لنفسها عشيقًا شابًّا يروق لها أن تداعبه بشغفٍ، ولا تتركه يفضّ بكارتها. هناك نساءٌ يحببن مداعبة الفتيان الّذين في سنّ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة أو حتّى أطفالٍ ويرفضن أن يستسلمن لرجلٍ. لكنّنا رأينا أنّ هناك جنسيّةً سلبيّةً تطوّرت أيضًا لدى معظم النساء منذ الطفولة: تحبّ المرأة أن تُعانَق، وتُداعَب وتحبّ خاصّةً منذ البلوغ أن تكون جسدًا بين ذراعي رجلٍ؛ فهو عادةً من يلعب دور الذات؛ وهي تعرف ذلك؛ لقد كرّروا على مسامعها أنّ «لا حاجة للرجل لأن يكون وسيمًا»؛ ليس عليها أن تبحث لديه عن صفات الموضوع الجامدة ولكن عن القدرة والقوّة الذكوريّة. وهكذا تجد نفسها مقسّمةً: فهي تطلب عناقًا قويًّا يحوّلها إلى موضوعٍ مرتعشٍ؛ لكنّ الخشونة والقوّة هما أيضًا مقاومةٌ جاحدةٌ تجرحها. وتتوضّع شهوانيّتها في جلدها وفي يدها معًا: وتعارض متطلّبات أحدهما متطلّبات الآخر جزئيًّا. وتختار وضعًا توفيقيًّا طالما استطاعت ذلك؛ تمنح نفسها لرجلٍ قويٍّ ولكن شابٌّ وساحرٍ لتكون موضوعًا مرغوبًا؛ تستطيع أن تجد لدى المراهق الوسيم كلّ الجاذبيّة الّتي تريدها؛ في نشيد الأناشيد، هناك تماثلٌ بين لذّة الزوجة ولذّة الزوج؛ تدرك لديه ما يبحث عنه لديها: كلّ ما هو موجودٌ على الأرض من النبات أو الحيوان، الأحجار الكريمة، الجداول، والنجوم. لكنّها لا تملك الوسائل لأخذ هذه الكنوز: جسدها يحكم عليها بالبقاء

خرقاء عاجزةً كخصيٍّ: تفشل رغبة التملّك بسبب غياب عضوٍ تتمثّل فيه. ويرفض الرجل الدور السلبيّ. كما أنّ الظروف تقود الشابّة غالبًا إلى أن تجعل من نفسها طريدة ذكرٍ تثيرها مداعباته لكنّها لا تجد متعةً لا في النظر إليه ولا في مداعبته بالمقابل. طالما قلنا أنّ في النفور الّذي يمتزج برغباتها هناك ليس فقط خوفٌ من العدوانيّة الذكريّة، ولكن أيضًا شعورٌ عميقٌ بالكبت: يجب اكتساب اللّذة الحسّية مقابل الاندفاع التلقائيّ للشبق بينما تمتزج لدى الرجل متعة اللّمس والنظر بالمتعة الجنسيّة بحدّ ذاتها.

عناصر الشهوانيّة السلبيّة ذاتها مبهمةٌ. لا شيء مريبٌ أكثر من الملامسة. كثيرٌ من الرجال الّذين يسحقون بين أيديهم دون اشمئزازٍ أيّة مادّةٍ يكرهون أن تمسّهم أعشابٌ أو حيواناتٌ؛ لدى ملامسة الجسد الأنثويّ للحرير والمخمل يرتعش تارةً ويقشعرّ تارةً: أذكر صديقة صبًا كان مجرّد رؤية درّاقةٍ يجعل جلدها يقشعرّ؛ الانزلاق سهلٌ من الاضطراب إلى الدغدغة، من الانزعاج إلى المتعة؛ ذراعان تحتضنان جسدًا قد تكونان ملاذًا وحمايةً، ولكنّهما أيضًا تحبسان، وتخنقان. يستمرّ هذا الإبهام لدى العذراء بسبب تناقض وضعها: فالعضو الّذي سيكتمل تحوّلها به مختومٌ. ونداء جسدها الحائر والمحموم ينتشر في الجسد بأكمله عدا الموضع الّذي على الإيلاج أن يتمّ فيه. لا يسمح أيّ عضوٍ للعذراء بإشباع شهوانيّتها النشطة؛ وليست لديها التجربة الحياتيّة لذاك الّذي ينذرها للسلبيّة.

مع ذلك فهذه السلبيّة ليست خمولًا صرفًا. لكي تُثار المرأة يجب أن تنشأ في جسدها ظواهر إيجابيّةٌ: تعصيب المناطق المثيرة للشهوة، انتفاخ بعض الأنسجة القابلة للانتعاظ، إفرازاتٌ، ارتفاعٌ في الحرارة، تسارعٌ في النبض والتنفّس. تتطلّب منها الرغبة والشبق كما من الذكر تبديدًا حيويًا؛ الحاجة الأنثوية المستقبلة هي فاعلةٌ بمعنىً ما، تتجلّى بزيادة المقوّيّة العصبيّة والعضليّة. النساء فاقدات الإحساس والفاترات هنّ بارداتٌ دائمًا؛ المسألة معرفة إن كان هناك حالات برودٌ أساسيٌّ، وتلعب العوامل النفسيّة حتمًا دورًا حيويًا بالنسبة لقدرات المرأة الشهوانيّة؛ لكنّ المؤكّد أن القصورات الفزيولوجيّة، ونقص الحيويّة، تتجلّى فيما تتجلّى باللامبالاة الجنسيّة. وبالعكس إذا كانت الطاقة الحيويّة تُبَدَّد في أنشطةٍ اختياريّةٍ، في الريّاضة مثلًا، فهي لا تندخل في الحاجة الجنسيّة: فالسكنديناڤيات يتمتّعن بصحّةٍ جيّدةٍ، وهنّ قويّاتٌ وبارداتٌ. والنساء «الشبقات» هن تلك اللّواتي يجمعن بين الفتور و«النار»،

كالإيطاليّات والإسبانيّات، أي اللّواتي تجري حيويّتهنّ المتأجّجة في أجسادهنّ. أن تصنع من نفسك موضوعًا، سلبيًّا هو أمرٌ مختلفٌ عن أن تكون موضوعًا سلبيًّا: المرأة المغرمة ليست امرأةً تنام ولا ميّتةً؛ يوجد فيها اندفاعٌ يهدأ ويتجدّد باستمرارٍ: هو الاندفاع الساقط الّذي يخلق السحر الّذي تستمرّ فيه الرغبة. لكنّ من السهل زعزعة التوازن بين التأجّج والتخلّي. الرغبة الذكوريّة توتّرٌ؛ يمكنها أن تجتاح جسدًا تكون فيه الأعصاب والعضلات مشدودةً، لا تعاكسها وضعيّاتٌ وحركاتٌ تطالب الجسم بالمشاركة الطوعيّة بل تخدمها غالبًا على العكس. كلّ جهدٍ إراديٍّ يمنع الجسد الأنثويّ على العكس من إدراك ذاته، لهذا ترفض المرأة[81] تلقائيًّا أشكال الإيلاج الّتي تطلب منها عملًا وتوتّرًا؛ تغيّراتٌ مفاجئةٌ، وضعيّاتٌ متعدّدةٌ، فرض فعّاليّاتٍ موجّهةٍ اختياريًّا، حركاتٌ أو كلماتٌ تحطّم السحر. قد يدفع عنف الميول الجامحة إلى التشنّج والتقلّص والتوتّر: تخدش المرأة أو تعضّ ويتقوّس جسدها، مزوّدًا بقوّةٍ غير اعتياديّةٍ؛ لكنّ هذه الظواهر لا تحدث إلّا عندما تبلغ نوعًا من الذروة، وهو لا يُبلَغ إلّا عندما يسمح غياب كلّ تحفّظٍ ـ ماديٍّ أو معنويٍّ ـ بتركيزٍ جنسيٍّ لكلّ الطاقة الحيويّة. أي بما معناه أنّه لا يكفي للشابّة أن تترك نفسها تُسَيَّر؛ مطيعةً، فاترةً، غائبةً، لا ترضي شريكها ولا نفسها. بل تُطلَب منها مشاركةٌ حيويّةٌ في مغامرةٍ لا يريدها إيجابيّةً لا جسدها البكر ولا ضميرها المُثقِل بالمحرّمات والنواهي والأفكار المسبقة والمتطلّبات.

نفهم ضمن الظروف الّتي أتينا على ذكرها أنّ بدايات المرأة الشهوانيّة ليست سهلةً. رأينا أنّه كثيرًا ما يحدث أن تحصل حوادث في الطفولة والصبا تولّد لديها مقاوماتٍ عميقةً؛ لا يمكن التغلّب على هذه المقاومات أحيانًا وتجهد الشابّة غالبًا في تجاوزها، ولكن تولد لديها عندئذٍ صراعاتٌ عنيفةٌ. فالتربية الصارمة، والخوف من الخطيئة، والشعور بالذنب تجاه الأم تخلق سدودًا منيعةً. في الكثير من الأوساط تُعطى العذريّة قيمةً عاليةً بحيث أنّ فقدها خارج إطار الزواج الشرعيّ يعتَبَر كارثةً حقيقيّةً. الشابة الّتي تستسلم اعتيادًا أو فجأةً تظنّ أنّها فقدت شرفها. «ليلة الزفاف» الّتي تسلّم العذراء لرجلٍ لم تختره حقًّا عادةً، والّذي يدّعي أنّه يختزل خلال بضع ساعاتٍ ـ أو بضع ثوانٍ ـ كلّ تدريبها الجنسيّ ليست كذلك تجربةً سهلةً. بصورةٍ عامّةٍ، كلّ «عبورٍ» يستدعي القلق بسبب صفته النهائيّة، غير القابلة

81- سنرى فيما بعد أنّ من الممكن أن توجد هناك أسبابٌ نفسيّةٌ تغيّر موقفها الفوري.

للتراجع: أن تصبح امرأةً هو قَطعٌ مع الماضي دون عودةٍ؛ لكنّ هذا العبور أكثر مأساويّةً من أيّ عبورٍ آخر؛ إنّه لا يخلق فقط وقفةً بين البارحة والغد؛ إنّه ينتزع الشابّة من العالم الخياليّ الّذي كان يجري فيه جزءٌ هامٌّ من وجودها ويرمي بها في العالم الحقيقيّ. وقياسًا على سباق الثيران، يسمّي **ميشيل ليريس** Michel Leiris السرير الزوجيّ «أرض الحقيقة»؛ تأخذ هذه التسمية بالنسبة للعذراء معناها الأكبر والأكثر رعبًا. خلال فترة الخطبة، والمغازلة، والإغواء، مهما كانت بدائيّةً، تتابع العيش في عالمها المعتاد المؤلّف من حفلاتٍ وأحلامٍ؛ كان طالب الودّ يتحدّث لغةً حالمةً أو على الأقلّ مهذّبةً؛ كان الغشّ ما يزال ممكنًا. وفجأةً ها هي تُرى بعينين حقيقيّتين، تُمسكها يدان حقيقيّتان: الواقع القاسي لهذه النظرات وهذه العناقات هو ما يرعبها.

يعطي القدر التشريحيّ والأعراف معًا الرجل دور المدرِّب. لا شكّ أنّ العشيقة الأولى هي أيضًا مدرِّبةٌ بالنسبة للشاب البتول؛ لكنّه يملك استقلالًا شهوانيًّا يبديه الانتصاب بوضوحٍ؛ لا تفعل عشيقته سوى أن تمنحه واقعيًّا الشيء الّذي كان يسعى إليه أصلًا: جسد امرأةٍ. تحتاج الشابّة إلى الرجل ليتكشّف لها جسدها: تبعيّتها أعمق بكثيرٍ. منذ تجاربها الأولى هناك في العادة لدى الرجل نشاطٌ وعزمٌ، فإمّا أنّه يدفع لشريكته أو أنّه يغازلها ويغريها قليلًا أو كثيرًا. على العكس في معظم الحالات تُغازَل الشابّة وتُجتذَب؛ حتّى إن كانت هي البادئة بإثارة الرجل فهو الّذي يقود علاقتهما بعدها؛ وغالبًا ما يكون أكبر سنًّا، وأكثر خبرةً، وهو من يحمل اتّفاقًا مسؤوليّة هذه المغامرة الجديدة بالنسبة لها؛ رغبته أكثر إثارةً وأكثر إلحاحًا. وسواءً كان عشيقًا أم زوجًا، فهو من يقودها حتّى الفراش حيث لا يبقى أمامها سوى أن تستسلم وتطيع. حتّى إن كانت قد قبلت هذه السلطة بذهنها، فينتابها الهلع في اللّحظة الّتي عليها فيها تحمّلها فعليًّا. تخاف أولًا من هذه النظرة الّتي تغوص فيها. تعلّمت جزءًا من حيائها، لكنّ لديها أيضًا جذورًا عميقةً؛ يعرف الرجال والنساء جميعهم الخجل من جسدهم؛ فالجسد، في وجوده الساكن، في تأصّله غير المبرّر، موجودٌ تحت نظرة الغير كشيءٍ مصطنعٍ غير مفهومٍ ومع ذلك هو «ذاته»؛ يُرادُ منعه من أن يوجد من أجل الغير؛ يُراد إنكاره. هناك رجالٌ يقولون إنّهم لا يتحمّلون أن يظهروا نفسهم عراةً لامرأةٍ إلّا في حالة الانتصاب؛ في الواقع بالانتصاب يصبح الجسد فعّاليّةً، قوّةً، لم يعد العضو شيئًا خامدًا

ولكن يصبح كاليد أو الوجه تعبيرًا حاسمًا عن الذاتيّة. ذاك هو أحد الأسباب الّتي من أجلها يشلّ الحياء الشبّان أقلّ بكثيرٍ من النساء؛ بسبب دورهم الأكثر عدوانيّةً، فهم أقلّ تعرّضًا للأنظار؛ وإن تعرّضوا، لا يخشون كثيرًا من أن يُحكَم عليهم لأنّ عشيقتهم لا تتطلّب منهم صفاتٍ جامدةً: تتّجه عقدهم بالأحرى نحو قدرتهم الغراميّة وبراعتهم في منح المتعة؛ على الأقلّ يستطيعون الدفاع عن نفسهم، ويحاولون كسب الجولة. ليس مطلوبًا من المرأة أن تحوّل جسدها إلى إرادةٍ: ما إن تكفّ عن إخفائه حتّى تسلّمه دون مقاومةٍ؛ حتّى إن رغبت في مداعباتٍ، تثور لفكرة النظر إليها وجسّها؛ فضلًا عن أنّ النهدين والردفين هي نموٌّ لحميٌّ خصوصًا؛ كثيرٌ من النساء البالغات لا يتحمّلن كثيرًا أن يُنظَر إليهنّ من الخلف حتّى وهنّ كاسياتٌ؛ بإمكاننا أن نتصوّر أيّة مقاوماتٍ على عاشقةٍ ساذجةٍ التغلّب عليها كي تقبل أن تُظهِر نفسها. دون شكٍّ المحظيّة الحسناء فرينيه لا تخشى النظرات، بل تتعرّى على العكس بكبرياءٍ: يكسوها جمالها. ولكن وإن كانت الشابّةُ نِدًّا لفرينيه فهي لا تتأكّد من ذلك أبدًا؛ لا يمكن أن يكون لديها الفخر المتكبّر بجسدها ما دامت آراء الذكور لم تؤكّد غرورها الشابّ. وذلك ما يخيفها؛ العاشق مخيفٌ أيضًا أكثر من نظرةٍ: إنّه قاضٍ؛ سيظهِرها لنفسها في حقيقتها؛ كلّ شابّةٍ وإن كانت مغرمةً بشغفٍ بصورتها، تشكّ في نفسها لحظة الحُكم الذكوريّ؛ ولهذا تطلب الظلمة، وتختبئ بين الأغطية؛ عندما كانت تُعجَب بنفسها في المرآة كانت تحلم فقط: كانت تحلم بنفسها من خلال عيون الرجل؛ الآن العيون حاضرةٌ؛ والغشّ مستحيلٌ؛ والمقاومة مستحيلةٌ: والقرار بيد حرّيّةٍ غامضةٍ وهذا القرار مُبرَمٌ. ستتبدّد أخيرًا وساوس الطفولة والمراهقة أو تترسّخ نهائيًّا ضمن التجربة الواقعيّة للخبرة الشهوانيّة؛ يعاني العديد من الشابّات من هذه الربلات القويّة، أو هذه النهود الضئيلة أو العارمة، أو هذه الأرداف النحيلة، هذا الثؤلول؛ أو أنّهنّ يخشين تشوّهًا خفيًّا.

يقول ستيكل[82]:

> **كلّ شابّةٍ تحمل داخلها كلّ أنواع المخاوف السخيفة الّتي تكاد لا تجرؤ على الاعتراف بها لنفسها. لا يصَدَّق عدد الشابّات اللّواتي يعانين من اضطرابٍ شكليٍّ ويتعذّبن سرًّا لأنّهنّ لا يستطعن التأكّد من أنّهن طبيعيّات الخلقة. كانت إحدى**

82- المرأة الباردة.

الشابّات تعتقد مثلًا أنّ «فتحتها السفلى» لم تكن في مكانها. اعتقدت أنّ العلاقة الجنسيّة تجري من خلال السرّة. وكانت تعيسةً لأنّ سرّتها مغلقةٌ لا تستطيع وضع إصبعها فيها. وأخرى كانت تعتقد أنّها خنثى. وأخرى كانت تظنّ أنّها مشوّهةٌ وغير قادرةٍ أبدًا على إقامة علاقةٍ جنسيّةٍ.

حتّى إن كنّ لا يعرفن هذه الهواجس، ينتابهنّ الهلع لفكرة أنّ بعض مناطق جسدهنّ الّتي لم تكن موجودةً من أجلها ولا من أجل أحدٍ آخر، الّتي لم تكن موجودةً مطلقًا، ستخرج للنور فجأةً. هذه الصورة المجهولة الّتي على الشابّة تحمّل مسؤوليّتها كصورتها هي هل ستثير الاشمئزاز؟ اللامبالاة؟ السخرية؟ ليس بإمكانها سوى الخضوع للحكم الذكري: بدأت الرهانات. لهذا يكون لموقف الرجل انعكاساتٌ عميقةٌ للغاية. يمكن لتأجّجه وحنانه إعطاء المرأة ثقةً بنفسها تقاوم كلّ رفضٍ: حتّى سنّ الثمانين ستظنّ نفسها هذه الزهرة، عصفور الجُزُر هذا الّذي جعلته رغبة رجلٍ يتفتّح ذات ليلةٍ. وبالعكس، إذا كان العشيق أو الزوج أخرق، سيولّد لديها عقدة نقصٍ، تنمو عليها أحيانًا عُصاباتٌ دائمةٌ؛ وستشعر بسببها بحقدٍ يتجلّى ببرودٍ عنيدٍ. يورد ستيكل بهذا الشأن أمثلةً مدهشةً:

تعاني سيدةٌ في السادسة والثلاثين منذ أربعة عشر عامًا من آلامٍ قطنيّةٍ لا تطاق لدرجة أنّها تلزم السرير لعدة أسابيع... شعرت بهذه الآلام المبرّحة لأوّل مرةٍ أثناء ليلة زفافها. خلال فضّ البكارة الّذي كان مؤلمًا بشكلٍ فائقٍ، صاح زوجها: «لقد خدعتيني، لست عذراء...» الألم هو تثبيتٌ لهذا المشهد المضني. هذا المرض هو عقاب الزوج الّذي لا بدّ أنّه أنفق مبالغ طائلةً لعلاجاتها الّتي لا تّحصى... ظلّت هذه المرأة بلا إحساسٍ أثناء ليلة عرسها وبقيت كذلك خلال كلّ فترة زواجها... كانت ليلة العرس بالنسبة لها صدمةً فظيعةً حدّدت كلّ حياتها المستقبليّة.

استشارتني شابّةٌ بشأن عدّة اضطراباتٍ عصبيّةٍ وخصوصًا برودةٍ مطلقةٍ... في ليلة العرس، بعد أن نزع عنها زوجها ملابسها صاح: «أوه! كم ساقاك قصيرتان وبدينتان!» بعد ذلك، حاول القيام بإيلاجٍ أبقاها بلا إحساسٍ ولم يمنحها سوى الألم... كانت تعرف جيّدًا أنّ إهانة ليلة عرسها هي سبب برودتها.

امرأةٌ أخرى باردةٌ تروي أنّ «زوجها أهانها كثيرًا خلال ليلة عرسهما»: عندما رآها تخلع ملابسها، قال: «يا إلهي كم أنت نحيلةٌ!» بعدئذٍ، قرّر أن يداعبها. بالنسبة لها، كانت هذه اللّحظة فظيعةً لا تُنسى. يا للقسوة!

السيدة ز.و. هي أيضًا باردةٌ تمامًا. كانت الصدمة الكبيرة ليلة الزفاف أنّ زوجها قال لها بعد أوّل إيلاجٍ: «لديك ثقبٌ كبيرٌ، لقد خدعتِني».

النظرة خطرٌ؛ والأيدي تهديدٌ آخر. عمومًا ليس للمرأة مكانٌ في عالم العنف؛ لم تعرف أبدًا التجربة الّتي اجتازها الشابّ عبر عراكات الطفولة والمراهقة: أن تكون شيئًا من اللّحم للآخر سيطرةٌ عليه؛ والآن هي مغلولة اليدين، تجرفها هذه المواجهة جسدًا لجسدٍ حيث الرجل هو الأقوى: لم تعد حرّةً في أن تحلم، أن تتراجع، وتناور: سُلّمت للذكر، يتصرّف بها. ترعبها هذه المعانقات المماثلة للعراك بينما لم تتعارك هي أبدًا. كانت تستسلم لمداعبات خطيبٍ، رفيقٍ، زميلٍ، رجلٍ متحضّرٍ ومهذّبٍ: لكنّه اتّخذ مظهرًا غريبًا، أنانيًّا وعنيدًا؛ لا ملاذ لها تجاه هذا الغريب. ليس نادرًا أن تكون أولى تجارب الشابّة اغتصابًا حقيقيًّا وأن يبدو الرجل عنيفًا بشكلٍ كريهٍ؛ وفي الريف كما في غيره حيث العرف جلفٌ، يحدث غالبًا أن تفقد الفلّاحة الشابّة عذريّتها في قاع حفرةٍ ما، بين الموافقة والثورة، بين الخجل والخوف. ما هو شائعٌ جدًّا على كلّ حالٍ في كلّ الأوساط، في جميع الطبقات، هو أن تؤخذ العذراء على حين غرّةٍ من قِبَل عشيقٍ أنانيٍّ يبحث عن متعته بأسرع ما يمكن، أو زوجٍ يستقوي بحقوقه الزوجيّة وتجرحه مقاومة زوجته كإهانةٍ، ويبلغ حدّ الثورة إن كان فضّ البكارة صعبًا.

غير أنّ الاختراق الأول هو دائمًا اغتصابٌ وإن كان الرجل مُراعيًا ومهذّبًا. لأنّ الشابّة تتمنّى مداعباتٍ على شفتيها ونهديها، ولأنّها ربّما تشتهي بين فخذيها متعةً معروفةً أو متوقَّعةً، ها هو عضوٌ ذكريٌّ يمزّقها ويدخل في المناطق الّتي لم يكن مدعوًّا إليها. كثيرًا ما وصفوا المفاجأة المكدِّرة لعذراء متلاشيةٍ بين ذراعي زوجٍ أو عشيقٍ، الّتي تعتقد أنها بلغت اكتمال أحلامها الشهوانيّة والّتي تشعر في أعماق عضوها بألمٍ غير متوقَّعٍ؛ فتتلاشى الأحلام، ويتبدّد الاضطراب، ويأخذ الحبّ شكل عمليّةٍ جراحيّةٍ.

من ضمن الاعترافات الّتي جمعها الدكتور **ليبمان**[83]، أستخلص القصّة النموذجيّة التالية الّتي تحكي قصّة فتاةٍ تنتمي إلى وسطٍ متواضعٍ وجاهلةٍ للغاية جنسيًّا.

«كنت غالبًا أتخيّل أنّ من الممكن إنجاب طفلٍ بمجرّد تبادل قبلةٍ. خلال عامي

83- نُشرت بالفرنسية تحت عنوان «الشباب والجنس».

الثامن عشر، تعرّفت إلى رجلٍ أغرمت به فعلًا كما يقولون». خرجت عدة مرّاتٍ معه وأثناء حديثهما شرح لها أنّه عندما تحبّ شابّةٌ رجلًا عليها أن تهب نفسها له لأنّ الرجال لا يستطيعون العيش دون علاقاتٍ جنسيّةٍ وأنّه طالما لا يسمح لهم وضعهم بالزواج، عليهم إذًا أن يقيموا علاقاتٍ مع الشابّات. وكانت تقاوم. وذات يومٍ، رتّب نزهةً بحيث يمكنهما قضاء الّليل معًا. كتبت له رسالةً لتكرّر القول أنّ «هذا سيكون بالنسبة لها ضررًا كبيرًا». أعطته الرسالة صباح اليوم المحدّد لكنّه وضعها في جيبه دون أن يقرأها واصطحبها إلى الفندق؛ كان يسيطر عليها معنويًا، وكانت تحبّه؛ فتبعته. «كنت كالمنوّمة مغنطيسيًا. خلال الطريق، رجوته أن يعفيني... لا أدري كيف بلغت الفندق. الأمر الوحيد الّذي بقي بذاكرتي هو أنّ كلّ جسدي كان يرتعد بعنفٍ. حاول رفيقي تهدئتي لكنه لم ينجح إلا بعد مقاومةٍ طويلةٍ. عندئذٍ لم أعد أتحكّم بإرادتي، ورغمًا عنّي استسلمت لكلّ شيءٍ. عندما وجدت نفسي فيما بعد في الشارع، بدا لي أنّ كلّ شيءٍ لم يكن سوى حلمٍ أفقت منه للتوّ». ورفضتْ أن تكرّر التجربة ولم تعرف رجلًا طيلة تسع سنواتٍ. بعدئذٍ صادفت أحدهم وطلب منها أن تتزوجه فوافقت.

في هذه الحالة، كان فضّ البكارة نوعًا من الاغتصاب. ولكن حتّى وإن كانت موافقةً، يمكن أن يكون صعبًا. رأينا أيّة حمّى كانت تؤرّق إيزادورا دنكان الشابّة. لقد صادفت ممثّلًا فائق الوسامة ووقعت في غرامه من النظرة الأولى وغمرها بغزلٍ مشبوبٍ[84].

كنت أشعر باضطرابٍ أنا أيضًا، رأسي يدور ورغبةٌ متزايدةٌ لا تقاوَم في معانقته بشكلٍ لصيقٍ أكثر إلى أن فقد كلّ سيطرةٍ على نفسه ذات مساءٍ وكأنّما جرفه الانفعال فحملني إلى الأريكة. تعلّمت حركات الحب خائفةً وسعيدةً بالنشوة ثم صارخةً من الألم. أعترف أنّ انطباعاتي الأولى كانت خوفًا فظيعًا، وألمًا مبرّحًا، كما لو أنّ أحدًا اقتلع لي عدّة أسنانٍ في وقتٍ واحدٍ؛ لكنّ الشفقة الكبيرة الّتي أوحت لي بها المعاناة الّتي كان يبدو أنّه هو نفسه يشعر بها منعتني من أن أهرب ممّا لم يكن في البدء سوى بترٍ وتعذيبٍ... (في اليوم التالي)، ما لم يكن عندئذٍ بالنسبة لي سوى تجربةٍ مؤلمةٍ تكرّر وسط تأوّهاتي وصرخات الألم الفائقة. شعرت أنّي كالعاجزة.

بعد ذلك عرفت مع هذا العشيق في البدء، ثم مع غيره، فراديس تصفها بشعرٍ غنائيٍّ.

مع ذلك، في التجربة الحقيقيّة كما في التخيّل المهبلي حديثًا، لم يكن الألم هو الّذي

84- «حياتي».

يلعب الدور الأكبر: لعمليّة الاختراق أهمّيّةٌ أكبر. لا يستخدم الرجل في الإيلاج سوى عضوٍ خارجيٍّ: أمّا المرأة فتُصاب حتّى داخلها. دون شكٍّ، هناك العديد من الشبّاب الّذين لا يغامرون دون قلقٍ في غياهب المرأة السرّيّة؛ إنّهم يجدون مخاوفهم الطفوليّة الّتي شعروا بها على عتبات المغارات، وعند القبور، خوفهم كذلك أمام أشداق الحيوانات، والمناجل، وشراك الذئاب: يتخيّلون أنّ قضيبهم المنتفخ سيظلّ عالقًا في غمد المخاطيّات، ليس لدى المرأة فور الاختراق هذا الشعور بالخطر؛ لكنّها بالمقابل تشعر جسديًّا بالاستلاب. يؤكّد المالك حقوقه في أراضيه، وربّة المنزل في بيتها، معلنةً «ممنوع الدخول»؛ وبصورةٍ خاصّةٍ، بما أنّ النساء مكبوتاتٌ في تساميهنّ، فهنّ يدافعن عن حميميّتهنّ بشدّةٍ: غرفتهنّ وخزانتهنّ وصناديقهنّ مقدّسةٌ. تروي **كوليت** أنّ مومسًا عجوزًا قالت لها ذات يومٍ: «لم يدخل أيّ رجلٍ غرفتي أبدًا يا سيّدتي، باريس كبيرةٌ بالقدر الّذي يتّسع لما أفعله مع الرجال». ما عدا جسدها، تملك على الأقلّ جزءًا صغيرًا من الأرض ممنوعًا على الغير. وبالعكس، لا تملك الشابّة شيئًا خاصًّا سوى جسدها: إنّه كنزها الأغلى؛ الرجل الّذي سيدخله سيأخذه منها؛ وتؤكّد التجربة الحياتيّة هذه الكلمة الشعبيّة. الخزي الّذي كانت تشعر به أصبحت تحسّه الآن بشكلٍ ملموسٍ: إنّها مغلوبةٌ، خاضعةٌ، مقهورةٌ. ومثل جميع الإناث تقريبًا، هي أثناء الإيلاج «تحت» الرجل[85]. ألحّ آدلر كثيرًا على شعور الدونيّة الناجم عن ذلك. منذ الطفولة، مفاهيم الأعلى والأدنى شديدة الأهمّيّة؛ تسلّق الأشجار عملٌ عظيمٌ، السماء أعلى من الأرض، والجحيم أسفلها؛ السقوط والهبوط هو انحطاطٌ والصعود هو اندفاعٌ؛ وفي المصارعة ينتصر ذاك الّذي يجعل كتفي خصمه تمسّان الأرض؛ غير أنّ المرأة مستلقيةٌ على السرير بوضعيّة المنهزم؛ والأسوأ أيضًا أن يركبها الرجل كحيوانٍ مدجّنٍ بعنانٍ وشكيمةٍ. على كلّ حالٍ تشعر أنّها سلبيّةٌ: هي مُداعَبةٌ، مختَرَقةٌ، تخضع للإيلاج بينما الرجل يبذل جهدًا فعّالًا. لا شكّ أنّ العضو الذكريّ ليس عضلةً مخطّطةً تخضع للإرادة؛ إنّه ليس سكّة محراثٍ ولا سيفًا لكنّه من الّلحم فقط؛ مع ذلك، يحرّكه الرجل بشكلٍ إراديٍّ؛ يذهب ويجيء، ويتوقّف، ويعاود الكرّة بينما تتلقّاه المرأة طائعةً؛ الرّجل ـ خصوصًا عندما تكون المرأة ناقصة خبرةٍ ـ هو من يختار الوضعيّات الغراميّة، ويقرّر مدّة الإيلاج وتواتره. فتشعر أنّها أداةٌ: كلّ الحريّة لدى الآخر. هذا ما يعبّر

85- لا شكّ أنّه يمكن قلب الوضعيّة. ولكن خلال التجارب الأولى، يندر للغاية ألّا يمارس الرجل الإيلاج المدعو بالطبيعيّ.

عنه شاعريًا عندما يقال إنّ المرأة كمانٌ والرجل القوس الّذي يجعلها تنفعل. يقول بلزاك[86]: «في الحبّ، المرأة كالقيثارة الّتي لا تعطي سرّها إلّا لمن يعرف العزف عليها». إنّه «يأخذ» متعته معها، و«يعطيها» المتعة؛ حتّى التعابير لا تفرض التبادليّة. تغترّ المرأة بالتصوّرات البيانات الجماعيّة الّتي تعطي النزو الذكوريّ صفة العظمة، والّتي تجعل من الاضطراب الأنثويّ تنازلًا مخجلًا؛ تجربتها الحميمة تؤكّد عدم التناظر هذا. يجب ألّا ننسى أنّ المراهق والمراهقة يشعران بجسديهما بطريقةٍ مختلفةٍ جدًّا: الأوّل يحمل مسؤوليّته بهدوءٍ ويطلب منه رغباته بفخرٍ؛ وهو بالنسبة للثانية، رغم نرجسيّتها، عبءٌ غريبٌ ومقلقٌ.

عضو الرجل نظيفٌ وبسيطٌ كالإصبع؛ يعرض نفسه ببراءةٍ، وغالبًا يظهره الصبيان لرفاقهم بفخرٍ وتحدٍّ؛ العضو الانثويّ غامضٌ بالنسبة للمرأة نفسها، مخبّأٌ، معذَّبٌ، مخاطيٌّ، رطبٌ؛ إنّه ينزف كلّ شهرٍ، وأحيانًا يتّسخ بالمفرزات، لديه حياةٌ سرّيّةٌ وخطيرةٌ. ولأنّ المرأة لا تتعرف على نفسها فيه فهي لا تتعرف على رغباته كرغباتها الخاصّة. تتجلّى هذه الرغبات بطريقةٍ مخجلةٍ. بينما الرجل «ينتعظ، المرأة «تبلّل»؛ في هذا التعبير حتّى ذكرياتٌ طفوليّةٌ لسريرٍ مبلّلٍ، لاستسلامٍ مُدانٍ وغير إراديٍّ للتبوّل؛ لدى الرجل نفس الاشمئزاز تجاه تلوّثاتٍ ليليّةٍ لا إراديّةٍ؛ إطلاق سائلٍ، البول أو المنيّ، لا يُخجِلُ: فتلك عمليّةٌ فاعلةٌ؛ لكنّ هناك إذلالًا إن أفلت السائل بصورةٍ سلبيّةٍ لأنّ الجسد لم يعد عندها عضويّةً، عضلاتٍ، مُعَصّراتٍ، أعصابًا، يتحكّم بها المخّ وتُعبّر عن ذاتٍ واعيةٍ لكنّه إناءٌ، مُستقبِلٌ مصنوعٌ من مادّةٍ خامدةٍ ولعبة نزعاتٍ آليّةٍ. إذا رشح الجسد ـ كما يرشح جدارٌ قديمٌ أو جثّةٌ ـ لا يبدو أنّه يطلق سائلًا ولكن يبدو أنّه ينهار: إنّها عمليّة تحلّلٍ مرعبةٌ. النزو الأنثويّ اختلاج صَدفةٍ رخوٌ؛ بينما لدى الرجل اندفاعٌ، ليس لدى المرأة سوى التلهّف؛ قد يصبح انتظارها متأجّجًا دون أن تكفّ عن أن تكون سلبيّةً؛ ينقضّ الرجل على فريسته كما يفعل النسر والحدأة؛ وتترقّب هي كالنبتة آكلة اللّحم، كالمستنقع الّذي تغوص فيه الحشرات والأطفال؛ هي امتصاصٌ، محجمٌ، راشفةٌ، هي قارٌ وصمغٌ، نداءٌ ساكنٌ، ملمّحٌ ولزجٌ: على الأقلّ هكذا تشعر بنفسها صامتةً.

86- فزيولوجيّة الزواج. في «كتاب الحبّ التجريبي»، يقول جول غيّو Jules Guyot أيضًا عن الزوج: «إنّه الشاعر المغنّي الّذي يصنع الانسجام أو النشاز بيده وقوسه. المرأة من وجهة النظر هذه هي فعلًا الأداة متعدّدة الأوتار الّتي تُصدِر أصواتًا منسجمةً أو متنافرةً حسبما تكون مضبوطةً جيّدًا أم لا».

ولهذا ليست لديها فقط مقاومةٌ للذكر الّذي يطمح إلى إخضاعها، ولكن لديها أيضًا صراعٌ داخليٌّ. يضاف إلى المحرّمات النواهي الآتية من تربيتها ومن المجتمع اشمئزازٌ ورفضٌ ناجمان عن التجربة الشهوانيّة نفسها: تقوّي هذه الأشياء بعضها بعضًا بحيث تكون المرأة غالبًا بعد أوّل إيلاجٍ أكثر ثورةً من ذي قبل على قدرها الجنسيّ.

أخيرًا، هناك عاملٌ آخر يمنح الرجل غالبًا وجهًا عدائيًّا ويحوّل العمل الجنسيّ إلى خطرٍ داهمٍ: هو تهديد الطفل. فطفلٌ غير شرعيٍّ هو في معظم الحضارات إعاقةٌ اجتماعيّةٌ واقتصاديّةٌ بالنسبة للمرأة غيرالمتزوّجة بحيث نرى شابّاتٍ ينتحرن عندما يعرفن أنّهن حوامل، وفتياتٍ ـ أمّهاتٍ يذبحن الوليد؛ يشكّل مثل هذا الخطر كابحًا جنسيًّا قويًّا بحيث أنّ كثيرًا من الشابّات يلزمن العفّة قبل الزواج كما تتطلّب الأعراف. عندما يكون الكابح غير كافٍ، تكون الفتاة وهي تستسلم للعشيق مرعوبةً من الخطر الفظيع الّذي يضعه في بطنها. ويذكر ستيكل، فيما يذكر، شابّةً كانت تصرخ خلال كلّ فترة الإيلاج قائلةً: «المهمّ ألّا يحدث شيءٌ! المهمّ ألّا يحدث شيءٌ!». حتّى في الزواج، لا تريد المرأة غالبًا أطفالًا، فصحّتها لا تساعدها، أو أنّه سيمثّل بالنسبة للعائلة الحديثة عبءًا ثقيلًا للغاية. فليست لديها في شريكها ثقةٌ مطلقةٌ، سواءٌ كان عشيقًا أم زوجًا، وسيشلّ الحذر شهوانيّتها. أو أنّها ستراقب بقلقٍ سلوك الرجل، أو أنّ عليها فور انتهاء الإيلاج أن تهرع إلى الحمّام لتطرد من بطنها البذرة الحيّة الّتي وُضِعت فيها رغمًا عنها؛ عملية النظافة هذه تناقض بقسوةٍ سحر المداعبات الحسّي، وتُجري تفريقًا جازمًا للجسدين اللّذين كانت تمزجهما بهجةٌ واحدةٌ؛ عندئذٍ يبدو المنيّ الذكريّ كجرثومةٍ مؤذيةٍ، كتلويثٍ؛ فتنظّف نفسها كما ينظّفون إناءً قذرًا، بينما يرتاح الرجل في سريره بكماله. روت لي شابّةٌ مطلّقةٌ رعبها بعد ليلة زفافٍ لم تستمتع خلالها كما يجب، كيف اضطرّت إلى حبس نفسها في الحمّام بينما كان زوجها يشعل لفافةً بلا اكتراثٍ: يبدو أنّ انهيار الزواج تقرّر منذ تلك اللّحظة. الاشمئزاز من الحقنة، والمرحضة، وحوض الاغتسال هي إحدى الأسباب الشائعة للبرود الأنثوي. وجود أساليب منع الحمل أكثر أمانًا وأكثر ملاءمةً يساعد كثيرًا في تحرّر المرأة جنسيًّا؛ في بلادٍ كأمريكا، حيث تشيع هذه الأساليب، عدد الشابّات اللّائي يبقين عذراواتٍ حتّى الزواج أقلّ بكثيرٍ منه في فرنسا؛ إنّها تسمح بمزيدٍ من العفويّة خلال ممارسة الجنس. لكن هناك

أيضًا على الفتاة قهر اشمئزازها قبل أن تعامل جسدها كشيءٍ: إنّها تقبل دون ارتعاشةٍ أن «يثقبها» رجلٌ، وترضى بأن تكون «مسدودةً» لترضي رغبات رجلٍ. أن تدع رحمها يُختَم، أن تُدخِل فيها ختمًا ما قاتلًا ذا نطافٍ، فالمرأة المدركة لتناقض الجسد والجنس تنزعج من تصميمٍ باردٍ: هناك أيضًا كثيرٌ من الرجال الّذين يشمئزّون من استعمال الواقي الذكريّ. مجمل السلوك الجنسيّ هو الّذي يسوّغ مختلف لحظاته: التصرّفات الّتي قد تبدو بالتحليل مثيرةً للاشمئزاز تبدو طبيعيّةً عندما تتجمّل الأجساد بالميزات الشهوانيّة الّتي تكتسيها؛ ولكن بالعكس، ما إن نحلّل الأجساد والسلوكيّات إلى عناصر متفرّقةٍ و خاليةٍ من المعنى، حتّى تصبح هذه العناصر داعرةً، فاحشةً. فالاختراق الّذي تشعر به عاشقةٌ ببهجةٍ كاتّحادٍ، انصهارٍ مع الرجل المحبوب، يصبح كعمليّةٍ جراحيّةٍ وقذرةٍ كما قد يراها الأطفال إذا تمّت خارج الانفعال والرغبة والمتعة: هذا ما يتمّ باستخدام الواقي الذكري المخطّط له مسبقًا. على كلّ حالٍ، هذه الاحتياطات ليست بمتناول جميع النساء؛ لا تعرف شابّاتٌ كثيراتٌ أيّ دفاعٍ ضد تهديد الحمل و يشعرن بطريقةٍ مقلقةٍ أن مصيرهنّ يتعلّق بالإرادة الحسنة للرجل الّذي يستسلمن له.

نفهم أنّ تجربةً يخضع لها من خلال هذا القدر من المقاومات، مكسوّةً بمعنىً ثقيلٍ بهذا القدر، تخلق غالبًا صدماتٍ رهيبةً. يحدث كثيرًا أن ينكشف جنونٌ مبكّرٌ كامنٌ بالتجربة الأولى. يعطي ستيكل عدة أمثلةٍ على ذلك:

> **الآنسة م. ج...، في التاسعة عشرة من عمرها، أصيبت فجأةً بهذيانٍ حادٍّ. رأيتها في غرفتها، تصرخ وتكرّر باستمرارٍ: «لا أريد! كلّا! لا أريد». كانت تمزّق ثيابها وتريد أن تركض عاريةً في الممرّ... اضطررنا لأخذها إلى مصحٍّ نفسيٍّ. هناك هدأ الهذيان وتحوّل إلى حالة همودٍ. كانت هذه الشابّة ضاربة آلةٍ كاتبةٍ واختزالٍ ومغرمةً بمؤسّس المؤسّسة الّتي تعمل بها. ذهبت إلى الريف مع صديقةٍ وزميلين. طلب منها أحدهما أن يمضي الّيل في غرفتها واعدًا إيّاها «أنّ الأمر سيكون مجرّد مزحةٍ». وداعبها ثلاث ليالٍ متتاليةٍ دون أن يؤذي عذريّتها... وبقيت «باردةً كخطم كلبٍ» وأعلنت أنّ ذلك كان فحشًا. خلال بضع دقائق، انفعلت على ما يبدو وصرخت: ألفرد، ألفرد! (اسم مؤسّس الدار). وندمت (ماذا ستقول أمّي لو عرفت؟). ولدى عودتها إلى منزلها، لزمت السرير تشكو من صداعٍ.**

كانت الآنسة ل. إكس...، شديدة الاكتئاب، تبكي غالبًا، ولا تأكل، ولا تنام؛ بدأت تشكو من أهلاسٍ ولم تعد تتعرّف على الأشخاص المحيطين بها. وقفزت من النافذة لتهرع إلى الشارع. أرسِلت إلى مصحٍّ. «وجدت هذه الشابّة ذات الثلاثة والعشرين سنةً جالسةً على سريرها؛ لم تلاحظ دخولي»... كان وجهها يعبّر عن القلق والرعب؛ وكانت يداها مرميّتين إلى الأمام كما لو أنّها تدافع عن نفسها، وكانت ساقاها متصالبتين وتتحرّكان باختلاجٍ. صاحت: «لا! لا! لا! أنت عنيفٌ! يجب إيقاف أشخاصٍ مثلك! هذا يؤلمني! آه!»، فيما بعد، كانت هناك كلماتٌ غير مفهومةٍ. وفجأةً تغيّر تعبيرها، والتمعت عيناها، وقدّمت فمها كما لو كانت تقبّل أحدًا وهدأت ساقاها وتباعدتا دون شعورٍ، وتلفّظت بكلماتٍ تعبّر بالأحرى عن الشهوة... انتهى الأمر في نوبة بكاءٍ صامتٍ مستمرٍّ... شدّت المريضة قميصها لتغطّي نفسها كما لو كان ثوبًا وراحت تكرّر: «لا!» وعرفنا أنّ زميلًا متزوّجًا كان قد زارها غالبًا بينما كانت مريضةً، وأنّها كانت سعيدةً بذلك في البدء، ولكن حدثت لديها أهلاسٌ بعدئذٍ وحاولت الانتحار. وشفيت، لكنّها لم تسمح بعد ذلك لأيّ رجلٍ بالاقتراب منها ورفضت طلبات زواجٍ جدّيّةً.

في حالاتٍ أخرى يكون المرض المُثار هكذا أقلّ خطورةً. ها هو مثالٌ يلعب فيه الندم على فقد العذريّة الدور الرئيس في الاضطرابات التالية للإيلاج الأوّل:

شابّةٌ في الثالثة والعشرين من عمرها تعاني من رُهاباتٍ مختلفةٍ. بدأ المرض في فرانزنسباد خوفًا من الوقوع حاملًا عبر قبلةٍ أو تماسٍّ في مراحيض... ربما ترك رجلٌ بعض المنيّ في الماء بعد استمناءٍ؛ كانت تطلب أن ينَظّف المغطس ثلاث مرّاتٍ بحضورها ولم تكن تجرؤ على التبرّز بالوضعيّة العاديّة. بعد بعض الوقت نما رُهاب تمزّق غشاء البكارة، لم تعد تجرؤ على الرقص، أو القفز، أو تجاوز حاجزٍ ولا حتّى المشي إلّا بخطواتٍ صغيرةٍ جدًّا؛ وإن لمحت وتدًا، كانت تخشى أن تزول بكارتها بحركةٍ خرقاء وتقوم بالتفافٍ كبيرٍ بعيدًا عنه وهي ترتعد. كان لديها رهابٌ آخر وهو أن يستطيع رجلٌ إدخال عضوه من الخلف، ويفضّ بكارتها ويجعلها تحمل عندما تكون في قطارٍ أو وسط الحشد... خلال الفترة الأخيرة للمرض، كانت تخشى أن تجد في سريرها أو على قميصها دبابيس يمكن أن تدخل في المهبل. كلّ مساءٍ كانت المريضة تبقى عاريةً وسط الغرفة بينما كانت أمّها المسكينة مرغمةً على القيام بتفحّصٍ منهكٍ للثياب الداخليّة... كانت تؤكّد دومًا حبّها لخطيبها. وكشف الفحص

أنّها لم تعد عذراء وأنّها كانت تؤجّل الزواج لأنّها كانت تخشى اكتشاف خطيبها لأمرٍ مشؤومٍ. واعترفت له أنّ مغني تينور قد أغواها، وتزوّجته وشفيَتْ[87].

في حالةٍ أخرى، يثير الندم ـ غير المُعاوَضُ بإشباعٍ حسّيٍّ ـ الاضطرابات النفسيّة:

الآنسة هـ.ب...، عشرون عامًا، ظهر لديها اكتئابٌ حادٌّ بعد رحلةٍ إلى إيطاليا مع صديقةٍ. رفضت أن تغادر غرفتها، ولم تنطق بكلمةٍ. اصطحبوها إلى مصحٍّ حيث تفاقمت حالتها. كانت تسمع أصواتًا تشتمها، الجميع يسخرون منها، إلخ... أعيدت إلى أهلها حيث بقيت في زاويةٍ دون حركةٍ. وسألت الطبيب: «لماذا لم آتي قبل أن تُرتَكبَ الجريمةُ؟» كانت ميتةً. كلّ شيءٍ كان مطفأً، مهدّمًا. كانت قذرةً. لم يعد بإمكانها أن تغنّي نغمةً واحدةً، كانت الجسور مقطوعةً مع العالم... اعترف الخطيب أنّه لاقاها في روما حيث منحته نفسها بعد مقاومةٍ طويلةٍ؛ وانتابتها نوبات بكاءٍ... واعترفت أنّها لم تشعر أبدًا بالمتعة مع خطيبها. وشُفيَت عندما وجدت عشيقًا أشبعها وتزوّجها.

«حسناء فيينا» الّتي لخّصتُ اعترافاتها الطفوليّة قدّمت أيضًا روايةً مفصّلةً ومؤثّرةً عن تجاربها الأولى كبالغةٍ. سنلاحظ أنّ «تدريبها» ـ رغم مغامراتها السابقة المتطوّرة جدًّا ـ بدا جديدًا حتمًا.

في سنّ السادسة عشرة والنصف دخلت إلى مكتبٍ. في السابعة عشرة والنصف حصلت على عطلتي الأولى؛ كانت فترةً جميلةً بالنسبة لي. كانوا يغازلونني من جميع الجهات... وكنت مغرمةً بزميلٍ شابٍّ من المكتب... ذهبنا إلى المنتزه. كان ذلك يوم 15 نيسان 1909. أجلسني بقربه على مقعدٍ. صار يقبّلني راجيًا: افتحي شفتيك؛ لكنّي كنت أطبقهما بتشنّجٍ. ثمّ بدأ يحلّ أزرار سترتي. كنت أودّ أن أسمح له بذلك عندما تذكّرت أنّه لم يكن لديّ نهدان؛ تخلّيت عن الشعور الشهواني الّذي كنت سأشعر به لو لمسني... يوم 7 نيسان دعاني زميلٌ متزوّجٌ للذهاب معه لرؤية معرضٍ. شربنا نبيذًا على العشاء. فقدتُ بعض تحفّظي وبدأت أروي بعض الطرف الملتبسة. رغم رجائي أشار إلى عربةٍ ودفع بي داخلها وما إن بدأت الجياد تسير حتّى قبّلني. ثم أصبح أكثر فأكثر جرأةً، يمدّ يده أكثر فأكثر؛ كنت أدافع عن نفسي بكلّ قواي ولم أعد أذكر إن كان

87- ستيكل، المرأة الباردة.

قد بلغ أربه. في اليوم التالي ذهبت إلى المكتب مرتبكةً كثيرًا. أراني يديه المغطّاتين بالخدوش الّتي أصبته بها... طلب منّي أن آتي لرؤيته أكثر... فاستسلمت، غير مرتاحةٍ تمامًا ولكن مع ذلك مليئةً بالفضول... ما إن كان يقترب من عضوي حتّى كنت أنتزع نفسي لأعود إلى مكاني؛ ولكن ذات مرّةٍ، كان أكثر دهاءً منّي، وانتصر عليّ ومن المحتمل أنّه أدخل إصبعه في مهبلي. بكيت من الألم. كان ذلك في شهر حزيران 1909 حين ذهبت في عطلةٍ. وقمت بجولةٍ مع صديقتي. أتى سائحان بغتةً. ودعوانا لمرافقتهما. أراد رفيقي أن يقبّل صديقتي، فلكمَتْه بقبضتها. أتى إليّ، وأمسكني من الخلف، وعطفني نحوه، وقبّلني. لم أقاوم... ودعاني لآتي معه. أعطيته يدي وهبطنا وسط الغابة. قبّلني... وقبّل عضوي رغم استنكاري الشديد. وقلت له: «كيف يمكنك القيام بمثل هذا الفعل الشنيع؟» ووضع قضيبه في يدي... فداعبته... وفجأةً، انتزع يدي ووضع فيها منديلًا كي يمنعني من رؤية ما كان يجري... بعد يومين ذهبنا معًا إلى ليزنغ. وفي حقلٍ معزولٍ خلع معطفه فجأةً ليضعه على العشب... وألقاني أرضًا بشكلٍ كانت معه إحدى ساقيه بين ساقيّ. لم أكن بعد أعتقد أنّ الموقف جدّيٌّ. رجوته أن يقتلني أفضل من أن يحرمني من «أعزّ ما لديّ». ثم أصبح فظًّا للغاية، وقال لي كلماتٍ بذيئةً وهدّدني بالشرطة. وضع يده على فمي وأدخل قضيبه. فظننت أنّ ساعتي قد دنت. وشعرت أنّ معدتي تنقلب. عندما فرغ أخيرًا، بدأت أجده مقبولًا. واضطرّ إلى إنهاضي لأنّي بقيت متمدّدةً. وغطّى عينيّ ووجهي بالقبلات. لم أكن أرى أو أسمع شيئًا. لو لم يسندني كنت لأسقط تحت العربات... كنا وحيدين في مقصورةٍ من الدرجة الثانية، وفتح بنطاله من جديدٍ ليأتي نحوي. أطلقت صرخةً وركضت عبر كلّ العربة حتى آخر سلّمٍ صغيرٍ... أخيرًا، تركني بضحكةٍ قاسيةٍ عاليةٍ لن أنساها أبدًا ناعتًا إيّاي بالأوزّة السخيفة الّتي لا تعرف ما هو لذيذٌ. وتركني أعود وحدي إلى فيينا. ولدى وصولي إلى فيينا ذهبت بسرعةٍ إلى المراحيض لأنّي شعرت بشيءٍ ساخنٍ يجري على طول فخذي. رأيت خائفةً آثار دمٍ. كيف أخفي هذا في بيتي؟ ذهبت بأسرع ما يمكن إلى السرير لأبكي ساعاتٍ. كنت ما زلت أشعر بالضغط الّذي سبّبه إدخال القضيب على معدتي. تصرّفي الغريب وقلّة شهيّتي نبّها أمّي إلى أنّ هناك أمرًا ما. واعترفت لها بكلّ شيءٍ. لم تجد في ذلك أمرًا فظيعًا... كان زميلي يفعل ما بوسعه ليواسيني. وانتهز فرصة الأمسيات المظلمة كي يتنزّه معي في المنتزه ويداعبني تحت تنّورتي. كنت أسمح له بذلك؛ فقط عندما كنت أشعر بمهبلي يصبح رطبًا كنت أنتزع نفسي لأنّي كنت أشعر بالخجل الفظيع».

كانت تذهب معه أحيانًا إلى فندقٍ ولكن دون أن تضاجعه. ثمّ تعرّفت إلى شابٍّ غنيٍّ جدًّا أرادت أن تتزوّجه. وضاجعته، ولكن باشمئزازٍ ودون أن تشعر بشيءٍ. وعادت إلى علاقاتها مع زميلها، لكنّها كانت تحنّ للآخر وبدأت تَحُوِل عينيها وتهزل. وأُرسِلت إلى مصحٍّ حيث كادت تضاجع شابًا روسيًا، لكنّها طردته من سريرها في اللّحظة الأخيرة. وباشرت علاقاتٍ مع طبيبٍ، ومع ضابطٍ ولكن دون قبول علاقاتٍ جنسيّةٍ كاملةٍ. عندئذٍ أصبحت مريضةً روحيًا وقرّرت أن تخضع للعلاج. بعد علاجها قبلت منح نفسها لرجلٍ كان يحبها وتزوّجها فيما بعد. واختفت برودتها بعد الزواج.

في هذه الأمثلة القليلة، الّتي اختيرت من بين العديدة المماثلة، فظاظة الشريك أو على الأقلّ مباغتة الحدث هي العامل الّذي يحدّد الصدمة أو الاشمئزاز. أفضل حالة تدريبٍ جنسيٍّ هي حين تتعلّم الشابّة ببطءٍ التغلّب على حيائها، وتعتاد على شريكها، وتحبّ مداعباته، دون عنفٍ ولا مفاجأةٍ ولا احتجازٍ ثابتٍ ولا مهلةٍ معيّنةٍ. بهذا المعنى، لا يمكن إلّا الموافقة على حرّيّة الأخلاق الّتي تتمتّع بها الشابّات الأمريكيّات والّتي تحاول الفرنسيّات اليوم اكتسابها: إنّهن ينزلقن دون أن ينتبهن لذلك تقريبًا من «الجسّ» neckin و«المداعبات» petting إلى علاقاتٍ جنسيّةٍ كاملةٍ. والتدريب سهلٌ بقدر ما يقلّ اتّخاذه صفة المحرّم، وبقدر ما تشعر الشابّة أنّها أكثر حرّيّةً تجاه شريكها، وبقدر ما تزول لديه صفة الذكر المسيطر؛ إذا كان العشيق شابًّا هو أيضًا، مبتدئًا، خجولًا، معادلًا، تكون مقاومة الشابّة أضعف؛ ولكنّ تحوّلها إلى امرأةٍ سيكون كذلك أقلّ عمقًا. وهكذا، في «القمح الفجّ» لـ**كوليت** تُبدي «**لا فينكا**» غداة فضّ بكارةٍ عنيفٍ هدوءًا يفاجئ رفيقها **فيل**: لأنّها لم تشعر أنّها «امتُلِكَت»، على العكس وضعت كبرياءها للتخلّص من عذريّتها، لم تشعر بضياعٍ مربكٍ؛ في الحقيقة، **فيل** مخطئٌ باندهاشه، فصديقته لم تعرف الذكر. كانت **كلودين** قد تغيّرت بعد جولة رقصٍ بين ذراعي رينو. ذُكِرت لي حالة طالبة ثانويّةٍ فرنسيّةٍ ما زالت في مرحلة «الفاكهة الفجّة»، بعد أن أمضت ليلةً مع رفيقٍ، هرعت في الصباح إلى صديقةٍ لتعلن لها: «نمت مع ك...، كان ذلك مسلّيًا للغاية». كان أستاذ ثانويّةٍ أمريكيٌّ يقول لي إنّ تلميذاته لم يعدن عذراواتٍ قبل أن يصبحن نساءً بكثيرٍ؛ شركاؤهنّ يحترموهنّ كثيرًا بحيث لا يخدشون حياءهنّ، وهم صغار السنّ للغاية وهم نفسهم يخجلون لدرجة أنّهم لا يوقظون لديهنّ أيّ شيطانٍ. هناك فتياتٌ

يرمين بأنفسهنّ في التجارب الشهوانيّة ويعدّدنها هروبًا من القلق الجنسيّ؛ يأملن أن يتحرّرن بذلك من فضولهنّ ومن هواجسهنّ؛ ولكن أعمالهنّ تحتفظ غالبًا بصفةٍ نظريّةٍ تجعلها غير حقيقيّةٍ كالتخيّلات الّتي تستبق أخرياتُ المستقبل عبرها. منح النفس تحدّيًا، أو قلقًا، أو بعقلانيّةٍ متزمّتةٍ، هو ليس تحقيق تجربةٍ شهوانيّةٍ أصليّةٍ: نبلغ بذلك فقط بديلًا غير خطرٍ ودون نكهةٍ كبيرةٍ؛ لا يترافق العمل الجنسيّ بقلقٍ ولا خجلٍ لأنّ الانفعال بقي سطحيًّا والمتعة لم تجتح الجسد. تبقى هاته العذارى اللّواتي فقدن بكارتهنّ شابّاتٍ؛ ومن المحتمل أنّهنّ يوم يواجهن رجلًا شهوانيًّا ومسيطرًا، سيقابلنه بمقاومة العذارى. بانتظار ذلك، يبقين في مرحلةٍ عمريّةٍ فتيّةٍ نوعًا؛ تدغدغهنّ المداعبات، وتضحكهنّ القبلات أحيانًا، وينظرن إلى الحبّ الجسديّ كلعبةٍ، وإن لم يكنّ في مزاجٍ يسمح لهنّ بالتسلّي به، سريعًا ما تبدو لهنّ مطالب العشيق لحوحةً وفظّةً؛ ويبقى لديهن اشمئزاز المراهِقةِ ومخاوفها وحياؤها. وإن لم يجتزن أبدًا هذه المرحلة ـ وهو حال كثيرٍ من الأمريكيّات بحسب قول الذكور الأمريكيين ـ يمضين حياتهنّ في حالة نصف برودٍ. لا يوجد نضجٌ جنسيٌّ حقيقيٌّ إلّا لدى المرأة الّتي توافق على أن تجعل من نفسها جسدًا ضمن الاضطراب والمتعة.

مع ذلك، يجب ألاّ نعتقد أنّ كلّ المصاعب تخفّ لدى النساء ذوات الطبيعة المتأجّجة. يحدث على العكس أن يفتظن. يمكن للاضطراب الأنثويّ أن يبلغ حدّةً لا يعرفها الرجل. رغبة الرجل قويّةٌ لكنّها موضَّعَةٌ، وتبقيه ـ إلّا ربّما في لحظة التشنّج ـ واعيًا لنفسه؛ بينما تخضع المرأة على العكس إلى استلابٍ حقيقيٍّ؛ وبالنسبة للكثيرين، هذا التحوّل هو أكثر لحظات الحبّ إثارةً وأكثرها حسمًا؛ لكنّه أيضًا ذو سمةٍ سحريّةٍ ومخيفةٍ. يحدث أن يشعر الرجل بالخوف أمام المرأة الّتي يمسكها بين ذراعيه، لشدّة ما تبدو غائبةً عن نفسها، نهبًا للضياع؛ الاضطراب الّذي تشعر به هو تحوّلٌ أكثر جذريّةً من الهيجان العدواني للذكر. هذه الحمّى تخلّصها من الخجل؛ ولكن لدى استيقاظها تُخجِلها بدورها وترعبها؛ ولكي تقبلها بسعادةٍ ـ أو حتّى بفخرٍ ـ يجب على الأقلّ أن تزدهر شعلةً وإثارةً؛ يمكنها أن تطالب برغباتها إن كانت قد أشبعتها بشكلٍ رائعٍ؛ وإلّا ترفضها غاضبةً.

نلمس هنا المشكلة الحاسمة للشهوانيّة الأنثويّة: في بداية حياة المرأة الشهوانيّة، لا تعاوض استسلامها المتعة العنيفة والأكيدة. كانت لتضحّي بطيب خاطرٍ بالحياء والكبرياء

لو فتحت لنفسها هكذا أبواب الفردوس. لكنّنا رأينا أن فضّ البكارة ليس إنجازًا سعيدًا للشهوانيّة الفتيّة؛ إنه على العكس ظاهرةٌ غريبةٌ؛ إذ لا تنطلق المتعة المهبليّة فورًا؛ بحسب إحصائيّات ستيكل ـ الّتي يؤكّدها العديد من علماء الجنس والمحلّلين النفسيين ـ بالكاد 4% من النساء يشعرن بالمتعة منذ الإيلاج الأوّل؛ و50% لا يبلغن المتعة المهبليّة قبل أسابيع، وأشهرٍ، أو حتّى سنواتٍ. تلعب العوامل النفسيّة هنا دورًا أساسيًّا. جسد المرأة «هيستيريٌّ» بشكلٍ خاصٍّ بمعنى أنّه لا توجد لديها غالبًا أيّة مسافةٍ بين الأفعال الواعية وتجلّيها العضويّ؛ تمنع هذه المقاومات الأخلاقيّة ظهور اللذّة؛ وتستمرّ غالبًا وتشكّل حاجزًا قويًّا أكثر فأكثر لأنّها غير معاوَضَةٍ بشيءٍ. في كثيرٍ من الحالات، تُخلَق دارةٌ معيبةٌ: رعونةٌ أولى من العشيق، كلمةٌ، حركةٌ خرقاء، ابتسامةٌ متعجرفةٌ، تنعكس خلال شهر العسل كلّه أو حتّى الحياة الزوجيّة؛ تحتفظ المرأة الشابّة من ذلك بضغينةٍ لا تؤهّلها لتجربةٍ أكثر سعادةً، وتصاب بالخيبة لأنّها لم تعرف المتعة فورًا. صحيحٌ أنّه في حال غياب الإشباع الطبيعيّ يمكن للرجل منحها المتعة البظريّة القادرة، رغم خرافاتٍ أخلاقيّة واعظةٍ، على منحها الاسترخاء والتهدئة. لكنّ كثيرًا من النساء يرفضن ذلك لأنّه يبدو «مفروضًا» أكثر من المتعة المهبليّة؛ لأنّه، إذا عانت المرأة من أنانيّة الرجال الّذين لا يفكّرون إلّا بإشباع أنفسهم، فيصدمها أيضًا منحها المتعة بشكلٍ مقصودٍ. يقول **ستيكل**: «منح المتعة للآخر يعني السيطرة عليه، ومنح النفس لشخصٍ يعني التنازل عن الإرادة». كانت المرأة لتقبل المتعة بسهولةٍ أكثر بكثيرٍ لو بدت لها آتيةً بشكلٍ طبيعيٍّ من متعة الرجل الّتي يحصل عليها بنفسه، كما يحدث ضمن إيلاجٍ طبيعيٍّ ناجحٍ. ويقول **ستيكل** أيضًا: «تخضع النساء ببهجةٍ ما إن يدركن أنّ الشريك لا يريد أن يخضعهنّ»؛ ولكن بالعكس إن شعرن بهذه الإرادة، سيتمرّدن. الكثيرات يرفضن أن يتركن الشريك يداعبهنّ بيده، لأنّ اليد هي أداةٌ لا تشارك في المتعة الّتي تمنحها، إنّها فعلٌ وليست جسدًا؛ وإذا لم يبدُ العضو نفسه كجسدٍ اجتاحته الرغبة، ولكن كأداةٍ مستخدَمةٍ ببراعةٍ، تشعر المرأة بنفس النفور. عدا عن ذلك ستبدو لها كلّ معاوضةٍ تأكيدًا لفشلها في معرفة أحاسيس امرأةٍ طبيعيّةٍ. ويقول **ستيكل** بعد ملاحظاتٍ عديدةٍ أنّ رغبة النساء اللّواتي يقال إنّهنّ بارداتٌ تسير نحو الطبيعيّ. «يردن أن يحصلن على النشوة كامرأةٍ طبيعيّةٍ، وأيّ إجراءٍ آخر لا يرضيهنّ معنويًّا».

لسلوك الرجل إذًا أهمّيّةً قصوى. إذا كانت رغبته عنيفةً وفظّةً، تشعر شريكته أنّها تتحوّل بين ذراعيه إلى شيءٍ بحتٍ؛ ولكن إن كان شديد التحكّم في نفسه، منفصلًا أكثر مما ينبغي، لن يكون كجسدٍ؛ إذ يطلب من المرأة أن تجعل من نفسها موضوعًا دون أن يكون لها بالمقابل أيّ تأثيرٍ عليه. في الحالتين يتمرّد كبرياؤها؛ لكي تستطيع أن توفّق بين تحوّلها إلى موضوعٍ جسديٍّ والمطالبة بذاتيّتها، يجب أن تجعل من الرجل أيضًا طريدتها، مع كونها جعلت من نفسها طريدةً له. ولهذا تتشبّث المرأة غالبًا بالبرود. إذا كان العشيق يفتقر إلى الإغراء، إن كان باردًا، مهملًا، أخرق، يفشل في إيقاظ شهوانيّتها، أو يتركها غير مشبَعةٍ؛ ولكن إن كان رجوليًّا وخبيرًا يمكنه أن يولد ردود فعلٍ رافضةً؛ تخشى المرأة سيطرته: ولا يستطيع بعضهنّ إيجاد المتعة إلّا مع رجالٍ خجولين، غير بارعين، أو حتّى نصف عاجزين ولا يخيفونهنّ. من السهل على الرجل إيقاظ الحرقة والحقد لدى عشيقته. الحقد هو الأصل الأكثر مصادفةً للبرودة الأنثويّة؛ ببرودٍ مهينٍ تجعل المرأة الرجل يدفع في السرير ثمن كلّ الإهانات الّتي تعتقد أنّها تحمّلتها؛ هناك غالبًا في سلوكها مركّب نقصٍ عدوانيٌّ: بما أنّك لا تحبّني، بما أنّ لديّ عيوبًا تمنعني من أن أُعجِب وأنّي مُحتقَرةٌ، لن أستسلم كذلك للحبّ، والرغبة، والمتعة. وهكذا تنتقم منه ومن نفسها معًا إن أهانها بإهماله، إن أثار غيرتها، إن تأخّر في إعلان حبّه، إن جعل منها عشيقته بينما هي تتمنى الزواج؛ يمكن أن يظهر الأذى فجأةً ويثير ردّ الفعل هذا حتّى أثناء علاقةٍ كانت بدايتها سعيدةً. من النادر أن ينجح الرجل في التغلّب على عدائيّةٍ كان هو من أثارها: يمكن أن يحدث مع ذلك أن يغيّر الوضعَ تعبيرٌ مقنعٌ عن الحبّ أو الاحترام. رأينا نساءً حذراتٍ ومتصلّباتٍ بين ذراعي عشيقٍ يبدّلهن خاتمُ خطبةٍ في إصبعهنّ: فيصبحن سعيداتٍ مغترّاتٍ مرتاحات الضمير، وتنهار كلّ مقاوماتهنّ. لكنّ قادمًا جديدًا محترمًا مغرمًا رقيقًا يستطيع أفضل من غيره أن يغيّر المرأة المغتاظة إلى عشيقةٍ أو زوجةٍ سعيدةٍ؛ ستمنحه نفسها بحرارةٍ إن خلّصها من مركّب النقص لديها.

يهتمّ كتاب ستيكل «المرأة الباردة» بشكلٍ رئيسيٍّ بإظهار دور العوامل النفسيّة في البرود الأنثويّ. تُظهر الأمثلة التالية جيّدًا أنّه كثيرًا ما يكون سلوك حقدٍ تجاه الزوج أو العشيق:

الآنسة ج.س... منحت نفسها لرجلٍ بانتظار أن يتزوجها، ولكنّها كانت تلحّ على «أنّها لا ترغب في الزواج، وأنها لا تريد أن ترتبط». مثّلت دور المرأة المتحرّرة. في

الحقيقة، كانت عبدة الأخلاق ككلّ أسرتها. لكن عشيقها كان يصدّقها ولم يتحدّث أبدًا عن الزواج. وازداد عنادها أكثر فأكثر إلى أن أصبحت عديمة الإحساس. عندما طلب الزواج منها أخيرًا، انتقمت بأن اعترفت له بتبلّد إحساسها وعدم رغبتها بالارتباط البتة. لم تعد تريد أن تكون سعيدةً. لقد انتظرت طويلًا... كانت الغيرة تنهشها وتنتظر بقلقٍ اليوم الّذي سيطلبها فيه لترفضه بكبرياءٍ. فيما بعد، أرادت الانتحار فقط لتعاقب عشيقها بأسلوبٍ رفيعٍ.

كانت إحدى النساء تشعر بالمتعة مع زوجها حتّى ذلك الحين، ولكنّها تغار بشدّةٍ، تخيّلت أثناء مرضٍ ألمّ بها أنّ زوجها يخونها. ولدى عودتها إلى بيتها قرّرت أن تظلّ باردةً معه. لا يجب أن تدعه يثيرها بما أنّه لم يكن يحترمها ولا يستخدمها إلّا عند حاجته. أصبحت باردةً منذ عودتها. في البداية كانت تلجأ إلى حيلٍ صغيرةٍ كيلا تُثار. كانت تتخيّل زوجا يغازل صديقته. وسريعًا ما حلّت الآلام محلّ الرعشة...

شابّةٌ في السابعة عشرة من عمرها كانت لديها علاقةٌ مع رجلٍ تجد فيها متعةً كبيرةً. وعندما حملت في التاسعة عشرة من عمرها طلبت من عشيقها أن يتزوجها؛ تردّد ونصحها أن تجهض، ورفضت. بعد ثلاثة أسابيع، أعلن أنّه مستعدٌّ للزواج منها وأصبحت زوجته. لكنّها لم تغفر له أبدًا هذه الأسابيع الثلاثة من القلق وأصبحت باردةً. فيما بعد، تغلّبت على برودها بعد حوارٍ صريحٍ مع زوجها.

علمت السيّدة ن.م... أنّ زوجها ذهب إلى عشيقةٍ سابقةٍ بعد يومين من زواجهما. فغابت نهائيًّا الرعشة الّتي كانت تحسّ بها قبلًا. ظلّت لديها فكرةٌ ثابتةٌ أنّها لم تعد تروق لزوجها الّذي ظنّت أنّه أصيب بخيبةٍ؛ وتعتقد أنّ ذلك سبب برودها.

حتّى عندما تتغلّب المرأة على مقاوماتها وتعرف المتعة المهبليّة بعد مدّةٍ قد تطول أو تقصر، لا تزول كلّ الصعوبات: لأنّ إيقاع الجنس لديها ولدى الذكر لا يتناغمان. فهي أبطأ من الرجل بكثيرٍ في بلوغ الرعشة.

يقول تقرير كينزي:

إنّ ثلاثة أرباع جميع الذكور تقريبًا يعرفون الرعشة خلال الدقيقتين التاليتين لبدء العلاقة الجنسيّة. إذا حسبنا النساء العديدات من السويّة العالية اللّواتي لا

تساعد حالتهنّ الأوضاع الجنسيّة أبدًا بحيث يحتجن من عشر إلى خمس عشرة دقيقةَ من الإثارة الفعّالة كي يبلغن الرعشة، وإذا حسبنا العدد الكبير للنساء اللّواتي لا يعرفن الرعشة البتّة خلال حياتهنّ، يجب بالطبع على الرجل أن يكون متعاونًا بشكلٍ استثنائيٍّ لإطالة الفعالية الجنسيّة دون أن يقذف ليخلق انسجامًا مع شريكته.

يبدو أنّ الزوج في الهند، وهو يقوم بواجباته الزوجيّة، يدخّن الغليون عن طيب خاطرٍ ليتلهّى عن متعته هو ويطيل متعة زوجته؛ في الغرب، يتباهى **كازانوفا** بعدد «ضرباته»، ويتفاخر بأنّ شريكته تصرخ طالبةً الرحمة؛ طبقًا للتقاليد الشهوانيّة، هذا إنجازٌ لا يُنجَح بتحقيقه كثيرًا؛ يشكو الرجال من متطلّبات شريكاتهم الفظيعة: إنها رحمٌ هائجٌ، غولةٌ، جائعةٌ؛ لا ترتوي أبدًا. يعرض **مونتينيه** Montaigne وجهة النظر هذه في الكتاب الثالث من دراساته (الفصل الخامس).

إنّهنّ دون مقارنةٍ أقدر منّا وأكثر تأجّجًا في تأثيرات الحبّ وشهد بذلك هذا الراهب القديم الّذي كان حينًا رجلًا وحينًا امرأةً... عدا عن ذلك علمنا من أفواههنّ الدليل الّذي قدّمه على هذا على مرّ العصور امبراطور وامبراطورة روما، السادة والعمّال والمشهورون في هذا الشأن (هو فضّ بكارة عشر أسيراتٍ عذارى في ليلةٍ واحدةٍ ؛ لكنّها ضاجعت في ليلةٍ واحدةٍ فعلًا خمسةً وعشرين رجلًا، مغيّرةً شريكها حسب حاجتها ورغبتها،

Adhuc ardens rigidoe tentigine vulvoe
Et lassata viris, necdum satiate recessit[88]

لأنّ الشهوة في الحقيقة ليس لها لدى المرأة نفس شكلها لدى الرجل. قلت سابقًا إنّنا لا نعرف تمامًا إن كانت المتعة المهبليّة تودي إلى نشوةٍ معيّنةٍ: حول هذه النقطة الاعترافات النسائيّة نادرةٌ وحتّى عندما تتوخّى الدقّة تبقى غامضةً للغاية؛ يبدو أن ردود الفعل مختلفةٌ جدًّا حسب الأشخاص. ما هو مؤكّدٌ هو أنّ للإيلاج بالنسبة للرجل غايةً بيولوجيّةً محدّدةً: القذف؛ ويسعى إلى هذه الغاية بالتأكيد عبر عدة مقاصد أخرى أخرى كثيرة التعقيد؛ ولكن ما إن تُبلَغ حتّى تبدو نتيجةً، وإن لم تكن إشباعًا للرغبة، فعلى الأقلّ إلغاءً لها. وعلى العكس هدف المرأة هو في البداية غير مؤكّدٍ وذو طبيعةٍ نفسيّةٍ أكثر منها فزيولوجيّة؛ تريد الانفعال

88- جوفنال Juvenal.

والشبق عمومًا لكنّ جسدها لا يعرض أيّة خلاصةٍ واضحةٍ لفعل الحبّ: ولهذا فالإيلاج بالنسبة لها لا ينتهي تمامًا أبدًا: لا يتضمّن أيّة خاتمةٍ. تصعد المتعة الذكريّة كالسهم؛ وعندما يبلغ عتبةً معيّنةً يكتمل ويموت فجأةً في الرعشة؛ تركيب الفعل الجنسيّ منتهٍ وغير مستمرٌ. بينما تنتشر المتعة الأنثويّة في الجسم بكامله؛ وهي ليست دائمًا مركّزةً على الجهاز التناسليّ؛ حتّى التقلّصات المهبليّة أكثر من رعشةٍ حقيقيّةٍ تشكّل جملة تموّجاتٍ تولد وتتلاشى وتتشكّل من جديد وتبلغ أحيانًا الذروة، ثمّ تختلط وتذوب دون أن تموت تمامًا. وباعتبار أنّ ليس لها نهايةً محدّدةً فالمتعة تطمح إلى اللانهاية: غالبًا ما يكون التعب العصبيّ أو القلبي أو إشباعٌ نفسيٌّ هي ما تحدّ الإمكانيّات الشهوانيّة للمرأة أكثر من إشباعٍ محدّدٍ؛ حتّى وهي مشبعةٌ وحتّى منهكةً فهي لا تتحرّر تمامًا أبدًا، طبقًا لقول جوفنال:

«مُتعَبةٌ ولكن غير راضيةٍ بعدُ».

يرتكب الرجل غلطةً كبيرةً عندما يريد أن يفرض على شريكته إيقاعه الخاصّ ويجهد لمنحها الرعشة: غالبًا لا ينجح إلا في تهشيم الشكل الشهواني الّذي كانت تعيشه على طريقتها الخاصّة[89]. إنّه شكل مطواعٌ للغاية كي تمنح نفسها نهايةً: بعض التقلّصات الموضّعة في المهبل أو في مجمل الجهاز التناسليّ أو المنبعثة من الجسد بكامله قد تشكّل حلًّا؛ لدى بعض النساء، تحدث بانتظام وبعنفٍ يكفي لتشبيهها بالرعشة؛ لكن يمكن لعاشقةٍ أن تجد أيضًا في الرعشة الذكريّة حلًّا يهدئها ويرضيها. ويمكن أيضًا أن يتلاشى الشكل الشهوانيّ بهدوءٍ، بطريقةٍ مستمرّةٍ، دون صدمةٍ. النجاح لا يفرض كما يعتقد العديد من الرجال شديدي التدقيق والمبسّطين توافقًا زمنيًّا حسابيًّا للمتعة ولكن إقامة شكلٍ شهوانيٍّ معقّدٍ. يتخيّل الكثيرون أن «إمتاع» امرأةٍ هو مسألة وقتٍ وتقنيّةٍ، وبالتالي عنفٍ؛ ويجهلون إلى أيّة درجةٍ يكون الجنس لدى المرأة مشروطًا بالوضع بمجمله. لقد قلنا إنّ الشهوة لديها هي نوعٌ من الافتتان؛ تتطلب استسلامًا تامًّا؛ إذا عارضت كلماتٌ أو حركاتٌ سحر المداعبات، يتبدّد الافتتان. وهذا أحد الأسباب الّتي تغمض المرأة عينيها من أجلها: فيزيولوجيًّا، هناك

89- رأى لورنس Lawrence تعارض هذين الشكلين الشهوانيين. لكنّنا نتعسّف إذ نعلن كما يفعل أن المرأة يجب ألّا تعرف الرعشة. إن كان من الخطأ محاولة إثارتها بأيّ ثمنٍ، فمن الخطأ أيضًا رفضها في كلّ حالٍ كما فعل سيبريانو في «الأفعى ذات الريش».

منعكسٌ مخصّصٌ لمعاوضة استرخاء لحدقة؛ ولكن حتّى في الظلّ تخفض جفنيها أيضًا؛ تريد أن تزيل كلّ ما حولها، أن تزيل خصوصيّة اللّحظة، وخصوصيّتها وخصوصيّة عشيقها، تريد أن تضيع وسط ليلةٍ شهوانيّةٍ مبهمةٍ كثدي الأم. وعلى الأخصّ تتمنى إلغاء هذا التمييز الّذي يضع الذكر أمامها، وتتمنى أن تذوب معه. قلنا قبلًا إنّها تتمنى إذ تجعل من نفسها موضوعًا أن تبقى ذاتًا. ولكونها أكثر استلابًا بداخلها من الرجل، وبما أنّها رغبةٌ واضطرابٌ في جسدها بكامله، فهي لا تبقى ذاتًا إلّا بالاتّحاد مع شريكها؛ يجب أن يختلط الأخذ بالعطاء لدى الاثنين؛ إذا أصرّ الرجل على الأخذ دون أن يعطي أو إن كان يعطي المتعة دون أن يأخذها ستشعر أنّها مسيّرةٌ؛ وما إن تتحقّق كآخر، حتّى تصبح الآخر غير الأساسيّ: وعليها إنكار الغيريّة. ولهذا فلحظة انفصال الجسدين صعبةٌ بالنسبة لها دائمًا تقريبًا. في جميع الأحوال ينكرالرجل الجسد بعد الإيلاج، سواءً شعر أنّه حزينٌ أو مبتهجٌ، خدعته الطبيعة أو انتصر على المرأة؛ يعود جسدًا مستقلّاً، يريد أن ينام، ويستحمّ، ويدخّن لفافةً، ويخرج إلى الهواء الطلق. وتريد هي إطالة التماس الجسديّ حتّى يتلاشى تمامًا الافتتان الّذي جعلها جسدًا؛ الافتراق هو اقتلاعٌ مؤلمٌ كفطامٍ جديدٍ؛ تحقد على العشيق الّذي يبتعد عنها فجأةً. لكنّ ما يجرحها أكثر، هي الكلمات الّتي تعاكس الانصهار الّذي صدّقت وجوده لبرهةٍ. «زوجة جيل»، الّتي روت حكايتها مادلين بوردوكس Madeleine Bourdouxhe، تتشنّج عندما يسألها زوجها: «هل استمتعتِ جيّدًا؟» وتضع يدها على فمه؛ الكلمة تفزع كثيرًا من النساء لأنّها تختزل المتعة إلى شعورٍ متأصّلٍ ومنفصلٍ. «هل هذا يكفي؟ أتريدين منه بعدُ؟ أكان جيّدًا؟» مجرّد طرح السؤال يُظهِر الانفصال، ويبدّل فعل الحب إلى عمليّةٍ آليّةٍ قام الذكر بإدارتها. ولهذا يطرح السؤال. إنّه يبحث عن السيطرة أكثر بكثيرٍ من الانصهار والتبادل؛ عندما تتفكّك وحدة الاثنين، يصبح هو الذات الوحيدة: يلزم كثيرٌ من الحبّ أو الكرم ليتخلّى المرء عن هذا الامتياز؛ يحبّ أن تشعر المرأة أنّها مهانةٌ، ممتلكةٌ رغمًا عنها؛ وهو يريد دومًا أن يأخذها أكثر بقليلٍ ممّا تمنح نفسها. يمكن للمرأة تجاوز كثيرٍ من الصعوبات إن كان الرجل لا يجرّ وراءه الكثير من العقد الّتي تجعله يرى عمليّة الحب صراعًا: عندها يمكنها ألّا ترى السرير حلبةً.

مع ذلك، نلاحظ لدى الشابّة بالإضافة إلى النرجسيّة والكبرياء، رغبةً بأن يُسَيطَر

عليها. المازوشيّة هي إحدى خصائص المرأة طبقًا لبعض المحلّلين النفسيين، وبفضل هذا الميل تستطيع التأقلم مع مصيرها الشهوانيّ. لكنّ مفهوم المازوشيّة غائمٌ جدًّا ويجب علينا رؤيته عن كثبٍ.

يميّز المحلّلون النفسيّون بحسب فرويد بين ثلاثة أشكالٍ للمازوشيّة: أحدها يتشكّل ضمن علاقة الألم بالشهوة، وآخر هو قبول الأنثى للتبعيّة الشهوانيّة، و يستند الأخير إلى آليّة عقابٍ ذاتيٍّ. والمرأة مازوشيّةٌ لأنّ المتعة والألم لديها مرتبطان عبر فضّ البكارة والولادة، ولأنّها تقبل دورها السلبيّ.

يجب أولًا أن نلاحظ أنّ إعطاء قيمةٍ شهوانيّةٍ للألم لا يشكّل أبدًا سلوك خضوعٍ سلبيٍّ. يفيد الألم غالبًا في رفع حيويّة الفرد الّذي يتحمّله، وإيقاظ حساسيّةٍ خدّرها عنف الاضطراب والمتعة نفسه؛ إنّه نورٌ حادٌّ ساطعٌ في ليل الجسد، يرفع العاشق من الغياهب الّتي كان يغطّ فيها لكي يستطيع أن يُرمى فيها من جديدٍ. الألم عادةً جزءٌ من الهيجان الشهوانيّ؛ أجسادٌ مفتونةٌ لكونها أجسادًا تحاول من أجل متعتها المتبادلة أن تجد بعضها، وتتّحد، وتتواجه بكلّ الطرق الممكنة. في الشهوانيّة اقتلاعٌ من النفس، انتقالٌ، نشوةٌ: يحطّم الألم أيضًا حدود الأنا، هو تجاوزٌ وذروةٌ ؛ طالما لعب الألم دورًا كبيرًا في العربدة؛ ونعرف أنّ اللّذة والألم يتلامسان: قد تصبح المداعبة تعذيبًا، وقد يعطي التعذيب متعةً. يؤدّي العناق بسهولةٍ إلى العضّ والقرص والخدش؛ وهذه التصرّفات ليست ساديّةً عمومًا؛ إنّها تعبّر عن رغبةٍ بالانصهار، وليس بالتخريب؛ والذات الّتي تخضع لها لا تحاول كذلك إنكار نفسها وإذلالها ولكن تبحث عن الاتّحاد؛ في الأصل هي ليست ذكوريّةً بشكلٍ خاصٍّ بل على العكس. في الواقع، ليس للألم معنىً مازوشيٌّ إلّا في حالة أنه مُدرَكٌ ومرغوبٌ به كمظهرٍ لعبوديّةٍ. أمّا ألم فضّ البكارة، فهو لا يترافق تحديدًا بالمتعة؛ كلّ النساء يخشين آلام الولادة وهنّ سعيداتٌ لأنّ الطرق الحديثة تعفيهنّ منها. للألم مكانٌ في الجنس لديهنّ لا أكثر ولا أقلّ منه لدى الرجل.

من جهةٍ أخرى، الطاعة الأنثويّة مفهومٌ متناقضٌ للغاية. رأينا أنّ الشابّة تقبل معظم الوقت في خيالها سيطرة نصف إلهٍ، بطلٍ؛ لكنّ هذا ليس سوى لعبةٍ نرجسيّةٍ. ليست مستعدّةً

البتّة للخضوع في الواقع للتعبير الجسديّ لهذه السلطة. على العكس، غالبًا ترفض تسليم نفسها للرجل الّذي تُعجَب به وتحترمه، وتستسلم لرجلٍ دون امتيازٍ. من الخطأ البحث ضمن تخيّلاتٍ عن مفتاح السلوك المحسوس؛ لأنّ التخيّلات مبتدَعةٌ وتُؤخذ على أنّها تخيّلاتٌ. البُنَيّة الّتي تحلم بالاغتصاب مع مزيجٍ من الرعب والمسايرة لا ترغب في أن تُغتَصَب وإن حدث ذلك فسيكون كارثةً بغيضةً. رأينا قبلًا لدى **ماري لو هاردوين** Marie Le Hardouin مثالًا نموذجيًّا لهذا الفصل. إذ تكتب أيضًا:

ولكن على طريق الإلغاء، بقي هناك ميدانٌ لم أكن أدخله إلّا مطبقةً منخريّ وقلبي يخفق. كان ذاك الّذي يأخذني ما بعد الشهوانيّة الغراميّة إلى الشهوانيّة المحضة... لا يوجد شيءٌ مشينٌ مستترٌ لم أفعله بالحلم. كنت أعاني من الحاجة إلى تأكيدٍ ذاتي بكلّ الوسائل الممكنة[90].

يجب التذكير أيضًا بحالة **ماري باشكيرتسف**:

حاولت طيلة حياتي أن أضع نفسي بإرادتي تحت سيطرةٍ وهميّةٍ أيًا كانت، ولكن كلّ هؤلاء الأشخاص الّذين جرّبتهم كانوا عاديّين جدًّا بالمقارنة معي بحيث لم أشعر تجاههم سوى بالاشمئزاز.

من جهةٍ أخرى، صحيحٌ أنّ دور المرأة الجنسيّ سلبيٌّ في معظمه؛ ولكن أن تعيش مباشرةً هذا الوضع السلبيّ ليس أكثر مازوشيّةً من كون عدوانيّة الذكر العاديّة ساديّةً؛ تستطيع المرأة أن تُسمي المداعبات والاضطراب والاختراق نحو متعتها الخاصّة، مبقيةً بذلك تأكيد ذاتيّتها؛ يمكنها أيضًا أن تحاول الاتّحاد مع العشيق، وتمنحه نفسها، ما يعني تجاوز النفس وليس تنازلًا. تبدو المازوشيّة عندما يختار الفرد أن يجعل من نفسه محض شيئٍ عبر إدراك الغير، أن يمثّل لنفسه شيئًا، ويلعب دور الشيّ. «المازوشيّة هي محاولةٌ ليس لأفتن الآخر بموضوعيّتي ولكن لكي أفتن نفسي بموضوعيّتي بالنسبة للغير»[91]. **جولييت ساد** أو العذراء الشابّة في «الفلسفة في مقصورة السيّدات» الّلتان تستسلمان للذكر بكلّ الطرق الممكنة ولكن من أجل متعتهما الشخصيّة ليستا مازوشيّتين البتّة. في الاستسلام الكامل الّذي تقبله

90- الخمار الأسود.

91- جان بول سارتر J.P.Sartre، الوجود والعدم.

الّيدي تشاترلي أو «**كيت**» ليستا مازوشيّتين. ولكي يمكن الحديث عن المازوشيّة، يجب أن تكون الأنا جادّةً وأن يُعتَبر أنّ حرّيّة الغير أسّست هذه النسخة المُستَلَبة.

بهذا المعنى سنصادف بالواقع مازوشيّةً حقيقيّةً لدى بعض النساء. فالشابّة مؤهّلةٌ لذلك بما أنّها نرجسيّةٌ بطيب خاطرٍ وأنّ النرجسيّة تتألّف من الاستلاب ضمن أنا الفرد. إن كانت تشعر منذ بداية تدريبها الشهوانيّ باضطرابٍ ورغبةٍ عنيفةٍ، فستعيش تجاربها بشكلٍ صحيحٍ وتكفّ عن إسقاطها نحو هذا القطب المثالي الّذي تسميه أنا: ولكن في البرود، تستمر الأنا في الاتّضاح؛ عندئذٍ يبدو جعلُها شيئًا تابعًا لذكرٍ غلطةً. غير أنّ «المازوشيّة كالساديّة هي صعود الذّنْب. أنا مذنبٌ في الواقع لأنّي موضوعٌ». فكرة **سارتر** هذه تلتحق بمفهوم العقاب الذّاتي الفرويدي. تعتبر الشابّة نفسها مذنبةً لأنّها سلّمت أناها للغير وتعاقب نفسها لذلك بمضاعفة الإذلال والعبوديّة عن طيب خاطرٍ؛ رأينا أنّ العذارى كنّ يتحدّين عشاقهنّ المستقبليّين ويعاقبن أنفسهنّ لخضوعهنّ الآتي بأن يفرضن على أنفسهنّ مختلف أنواع التعذيب؛ عندما يكون العشيق حقيقيًّا وحاضرًا يبقين في هذا الوضع بعنادٍ. ظهر لنا البرود نفسه قبلًا كعقابٍ تفرضه المرأة على نفسها وعلى شريكها على حدٍّ سواء: لديها حقدٌ عليه وعلى نفسها وتحرم نفسها المتعة لأنّها مجروحةً في كرامتها. في المازوشيّة، تجعل من نفسها عبدةً طائعةً للذكر، وتقول له كلماتٍ عبادةٍ، وتتمنّى أن يذلّها، ويضربها؛ وتُستَلَبُ أعمق فأعمق غضبًا من موافقتها على الاستلاب. وهذا بجلاءٍ تصرّف **ماتيلد دولامول** مثلًا: تلوم نفسها لأنّها منحت نفسها **لجوليان**؛ ولهذا تجثو على قدميه أحيانًا، وتريد أن تنثني لكل نزواته، وتضحّي لأجله بشعرها؛ ولكنّها في الوقت نفسه ثائرةٌ ضدّه وضدّ نفسها بذات القدْر؛ وتبقى كالثلج بين ذراعيه. تظاهر المرأة المازوشيّة بالاستسلام يخلق حواجز جديدةً تمنعها من المتعة؛ وفي الوقت نفسه، تنتقم من نفسها لعجزها عن الإحساس بالمتعة. ويمكن أن تُغلَق إلى الأبد الدارة المعيبة بين البرود والمازوشيّة، مُسبِّبَةً عندئذٍ سلوكاتٍ ساديّةً على سبيل المعاوضة. يمكن أيضًا أن يخلّص النضج الشهوانيّ المرأة من برودها ومن نرجسيّتها وبتحمّلها مسؤوليّة سلبيّتها الجنسيّة تعيشها فورًا بدل أن تمثّلها. لأن تناقض المازوشيّة هو أنّ الذّات تعيد تأكيد نفسها باستمرارٍ حتّى وهي تجهد في التنازل؛ وتنجح في نسيان نفسها في العطاء العفويّ، في الحركة التلقائيّة نحو الآخر. صحيحٌ إذًا أنّ المرأة تخضع أكثر من

الرجل لإغراء المازوشيّة؛ يؤهّلها وضعها الشهوانيّ كموضوعٍ سلبيٍّ للعب دور السلبيّة؛ هذه اللعبة هي العقاب الذاتيّ الّذي تدعوها إليه ثوراتها النرجسيّة والبرودة الناجمة عنها. الأمر أنّ كثيرًا من النساء وخصوصًا الشابّات هنّ مازوشيّات. تبوح لنا **كوليت** في «تدريباتي» متحدّثةً عن تجاربها الغراميّة الأولى:

> **مدعومةً بالشباب والجهل، بدأت بالنشوة، نشوةٌ مُدانةٌ، اندفاع مراهَقةٍ فظيعٌ وفاحشٌ. كثيراتٌ هنّ الفتيات الصالحات للزواج اللّواتي يحلمن بأن يكنّ عرضًا ولعبةً وتحفةً فاسقةً لرجلٍ ناضجٍ. إنّها رغبةٌ قبيحةٌ يكفّرن عنها فيما ينفّذنها، رغبةٌ تسير بالتوازي مع عُصابات البلوغ، وعادة قضم الطبشور والفحم، وشرب ماء تنظيف الأسنان، وقراءة الكتب القذرة وغرس الأظافر في راحة اليد.**

المازوشيّة جزءٌ من الانحرافات الشبابيّة، وليست حلًّا حقيقيًّا للصراع الّذي يخلقه قَدَر المرأة الجنسيّ، لكنّها وسيلةٌ للهرب منه بالاستغراق فيها. وهي لا تمثّل أبدًا الازدهار الطبيعي والسعيد للشهوانيّة الأنثويّة.

يفترض هذا الازدهار ـ في الحبّ والحنان والشبق ـ أن تنجح المرأة في التغلّب على سلبيّتها وإقامة علاقة تبادلٍ مع شريكها. ويخلق عدم تناظر الشهوانيّة الذكريّة والأنثويّة مشاكل لا يمكن حلّها مادام هناك صراعٌ بين الجنسين؛ ويمكن حسمها بسهولةٍ عندما تشعر المرأة لدى الرجل برغبةٍ واحترامٍ: إن اشتهى جسدها معترفًا بحرّيّتها، تجد أنّها أساسيّةٌ في اللّحظة الّتي تجعل فيها من نفسها موضوعًا، وتبقى حرّةً ضمن الخضوع الّذي توافق عليه. عندئذٍ يمكن للعشيقين أن يعرفا كلٌّ على طريقته متعةً مشتركةً؛ فيشعر كلّ شريكٍ أنّها متعته، مع أنّ مصدرها هو الآخر. تتبادل كلمتا أخذ وعطاء معنييهما، والبهجة عرفانٌ بالجميل والمتعة حنانًا. وبشكلٍ ملموسٍ وجسديٍّ، يكتمل العرفان بالجميل المتبادل بين الأنا والآخر ضمن الشعور الأكثر حدّةً للآخر والأنا. تقول بعض النساء أنّهن يشعرن بالعضو الذكريّ داخلهنّ كجزءٍ من جسدهنّ؛ ويعتقد بعض الرجال أنّهم المرأة الّتي يضاجعون؛ هذه التعابير غير صحيحةٍ بالطبع؛ إذ تبقى أبعاد الآخر؛ لكنّ الأمر هو أنّ الغيريّة لم تعد ذات طابعٍ عدائيٍّ؛ وهذا الشعور باتّحاد الجسدين ضمن انفصالهما هو ما يمنح العلاقة الجنسيّة صفتها المؤثّرة؛ ويزداد الارتباك بقدر ما يكون الكائنان الّذان يرفضان حدودهما ويؤكّدانها

بشغفٍ متشابهين ومع ذلك مختلفين. هذا الاختلاف الّذي يعزلهما معظم الأحيان يصبح عندما يجتمعان مصدر انبهارهما؛ فترى المرأة الصورة المعكوسة للتوقّد الساكن الّذي يحرقها في الاندفاع الذكوريّ، قوّة الرجل، إنّها السلطة الّتي تمارسها عليه؛ هذا العضو المنتفخ بالحياة يخصّها كما تخصّ ابتسامتها الرجل الّذي يمنحها المتعة. كلّ ثروات الذّكورة والأنوثة المنعكسة والمستقبلة عبر بعضها البعض تؤلّف وحدةً متحرّكةً ومُبهِرةً. ما هو ضروريٌّ لمثل هذا الانسجام ليس الأناقة التقنيّة ولكن بالأحرى كرمٌ متبادلٌ جسديٌّ روحيٌّ على أسس جاذبيّةٍ شهوانيّةٍ مباشرةٍ.

يمنع كبرياء الرجل وخجل المرأة غالبًا هذا الكرم؛ طالما لم تتغلّب على نواهيها، لن تنجح في إبرازه. ولهذا فالازدهار الجنسيّ الكامل عمومًا متأخّرٌ لدى المرأة: في حوالي الخامسة والثلاثين من عمرها تبلغ الذروة شهوانيًّا. لسوء الحظّ، إن كانت متزوّجةً، يكون زوجها عندئذٍ قد اعتاد برودها كثيرًا؛ بالطبع ما زال بإمكانها إغواء العديد من العشّاق، لكنّها بدأت تفقد نضارتها: ووقتها محسوبٌ. في اللّحظة الّتي لا تعود النساء فيها مرغوباتٍ يقرّر عددٌ كبيرٌ منهنّ أخيرًا إشباع رغباتهنّ.

تتعلّق الظروف الّتي تجري بها حياة المرأة الجنسيّة ليس فقط بهذه المعطيات، ولكن بمجمل وضعها الاجتماعيّ والاقتصاديّ. من العبث أن ندّعي أنّنا ندرسها دون هذا السيّاق. ولكن تخرج من فحصنا عدّة نتائج صالحةً عمومًا. التجربة الشهوانيّة هي إحدى تلك الّتي تكشف للبشر بأكثر طريقةٍ مؤثّرةٍ غموض ظروفهم؛ ويشعرون بنفسهم ضمنها كجسدٍ وروحٍ، كالآخر والذات. يكتسي هذا الصراع بالنسبة إلى المرأة أكثر الأشكال دراماتيكيّةً لأنّها تدرك نفسها أولًا كموضوعٍ، ولأنّها لا تجد فورًا استقلاليّةً أكيدةً في المتعة؛ عليها أن تعيد اكتساب كرامتها كذاتٍ متساميّةٍ وحرّةٍ وفي الوقت نفسه تضطلع بمسؤوليّة ظرفها الجسديّ: إنّها عمليّةٌ قلقةٌ ومليئةٌ بالمخاطر؛ وتضمحلّ غالبًا. لكنّ صعوبة وضعها نفسها تحميها من الخديعة الّتي يقع فيها الذكر؛ فهو يُخدَع بطيب خاطرٍ بالامتيازات الخادعة الّتي يفرضها الدور العدوانيّ ووحدة النشوة المُشبَعة؛ يتردّد في التعرّف على نفسه بشكلٍ كاملٍ كجسدٍ. خبرة المرأة بنفسها حقيقيّةٌ أكثر.

سواءً تأقلمت المرأة بشكلٍ دقيقٍ كثيرًا أو قليلًا مع دورها السلبيّ، فهي دائمًا مكبوتةٌ كفردٍ فاعلٍ. ليس عضو التملّك ما تحسد الرجل عليه: بل طريدته. إنّها مفارقةٌ غريبةٌ يعيشها الرجل في عالمٍ حسّيٍّ من النعومة والرقّة واللّين، عالمٌ نسائيٌّ، بينما تتحرّك المرأة في العالم الذكريّ القاسي والصارم؛ تحتفظ يداها بالرغبة في معانقة الجسد الأملس، اللّبّ الذائب: مراهقةٌ، امرأةٌ، زهورٌ، فراءٌ، طفلٌ؛ جزءٌ كاملٌ منها يبقى مستعدًّا ويتمنّى امتلاك ثروةٍ مماثلةٍ لتلك الّتي تقدّمها للذكر. يفسّر ذلك أن يبقى لدى كثيرٍ من النساء ميلٌ للجنسيّة المثليّة بطريقةٍ غير واضحةٍ تمامًا. يتأكّد هذا الميل لدى بعضهنّ، لأسبابٍ معقّدةٍ، مع سلطةٍ خاصّةٍ. ولا تقبل جميع النساء إعطاء مشاكلهنّ الجنسيّة الحلول التقليدية، الوحيدة المقبولة من المجتمع. علينا أيضًا أن نتبصّر في هاته اللّواتي يخترن الدروب المُدانة.

الفصل الرابع

السحاقيّة

نتصوّر السحاقيّة تلقائيًّا مرتديّةً قبّعةً جافّةً من اللّباد، قصيرة الشعر، تضع ربطة عنقٍ؛ ذكوريّتها ناجمةٌ عن تشوّهٍ يشي باضطرابٍ هورمونيٍّ. هذا الخلط بين السحاقيّة والمرأة المتسلّطة خطأٌ كبيرٌ. هناك الكثير من السحاقيّات بين الجواري والمحظيّات وبين أشدّ النساء «أنوثةً» بطيب خاطرٍ؛ وبالعكس عددٌ كبيرٌ من النساء «المسترجلات» متغايرات الجنس hètèrosexuelles. يؤكّد أطباء الجنس والأطباء النفسيّون ما تطرحه الملاحظة السائدة: الأغلبيّة الساحقة من «الملعونات» لهنّ نفس تكوين بقيّة النساء. لا يحدّد جنسهنّ أيّ «قدَرٍ تشريحيٌّ».

هناك بالتأكيد حالاتٌ تخلق فيها المعطيات الفزيولوجيّة أوضاعًا خاصّةً. لا توجد بين الجنسين فروقٌ بيولوجيّةٌ صارمةٌ؛ فهما جسدٌ واحدٌ عدّلته تأثيراتٌ هرمونيّةٌ اتّجاهها محدّدٌ وراثيًّا، ولكنّه قد ينحرف أثناء تطوّر الجنين؛ فينتج عن ذلك ظهور أفرادٍ متوسطين بين الذكور والإناث. بعض الرجال يكتسون مظهرًا أنثويًّا بسبب تأخّر نضج أعضائهم المذكّرة: وهكذا نرى أحيانًا فتياتٍ - وخصوصًا الريّاضيّات - يتحوّلن إلى صبيانٍ. تروي **هيلين دوتش** قصّة شابّةٍ غازلت بحرارةٍ امرأةً متزوّجةً، وأرادت اختطافها والعيش معها: وأدركت ذات يومٍ

أنّها كانت في الواقع رجلًا، ما سمح لها بالزواج من محبوبتها وإنجاب أطفالٍ منها. ولكن لا يجب أن نستنتج من ذلك أنّ كلّ سحاقيّةٍ هي «رجلٌ مخبّأٌ وراء أشكالٍ خادعةٍ. الخنثى الّذي يملك الجملتين التناسليّتين لديه غالبًا جنسيّةٌ مؤنّثةٌ: عرفت واحدةً، نفاها النازيّون من فيينا، كانت تأسف لأنّ متغايري الجنس واللّوطيين لا يُعجبون بها بينما لم تكن تحبّ سوى الرجال. تُبدي النساء «المسترجلات» تحت تأثير الهرمونات الذكريّة صفاتٍ جنسيّةً ثانويّةً مذكّرةً؛ ولدى النساء الطفوليّات قصورٌ في الهرمونات المؤنّثة ويظلّ نموّهنّ غير مكتملٍ. يمكن لهذه الخصائص تحفيز ميلٍ نحو السحاقيّة بشكلٍ مباشرٍ قليلًا أو كثيرًا. تتمنّى المرأة ذات الحيويّة القويّة، العدوانيّة، المتفتّحة، أن تصرف طاقتها بشكلٍ حيويٍّ وترفض السلبيّة عادةً؛ ويمكن للمرأة إن كانت قبيحةً أومشوّهةً أن تحاول معاوضة دونيّتها باكتساب صفاتٍ ذكريّةٍ؛ إذا لم تكن حساسيّتها المولّدة للشهوانيّة ناميةً، فهي لا ترغب في المداعبات الذكريّة. لكنّ التشريح والهرمونات لا تعبّر إلا عن وضعٍ ولا تطرح الموضوع الّذي سيتسامى هذا الوضع نحوه. تورد **هيلين دوتش** أيضًا حالة جنديٍّ بولونيٍّ جريحٍ عالجته خلال حرب 1914-1918 كان في الواقع شابّةً ذات صفاتٍ مسترجلةٍ واضحةٍ ؛ كانت قد تبعت الجيش كممرّضةٍ، ثمّ نجحت في ارتداء الزيّ العسكريّ؛ ووقعت في غرام جنديٍّ ـ تزوّجته فيما بعد ـ الأمر الّذي جعلها تُعتَبَر شاذّةً. لم يتعارض سلوكها الذكريّ مع شهوانيّةٍ من النمط الأنثويّ. لا يرغب الرجل نفسه بالمرأة حصرًا؛ قد يكون جسد الذكر مثليّ الجنس ذكوريًّا تمامًا وذلك يفترض أنّ ذكوريّة المرأة لا تكرّسها بالضرورة إلى المثليّة الجنسيّة.

طالبوا أحيانًا بتمييز «البظريّات» عن «المهبليّات» لدى النساء الطبيعيّات فزيولوجيًّا، معتبرين أنّ الأوليات مهيّئاتٌ للسحاقيّة؛ لكنّهم رأوا أنّ كلّ الشهوانيّة الطفوليّة بظريّةٌ؛ ولا يتعلّق بقاؤها في هذه المرحلة أو تحوّلها بأيّ معطىً تشريحيٍّ؛ ليس صحيحًا كذلك ما أكّدوه كثيرًا أنّ العادة السرّيّة الطفوليّة هي سبب الامتياز اللاحق للجملة البظريّة: فعلم الجنس يعترف اليوم أنّ استمناء الطفل ظاهرةٌ طبيعيّةٌ للغاية ومنتشرةٌ جدًّا. تشكّل الشهوانيّة الأنثويّة هو ـ كما رأينا ـ مسألةٌ نفسيّةٌ تتضمّن العوامل الفزيولوجيّة، لكنّها تتعلّق بمجمل وضع الذات تجاه الوجود. كان **مارانيون** Marañon يعتبر أنّ الجنس «وحيد الاتّجاه»، وأنّه يبلغ لدى الرجل شكلًا مكتمِلًا بينما تظلّ المرأة «في منتصف الطريق»؛ ربّما تملك السحاقيّة

فقط شبقًا غنيًّا بقدر شبق الرجل، وبالتالي تكون نمطًا أنثويًا «أعلى». في الواقع، للجنس الأنثويّ تركيبٌ أصليٌّ وفكرة ترتيب الشبق الذكريّ والأنثويّ على درجاتٍ فكرةٌ لا معنى لها؛ فاختيار الموضوع الجنسيّ لا يتعلّق البتّة بكمّيّة الطاقة الّتي تتمتّع بها المرأة.

وللمحلّلين النفسيّين فضل رؤية الشذوذ كظاهرةٍ نفسيّةٍ غير عضويّةٍ؛ إلّا أنّها ما زالت تبدو لهم محدّدَةً بظروفٍ خارجيّةٍ. عدا عن أنّهم لم يدرسوها بشكلٍ كافٍ. تبعًا لـفرويد، يتطلّب نضج الشهوانيّة الأنثويّة العبور من المرحلة البظريّة إلى المرحلة المهبليّة، عبورٌ مناظرٌ لذاك الّذي نقل للأب الحبّ الّذي كانت الطفلة تشعر به نحو أمّها؛ وقد تعرقل هذا التطوّر أسبابٌ مختلفةٌ؛ فلا تستكين المرأة للإخصاء، وتخفي عن نفسها غياب القضيب، وتبقى تؤثِر أمّها وتبحث لها عن بدائل. بالنسبة لـ آدلر، هذا التوقّف ليس حادثةً يُخضَع لها بشكلٍ سلبيٍّ: أرادته الذات الّتي، عن إرادةٍ، ترفض بترَها طوعًا وتحاول تقمّص نفسيّة الرجل الّذي ترفض سيطرته. وسواءً كانت الجنسيّة المثليّة اختيارًا طفوليًّا أم توكيدًا ذكريًّا، فهي تبدو في كلّ الأحوال نقص اكتمالٍ. في الحقيقة، ليست السحاقيّة امرأةً «ناقصةً» ولا امرأةً «أعلى». تاريخ الفرد ليس تطوّرًا حتميًّا: في كلّ حركةٍ يُعاد إدراك الماضي من خلال خيارٍ جديدٍ، وثبات الخيار لا يمنحه أيّة قيمةٍ مميّزةٍ: يجب الحكم عليه تبعًا لأصالته. قد تكون الجنسيّة المثليّة بالنسبة إلى المرأة طريقةً للهروب من وضعها أو طريقةً للاضطلاع به. خطأ المحلّلين النفسيّين الكبير هو عدم رؤيتها البتّة إلّا كوضعٍ غير أصليٍّ، من خلال تقليديّةٍ أخلاقيّةٍ.

المرأة كائنٌ يُطلَب منه أن يصبح موضوعًا؛ وكذاتٍ لديها شهوانيّتها العنيفة الّتي لا ترتوي بالجسد الذكوريّ: من هنا تولد الصراعات الّتي على شهوانيّتها التغلّب عليها. ويُعتَبَر طبيعيًا النظام الّذي يعطيها للذكر كطريدةٍ ويعيد إليها سيادتها بوضعه طفلًا بين ذراعيها: لكن تتحكّم بهذه «النزعة الطبيعيّة» مصلحةٌ اجتماعيّةٌ مفهومةٌ بعض الشيء. يسمح الجنس المتغاير نفسه بحلولٍ أخرى. جنسيّة المرأة المثليّة هي محاولةٌ بين سواها من المحاولات للتوفيق بين استقلاليّتها وسلبيّة جسدها. وإذا اعتمدنا على الطبيعة، يمكننا القول إنّ كلّ امرأةٍ هي مثليّة الجنس بالطبع. تتّصف السحاقيّة بالفعل برفضها للذكر وميلها للجسد الأنثويّ؛ لكنّ كلّ مراهقةٍ تخشى الاختراق، والسيطرة الذكريّة، وتشعر تجاه

جسد الرجل بنوعٍ من النفور؛ وبالمقابل يكون الجسد الأنثويّ موضع رغبةٍ بالنسبة إليها كما بالنسبة إلى الذكر. قلت مسبقًا إنّ الرجال، بطرحهم نفسهم كذاتٍ، يطرحون نفسهم في الوقت نفسه كمنفصلين؛ اعتبار الآخر شيئًا يؤخَذ، هو الاعتداء على المِثال الذكوري لدى الآخر ولدى نفسه، وبالعكس، المرأة الّتي ترى نفسها موضوعًا ترى في شبيهاتها وفي نفسها طريدةً. يوحي اللّوطيّ بالعدائيّة لمتغايري الجنس ذكورًا وإناثًا لأنّهم يفرضون أن يكون الرجل ذاتًا مسيطرةً[92]؛ وبالعكس، ينظر الجنسان إلى السحاقيّات تلقائيًّا بنوعٍ من التساهل. يقول الكونت دوتيللي Le compte de Tilly: «أعترف بأنّه تنافسٌ لا يزعجني؛ بل يسلّيني على العكس وأضحك منه ضاربًا بالأخلاق عرض الحائط». وقد منحت كوليت نفس هذه اللامبالاة المتهكّمة لرينو أمام مشهد كلودين مع ريزي[93]. ينزعج الرجل من متغايرة جنسٍ نشيطةٍ ومستقلّةٍ أكثر ممّا ينزعج من مثليّة جنسٍ غير عدوانيّةٍ؛ فالأولى وحدها تعترض على الامتيازات الذكوريّة؛ ولا تعارض الغراميّات السحاقيّة الشكل التقليديّ لتقسيم الجنسين: إنّها في معظم الحالات ارتقاءٌ بالأنوثة، وليست رفضًا لها. رأينا أنّها تظهر في معظم الحالات لدى المراهقة بديلًا للعلاقات متغايرة الجنس الّتي لم تُتَح لها الفرصة أو الجرأة بعدُ لتعيشها: إنّها مرحلةٌ، تدريبٌ، وتلك الّتي تنساق إليه بأكثر حميّةٍ ممكنةٍ قد تصبح غدًا أكثر الزوجات والعشيقات والأمّهات حرارةً. ما يجب تفسيره لدى منقلبة الجنس (l`invertie) إذًا ليس المظهر الإيجابيّ لخيارها، إنّه الوجه السلبيّ: ولا يتميّز بميلها إلى النساء، بل بحصريّة هذا الميل.

نميّز غالبًا ـ بعد جونز Jones وهسنار Hesnard ـ بين نمطين من السحاقيّات: بعضهنّ «مذكّراتٌ يردن تقليد الرجل»، والأخريات «أنثويّاتٌ يخشين الرجل». صحيحٌ أنّنا نستطيع بالمجمل رؤية اتّجاهين في انقلاب الجنس؛ فترفض بعض النساء السلبيّة، بينما تختار أخرياتٌ أذرعًا نسائيّةً لكي يستسلمن لها بشكلٍ سلبيٍّ؛ لكنّ إحدى هذه السلوكيّات تؤثّر على الأخرى؛ العلاقة بالموضوع المُختار، والموضوعِ المرفوض، تفسّر إحداهما الأخرى. ويبدو لنا التمييز المذكور تعسّفيًّا للغاية للعديد من الأسباب كما سنرى.

92- متغايرة الجنس تصادق بسهولةٍ بعض اللّوطيّين، لأنها تجد في هذه العلاقات اللاجنسيّة أمانًا وتسليةً. ولكن بوجه الإجمال، تشعر بالعدائيّة تجاه هؤلاء الرجال الّذين ينزلون الذكر السيّد إلى منزلة شيءٍ سلبيٍّ، لديهم أو لدى الغير.

93- من الملاحظ أن التشريع الإنجليزي يعاقب المثليّة الجنسيّة لدى الرجال ولا يعتبرها جنحةً لدى النساء.

تعريف السحاقيّة «الذكوريّة virile» بأنها ترغب في «تقليد الرجل» هو تكريسها كغير أصليّةٍ. قلت سابقًا كم يخلق المحلّلون النفسيّون غموضًا عندما يقبلون فئتي المذكّر ـ المؤنّث كما يحدّدهما المجتمع الحاليّ. في الواقع، يمثّل الرجل اليوم الإيجابيّ والمحايد، أي الذكر والكائن البشريّ، بينما تمثّل المرأة السلبيّ فقط، الأنثى. وكلّما تصرّفت ككائنٍ بشريٍّ، يعلنون أنّها بالتالي تتشبّه بالذكر. تُفَسَّر نشاطاتها الرياضيّة والسياسية والثقافيّة، ورغبتها بنساءٍ أخرياتٍ، بأنّها «تأكيدٌ ذكريٌّ»؛ ويرفضون اعتبار القيم الّتي تتسامى نحوها، ما يقود بالطبع إلى اعتبار أنّها تقوم باختيارٍ غير أصليٍّ لوضعٍ ذاتيٍّ. سوء الفهم الكبير الّذي تستند إليه طريقة التفسير هذه، هو قبول أنّ من *الطبيعيّ* للكائن البشريّ المؤنّث أن يجعل من نفسه امرأةً *أنثويّةً*: لا يكفي أن تكون المرأة متغايرة الجنس، ولا حتّى أمًّا، كي تحقّق هذا المثل الأعلى؛ «المرأةُ الحقيقيّة» هي مُنتَجٌ اصطناعيٌّ تصنعه الحضارة كما كانوا في الماضي يصنعون خصيانًا؛ أُوحي إليها «بغرائزها» المزعومة كالغنج والإطاعة كما الفخر بالقضيب بالنسبة للرجل؛ إنّه لا يقبل دائمًا نزعته الذكوريّة؛ ولديها هي أسبابٌ وجيهةٌ لترفض أيضًا تلك النزعة الّتي تُنسَب إليها. مفاهيم «عقدة النقص»، و«عقدة الرجولة» تجعلني أفكّر بتلك الطرفة الّتي يرويها **دني دوروجمون** Denis de Rougemont في «حصّة الشيطان»: كانت إحدى السيّدات تتخيّل، عندما كانت تتنزّه في الأرياف، أنّ العصافير كانت تهاجمها؛ وبعد عدة أشهرٍ من العلاج بالتحليل النفسيّ الّذي أخفق في شفائها من هاجسها، رافقها الطبيب في حدائق المصح ورأى أنّ الطيور كانت تهاجمها بالفعل. تشعر المرأة أنّها ناقصةٌ لأنّ فرائض الأنوثة في الواقع تجعلها ناقصةً. تختار تلقائيًا أن تكون فردًا كاملًا، ذاتًا وحرّيةً يُفتَح أمامها العالم والمستقبل: إذا خلطوا بين هذا الخيار وخيار الذكورة، فذلك لأنّ الأنوثة اليوم تعني البتر. نرى بوضوحٍ في اعترافات المتحوّلات جنسيًّا ـ الأفلاطونية في الحالة الأولى، والمُعلَنة في الثانية ـ والّتي جمعها **هافلوك إليس** Havelock Ellis **وستيكل** أنّ المواصفات الأنثويّة هي الّتي أثارت استنكار الشخصين:

> **قالت إحداهما: «لأبعد ما تبلغه ذاكرتي، لم أرَ نفسي أبدًا كفتاةٍ ووجدتُ نفسي في بلبلةٍ دائمةٍ. في حوالي سنّ الخامسة أو السادسة، قلت لنفسي أنّه بغضّ النظر عن رأي الناس، إن لم أكن صبيًا، فأنا لست بنتًا على كلّ حالٍ... كنت أنظر إلى تكوين جسمي**

على أنّه حدثٌ غريبٌ... وعندما كنت بالكاد أستطيع أن أسير كنت أهتمّ بالمطارق والمسامير، وكنت أريد الجلوس على صهوات الجياد. في حوالي سنّ السابعة، بدا لي أنّ كلّ ما كنت أحبّه كان سيّئًا بالنسبة للفتاة. لم أكن سعيدةً مطلقًا وكنت أبكي غالبًا وأثور لشدّة غضبي من هذه الأحاديث حول الصبيان والبنات... كلّ يوم أحدٍ كنت أخرج مع صبيان مدرسة إخوتي... في حوالي الحادية عشرة... وضعوني في مدرسةٍ داخليّةٍ لمعاقبتي على ما كنت عليه.. في حوالي الخامسة عشرة، كانت وجهة نظري في كلّ شيءٍ أفكّر به وجهة نظر صبيٍّ... وشعرت بتعاطفٍ مع النساء... فأصبحت أحميهنّ وأساعدهنّ.

أما بالنسبة للمتشبّهة بالرجال travestie فيقول ستيكل:

حتّى عامها السادس، رغم تأكيد محيطها، كانت تعتقد أنّها غلامٌ يلبس ثياب بنتٍ لأسبابٍ بقيت مجهولةً بالنسبة لها... في سنّ السادسة، كانت تقول لنفسها: «سأصبح ملازِمًا، وإن أعطاني الله الحياة، ماريشالًا». كانت تحلم غالبًا أنها تمتطي صهوة جوادٍ وتخرج من المدينة على رأس جيشٍ. كانت ذكيّةً جدًا، وأصبحت تعيسةً لأنّها نُقِلت من دار المعلمين إلى ثانويّةٍ للبنات، خشيت أن تصبح متأنّثةً.

لا تستدعي هذه الثورة البتّة مصيرًا سحاقيًّا؛ تشعر معظم الفتيات بنفس الفضيحة ونفس اليأس عندما يعرفن أنّ تشكيل أجسادهنّ العرَضي يتحكم بميولهنّ وطموحاتهنّ؛ اكتشفت **كوليت أودري**[94] غاضبةً في الثانية عشرة من عمرها أنّه لن يمكنها أبدًا أن تصبح بحّارًا؛ بشكلٍ طبيعيٍّ تستنكر المرأة المقبلة الحدود الّتي يفرضها عليها جنسها. ونخطئ حين نتساءل لماذا ترفضها: المسألة بالأحرى هي فهم لماذا تقبلها. يأتي خضوعها من لين عريكتها وحيائها؛ لكنّ هذه الاستكانة تتحوّل بسهولةٍ إلى ثورةٍ إذا رأت أنّ التعويضات الّتي يقدّمها المجتمع غير كافيةٍ. وهذا ما يحدث إن فكّرت المراهقة أنّها قبيحةٌ كامرأةٍ: بهذا تصبح المعطيات التشريحيّة مهمّةً؛ ترفض المرأة قدرها الأنثوي الّذي تشعر أنّها لا تصلح له، إن كانت قبيحةً، سيئة الخلقة، أو تعتقد ذلك؛ لكن من الخطأ القول إنّها تلجأ إلى الوضع الذكوريّ لمعاوضة نقصٍ في الأنوثة: بالأحرى، بدل الامتيازات الذكوريّة الّتي يُطلَب

94- في عيون الذكرى.

من المراهقة التضحية بها، تبدو لها الفرص الممنوحة هزيلةً للغاية. تحسد كلّ الفتيات الصبيان على ملابسهم المريحة؛ صورتهنّ في المرآة، والوعود الّتي يرينها فيها، تجعل شيئًا فشيئًا زينتهنّ الكريهة ثمينةً؛ إن عكست المرآة بخشونةٍ وجهًا عاديًا، إن لم يكن يعِد بشيءٍ، تبقى الدانتيلا والأشرطة كسوةً مزعجةً، أو سخيفةً حتّى، وتتعنّت «الصبيانيّة» في البقاء صبيًّا.

حتّى وإن كانت حسنة التكوين، جميلةً، ترفض المرأة المنخرطة في مشاريع خاصّةٍ أو الّتي تطالب بحريّتها عمومًا التنازل لمصلحة إنسانٍ آخر؛ إنها تجد نفسها في أعمالها وليس في وجودها المتأصّل: تصدمها الرغبة الذكريّة الّتي تختزلها داخل حدود جسدها كما تصدم الشابّ؛ تشعر تجاه صاحباتها الخانعات بنفس اشمئزاز الرجل الذكوريّ من اللّوطيّ السلبي. وتتّخذ وضعيّةً ذكوريّةً ويعود جزءٌ من ذلك إلى رفضها كل تعقيدٍ معهنّ؛ إنها تبدّل ملابسها، وهيئتها، ولغتها، وتشكّل مع صديقةٍ أنثويّةٍ ثنائيًّا تمثّل فيه شخصيّة الذكر: هذه الملهاة هي في الواقع «تأكيدٌ ذكوريٌّ»؛ لكنّها تبدو كظاهرةٍ ثانويّةٍ؛ التلقائيّ هو استنكار الذات الغالبة والمسيطرة لفكرة أن تتحوّل إلى طريدةٍ شهوانيّةٍ. عددٌ كبيرٌ من الرياضيّات هنّ مثليات الجنس؛ هذا الجسد الّذي هو عضلاتٌ وحركةٌ واسترخاءٌ واندفاعٌ، لا يرينه أبدًا جسدًا سلبيًّا؛ إنه لا يطلب المداعبات بشكلٍ سحريٍّ، إنّه تأثيرٌ على العالم، وليس شيئًا من العالم: في هذه الحالة يبدو من غير الممكن تجاوز الهوّة الكائنة بين الجسد لذاته والجسد للغير. نجد مقاوماتٍ مشابهةً لدى المرأة الناشطة، والمرأة «المفكّرة» الّتي يستحيل عليها التنازل ولو بشكلٍ جسديٍّ. لو كان تساوي الجنسين محقّقًا بشكلٍ ملموسٍ، لزالت هذه العقبة في عددٍ كبيرٍ من الحالات؛ لكنّ الرجل ما زال مغترًّا بتفوّقه وهذه القناعة تزعج المرأة إن لم تشاركه إيّاها. يجب أن نلاحظ مع ذلك أن أكثر النساء عزمًا، وأكثرهنّ سيطرةً، لا يتردّدن كثيرًا في مواجهة الذكر: المرأة الّتي يقال إنّها «ذكوريّةٌ» هي غالبًا متغايرة الجنس بشكلٍ صريحٍ. إنّها لا تريد إنكار مطالبتها بأن تكون إنسانًا؛ لكنّها لا تعني كذلك أن تتخلّى عن أنوثتها، فتختار دخول عالم الذكور، وتلحقه بها حتّى. لا تخشى شهوانيّتها القويّة الفظاظة الذكريّة؛ وكي تجد متعتها في جسد رجلٍ، فالموانع الّتي عليها تخطّيها أقلّ ممّا لدى العذراء الخجولة. فالطبيعة الخشنة، المفرطة في الحيوانيّة، لا تشعر بإذلال الإيلاج؛ والمثقّفة ذات

الفكر الجريء ستعترض عليه؛ تنخرط المرأة ذات المزاج المقاتل بمرحٍ واثقةً من نفسها في مبارزةٍ هي متأكّدةٌ من الفوز بها. كانت **جورج صاند** Georges Sand تفضّل الشبّان، الرجال «المتأنّثين»؛ لكن **مدام دو ستايل** Mme de Stael لم تبحث عن الشباب والجمال لدى عشاقها إلّا بصورةٍ متأخّرةٍ: لا بدّ أنّها لم تكن تشعر بنفسها طريدةً بين أذرع الرجال، بسيطرتها عليهم بقوّة فكرها، متقبّلةً إعجابهم بكبرياءٍ. كانت ملكةٌ مثل **كاترين** الروسيّة تستطيع حتّى ممارسة نشوة المازوشيّة: كانت تبقى سيّدة هذه الألعاب الوحيدة. كانت **إيزابيل إيبرارد** Isabelle Eberardt تجتاز الصحراء على صهوة جوادٍ، مرتديةً ملابس رجلٍ، ولم تكن تعتبر نفسها البتة منتقَصةً عندما كانت تستسلم لرماةٍ أشدّاء. المرأة الّتي لا تريد أن تكون وعاءً للرجل لا تهرب منه دومًا: تحاول بالأحرى جعله أداة متعتها. في ظروفٍ مؤاتيةٍ ـ تتعلّق في جزءٍ كبيرٍ بالشريك ـ تزول فكرة المنافسة وتستمتع بأن تحيا وضعها كامرأةٍ بكماله كما يعيش الرجل وضعه كرجلٍ.

لكنّ هذه المصالحة بين شخصيّتها الحيويّة ودورها كأنثى سلبيةٍ هي رغم كلّ شيْءٍ أصعب كثيرًا بالنسبة إليها منها بالنسبة إلى الرجل: تتخلّى نساءٌ كثيراتٌ عن المحاولة بدلًا من أن يستهلكن أنفسهنّ في هذا الجهد. نجد كثيرًا من السحاقيّات بين النساء الفنّانات والكاتبات. ليس أنّ خصوصيّتهنّ الجنسيّة مصدر طاقةٍ عليا؛ بل بالأحرى لأنّهنّ لا ينوين إضاعة وقتهنّ في لعب دور امرأةٍ ولا النضال ضدّ الرجال كونهنّ مستغرقاتٍ بعملٍ جدّيٍّ. يبحثن في اللّذة عن الاسترخاء، والسكينة، واللّهو، رافضاتٍ التفوّق الذكريّ، لا يردن التظاهر بالاعتراف به ولا إتعاب أنفسهن في إنكاره، فمن الأفضل لهنّ التحوّل عن شريكٍ يأتي بصورة خصمٍ؛ وبذلك يتحرّرن من الإعاقات الّتي تفرضها الأنوثة. إنّ طبيعة هذه التجارب متغايرة الجنس هي غالبًا ما تدفع المرأة «الذكوريّة» إلى اختيار صعود جنسها أو رفضه بالطبع. ويؤكّد الاستخفاف الذكوريّ شعور القبيحة بقبحها؛ و تجرح المتكبّرةَ عجرفةُ العشيق. كلّ أسباب البرودة الّتي بحثناها موجودةٌ هنا: الضغينة، والغيظ، والخوف من الحمل، والصدمة الّتي أثارها إجهاضٌ، إلخ...، وتأخذ وزنًا أكبر كلّما واجهت المرأة الرجل بمزيدٍ من الارتياب.

مع ذلك لا تبدو المثليّة الجنسيّة دائمًا حلًا مُرضيًا بشكلٍ كاملٍ، عندما يتعلّق الأمر

بامرأةٍ مسيطرةٍ؛ لا يروق لها ألّا تحقّق إمكانيّاتها الأنثويّة بشكلٍ كاملٍ بما أنّها تريد تأكيد نفسها؛ تبدو لها العلاقات المتغايرة الجنس تصغيرًا وغنىً في الوقت نفسه؛ برفض الحدود الّتي يفرضها جنسها، يحدث أن تحدّ نفسها بطريقةٍ أخرى. وكما تتمنّى المرأة الباردة المتعة رافضةً إيّاها، تتمنّى السحاقيّة غالبًا أن تكون امرأةً عاديّةً وكاملةً، دون أن ترغب في ذلك. هذا التردّد واضحٌ في حالة المتشبّهة بالرجال la travestie الّتي درسها **ستيكل**.

> **رأينا أنّها لم تكن تستمتع إلا مع الصبيان ولم تكن تريد أن «تتأنث». في سنّ السادسة عشرة، أقامت أوّل علاقاتها مع فتياتٍ؛ كانت تُكنّ لهنّ احتقارًا عميقًا، ما أعطى فورًا لشهوانيّتها طابعًا ساديًا؛ قامت بمغازلةٍ متأجّجةٍ لزميلةٍ كانت تحترمها، ولكن بشكلٍ أفلاطونيّ: كانت تشعر بالاشمئزاز من اللواتي كانت تمارس الجنس معهنّ. وألقت بنفسها هائجةً في دراسةٍ صعبةٍ. استسلمت بهيجانٍ لتجارب حسّيّةٍ بحتةٍ، خائبةً في حبّها الأول الكبير السحاقي، وبدأت تشرب. في سنّ السابعة عشرة، تعرّفت على شابٍّ تزوّجته: لكنّها اعتبرته زوجتها؛ كانت ترتدي ملابس ذكوريّةً، وتابعت الشرب والدراسة. حدث لديها في البدء تشنّجٌ في المهبل ولم يُحدِث الإيلاج رعشةً أبدًا. كانت تجد وضعيّتها «مخزيةً»؛ كانت تتّخذ دائمًا الدور التهجّميّ والفاعل. وتركت زوجها وهي «تحبّه بجنونٍ» وعادت إلى علاقاتها مع النساء. وتعرّفت على فنّانٍ منحته نفسها ولكن دون بلوغ الرعشة كذلك. كانت حياتها مقسّمةً إلى مراحل منفصلةٍ تمامًا؛ كانت تكتب لفترةٍ من الوقت، وتعمل مصمّمةً وتشعر أنّها ذكرٌ تمامًا؛ كانت تضاجع نساءً عندئذٍ، بشكلٍ متقطّعٍ وساديّ. فيما بعد عاشت مرحلةً أنثويّةً. وخضعت للتحليل النفسيّ لأنّها كانت تودّ بلوغ الرعشة.**

كان بإمكان السحاقيّة بسهولةٍ قبول فقد أنوثتها لو بلغت بذلك ذكوريّةً منتصرةً. ولكن لا. تبقى بالطبع محرومةً من عضوٍ ذكريٍّ؛ يمكنها فضّ بكارة صديقتها بيدها أو استخدام قضيبٍ اصطناعيٍّ لتحاكي الامتلاك؛ تبقى مع ذلك مخصيّةً. وقد تتألّم من ذلك كثيرًا. فهي غير مكتملةٍ كامرأةٍ، وعاجزةٌ كرجلٍ، تتجلّى معاناتها أحيانًا بذُهاناتٍ. كانت إحدى المريضات تقول لدالبييز[95] Dalbiez: «لو كان لديّ شيءٌ أخترق به، لكان الوضع أفضل». وكانت أخرى تتمنّى أن يكون ثدياها صلبين. تحاول السحاقيّة غالبًا معاوضة نقصها

95- منهج التحليل النفسيّ ومذهب فرويد.

الذكوريّ بتعجرفٍ أو باستعراضٍ يُتبيان في الواقع عن اختلالٍ داخليٍّ. تنجح أحيانًا أيضًا في خلق نمطٍ من العلاقة مع النساء الأخريات مماثلٍ تمامًا لذاك الّذي يقيمه معهنّ رجلٌ «متأنّث» أو مراهقٌ ما زال غير واثقٍ من ذكوريّته. إحدى أكثر الحالات استرعاءً للاهتمام لمثل هذا القدر حالة «ساندور» الّتي يذكرها كرافت إبنغ Crafft Ebbing. كانت قد بلغت بهذه الطريقة غير المباشرة توازنًا خرّبه تدخّل المجتمع.

كانت ساورلتا سليلة أسرةٍ نبيلةٍ هنغاريّةٍ معروفةٍ بشذوذاتها. ربّاها والدها كصبيٍّ. كانت تمتطي الجواد، وتصطاد، إلخ. ودام هذا التأثير حتّى سنّ الثالثة عشرة حيث وُضعت في المدرسة الداخليّة: عندها وقعت في غرام إنجليزيّةٍ صغيرةٍ، وادّعت أنّها صبيٌّ واختطفتها. وعادت إلى أمها ولكن سرعان ما ذهبت في رحلةٍ مع أبيها، تحت اسم «ساندور»، مرتديةً ملابس صبيٍّ: ومارست رياضاتٍ ذكوريّةً، وكانت تشرب وترتاد المواخير. وكانت تشعر خصوصًا بانجذابٍ نحو الممثّلات أو النسوة المعزولات وبقدر الإمكان اللّواتي لم يعدن شابّاتٍ؛ كانت تحبّهنّ «أنثويّاتٍ» حقًّا. وقالت: «كنت أحبّ العاطفة الأنثويّة الّتي تتجلّى وراء غلالةٍ شاعريّةٍ. كلّ وقاحةٍ من جانب امرأةٍ توحي إليّ بالاشمئزاز... كان عندي نفورٌ لا حدّ له من الملابس النسائيّة وبصورةٍ عامّةٍ من كلّ ما هو أنثويٌّ ولكن فقط عليّ وفيَّ؛ لأنّي على العكس كنت متحمّسةً للجنس الجميل». وكانت لها علاقاتٌ عديدةٌ مع نساءٍ وأنفقت عليهنّ كثيرًا من الأموال. مع ذلك شاركت في صحيفتين كبيرتين في العاصمة. وعاشت عيشة الأزواج ثلاث سنواتٍ مع امرأةٍ أكبر منها بعشر سنواتٍ وعانت كثيرًا كي تجعلها تتقبّل قطع العلاقة. كانت تؤجّج غراميّاتٍ مشبوبةً. وأغرمت بمعلّمةٍ شابّةٍ وارتبطت معها بما يشبه الزواج: كانت خطيبتها وأسرتها يظنّون أنّها رجلٌ؛ اعتقد حماها أنّه رأى لدى صهره المستقبليّ عضوًا منتعظًا (ربما عضوًا اصطناعيًّا). وكانت تحلق ذقنها، لكنّ الخادمة وجدت في ثيابها الداخليّة آثار دم الطمث وعبر ثقب قفل الباب اقتنعت أنّ ساندور كان امرأةً. وعندما كُشِف أمرها أودعت السجن ثم أطلق سراحها. وانتابها حزنٌ هائلٌ لافتراقها عن محبوبتها ماري الّتي كانت تكتب لها من زنزانتها رسائل مشبوبة العاطفة. لم يكن شكلها أنثويًّا تمامًا: كان الحوض نحيلًا للغاية، وكانت بلا خصرٍ. كان ثدياها كبيرين، والأعضاء التناسليّة أنثويةً تمامًا ولكن غير ناميةٍ بشكلٍ صحيحٍ. لم يبدأ الطمث لدى ساندور إلّا في سنّ السابعة عشرة وكانت تشعر بالكره الشديد لظاهرة الطمث. وكانت فكرة علاقاتٍ جنسيّةٍ مع الرجال ترعبها؛ كان حياؤها يتجلّى مع النساء فقط

لدرجة أنّها كانت تفضّل مشاركة سرير رجلٍ على مشاركة سرير امرأةٍ. وكانت تنزعج جدًا عندما كانوا يعاملونها كامرأةٍ، ووقعت فريسة قلقٍ حقيقيٍّ عندما اضطرّت للعودة إلى الملابس النسائيّة. كانت تشعر أنّها «تنجذب كما بفعل قوةٍ مغنطيسيّةٍ إلى النساء بين سنّ الرابعة والعشرين والثلاثين». وكانت تجد إشباعًا جنسيًّا فقط بمداعبة صديقتها، وليس أبدًا بتلقّي المداعبة. كانت تستخدم أحيانًا جوربًا محشوًّا بالقماش كعضوٍ اصطناعيٍّ. وكانت تكره الرجال. كانت حسّاسةً للغاية لتقدير الغير المعنويّ، وكان لديها كثيرٌ من المواهب الأدبيّة، وثقافةٌ واسعةٌ وذاكرةٌ هائلةٌ.

لم تخضع ساندور للتحليل النفسيّ، ولكنّنا نستنتج بعض النقاط البارزة من الشرح البسيط للوقائع. يبدو أنّها اعتبرت نفسها دومًا رجلًا، دون «تأكيدٍ ذكوريٍّ»، وبشكلٍ تلقائيٍ تامٍّ، بفضل التربية الّتي تلقّتها وتكوين جسمها؛ لقد كان للطريقة الّتي أشركها بها والدها في رحلاته وحياته تأثيرٌ حاسمٌ بالطبع؛ كانت ذكوريّتها مؤكّدةً بحيث لم تكن تبدي تجاه النساء أيّ تناقضٍ: كانت تحبّهنّ كرجلٍ، دون أن تشعر بإحراجٍ معهنّ، كانت تحبّهنّ بطريقةٍ مسيطرةٍ بحتةٍ وفاعلةٍ، دون أن تقبل التبادل. مع ذلك، من اللافت للنظر أنّها «كرهت الرجال» وأحبّت النسوة المسنّات بشكلٍ خاصٍّ. هذا يوحي بأنّ ساندور كان لديها تجاه أمّها عقدة أوديب ذكريّةٌ؛ كانت تطيل الوضع الطفولي للفتاة الصغيرة الّتي تأمل بأن تحميها أمّها وتسيطر عليها ذات يومٍ بتشكيلها ثنائيًّا معها. وغالبًا عندما يكون الطفل محرومًا من حنان الأمّ تلاحقه الحاجة إلى هذا الحنان طيلة حياته كبالغٍ: لا بدّ أنّ ساندور، وقد ربّاها والدها، حلمت بأمٍّ محبّةٍ وعزيزةٍ، وبحثت عنها فيما بعد عبر نساءٍ أخرياتٍ. وهذا يفسّر غيرتها العميقة تجاه الرجال الآخرين المرتبطة باحترامها وحبّها «الشاعريّ» للنساء «المعزولات» والمسنّات اللّواتي يكتسين في نظرها هيئةً مقدّسةً. كان موقفها تمامًا كموقف روسو Rousseau من مدام دو وارن Mme de Warens، والشاب بنجامان كونستان Benjamin Constant من مدام دو شاريير Mme de Charrière: يلتفت المراهقون الحسّاسون، «الأنثويّون»، هم أيضًا نحو عشيقاتٍ أموميّاتٍ. ونجد غالبًا بشكلٍ متفاوت الوضوح هذا النمط من السحاقيّة الّتي لم تتماثل أبدًا مع أمّها ـ لأنّها كانت تعجب بها أو تكرهها كثيرًا ـ ولكن الّتي، رافضةً كونها امرأةً، تتمنّى وجود حمايةٍ أنثويّةٍ رقيقةٍ حولها؛ من حضن هذا الرحم الدافئ يمكنها

أن تبرز في العالم بجرأةٍ صبيانيّةٍ؛ تتصرّف كرجلٍ، ولكنّ لديها هشاشةٌ تجعلها تتمنّى حبّ عشيقةٍ أكبر سنًّا؛ وسيعيد الثنائيّ إنتاج الثنائيّ المتغاير الجنس الكلاسّيكيّ: الأم والمراهق.

لقد أكّد المحلّلون النفسيّون على أهميّة العلاقات الّتي حافظت عليها مثليّة الجنس فيما مضى مع أمّها. هناك حالتان وجدت المراهقة فيهما صعوبةً في التملّص من هيمنتها: إذا كانت قد أحيطت برعايةٍ حارّةٍ من أمٍّ قلقةٍ؛ أو إن كانت قد عوملت بصورةٍ سيّئةٍ من «أمٍّ سيّئةٍ» ما ولّد لديها شعورًا عميقًا بالذنب؛ في الحالة الأولى كانت علاقاتهما تقارب المثليّة الجنسيّة: كانتا تنامان معًا، تتبادلان المداعبات أو تقبيل الأثداء؛ فتبحث الشابّة بين ذراعين جديدتين عن نفس هذه السعادة. في الحالة الثانية، تشعر بحاجةٍ متأجّجةٍ إلى «أمٍّ جيّدةٍ»، تحميها من الأولى، تُبعِد اللعنة الّتي تشعر بها فوق رأسها. يروي هافلوك إليس قصّة إحدى الفتيات الّتي كرهت أمّها طيلة طفولتها، وتصف بالتالي الحبّ الّذي شعرت به في سنّ السادسة عشرة نحو امرأةٍ أكبر سنًّا.

> **كنت أشعر أنّي يتيمةٌ حصلت فجأةً على أمٍّ وبدأت أشعر أنّي أقلّ عدائيّةً تجاه الكبار، وأنّي أحترمهم... كان حبّي لها نقيًّا للغاية وكنت أفكّر بها كأمٍّ... كنت أحبّ أن تلمسني وكانت أحيانًا تضمّني بين ذراعيها أو تدعني أجلس على ركبتيها... عندما كنت أذهب للنوم كانت تأتي لتحيّيني تحيّة المساء وتقبّلني على فمي.**

لو رضيت الكبيرة، لاستسلمت الصغيرة بفرحٍ لعناقٍ أكثر حرارةً. وهذا هو الدور السلبيّ الّذي تقوم به عادةً لأنّها تتمنّى أن تكون خاضعةً ومحميّةً ومهدهدةً ومُداعَبَةً كطفلٍ. سواءً ظلّت هذه العلاقات أفلاطونيّةً أو أصبحت جسديّةً، فهي غالبًا تعبيرٌ عن عاطفةٍ غراميّةٍ حقيقيّةٍ. ولكنّها لا تكفي لتفسير خيارٍ مقرَّرٍ للجنسيّة المثليّة لأنّها تظهر خلال نموّ المراهقة كمرحلةٍ كلاسّيكيّةٍ. تبحث الشابّة فيها عن حريّةٍ وأمانٍ معًا يمكنها أيضًا الحصول عليهما بين ذراعي رجلٍ. وبعد مرور مرحلة الحماسة الغراميّة، تشعر الصغرى غالبًا تجاه الكبرى بالشعور المزدوج الّذي كانت تشعر به تجاه أمّها؛ فتخضع لسيطرتها متمنّيةً الخلاص منها؛ وإذا أصرّت الأخرى على الاحتفاظ بها، ستبقى بعض الوقت «أسيرتها»[96]؛ ولكن ستنجح في

96- الثلاثي، الّتي هي سطحيّةٌ للغاية. كما في رواية دوروثي بيكر Dorothy Baker.

الإفلات، من خلال مشاحناتٍ عنيفةٍ، أو حبّيًا؛ وبعد انتهائها من تصفية مراهَقتها تشعر أنّها ناضجةٌ لمواجهة حياة امرأةٍ طبيعيّةٍ. ولكي يترسّخ ميلها للسحاقيّة يجب أن ترفض أنوثتها كما لدى ساندور، أو أن تزدهر أنوثتها وتشعر بالسعادة بين ذراعي امرأةٍ. بمعنى أن التعلّق بالأم لا يكفي لتفسير الشذوذ. ويمكن اختيار الشذوذ لأسبابٍ أخرى. يمكن أن تكتشف المرأة أو تشعر من خلال تجارب خاضتها أو باشرت بها أنّها لن تحصل على اللذّة من العلاقات متغايرة الجنس، وأن امرأةً أخرى فقط قادرةٌ على إشباعها: بصورةٍ خاصّةٍ، بالنسبة للمرأة الّتي تجلّ أنوثتها، يكون العناق السحاقي هو الأكثر إرضاءً.

من المهمّ للغاية أن نشير إلى أنّ رفض جعل النفس موضوعًا ليس هو دومًا ما يقود المرأة إلى الجنسيّة المثليّة، معظم السحاقيّات يحاولن بالعكس تملّك كنوز أنوثتهنّ. قبول التحوّل إلى شيءٍ سلبيٍّ، لا يعني التخلّي عن كلّ المطالب الذاتيّة: إذ تأمل المرأة بذلك إدراك نفسها بصورة الذات؛ ولكن عندئذٍ ستحاول إدراك نفسها ثانيةً ضمن غيريّتها. ولا تنجح فعلًا في الازدواج عندما تكون وحدها؛ إن داعبت ثدييها لا تعرف كيف سيظهران ليدٍ غريبةٍ، ولا كيف سيشعران تحت يدٍ غريبةٍ؛ يمكن لرجلٍ أن يكشف لها وجود جسدها لذاته، ولكن ليس ما هي بالنسبة للغير. فقط عندما تُقولِب أصابعُها جسد المرأة الّتي تُقولِب أصابعُها جسدها هي تكتمل معجزة المرآة. الحبّ بين الرجل والمرأة هو فعلٌ؛ يُنتَزَع كلّ واحد من نفسه ليصبح آخر: ما يدهِش العاشقة، هو أنّ ارتخاء جسدها السلبيّ ينعكس في شكل الاندفاع الذكريّ؛ لكنّ النرجسيّة لا تتعرّف على مفاتنها في هذا العضو المنتصب إلا بشكلٍ مرتبكٍ. الحبّ بين النساء هو تأمّلٌ؛ لا تهدف المداعبات إلى امتلاك الأخرى بقدر ما تهدف إلى إعادة خلق الذات ببطءٍ من خلالها؛ يزول الافتراق، ليس هناك صراعٌ، ولا انتصارٌ، ولا هزيمةٌ؛ كلٌّ منهما هي الذات والموضوع في الوقت نفسه ضمن تبادلٍ صحيحٍ، السيّدة والعبدة؛ والثنائيّة تواطؤٌ. تقول **كوليت**[97]: «التشابه الكبير يطمئن حتّى اللّذة. تُسَرُّ الصديقة بمداعبة جسدٍ تعرف أسراره ويدلّها جسدها هي إلى ما يفضّله».

97- هذه المتع...

وتقول رينيه فيفيان Renèe Vivien:

قلبنا متشابه في أحشائنا كامرأةٍ

أيّتها الغالية! لنا نفس شكل الجسد

ضغط على روحنا نفس القدر الثقيل

أفسّر ابتسامتك والظلّ على وجهك

نعومتي تماثل نعومتك الفائقة

حتّى يبدو لنا أحيانًا أنّنا من نفس السلالة

أحبّ فيك طفلتي، وصديقتي، وأختي[98].

يمكن لهذا الازدواج أن يتّخذ صورةً أموميّةً؛ الأمّ الّتي تتعرّف على نفسها في ابنتها وتستلب ضمنها لديها غالبًا تعلّقٌ جنسيٌّ بها، وتشترك مع السحاقيّة بالميل إلى حماية وهدهدة موضوعٍ طريٍّ من اللحم بين ذراعيها. وتشير **كوليت** إلى هذا التماثل عندما تكتب في «حوالق الكرمة Les Vrilles de la vigne»:

> **أنت تمنحينني اللّذة، منحنيةً فوقي، وعيناك مليئتان بقلقٍ أموميٍّ، أنت الّتي تبحثين، من خلال صديقتك الشغوفة، عن الطفل الّذي لم تحصلي عليه.**

وتعبّر رينيه فيفيان عن الشعور نفسه:

تعالي، سأحملك كطفلةٍ مريضةٍ

كطفلةٍ تشكو خائفةً مريضةً

بين ذراعيّ المتوتّرتين، أعانق جسدك الخفيف

سترين أنّي أعرف كيف أشفي وأحمي

وأنّ ذراعيّ مصنوعتان لأحميك بصورةٍ أفضل[99]

وكذلك:

أحبّك لأنّك ضعيفةٌ وهادئةٌ بين ذراعيّ

98- السحر Sortilège.

99- ساعة الأيدي المضمومة.

في كلّ حبٍّ ـ حبٌّ جنسيٌّ أو حبٌّ أموميٌّ ـ هناك بخلٌ وكرمٌ في آنٍ معًا، والرغبة في امتلاك الآخر وإعطائه كلّ شيءٍ؛ ولكن تجتمع الأمّ والسحاقيّة بشكلٍ خاصٍّ بقدر ما تكون الاثنتان نرجسيّتين، مداعبتين لدى الطفل والعشيقة امتدادَهما أو انعكاسهما.

مع ذلك فالنرجسيّة لا تقود دائمًا إلى الجنسيّة المثليّة: مثال ماري بشكيرتسف يثبت ذلك؛ لا نجد في كتاباتها أدنى أثرٍ لشعورٍ عطوفٍ تجاه امرأةٍ؛ وهي فكريّةٌ أكثر منها حسّيّةً، ومغرورةٌ لأقصى حدٍّ، تحلم منذ الطفولة بالفوز بتقدير الرجل: لا يهمّها إلا ما يمكنه الإسهام في مجدها. المرأة الّتي تعبد نفسها حصريًّا والّتي تهدف إلى النجاح المجرّد غير قادرةٍ على إقامة علاقةٍ حارّةٍ مع النساء الأخريات؛ إذ لا ترى فيهنّ إلّا منافساتٍ وعدوّاتٍ.

في الحقيقة، لا يوجد أيّ عاملٍ حاسمٍ؛ الأمر دائمًا خيارٌ قائمٌ ضمن مجموعةٍ معقّدةٍ يعتمد على قرارٍ حرٍّ؛ لا يتحكّم أيّ قدرٍ جنسيٍّ بحياة الفرد: شهوانيّته تعبّر بالعكس عن وضعه العام تجاه الوجود.

مع ذلك، للظروف أيضًا دورٌ هامٌّ في هذا الاختيار. اليوم أيضًا يعيش الجنسان منفصلين غالبًا: في المدارس الداخليّة، ومدارس الفتيات، يتمّ الانزلاق بسرعةٍ من الحميميّة إلى الجنس؛ نصادف عددًا أقلّ بكثيرٍ من السحاقيّات في الأوساط الّتي تسهّل فيها الزمالة بين البنات والصبيان التجارب متغايرة الجنس. وتنشأ صداقاتٌ غراميّةٌ بين العديد من النساء اللّواتي يعملن في مشاغل، ومكاتب، مع نساءٍ فقط، ولديهنّ فرصٌ قليلةٌ للاختلاط بالرجال: سيكون سهلًا عليهنّ مادّيًا ومعنويًا إقامة علاقاتٍ بين بعضهنّ. سيقودهنّ غياب علاقاتٍ متغايرة الجنس أو فشلها إلى الشذوذ. من الصعب وضع حدٍّ بين الاستكانة والاصطفاء: يمكن لامرأةٍ أن تكرّس نفسها للنساء لأن الرجل قد خذلها، ولكنّه يخذلها أحيانًا لأنّها تبحث فيه عن امرأةٍ. لكلّ هذه الأسباب من الخطأ القيام بتمييزٍ جذريٍّ بين متغايرة الجنس ومثليّة الجنس. بعد انقضاء زمن المراهقة المتردّد لا يعود الذكر الطبيعيّ يسمح لنفسه بنزواتٍ لوطيّةٍ؛ لكنّ المرأة الطبيعيّة تعود غالبًا إلى الغراميّات الّتي سحرت شبابها، أفلاطونيّةً كانت أم لا. وإذ خذلها الرجل، تبحث بين ذراعي أنثى عن العشيق الّذي خانها؛ لقد أوضحت

كوليت في «المتشرّدة» هذا الدور المواسي الّذي تلعبه غالبًا اللّذات المحرّمة في حياة النساء: يحدث أن يمضي بعضهن وجودهنّ بأكمله في العزاء. حتّى المرأة المشبعة بعناق الذكور يمكن ألّا ترفض لذّاتٍ أكثر هدوءًا. إن كانت سلبيّةً وحسّيّةً، لن تنفر من مداعبات صديقةٍ بما أنّها لن يكون عليها بذلك سوى الاستسلام، وترك نفسها تُشبَع. وإن كانت فعّالةً، متوقّدةً، ستبدو مثل «الخنثى»، ليس عبر تركيبةٍ من الهرمونات ولكن فقط لأنّ العدوانيّة وحبّ التملّك تعتبران صفاتٍ ذكريّةً؛ **كلودين** مغرمةٌ **برينو** لكن ذلك لا يمنعها من اشتهاء **ريزي**؛ إنّها امرأةٌ كاملةٌ دون أن تكفّ مع ذلك عن أن ترغب هي أيضًا في أن تَمتلكِ وتداعِب. بالطبع لدى «النساء الفاضلات» يتم إزاحة هذه الرغبات «الغاسقة» بعنايةٍ: مع ذلك تتجلّى بصورة صداقاتٍ نقيّةٍ ولكن شغوفةٍ، أو تحت غطاء الحنان الأموميّ؛ أحيانًا، تُكتَشف بصورةٍ مدوّيةٍ خلال تحليلٍ نفسيٍّ أو أثناء أزمة سنّ اليأس.

من غير المجدي بالأحرى أن نطمح إلى ترتيب السحاقيّات ضمن فئتين قاطعتين. يقترحن هنّ أنفسهنّ تقسيمهنّ إلى «مذكّراتٍ» و«مؤنّثاتٍ» لأنّ ملهاةً اجتماعيّةً تتطابق غالبًا مع علاقاتهنّ الحقيقيّة، مستمتعاتٍ بتقليد ثنائيٍّ ثنائي الجنس. ولكن لا ينبغي أن نُخدَع لأنّ الواحدة ترتدي طقمًا صارمًا والأخرى ثوبًا فضفاضًا. إن نظرنا إليهما عن كثبٍ نلاحظ أنّ جنسهما متناقضٌ إلّا في حالاتٍ محدودةٍ. المرأة الّتي تصبح سحاقيّةً لأنّها ترفض السيطرة الذكريّة تتذوّق غالبًا متعة رؤية الأمازونيّة الفخورة لدى أخرى؛ كان كثيرٌ من الغراميّات المحرّمة يزدهر فيما مضى بين طالبات **سيفر** Sèvre اللّواتي يعشن معًا بعيدًا عن الرجال؛ كنّ فخوراتٍ بالانتماء إلى صفوةٍ نسائيّةٍ وكنّ يردن البقاء أشخاصًا مستقلّين؛ هذا التعقيد الّذي كان يجمعهنّ ضدّ الطبقة المتميّزة كان يسمح لكلّ واحدةٍ بأن تُعجَبَ لدى صديقةٍ بهذا الكائن المدهش الّذي تحبّه في ذاتها؛ عندما تتعانقان فكلٌّ منهما تكون الرجل والمرأة في آنٍ واحدٍ وتُسحَر بفضائلها الخنوثيّة. وبالعكس، المرأة الّتي تريد الاستمتاع بأنوثتها بين ذراعين أنثويين تعرف أيضًا كبرياء عدم الخضوع لأيّ سيّدٍ. كانت **رينيه فيفيان** تحب الجمال الأنثويّ بشكلٍ متأجّجٍ وكانت تريد أن تكون جميلةً؛ فكانت تتزيّن، وكانت فخورةً بشعرها الطويل؛ ولكن كان يروق لها أيضًا أن تشعر بأنّها حرّةٌ سليمةٌ؛ وتعبّر في قصائدها عن احتقارها للّواتي يوافقن بالزواج على أن يصبحن خادماتٍ للذكر. كان ميلها للمشروبات

القويّة، ولغتها البذيئة أحيانًا يعبّران عن رغبتها بالذكوريّة. في الواقع، لدى الأغلبية الساحقة للثنائيّات تكون المداعبات متبادلةً. ينتج عن ذلك أن الأدوار توزَّع بطريقةٍ غير محدّدةٍ البتّة: فأكثر النساء طفوليّةً يمكنها لعب دور مراهقٍ أمام أمٍّ حاميةٍ، أو دور عشيقةٍ مستندةٍ على ذراع عشيقٍ. يمكنهما أن تتبادلا الحبّ ضمن المساواة. ولأنّ الشريكين متماثلان، فكلّ الأوضاع والتغيّرات والتبادلات والتمثيليّات ممكنةٌ. وتتوازن العلاقات تبعًا لميول كلّ واحدةٍ من الصديقتين النفسيّة وتبعًا لمجمل الوضع. إذا كانت إحداهما تساعد الأخرى أو تعيلها، فهي تقوم بوظائف الذكر: الحامي المتسلّط، أو المخدوع المُستغَلّ، السيّد المحترَم، أو حتّى الداعم؛ وتمنحها السلطةَ غالبًا فوقيّةً معنويّةً واجتماعيّةً وفكريّةً؛ مع ذلك تتمتّع المحبوبة أكثر بالامتيازات الّتي يسبغها عليها تعلّق الّتي تحبُّها أكثر. كما يحدث بين الرجل والمرأة، ويأخذ اجتماع امرأتين أشكالًا عديدةً مختلفةً؛ تقوم على المشاعر، والمصلحة، أو العادة؛ زوجيّة أو عاطفيّةً؛ تترك مجالًا للساديّة والمازوشيّة، للكرم، للإخلاص، للتفاني، والنزوات، والأنانيّة، والخيانة؛ وهناك بين السحاقيّات داعراتٌ كما بينهنّ عاشقاتٌ كبيراتٌ.

مع ذلك تعطي بعض الظروف لهذه العلاقات سماتٍ خاصّةً. لم يكرّسهنّ تشريعٌ ولا عاداتٌ، ولا تنظمهنّ اتّفاقيّاتٌ: وبهذا يعشن ذاتهنّ بصدقٍ أكبر. الرجل والمرأة ـ وإن كانا متزوجين ـ هما ممثّلان الواحد أمام الآخر وخصوصًا المرأة الّتي يفرض عليها الذكر دومًا بعض التعليمات: الفضيلة المثاليّة، السحر، الأناقة، الصبيانيّة، أو الصرامة؛ لا تشعر أبدًا أنّها حقيقيّةٌ تمامًا في وجود الزوج والعشيق؛ أما بقرب صديقةٍ فهي لا تستعرض نفسها ولا تتصنّع، إنهما متشابهتان إلى حدٍّ لا يمكن معه إلّا إظهار نفسيهما صراحةً. يولد هذا التشابه حميميّةً كاملةً. وليس للشهوانيّة غالبًا سوى حصّةٍ صغيرةٍ للغاية في هذه الاتّحادات؛ وللشبق صبغةٌ أقلّ عنفًا، لا يصيب بالدوار كما بين الرجل والمرأة، ولا يؤدّي إلى نفس التحوّلات المثيرة للاضطراب؛ ولكن عندما يفصل العشيقان جسديهما، يصبحان غريبين من جديدٍ؛ ويبدو الجسد الذكوري حتّى منفّرًا للمرأة؛ ويشعر الرجل أحيانًا بنوعٍ من الاشمئزاز الباهت تجاه جسد رفيقته؛ والحنان الجسديّ بين النساء أكثر ثباتًا واستمرارًا؛ إذ لا ينجرفن في نشوةٍ مسعورةٍ، لكنّهنّ لا يقعن أبدًا في لامبالاةٍ عدائيّةٍ؛ أن ترى الواحدة الأخرى، وتلمسها، هو متعةٌ هادئةٌ تطيل خفيةً أمد متعة السرير. دام اتّحاد سارة بوسونبي Sarah Posonby

بمحبوبتها قرابة خمسين سنةً دون شائبةٍ: يبدو أنّهما عرفتا كيف تخلقان على هامش العالم جنّةً هادئةً. لكنّ للصراحة أيضًا ثمنًا. لأنّهما تتكشفان لبعضهما، دون اهتمامٍ بالإخفاء أو ضبط النفس، وتحتدم بينهما نزاعاتٌ عنيفةٌ غير مسبوقةٍ. يستحي الرجل والمرأة من بعضهما لأنّهما مختلفان: يشعر أمامها بالشفقة والقلق؛ ويبذل جهدًا بمعاملتها بمجاملةٍ، وتسامحٍ، وتحفّظٍ؛ وتحترمه هي وتخشاه نوعًا، وتحاول السيطرة على نفسها أمامه؛ ويهتمّ كلٌّ بمراعاة الآخر الّذي لا يعرف تمامًا حجم مشاعره وردود فعله. النساء دون رحمةٍ بين بعضهنّ؛ يتعاكسن ويستفززنّ بعضهنّ، ويتلاحقن، ويستبسلن ويجذبن بعضهنّ إلى أسفل الدناءة. والهدوء الذكريّ ـ سواءً كان لا مبالاةً أم سيطرةً على النفس ـ عائقٌ تتحطّم عليه المشاحنات النسائيّة؛ ولكن بين صديقتين، هناك مزايدةٌ في الدموع والاختلاج؛ لا يشبعن من تبادل اللوم والتفسيرات. المطالب، واللّوم، والغيرة، والاستبداد، تنفلت كلّ كوارث الحياة الزوجيّة هذه بصورةٍ ساخطةٍ. إن كانت مثل هذه الغراميّات مشوبةً بالعواصف غالبًا، فهي أيضًا عادةً عرضةٌ للأخطار أكثر من الغراميات المتغايرة الجنس. يستنكرها المجتمع، ولا تنجح في الاندماج فيه جيّدًا. المرأة الّتي تضطلع بالوضع الذكوريّ ـ لطبعها ووضعها وقوّة عاطفتها ـ تندم لأنّها لم تمنح صديقتها حياةً عاديّةً ومحترمةً، ولأنّها لا تستطيع أن تتزوجها، ولأنّها جرّتها إلى دروبٍ شاذّةٍ؛ إنّها المشاعر الّتي ينسبها **رادكليف هال** Radcliffe Hall لبطلته في «آبار الوحدة»؛ ويتجلّى هذا الندم بقلقٍ مرضيٍّ وخصوصًا بغيرةٍ مُعذّبةٍ. تتعذّب الصديقة الأكثر سلبيّةً أو الأقل غرامًا من جهتها بالفعل من استنكار المجتمع؛ تظنّ أنّها منحطّةٌ، فاسدةٌ، مكبوتةٌ، وتحقد على تلك الّتي فرضت عليها هذا المصير. قد ترغب إحدى المرأتين بطفلٍ؛ فإمّا أن تقنع بحزنٍ بعقمها، أو أن تتبنّى الاثنتان طفلًا، أو أن تطلب تلك الّتي ترغب بالأمومة من رجلٍ أن يقدّم خدماته؛ ويكون الطفل أحيانًا صلة وصلٍ، وأحيانًا أيضًا مصدرًا جديدًا للاحتكاك.

ما يعطي للنساء أسيرات المثليّة الجنسيّة طابعًا ذكوريًّا ليس هو حياتهنّ الشهوانيّة الّتي تبقيهنّ على العكس ضمن عالمٍ أنثويٍّ: إنّه مجمل المسؤوليّات الّتي يرغمن على الاضطلاع بها بما أنّهنّ يستغنين عن الرجل. وضعهنّ هو عكس وضع المحظيّة الّتي يصبح فكرها أحيانًا ذكوريًّا لفرط ما عاشت بين الذكور ـ مثل **نينون دولانكلو** Ninon de Lenclos

ـ ولكنّها تظلّ تابعةً لهم. الجو الخاصّ الّذي يسود حول السحاقيّات يأتي من التباين بين مناخ الحريم الّذي تجري ضمنه حياتهنّ الخاصة والاستقلال الذكوريّ لوجودهنّ العلنيّ. ويتصرّفن كالرجال في عالمٍ خالٍ من الرجال. تبدو المرأة الوحيدة اليوم شيئًا شاذًّا بعض الشيء؛ غير صحيحٍ أنّ الرجال يحترمون النساء: إنّهم يحترمون بعضهم بعضًا من خلال نسائهم ـ سواءً الزوجات أو العشيقات أو الفتيات الّلواتي يعيلونهنّ» ؛وعندما تنحسر الحماية الذكريّة عن المرأة، تصبح عزلاء أمام فئةٍ عليا تبدو هجوميّةً، ساخرةً، أو عدائيّةً. وتثير المثليّة الجنسيّة الابتسام بالأحرى بصفتها «فسادًا شهوانيًا؛ و تثير الاحتقار أو الفضيحة بصفتها تنطوي على نمط حياةٍ. إن كان هناك كثيرٌ من الاستفزاز والتصنّع في تصرّفات السحاقيّات، فذلك لأنّه ليس لديهنّ أيّة وسيلةٍ ليعشن وضعهنّ بشكلٍ طبيعيٍّ: الطبيعيّ يفترض ألّا يفكّر المرء بنفسه، أن يتصرّف دون أن يستعرض أعماله؛ لكنّ تصرّفات الغير تدعو السحاقيّة باستمرارٍ إلى أن تعي ذاتها. فقط إن كانت مُسنّةً أو ذات مكانةٍ اجتماعيّةٍ كبيرةٍ تستطيع أن تتابع طريقها بلا مبالاةٍ هادئةٍ.

من الصعب أن نقرّر مثلًا، إذا كانت ترتدي غالبًا ملابس الرجال كردّ فعلٍ دفاعيٍّ أو لأنّ ذلك يروقها. في ذلك خيارٌ تلقائيٌّ حتمًا بقدرٍ كبيرٍ. لا شيء أقلّ طبيعيّةً من ارتداء ملابس النساء؛ لا شكّ أنّ الملابس الرجالية هي أيضًا مصطنعةٌ، لكنها مريحةٌ أكثر وأكثر بساطةً، لقد صُنعت لتسهّل الحركة بدلًا من أن تعيقها؛ كانت **جورج صاند**، و**ايزابيل إيبرارد** يرتدين بذلات رجلٍ؛ تذكر **تيد مونييه** Thyde Monier في كتابها الأخير[100] تفضيلها لارتداء البنطال؛ تحب كلّ امرأةٍ عمليّةٍ الكعوب المسطّحة، والأقمشة المتينة. معنى التبرّج الأنثويّ واضحٌ: إنّه «التزيّن» والتزيّن يعني عرض النفس؛ لقد أظهرت ناشطات الحركة النسويّة المتغايرات الجنس فيما مضى حول هذه النقطة تعنّتًا بقدر ما أظهرته السحاقيّات: كنّ يرفضن تحويل أنفسهنّ إلى سلعةٍ تُعرَض، واخترن الطقم النسويّ وقبّعة الّلباد الجافّة؛ كانت الأثواب المزيّنة والمكشوفة الصدر تبدو لهنّ رمز النظام الاجتماعيّ الّذي كنّ يكافحنه. ونجحن اليوم في السيطرة على الواقع وأصبح للرمز في نظرهنّ أهمّيةً أقلّ. وظلّ ذلك قائمًا بالنسبة للسحاقية بقدر ما تشعر أنّه ما زالت لها مطالبٌ. يحدث أيضًا أن تليق بها الملابس

100- أنا Moi.

الصارمة إذا كانت بعض الخصائص الجسديّة قد حفزت ميلها. نضيف أنّ من وظائف التبرّج إشباع شهوانيّة المرأة؛ لكنّ السحاقيّة ترفض تعزية المخمل والحرير: مثل ساندور تحبّهما على صديقاتها، أو أن يحلّ محلّها جسد صديقتها ذاته. لهذا السبب أيضًا تحبّ السحاقيّة غالبًا أن تشرب الخمر صرفًا، وتدخّن السجائر الغليظة، وتتحدّث بلغةٍ خشنةٍ، وتفرض على نفسها تمارين عنيفةً: جنسيًّا، تتشاطر النعومة الأنثويّة؛ وتحبّ للمفارقة مناخًا غير باهتٍ. من هذه الناحية، يمكنها أن تستمتع بصحبة الرجال. ولكن يتدخّل هنا عاملٌ جديدٌ: إنّها العلاقة الملتبسة غالبًا الّتي تربطها بهم. لن ترغب امرأةٌ واثقةٌ جدًّا بذكوريّتها إلّا بالرجال أصدقاءً وزملاءً: لا نصادف هذه الثقة البتّة إلّا لدى تلك الّتي لديها مصالح مشتركةٌ معهم، الّتي تعمل ـ في مجال الأعمال والفنون ـ وتنجح كواحدٍ منهم. عندما كانت **جرترود شتاين** Gertrude Stein تستقبل أصدقاءها، لم تكن تتحدّث إلّا مع الذكور وكانت تترك لـ **أليس توكلا** Alice Toklas مهمّة العناية برفيقاتهم[101]. تجاه النساء تتّخذ مثليّة الجنس الشديدة الذكوريّة موقفًا مزدوجًا: تحتقرهنّ، لكنّ لديها في مواجهتهنّ عقدة نقصٍ كامرأةٍ وكرجلٍ في آنٍ معًا؛ تخشى أن تبدو لهنّ امرأةً ناقصةً، أو رجلًا غير مكتملٍ، ما يقودها إلى إظهار فوقيّةٍ مترفّعةٍ، أو تُبدي تجاههنّ ـ مثل المتشبّهة بالرجال الّتي ذكرها **ستيكل** ـ عدوانيّةً ساديّةً. لكنّ هذه الحالة نادرةٌ للغاية. رأينا أنّ معظم السحاقيّات يرفضن الرجل بتحفّظٍ: لديهن كما لدى المرأة الباردة اشمئزازٌ، وضغينةٌ، وخجلٌ، وكبرياءٌ؛ لا يشعرن أنّهنّ مشابهاتٌ لهم حقًّا؛ تضاف إلى ضغينتهنّ عقدة نقصٍ ذكوريّةٌ؛ إنّهم خصومٌ أفضل تسلّحًا من أجل الإغواء، من أجل امتلاك طريدتهم والاحتفاظ بها؛ يكرهن سلطتهم على النساء، ويكرهن «الدنس» الّذي يفرضونه على المرأة. تثيرهنّ أيضًا رؤيتهم يحتفظون بالامتيازات الاجتماعيّة وشعورهنّ بأنّهم أقوى منهنّ: إنّه لإذلالٌ فظيعٌ ألّا تستطيع مقاتلة خصمٍ، وأن تعرف أنّه يستطيع طرحك أرضًا بلكمةٍ من قبضته. هذه العدائيّة المعقّدة هي إحدى الأسباب الّتي تقود بعض مثليّات الجنس إلى التباهي؛ فلا يعاشرن إلّا بعضهنّ؛ ويشكّلن أنواعًا من النوادي لإظهار أنّهن لم يعدن بحاجةٍ للرجال اجتماعيًّا وجنسيًّا. من ذاك يسهل الانزلاق إلى

101- متغايرة الجنس الّتي تعتقد ـ أو تريد الاقتناع ـ أنّها تتجاوز بقيمتها الاختلاف بين الجنسين تتصرّف بشكلٍ مشابهٍ: كذلك فعلت مدام دو ستايل.

تبجّحاتٍ لا طائل منها وإلى كلّ تمثيليّات اللاشرعيّة. تلعب السحاقيّة في البدء دور الرجل؛ ثم يصبح كونها سحاقيّةً لعبةً بحدّ ذاته؛ تبدأ المتشبّهة بالرجال بالتنكّر ثم يصبح هذا التنكر زيها الرسمي. وبحجّة التخلّص من اضطهاد الرجل تصبح المرأة عبدة ذاتها؛ لم تشأ حبس نفسها ضمن وضع المرأة، فحبست نفسها ضمن وضع السحاقيّة. لا شيء يعطي انطباعًا أسوأ عن ضيق الأفق والتشويه من هذه المجموعات من النساء المتحرّرات. يجب أن نضيف أنّ كثيرًا من النساء لا يعلنّ أنّهنّ مثليّات الجنس إلّا عن مسايرةٍ تخفي مصلحةً: لا يتبنّين إلّا بوعيٍ أكبر مظاهر ملتبسةً، آملاتٍ فوق ذلك اجتذاب الرجال الّذين يحبّون «الفاسقات». تساهم هاته المتحمسات الصاخبات اللّواتي يجلبن الانتباه بالطبع أكثر من غيرهنّ ـ في تشويه ما يعتبره الري العام رذيلةً وتصنّعًا.

المثليّة الجنسيّة في الحقيقة ليست انحرافًا اختياريًّا أكثر منها لعنةً محتومةً[102]. إنّه موقفٌ اتُّخِذ تبعاً لوضعٍ، أي أنّ له دوافعه وأنّه مُختارٌ بحرّيّةٍ في الوقت نفسه. لا شيء حاسمٌ من بين العوامل الّتي تضطلع بها الذات بهذا الخيار: المعطيات الفزيولوجيّة، والتاريخ النفسيّ، والظروف الاجتماعيّة، مع أنّ الجميع يساهم في تفسيره. إنّه بالنسبة للمرأة طريقةٌ من بين سواها لحلّ المشاكل الّتي يطرحها وضعها عمومًا، ووضعها الجنسيّ بصورةٍ خاصّةٍ. وككلّ السلوكيّات البشريّة، تقود إلى تمثيليّاتٍ، وعدم اتّزانٍ، وفشلٍ، وكذبٍ، أو على العكس، تكون مصدر خبراتٍ مثمرةٍ، حسبما تُعاشُ بسوء نيّةٍ، وبكسلٍ، ولاشرعيّةٍ أو بوضوحٍ وكرمٍ وحرّيّةٍ.

102- يقدّم كتاب «بئر الوحدة» بطلةً موسومةً بحتميّةٍ نفسيّةٍ فزيولوجيّةٍ. لكنّ القيمة الوثائقيّة لهذه الرواية ضئيلةٌ للغاية رغم الشهرة الّتي نالتها.

القسم الثاني

الوضع

الفصل الخامس

المرأة المتزوّجة

الزواج هو المصير الّذي يعرضه المجتمع تقليديًّا على المرأة. معظم النساء حتّى اليوم متزوّجاتٌ، أو كنّ كذلك، أو يتحضّرن للزواج أو يعانين من عدمه. تُعرَّف العازبة نسبةً إلى الزواج، سواءً كانت مكبوتةً، أو ثائرةً أو حتّى لا مباليةً تجاه هذا الوضع. علينا متابعة هذه الدراسة إذًا بتحليل الزواج.

يصيب التطوّر الاقتصاديّ للوضع الأنثويّ مؤسّسة الزواج بالاضطراب: أصبح اتّحادًا تتّفق عليه بحريّةٍ فرديّتان مستقلّتان؛ وتعهّدات الزوجين شخصيّةٌ ومتبادلةٌ؛ والخيانة بالنسبة للطرفين نقضٌ للعقد؛ ويمكن لكلٍّ منهما الحصول على الطلاق بنفس الشروط. لم تعد المرأة محصورةً بوظيفة الإنجاب: فقد فقدت هذه الوظيفة في جزءٍ كبيرٍ صبغتها كعبوديّةٍ طبيعيّةٍ، وتبدو عبئًا يُضطَلع به بمحض الإرادة[103]؛ وهي تماثل عملًا منتجًا بما أنّ وقت الراحة الّذي يفرضه الحمل يجب في كثيرٍ من الحالات أن يكون مدفوعًا للأمّ من قِبل الدولة أو ربّ العمل. ظهر الزواج في الاتّحاد السوفييتي خلال عدة سنواتٍ كعقدٍ بين الأفراد يقوم على حريّة الزوجين فقط؛ يبدو أنّه أصبح اليوم خدمةً تفرضها عليهما الدولة.

103- انظر الجزء الأول.

وسيتغلّب أحد الاتّجاهين على الآخر تبعًا للتركيب العام للمجتمع: ولكن الوصاية الذكوريّة على أيّ حالٍ في طريقها إلى الزوال. مع ذلك المرحلة الّتي نعيشها ما زالت من وجهة نظر النساء مرحلةً انتقاليّةً. جزءٌ فقط من النساء يساهم في الإنتاج وحتّى هذا الجزء ينتمي إلى مجتمعٍ ما زالت تعيش فيه تراكيب وقيمٌ قديمةٌ. لا يمكن فهم الزواج الحديث إلّا في ضوء الماضي الّذي يجعله يستمرّ.

بدا الزواج على الدوام بصورةٍ مختلفةٍ بالنسبة للرجل وللمرأة. الجنسان ضروريّان الواحد للآخر، لكنّ هذه الضرورة لم تولد بينهما المبادلة أبدًا. لم تشكّل النساء أبدًا طبقةً تقيم مع طبقة الذكور علاقات تبادلٍ وعقودٍ على قدم المساواة. الرجل اجتماعيّاً فردٌ مستقلٌّ ومكتملٌ؛ يُنظَر إليه قبل كلّ شيءٍ على أنّه منتجٌ ويُبرَّر وجوده بالعمل الّذي يؤدّيه للمجموعة؛ ورأينا[104] الأسباب الّتي جعلت الدور الإنجابيّ والمنزليّ الّذي حُصِرت فيه المرأة لا يؤمّن لها نفس المرتبة. والذكر بحاجةٍ إليها بالتأكيد؛ لدى بعض الشعوب البدائيّة، يحدث أن يكون الأعزب، غير القادر على تأمين احتياجاته بنفسه، منبوذًا نوعًا؛ وفي التجمّعات الزراعيّة لا غنى للفلّاح عن مساعِدةٍ؛ وبالنسبة لمعظم الرجال من المفيد التخلّص من بعض المشاقّ بإلقائها على عاتق رفيقةٍ؛ ويتمنّى الفرد حياةً جنسيّةً مستقرّةً، يرغب في ذرّيّةٍ والمجتمع يطالبه بالمساهمة في إبقاءه. لكنّ الرجل لا يوجّه نداءه نحو المرأة بذاتها: إن مجتمع الرجال هو الّذي يسمح لكلٍّ من أعضائه بإكمال نفسه كزوجٍ وأبٍ؛ لقد أُدخِلت المرأة كعبدةٍ أو تابعةٍ للمجموعات الأسريّة الّتي يسيطر عليها الآباء والأشقّاء، وكانت تُمنَح دائمًا كزوجةٍ من بعض الذكور لذكورٍ آخرين. تتصرّف بها القبيلة و العشيرة الأبويّة بشكلٍ بدائيٍّ تقريبًا كما لو كانت شيئًا: إنّها جزءٌ من خدماتٍ اتّفقت عليها مجموعتان بالتراضي؛ لم يتغيّر وضعها كثيرًا عندما اتّخذ الزواج خلال تطوّره[105] صفة العقد؛ تبدو المرأة شخصًا مدنيًّا، سواءً كانت لديها دوطة أو نالت نصيبها من الإرث: لكنّ الدوطة والإرث يجعلانها كذلك عبدةً لأسرتها؛ لفترةٍ طويلةٍ كان والد العروس والصهر يوقّعان العقود، وليس الزوجة والزوج؛ تتمتّع الأرملة فقط باستقلالٍ اقتصاديٍّ[106]. كانت حريّة الاختيار للشابة ضيّقةً دومًا؛ وتنحدر

104- انظر الجزء الأوّل.

105- تمّ هذا التطوّر بصورةٍ متقطّعةٍ. تكرّر في مصر، وروما، وفي الحضارة الحديثة؛ انظر الجزء الأول، «التاريخ».

106- من هنا أتت الصفّة الخاصّة للأرملة الشابّة في الأدب الشهواني.

بها العزوبيّة ـ إلّا في حالاتٍ استثنائيّةٍ تكتسي فيها طابع القداسة ـ إلى مرتبة الطفيليّة أو المنبوذة؛ الزواج هو مورد رزقها الوحيد والمسوّغ الاجتماعيّ الوحيد لوجودها. يُفرَض عليها بصفتين: إذ عليها أن تمنح العشيرة أطفالًا؛ لكنّ الحالات الّتي تتولّى الدولة الوصاية عليها مباشرةً ولا تطلب منها سوى أن تكون أمًّا نادرةٌ، كما في اسبرطة ونوعًا ما في النظام النازيّ. حتّى الحضارات الّتي تجهل الدور الإنجابيّ للأب تفرض عليها أن تكون تحت حماية زوجٍ؛ ولديها أيضًا وظيفة إرضاء الحاجات الجنسيّة لذكرٍ والاهتمام بمنزله. يُعتَبَر العبء الّذي يفرضه عليها المجتمع خدمةً تُقدَّم للزوج: وبالتالي عليه أن يقدّم لزوجته هدايا أو صداقًا، ويتعهّد بإعالتها؛ وعن طريقه تتخلّص المجموعة ممّا عليها تجاه المرأة الّتي تخصّصها له. تتجلّى الحقوق الّتي تكسبها الزوجة لقاء قيامها بواجباتها بالتزاماتٍ يخضع لها الزوج. إذ لا يستطيع فسخ رباط الزوجيّة على هواه؛ ولا يحصل على الطلاق إلّا بقرارٍ من السلطات العامّة وعلى الزوج عندها أحيانًا دفع تعويضٍ ماليٍّ: حتّى أنّ استخدام ذلك يصبح تعسّفيًّا في مصر بوخوريس[107] وكما اليوم في الولايات المتّحدة الأمريكيّة بشكل نفقةٍ «Alimony»، كانوا يتساهلون مع تعدّد الزوجات بشكلٍ صريحٍ قليلًا أو كثيرًا: يستطيع الرجل أن يضع في سريره العبدات والمحظيّات والعشيقات والمومسات؛ ولكنّه يُلزَم باحترام بعض الامتيازات لزوجته الشرعيّة. إذا وجدت هذه نفسها أنّها تعرّضت لسوء المعاملة أو للضرر، يمكنها أن تجد مخرجًا ـ مضمونًا في قليلٍ أو كثير ـ في العودة لأسرتها، والحصول من جهتها على التفريق أو الطلاق. فالزواج بالتالي بالنسبة للزوجين عبءٌ وفائدةٌ معًا؛ ولكن لا يوجد تناظرٌ بين وضعيهما؛ الزواج بالنسبة للشابّات هو الوسيلة الوحيدة للاندماج بالمجموعة وإذا بقين بلا زواجٍ، أصبحن اجتماعيًّا نفاياتٍ. ولهذا تحاول الأمّهات باستبسالٍ تزويجهنّ. في القرن الماضي، في الطبقة البورجوازيّة، بالكاد كانوا يستشيروهنّ. كانوا يقدّمونهنّ للخطّاب المحتمَلين خلال «مقابلاتٍ» مرتّبةٍ سلفًا. وصف زولا Zola هذه العادة في روايته «Pot-Bouille».

قالت السيّدة جوسران وهي ترتمي على كرسيّها: «فشلٌ، هذا فشلٌ. قال السيّد جوسران ببساطة: «آه!». تابعت السيّدة جوسران بصوتٍ حادٍّ: «لكنّك لا تفهم إذًا، أقول

107- بوخوريس مشرّع فرعوني (المترجمة).

لك ها هو زواجٌ آخر يفشل، وهذا هو الرابع الّذي يفشل!». وتابعت السيّدة جوسران زاحفةً نحو ابنتها: «أتسمعين؟ كيف تركت هذا الزواج أيضًا يفوتك؟»

فهمت برت أن دورها قد حان، فتمتمت: «لا أعرف يا أمّاه».

تابعت أمّها: «مساعد رئيس مكتب؛ لم يبلغ الثلاثين، مستقبلٌ باهرٌ. يمنحك ماله كلّ شهرٍ: هذا شيءٌ مضمونٌ، ولا شيء سواه... لقد قمتِ مرّةً أخرى بحماقةٍ، كما فعلتِ مع الآخرين؟»

كلّا يا أمّي، أؤكّد لك.

«وأنتما ترقصان انتقلتما إلى البهو الصغير؟»

ارتبكت برت: «أجل يا أمّي... حتّى أنّه حاول القيام بأشياء شنيعةٍ بما أنّنا كنّا بمفردنا، قبّلني ممسكًا بي هكذا. عندئذٍ خفت، ودفعته على قطعة أثاثٍ».

قاطعتها أمها، ثائرةً: «دفعتيه نحو قطعة أثاثٍ! آه يا للبائسة، دفعتيه نحو قطعة أثاثٍ!»

ولكن يا أمّي، كان يمسكني.

«وماذا بعدُ؟ كان يمسكك... يا للأمر العظيم! ضعوا إذن هؤلاء الحمقى في المدرسة الداخليّة! ما الّذي يعلّمونكم إياه، قولي!... من أجل قبلةٍ خلف بابٍ! في الحقيقة هل كنت مضطرّة لتخبرينا عن ذلك، نحن والديك؟ تدفعن الناس نحو قطعة أثاثٍ، وتخسرن زيجاتٍ!»

وتابعت، متّخذةً لهجةً متصنّعةً:

«انتهى الأمر، أشعر باليأس، أنت حمقاء يا ابنتي... بما أنّك لا تملكين ثروةً، افهمي إذًا أنّ عليك التقاط الرجال بأشياء أخرى. عليك أن تكوني لطيفةً، نظراتك كلّها حنانٌ، انسي يدك، واسمحي له بعبثٍ صبيانيٍّ دون أن يبدو عليك ذلك، أعني، اصطادي زوجًا... - وتابعت السيّدة جوسران - وما يثيرني هو أنّها ليست سيئةً جدًا عندما تريد. امسحي عينيك، وانظري إليّ كما لو كنتُ سيّدًا يغازلك. أترين، تسقطين مروحتك لكي يلامس السيّد أصابعك وهو يلتقطها... لا تكوني متصلّبةً، ليكن خصرك ليّنًا. الرجال لا يحبّون ألواح الخشب. وخصوصًا، لا تكوني حمقاء إن تجاوزوا الحدود. الرجل الّذي يتجاوز الحدود متأجّجٌ يا عزيزتي».

دقّت ساعة البهو الثانية ليلًا؛ وأثناء احتدام هذه السهرة المطوّلة، وضمن رغبتها

العنيفة بزواجٍ فوريّ، نسيت الأمّ نفسها وراحت تفكّر بصوتٍ عالٍ، تدير وتقلّب ابنتها كدميةٍ من الورق المقوّى. واستسلمت هذه رخوةً دون إرادةٍ، لكنّ قلبها كان مثقلًا بالحزن، يعتصر حنجرتها خوفٌ وخجلٌ...

وهكذا تبدو الشابّة سلبيّةً جدًا؛ إنّها تُزَوَّج، يمنحها والداها للزوج. الشبّان يتزوّجون، يتّخذون زوجةً. يبحثون في الزواج عن امتدادٍ، عن تأكيدٍ لوجودهم، ولكن ليس عن الحقّ بالوجود بحدّ ذاته؛ إنّه تكليفٌ يضطلعون به طوعًا. يستطيعون إذًا أن يتساءلوا عن ميزاته ومساوئه كما فعل هجّاؤو اليونان والقرون الوسطى؛ إنّه بالنسبة لهم نمط حياةٍ وليس مصيرًا. يباح لهم تفضيل وحدة العزوبيّة، و يتزوّج البعض متأخّرًا أو لا يتزوّج البتّة.

عندما تتزوّج المرأة تتلقّى جزءًا من العالم كمنطقة نفوذٍ؛ تحميها الضمانات القانونيّة من نزوات الرجل؛ لكنها تصبح تابعةً له. إنّه هو زعيم المجموعة اقتصاديًّا، وانطلاقًا من ذلك هو من يمثّلها في نظر المجتمع. فتأخذ اسمه؛ وتنضم إلى طائفته، وتندمج في طبقته، ووسطه؛ وتنتمي لأسرته، وتصبح «نصفه»؛ تتبعه حيث يتطلّب عمله: يستقرّ المنزل الزوجيّ في المكان الّذي يمارس فيه عمله؛ فتقطع صلتها بماضيها بقسوةٍ متفاوتة الشدّة، وتُلحَق بمحيط زوجها؛ وتمنحه شخصها: وتدين له بعذريّتها وبالإخلاص الشديد. وتفقد جزءًا من حقوقها الّتي يعترف بها القانون للعازبة. كان التشريع الرومانيّ يضع المرأة في عهدة الزوج؛ في بداية القرن التاسع عشر، أعلن بونالد Bonald أنّ المرأة هي لزوجها كما الطفل للأمّ؛ وحتّى قانون 1942، كان القانون الفرنسيّ يطالبها بإطاعة زوجها؛ وما زال القانون والأعراف يمنحان الزوج سلطةً كبيرةً: يفرضها وضعه ضمن المؤسسة الزوجية. بما أنه هو المنتج، فهو الّذي يتجاوز مصلحة الأسرة إلى مصلحة المجتمع والّذي يفتح لها آفاق مستقبلٍ بمساهمته في إقامة المستقبل المشترك: هو من يمثّل التسامي. وتُكرَّس المرأة لإبقاء النوع وللعناية بالمنزل، أي التأصّل[108]. في الحقيقة كلّ وجودٍ هو تسامٍ وتأصّلٌ في الوقت نفسه؛ لكي يتفوّق على نفسه يتطلّب الثبات، ولكي ينطلق نحو المستقبل عليه إدخال الماضي وتأكيد ذاته مع تواصله مع الغير. هاتان اللّحظتان موجودتان في كلّ حركةٍ حيّةٍ: لا يسمح الزواج للرجل

108- راجع الجزء الأول. نجد هذه الفرضية لدى سان بول Saint Paul، آباء الكنيسة، روسو Rousseau، برودون Proudhon، أوغست كونم Auguste Compte، د.هـ. لورنس D.H.Lawrence إلخ..

تحديدًا بالتركيب الناجح؛ في مهنته، في حياته السياسيّة، يعيش التغيير والتقدّم، ويشعر بتشتّته خلال الزمن والعالم؛ وعندما يتعب من هذا التشرّد، يؤسّس أسرةً، ويستقرّ، ويلقي بمرساته في العالم؛ وفي المساء، يأوي إلى البيت حيث تسهر الزوجة على الأثاث والأطفال والماضي الّذي تخزّنه. ولكن ليس لديها مهامّ أخرى سوى الحفاظ على الحياة والعناية بها في عموميّتها الصرفة والحقيقية؛ إنّها تديم النوع المستقرّ، وتؤمّن إيقاع الأيّام المتساوي واستمراريّة الأسرة الّتي تُبقي أبوابها مغلقةً؛ لا تُعطى أيّ تأثيرٍ مباشرٍ على المستقبل ولا على الكون؛ ولا تتجاوز نفسها نحو المجموعة إلّا عبر الزوج.

يحافظ الزواج اليوم بقدرٍ كبيرٍ على هذه الصورة التقليديّة. فأولًا يفرض نفسه بشكلٍ كبيرٍ على الشابّة أكثر منه على الشابّ. ما تزال هناك طبقاتٌ اجتماعيّةٌ كبيرةٌ لا يُطرح عليها فيها أيّ منظورٍ آخر؛ لدى الفلّاحين، العزباء منبوذةٌ؛ وتبقى خادمةً لأبيها، وإخوتها، وزوج أختها؛ والنزوح إلى المدينة غير ممكنٍ البتّة بالنسبة لها؛ يجعلها الزواج سيّدة منزلٍ مُسخِّرًا إيّاها لرجلٍ. في بعض الأوساط البورجوازيّة ما زالوا يتركون الشابّة غير قادرةٍ على كسب عيشها؛ لا تستطيع سوى العيش خاملةً متطفّلةً في المنزل الأبويّ أو تقبل وضعًا تابعًا في منزلٍ غريبٍ. وحتّى في حال كانت أكثر تحرّرًا، فالامتياز الاقتصادي الّذي يملكه الذكور يجعلها تفضّل الزواج على المهنة: فتبحث عن زوجٍ وضعه أعلى من وضعها، تأمل أن «يصل» بسرعةٍ أكبر إلى منصبٍ هي عاجزةٌ عن بلوغه. يُقبَل الآن كما في الماضي أنّ فعل الحبّ هو خدمةٌ تقدّمها المرأة للرجل؛ فيأخذ متعته وعليه بالمقابل دفع تعويضٍ. جسد المرأة هو شيءٌ يُشتَرى؛ يمثّل بالنسبة لها رأسمالًا يُسمح لها باستغلاله. أحيانًا تأتي للزوج بمهرٍ؛ وتتعهّد غالبًا بتقديم بعض الأعمال المنزليّة، فتدير المنزل وتربّي الأطفال. على كلّ حالٍ، لديها الحقّ في ترك الآخرين يعيلونها وتحثّها الآداب العامّة التقليديّة على ذلك. من الطبيعيّ أن تغريها هذه التسهيلات، فضلًا عن أنّ المهن النسويّة غالبًا غير مرغوبةٍ وضئيلة المردود؛ فالزواج هو مهنةٌ أكثر ميزةً من كثيرٍ سواها.

وما زالت الأعراف تجعل التحرّر الجنسيّ للعزباء صعبًا؛ في فرنسا كانت خيانة الزوجة حتّى أيامنا جنحةً بينما لا يحظر أيّ قانونٍ على المرأة حرّيّة الحب؛ مع ذلك، إذا أرادت اتّخاذ عشيقٍ، كان ينبغي أولًا أن تتزوّج. مازال الآن كثيرٌ من الشابّات البورجوازيّات

اللّواتي تلقّين تربيةً صارمةً يتزوّجن «ليصبحن حرّاتٍ». اكتسب عددٌ كبيرٌ من الأمريكيّات حرّيّتهنّ الجنسيّة؛ لكنّ خبراتهنّ تشبه خبرة الشبّان السُذَّج الّذين وصفهم **مالينوفسكي** Malinowsky بأنّهم يتذوّقون في «منزل العزّاب» متعًا دون نتائج؛ يُنتَظر منهم أن يتزوّجوا وساعتها فقط يُعتبرون راشدين. امرأةٌ وحيدةٌ، في أمريكا أكثر منها في فرنسا، هي شخصٌ غير مكتملٍ اجتماعيًّا، حتّى وإن كانت تكسب عيشها؛ يلزمها خاتمٌ في إصبعها كي تكتسب كرامة شخصٍ كاملةً وجميع حقوقه. لا تُحتَرم الأمومة بشكلٍ خاصٍّ إلّا لدى المرأة المتزوجة؛ وتبقى الأم العزباء موضع فضيحةٍ ويكون الطفل إعاقةً كبيرةً لها.

لكلّ هذه الأسباب، كثيرٌ من مراهقات العالمين القديم والجديد، حين يُسألن عن مشاريعهنّ المستقبليّة، يُجِبن اليوم كما كنّ يفعلن سابقًا: «أودّ أن أتزوّج». مع ذلك لا يوجد شابٌّ يعتبر الزواج مشروعه الأساسيّ. نجاحه الاقتصاديّ هو ما سيعطيه كرامته كبالغٍ: قد تتضمّن هذه الكرامة الزواج ـ خصوصًا للفلّاح ـ لكنّها قد تستثنيه أيضًا. ظروف الحياة الحديثة ـ الأقلّ استقرارًا والأكثر غموضًا من ذي قبل ـ تجعل أعباء الزواج ثقيلةً على الشابّ بشكلٍ خاصٍّ؛ ومكاسبها على العكس تقلّ بما أنّه يستطيع بسهولةٍ القيام بشؤونه بنفسه وبما أنّ الإشباع الجنسي متوفّرٌ له عمومًا. لا شكّ أنّ الزواج يتضمّن ميزاتٍ ماديّةً (يأكل المرء أفضل في بيته) وتسهيلاتٍ جنسيّة (بهذا يصبح لدينا ماخورٌ في البيت) ويحرّر الفرد من وحدته، ويثبته في الفضاء والزمان مانحًا إياه أسرةً وأطفالًا؛ إنّه اكتمالٌ نهائيٌّ لوجوده. هذا لا يمنع أنّ الطلبات الذكوريّة بوجه العموم أقلّ من العروض الأنثويّة. الأب لا يعطي ابنته بل بالأحرى يتخلّص منها؛ والشابّة الّتي تبحث عن زوجٍ لا تلبّي طلبًا ذكريًّا بل تحرّضه.

لم تختفِ الزيجات المرتّبة؛ وهناك طبقةٌ بورجوازيّة مثقّفةٌ ما تزال مستمرّةً بها. حول قبر **نابوليون**، وفي الأوبرا، وفي الحفل، وعلى الشاطئ، وفي جلسة شاي، تجلس الطامحة للزواج، ذات الشعر المملّس حديثًا، مرتديةً ثوبًا جديدًا، تعرض على استحياءٍ مفاتنها الجسديّة وحديثها المتواضع؛ ووالداها يلاحقانها: «لقد كلّفتِني غاليًا بهذه المقابلات؛ خذي قرارك. المرة القادمة سيأتي دور أختك». وتعرف المرشّحة المسكينة أنّ فرصها تقلّ كلّما تقدّم بها العمر؛ والخطّاب ليسوا كثيرين: ولم تعد لديها حرّيّة اختيارٍ أكثر من البدويّة الّتي

يقايضونها بقطيعٍ من الأغنام. كما تقول **كوليت**[109] : «شابّةٌ دون ثروةٍ ودون عملٍ تعيش عالةً على أشقّائها ليس عليها سوى أن تخرس، وتقبل حظّها وتشكر الله!».

وبطريقةٍ أقلّ فجاجةً، تسمح الحياة الاجتماعيّة للشباب بالالتقاء تحت أعين الأمهات الساهرة. لقد[110] حصلت الشابّات على بعض الحرّيّة، فأصبحن يخرجن أكثر، ويرتدن الجامعات، ويتّخذن مهنةً تعطيهنّ فرصة التعرّف إلى رجالٍ. لقد أجرت السيّدة **كلير لوبلا** Claire Leplae تحقيقًا بين عامي 1945 و1947 ضمن الطبقة البورجوازيّة البلجيكيّة حول مسألة الاختيار الزوجي. قامت الكاتبة بمقابلاتٍ؛ وسأورد بعض الأسئلة الّتي طرحتها والأجوبة الّتي حصلت عليها.

س: هل الزيجات المرتّبة كثيرةٌ؟

ج: لم يعد هناك زيجاتٌ مرتّبةٌ (51%).

الزيجات المرتّبة نادرةٌ للغاية، 1% على الأكثر (16%).

1 إلى 3% من الزيجات مرتّبةٌ (28%).

5 إلى 10% من الزيجات مرتّبةٌ (5%).

يشير الأشخاص المعنيّون إلى أنّ الزيجات المرتّبة، الّتي كانت كثيرةً قبل 1945، اختفت تقريبًا. مع ذلك، «المصلحة، وغياب العلاقات، والخجل أو العمر، والرغبة في تحقيق زيجةٍ ناجحةٍ هي الدوافع لبعض الزيجات المرتّبة». هذه الزيجات يقوم بها الكهنة غالبًا، أحيانًا أيضًا تتزوّج الشابّة بالمراسلة. «يقمن بأنفسهنّ بكتابة أوصافهنّ على ورقةٍ خاصّةٍ، تحمل رقمًا. تُرسَل هذه الورقة إلى كلّ الأشخاص الّذين توجد أوصافهم فيها. تتضمّن مثلًا مئتي مرشّحةٍ للزواج وعددًا مماثلًا تقريبًا من المرشّحين الّذين كتبوا أوصافهم هم أيضًا. يستطيع كلّ واحدٍ أن يختار بحريّةٍ شخصًا يراسله عبر وساطة المؤسّسة».

س: ما هي الظروف الّتي سمحت للشباب بأن يخطبوا خلال هذه العشر سنواتٍ؟

ج: اللقاءات الاجتماعيّة (48%).

الدراسة، والأعمال المشتركة (22%).

109- منزل كلودين.

110- راجع كلير لوبلا Claire Leplae، الخطوبة Les Fiancailles.

اللقاءات الحميمة، والسكن (30%).

يتّفق الجميع على أنّ «الزيجات بين أصدقاء الطفولة نادرةٌ للغاية. يأتي الحبّ من غير المتوقَّع».

س: هل يلعب المال دورًا أساسيًّا في اختيار الشخص الّذي نتزوّجه؟

ج: 30% من الزيجات ليست إلا صفقاتٍ ماليّةً (48%).

50% من الزيجات ليست إلّا صفقاتٍ ماليّةً (35%).

70% من الزيجات ليست إلّا صفقاتٍ ماليّةً (17%).

س: هل يتلهّف الآباء إلى تزويج بناتهم؟

ج: الآباء متلهّفون لتزويج بناتهم (58%).

الآباء يرغبون في تزويج بناتهم (24%).

الآباء يتمنّون إبقاء بناتهم لديهم (18%).

س: هل تتلهّف الشابّات على الزواج؟

ج: تتلهّف الشابّات على الزواج (36%).

ترغب الشابّات في الزواج (38%).

تفضّل الشابّات عدم الزواج على زواجٍ سيّءٍ (26%).

«تنقضّ الشابّات على الشبّان. يتزوجن أول قادمٍ لكي يحصلن على الاستقرار. يأملن جميعًا بالزواج ويجهدن كي يحصلن عليه. إهانةُ للشابّة ألّا تكون مطلوبةً: وكي تتفادى ذلك تتزوّج أوّل قادمٍ. يتزوّجن من أجل الزواج. تتزوّج الشابات كي يصبحن متزوّجاتٍ. تستعجل الشابّات الاستقرار لأنّ الزواج يؤمّن لهن مزيدًا من الحريّة». تتطابق جميع الإفادات تقريبًا حول هذه النقطة.

س: هل تبحث الفتيات عن الزواج بحماسةٍ أكبر من الفتيان أنفسهم؟

ج: تعلن الفتيات عواطفهنّ للشبّان طالباتٍ منهم أن يتزوجوهنّ (43%).

الفتيات أكثر حماسةً من الشبّان في البحث عن الزواج (43%).

الفتيَات متكتّماتٌ (14%)

هنا أيضًا هناك شبه إجماعٍ: الفتيات هنّ من يأخذ زمام المبادرة في موضوع الزواج

عادةً. «تدرك الشابّات أنهنّ لم يحصلن على شيءٍ يتدبّرن به أمور الحياة؛ وبما أنّهن لا يعرفن كيف يمكنهنّ العمل ليحصلن على لقمة عيشهنّ، يبحثن في الزواج عن خشبة خلاصٍ. يبُحن بعواطفهنّ ويرتمين على رأس الشبّان. إنّهنّ مخيفاتٌ! تستخدم الفتاة كلّ شيءٍ لتتزوّج... المرأة هي الّتي تبحث عن الرجل، إلخ».

لا توجد وثائق مشابهةٌ تخصّ فرنسا؛ ولكن بما أنّ وضع الطبقة البورجوازيّة متشابهٌ في فرنسا وبلجيكا، نصل دون شكٍّ إلى نتائج مشابهةٍ؛ الزيجات «المرتّبة» كانت دائمًا أكثر في فرنسا من أيّ بلدٍ آخر ونادي les lisèrès verts الشهير، الّذي يلتقي أعضاؤه في سهراتٍ تهدف إلى تسهيل التقارب بين الجنسين ما زال مزدهرًا؛ وإعلانات الزواج تشغل أعمدةً طويلةً في العديد من الصحف.

في فرنسا، كما في أمريكا، الأمّهات والبنات الأكبر سنًّا والمجلّات النسائيّة الأسبوعيّة تعلّم الشابّات بصفاقةٍ فن «التقاط» زوجٍ كما يلتقط الورق لاقط الذبابِ الذبابَ؛ إنّه «صيدٌ»، «قنصٌ»، يتطلّب كثيرًا من المهارة: لا تتطلّعي إلى ما هو عالٍ كثيرًا أو منخفضٍ كثيرًا؛ لا تكوني رومانسيّةً، ولكن كوني واقعيّةً؛ امزجي الغنج بالتواضع؛ لا تطلبي الكثير جدًّا ولا القليل جدًّا... يرتاب الشبّان من النساء اللّواتي «يرغبن في أن يتزوجهن أحدٌ». أعلن شابٌّ بلجيكيٌّ[111] أنّه «لا يوجد ما هو أكثر إزعاجًا للرجل من أن يشعر أنّه مُلاحَقٌ، أن يدرك أنّ امرأةً ألقت حبائلها عليه». يصرّون على إحباط خططهنّ. خيار الفتاة محدودٌ جدًّا غالبًا: لن يصبح حرًّا حقًّا إلّا إن اعتبرت أنّها حرّةٌ في ألّا تتزوّج. هناك عادةً في قرارها حساباتٌ، واشمئزازٌ، واستكانةٌ أكثر ممّا فيه حماسةٌ. «إذا كان الشابّ الّذي يطلبها مناسبًا تقريبًا (الوسط، والصحّة، والمهنة)، تقبله دون أن تحبّه. تقبله حتّى وإن كان هناك «ولكن» وتحتفظ برباطة جأشها».

مع ذلك، تخشى الفتاة الزواج وترغب فيه في الوقت نفسه غالبًا. يمثّل بالنسبة لها محاسن كبيرةً أكثر ممّا يمثّل بالنسبة للرجل، ولهذا ترغب فيه بتلهّفٍ أكثر؛ لكنّه يتطلّب أيضًا تضحياتٍ جسيمةً أكثر؛ يتطلّب بشكلٍ خاصٍّ قطيعةً أكثر قسوةً مع الماضي. رأينا أنّ العديد من المراهقات كنّ قلقاتٍ لفكرة مغادرة المنزل الأبويّ، وعندما يقترب الحدث،

111- راجع كلير لوبلا Claire Leplae، الخطوبة Les Fiancailles.

يتفاقم هذا القلق. وفي هذه اللّحظة ينشأ كثيرٌ من العُصابات؛ نصادف منها أيضًا لدى الشبّان الّذين يخشون المسؤوليّات الجديدة الّتي يضطلعون بها، لكنّها شائعةٌ بشكلٍ أكبر بكثيرٍ لدى الشابّات للأسباب الّتي رأيناها قبلًا والّتي تأخذ ثقلها الكامل في هذه الأزمة. لن أذكر إلّا مثالًا واحدًا أستعيره من ستيكل. كان قد عالج فتاةً من أسرةٍ مرموقةٍ أبدت عدة أعراضٍ عصابيّةٍ.

> **عندما تعرّف إليها ستيكل، كانت تعاني من إقياءاتٍ، وتأخذ المورفين كلّ مساءٍ، وتنتابها نوبات غضبٍ، وترفض الاستحمام، وتأكل في السرير، وتبقى حبيسة غرفتها. كانت مخطوبةً وتؤكّد أنّها تحبّ خطيبها بحرارةٍ. واعترفت لستيكل أنّها وهبته نفسها... فيما بعد، قالت أنّها لم تشعر بأيّة لذّة في ذلك: وأنّها حتّى احتفظت من قبلاته بذكرى مثيرة للاشمئزاز وذلك مصدر إقياءاتها. تكتشف أنّها في الواقع منحته نفسها لتعاقب أمّها الّتي لم تكن تشعر أنّها تحبّها؛ عندما كانت طفلةً، كانت تتعقّب والديها ليلًا لأنّها كانت تتخوّف من أن يمنحاها أخًا أو أختًا؛ كانت تعبد أمّها. «والآن عليها أن تتزوج، وتترك المنزل الأبويّ، وتترك غرفة نوم والديها؟ مستحيلٌ». تركت نفسها تسمن، حكّت يديها وأفسدتهما، وأُرهِقت، وأصبحت مريضةً، وحاولت إهانة خطيبها بشتّى الطرق. شفاها الطبيب لكنّها رجت أمّها التخلّي عن فكرة الزواج هذه: «أرادت أن تبقى في المنزل، دومًا، لتبقى طفلةً». أصرّت أمها على أن تتزوج. وقبل يوم الزفاف بأسبوعٍ وجدوها ميّتةً في سريرها؛ إذ انتحرت بطلقة مسدّسٍ.**

في حالاتٍ أخرى، تصرّ الشابّة على البقاء مريضةً لفترةٍ طويلةٍ؛ وتشعر باليأس لأنّ حالتها لا تسمح لها بالزواج من الرجل «الّذي تعبده»؛ في الحقيقة، تمرض كيلا تتزوّجه ولا تستعيد توازنها إلّا عند فسخ خطبتها. أحيانًا يأتي الخوف من الزواج من أنّ الشابّة تعرّضت سابقًا لتجارب شهوانيّةٍ أثّرت عليها؛ وخصوصًا إذا خشيت انكشاف فقد عذريّتها. ولكنّ هناك غالبًا شعورٌ متأجّجٌ تجاه أبيها، وأمّها، وأختها، أو التعلّق بالمنزل الأبوي عمومًا يجعل مستحيلًا بالنسبة لها فكرة الخضوع لذكرٍ غريبٍ. وكثيرٌ من هاته اللّواتي يقرّرن الزواج لأنّه يجب أن يتزوج المرء، أو لأنّهنّ يخضعن لضغوطٍ، أو لأنّهنّ يعلمن أنّه المخرج الوحيد العقلانيّ، أو لأنّهنّ يردن وجودًا طبيعيًّا كزوجةٍ وأمٍّ، يبقى لديهنّ في أعماق قلوبهنّ مقاوماتٌ عنيدةٌ خفيّةٌ له تجعل بدايات حياتهنّ الزوجيّة صعبةً، ويمكنها حتّى أن تحول دون حدوث توازنٍ هانئٍ فيها.

وبالتالي لا تُرتَّب الزيجات إذًا بصورةٍ عامّةٍ بدافع الحبّ. قال فرويد: «يجدر القول إنّ الزوج ليس أبدًا سوى بديلٍ للرجل المحبوب وليس هذا الرجل نفسه». هذا التفريق ليس عارضًا. فرضته طبيعة المؤسّسة ذاتها. الأمر هو الارتقاء بالاتّحاد الاقتصاديّ والجنسيّ للرجل والمرأة نحو المصلحة الجماعيّة، وليس تأمين سعادتهما الفرديّة. في الأنظمة الأبويّة، كان يحدث ـ وما زال حتّى اليوم لدى بعض المسلمين ـ ألّا يلمح الخطيبان المُختاران من قِبَل الأهل وجه بعضهما قبل يوم الزفاف. لا مجال لإنشاء مؤسّسة حياةٍ، من منظورها الاجتماعيّ، اعتمادًا على نزوةٍ عاطفيّةٍ أو شهوانيّةٍ.

> **يقول مونتيني Montaigne، في هذا السوق المتعقل، الشهوات ليست مرحةً، إنّها كئيبةٌ ووهمٌ. يكره الحبّ أن يُمسَك به ويمتزج بدناءةٍ بالعلاقات الّتي تُقام وتُنمّى تحت أسماء أخرى كالزواج: تتمّ الخطبة عن طريق العقل أكثر من الغرام. لا يتزوّج المرء لنفسه، مهما قالوا عن ذلك؛ يتزوّجون من أجل الذرّية، من أجل الأسرة. (الكتاب الثالث، الفصل 5).**

بما أنّ الرجل هو من «يأخذ» امرأةً ـ خصوصًا عندما تكثر العروض النسائيّة ـ فلديه إمكانيّة اختيارٍ أكبر بقليلٍ. ولكن بما أنّ الفعل الجنسيّ يُعتَبَر خدمةً مفروضةً على المرأة وتقوم عليه الامتيازات الّتي تمنح لها، فمن المنطقيّ أن تتغاضى عن تفضيلاتها الخاصّة. الزواج مخصّصٌ ليحميها من حريّة الرجل: ولكنّ عليها التخلّي عن حبّ فردٍ معيّنٍ بما أنّه لا يوجد حبٌّ ولا فرديّةٌ خارج الحرّية، ولكي تؤمّن لنفسها حماية ذكرٍ مدى الحياة. سمعت أمًّا من أسرةٍ تقيّةٍ تعلّم بناتها أنّ «الحبّ هو شعورٌ فظٌّ مخصّصٌ للرجال ولا تعرفه النساء المحترمات». كان ذلك بصورةٍ ساذجةٍ المذهب الّذي يعبّر عنه هيجل في علم ظواهر الفكر (ج 2، ص25):

> **لكنّ لعلاقات الأمّ والزوجة خصوصيّةً في جزءٍ منها كشيءٍ طبيعيٍّ ينتمي للمتعة، وفي جزءٍ آخر كشيءٍ سلبيٍّ يرى فيها فقط زواله؛ ولهذا بالتحديد في جزءٍ أيضًا هذه الخصوصيّة هي شيءٌ عارضٌ يمكن دائمًا استبداله بخصوصيّةٍ أخرى. في مقرّ المملكة الشهوانيّة لا يتعلّق الأمر بهذا الزوج ولكن بزوجٍ بشكلٍ عامٍّ، وأطفالٍ بشكلٍ عامٍّ. لا تقوم علاقات النساء هذه على الحساسيّة ولكن على العامّ. تمييز الحياة الأخلاقيّة للمرأة عن مثيلتها لدى الرجل تحديدًا هو أنّ المرأة في تميّزها**

بخصوصيّتها ومتعتها تبقى فورًا عامّةً وغريبةً عن خصوصيّة الرغبة. وبالعكس، لدى الرجل، تفترق هاتان الناحيتان عن بعضهما ولأنّ الرجل يملك كمواطنٍ القوّة الواعية لذاتها والعموميّة، يشتري بذلك حقّ الرغبة ويحتفظ بالتالي بحريّته تجاه هذه الرغبة في الوقت نفسه. وهكذا، إذا امتزجت الخصوصيّة بعلاقة المرأة هذه، فصبغتها الأخلاقيّة غير صافيةٍ؛ ولكن لكون هذه الصبغة الأخلاقيّة بهذا الشكل، فالخصوصيّة غير متميّزةٍ والمرأة محرومةٌ من التعرّف على الذات كما يحدث لدى آخر.

أيّ أنّ الأمر ليس أبدًا بالنسبة للمرأة أن تنشئ علاقاتٍ في خصوصيّتها مع زوجٍ مُختارٍ، ولكن أن تبرّر ممارسة وظائفها الأنثويّة في عموميّتها: لا ينبغي أن تعرف المتعة إلّا بشكلٍ نوعيٍّ غير متفرّدٍ؛ ينجم عن ذلك، متعلّقًا بمصيرها الشهوانيّ، نتيجتان أساسيّتان: فأولًا، لا يحقّ لها أيّ فعاليّةٍ جنسيّةٍ خارج إطار الزواج؛ بما أنّ المعاشرة الجنسيّة أصبحت مؤسّسةً بالنسبة للزوجين، تمّ تجاوز الرغبة والمتعة إلى المصلحة الاجتماعيّة؛ لكنّ الرجل الّذي يتسامى نحو العامّ كعاملٍ ومواطنٍ يستطيع قبل الزفاف وعلى هامش الحياة الزوجيّة تذوّق المتع العارضة: يجد على كلّ حالٍ خلاصه عبر طرقٍ أخرى؛ بينما في عالمٍ تُعرَّف المرأة فيه أساسًا بأنّها أنثى، يجب أن تجد لنفسها تبريرًا كأنثى بشكلٍ كاملٍ. من ناحيةٍ أخرى، رأينا أنّ صلة العامّ بالخاصّ مختلفةٌ بيولوجيًّا لدى الذكر عنها لدى الأنثى: بإنجاز مهمّته النوعيّة كزوجٍ ومُنجبٍ، يجد الأوّل حتمًا متعته[112]؛ وعلى العكس، هناك غالبًا لدى المرأة فصلٌ بين الوظيفة التناسليّة والشهوانيّة. بحيث أنّ الزواج الّذي يدّعي إعطاء حياة المرأة الشهوانيّة كرامةً أخلاقيّةً، يلغيها في الحقيقة.

قبِل الرجال هذا الكبت الجنسيّ للمرأة بطيب خاطرٍ؛ رأينا أنّهم كانوا يستندون إلى نزعةٍ طبيعيةٍ متفائلةٍ كي تستكين بسهولةٍ لعذاباتها: هذا نصيبها؛ وتؤكّد لعنة الإنجيل رأيهم المريح هذا. كانت آلام الحمل ـ هذا الثمن الباهظ المفروض على المرأة لقاء متعةٍ قصيرةٍ وغير مؤكّدةٍ ـ موضع الكثير من المزاح. «خمس دقائق من المتعة: تسعة شهورٍ من العذاب...

112- بالطبع القول المأثور «الثقب يبقى ثقبًا» يحوي سخريةً فظّةً؛ يبحث الرجل عن شيءٍ آخر غير المتعة الصرفة؛ إلّا أنّ ازدهار بعض «بيوت الدعارة» يكفي لإثبات أنّ الرجل يستطيع الحصول على نوعٍ من الإشباع مع أوّل امرأةٍ يصادفها.

هذا يدخل بسهولةٍ أكثر ممّا يخرج». لطالما أبهجهم هذا التباين. في هذه الفلسفة بعض الساديّة: يستمتع كثيرٌ من الرجال بالبؤس الأنثوي وينفرون من فكرة أنّه يُراد تخفيفه[113]. نفهم إذًا أنّ الذكور لا يتردّدون في حرمان شريكاتهنّ من السعادة الجنسيّة؛ حتّى أنّه بدا لهم من الأفضل حرمانها من استقلاليّة المتعة وإغراءات الرغبة[114].

هذا ما يعبّر عنه مونتيني، بتهكّمٍ ساخرٍ:

> **بالتالي هل يكون نوعًا من المحرّمات أن نستعمل لهذه القرابة المحترمة والمقدّسة جهود وغرابة الحرّيّة الغراميّة؛ يقول أرسطو: «المس امرأتك باحتراسٍ وقسوةٍ، خوفًا من أن تجعلها المتعة تخرج عن إطار العقل إن دغدغتها بخلاعةٍ...» لا أرى زيجاتٍ تتصدّع وتضطرب أكثر من الّتي تسير على طريق الجمال والرغبة الغراميّة: يجب أن يكون لها أسسٌ أكثر متانةً وثباتًا ونسير فيها بترصّدٍ، هذا الحبور المتألّق لا يساوي شيئًا... الزواج الجيّد، إن كان موجودًا، يرفض صحبة الحبّ وشروطه (الكتاب 3، الفصل 5).**

ويقول أيضًا (الكتاب 1، الفصل 30):

> **حتّى المتع الّتي ينالونها بعلاقاتهم مع نسائهم مرفوضةٌ إن لم تكن باعتدالٍ؛**

113- هناك من يدعمون مثلًا أنّ آلام الولادة ضروريّةٌ للشعور بالأمومة: ولدت ظبياتٌ تحت تأثير التخدير فأهملن أولادهن. والوقائع المخفّفة مبهمةٌ؛ والمرأة ليست ظبيةً. الحقيقة هي أنّ بعض الذكور يثورون إذا أردنا تخفيف أعباء الأنوثة.

114- ما يزال طلب المرأة للمتعة حتّى في يومنا هذا يثير غضب الرجال؛ هناك وثيقةٌ مدهشةٌ حول هذا الموضوع، هو كتيّب الدكتور غريميّون Grèmillon: الحقيقة حول رعشة المرأة التناسليّة. تعلمنا المقدّمة أنّ المؤلّف، بطل حرب 1914-1918، الّذي أنقذ حياة أربعةٍ وخمسين أسيرًا ألمانيًّا، هو رجلٌ ذو أخلاقٍ رفيعةٍ. آخذًا جزءًا من كتاب ستيكل حول المرأة الباردة، يعلن من بين أفكارٍ أخرى أنّ: «المرأة الطبيعيّة، البيّاضة الجيّدة، ليس لديها رعشةٌ تناسليّةٌ. عديداتٌ هنّ الأمهات (وأفضلهنّ) اللّواتي لم يشعرن أبدًا بالتقلّص المدهش... المناطق المثيرة للشهوة الكامنة غالبًا ليست طبيعيّةً بل اصطناعيّةً. يشعرن بالفخر لاكتسابها لكنّها سمة انحطاطٍ... قل كلّ هذا لرجل الملذّات لن يأبه به. يريد أن تحصل شريكته في الدناءة على رعشةٍ تناسليّةٍ وستحصل عليها. إن لم تكن موجودةً سيخلقها. تريد المرأة الحديثة من يجعلها تنفعل. ونجيبها قائلين: كلّا يا سيّدتي، ليس لدينا الوقت والشروط الصحّيّة تمنعنا من ذلك!... خالق المناطق المثيرة للشهوة يعمل ضدّ نفسه: يخلق نساءً لا يشبعن. تستطيع الغولة دون تعبٍ استنفاد أزواجٍ لا حصر لهم... تصبح «ذات المنطقة» امرأةً جديدةً بعقليّةٍ جديدةٍ، وأحيانًا امرأةً رهيبةً يمكنها أن تبلغ حدّ الجريمة... ليس هناك عُصابٌ ولا ذُهانٌ لو كنّا مقتنعين بأنّ الجنس هو فعلٌ عاديٌّ كالأكل والتبوّل والتغوّط والنوم...».

وكان هناك فيضٌ من المجون والخلاعة كما يوجد في موضوعٍ غير شرعيّ. هذه الغراميات المخجلة الّتي تقترحها علينا الحرارة الأولى لهذه اللّعبة ليست فقط غير لائقة، ولكن مسيئة لنسائنا. فليتعلّمن قلّة الحياء بطريقةٍ أخرى على الأقلّ. لقد نشطّهنّ فعلنا الجنسيّ دومًا بما فيه الكفاية... الزواج ارتباطٌ دينيٌّ وتقيٌّ: ولهذا يجب أن تكون المتعة الّتي نجنيها منه متعةً متحفّظةً، جدّيةً وممزوجةً ببعض الصرامة؛ يجب أن تكون شهوةً حذرةً وواعيةً.

بالفعل، إذا أيقظ الزوج الشهوة الأنثويّة، يوقظها بعموميّتها بما أنّه لم يُختَر بشكلٍ خاصٍّ؛ فيهيّء زوجته لتبحث عن المتعة بين ذراعين آخرين؛ ويقول مونتيني أيضًا أن مداعبة المرأة بشكلٍ جيّدٍ هو: «التغوّط في السلّة ثمّ وضعها فوق الرأس». عدا عن ذلك من الملائم بحسن نيّةٍ أن يضع الحذر الذكريّ المرأة بوضعٍ سيّءٍ:

لا تخطئ النساء أبدًا حين يرفضن قواعد الحياة الّتي أُدخِلت على العالم؛ وبخاصّةٍ أنّ الرجال هم الّذين وضعوها من دونهنّ. هناك بالطبع تحايلٌ بينهنّ وبيننا. نحن نعاملهنّ بلا رويّةٍ هكذا: بعد أن عرفنا أنهنّ دون مقارنةٍ أكثر كفاءةً وأكثر تأجّجًا بأمور الحبّ منّا... ذهبنا لنعطيهنّ العفّة تحت تهديدٍ بأشدّ العقوبات... نريدهنّ قدّيساتٍ، قويّاتٍ، جيّدات التغذية وعفيفاتٍ معًا، أي حارّاتٍ وبارداتٍ في آنٍ واحدٍ، لأنّ الزواج الّذي نقول إنّه ليمنعهنّ من الاحتراق لا يمنحهنّ الإنعاش المطلوب حسب أعرافنا.

لدى برودون Proudhon تحفّظاتٌ أقلّ: إبعاد الحبّ عن الزواج هو تبعًا لرأيه مطابقٌ «للإنصاف»:

على الحبّ أن يُغرَق في الإنصاف... كلّ محادثةٍ غراميّةٍ، حتّى بين خطيبين، وحتّى بين زوجين، غير مناسبةٍ، هدّامةٌ للاحترام العائلي، ولحبّ العمل والقيام بالواجب الاجتماعي... (ما إن نؤدّي واجب الحبّ)...علينا إبعاده كالراعي الّذي بعد أن يخثّر اللّبن ينتزع عصارته منه...

مع ذلك، خلال القرن التاسع عشر، تغيّرت مفاهيم البورجوازيّة قليلًا؛ بذلت جهدًا كبيرًا في الدفاع عن الزواج والإبقاء عليه؛ ومن جهةٍ أخرى، كان تطوّر الفرديّة يمنع ببساطةٍ خنق المطالب النسويّة؛ كان سان سيمون Saint-Simon، وفورييه Fourier، وجورج صاند وكلّ

الرومنسيّين قد نادوا بعنفٍ بحقّ الحبّ. طُرِحت مسألة إدخال المشاعر الفرديّة في الزواج الّتي أُقصِيَت عنه بهدوءٍ حتّى تلك اللّحظة. عندئذٍ ابتدعوا مفهوم «الحبّ الزوجيّ الغامض، الثمرة العجيبة للزواج المرتّب التقليدي. يشرح بلزاك Balzac جميع أفكار البورجوازيّة المحافظة بكلّ تناقضاتها. يعترف أنّ لا شيء يجمع بين الزواج والحبّ بالمبدأ؛ لكنّه يكره أن يماثل بين مؤسسّةٍ محترمةٍ وسوقٍ بسيطٍ تعامَل فيه المرأة كشيءٍ؛ ويصل بذلك إلى التنافر المحيّر في كتابه «فيزيولوجيّة الزواج»، حيث نقرأ:

يمكن اعتبار الزواج من الناحية السياسيّة أو المدنيّة أوالأخلاقيّة قانونًا، أو عقدًا، أو مؤسّسةً... على الزواج إذًا أن يحظى بالاحترام العامّ. لم يستطع المجتمع أن يأخذ بالاعتبار سوى هذه القمم الّتي يرى أنّها تسود المسألة الزوجيّة.

معظم الرجال لا يهدفون من الزواج سوى للإنجاب، وتملّك الطفل؛ ولكن لا الإنجاب ولا الملكيّة ولا الطفل تشكّل السعادة. التكاثر والتزايد لا يتضمّنان الحبّ. أن تطلب الحبّ باسم القانون أو الملك أو العدالة من فتاةٍ رأيتها أربع عشرة مرةً خلال أسبوعين لهو أمرٌ لا معقولٌ يقوم به معظم الأشخاص.

هذا شيءٌ واضحٌ وضوح نظريّة هيجل. لكن بلزاك يتابع دون تمهيدٍ:

الحبّ هو اتفاق الحاجة والشعور، تنجم السعادة في الزواج عن انسجامٍ تامٍّ للأرواح بين الزوجين. يلي ذلك أنّ الرجل مضطرٌّ كي يكون سعيدًا لأن يلتزم ببعض قواعد الشرف والكياسة. بعد أن استخدم حسنات القانون الاجتماعي الّذي يكرّس الحاجة، عليه أن يطيع قوانين الطبيعة السريّة الّتي تُطلِق الأحاسيس. إذا كانت سعادته في أن يكون محبوبًا فعليه أن يحبّ بصدقٍ: لا شيء يقاوم عاطفةً حقيقيةً. ولكن أن تكون مشبوب العاطفة يعني أن ترغب على الدوام. هل يمكن أن يرغب المرء بامرأته دائمًا؟

- أجل.

ثم يعرض بلزاك عِلم الزواج. لكنّنا نلاحظ أنّ المهمّ بالنسبة للزوج ليس أن تحبّه زوجته ولكن ألّا تخونه: ولا يتردّد في أن يفرض عليها نظامًا تجهيليًّا، ويمنعها من كلّ ثقافةٍ، ويخبلها لغايةٍ وحيدةٍ هي المحافظة على شرفه. هل هذا هو الحبُّ؟ إن أردنا إيجاد معنىً لهذه الأفكار المفكّكة الغائمة، يبدو أنّ الرجل لديه حقٌّ في اختيار زوجةٍ يشبع بها رغباته الجنسيّة في

عموميّتها، العموميّة الّتي هي دليل إخلاصه: عليه بعدئذٍ إيقاظ حبّ زوجته مستخدمًا بعض الوصفات. ولكن هل هو مُغرَمٌ حقًّا إن كان يتزوج من أجل ملكيّته وذرّيته؟ وإن لم يكن كذلك، كيف لعاطفته أن تكون لا تُقاوَم بحيث تستجرّ عاطفةً متبادلةً؟ وهل يجهل بلزاك حقًّا أنّ الحب غير المتبادَل لا يغوي، بل بالعكس يُزعج ويثير الاشمئزاز؟ نرى بوضوحٍ كل سوء نيّته في «مذكّرات عروسين»، روايةٌ أدبيّةٌ هادفةٌ. تدّعي **لويز دو شوليو** تأسيس زواجٍ على الحبّ: ولفرط عاطفتها، تقتل زوجها الأوّل؛ وتموت إثر اشتداد غيرتها على الثاني. وضحّت رينيه دولستراد بقلبها مفضّلةً عقلها؛ لكنّ مباهج الأمومة كافأتها على ذلك بما يكفي وبنت سعادةً مستقرّةً. نتساءل أولًا أيّة لعنةٍ ـ إن لم تكن قرارًا من المؤلّف نفسه ـ منعت **لويز** العاشقة من الأمومة الّتي تتمناها: لم يمنع الحبّ الحملَ أبدًا؛ ومن جهةٍ أخرى نعتقد أنّ رينيه لجأت إلى «النفاق» الّذي كان **ستندال** Stendhal يكرهه لدى «النساء الشريفات» لكي تقبَل عناق زوجها ببهجةٍ. يصف **بلزاك** ليلة الزفاف بهذه الكلمات:

> كتبت رينيه لصديقتها: «اختفى الحيوان الّذي نسمّيه زوجًا، حسب تعبيرك. خلال سهرةٍ لطيفةٍ رأيت عاشقًا بلغت كلماته روحي واستندت على ذراعيه بمتعةٍ لا يمكن وصفها... واستيقظ الفضول في قلبي... اعلمي مع ذلك أنّه لم ينقص شيءٌ ممّا يتطلّبه الحبُ الرقيق ولا ممّا لا نتوقّعه والّذي يجعل هذه اللّحظة ساحرةً: النكهات الغامضة الّتي كنّا نتخيّلها تطلب منه الانجذاب الّذي يبرّر، والرضى المُنتَزع عنوةً، الشهوات المثاليّة الّتي بقينا نتبادلها زمنًا طويلًا والّتي تسحر روحنا قبل أن نعود إلى الواقع، كل الغوايات كانت هناك بأشكالها الساحرة.

لم تتكرّر هذه المعجزة الرائعة كثيرًا على ما يبدو بما أنّنا، بعد بضع رسائل، نرى رينيه باكيةً: «كنت شخصًا فيما قبل وأصبحت الآن شيئًا»؛ وتتعزّى عن لياليها الزوجيّة بقراءة بونالد Bonald. لكنّنا نودّ أن نعرف بأيّة طريقةٍ تغيّر الزوج، في أصعب لحظات تدريب المرأة، إلى ساحرٍ؛ ما يذكره **بلزاك** في «فيزيولوجيّة الزواج» موجزٌ: «لا تبدأ الزواج أبدًا باغتصابٍ» أو مبهمةٌ: «براعة الزوج تتجلّى في الإمساك بمهارةٍ بدقائق المتعة، وتنميّتها، وإعطائها أسلوبًا جديدًا، وتعبيرًا مبتكرًا». ويضيف على الفور: «هذه المهارة هي فجورٌ بين شخصين لا يحبّان بعضهما». غير أنّ رينيه تحديدًا لا تحبّ **لويس**؛ وكما وُصِف لنا، من أين أتته هذه «البراعة»؟ في الحقيقة، تجنّب **بلزاك** المشكلة بصفاقةٍ. تجاهل أنّه ليس هناك

مشاعر محايدةً وأنّ غياب الحبّ، والضغوط، والملل تولد الضغينة ونفاد الصبر والعدائيّة أكثر ممّا تولد الصداقة الناعمة. وهو أكثر صدقًا في «زنبقة الودي» حيث يبدو قدر السيّدة دومونتسوف البائسة أقلّ إيجابيّةً.

يتطلّب التوفيق بين الزواج والحبّ جهدًا قد يستدعي تدخلًا إلهيًّا لإنجاحه؛ إنّه الحلّ الّذي يقف إلى صفّه **كيركغارد** Kierkegaard عبر التفافاتٍ معقّدةٍ. يروق له أن يكشف تناقض الزواج:

> **يا للاختراع الغريب المسمّى الزواج! وما يجعله أكثر غرابةً أيضًا أنّه يُعتَبر إجراءً تلقائيًا. ومع ذلك لا يوجد إجراءٌ حاسمٌ بقدره... فعلٌ حاسمٌ بهذا القدر، يطلبون منّا القيام به بصورةٍ تلقائيّةٍ[115].**
>
> **تكمن الصعوبة في أنّ الحبّ والرغبة الغراميّة تلقائيّان، الزواج هو قرارٌ؛ مع ذلك ينبغي أن يوقظ الزواج أو القرار الرغبة الغراميّة: الرغبة في الزواج؛ هذا يعني أن ما هو الأكثر تلقائيّةً يجب أن يكون القرار الأكثر حرّيةً في الوقت نفسه، وأنّ ما لا يمكن تفسيره البتّة بسبب التلقائيّة بحيث علينا إرجاعه إلى شيءٍ إلهيٍّ عليه في الوقت نفسه أن ينتج عن تبصّرٍ وتبصّرٍ قويٍّ بحيث ينتج القرار عنه. عدا عن ذلك، لا ينبغي أن يتبع شيءٌ شيئًا آخر، لا يجب أن يأتي القرار من الخلف خلسةً، يجب أن يحدث كلّ شيءٍ بشكلٍ متزامنٍ، وأن على الشيئين أن يوجَدا مجتمعين في لحظة النهاية[116].**

هذا يعني أنّ الحبّ ليس هو الزواج وأنّ من الصعب للغاية أن نفهم كيف يمكن للحبّ أن يصبح واجبًا لكنّ التناقض لا يخيف **كيركغارد**: لقد قام بكلّ دراسته حول الزواج ليشرح هذا الغموض. وهو يوافق على أنّ:

> **«التعقّل يقتل التلقائيّة... إن كان صحيحًا أنّ على التعقّل أن يكون بديلًا عن الرغبة الغراميّة، لن يكون هناك زواجٌ أبدًا». ولكنّ «القرار هو تلقائيّةٌ جديدةٌ نحصل عليها عبر التعقّل، نشعر بها بطريقةٍ مثاليّةٍ صرفةٍ، تلقائيّةٌ تطابق تحديدًا تلقائيّة الرغبة الغراميّة. القرار هو مفهومٌ دينيٌّ للحياة القائمة على معطياتٍ أخلاقيّةٍ وعليه بالتالي أن يفتح الطريق للرغبة الغراميّة ويؤمّنها من كلّ خطرٍ خارجيٍّ أو داخليٍّ». ولهذا فإنّ**

115- في الخمر الحقيقة In vino veritas.

116- كلامٌ حول الزواج.

«الزوج، الزوج الحقيقيّ هو نفسه معجزةٌ!... أن يستطيع الاحتفاظ بمتعة الحبّ بينما ينهال الوجود عليه وعلى محبوبته بكلّ ثقل الأمور الجدّيّة!»

أمّا بالنسبة للمرأة، فلا تتمتع بالعقل، ليس لديها «تفكيرٌ»؛ وبذلك «تنتقل من الحبّ الفوري إلى التديّن الفوري». وبلغةٍ أبسط، هذا المذهب يعني أنّ الرجل الّذي يحبّ يقرّر الزواج عبر فعل إيمانٍ بالله يجب أن يضمن له الموافقة على الشعور والالتزام؛ وأنّ المرأة ترغب في الزواج ما إن تحبّ. عرفت سيّدةً عجوزًا كاثوليكيّةً كانت تعتقد بسذاجةٍ «بالحب المقدّس من أوّل نظرة»؛ كانت تؤكّد أنّه في اللّحظة الّتي ينطق بها الزوجان كلمة «نعم» النهائيّة أمام المذبح يشعران بقلبيهما يلتهبان. ويوافق **كيركغارد** على أنّه لا بدّ من وجود «رغبةٍ» سابقةٍ، ولكن أن تدوم هذه الرغبة طيلة الحياة فهذا أشبه بالأعجوبة.

مع ذلك، في فرنسا، كتّاب وروائيّو نهاية القرن، الأقلّ ثقةً بفضيلة السرّ المقدّس، يحاولون تأمين السعادة الزوجيّة بوسائط بشريّةٍ أكثر؛ أكثر جرأةً من **بلزاك**، يدرسون إمكانيّة دمج الشهوانيّة بالحبّ الشرعيّ. يؤكّد **بورتوريش** Porto-Riche في «عاشقة»، عدم توافق الحبّ الجنسيّ والحياة العائليّة: فالرجل المرهَق من تأجّج مشاعر زوجته يبحث عن السكينة بقرب عشيقةٍ أكثر اعتدالًا. ولكن بتحريضٍ من **بول هرفيو** Paul Hervieu، يُكتَب في القانون أنّ «الحبّ» هو واجبٌ بين الزوجين. ينصح **مارسيل بريفو** Marcel Prèvost الزوج الشاب بأنّه يجب أن يعامل امرأته كعشيقةٍ ويذكر الشهوانيّات الزوجيّة بتعابير شبقةٍ خفيّةٍ. ويجعل **برنشتاين** Bernstein من نفسه مؤلف الحبّ الشرعيّ: أمام المرأة اللاأخلاقيّة، الكاذبة، الشهوانيّة، اللّصة، الشرّيرة، يبدو الزوج شخصًا عاقلًا، كريمًا؛ ونرى فيه أيضًا عشيقًا قويًّا وخبيرًا. وكردّ فعلٍ على قصص الخيانة يوجد الكثير من المديح الحالم للزواج. حتى **كوليت** تنساق بموجة الوعظ هذه في «الساذجة الفاسقة»، بعد أن وصفت التجارب الوقحة لعروسٍ تم فضّ بكارتها بشكلٍ أخرق، عندما قرّرت أن تجعلها تعرف الشهوانيّة بين ذراعي زوجها. وكذلك **مارتان موريس** Martin Maurice، في كتابٍ أحدث بعض الضجّة، يعيد الزوجة الشابّة، بعد مغامرةٍ وجيزةٍ في سرير عشيقٍ بارعٍ، إلى ذراعي زوجها الّذي جعلته يستفيد من تجربتها. لأسبابٍ أخرى، وبطريقةٍ أخرى، أمريكيو اليوم، الّذين يحترمون المؤسّسة الزوجيّة وهم فرديّون بالوقت نفسه، يبذلون جهودًا متعدّدةً لإدخال الجنس في الزواج. تظهر كلّ سنةٍ

عدة مؤلّفاتٍ للتدريب على الحياة الزوجيّة مخصّصةٍ لتعليم الزوجين كيف يتكيّف أحدهما مع الآخر، وبصورةٍ خاصّةٍ لتعليم الرجل كيف يخلق مع المرأة انسجامًا سعيدًا. يلعب محلّلون نفسيّون وأطباء دور «المستشار الزوجي»؛ فيقبلون أنّ للمرأة أيضًا الحقّ في المتعة وأنّ على الرجل تعلّم التقنيّات القادرة على منحها إيّاها. لكنّنا رأينا أنّ النجاح الجنسيّ ليس فقط عمليّةً تقنيّةً. حتّى لو حفظ الشابّ عن ظهر قلبٍ عشرين كتيّبًا مثل «ما يجب أن يعرفه كلّ زوجٍ»، و«سرّ السعادة الزوجيّة»، و«الحبّ دون خوفٍ»، من غير المؤكّد أنّه سينجح في جعل زوجته الجديدة تحبّه. إنّها تتصرّف تبعًا لمجمل الوضع النفسيّ. والزواج التقليديّ لا يستطيع خلق الظروف الملائمة لتفتّح الشهوانيّة الأنثويّة وازدهارها.

فيما مضى، في تجمّعات الحقّ الأموميّ، لم تكن العروس مطالَبةً بأن تكون عذراء، وحتّى لأسبابٍ رمزيّةٍ، كان يجب عادةً أن تُفضّ بكارتها قبل عرسها. في بعض مناطق الريف الفرنسي، ما زلنا نلاحظ بقايا هذه الإباحيّة القديمة؛ لا يفرضون العفّة على الفتيات قبل الزواج؛ فحتّى الفتيات اللّواتي «أخطأن»، وحتّى الفتيات الأمّهات، يجدن أحيانًا زوجًا بشكلٍ أسهل من بقيّة الفتيات. من جهةٍ أخرى، في الأوساط الّتي تقبل تحرّر المرأة، يُعترف للفتيات بنفس الحرّية الجنسيّة الّتي تعطى للشبان. مع ذلك الأخلاق الأبويّة تطالب بشدّةٍ أن تُسلَّم الخطيبة عذراء إلى زوجها؛ يريد أن يتأكّد أنّها لا تحمل في أحشائها بذرةً غريبةً؛ يريد الملكيّة الكاملة والخالصة لهذا الجسد الّذي يجعله ملكًا له[117]؛ اكتست العذريّة قيمةً أخلاقيّةً ودينيّةً وروحانيّةً، وما زالت هذه القيمة مُعتَرفًا بها بشكلٍ عامٍّ اليوم. في فرنسا، هناك مناطق حيث يبقى أصدقاء العريس خلف باب غرفة العرس، ضاحكين ومغنّين حتّى يأتي الزوج منتصرًا يعرض لأعينهم الملاءة الملطّخة بالدم؛ أو يعرضها الأهل صباحًا للجيران[118]. وبشكلٍ أقلّ فظاظةً، ما تزال عادة «ليلة الزفاف» شائعةً جدًّا. وليس من قبيل الصدفة أن أثارت أدبًا فاحشًا: افتراق الاجتماعي والحيواني يؤدّي بالضرورة إلى الفسق. تتطلّب الأخلاق الإنسانيّة أن يكون لكلّ تجربةٍ حيّةٍ معنىً إنسانيٌّ، أن تتضمّن حرّيةً؛ في

117- انظر الجزء الأول، الخرافات.

118- يقول تقرير كنزي: «اليوم، في بعض مناطق الولايات المتحدة، ما زال المهاجرون من الجيل الأوّل يرسلون المفارش الملطّخة بالدم إلى العائلة الّتي ظلّت في أوروبا كدليلٍ على إتمام الزواج».

الحياة الشهوانيّة الأخلاقيّة الأصليّة هناك صعودٌ للرغبة والمتعة، أو على الأقلّ كفاحٌ مؤثّرٌ لاستعادة الحرّية ضمن الجنس: لكنّ هذا غير ممكنٍ إلّا إذا تمّ استعرافٌ خاصٌّ للآخر في الحبّ أو في الرغبة. عندما لا يعود على الفرد إنقاذ الجنس، ولكن يشاء الله أو المجتمع تبريره، لا تعود علاقة الشريكين سوى علاقةٍ بهيميّةٍ. نفهم أنّ السيّدات المفكّرات يتحدّثن باشمئزازٍ عن المغامرات الجسديّة: وينزلن بها إلى مرتبة وظيفة التغوّط. ولهذا أيضًا نسمع خلال حفلة العرس كلّ هذه الضحكات ذات المغزى. هناك تناقضٌ فاحشٌ في مطابقة حفلٍ رنّانٍ مع وظيفةٍ حيوانيّةٍ واقعيّةٍ صرفةٍ. يعرض الزواج معناه الشامل والمجرّد: رجلٌ وامرأةٌ متّحدان حسب الطقوس الرمزيّة تحت أعين الجميع؛ ولكن في سرّية السرير هما مخلوقان واقعيّان وحيدان يتواجهان ويشيح الجميع بأنظارهم عن عناقهما. عندما حضرت **كوليت** وهي في الثالثة عشرة من عمرها عرس فلّاحين، شعرت بتشوشٍ فظيعٍ عندما اصطحبتها صديقةٌ لترى غرفة العرس:

> **غرفة العروسين... كان السرير مرتفعًا وضيّقًا، تحت ستائره المصنوعة من قماشٍ تركيٍّ، السرير المحشوّ بالريش، المنتفخ بالوسائد من ريش الإوزّ، السرير الّذي ينتهي عنده هذا النهار المليء بأبخرة العرق والبخور ونَفَس البهائم، وأبخرة المرق... بعد قليلٍ، سيأتي العروسان إلى هنا. لم أكن قد فكّرت بذلك. سيغطسان في هذا الريش العميق... وسيجري بينهما هذا الصراع الغامض الّذي أنبأتني الكثير والقليل عنه براءة أمي الجريئة وحياة الحيوانات. وماذا في ذلك؟ أخشى هذه الغرفة وهذا السرير الّذي لم أفكّر به[119].**

ضمن هذه المحنة الطفوليّة، شعرت الطفلة بالتباين بين أبّهة الحفل العائليّ والغموض الحيوانيّ للسرير الكبير المسوّر. الجانب الهزلي والماجن للزواج لا يُكشَف البتة في الحضارات الّتي لا تفرّد المرأة: في الشرق، في اليونان، في روما؛ تبدو الوظيفة الحيوانيّة عامّةً كالطقوس الاجتماعيّة؛ ولكن في أيّامنا هذه، في الغرب، يتمّ إدراك الرجال والنساء كأفرادٍ ويهزأ المدعوون للعرس لأنّ هذا الرجل وهذه المرأة سيقومان عبر تجربةٍ خاصّةٍ بالفعل الّذي تُقنّعه الطقوس، والكلمات، والزهور. بالتأكيد، هناك أيضًا تباينٌ محزنٌ بين

119- «منزل كلودين».

فخامة الجنازات الكبيرة وعفونة القبر. لكن الميت لا يستيقظ عندما يضعونه في الأرض؛ بينما تشعر العروس بمفاجأةٍ هائلةٍ عندما تكتشف خصوصيّة وعَرَضيّة التجربة الحقيقيّة الّتي وعد بها وشاح رئيس البلدية ثلاثي الألوان وأرغن الكنيسة. لا نرى في المسرحيّات الهزليّة فقط شابّاتٍ يرجعن باكياتٍ إلى أمّهنّ ليلة زفافهنّ: كتب علم النفس تفيض بالقصص من هذا النوع؛ لقد رُوِيَت لي مباشرةً عدة حالاتٍ منها: فتياتٌ حسنات التربية لم يتلقّين أيّ تثقيفٍ جنسيٍّ أصابهنّ اكتشاف الشهوانيّة المفاجئ باضطرابٍ. في القرن الماضي، كانت السيّدة آدم تتخيّل أنّه يجب عليها أن تتزوّج رجلًا كان قد قبّلها من فمها، لأنّها كانت تعتقد أنّ ذاك هو الشكل المكتمل للاتّحاد الجنسيّ. ومنذ عهدٍ قريبٍ روى **ستيكل** قصّة عروسٍ شابّةٍ: «عندما فضّ بكارتها زوجها خلال رحلة شهر العسل، اعتقدت أنّه مجنونٌ ولم تجرؤ على قول كلمةٍ خوفًا من ردّة فعله كمختلٍّ عقليًّا[120]». وقد حدث حتّى أن تكون الشابّة بريئةً لدرجةٍ تتزوج معها امرأةً منقلبة الجنس، وتعيش طويلًا مع زوجها المزيّف دون أن تشكّ في أنّه ليس رجلًا.

> **إذا وضعت زوجتك في بئرٍ، وأنتما عائدان من عرسكما، طوال اللّيل، سيصيبها الذهول. عبثًا يصيبها قلقٌ عابرٌ...**
>
> **تقول لنفسها، هذا هو الزواج إذًا. لهذا كانوا يتكتّمون على تفاصيله لهذه الدرجة. لقد خُدِعتُ بهذه القصّة.**
>
> **لكنّها لا تقول شيئًا، لأنّها منزعجةٌ. ولهذا سيمكنك أن تغطسها فيه طويلًا وعدّة مرّاتٍ، دون إثارة أيّة فضيحةٍ حولكما.**

هذا المقطع من قصيدةٍ لـ**ميشو** Michaux [121]، المسمّاة «ليلة العرس»، تعطينا وصفًا دقيقًا للوضع. كثيرٌ من الفتيات متنبّهاتٌ اليوم؛ ولكن تبقى موافقتهنّ مبهمةً؛ ويظلّ لفضّ بكارتهن شكل الاغتصاب. قال **هافلوك إليس** Havelock Ellis: «هناك حتمًا حالات اغتصابٍ تقع في الزواج أكثر مما يقع خارج الزواج». في كتاب **نوجباور** Naugebauer: Monatsschrift fÜr Geburtshilfe، سنة 1889، الجزء 9، جمع أكثر من مئةٍ وخمسين حالة جرحٍ أصاب النساء من القضيب أثناء الإيلاج؛ كانت أسباب ذلك العنف والسَكر وسوء

120- «حالات القلق العصبي».

121- انظر «اللّيل يتحرّك».

الوضعيّة وعدم تناسبٍ في حجم العضوين. في إنجلترا يذكر هافلوك إليس قصّة سيّدةٍ سألت ستّ نساءٍ ذكيّاتٍ متزوّجاتٍ من الطبقة الوسطى عن ردّ فعلهنّ ليلة الزفاف: كان الإيلاج صدمةً بالنسبة لهنّ جميعًا؛ اثنتان منهنّ كانتا تجهلان كلّ شيءٍ؛ وكانت الباقيات يعتقدن أنّهنّ يعلمن لكنّ ذلك لم يمنعهنّ من الشعور برضٍّ نفسيٍّ. ألحّ آدلر Adler أيضًا على الأهمّيّة النفسيّة لعمليّة فضّ البكارة.

هذه اللّحظة الأولى الّتي ينال فيها الرجل كلّ حقوقه تقرّر غالبًا مجرى الحياة كلّها. يمكن للزوج عديم الخبرة والفائق الاستثارة أن يزرع عندها بذرة عدم الإحساس الأنثوي، ويحوّلها برعونته وفظاظته إلى تخديرٍ دائمٍ.

رأينا في الفصل السابق كثيرًا من الأمثلة عن هذا التعليم البائس. ها هي حالةٌ أخرى أوردها ستيكل:

كانت السيّدة هـ.ن... التي تلقّت تربيَةً متزمّتةً للغاية، ترتجف لمجرّد التفكير في ليلة عرسها. جرّدها زوجها من ملابسها بعنفٍ تقريبًا دون أن يسمح لها بالاستلقاء. وتجرّد من ملابسه وهو يطلب منها أن تنظر إليه عاريًا وتعجب بقضيبه. فأخفت وجهها بيديها. عندئذٍ صاح: «لماذا لم تبقي في منزلك أيّتها الغبيّة!»، ثم ألقاها على السرير وفضّ بكارتها بفظاظةٍ. وبالطبع ظلّت باردةً مدى الحياة.

رأينا بالفعل، كلّ المقاومة الّتي على العذراء التغلّب عليها لتكمل قدرها الجنسيّ: يتطلّب تدريبها «عملًا» فيزيولوجيًّا ونفسيًّا. من الغباء والهمجيّة أن نريد اختصاره بليلةٍ؛ من غير المفهوم أن نحوّل عمليّة الإيلاج الأوّل الصعبة إلى واجبٍ. وتصاب المرأة بالرعب أكثر بقدر ما تكون العمليّة الغريبة الّتي تخضع لها مقدّسةً، وبقدر ما قدّمها المجتمع والديانة والأسرة والأصدقاء بشكلٍ رنّانٍ إلى الزوج كما تُقدَّم إلى سيّدٍ؛ وأيضًا بقدر ما يبدو لها أنّ الفعل يرهن مستقبلها كلّه، بما أنّ الزواج ما زال ذا صبغةٍ دائمةٍ. عندئذٍ تشعر أنّها انكشفت تمامًا بالمطلق: هذا الرجل الّذي كُرِّست له إلى الأبد يمثّل في نظرها الرجل بكامله؛ ويظهر أيضًا لها بصورةٍ مجهولةٍ ذات أهمّيةٍ كبيرةٍ بما أنّه سيرافقها مدى حياتها. مع ذلك، الرجل نفسه قلِقٌ بسبب العهدة الّتي تثقل كاهله: فلديه مصاعبه الخاصّة، وعقده الخاصّة الّتي تجعله

خجولًا وأخرق أو بالعكس عنيفًا؛ هناك العديد من الرجال الّذين يبدون عاجزين ليلة زفافهم بتأثير أبّهة الزواج نفسه. يصف جانت Janet في كتاب «هواجس الهبوط النفسي»:

من لا يعرف هذين العروسين الّذين يشعران بالخجل من مصيرهما ولا يستطيعان إتمام العمل الزوجيّ ويلاحقهما بهذا الشأن هاجس خجلٍ ويأسٍ؟ شهدنا العام الفائت مشهدًا مأساويًا وكوميديًا غريبًا، عندما سحب حمٌ غاضبٌ صهره المتواضع المستكين إلى مشفى سالبترييرِ: طلب الحمو شهادةً طبّيةً تسمح له بأن يطلب الطلاق. كان الشاب المسكين يشرح أنّه كان طبيعيًا سابقًا، ولكن منذ زواجه أحسّ بانزعاجٍ وخجلٍ جعلا كلّ شيءٍ مستحيلًا.

الكثير من الجموح يخيف العذراء، والكثير من الاحترام يذلّها؛ هناك نساءٌ يكرهن إلى الأبد الرجل الّذي أخذ متعته بشكلٍ أنانيٍّ على حساب آلامهنّ؛ لكنّهن يشعرن بحقدٍ أبديٍّ على ذاك الّذي بدا أنّه يستخفّ بهنّ[122]، وغالبًا على ذلك الّذي لم يحاول فضّ بكارتهنّ أثناء اللّيلة الأولى أو الّذي كان عاجزًا. تشير **هيلين دويتش**[123] إلى أنّ بعض الأزواج، الخجولين أو الحمقى، يطلبون من الطبيب أن يفضّ بكارة زوجتهم بعمليّةٍ جراحيّةٍ بحجّة أنّها سيّئة التكوين؛ عمومًا المبرّر غير مقبولٍ. وتقول إنّ النساء يحتفظن للأبد باحتقارٍ وضغينةٍ تجاه الزوج الّذي كان عاجزًا عن اختراقهنّ بصورةٍ طبيعيّةٍ. وتُظهِر إحدى ملاحظات **فرويد**[124] أنّ عجز الزوج يمكن أن يولد لدى المرأة رضًّا:

اعتادت إحدى المريضات أن تركض من غرفةٍ لأخرى توجد فيها منضدةٌ. كانت عندئذٍ ترتّب المفرش بطريقةٍ معيّنةٍ، وتدقّ الجرس طالبةً الخادمة الّتي كان عليها أن تدنو من المنضدة ثم تصرفها... عندما حاولت شرح هذا الهاجس، تذكّرت أنّ هذا المفرش كانت عليه بقعةٌ شنيعةٌ وأنّها كانت ترتّبه في كلّ مرةٍ بحيث تبدو البقعة جليّةً للخادمة... كان كلّ هذا إعادة إنتاجٍ لليلة الزفاف حيث لم يتمكّن الزوج من إثبات رجولته. ركض ألف مرّةٍ من غرفته إلى غرفتها ليحاول من جديدٍ. خجلًا من الخادمة الّتي كان عليها ترتيب الأسرّة، سكب بعض الحبر الأحمر ليجعلها تظنّ أنّه دمٌ.

122- انظر ملاحظات ستيكل المذكورة في الفصل السابق.

123- علم نفس النساء.

124- نلخّصها عن ستيكل: المرأة الباردة.

تحوّل «ليلة الزفاف» التجربة الشهوانيّة إلى محنةٍ يشعر كلّ طرفٍ بالقلق من ألّا يتمكّن من تجاوزها، مشغولًا بمشاكله الخاصّة بحيث لا تكون لديه فرصة التفكير بالآخر كثيرًا؛ إنّها تعطي هذه التجربة فخامةً تجعلها مخيفةً؛ ولا يدهشنا أنّها تودي غالبًا بالمرأة إلى البرود. المشكلة الصعبة المطروحة أمام الزوج هي التالية: إن «داعب زوجته بشهوانيّةٍ كبيرةٍ» فقد تشعر بالاستنكار أو الإهانة؛ ويبدو أنّ هذا القلق يشلّ الأزواج الأمريكيين وسواهم، خاصّةً الزوجين اللّذين تلقّيا تعليمًا جامعيًّا، كما يلاحظ تقرير **كينزي**، لأنّ النساء الأكثر إدراكًا لذاتهنّ يشعرن بكبتٍ أكبر. مع ذلك، إذا «احترمها» سيفشل في إيقاظ شهوانيّتها. يخلق هذه المعضلة إبهام الوضع الأنثويّ: فالشابّة تريد المتعة وترفضها في آنٍ معًا؛ تطالب بالتكتّم وتتألّم منه. وفيما عدا سعادةٍ استثنائيّةٍ، يبدو الزوج حتمًا فاسقًا أو أخرق. من غير المدهش إذًا ألّا تكون «الواجبات الزوجيّة» بالنسبة للمرأة سوى عبئًا منفّرًا.

قال ديدرو[125]:

«الخضوع لسيّدٍ لا يعجبها هو تعذيبٌ بالنسبة لها. رأيت امرأةً شريفةً ترتعد رعبًا لدى اقتراب زوجها؛ رأيتها تغطس في حوض الاستحمام ولا تعتقد أبدًا أنّها اغتسلت بما فيه الكفاية من أدران الواجب الزوجيّ. هذا النوع من الاشمئزاز لا نعرفه تقريبًا. عضونا أكثر مرونةً. يموت العديد من النساء دون أن يشعرن بالشهوانيّة الفائقة. هذا الشعور، الّذي أستطيع أن أقول إنّه صرَعٌ عابرٌ، هو نادرٌ بالنسبة لهنّ ويلبّي النداء فورًا عندما نطلبه. تهرب السعادة منهنّ بين ذراعي الرجل الذي يعبدنه. ونجدها بقرب امرأةٍ مسايرةٍ لا تعجبنا. المكافأة أقل سرعةً وتأكيدًا بالنسبة لهنّ لأنّهنّ أقلّ تحكّمًا بإحساسهنّ منّا. مئة مرّةٍ يخطئ توقّعهنّ.

العديد من النساء في الواقع يصبحن أمّهاتٍ وجدّاتٍ دون أن يعرفن أبدًا المتعة ولا حتّى الاضطراب؛ يحاولن التملّص من «أدران الواجب الزوجيّ» باستخراج شهاداتٍ طبّيةٍ أو باختلاق أعذارٍ أخرى. ويشير تقرير **كينزي** إلى أنّ عددًا كبيرًا من الزوجات الأمريكيات «يصرّحن بأنّهنّ يعتبرن تواتر الإيلاج كبيرًا ويتمنّين ألّا يرغب أزواجهنّ بممارساتٍ بهذا القدر. قليلٌ جدًّا من النساء يتمنّين زيادة عدد مرّات الإيلاج». رأينا مع ذلك أنّ الإمكانيّات

125- حول النساء.

الشهوانيّة للمرأة غير محدودةٍ تقريبًا. هذا التناقض يُظهِر جيّدًا أنّ الزواج يدّعي تنظيم الشهوانيّة الأنثويّة بينما هو يقتلها.

في رواية «تيريز ديكيرو»، وصف موريياك Mauriac ردّ فعل شابّةٍ «تزوّجت زواج عقلٍ» على الزواج عمومًا وعلى الواجبات الزوجيّة خصوصًا:

ربما كانت تبحث في الزواج عن ملاذٍ بالأحرى وليس عن سيطرةٍ وتملّكٍ؟ أليس الهلع ما جعلها تسارع إليه؟ كانت طفلةً عمليّةً وبيتيّةً، وكانت مستعجّلةً لبلوغ مرتبتها وإيجاد مكانها النهائيّ؛ كانت تريد أن تهرب من هلاكٍ لا تعرف ما هو. لم تبدُ أبدًا أكثر تعقّلًا من فترة خطوبتها: كانت تنغرس ضمن كتلةٍ عائليّةٍ، «كانت تستقرّ»، تدخل ضمن نظامٍ. كانت تهرب. يوم الزفاف الخانق، في كنيسة سان كلير الضيّقة حيث كانت ثرثرة السيّدات تطغى على صوت الأرغن المقطوع الأنفاس وروائحهنّ تطغى على البخور، في ذلك اليوم شعرت تيريز أنّها ضائعةٌ. دخلت القفص كمن يمشي أثناء نومه، واستيقظت الطفلة البائسة فجأةً على قرقعة الباب وهو يُغلَق. لم يتغيّر شيءٌ، لكنّها كانت تشعر بأنّها لن تستطيع من الآن أن تضيع بمفردها. ستحيط برعايتها أغلظ أفراد الأسرة، كنارٍ خفيّةٍ تزحف تحت الأغصان...

... مساء هذا العرس نصف الفلّاحيّ ونصف البورجوازيّ، أرغمت مجموعاتٌ تتألّق فيها أثواب الفتيات سيّارة الزوجين على التباطؤ وكانوا يهتفون لهما... تمتمت تيريز وهي تفكّر باللّيلة الّتي دنت: «كان الأمر فظيعًا»، ثم استدركت: «ولكن لا... لم تكن رهيبةً بهذا القدر». خلال هذه الرحلة إلى البحيرات الإيطاليّة، هل تألّمت كثيرًا؟ كلّا، كلّا، لعبت دورها: عليها ألّا تفضح نفسها... عرفت تيريز كيف تخضع جسدها لهذا التظاهر وكانت تجد في ذلك متعةً مريرةً. عالم الأحاسيس المجهول هذا الّذي أجبرها رجلٌ على دخوله، كان خيالها يساعدها على تصوّر أنّه قد يكون لها فيه ربما سعادةٌ ممكنةٌ، ولكن أيّة سعادةٍ؟ كأنّنا أمام فلّاحٍ مبلّلٍ بالمطر ونتصوّر كيف يكون شكله تحت الشمس، وهكذا اكتشفت تيريز الشهوانيّة. برنار، هذا الشاب ذو النظرة الغائبة... يا للمخدوع السهل! كان منغلقًا ضمن متعته كهذه الخنازير الصغيرة الساحرة الّتي يكون النظر إليها مسلّيًا عبر السياج وهي تفيض سعادةً أمام المعلف. وفكّرت تيريز: «كنتُ أنا المعلف»... أين تعلّم أن يصنّف كلّ ما يمتّ إلى الجسد بصلةٍ، ويميّز مداعبات الرجل الشريف من مداعبات الشهوانيّ؟ دون أيّ تردّدٍ...

... مسكينٌ برنار، ليس أسوأ من غيره! لكن الرغبة تحوّل الشخص الّذي يقترب منّا إلى وحشٍ مختلفٍ. «كنت أتصنّع الموت كما لو أنّ هذا المجنون، هذا المصروع، يوشك أن يخنقني لدى أقلّ حركةٍ».

وها هي شهادةٌ أكثر فجاجةً. إنّه اعترافٌ حصل عليه ستيكل أورِدُ منه مقطعًا يخصّ الحياة الزوجيّة. يتعلّق بامرأةٍ في الثامنة والعشرين من عمرها، تربّت في وسطٍ راقٍ مثقّفٍ.

كنت خطيبةً سعيدةً؛ كنت أحسّ أنّي بمعزلٍ، وفجأةً أصبحت شخصًا يثير الاهتمام. كنت مُغنَّجةً، وكان خطيبي معجبًا بي، كان كلّ هذا جديدًا بالنسبة لي... كانت القبلات (لم يحاول خطيبي القيام بأيّة مداعباتٍ أخرى) قد ألهبتني لدرجة أنّي لم أكن أستطيع انتظار يوم الزفاف... صباح يوم الزفاف، كنت بحالةٍ من الهياج بحيث ابتل قميصي فورًا بالعرق. لمجرّد التفكير في أنّي سأعرف أخيرًا الشخص المجهول الّذي طالما رغبت به. كانت لدي صورةٌ طفوليّةٌ بأنّ الرجل يبول في مهبل المرأة...

في غرفتنا، شعرت بخيبة أملٍ صغيرةٍ عندما سألني زوجي إن كان عليه أن يبتعد. طلبت منه ذلك لأنّي كنت خجلى بالفعل أمامه. لعب مشهد خلع الملابس دورًا هامًّا في خيالي. عاد، مرتبكًا للغاية، عندما أصبحت في السرير. اعترف لي فيما بعد أن هيئتي أصابته بالخجل: كنت تجسيد الشبّاب المشرق المليء بالانتظار. ما إن خلع ملابسه حتى أطفأ النور. بالكاد قبلني وحاول فورًا مضاجعتي. كنت خائفةً جدًّا وطلبت منه أن يتركني وشأني. كنت أرغب في أن أكون بعيدةً جدًّا عنه. كنت مرعوبةً من هذه التجربة دون مداعباتٍ تمهيديّةٍ. وجدته عنيفًا وأنّبته على ذلك غالبًا فيما بعد: لم يكن ذلك عنفًا ولكن قلّة براعةٍ كبيرةً وقلّة إحساسٍ. وباءت كلّ محاولاته بالفشل خلال اللّيل. وبدأت أشعر بتعاسةٍ كبيرةٍ، خجلت من غبائي، واعتقدت أنّي مخطئةٌ وأنّ بتكويني عيبًا... أخيرًا، اكتفيت بقبلاته. بعد عشرة أيّامٍ، نجح أخيرًا في فضّ بكارتي، لم يدم الإيلاج سوى بضع ثوانٍ، ولم أشعر بشيءٍ سوى ألمٍ بسيطٍ. كانت خيبة أملٍ كبيرةً! فيما بعد كنت أشعر ببعض المتعة أثناء الإيلاج لكن نجاح ذلك كان صعبًا، كان زوجي يبذل جهدًا للوصول إلى هدفه... في براغ، في شقّة سلفي، كنت أتخيّل شعور سلفي عندما يعلم أنّي نمت في سريره. هناك حصلت على رعشتي الأولى الّتي جعلتني سعيدةً جدًّا. مارس زوجي الحبّ معي كلّ يومٍ خلال الأسابيع الأولى. كنت ما أزال أبلغ الرعشة لكنّي لم أكن مكتفيةً لأنّ ذلك كان قصيرًا جدًّا وكنت متهيّجةً إلى درجة البكاء... بعد ولادتين... أصبح الإيلاج أقلّ إرضاءً بالتدريج. نادرًا

ما كان يجلب الرعشة، كان زوجي يبلغها دائمًا قبلي؛ بقلقٍ كنت أتابع كلّ جلسةٍ (كم من الوقت سيستمر؟). كنت أكرهه عندما يبلغ الإشباع ويتركني في منتصف الطريق. أحيانًا، كنت أتخيّل ابن عمّي خلال الإيلاج أو الطبيب الّذي أشرف على ولادتي. حاول زوجي إثارتي بإصبعه... كنت أثار كثيرًا بذلك ولكن في الوقت نفسه كنت أرى هذا الأسلوب مخجلًا وغير طبيعيٍّ ولم أشعر به بأيّة متعةٍ... خلال كلّ فترة زواجنا لم يداعب أيّ موضعٍ في جسمي. ذات يومٍ، قال لي أنّه لم يكن يجرؤ على فعل أيّ شيءٍ معي... لم يرني عاريةً أبدًا لأنّنا كنّا نظل بملابس النوم، ولم يكن يضاجعني إلّا ليلًا.

هذه المرأة الّتي كانت شديدة الشهوانيّة وجدت السعادة فيما بعد بين ذراعي عشيقٍ.

فترة الخطوبة مكرّسةٌ تحديدًا لخلق تدرّجٍ في تدريب الشابّة؛ ولكنّ الأعراف تفرض غالبًا على الخطيبين عفّةً فائقةً. في حال كانت العذراء «تعرف» زوجها المقبل خلال هذه الفترة، لا يختلف وضعها كثيرًا عن وضع العروس؛ لا تستسلم إلّا لأنّ خطبتها تبدو لها نهائيّةً كالزواج ويبقى لأوّل إيلاجٍ شكل المحنة؛ من النادر أن تفسخ خطوبتها بعد أن تمنح نفسها، حتّى إن لم تكن حاملًا، الأمر الّذي سيقيّدها.

يمكن التغلّب بسهولةٍ على صعوبة التجارب الأولى إذا أدّى الحبّ أو الرغبة إلى موافقة الشريكين التامّة؛ يستمد الحبّ الجسديّ قوّته وعزّته من المتعة الّتي يتبادلها العاشقان ضمن الوعي المتبادل لحرّيتهما؛ عندها لا تكون أيّ ممارسةٍ كريهةً بما أنّها غير مفروضةٍ على أيٍّ منهما بل مرغوبٌ بها. لكنّ مبدأ الزواج فاحشٌ لأنّه يحوّل إلى حقوقٍ وواجباتٍ تبادلًا يجب أن يقوم على اندفاعٍ تلقائيٍّ؛ يعطي للجسدين صفة أداةٍ، أي ينحدر بهما، بما أنّه يرصدهما لإدراك نفسهما ضمن عموميّتهما؛ يصعق الزوج غالبًا لفكرة أنّه يؤدّي وظيفةً، و تخجل المرأة من شعورها بأنّها تهب نفسها لشخصٍ يمارس عليها حقًّا. قد يحدث بالطبع أن تتفرّد العلاقات في بداية الحياة الزوجيّة؛ يتمّ التدريب الجنسي أحيانًا على مراحل بطيئةٍ؛ قد يكتشف الزوجان منذ اللّيلة الأولى وجود انجذابٍ جسديٍّ رائعٍ بينهما. يسهّل الزواج استسلام المرأة لاغيًا مفهوم الخطيئة الّذي ما يزال مرتبطًا غالبًا بالجنس؛ تولِد المساكنة المنتظمة والمتكرّرة حميميّةً جسديّةً تساعد على النضج الجنسيّ: هناك زوجاتٌ يُشبَعن خلال سنوات الزواج الأولى. من الملاحَظ أنّهنّ يعترفن بفضل أزواجهنّ في ذلك

ما يدفعهنّ لمسامحتهم فيما بعد على كلّ الأخطاء الّتي قد تحدث. يقول ستيكل: «النساء اللّواتي يتحمّلن زواجًا تعيسًا هنّ اللّواتي كان أزواجهنّ يشبعونهنّ على الدوام». هذا لا يمنع أنّ الشابّة تخاطر بالارتباط مدى حياتها برجلٍ لا تعرفه جنسيًّا، بينما يتعلّق مصيرها الجنسيّ أساسًا بشخصيّة شريكها: هذا هو التناقض الّذي يستنكره منطقيًّا **ليون بلوم Lèon Blum** في كتابه حول الزواج.

من النفاق أن ندّعي أنّ الزواج القائم على التناسب لديه فرصٌ كبيرةٌ في أن يولِد الحبّ؛ ولا معنىً لأن نطلب من زوجين يرتبطان بمصالح عمليّةٍ واجتماعيّةٍ وأخلاقيّةٍ أن يتخلّيا عن الشهوانيّة طوال حياتهما. مع ذلك يبذل أنصار زواج العقل جهدًا في إظهار أنّ زواج الحبّ لا يملك فرصًا كبيرةً لمنح الزوجين السعادة. فأولًا الحبّ المثاليّ الّذي هو غالبًا ما تعرفه الشابّة لا يؤهّلها دومًا للحبّ الجنسيّ؛ حبّها الأفلاطونيّ وتخيّلاتها وعواطفها الّتي تعكس فيها هواجس الطفولة أو الشباب ليست مؤهّلةً للخضوع لتجربة الحياة اليوميّة ولا للاستمرار طويلًا. حتّى إن كان هناك بينها وبين خطيبها انجذابٌ جنسيٌّ صادقٌ وعنيفٌ، فليس ذلك أساسًا متينًا لإقامة مؤسّسة الحياة.

كتبت **كوليت**:

> **«تحتلّ الشهوانيّة في صحراء الحبّ اللامتناهية مكانًا صغيرًا متأجّجًا، ملتهبًا بحيث لا نرى في البدء سواه[126]. حول هذا البيت غير المستقرّ هناك المجهول، الخطر. عندما نستيقظ من عناقٍ قصيرٍ أو من ليلةٍ طويلةٍ، يجب أن نعيش الواحد مع الآخر، الواحد من أجل الآخر».**

بالإضافة إلى ذلك، حتّى في حال وجود الحبّ الجسديّ قبل الزواج أو استيقاظه في بداية الزفاف، من النادر جدًّا أن يدوم سنين طويلةً. الإخلاص ضروريٌّ بالتأكيد للحبّ الجنسيّ بما أنّ رغبة العاشقين المغرمين تغلّف خصوصيّتهما؛ يرفضان أن تطعن فيه تجارب غريبةٌ، يريدان ألّا يحتل أحدٌ مكان أحدهما لدى الآخر؛ لكنّ هذا الإخلاص ليس له معنىً بقدر ما هو تلقائيٌّ ويتلاشى سحر الشهوانيّة تلقائيًّا بسرعةٍ. والعجيب هو أنّها مع

126- المتشرّدة.

كلّ عشيقٍ تكشف آنيًّا، في وجوده الجسديّ، شخصًا وجوده تسامٍ غير محدودٍ: ولا شكّ في أنّ تملّك هذا الشخص مستحيلٌ، ولكن على الأقلّ يمكن الوصول إليه بطريقةٍ مميّزةٍ وحادّةٍ. ولكن عندما لا يعود الأشخاص يتمنّون الوصول لبعضهم لأنّ بينهم عداءً أو نفورًا أو لا مبالاةً، يختفي الانجذاب الشهوانيّ؛ ويموت تقريبًا كذلك ضمن الاحترام والصداقة؛ لأنّ شخصين يجتمعان ضمن حركة تساميهما ذاتها، عبر العالم ومؤسساتهما المشتركة، لا يعود بهما حاجةٌ للاتّحاد جسديًّا؛ وحتّى ينفران منه، بما أنّ هذا الاتحاد فقد معناه. كلمة سفاح القربى الّتي يلفظها **مونتيني** عميقةٌ. الشهوانيّة هي حركةٌ نحو الآخر، هذه هي صبغتها الأساسيّة؛ ولكن ضمن الثنائي يصبح الزوجان بالنسبة لبعضهما نفس الشخص؛ ولا يعود أيّ تبادلٍ ممكنًا بينهما، ولا أيّ عطاءٍ ولا أيّ انتصارٍ. وكذلك إن ظلّا عشيقين، يكون ذلك غالبًا بشكلٍ مخزٍ: يشعران أنّ العمل الجنسيّ لم يعد تجربةً بين شخصين، يتفوّق فيها كلّ واحدٍ على نفسه، ولكن نوعًا من الاستمناء الجماعيّ. إن اعتبر أحدهما الآخر أداةً ضروريّةً لإشباع رغباتهما، فهذا أمرٌ يخفيه التهذيب الزوجيّ ولكنّه يظهر بشكلٍ ساطعٍ ما إن يُرفَض هذا التهذيب، مثلًا في الملاحظات الّتي أوردها الدكتور **لاغاش** Lagache في كتابه حول «طبيعة الغيرة وشكلها»؛ تنظر المرأة إلى العضو الذكريّ كمؤونةٍ من المتعة تخصّها، وتكون ضنينةً بها كما تفعل مع مخزوناتها الّتي تخبئها في خزائنها: إذا أعطى الرجل بعضها للجارة، لن يبقى لها الكثير؛ وتتفحّص سراويله الداخليّة مشكّكةً لترى إن لم يكن قد بذّر المني الثمين. ويشير **جوهاندو** Jouhandeau في «الوقائع الزوجيّة» إلى هذه «الرقابة اليوميّة الّتي تمارسها الزوجة الشرعيّة الّتي تلاحق قميصك ونومك لتفاجئ فيهما علامة الفضيحة». الرجل من ناحيته يرضي رغباته معها دون أن يسألها رأيها.

غير أنّ إرضاء الحاجة الفظّ هذا لا يكفي لإشباع الشهوانيّة البشريّة. ولهذا هناك غالبًا في هذه العناقات الّتي نراها الأكثر شرعيّةً طعمُ الرذيلة. من السائد أن تساعد المرأة نفسها بتخيّلاتٍ شهوانيّةٍ. يذكر ستيكل حالة امرأةٍ في الخامسة والعشرين من عمرها «تستطيع أن تشعر برعشةٍ خفيفةٍ مع زوجها عندما تتخيّل أنّ رجلًا قويًّا وأكبر سنًّا يمتلكها دون أن يطلب رأيها فلا تستطيع الدفاع عن نفسها». وتتخيّل أنّها تُغتَصَب وتُضرَب وأنّ زوجها هو شخصٌ آخر. وهو يحلم نفس الحلم: يتخيّل في جسد امرأته ساقي راقصةٍ رآها في

استعراضٍ، وثديي فتاةٍ فاتنةٍ تأمّل صورتها، ذكرى، صورةً؛ أو أنّه يتخيّل امرأته مرغوبةً ومتملّكةً ومُغتَصَبةً، وهذه وسيلةٌ لإعادة الغيريّة الّتي فقدها. ويقول ستيكل: «يخلق الزواج انتقالاتٍ فظّةً وانقلاباتٍ، وممثّلين رفيعين، وتمثيليّاتٍ يقوم بها الشريكان تهدّد بهدم كلّ الحدود بين المظهر والواقع». في النهاية، تظهر رذائل محدّدةٌ. فيصبح الرجل متلصّصًا: يحتاج إلى رؤية زوجته أو معرفة أنّها تضاجع عشيقًا ليسترجع بعض سحرها؛ أو أنّه يبذل جهدًا ساديًّا ليولد لديها رفضًا، بحيث يبدو له وعيها وحرّيتها أخيرًا ويصبح ما يتملّكه كائنًا بشريًّا. وبالعكس، يظهر لدى المرأة سلوكٌ مازوشيٌّ فتحاول أن تحفز السيّد والطاغية لدى الرجل، بعكس ما هو عليه؛ عرفتُ سيّدةً نشأت في ديرٍ، تقيّةً جدًّا، متسلّطةً ومسيطرةً خلال النهار، لكنّها كانت ليلًا ترجو زوجها بحرارةٍ أن يجلدها، وكان ينفّذ ذلك باستنكارٍ. حتّى أنّ الرذيلة تأخذ في الزواج شكلًا منظّمًا وباردًا، شكلًا جدّيًا يجعل منها أتعس ما تبقّى.

الحقيقة هي أنّه لا يمكن معاملة الحب الجسديّ كغايةٍ مطلقةٍ ولا كوسيلةٍ بسيطةٍ؛ لا يمكنه تبرير وجودٍ: لكنّه لا يستطيع قبول أيّ تبريرٍ غريبٍ. ما يعني أنّ عليه أن يلعب في كلّ حياةٍ بشريّةٍ دورًا عرضيًّا ومستقلاًّ. أي أنّ عليه أن يكون حرًّا قبل كلّ شيءٍ.

مع ذلك أليس هو الحب ما يَعِد به تفاؤل البورجوازيّة العروس الشابّة: الهدف الّذي يُغرونها به هو السعادة، أي توازنٌ هادئٌ ضمن المُلازَمة والتكرار. في بعض عهود الازدهار والأمان، كان هذا الهدف هدف البورجوازيّة بأكملها وبصورةٍ خاصّةٍ المالكين العقاريّين؛ لم يكونوا يهدفون إلى غزو المستقبل أو العالم ولكن إلى الاحتفاظ الهادئ بالماضي بالوضع الراهن. وضاعةٌ مذهّبةٌ دون طموحٍ ولا حماسٍ، أيّامٌ لا تؤدّي إلى أيّ مكانٍ وتتكرّر بلا نهايةٍ، حياةٌ تنزلق بهدوءٍ نحو الموت دون البحث عن سببٍ، هذا ما يطريه مثلًا كاتب «موشّحة السعادة»؛ هذه الحكمة الكاذبة المستوحاة من أبيقور Èpicure وزينون Zènon فقدت اليوم مصداقيّتها: لا يبدو الحفاظ على العالم وتكراره كما هو أمرًا مرغوبًا به ولا ممكنًا. نزعة الذكر هي العمل؛ يجب أن ينتج ويقاتل ويخلق ويتقدّم ويتجاوز نفسه نحو كامل الكون ولا محدوديّة المستقبل؛ لكنّ الزواج التقليديّ لا يدعو المرأة إلى أن تتعالى معه؛ إنه يحصرها في المُلازَمة. بالتالي لا يمكنها أن تطرح على نفسها سوى إنشاء حياةٍ متوازنةٍ حيث يتملّص الحاضر من تهديدات المستقبل بتمديده للماضي، أي إنشاء سعادةٍ تحديدًا. إن غاب الحبّ،

ستشعر نحو زوجها بشعورٍ حنونٍ واحترامٍ يدعى الحبّ الزوجي؛ ستحبس العالم بين جدران المنزل الّذي سيعهد إليها بإدارته؛ وستديم النوع البشريّ عبر المستقبل. مع ذلك لا يتخلّى أيّ كائنٍ أبدًا عن تساميه، حتّى عندما يصرّ على إنكاره. كان البورجوازيّ فيما مضى يظنّ أنّه إن حافظ على النظام القائم، بإظهار فضائله عبر ازدهاره، كان يخدم الله وبلاده ونظامًا وحضارةً: أن تكون سعيدًا يعني ملء وظيفتك كرجلٍ. بالنسبة للمرأة أيضًا يجب أن تتجاوز حياة المنزل المتناغمة نحو غاياتٍ: الرجل هو من يلعب دور الوسيط بين فرديّة المرأة والكون، هو الّذي سيكسو زيفه العارض قيمةً إنسانيّةً. ناهلًا من وجود زوجته قوة المباشرة والعمل والكفاح، هو من يبرّرها: ليس عليها سوى أن تضع وجودها بين يديه وسيمنحه معناه. هذا يفترض من جهتها تنازلًا متواضعًا؛ لكنّها تكافأ عليه لأنّها ستتملّص من الإهمال الأصليّ بما أنّ القوة الذكريّة ستقودها وتحميها؛ ستصبح ضروريّةً. ملكةً في خليّتها، مرتاحةً بسكينةٍ داخليّةٍ في مجالها، ولكن مأخوذةً بتدخّل الرجل عبر الكون والزمن بلا حدودٍ، زوجةً، أمًّا، ربّة منزلٍ، تجد المرأة في الزواج قوّة العيش ومعنى الحياة معًا. علينا أن نرى كيف يتجلّى هذا الهدف في الواقع.

تجلّى مثل السعادة الأعلى دومًا في المنزل، كوخًا كان أم قصرًا؛ إنّه يجسّد الديمومة والافتراق. تتشكّل الأسرة بين جدرانه كخليّةٍ معزولةٍ وتؤكّد هويّتها عبر مرور الأجيال؛ المحافظة على الماضي بشكل أثاثٍ أو صور الأجداد يعطي تصوّرًا مسبقًا عن مستقبلٍ آمنٍ؛ في الحديقة تسجّل الفصول دورتها المطمئنة عبر خضارٍ صالحةٍ للأكل؛ كلّ سنةٍ، يأتي نفس الربيع مزيّنًا بنفس الزهور يَعِدُ بعودة الصيف المستقرّ، والخريف بثماره المشابهة لثمار كلّ خريفٍ: لا يهرب الزمان ولا المكان نحو اللانهاية، إنّهما يدوران بتعقّلٍ. في كلّ حضارةٍ قائمةٍ على الملكيّة العقاريّة هناك أدبٌ غزيرٌ يتحدّث عن فضائل البيت؛ تلخّص رواية هنري بوردو Henry Bordeaux المسمّاة «البيت» كلّ القيم البرجوازيّة: الإخلاص للماضي، والصبر، والتوفير، والبصيرة، وحب الأسرة، والأرض مسقط الرأس، إلخ.. من السائد أن يكون مدّاحو المنزل نساءً لأنّ مهمّتهنّ هي تأمين سعادة المجموعة الأسريّة؛ دورهنّ كما في الزمن الّذي كانت فيه «السيّدة» تجلس في الباحة، هو أن يكنّ «ربّة منزلٍ». فقد المنزل اليوم بهاءه الأبوي؛ بالنسبة لغالبيّة الرجال هو فقط مسكنٌ لم تعد تثقله ذكرى الأجيال الراحلة،

الّتي لم تعد تأسر القرون المقبلة. لكنّ المرأة ما زالت تبذل جهدًا لإعطاء «بيتها» المعنى والقيمة اللّذين كانا للمنزل الحقيقي. في «طريق كانري Cannery Road» يصف شتاينبك Steinbeck متشرّدةً تصرّ على أن تزيّن بالسجّاد والستائر الأسطوانة المهجورة الّتي تسكن فيها مع زوجها: وعبثًا يعترض بأنّ عدم وجود نوافذ يجعل الستائر دون فائدة.

هذا الاهتمام أنثويٌّ بحتٌ. فالرجل العادي يعتبر الأشياء المحيطة به أدواتٍ؛ ويضعها بحسب الغايات المصنوعة لأجلها؛ «ترتيبه» للأشياء ـ الّذي لا ترى فيه المرأة سوى فوضى ـ يعني أن تصل يداه إلى سجائره وأوراقه وأدواته. والفنانون الّذين يُعهد إليهم بإعادة تشكيل العالم عبر مادةٍ ـ النحاتون والرسامون ـ لا يهتمون البتة بالإطار الّذي يعيشون فيه. وقد كتب ريلكه Rilke عن رودان Rodin ما يلي:

> **أدركتُ في زيارتي الأولى لرودان أنّ منزله لم يكن يعني له شيئًا سوى ضرورةٍ بائسةٍ: مأوىً من البرد، وسقفٍ ينام تحته. لم يكن يهمّه أو يثقل على وحدته أو انكفائه. كان يجد مأواه في ذاته: ظلٌّ وملاذٌ وسلامٌ. أصبح سماء ذاته، وغابتها ونهرها العريض الّذي لم يعد يوقفه شيءٌ.**

ولكن كي يجد مأوىً في نفسه، عليه أولًا أن يحقّق ذاته في أعمالٍ أو أنشطةٍ. لا يهتمّ الرجل كثيرًا بداخل بيته لأنّه يصل إلى الكون بكامله ولأنّ بإمكانه تأكيد ذاته ضمن مشاريع. في حين أنّ المرأة مسجونةٌ في الرابطة الزوجيّة فتسعى إلى تحويل هذا السجن إلى مملكةٍ. وتتحكّم في موقفها من مملكتها نفس هذه الجدليّة الّتي تحدّد وضعها عمومًا: إنّها تأخذ عندما تصبح طريدةً، وتتحرّر عندما تتنازل؛ وبتخلّيها عن العالم تريد اكتساب عالمٍ.

وبأسفٍ تغلق خلفها أبواب المسكن؛ عندما كانت فتاةً كانت الأرض كلها وطنها؛ وكانت الغابات ملكها. الآن هي حبيسة حيّزٍ ضيّقٍ؛ تُختَزل الطبيعة فيه إلى حوض أزهار الخبيزة؛ وتسدّ الجدران الأفق. تمتمت إحدى بطلات ف. وولف[127]:

> **لم أعد أميّز الشتاء من الصيف عبر وضع العشب أو نبات الخلنج في البراري بل عبر البخار أو الصقيع الّذي يتشكّل على الزجاج. أنا الّتي كنت فيما مضى أمشي في**

127- الأمواج Les Vagues.

غابات الزان معجبةً باللون الأزرق لريشة طائر أبي زريقٍ عندما تسقط، أنا الّتي كنت أصادف في طريقي المتشرّد والراعي... أذهب من غرفةٍ إلى أخرى، وبيدي منفضة ريشٍ.

لكنها تبذل جهدها لرفض هذه الحدود. فتخبئ بين جدرانها نباتات الأرض وحيواناتها، والبلدان الغريبة، والعصور الماضية، بأشكالٍ مكلفةٍ قليلًا أو كثيرًا؛ وتحتجز فيها زوجها الّذي يمثّل بالنسبة لها المجموعة البشريّة، والطفل الّذي يعطي صورة المستقبل. ويصبح البيت مركز العالم و حقيقتها الوحيدة حتّى؛ وكما يقول **باشلار** Bachelard إنّه «نوعٌ من عكس الكون أو كون المعاكس»؛ ملجأ، ومُعتَزلٌ، ومغارةٌ، وبطنٌ، يحمي من تهديدات الخارج: تصبح هذه الخارجانيّة المشوّشة غير حقيقيّةٍ. في المساء خصوصًا، عندما تُغلَق المصاريع، تشعر المرأة أنها ملكةٌ؛ يزعجها الضوء الّذي تنشره الشمس ظهرًا؛ ولا يؤخذ منها شيءٌ ليلًا لأنها ألغت ما لا تملكه؛ ترى تحت غطاء المصباح ضوءًا يلتمع هو ضوءها وينير بيتها فقط: لا يوجد سواه. يظهر لنا نصٌّ لفرجينيا وولف الواقع مركّزًا في المنزل، بينما ينهار الفضاء في الخارج.

طُرِد الليل الآن خلف النوافذ وبدل أن تعطي هذه رؤيةً دقيقةً للعالم الخارجي تفتله بشكلٍ غريبٍ لدرجة أنّ النظام والثبات والأرض الصلبة بدت مستقرّةً داخل البيت؛ ولم يعد هناك في الخارج على العكس سوى انعكاسٍ ترتجف فيه وتختفي الأشياء الّتي أصبحت سائلةً.

بفضل المخمل والحرير والخزف الّذي تحيط المرأة نفسها به، يمكنها جزئيًّا إشباع هذه الشهوانيّة الأخّاذة الّتي لا ترويها عادةً حياتها الجنسيّة؛ ستجد أيضًا في هذا الزخرف تعبيرًا عن شخصيّتها؛ هي الّتي اختارت وصنعت و«انتقت» الأثاث والتحف، ورتّبتها حسب شكلٍ جماليٍّ يحتلّ فيه الاهتمام بالتناظر حيّزًا واسعًا عمومًا؛ إنها تعكس لها صورتها الخاصّة وفي الوقت نفسه تشهد اجتماعيًّا على مستوى حياتها. بيتها بالنسبة لها إذًا هو حصّتها الّتي قسمت لها على الأرض، والتعبير عن قيمتها الاجتماعيّة، وحقيقتها الأكثر حميميّةً. ولأنها «لا تفعل» شيئًا، فهي تبحث عن نفسها بشرهٍ فيما تملكه.

تحقّق المرأة حيازتها «لعشّها» عبر العمل المنزليّ؛ ولهذا تصرّ على المشاركة في العمل

حتى لو «ساعدها أحد»؛ تعمل على الأقلّ على جعل نتائج عمل الخدم من صنعها من خلال المراقبة والإشراف والانتقاد. فتحصل على مبرّرها الاجتماعي بإدارة منزلها؛ ومهمّتها أيضًا هي الإشراف على التغذية، والملابس، والعناية بالمؤسّسة العائليّة عمومًا. وهكذا تحقّق ذاتها، هي أيضًا، كفعّاليّةٍ. لكنّنا سنرى أنّها فعّاليّةٌ لا تنتزعها من مُثوليتها ولا تسمح لها بتأكيدٍ خاصٍّ لذاتها.

لطالما أشادوا بالأعمال المنزليّة. صحيحٌ أنها تضع المرأة في صراعٍ مع المادّة، وأنّها تحقّق مع الأشياء حميميّةً هي انكشافٌ للذات وبالتالي تغنيها. في «بحثًا عن ماري» تصف **مادلين بوردوكز** Madeleine Bourdouxhe المتعة الّتي تشعر بها بطلتها في بسط معجون التنظيف على الفرن: تشعر بالحريّة والقوّة في أطراف أصابعها الّتي يعكس المعدن المفروك صورتها البرّاقة.

> **عندما تصعد من القبو، تحبّ ثقل الدلاء الممتلئة الّتي تزداد ثقلًا عند كلّ بسطة درجٍ. لطالما أحبّت الأشياء البسيطة الّتي لها رائحتها الخاصّة، وخشونتها، أو انحناءتها الرشيقة. ومنذئذٍ تعرف كيف تعاملها. لماري يدان تغطسان دون تردّدٍ ولا تراجعٍ في الأفران المطفأة أو الدلاء المليئة بالماء والصابون، تزيلان الصدأ وتزيّتان الحديد، وتمدّان الورنيش، وتلتقطان بحركةٍ واحدةٍ واسعةٍ دائريّةٍ القشور الّتي تغطّي منضدةً. إنه تناغمٌ كاملٌ، زمالةٌ بين راحتيها والأشياء الّتي تلمسانها.**

تحدّث العديد من الكاتبات النسويّات بحبٍّ عن البياضات المكويّة حديثًا، والبريق المزرقّ للماء والصابون، والملاءات البيضاء، والنحاس البرّاق. عندما تنظّف ربّة البيت وتلمّع الأثاث، «تحلم بنفوذ الشمع داخل الخشب وهذا يساعد اليد الصبورة الّتي تعطي الخشب جمالًا»، كما يقول **بلانشار**. بعد انتهاء المهمّة، تتذوق ربّة المنزل متعة التأمّل. ولكن كي تظهر الخصائص الثمينة: صقل منضدةٍ، لمعان شمعدانٍ، بياض الثلج للبياضات المنشّاة، يجب أولًا القيام بعملٍ سلبيٍّ؛ يجب إبعاد كلّ ماهو سيّءٌ. ويقول **بلانشار** إنّ هذا هو الهاجس الأساسيّ الّذي يراود ربّة المنزل: إنّه حلم النظافة الفعّالة، أي النظافة الفائزة على القذارة. ويصفها كالتالي[128]:

128- بلانشار Blanchard، «الأرض وتخيّلات الراحة».

يبدو بالتالي أن تخيّل الصراع من أجل النظافة يحتاج إلى تحفيزٍ. يجب أن يحفّز هذا التخيّل غضبٌ خبيثٌ. بأيّ ابتسامةٍ شرّيرةٍ نغطّي بعجينة التلميع نحاس الصنبور. نغطّيه بقذارات طرابلسيّةٍ[129] معجونةٍ على الممسحة القديمة المتّسخة والدهنيّة. تتراكم المرارة والعدائيّة في قلب العامل. لماذا هذه الأعمال المبتذلة؟ ولكن تأتي لحظة الممسحة الجافّة، عندها يظهر الخبث المرح، الخبث القويّ والثرثار: أيّها الصنبور، ستصبح مرآةً؛ أيّتها القِدر، ستصبحين شمسًا! وأخيرًا عندما يلمع النحاس ويضحك بفظاظة صبيٍّ، تحدث المصالحة. وتتأمّل ربّة المنزل انتصاراتها الباهرة.

ذكر بونج Ponge الصراع في قلب الغسّالة، بين أقذار الشوارع والنقاء[130]:

مَن لم يعش شتاءً على الأقلّ قريبًا من غسّالةٍ يجهل كلّ شيءٍ عن نوعٍ مؤثرٍ للغاية من الخصائص والانفعالات.

يجب أن ترفعها، متعثّرًا، بحركةٍ واحدةٍ عن الأرض، مليئةً بحمولتها من القماش القذر، لتضعها فوق الموقد حيث يجب سحبها بطريقةٍ معيّنةٍ، ثم وضعها في مكانها المناسب.

يجب أن تضرم تحتها الوقود، لتسخنها تدريجيًا، وتجسّ جدرانها الفاترة أو الحاميّة: ثم تسمع الهدير العميق الداخليّ وعندئذٍ ترفع الغطاء عدّة مرّاتٍ لتراقب ضغط الفوران وانتظام الريّ.

ثم ينبغي أن تحضنها ثانيةً وهي تغلي لتنزلها من جديدٍ على الأرض...

الغسّالة مصنوعةٌ بحيث أنها عندما تملأ بكومةٍ من القماش القذر، فالتأثّر الداخليّ، والاستنكار الّذي يغلي والّذي تشعر به من ذلك، والّذي يحوّل نحو القسم الأعلى منها، يسقط ثانيةً كالمطر على كومة القماش المقززّة هذه الّتي تصيبه بالغثيان ـ دائمًا تقريبًا ـ ويؤدّي إلى التطهير...

بالطبع يكون الغسيل عندما تتلقّاه الغسّالة قد خضع قبلًا لعمليّة تنظيفٍ فظّةٍ...

مع ذلك يبقى لديها فكرةٌ أو شعورٌ بالقذارة المنتشرة للأشياء آتي بداخلها والّتي تتوصّل إلى التغلّب عليها بالانفعال والغليان والجهد، فتفصلها عن الأقمشة، بحيث تبدو تلك ناصعة البياض بعد شطفها بشلّالٍ من الماء البارد.

129- الطرابلسية حجر نقاعي مصدره طرابلس يستعمل للصقل (المترجمة).

130- انظر لياس Liasses، الغسّالة.

وهكذا تحدث المعجزة بالفعل:

ألف رايةٍ بيضاء تنشر فجأةً ـ شاهدةً على انتصارٍ وليس على استسلامٍ ـ وربما أكثر من علامةٍ على نظافة سكّان المكان الجسديّة...

يمكن أن تعطي هذه الجدليّات للعمل المنزليّ جاذبيّة لعبةٍ: فالفتاة الصغيرة تلهو عن طيب خاطرٍ بتلميع الفضّيات، وفرك مقابض الأبواب. ولكن كي تجد المرأة في مهامّها إرضاءً إيجابيًّا، يجب أن تكرّسها لبيتٍ تفخر به؛ وإلّا فلن تنال متعة التأمّل، الوحيدة القادرة على مكافأة جهودها. عاش مراسلٌ أمريكيٌّ[131] عدة أشهرٍ بين «البيض الفقراء» في جنوب الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ووصف الحياة المؤثرة لإحدى هاته النساء المثقلة بالأعباء والّتي تبذل عبثًا جهدًا في جعل كوخٍ قذرٍ مسكنًا. كانت تعيش مع زوجها وسبعة أطفالٍ في كوخٍ خشبيٍّ جدرانه مغطّاةٌ بالسخام، يعجّ بالبقّ؛ كانت قد حاولت أن «تجعل البيت جميلا»؛ في الغرفة الرئيسيّة مدفأةٌ جداريّةٌ مغطّاةٌ بملاطٍ مزرقٍّ، وهناك منضدةٌ وبضع لوحاتٍ معلّقةٍ على الجدار تشكّل نوعًا من المذبح. لكنّ الكوخ القذر ظلّ كوخًا قذرًا وكانت السيدة ج. تقول والدموع في عينيها: «آه! كم أكره هذا البيت! يبدو لي أنّه لا يمكن فعل شيءٍ في العالم لجعله جميلًا!» وهكذا فأعدادٌ كبيرةٌ من النساء لا يجمعهنّ سوى تعبٍ متكرّرٍ إلى ما لا نهايةٍ خلال معركةٍ لا انتصار فيها أبدًا. حتّى في حالاتٍ مميّزةٍ لا يكون هذا الانتصار نهائيًّا البتة. أغلب مهام ربّة المنزل توازي عذاب سيزيف[132]؛ يومًا بعد يومٍ، يجب غسل الأطباق، وإزالة الغبار من على الأثاث، ورتق الملابس، وستعود في اليوم التالي من جديدٍ وسخةً مغبرّةً ممزّقةً. تفني ربّة المنزل نفسها في المراوحة في المكان؛ إنّها لا تفعل شيئًا: إنّها تديم الحاضر فقط؛ وليس لديها الانطباع باكتساب شيء إيجابيٍّ ولكن بمكافحة الشرّ دون توقّفٍ. وهو صراعٌ يتجدّد كلّ يومٍ. نعرف حكاية هذا الحاجب الّذي كان يرفض حزينًا أن يلمّع حذاء سيّده قائلًا: «وما نفع ذلك؟ سنقوم بذلك من جديدٍ غدًا». ويشاطره يأسه هذا عديدٌ من الشابّات غير المستكينات. أذكر بحث طالبةٍ في السادسة عشرة من عمرها كان يبدأ

131- جيمس آجي، James Agee, Let us Now Praise Famous Men

132- في الأساطير الإغريقية كان سيزيف يدفع صخرةً ضخمةً نحو قمة الجبل ثم تتدحرج للأسفل ليعود ويدفعها نحو القمة في جهدٍ لا ينتهي. (المترجمة)

تقريبًا بهذه الكلمات: «اليوم هو يوم التنظيف الكبير. أسمع ضجيج المكنسة الكهربائيّة الّتي تحرّكها أمّي عبر البهو. أودّ أن أهرب. أقسم أنّه عندما أكبر لن يكون في بيتي أبدًا يومٌ للتنظيف الكبير». ترى الطفلة المستقبل كصعودٍ لا ينتهي نحو قمّةٍ ما. فجأةً، في المطبخ حيث تغسل الأم الأطباق، تفهم الطفلة أنّ هاتين اليدين غطستا في المياه الدهنيّة، منذ سنواتٍ، كلّ بعد ظهيرةٍ، في الساعة عينها، ومسحتا الخزف بالممسحة الخشنة. وستخضعان لهذه الطقوس حتّى الموت. الأكل، النوم، التنظيف... السنوات لا تتسلّق السماء، إنّها تمتدّ متشابهةً ورماديّةً كمفرشٍ أفقيٍّ؛ كلّ يومٍ يقلّد الّذي قبله؛ إنّه حاضرٌ أزليٌّ دون فائدةٍ ولا أملٍ. في القصّة المسمّاة الغبار[133] La Poussière وصفت **كوليت أودري** بمهارةٍ الزهوّ المحزن لناشطةٍ هائجةٍ ضدّ الزمن:

في اليوم التالي عندما مرّرت المكنسة تحت الأريكة، أعادت لها شيئًا اعتقدت في البداية أنّه قطعةٌ قديمةٌ من القطن أو قطعة زغبٍ كبيرةٌ. ولكنّه لم يكن سوى كبّة من الغبار مما يتشكّل تحت الخزائن العالية الّتي ينسون مسحها أو خلف قطع الأثاث، بين الجدار والخشب. ظلّت ساهمةً أمام هذه المادّة الغريبة. إذًا هما يعيشان في هذه الغرف منذ ثمانية أو عشرة أسابيع ورغم انتباه جولييت، سنحت الفرصة لكبّةٍ من الغبار لتتشكّل، وتكبر، متربّصةً في ظلّها كهذه الحيوانات الرماديّة الّتي كانت تثير الفزع عندما كانت صغيرةً. رماد غبارٍ رقيقٌ يشي بالإهمال، بداية تخلٍّ، إنّه التوضّع غير المحسوس للهواء الّذي نستنشقه، والثياب الّتي تتموّج، والهواء الّذي يدخل من النوافذ المفتوحة؛ لكنّ كانت هذه الكُبّة تمثّل أصلًا حالةً ثانيةً من الغبار، الغبار المنتصر، سماكةٌ تأخذ شكلًا ومن الترسّب يصبح نفايةً. كان منظرها جميلًا تقريبًا، شفّافةً وخفيفةً مثل قنزعة العوسج، ولكن كامدةً أكثر.

... كان الغبار أسرع من كلّ قوّة العالم الماصّة. لقد استحوذ على العالم ولم تعد المكنسة الكهربائيّة سوى شيءٍ شاهدٍ مخصّصٍ لإظهار كلّ ما يستطيع النوع البشري إهداره من عملٍ، ومادّةٍ، ومهارةٍ ليكافح القذارة الّتي لا يمكن مقاومتها. كانت النفاية في شكلِ آلةٍ.

...كانت حياتهما المشتركة هي سبب كلّ شيءٍ، وجباتهما الصغيرة الّتي كانت تخلّف قشورًا، غباراهما اللّذان كانا يمتزجان في كلّ مكانٍ... كلّ أسرةٍ تفرز هذه

133- On joue perdant

القاذورات الصغيرة الّتي يجب إتلافها لإفساح المجال لغيرها...يا لها من حياةٍ نقضيها ـ وكي نستطيع الخروج بقميصٍ نظيفٍ يسترعي أنظار المارّة، لكي يبدو زوجك المهندس بشكلٍ جيّدٍ أمام الناس. مرّت وصفاتٌ في رأس مارغريت: العناية بالأرضيّة الخشبيّة... من أجل العناية بالنحاسيّات، استعملي... كانت مكلّفةً بالعناية بشخصين عاديين حتى آخر أيامهما.

الغسيل، الكيّ، الكناسة، تحرّي كتل الغبار المتربّصة تحت عتمة الخزائن، تعني رفض الحياة أيضًا من خلال إيقاف الموت: لأنّ الزمن يخلق ويتلف بحركةٍ واحدةٍ؛ لا تدرك ربّة البيت منه سوى المظهر المُنكِر. سلوكها هو سلوك المانويّ[134]. خاصّة المانويّة ليست فقط الاعتراف بمبدأين، أحدهما خيرٌ، والآخر شرٌّ: ولكن طرح أننا نبلغ الخير بإلغاء الشر وليس بحركةٍ إيجابيّةٍ؛ بهذا المعنى، المسيحيّة ليست مانويّةً أبدًا رغم وجود الشيطان، لأن المرء يكرّس نفسه لله بشكلٍ أفضل بمقاومته الشيطان وليس بالاهتمام به كي يقهره. كلّ مذهب تسامٍ وحرّيّةٍ يُلحِق هزيمة الشرّ بالتقدّم نحو الخير. لكنّ المرأة غير مدعوّةٍ لإقامة عالمٍ أفضل؛ البيت والغرفة والغسيل المتّسخ والأرضيّة الخشبيّة هي أشياء جامدةٌ: لا يمكنها سوى أن تطرد العناصر السيّئة الّتي تندسّ فيها: فتهاجم الغبار، والبقع، والوحل، والقذارة؛ وتكافح الخطيئة، وتكافح الشيطان. لكنّه مصيرٌ حزينٌ تخضع له ربّة المنزل غاضبةً لاضطرار المرء إلى دفع عدوٍّ باستمرارٍ بدل الالتفات نحو أهدافٍ إيجابيّةٍ. ويستخدم بلا نشار في وصف ذلك كلمة «الشرّ»؛ ونجدها أيضًا بقلم المحلّلين النفسيين. بالنسبة لهم هوس العمل المنزليّ هو شكلٌ من السادو–مازوشيّة؛ وخاصّية العيوب هو أنها تفرض على الحرّية أن تريد ما لا تريده؛ ولأنّ ربّة المنزل المهووسة تكره أن تكون السلبيّة من نصيبها، والقذارة، والشرّ، فهي تنهمك بغضبٍ ضدّ الغبار، مضطلعةً بقدرٍ يثير غضبها. ومن خلال النفايات الّتي يتركها وراءه كلّ انتشارٍ حيٍّ، تسخط على الحياة نفسها. وحالما يدخل كائنٌ حيٌّ ضمن مجالها، تلتمع عيناها بنارٍ شرّيرة. «امسح قدميك، لا تخرّب كلّ شيءٍ، لا تلمس هذا». تودّ لو تمنع المحيطين بها من التنفّس: أقلّ نَفَسٍ هو تهديدٌ. وكلّ حدثٍ يأتي بتهديد عملٍ صعبٍ: تشقلب الطفل هو عقبةٌ يجب إصلاحها. بحيث لا ترى في الحياة سوى توقعٍ للخراب، وتطلّبٍ لجهدٍ

134- المانويّة مذهب فارسي صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام (المترجمة).

لا ينتهي، فتفقد كل بهجةٍ للحياة؛ وتصبح عيناها قاسيتين، ووجهها مهمومًا، جدّيًا، متحفّزًا دومًا؛ وتدافع عن نفسها بالحذر والبخل. وتغلق النوافذ، لأنّها تُدخِل مع الشمس الحشرات أيضًا والجراثيم والغبار؛ عدا عن أنّ الشمس تأكل حرير السجف؛ وتغطّي المقاعد القديمة بأغطيةٍ وتضمّخها بالنفتالين: فالضوء يبهتها. ولا تجد متعةً حتّى في عرض هذه الكنوز على الزائرين: فالإعجاب يلطّخ. يتحوّل هذا الارتياب إلى حُرقةٍ ويستدعي العدائيّة تجاه كلّ ما هو حيٌّ. كثيرًا ما تحدثوا عن بورجوازيّات الأقاليم هاته اللّواتي يرتدين قفّازاتٍ بيضاء للتأكّد من أنّه لم يبق هناك على الأثاث غبارٌ غير مرئيٌّ: أعدمت الأختان بابان Papin نساءً من هذا النوع منذ بضع سنواتٍ؛ كرههنّ للقذارة لم يكن يتميّز عن كرههنّ لخادماتهنّ، تجاه العالم وتجاه أنفسهنّ.

لا يختار كثيرٌ من النساء منذ فتوّتهنّ عادةً سيّئةً كئيبةً بهذا القدر. تستثنى من ذلك تلك اللّواتي يحببن الحياة كثيرًا. تقول لنا كوليت عن سيدو Sido:

> **لقد كانت بارعةً وحيويّةً، لكنها لم تكن ربّة منزلٍ ماهرةً؛ كانت نظيفةً صريحةً مشمئزّةً لكنّها ليست البتة تلك البارعة المهووسة والفريدة الّتي تعدّ الفوط، وقطع السكّر والزجاجات المليئة. وبيدها قطعة القماش القطني تشرف على الخادمة الّتي تمسح زجاج النوافذ طويلًا ضاحكةً مع الجار، كانت تفلت منها صرخاتٌ عصبيّةٌ، نداءاتٌ نافذة الصبر للحريّة. كانت تقول: «عندما أمسح فناجين الخزف الصيني خاصّتي طويلًا، أشعر أني أصبحت عجوزًا». كانت تنهي مهمّتها بأمانةٍ. عندها، كانت تجتاز درجتي عتبتنا، وتدخل إلى الحديقة. فورًا كان هياجها الكئيب وسخطها يزولان.**

تسعد هذه العصبيّة وهذا السخط النساء الباردات أو المكبوتات، والعوانس، والزوجات الخائبات، اللّواتي يفرض عليهن زوجٌ متسلّطٌ حياة وحدةٍ فارغةً. عرفت امرأةً عجوزًا كانت تنهض كلّ صباحٍ في الساعة الخامسة لتتفحّص خزائنها وتعيد ترتيبها؛ يبدو أنّها كانت في سنّ العشرين مرحةً وغنجةً؛ وحُبِست في منزلٍ معزولٍ، مع زوجٍ كان يهملها وطفلٍ وحيدٍ، وبدأت ترتّب كما يبدأ آخرون بشرب الكحول. لدى إليز في «وقائع زوجيّة»[135]، يأتي الميل إلى إدارة المنزل من الرغبة الحانقة في الهيمنة على عالمٍ، من حيويّةٍ مفرطةٍ ورغبةٍ في

135- جوهاندو، Jouhandeau، وقائع زوجيّة.

السيطرة الّتي تدور في الفراغ لعدم وجود موضوعٍ؛ هذا أيضًا تحدٍّ للزمن، والكون، والحياة، والرجال، وكلّ ما هو موجودٌ.

إنّها تغسل منذ الساعة التاسعة، بعد العشاء. انتصف الليل. كنت قد غفوت لكنّ شجاعتها كانت تجرحني، كما لو أنّها تهين راحتي.

إليز: لكي نحصل على النظافة يجب أوّلًا ألّا نخشى نوسيخ أيدينا.

وسيصبح البيت قريبًا نظيفًا بحيث لن يعود أحدٌ يجرؤ على السكنى فيه. هناك أسرّةٌ للراحة، ولكنّها مخصّصةٌ لكي يرتاح المرء إلى جانبها، على الأرضيّة الخشبيّة. الوسائد طريّةٌ أكثر مما ينبغي. يُخشى أن تصبح كامدةً أو باهتةً إن أُسنِد الرأس أو القدمان عليها وكلّما دستُ على سجّادةٍ، تتبعني يدٌ، مسلّحةً بأداةٍ أو خرقةٍ تمسح أثري.

مساءً:

انتهى العمل.

ما هو ذلك بالنسبة لها، منذ استيقاظها وحتى تنام؟ تحريك كلّ غرضٍ وكلّ قطعة أثاثٍ ولمس الأرضية الخشبيّة بكلّ أبعادها، وكذا جدران البيت وسقفه.

الآن انتصرت الخادمة الموجودة فيها. عندما نفضت الغبار عن داخل الخزائن، تنفض الغبار عن أزهار الخبيزة على النوافذ.

أمّها: إليز دومًا مشغولةٌ بحيث لا تدرك أنّها موجودةٌ.

يسمح العمل المنزليّ بالفعل للمرأة بالهروب اللامحدود بعيدًا عن ذاتها. يقول شاردون Chardonne:

إنّها مهمّةٌ دقيقةٌ وغير منظّمةٍ، دون كابحٍ ولا حدودٍ. في المنزل، الامرأة الّتي تثير الإعجاب تبلغ سريعًا نقطةً من الاهتراء، تلغي وجودها حالةً من الشرود والفراغ الذهني...

هذا الهروب، هذه السادو-مازوشيّة حيث تستبسل المرأة ضدّ الأشياء وضدّ ذاتها معًا، تحمل غالبًا طابعًا جنسيًّا. تقول **فيوليت لودوك**[136] Violette Leduc: «العمل المنزلي الّذي يتطلّب ترويض الجسم، هو دخول المرأة في الفوضى». من اللافت أنّ الميل للنظافة يأخذ

136- الجائعة L`Affamèe.

أهمّيّةً قصوى في هولندا حيث النساء بارداتٌ وفي الحضارات المتزمّتة الّتي تقابل مباهج الجسد بمثاليات نظامٍ وطهرٍ. إذا كان حوض البحر المتوسط يعيش ضمن قذارةٍ مرحةٍ، فليس ذلك من شحٌّ في المياه: فحبّ الجنس وحيوانيّته يقود إلى تحمّل الرائحة البشريّة، والقذارة، وحتّى الحشرات الطفيليّة.

إعداد الوجبات هو عملٌ إيجابيٌّ وغالبًا أكثر إبهاجًا من التنظيف. يستدعي أولًا وقت التسوّق الّذي هو بالنسبة لكثيرٍ من ربّات البيوت لحظة النهار المفضّلة. تُثقِل وحدة البيت على المرأة إذا لم تستغرق تفكيرها المهامّ الروتينيّة. إنّها سعيدةٌ عندما تستطيع، في قرى الجنوب، أن تخيط، وتغسل، وتقشّر الخضار، جالسةً على عتبة الباب وهي تثرثر؛ الذهاب لجلب الماء من النهر هو مغامرةٌ كبيرةٌ للمسلمات شبه السجينات: رأيت قريةً صغيرةً في منطقة القبائل[137] حيث حطّمت النساء الينبوع الّذي أقامه محافظٌ في الساحة، كانت تسليتهنّ الوحيدة النزول كلّ صباحٍ جميعًا إلى الجدول الّذي يسيل أسفل التلّ.

عندما تتسوّق النسوة يتبادلن وهنّ ينتظرن دورهنّ، وفي المخازن، وزوايا الشوارع، أحاديث يؤكّدن من خلالها «قيمتهنّ كربّات بيوتٍ» تستمدّ كلٌّ منهنّ معنى أهمّيتها فيها؛ يشعرن أنّهنّ عضواتٌ في مجموعةٍ تقابل ـ للحظةٍ ـ مجتمع الرجال كما يقابل الأساسي غير الأساسيّ. ولكن الشراء هو بصورةٍ خاصّةٍ متعةٌ كبيرةٌ: إنّه اكتشافٌ، اختراعٌ تقريبًا. يلاحظ جيد Gide في مذكّراته أنّ المسلمين الّذين لا يعرفون القمار استبدلوه باكتشاف الكنوز المخبأة؛ وهنا شاعريّة الحضارات التجاريّة ومغامرتها. تجهل ربّة البيت عبثيّة اللعب لكنّ الملفوفة المنتفخة، والخيارة الجيّدة هي كنوزٌ يخفيها البائع بخبثٍ ويجب اختلاسها منه؛ تقوم بين البائع والمشترية علاقات صراعٍ وتحايلٍ: الرهان بالنسبة لها هو الحصول على أفضل بضاعةٍ بأقلّ سعرٍ؛ لا يمكن تفسير الأهميّة القصوى المعطاة لأقلّ توفيرٍ إلا بالاهتمام بموازنة ميزانيّةٍ صعبةٍ: يجب كسب الجولة. ربّة المنزل ملكةٌ وهي تتفحّص المعروضات مشكّكةً؛ فالعالم تحت قدميها بثرواته وخدعاته ويجب أن تحرز منه غنيمةً. وتتذوّق طعم انتصارٍ عابرٍ عندما تفرغ فوق منضدتها سلّة مؤونتها. في الخزانة، ترتّب المحفوظات،

137- منطقة جبليّة في شمال شرق الجزائر (المترجمة).

والسلع الغذائيّة غير القابلة للتلف الّتي تعطي أمانًا من المستقبل؛ وتتأمّل راضيةً عري الخضار واللّحوم الّتي ستخضعها لسلطتها.

قتل الغاز والكهرباء سحر النار؛ ولكن في الأرياف ما زال كثيرٌ من النساء يتمتّعن باستخراج لهبٍ حيٍّ من الخشب الجامد. وما إن تشتعل النار حتى تتحوّل المرأة إلى ساحرةٍ. بحركةٍ بسيطةٍ باليد ـ عندما تخفق البيض، وتعجن العجينة ـ أو بسحر النار، تقوم بتحويل المواد؛ تصبح المادّة غذاءً. وتصف كوليت أيضًا سحر هذه الكيمياء:

> **كلّ شيءٍ غموضٌ، وسحرٌ، ورقيةٌ، كلّ ما يتمّ بين لحظة وضع القدر على النار، والغلّاية، والمرجل ومحتوياتها واللّحظة المليئة بقلقٍ رقيقٍ، وأملٍ مثيرٍ حين ترفع الغطاء على المائدة عن طبقك الّذي يتصاعد منه البخار...**

إنّها ترسم التحوّلات الّتي تتمّ ضمن تكتّم الرماد الحارّ.

> **رماد الحطب يطهو بشكلٍ شهيٍّ ما يوضع عليه. عندما توضع التفاحة والإجاصة في عشٍّ من الرماد الحارّ، تخرجان متغضّنتين مدخّنتين ولكن طريّتين تحت القشرة كبطن الخلد ومهما بدت التفاحة عجوزًا على فرن المطبخ، تبقى مختلفةً عن هذا المربّى المخبأ تحت ثوبها الأصلي، مليئةً بالنكهة والّتي لم يرشح منها - إذا عرفتم كيف تصنعونها - سوى نقطةٍ من العسل.. قدرٌ ثلاثيّ الأرجل، ذو ساقٍ طويلةٍ، يحتوي رمادًا منخولًا لا يتعرّض أبدًا للنار. ولكن محشوًّا بالبطاطس المتجاورة دون أن تتلامس، موضوعًا على قوائمه فوق الجمر، يعطينا درناتٍ بيضاء كالثلج حارقةً مقشورةً.**

لقد تغنّت الكاتبات بشكلٍ خاصٍّ بشاعريّة المربّيات: إنه عملٌ كبيرٌ أن تمزج في أحواضٍ نحاسيّةٍ السكر الصلب والنقيّ بلبّ الفاكهة الطريّ؛ المادّة المحضّرة، ذات الرغوة، اللّزجة، الحارقة، خطيرةٌ: إنّها الحمم المنصهرة الّتي تغلي والّتي تسيطر عليها ربّة البيت وتسكبها بفخرٍ في الأوعية. عندما تلبسها الورق المشمّع وتكتب عليها تاريخ انتصارها، فهي تنتصر على الوقت نفسه: لقد أطالت عمرها مستخدمةً السكّر، وضعت الحياة في أوعيةٍ زجاجيّةٍ. لا يكتفي الطبخ باختراق حميميّة المواد وكشفها. إنّه يقولبها من جديدٍ، ويعيد خلقها. ويمتحن

قدرته في عمل العجينة. يقول **باشلار**[138]: «لليد كما للنظرة تخيّلاتها وشاعريّتها». ويتحدّث عن «ليونة الكمال، هذه اللّيونة الّتي تملأ اليد، والّتي تتأرجح دونما نهايةٍ من المادّة إلى اليد ومن اليد إلى المادّة». يد الطبّاخة الّتي تعجن هي «يدٌ سعيدةٌ» ويكسو الطهو العجينة أيضًا بقيمةٍ جديدةٍ. «وهكذا فالطهو هو تطوّرٌ ماديٌّ، تطوّرٌ يمتدّ من اللّون الشاحب إلى الذهبيّ، من العجينة إلى الرقاقة المخبوزة»[139]: تستطيع المرأة الحصول على رضىً خاصٍّ في نجاحها بصنع قالب حلوى، أو رقائق العجين لأنّ ذلك ليس بمتناول الجميع: يحتاج إلى موهبةٍ. كتب **ميشليه** Michelet: «لا شيء أكثر تعقيدًا من فنّ صنع العجينة. لا يمكن ضبطه ولا تعلّمه. إنّه شيءٌ فطريٌّ. موهبةٌ من الأمّ».

في هذا المجال أيضًا نفهم أنّ البنت الصغيرة تتسلّى بشغفٍ بتقليد الأشخاص الأكبر منها: تلهو بصنع بدائل من الطباشير والعشب؛ وتكون أكثر سعادةً أيضًا عندما يكون لديها كلعبةٍ فرنٌ صغيرٌ حقيقيٌّ أو عندما تقبلها أمّها في المطبخ وتسمح لها بدحرجة عجينة الحلوى بين راحتيها أو بتقطيع الكراميل الساخن. ولكن ينطبق على ذلك ما ينطبق على سائر مهامّ المنزل: إذ يفقد التكرار الأمر متعته سريعًا. لدى الهنود الحمر الّذين يتغذّون بشكلٍ أساسيٍّ بعجينة التورتيّا tortillas، تمضي النساء نصف نهارهنّ في العجن والطهو والتسخين وعجن الأقراص المتشابهة لدى كلّ البيوت، المتشابهة عبر القرون: لا يسحرهنّ الفرن أبدًا. لا يمكن تحويل التسوّق كل يومٍ إلى بحثٍ عن الكنز ولا الشعور بالنشوة للمعان الصنبور. الكتّاب خصوصًا رجالًا ونساءً هم الّذين يتغنون بحماسٍ بهذه الانتصارات لأنّهم لا يقومون بأعمال التنظيف أو يقومون بها نادرًا. عندما يكون هذا العمل يوميًّا يصبح رتيبًا وآليًّا؛ يقطعه الانتظار: انتظار أن يغلي الماء، وأن ينضج الشواء، ويجفّ الغسيل؛ حتّى إن قمنا بتنظيم المهام المختلفة، تبقى أوقاتٌ طويلةٌ من السلبيّة والفراغ؛ وتتمّ في معظم الوقت بضيق؛ فهي ليست سوى وسيطٍ غير أساسيٍّ بين حياة الحاضر وحياة الغد. إذا كان الشخص الّذي يقوم بها هو نفسه منتجًا، خلّاقًا، تندمج في وجوده بشكلٍ طبيعيٍّ كالوظائف العضويّة؛ ولهذا تبدو الأعباء اليوميّة أقل كربًا عندما يقوم بها رجالٌ؛ إذ لا تمثّل لهم سوى لحظةٍ سلبيّةٍ

138- باشلار، الأرض وتخيّلات ـ أحلام ـ الإرادة.

139- المرجع السابق نفسه.

وعابرةٍ يسارعون في الهروب منها. لكنّ ما يجعل قدر المرأة ـ الخادمة بشعًا هو تقسيم العمل الّذي يكرّسها كاملةً للعامّ ولغير الأساسيّ؛ المسكن والغذاء مهمّان للحياة لكنّهما لا يمنحانها معنىً: فالأهداف الفوريّة لربّة المنزل ليست سوى وسائل، وليست غاياتٍ حقيقيّةً ولا تعكس سوى مشاريع مغفلةٍ. تحاول أن تدخِل في العمل خصوصيّتها كي تتشجّع عليه وأن تُلبِس النتائج الحاصلة قيمةً مطلقةً؛ لديها طقوسها، وأوهامها، وتصرّ على طريقتها في وضع الملاعق والسكاكين، وترتيب البهو، والقيام برتق ثوبٍ، وطهو صنفٍ، وتقنع نفسها أنّ لا أحد مكانها بإمكانه صنع شواءٍ أو فركٍ بنفس الطريقة الناجحة؛ إذا أراد زوجها أو ابنتها مساعدتها أو حاولا الاستغناء عنها، تنتزع الإبرة أو المكنسة من يدهما «أنت غير قادرٍ على خياطة زرٍّ». وصفت دوروثي باركر[140] Dorothy Parker بسخريةٍ تثير الشفقة اضطراب شابّةٍ مقتنعةٍ أنّ عليها أن تعطي لترتيب منزلها مسحةً شخصيّةً ولا تعرف كيف تقوم بذلك.

> **كانت السيّدة إرنست ولدون تهيم في الشقّة الصغيرة المرتّبة جيّدًا، مضفيةً عليها بعض لمساتها الأنثويّة. لم تكن خبيرةً بشكلٍ خاصٍّ في فنّ إضفاء اللّمسات. كانت الفكرة جميلةً ومغريةً. قبل أن تتزوج، كانت تتخيّل نفسها تجول بهدوءٍ عبر مسكنها الجديد، مزيحةً وردةً هنا، مصلحةً زهرةً هناك ومحوّلةً البيت بذلك إلى «مسكنٍ». حتى الآن، بعد سبع سنواتٍ من الزواج، كانت تحبّ أن تتخيّل نفسها وهي تقوم بتلك المهمة اللطيفة. ولكن، رغم أنّها حاولت بجهدٍ، كلّ مساءٍ، ما إن تضاء المصابيح ذات الغطاء الورديّ، حتّى تتساءل ببعض الضيق ما العمل لإتمام هذه المعجزات الصغيرة الّتي تجعل داخل المنزل مختلفًا تمامًا... كان دور الزوجة إعطاء لمسةٍ أنثويّةٍ. ولم تكن السيّدة ولدون امرأةً تتهرّب من مسؤوليّاتها. وبعدم قناعةٍ مثيرةٍ للشفقة تقريبًا تلمّست فوق المدفأة الجداريّة، ورفعت مزهريّةً يابانيّةً صغيرةً وظلّت واقفةً، وبيدها المزهريّة، متفحّصةً الغرفة بنظرةٍ يائسةٍ... ثم تراجعت وتأمّلت التجديدات الّتي أحدثتها. كان التغيير الّذي منحته للغرفة لا يصدّق.**

تبدّد المرأة الكثير من الوقت والجهد في بحثها عن الابتكار أو الكمال المتميّز؛ وهذا ما يعطي عملها كما يقول شاردون شكل «مهمّةٍ دقيقةٍ وغير منظّمةٍ، دون كابحٍ ولا حدودٍ» ما يجعل من الصعب للغاية تقدير العبء الّذي تمثّله الهموم البيتيّة فعلًا. طبقًا لتحقيقٍ حديثٍ

140- مؤسفٌ جدًّا! Too bad!

(نشرته صحيفة «كومبا Combat» عام 1947 بتوقيع ك. هيبير C.Hébert)، تخصّص النساء المتزوّجات حوالي ثلاث ساعاتٍ وخمسًا وأربعين دقيقةً في الأعمال المنزليّة (التنظيف والتموين، إلخ.)، كلّ يوم دوامٍ، وثماني ساعاتٍ في أيام العطل، أي ثلاثين ساعةً في الأسبوع، ما يماثل ثلاثة أرباع مدّة العمل الأسبوعي لعاملةٍ أو موظّفةٍ؛ وهذا ضخمٌ إذا أضيفت هذه المهمّة لمهنةٍ؛ وقليلٌ إذا لم تكن المرأة تشتغل (كما أنّ العاملة والموظّفة تضيع وقتًا في التنقّل ليس له مقابلٌ لدى ربّة المنزل). وتزيد العناية بالأطفال تعب المرأة للغاية إن كانوا كثيرين: تبدّد الأم الفقيرة قواها طيلة أيّامٍ غير منظّمةٍ. وعلى العكس لا تعمل البرجوازيات شيئًا لأنّ هناك من يساعدهنّ؛ وضريبة وقت الفراغ هذا هو الملل. ولأنّهن يضجرن، فالعديدات منهنّ يعقّدن واجباتهنّ ويعدّدنها إلى ما لا نهايةٍ بحيث تصبح أكثر إرهاقًا من عملٍ مؤهّلٍ. كانت إحدى الصديقات الّتي كانت قد تعرّضت لنوبات انهيارٍ عصبيٍّ تقول لي أنّها كانت تدير منزلها دون تفكيرٍ تقريبًا عندما تكون بصحّةٍ جيّدةٍ وكان يبقى لديها وقتٌ لاهتماماتٍ إجباريّةٍ أكثر بكثيرٍ؛ وعندما كان الوهط النفسيّ يمنعها من تكريس نفسها لهذه الأعمال الأخرى كانت تترك همّ الأعمال البيتيّة يبتلعها وبالتالي كانت تبذل جهدًا في تكريس أيّامٍ بأكملها لها إلى أن تفرغ منها.

المحزن أكثر هو أنّ هذا العمل لا يفضي حتّى إلى إبداعٍ دائمٍ. تميل المرأة ـ وبقدر ما بذلت جهدًا بذلك ـ إلى اعتبار عملها غايةً بحدّ ذاته. تتنهّد متأمّلةً قالب الحلوى الّذي تخرجه من الفرن: خسارةٌ فعلًا أن نأكله! خسارةٌ حقًّا أن يجرّ الزوج والأولاد أقدامهم الموحلة على الأرضيّة المشمّعة. ما إن تُستعمل الأشياء حتّى تتّسخ وتتخرّب: ورأينا قبلًا أنّها تميل إلى إقصائها عن أيّ استخدامٍ؛ فهذه تحتفظ بالمربّيات إلى أن يجتاحها العفن؛ وتلك تغلق البهو بالمفتاح. ولكن لا يمكننا إيقاف الزمن؛ فالمؤونة تجتذب الجرذان؛ ويجتاحها الدود. والعثّ يأكل الأغطية والستائر والثياب؛ العالم ليس حلمًا من الحجر، إنّه مصنوعٌ من مادةٍ مريبةٍ يهدّدها التحلّل؛ المواد القابلة للأكل زائلةٌ مثل وحوش دالي الّلحميّة: تبدو خامدةً، غير عضويّةٍ لكنّ اليرقات المخبأة حوّلتها إلى جثثٍ.

ربّة المنزل الّتي تستلب ضمن أشياء هي تابعةٌ للعالم بأكمله كالأشياء: فالغسيل يصبح أصهب، والشواء يحترق، والخزف ينكسر؛ إنّها كوارث مطلقةٌ لأنّ الأشياء عندما تُفقَد تفقَد

بشكلٍ نهائيّ. يستحيل الحصول من خلالها على الاستمراريّة والأمان. وتهدّد الحروب والنهب والقنابل الخزائن والبيت.

يجب إذًا استهلاك ناتج العمل المنزليّ؛ والمطلوب تنازلٌ دائمٌ من المرأة الّتي لا تكتمل مهامها إلا بتخرّبها. وكي توافق على ذلك دون أسفٍ، يجب على الأقل أن يرافق هذا التخرّب بعض البهجة، والمتعة. ولكن بما أنّ العمل المنزليّ يُستَنفد في المحافظة على وضعٍ راهنٍ، يلاحظ الزوج الفوضى والإهمال لدى عودته إلى منزله لكنّه يعتقد أنّ الترتيب والنظافة يأتيان من تلقاء نفسهما. ويهتمّ أكثر بالوجبة المعدّة بإتقانٍ. تنتصر ربّة المنزل عندما تضع على المائدة طبقًا ناجحًا: يستقبله الزوج والأطفال بحرارةٍ، ليس فقط بالكلمات، ولكن بالتهامه بابتهاجٍ. وتتوالى كيمياء الطبخ، ويتحوّل الغذاء إلى كيلوسٍ[141] ودمٍ. تتطلّب العناية بالجسم اهتمامًا أكبر وحيويّةً أكثر من الاهتمام بالأرضيّة الخشبيّة؛ من الواضح أنّ جهد الطبّاخة تمّ تجاوزه. مع ذلك، إن كان هناك طائلٌ في اعتمادها على حرّيةٍ غريبةٍ أكثر من الاستلاب في الأشياء، فهذا أكثر خطرًا. يجد عمل الطبّاخة قيمته في أفواه أفراد أسرتها؛ إنّها بحاجةٍ إلى رضاهم؛ فتطالب بأن يستحسنوا أطباقها، ويسكبوا المزيد منها؛ وتثور إذا لم يعودوا جائعين: لدرجةٍ لا نعرف معها إن كانت البطاطس المقليّة معدّةً للزوج أم أنّ الزوج معدٌّ للبطاطس المقليّة. نجد هذا الغموض ثانيةً في مجمل سلوك ربّة المنزل: فهي تعتني بالمنزل لزوجها لكنّها تطلب أيضًا أن يكرّس كل النقود الّتي يكسبها لشراء أثاثٍ أو ثلّاجةٍ. تريد أن تسعده: لكنّها لا توافق من بين أفعاله سوى على ما يدخل في إطار السعادة الّتي بنتها.

كانت هناك حقبٌ كانت فيها هذه الطموحات عمومًا محقّقةً: عندما كانت السعادة أيضًا المثل الأعلى للرجل، حين كان مرتبطًا قبل كلّ شيءٍ بمنزله، وأسرته وحين كان الأطفال نفسهم يختارون أن يتحدّدوا من خلال آبائهم، وتقاليدهم، وماضيهم. بالتالي كانت تُعتَبر السيّدة المطلقة تلك الّتي تهيمن على المنزل، الّتي تترأس المائدة؛ وما زالت تلعب هذا الدور المجيد لدى بعض ملاكي الأراضي، وبعض الفلّاحين الأغنياء الّذين يخلّدون بشكلٍ فرديٍّ الحضارة الأبويّة. ولكن الزواج اليوم في الإجمال هو استمرارٌ لأعرافٍ بائدةٍ ووضع

141- الكيلوس هو مستحلب الطعام المهضوم قبل امتصاصه في الأمعاء (المترجمة).

الزوجة أسوأ من ذي قبل لأنّه ما زالت عليها نفس الواجبات ولكنّها لم تعد تحظى بنفس الحقوق؛ لديها نفس المهام دون أن تنال منها مكافأةً أو تكريمًا. يتزوّج الرجل اليوم لكي يثبت في المُثوليّة، ولكن ليس لكي يسجَن فيها؛ إنه يستقرّ، ولكن يبقى في أعماقه غالبًا شاردًا؛ لا يرفض السعادة، لكنّه لا يجعلها غايةً بحدّ ذاتها؛ يصيبه التكرار بالملل، فيبحث عن الجديد، عن المغامرة، عن المقاومات الّتي عليه قهرها، والرفاق، والصداقات الّتي تنتزعه من الوحدة الّتي يتشاطرها شخصان. ويتمنى الأطفال أكثر من الزوج اجتياز حدود المنزل: حياتهم في مكانٍ آخر، أمامهم؛ يرغب الطفل دومًا بالشيء الآخر. وتحاول المرأة أن تشكّل عالمًا من الديمومة والاستمرار: ويريد الزوج والأطفال تجاوز الوضع الّذي تخلقه والّذي ليس بالنسبة لهم سوى معطىً. ولهذا، إذا نفرت من قبول عَرَضيّة الأعمال الّتي تكرّس لها حياتها كلّها، تضطرّ إلى فرض خدماتها بالقوّة: فتتحوّل من أمٍّ وربّة منزلٍ إلى أمٍّ شرسةٍ.

وهكذا فالعمل الّذي تقوم به المرأة داخل المنزل لا يمنحها استقلاليّةً؛ ولا يفيد المجموعة بشكلٍ مباشرٍ، ولا يفضي إلى المستقبل، ولا ينتج شيئًا. ولا يأخذ معناه ولا كرامته إلا إن اندمج في أشخاصٍ يتجاوزون نفسهم نحو المجتمع بالإنتاج أو العمل: أي أنّه لا يحرّر المرأة، بل يجعلها تابعةً للزوج والأطفال؛ تبرّر نفسها من خلالهم: فهي ليست في حياتهم سوى وسيطٍ غير أساسيٍّ. إن كان القانون قد محا «الطاعة» من واجباتها فهذا لا يغيّر شيئًا من وضعها؛ فهذا الوضع لا يرتكز على إرادة الزوجين ولكن على تركيبة مؤسّسة الزواج نفسها. لا يسمح للمرأة أن تقوم بعملٍ إيجابيٍّ وبالتالي أن تظهر نفسها كشخصٍ مكتملٍ. مهما كانت محترمةً فهي تابعةٌ، ثانويّةٌ، طفيليّةٌ. واللعنة الثقيلة الّتي ترزح تحتها هي أنّ معنى وجودها ذاته ليس بين يديها. ولهذا لنجاح حياتها الزوجيّة أو فشلها تأثيرٌ أكبر بكثيرٍ عليها منه على الرجل: إنّه مواطنٌ، منتجٌ قبل أن يكون زوجًا؛ وهي زوجةٌ قبل كلّ شيءٍ وحصريًّا غالبًا؛ لا ينتزعها عملها من وضعها؛ بل على العكس يأخذ أو لا يأخذ قيمته من هذا الوضع. تقوم بمهامّها مبتهجةً، مغرمةً، كريمةً، متفانيةً؛ كانت هذه المهام لتبدو لها أعباءً عديمة الطعم لو قامت بها ساخطةً. وما كان لها في قدرها أبدًا سوى دورٍ غير أساسيٍّ؛ ولا تساعدها في مشاكل حياتها الزوجيّة. علينا بالتالي أن نرى كيف يعاش عمليًّا هذا الوضع الأساسيّ المعرّف بأنّه «خدمة» السرير و«خدمة» البيت حيث لا تجد المرأة كرامتها إلّا بخضوعها.

تتحوّل الفتاة من طفلةٍ إلى مراهقةٍ عبر أزمةٍ؛ أزمةٍ أشدّ حدّةً تقذف بها في حياتها كبالغة. وبالإضافة إلى الاضطرابات الّتي يحدثها بسهولةٍ تدريبٌ جنسيٌّ مباغتٌ نوعًا، هناك المخاوف الملازمة لكلّ «انتقالٍ» من وضعٍ لآخر.

كتب نيتشه Nietzsche:

«أن تُرمى في الواقع والمعرفة كما لو أنّ صاعقةً ضربتك، عبر الزواج، أن تكتشف تناقض الحبّ والخجل، وأن تضطر إلى الإحساس ضمن أمرٍ واحدٍ بالسعادة والتضحيّة، الواجب، والشفقة، والخوف، بسبب التجاور غير المنتظر لله والوحش... هذا يخلق اضطرابًا للروح الّتي تبحث عبثًا عن شبيهها».

كان اهتياج «رحلة شهر العسل» التقليدي مخصّصًا في جزءٍ منه لإخفاء هذا التشوّش: فالشابّة الملقاة لبضعة أسابيع خارج العالم اليوميّ، المقطوعة الاتّصال مؤقتًا مع المجتمع، لا تعود قادرةً على تحديد مكانها في المكان والزمان وفي الواقع[142]. ولكن كان ينبغي لها آجلًا أم عاجلًا أن تعيد تموضعها فيه؛ وتجد نفسها في منزلها الجديد دائمًا قلقةً. ارتباطها بالمنزل الأبوي وثيقٌ أكثر من ارتباط الشاب. وانتزاعها من عائلتها فطامٌ نهائيٌّ: عندئذٍ تشعر بكلّ قلق التخلّي ودوار الحرّية. القطيعة حسب الحالات مؤلمةٌ قليلًا أو كثيرًا؛ وإن كانت قد قطعت قبلًا الصلات الّتي كانت تربطها بأبيها وإخوتها وأخواتها وخصوصًا أمها، تتركهم دون أسىً؛ وإذا كانت ما تزال تخضع لسيطرتهم، تستطيع عمليًّا البقاء تحت حمايتهم، ويكون تغيير وضعها أقل حساسيةً؛ ولكنّها عادةً تشعر أنها مضطربة عندما تنفصل عن المجتمع الصغير الّذي كانت مندمجةً فيه، مقطوعةً عن ماضيها، عن عالمها الطفولي ذي المبادئ الثابتة، والقيم المضمونة، حتى وإن كانت تتمنى الهروب من المنزل الأبوي. بإمكان حياةٍ جنسيّةٍ ملتهبةٍ ومليئةٍ فقط أن تجعلها تسبح من جديدٍ في سلام المُثوليّة؛ ولكنّها تكون عادةً مضطربةً في البدء أكثر منها راضيةً؛ فالتعليم الجنسي لا يؤدّي إلّا إلى زيادة اضطرابها سواءً كان ناجحًا أم لا. ونجد لديها غداة العرس كثيرًا من ردود الأفعال الّتي قابلت بها طمثها الأول: غالبًا ما تشعر بالاشمئزاز أمام هذا الاكتشاف الجديد لأنوثتها، والاستنكار لفكرة أنّ هذه التجربة ستتكرّر. وتشعر أيضًا بخيبة أملٍ مريرةٍ؛ ما إن يبدأ الطمث لدى

142- أدب نهاية القرن يحدّد مكان فض البكارة في مقطورات النوم في القطار، وهي طريقةٌ لعدم وضعه في أيّ مكانٍ.

الفتاة حتى تشعر حزينةً بأنّها ليست بالغةً؛ وحين تُفضّ بكارتها، تصبح الشابة بالغةً، اجتازت المرحلة الأخيرة إذًا: وماذا بعدُ؟ ترتبط هذه الخيبة القلقة بالزواج بحدّ ذاته بقدر ما ترتبط بفضّ البكارة، وتشعر بنفس الشعور غالبًا المرأة الّتي «عرفت» خطيبها مسبقًا، أو «عرفت» رجالًا غيره ولكنّ الزواج يمثّل بالنسبة لها الدخول الكامل إلى حياة البالغين. من المثير أن تعيش بداية مشروعٍ؛ لكن لا شيء أكثر إحباطًا من اكتشاف قدرٍ لم يعد لك تأثيرٌ عليه. على هذا الأساس النهائيّ الثابت تنبثق الحرّية بعبثيّةٍ لا تحتمل. فيما مضى، كانت الفتاة المحميّة بسلطة الأبوين تستخدم حرّيتها في الثورة والأمل؛ كانت تستخدمها في رفض وتجاوز وضعٍ كانت تجد فيه الأمان في الوقت نفسه؛ كانت تتسامى نحو الزواج ذاته من قلب الدفء الأسريّ؛ الآن هي متزوّجةٌ، ولم يعد أمامها مستقبلٌ آخر. أغلقت عليها أبواب المسكن: وسيكون ذلك كلّ نصيبها على الأرض. تعرف تمامًا أيّة مهامٍ تنتظرها: تلك ذاتها الّتي كانت تقوم بها أمّها. ستتكرّر نفس الطقوس يومًا بعد يومٍ. عندما كانت فتاةً، كانت يداها خاويتين: وكانت تملك كلّ شيءٍ بالأمل والحلم. الآن حصلت على قطعةٍ من العالم وتفكّر بقلقٍ: هذا كلّ شيءٍ، للأبد. للأبد هذا الزوج، وهذا البيت. لم تعد تنتظر شيئًا، ولم تعد تريد شيئًا. مع ذلك تخشى مسؤولياتها الجديدة. حتّى لو كان الزوج أكبر سنًّا ولديه السيطرة، فكونها تقيم معه علاقاتٍ جنسيّةً ينزع عنه هيبته: لا يستطيع أن يحلّ محلّ الأب، ولا الأم، ولا يستطيع تخليصها من حرّيتها. و لم تعد طفلةً، في وحدة البيت الجديد، مرتبطةً برجلٍ غريبٍ عنها في قليلٍ أو كثيرٍ، بل زوجةً ومكرّسةً لتصبح أمًّا بدورها، فتشعر أنّها مصعوقةٌ؛ مقتلعةً نهائيًّا من حضن الأم، ضائعةً وسط عالمٍ ليس لها فيه هدفٌ، مهجورةً في حاضرٍ متجمّدٍ، تكتشف الملل وتفاهة الوجود الصرف. يتجلّى هذا الضيق بطريقةٍ أخّاذةٍ في يوميّات الكونتيسة الشابة **تولستوي** Tolstoi؛ فقد منحت يدها بحماسةٍ للكاتب الكبير الّذي كانت معجبةً به؛ وبعد العناق الجامح الّذي خضعت له على شرفة ياسنايا بوليانا الخشبية، وجدت نفسها مشمئزّةً من الحبّ الشهواني، بعيدةً عن أهلها، منقطعةً عن ماضيها، إلى جانب رجلٍ خطبها لمدّة ثمانية أيّامٍ، يكبرها بسبعة عشر عامًا، لديه ماضٍ ومصالح غريبةً عنها تمامًا؛ بدا لها كلّ شيءٍ فارغًا، باردًا؛ لم تعد حياتها سوى نومٍ. يجب أن نذكر ما روته عن بداية زواجها وصفحات مذكّراتها خلال السنوات الأولى.

يوم 23 أيلول/ سبتمبر 1862، تزوجت صوفي وتركت أسرتها مساءً:

شعورٌ صعبٌ، مؤلمٌ قلّص حنجرتي وخنقني. شعرت عندها أنّ اللّحظة حانت لأترك نهائيًّا أسرتي وكلّ هؤلاء الّذين كنت أحبّهم كثيرًا وعشت معهم دائمًا... بدأ الوداع، وكان رهيبًا... هاهي الدقائق الأخيرة. كنت قد أبقيت وداعي لأمي قصدًا إلى النهاية... عندما انتزعت نفسي من عناقها وذهبت لأركب السيّارة دون أن أنظر خلفي، أطلقتُ صرخةً ممزّقةً لم أستطع نسيانها طيلة حياتي. لم يتوقّف مطر الخريف عن الهطول... أطلقت العنان لدموعي، مكوّرةً في زاويتي، مرهقةً بالتعب والحزن. كان ليون نيقولايفيتش يبدو مندهشًا للغاية، وحتى منزعجًا... عندما خرجنا من المدينة، شعرت بخوفٍ في الظلام... كانت العتمة تضغط عليّ. لم نقل لبعضنا تقريبًا أيّة كلمةٍ حتى أوّل محطّةٍ، بيريوليف إذا لم أكن مخطئةً. أذكر أنّ ليون نيقولايفيتش كان لطيفًا جدًّا ومهتمًّا بأقلّ رغباتي. في بيريوليف، أعطونا غرف القيصر كما قالوا، غرفٌ كبيرةٌ ذات أثاثٍ مكسوّ بقماشٍ أحمر غير أليفٍ البتّة. أحضروا لنا السماور. تجمّعت في زاوية الأريكة ولزمت الصمت كمحكومٍ عليها. قال لي ليون نيقولايفيتش: «حسنًا، ما رأيك لو قمتِ بتقديم الشاي». أطعت وقدّمت الشاي. كنت مضطربةً ولم أستطع أن أتحرّر من بعض المخاوف. لم أجرؤ على مخاطبة ليون نيقولايفيتش بصيغة المفرد وكنت أتفادى مخاطبته باسمه. ظللت فترةً طويلةً أخاطبه بصيغة الجمع.

بعد أربعٍ وعشرين ساعةً، وصلا إلى إياسنايا بوليانا. 8 تشرين الأول/ أكتوبر، عادت صوفي إلى مذكراتها. شعرت بالقلق. وعانت لأنّ زوجها ذو ماضٍ.

أذكر أنّي حلمت دومًا بشخصٍ كاملٍ، غضٍّ، نقيٍّ، سأحبّه... من الصعب عليّ أن أتخلّى عن هذه الأحلام الطفوليّة. عندما يقبّلني، أفكّر بأنّي لست الأولى الّتي قبّلها هكذا.

في اليوم التالي كتبت:

أشعر أنّي في مكانٍ ضيّقٍ. حلمت هذه اللّيلة أحلامًا مزعجةً، ورغم أنّي لا أفكّر بذلك كثيرًا إلّا أنّها ما زالت تثقل قلبي. ظهرت لي أمّي في الحلم وأحزنني ذلك كثيرًا. كما لو كنت نائمةً دون أن أتمكّن من الاستيقاظ... شيءٌ ما يثقل عليّ. يبدو لي

دائمًا أنّي سأموت. هذا غريبٌ، الآن وقد أصبح لديّ زوجٌ. أسمعه نائمًا وأخاف وحدي. لا يدعني أدخل عالمه الداخلي وهذا يحزنني. كلّ هذه العلاقات الجنسيّة تثير القرف.

11 تشرين أول/ أكتوبر: فظيعٌ! أنا حزينةٌ للغاية! أنطوي على نفسي أكثر فأكثر. زوجي مريضٌ، سيّء المزاج ولا يحبّني. كنت أتوقّع ذلك لكنّي لم أكن أظنّ أنّ ذلك سيكون بهذه الشناعة. من يأبه لسعادتي؟ لا شكّ أني لن أعرف كيف أخلقها من أجله ومن أجلي. يحدث أن أتساءل في ساعات تعاستي: مافائدة العيش عندما تكون الأمور بهذا السوء لي وللآخرين! هذا غريبٌ، لكنّ هذه الفكرة تؤرّقني. إنّه يصبح باردًا أكثر يومًا بعد يومٍ بينما أنا، على العكس، أحبّه أكثر فأكثر... أتذكّر أهلي. كم كانت الحياة سهلةً عندئذٍ! بينما الآن، آه يا إلهي! روحي ممزّقةٌ! لا أحد يحبّني... أمّي العزيزة، تانيا العزيزة، كم كانتا لطيفتين!

لماذا تركتهما؟ هذا محزنٌ، وفظيعٌ! مع ذلك ليوفوتشكا رائعٌ... فيما مضى كنت أحيا وأعمل وأتفرّغ لأعمال البيت بحماسٍ. الآن انتهى هذا: يحدث أن أبقى صامتةً أيامًا بأكملها مصالبةً ذراعيّ اجترّ سنواتي السابقة. كنت لأودّ أن أعمل لكنّي لا أستطيع ذلك... كان العزف على البيانو يبهجني لكنّ ذلك صعبٌ هنا... اقترح عليّ ليوفوتشكا أن أبقى اليوم في المنزل بينما يذهب إلى نيكولسكوي. كان يجب أن أوافق لأحرّره مني، ولكن لم أملك القوّة... المسكين! يبحث في كلّ مكانٍ عن تسليةٍ وأعذارٍ ليتحاشاني. لماذا أحيا؟

13 تشرين الثاني/ نوفمبر 1863: أعترف أنّي لا أعرف كيف أشغل نفسي. ليوفوتشكا سعيدٌ لأنّ لديه ذكاءً وموهبةً، بينما أنا لا أملك أيًّا منهما. ليس صعبًا إيجاد شيءٍ أعمله، فالعمل موجودٌ. ولكن يجب أن أميل إلى هذه الأشغال الصغيرة وأدرّب نفسي على حبّها: فأعتني بفناء الدواجن، وأخربش على البيانو، وأقرأ الكثير من التفاهات وقليلًا جدًّا من الأشياء الهامّة، وأملّح خيارًا... نمت ثانيةً بعمقٍ فلا رحلتنا إلى موسكو ولا انتظار طفلٍ يمنحانني أقل انفعالٍ وأقل بهجةٍ، لا شيء. من يدلّني على طريقةٍ لأستيقظ وأنتعش من جديدٍ؟ هذه الوحدة ترهقني. لست معتادةً عليها. كان هناك كثيرٌ من الحركة في المنزل، وهنا في غيابه كلّ شيءٍ كئيبٌ. لقد اعتاد الوحدة. لا يستمتع مثلي بأصدقائه الحميمين ولكن بعمله... لقد كبر دون عائلةٍ.

23 تشرين الثاني/ نوفمبر: أنا غير فعّالةٍ بالتأكيد، لكن ذلك ليس طبيعتي. ببساطةٍ، لا أعرف ماذا أعمل. أحيانًا أشعر برغبةٍ جامحةٍ في الهروب من تأثيره... لماذا يؤثّر علي؟... أتحمّل المسؤوليّة لكنّي لن أصبح هو. فسأخسر شخصيّتي. لم أعد أصلًا كما كنت، ما يزيد حياتي صعوبةً أكثر.

1 نيسان/ أبريل: عيبي الكبير أنّي لا أجد في نفسي مصادر... ليوفا مشغولٌ كثيرًا بعمله وبإدارة الأرض، بينما أنا ليس لديَ أيّ همٍّ. ليست لدي أيّة موهبةٍ. أتمنى لو كان لديّ مشاغل أكثر ولكن أن تكون عملًا حقيقيًّا. فيما مضى في مثل هذه الأيّام الربيعيّة الجميلة، كنت أشعر بحاجةٍ ورغبةٍ في شيءٍ. الله يعلم بماذا كنت أحلم! اليوم، لست بحاجةٍ لشيءٍ، لم أعد أشعر بهذا الطموح المبهم والسخيف إلى مالا أدري ما هو، لأنّي إذ وجدت كلّ شيءٍ، لم يعد هناك ما أبحث عنه. إلّا أنّه يحدث أن أشعر بالملل.

20 نيسان/ أبريل: ليوفا يبتعد عنّي أكثر فأكثر. ناحية الحبّ الجسديّة تلعب لديه دورًا كبيرًا بينما لا تعني لي شيئًا.

نرى أنّ المرأة الشابّة تتألّم، خلال هذه الستة أشهرٍ الأولى، من افتراقها عن أهلها، ووحدتها، والشكل النهائي الّذي أصبح عليه قدرها؛ تكره العلاقات الجسديّة مع زوجها وتشعر بالملل. هذا الملل هو ما تشعر به أيضًا أم كوليت[143] إلى درجة البكاء بعد زواجها الأول الّذي فرضه عليها إخوتها:

تركت إذًا البيت البلجيكي الدافئ، ومطبخ القبو الّذي كانت تنبعث منه رائحة الغاز، والخبز الساخن والقهوة، تركت البيانو، والكمان، ولوحة سلفاتور روسا الكبيرة الّتي أورثها أبوها، وعلبة التبغ والغلايين الفخّارية الرفيعة ذات الأنبوب الطويل...، الكتب المفتوحة والصحف المجعّدة لتدخل عروسًا إلى المنزل ذي الدرج الّذي يحيط به شتاء البلاد ذات الغابات القاسي. وجدت فيه بهوًا أبيض ومذهّبًا لم تكن تتوقّعه في الطابق الأرضي وطابقًا أول مطيّنًا بالكاد ومهجورًا كالسقيفة... غرف النوم المجمّدة لم تكن تتحدّث لا عن الحب ولا عن النوم الهانئ... سيدو الّتي كانت تبحث عن أصدقاء، وحياةٍ اجتماعيّةٍ بريئةٍ ومرحةٍ لم تقابل في مسكنها الجديد سوى الخدم، ومزارعين مراوغين... وزخرفت البيت الكبير، وبيّضت المطبخ المعتم،

143- منزل كلودين.

وأشرفت بنفسها على إعداد الأطباق الفلمنديّة، وعجنت قوالب الحلوى بالزبيب وانتظرت طفلها الأول. كان المتوحّش يبتسم لها بين جولتين ويذهب من جديدٍ... هزلت سيدو من قلة النوم، متعبةً من الأطباق الشرهة ومن الصبر ومن الورنيش، وبكت...

يصف مارسيل بريفو Marcel Prèvost في «رسائل إلى العروس فرانسواز» اضطراب المرأة الشابّة لدى عودتها من رحلة شهر العسل.

تفكّر بالمنزل الأمّ بأثاثه من طراز نابليون الثالث وماكماهون، وقطيفته ذات المرايا وخزائنه من خشب الخوخ الأسود، كلّ ما كانت تراه قديم الطراز وسخيفًا... يرد كلّ هذا لحظةً أمام ذاكرتها كملجأٍ حقيقيٍّ، كعشٍّ حقيقيٍّ، العش الّذي حضنها فيه حنانٌ مجرّدٌ من المصلحة، بمعزلٍ عن كلّ تقلّبٍ وكل خطرٍ. هذه الشقّة برائحة السجّاد الجديد المنبعثة منها، ونوافذها العارية، وصخب المقاعد، كلّ مظهرها المرتجل والموحي بسفرٍ لم يتمّ، كلّا هذا ليس عشًا. هذا ليس سوى مكانٍ يجب بناء العشّ فيه... وفجأةً شعرت بأنّها حزينةٌ بشكلٍ فظيعٍ، حزينةٌ كما لو أنّها تُرِكت في صحراء.

انطلاقًا من هذا التشوّش تولد غالبًا لدى الشابّة فترات اكتئابٍ طويلةٌ وذهاناتٌ متنوّعةٌ. وتحسّ خصوصًا بدوار حرّيتها الفارغة بصورة هواجس مختلفةٍ تسبّب الوهط النفسيّ؛ فتنمو لديها مثلًا تخيّلات الدعارة الّتي صادفناها قبلًا لدى الفتاة. يذكر بيير جانيه[144] Pierre Janet حالة عروسٍ لم تكن تستطيع تحمّل البقاء وحيدةً في شقّتها لأنّها كانت تشعر أنّ لديها إغراء الوقوف أمام النافذة وتوجيه غمزاتٍ للمارّة. وتبقى أخرياتٌ فاقداتٍ الإرادة أمام عالمٍ «لم يعد يبدو حقيقيًا»، ولا تسكنه سوى أشباحٌ وزينةٌ من الورق المقوّى المرسوم. هناك من يبذلن جهدًا في رفض وضعهن كبالغاتٍ، ويصررن على رفضه طيلة حياتهنّ. وهكذا هذه المريضة الأخرى[145] الّتي يشير إليها جانيه Janet بالأحرف الأولى ك ي.

ك. ي، امرأة في السادسة والثلاثين من عمرها، تلحّ عليها فكرة أنّها طفلةٌ صغيرةٌ بين العاشرة والثانية عشرة؛ خصوصًا عندما تكون وحدها، فتطلق العنان لنفسها

144- هواجس الهبوط النفسي.

145- المرجع السابق.

وتقفز وتضحك وترقص وتحلّ شعرها وتتركه ينسدل على كتفيها، وتقصّ قسمًا منه على الأقلّ. كانت لتودّ لو تستطيع الاسترسال بشكلٍ كاملٍ لهذا الحلم بأن تكون طفلةً: «كم هو تعيسٌ ألّا تستطيع أمام الجميع أن تلعب لعبة الإختباء، وأن تصنع بيوتًا... أودّ لو يجدوني لطيفةً، وأخشى أن أكون قبيحةً كالقملة، أودّ أن أكون محبوبةً، وأن يتحدّثوا معي، ويلاطفونني، وأن يقولوا لي كل الوقت إنّهم يحبّونني كما يحبّون الأطفال الصغار... يحبّون الطفل لشقاوته، لقلبه الصغير الطيّب، للطفه، وماذا يطلب منه في المقابل؟ أن يحبك، لا شيء غير ذلك. وهذا ما هو حسنٌ، ولكن لا أستطيع أن أقول هذا لزوجي، فلن يفهمني. أودّ أن أكون صغيرةً، ويكون لي أبٌ أو أمٌّ تضعني على ركبتيها وتداعب شعري... ولكن لا، أنا سيّدةٌ، وأمٌّ؛ يجب أن أهتمّ بمنزلي، وأفكّر وحدي، يا لها من حياة!».

الزواج بالنسبة للرجل أيضًا غالبًا أزمةٌ: والدليل على ذلك هو أنّ كثيرًا من الذهانات الرجاليّة تنشأ خلال الخطبة أو خلال بداية الحياة الزوجيّة. والرجل أقلّ ارتباطًا بعائلته من شقيقاته، وكان ينتمي لنوعٍ من الأخويّات، في المدرسة العليا، والجامعة، ومشغل التدريب، والفريق، والشلة، تحميه من الهجران؛ فيتركها ليبدأ حياته الحقيقيّة كبالغٍ؛ إنّه يخشى وحدته القادمة ولهذا يتزوّج لكي يتفاداها. لكنّ يخدعه هذا الوهم الّذي يصوّره المجتمع والّذي يمثّل الزوجين بأنّهما «مؤسّسةً زوجيّةً». وما عدا العاطفة الغرامية المتأجّجة الوجيزة، لا يستطيع شخصان تشكيل عالمٍ يحمي كلّاً منهما من العالم: وهذا ما يشعر به كلاهما غداة العرس. فالمرأة الّتي سيعتاد عليها وستصبح مستعبَدةً لا تخفي عن الزوج حرّيتها: إنها عبءٌ، وليست عذرًا؛ إنّها لا تحرّره من ثقل مسؤوليّاته، ولكن على العكس تزيدها. ويفرض اختلاف الجنسين غالبًا اختلافًا في السنّ والثقافة والوضع، ما لا يسمح بأي انسجامٍ حقيقيٍّ: ومع اعتياد الزوجين على بعضهما فهما غريبان مع ذلك. فيما مضى، كانت هناك غالبًا هوّةٌ حقيقيّةٌ بينهما: لم يكن للشابّة الّتي تربّت بحالة جهلٍ وبراءةٍ أيّ ماضٍ، بينما كان خطيبها قد «عاش»، وكان عليه أن يعلّمها حقائق الوجود. كان بعض الذكور يفخر بهذا الدور الدقيق؛ وكان الأكثر وعيًا بينهم يقيسون بقلقٍ المسافة الّتي كانت تفصلهم عن زوجات المستقبل. وقد وصفت إديث وارتون Edith Wharton في روايتها «في زمن البراءة» حيرة شابٍّ أمريكيٍّ عام 1870 أمام الّتي ستصبح زوجته:

بشيءٍ من الخوف والاحترام، تأمّل الجبهة النقيّة، والعينين الجادّتين، والفم البريء والمرِح للمخلوقة الشابّة الّتي ستهبه روحها. هذا النتاج المخيف للنظام الاجتماعيّ الّي ينتمي إليه ويعتقد به ـ الفتاة الّتي كانت تجهل كلّ شيءٍ وتنتظر كلّ شيءٍ ـ كانت تبدو له الآن غريبةً... ماذا كانا يعرفان فعلًا عن بعضهما البعض بما أنّ من واجبه هو، كرجلٍ شهمٍ، أن يخفي ماضيه عن خطيبته ومن واجب هذه ألّا يكون لها ماضٍ؟...الشابّة، مركز نظام الغموض المعدّ على أكمل وجهٍ، كانت بصراحتها وجرأتها حتى لغزًا ما يزال مستعصيًا أكثر بالنسبة له. كانت صريحةً، العزيزة المسكينة، لأنّه لم يكن لديها ما تخفيه؛ مطمئنّةً، لأنّها لم تكن تتخيّل أنّه عليها أن تحترس؛ ودون استعداداتٍ أخرى، كان عليها أن تغوص في ليلةٍ واحدةٍ بما كان يدعى «حقائق الحياة...» وبعد أن طاف للمرّة المئة بهذه الروح الخفيفة، عاد محبطًا إلى فكرة هذا النقاء الاصطناعي، الّذي صنعه ببراعةٍ تواطؤ الأمهات والخالات والجدّات، وحتّى آخر الأسلاف المتعصّبين، لم يكن موجودًا سوى لإرضاء الأذواق الشخصيّة، لكي يستطيع أن يمارس عليها حقّه كسيّدٍ ويكسرها كصورةٍ من الثلج.

الهوّة اليوم أقلّ عمقًا لأنّ الشابّة هي شخصٌ أقلّ زيفًا؛ تعرف أكثر، ومسلّحةٌ أكثر في وجه الحياة. ولكنّها ما تزال غالبًا أصغر سنًّا بكثيرٍ من زوجها. هذه نقطةٌ لم يُشر إلى أهمّيتها بما يكفي؛ يعزون غالبًا إلى الاختلاف بين الجنسين ما هو نتيجة عدم تكافؤ في النضج؛ في كثيرٍ من الحالات المرأة طفلةٌ ليس لأنها امرأةٌ بل لأنّها في الواقع يافعةٌ جدًّا. جدّيّة زوجها وأصدقائه تثقل عليها. كتبت صوفي تولستوي بعد زفافها بعامٍ:

إنّه عجوزٌ، مشغولٌ جدًا وأنا أشعر اليوم أنّي شابّةٌ للغاية ولديّ رغبةٌ كبيرةٌ بالقيام بحماقاتٍ! بدل أن أستلقي كنت أودّ أن أدور على قدميّ، ولكن مع من؟

جوٌّ من الشيخوخة يغلّفني، كلّ من حولي عجائز. أرغم نفسي على قمع كلّ اندفاع شبابٍ لأنّه سيبدو غير ملائمٍ في هذا الوسط المتعقّل.

من جهته، يرى الزوج في زوجته «طفلًا رضيعًا»؛ ليست بالنسبة له الرفيقة الّتي كان ينتظرها ويشعرها بذلك؛ وتشعر هي بالخزي لذلك. دون شكٍّ، لدى خروجها من المنزل الأبوي، تحبّ أن تجد دليلًا، لكنّها تريد أيضًا أن يُنظَر إليها «كشخصٍ كبيرٍ»؛ تتمنّى أن تبقى طفلةً، وتريد أن تصبح امرأةً؛ والزوج الأكبر سنًّا لا يستطيع أن يعاملها بطريقةٍ ترضيها تمامًا.

ولكن إذا كان فرق السنّ قليلًا، فذلك لا يغيّر شيئًا في كون الشابّ والشابّة قد ربيا عمومًا بشكلٍ مختلفٍ؛ هي تنبثق من محيطٍ أنثويٍّ رسّخ في ذهنها حكمةً أنثويّةً، واحترام القيم الأنثويّة، بينما تشرّب هو مبادئ الأخلاق الذكريّة. ويكون من الصعب جدًا عليهما غالبًا أن يتفاهما وسرعان ما تبدأ الصراعات.

وبما أنّ الزواج يلحق المرأة عادةً بالزوج، فمشكلة العلاقات الزوجيّة تقع عليها بكلّ حدّتها. تناقض الزواج هو أنّه وظيفةٌ شهوانيّةٌ ووظيفةٌ اجتماعيّةٌ معًا: وينعكس هذا التجاذب الوجداني في الصورة الّتي يتّخذها الزوج من أجل المرأة الشابّة. فهو نصف إلهٍ مزوّدٍ بهيبةٍ ذكوريّةٍ ويستعدّ ليحلّ محلّ الأب: فيؤمّن الحماية والتموين، ويكون وصيًّا، ومرشدًا؛ ويجب أن تزدهر حياة الزوجة في ظلّه؛ إنه مالك القيم، وضامن الحقيقة؛ والمبرّر الأخلاقيّ للثنائي. لكنّه أيضًا ذكرٌ يجب أن تشاركه تجربةً مخجلةً غالبًا، غريبةً، كريهةً، أو مربكةً، وعارضةً على أيّ حالٍ؛ فيدعو المرأة لأن تغوص معه في الحيوانيّة مع أنّه يقودها بخطواتٍ حازمةٍ نحو المثاليّة.

> **ذات مساءٍ في باريس، حيث توقّفا على طريق عودتهما، ترك برنار جهارًا مسرح المنوّعات لأنّ العرض صدمه: «عندما أفكّر أنّ الأجانب يرون هذا! يا للعار وسيحكمون علينا طبقًا لذلك... تعجّبت تيريز من أنّ هذا الرجل المحتشم هو نفسه الّذي يجب أن تتحمّل منه بعد أقلّ من ساعةٍ ألعاب الظلام الطويلة.**[146]

يوجد عديدٌ من الأشكال الهجينة بين المرشد والحيوان. أحيانًا يكون الرجل أبًا وعشيقًا معًا، ويصبح الفعل الجنسي عربدةً مقدّسةً والزوجة عاشقةً تجد خلاصًا نهائيًّا بين ذراعي الزوج، دفعت ثمنه استسلامًا كاملًا. هذا الشغف نادرٌ جدًّا في الحياة الزوجيّة. أحيانًا أيضًا تحب المرأة زوجها أفلاطونيًّا لكنها ترفض أن تستسلم لذراعي رجلٍ محترمٍ أكثر مما يجب. مثل هذه المرأة الّتي يذكر ستيكل حالتها. «السيّدة د. س. أرملة أحد كبار الفنانين عمرها الآن أربعون سنةً. وقد كانت باردةً تمامًا مع زوجها رغم أنّها تعبده». على العكس، كان يمكنها أن تعيش معه متعةً تخضع لها كانحطاطٍ مشتركٍ وتزيل لديها التقدير والاحترام. من جهةٍ

146- انظر موريّاك، Mauriac، تيريز ديكيرو.

أخرى، الفشل الجنسيّ يحيل الزوج إلى الأبد إلى منزلة الوحش: فتحتقره بفكرها وتكرهه بجسدها؛ وبالعكس رأينا كيف يؤدّي الاحتقار والنفور والحقد بالمرأة إلى البرود. يحدث غالبًا أن يظلّ الزوج بعد التجربة الجنسيّة أعلى مقامًا، محترمًا، تُغفر له لحظات ضعفه الحيوانيّة؛ يبدو أن هذه كانت حالة أديل هوغو Adéle Hugo وسواها. أو يكون شريكًا ظريفًا دون هيبةٍ. وصف ك. مانسفيلد K.Mansfield أشكالًا يمكن أن تتّخذها هذه الازدواجيّة في رواية «استهلال» Prélude:

> **كانت تحبّه حقًا. كانت تعزّه، وتعجب به وتحترمه كثيرًا. آه! أكثر من أيّ شخصٍ آخر في العالم. كانت تعرفه جيّدًا. كان صريحًا، محترمًا ورغم كلّ خبرته العمليّة ظلّ بسيطًا، بريئًا، يرضيه القليل ويزعجه القليل. فقط لو لم يكن يقفز خلفها هكذا، صارخًا بشدّةٍ، ناظرًا إليها بعينين متلهّفتين هكذا، مغرمتين! كان قويًا جدًّا بالنسبة لها. منذ طفولتها كانت تكره الأشياء الّتي كانت تنقضّ عليها. كانت هناك لحظاتٌ كان يصبح فيها مخيفًا، مخيفًا حقًّا، وكانت تكاد تصرخ بكلّ قواها: ستقتلني! عندئذٍ كانت ترغب في أن تقول أشياء فظّةً، أشياء كريهةً... أجل، أجل، كان هذا حقيقيًّا: مع كلّ حبّها، واحترامها وإعجابها بستانلي، كانت تكرهه. لم تشعر أبدًا بهذا الشعور بمثل هذا الوضوح؛ كانت كلّ هذه المشاعر تجاهه واضحةً، محدّدةً، حقيقيّةً الواحدة كالأخرى. وكان هذا الآخر، هذا الكره، حقيقيًّا كالبقيّة. كانت تستطيع أن تضعها بعلبٍ صغيرةٍ وتعطيها لستانلي. كانت ترغب في أن تعطيه الأخيرة كمفاجأةٍ وتتخيّل عينيه عندما سيفتحها.**

لا تعترف المرأة الشابّة دومًا بمشاعرها بهذه الصراحة. فأن تحبّ زوجها، وتكون سعيدةً، هو واجبٌ تجاه النفس والمجتمع؛ هذا ما تنتظره أسرتها منها؛ أو إن كان الأهل معارضين للزواج، فهي تريد تكذيبهم. تبدأ عادةً بأن تحيا وضعها كزوجةٍ بحسن نيّةٍ؛ وتقنع نفسها بطيب خاطرٍ بأنها تشعر تجاه زوجها بحبٍّ عارمٍ؛ وتأخذ هذه العاطفة شكل هوسٍ وتملّكٍ وغيرةٍ بقدر ما تكون المرأة غير مشبعةٍ؛ وكي تتعزّى عن الخيبة الّتي ترفض الاعتراف بها لنفسها في البداية، تظلّ بحاجةٍ لا ترتوي لحضور الزوج. يذكر ستيكل أمثلةً عديدةً على هذا التعلّق المرضيّ.

بقيت إحدى النساء باردةً خلال السنوات الأولى لزواجها نتيجة تعلّقٍ طفوليٍّ.

وتطوّر لديها بالتالي حبٌّ متضخّمٌ كما نرى مثله كثيرًا لدى النساء اللّواتي لا يردن أن يرين أن زوجهنّ لا يهمّهنّ. لم تكن تعيش وتفكّر إلّا لزوجها. لم تعد لديها إرادةٌ. كان عليه أن يضع صباحًا برنامج نهارها، ويقول لها ما يجب أن تشتريه، إلخ..وكانت تنفّذ كلّ شيءٍ بعنايةٍ. وإذا لم يحدّد لها شيئًا، كانت تبقى في غرفتها دون أن تفعل شيئًا وكانت تشعر بالملل في غيابه. لم تكن تستطيع تركه يذهب إلى أيّ مكانٍ دون أن ترافقه. لم تكن تحبّ البقاء وحدها وكانت تحب أن تمسك يده... كانت تعيسةً وتبكي لساعاتٍ، وترتجف من أجل زوجها وإن لم تكن هناك مناسباتٌ للارتجاف كانت تخلقها.

الحالة الثانية كانت حالة امرأة محبوسةٍ في غرفتها كما لو كانت سجنًا خوفًا من الخروج بمفردها. كنت ألقاها ممسكةً بيدي زوجها، تستحلفه أن يبقى بجوارها على الدوام... تزوجت منذ سبعة أعوامٍ، لم يستطع أبدًا إقامة علاقاتٍ مع زوجته.

حالة **صوفي تولستوي** مشابهةٌ؛ نستنتج من المقاطع الّتي ذكرتها أنّها لم تكن تحب زوجها. كانت علاقاتها الجسديّة معه تثير اشمئزازها؛ وكانت تلومه على ماضيه، وتجده عجوزًا ومملّاً، وتشعر بعدائيّةٍ تجاه أفكاره؛ عدا عن أنّه يهملها ويعاملها بقسوةٍ، مع أنّه يبدو متلهفًا وعنيفًا في السرير. مع ذلك تمتزج لدى **صوفي** صيحات اليأس والاعتراف بالملل والحزن واللامبالاة، باحتجاجات حبٍّ مشبوبٍ؛ إنّها تريد أن يكون الزوج المحبوب إلى جانبها دائمًا؛ ما إن يكون بعيدًا حتى تنهشها الغيرة. فتكتب:

1863.1.11: غيرتي هي مرضٌ فطريٌّ. ربما تأتي من أنني باعتباري أحبّه ولا أحبّ سواه، لا أستطيع أن أكون سعيدةً إلا معه، ومن خلاله.

1863.1.15: أودّ ألّا يحلم أو يفكّر إلا بي ولا يحبّ سواي...ما إن أقول: أحبّ هذا وذلك، حتى أنكمش على الفور وأشعر أنّي لا أحبّ شيئًا عدا ليوفوتشكا. مع ذلك، يجب حتمًا أن أحبّ شيئًا آخر كما يحب هو عمله... أشعر مع ذلك بالقلق الشديد من دونه. وأشعر بحاجةٍ تتعاظم يومًا بعد يومٍ إلى ألّا أتركه...

1863.10.17: أشعر أنّي لا أستطيع فهمه جيّدًا، ولهذا أتعقّبه بهذا القدر من الغيرة...

1863.7.31: كم هو غريبٌ أن يقرأ المرء يومياته من جديدٍ! كم هناك من

التناقضات! كما لو كنت امرأةً تعيسةً! هل هناك زوجان متّحدان أكثر منّا وأكثر سعادةً مما نحن فيه؟ حبّي يكبر. ما زلت أحبه نفس الحب القلق والمشبوب والغيور والشاعريّ. وأحيانًا يثيرني هدوءه وثقته بنفسه.

1876.9.16: أبحث بلهفةٍ عن صفحات يومياته الّتي يذكر فيها الحبّ، وما إن وجدتها، حتى نهشتني الغيرة. ألوم ليوفوتشكا لأنّه ذهب. لا أنام، ولا آكل شيئًا تقريبًا. أبتلع دموعي أو أبكي في السرّ. تنتابني كل يومٍ حمّىَ خفيفةٌ وقشعريرةٌ مساءً... هل أنا معاقبةٌ لأنّي أحبّ بهذا القدر؟

نشعر من خلال كلّ هذه الصفحات بجهدٍ عبثيٍّ لتعويض غياب حبٍّ حقيقيٍّ بالهذيان الأخلاقي أو «الشاعري»؛ يعبّر التطلّب والقلق والغيرة عن فراغ قلبها هذا. ينمو كثيرٌ من حالات الغيرة المرضيّة في مثل هذه الأوضاع؛ وتنمّ الغيرة بطريقةٍ غير مباشرةٍ عن عدم إشباعٍ تجعله المرأة موضوعيًّا باختراع غريمةٍ؛ فهي عندما لا تشعر أبدًا بقرب زوجها بشعور الاكتفاء، تبرّر نوعًا ما خيبتها بأن تتخيّل أنّه يخونها.

وكثيرًا ما تتشبّث المرأة بكذبتها بدافع الأخلاق، والرياء، والاعتزاز، والخجل. ويقول شاردون[147] Chardonne: «كثيرًا ما لا يدركون النفور الشديد من الزوج الحبيب طول الحياة: فيسمّونه كآبةً أو شيئًا آخر». ولكن هناك عدائيّةً، دون أن نسمّيها. وتتجلّى بشكلٍ عنيفٍ كثيرًا أو قليلًا بالجهد الّذي تبذله الزوجة في رفض سيطرة الزوج. تحاول استعادة استقلالها بعد شهر العسل وفترة التشوّش الّتي تليه غالبًا. وهذا ليس بالأمر السهل. بما أنّ الزوج غالبًا أكبر سنًّا منها، ويملك على كلّ حالٍ هيبةً ذكريّةً، وأنّه «سيّد الأسرة» بحسب القانون، فهو يملك تفوقًا أخلاقيًّا واجتماعيًّا؛ وكثيرًا ما يملك أيضًا ـ ظاهريًّا على الأقلّ ـ تفوّقًا فكريًّا. ويمتاز على المرأة بالثقافة أو على الأقل بالتدريب المهنيّ؛ يهتمّ منذ المراهقة بشؤون العالم: إنّها شؤونه؛ يعرف قليلًا من الحقوق، ويلمّ بالسياسة، وينتمي لحزبٍ، ونقابةٍ، وجمعيّاتٍ؛ هو عاملٌ، ومواطنٌ، وفكره منخرطٌ بالعمل؛ يعرف تجربة الواقع الصريحة: أي أنّ الرجل العادي لديه تقنيّة التفكير، والميل إلى الوقائع والتجربة، ونوعٌ من الحسّ النقدي؛

147- حوّاء Eve.

وهذا ما يزال ينقص العديد من الشابّات؛ حتّى إن قرأن، وسمعن محاضراتٍ، وانتقدن الفنون الترفيهيّة، فمعرفتهن المتراكمة بطريق المصادفة أحيانًا لا تشكّل ثقافةً؛ ولا ينجم عدم معرفتهنّ بالتفكير السليم عن عيبٍ في الدماغ: فالممارسة لم تضطرّهنّ إليه؛ الفكر بالنسبة لهنّ لعبةٌ أكثر منه أداةً؛ حتّى إن كنّ ذكيّاتٍ وحسّاساتٍ وصادقاتٍ، فهنّ لا يعرفن، بسبب نقص التقنيّة الفكريّة، كيف يبدين آراءهنّ ويستخلصن منها نتائج. ولهذا يتفوّق الزوج عليهنّ بسهولةٍ وإن كان أقلّ منهنّ بكثيرٍ؛ فهو يعرف أن يثبت أنّه على صوابٍ، حتّى وإن كان مخطئًا. المنطق غالبًا عنفٌ بين يديّ الرجال.

وصف شاردون جيّدًا في «قصيدة عرسٍ L'Epithalame» هذا الشكل الخبيث للاضطهاد. فألبير، الأكبر سنًّا والأكثر ثقافةً وتعليمًا من برت، يسمح لنفسه بهذا التفوّق أن ينكر كلّ قيمةٍ لآراء زوجته عندما لا يشاطرها إيّاها؛ و«يثبت» لها دون كللٍ أنّه على صوابٍ؛ من جهتها تتشبّث وترفض أن توافق زوجها على أفكاره: إنّه عنيدٌ، وهذا كلّ شيءٍ. وهكذا يزداد بينهما سوء تفاهمٍ كبيرٌ. لا يحاول فهم المشاعر وردود الأفعال الّتي لا تُحسن تبريرها ولكنّ لها لديها جذورًا عميقةً؛ لا تفهم ما الحقيقة في المنطق المتحذلق الّذي يرهقها به زوجها. ويبلغ به الأمر أن يثور للجهل الّذي لم تخفه عنه مع ذلك أبدًا، ويطرح متحدّيًا مسائل الفلك؛ ويزهو مع ذلك بتحديد ما تقرأ، وبأن تكون له مستمعةً يسيطر عليها بسهولةٍ. في صراعٍ يحكم عليها فيه قصورها الفكريّ بالهزيمة دومًا، لا يعود لها ملجأٌ سوى الصمت، أو الدموع، أو العنف:

> **لم يعد باستطاعة برت، وذهنها مغلقٌ، كما لو أنّ الضربات أرهقته، أن تفكّر عندما كانت تسمع هذا الصوت المترجرج والثاقب، وكان ألبير يتابع إغراقها بطنينٍ متسلّطٍ ليدوّخها، ويجرحها بتشوّش فكرها المهان... كانت مهزومةً، يائسةً أمام قسوة جدلٍ غير مفهومٍ وكي تتخلّص من هذه القوّة الظالمة صرخت: دعني وشأني! بدت لها هذه الكلمات ضعيفةً للغاية؛ نظرت إلى زجاجةٍ من الكريستال فوق منضدة الزينة وفجأةً رمت العلبة على ألبير...**

تحاول المرأة أحيانًا أن تكافح. ولكنّها تقبل غالبًا شاءت أم أبت، مثل نورا في «بيت

الدمية»[148]، أن يفكّر الرجل بدلًا عنها؛ إنّه ضمير الأسرة. تترك للرجل مهمّة تشكيل الآراء المشتركة حول المواضيع العامّة والمجرّدة، خجلًا ورعونةً وكسلًا.

ظلّت امرأةٌ ذكيّةٌ ومثقّفةٌ ومستقلّةٌ تُعجَب خلال خمسة عشر عامًا بزوجٍ كانت تجده متفوّقًا، قالت لي أنّها وجدت نفسها بعد موته مرتبكةً مضطرّةً إلى أن تقرّر بنفسها قناعاتها وتصرّفاتها: ما زالت تحاول أن تحزر ماذا كان ليفكّر ويقرّر في كلّ ظرفٍ. يسرّ الزوج عمومًا بهذا الدور كمرشدٍ ورئيسٍ[149]. بعد نهارٍ عانى فيه من مصاعب في علاقاته بأقرانه، والخضوع لرؤسائه، يحبّ أن يشعر بنفسه رئيسًا مطلقًا ويبثّ أفكارًا لا ينازعه فيها أحدٌ[150]. يعرض أحداث اليوم، ويجعل نفسه محقًّا ضدّ الخصوم، سعيدًا بأن يجد في زوجته نسخةً تؤكّد ثقته بنفسه؛ يعلّق على الصحيفة وعلى الأخبار السياسيّة، ويقرأ لزوجته بطيب خاطرٍ بصوتٍ عالٍ كيلا تكون علاقتها بالثقافة مستقلّةً. ولكي يبسط سلطته، يستمتع بمبالغة القصور الأنثوي؛ وتقبل طائعةً كثيرًا أو قليلًا هذا الدور التابع. نعرف بأيّ متعةٍ مدهوشةٍ تكتشف النساء، اللّواتي يأسفن فعلًا لغياب أزواجهنّ، إمكانيّاتٍ لم يتصوّرنها في أنفسهنّ بهذه المناسبة؛ فيقمن بإدارة الأعمال، ويربّين الأطفال، ويقرّرن، ويدبّرن دون مساعدةٍ. ويعانين عندما تعيدهنّ عودة الزوج من جديدٍ إلى عدم الكفاءة.

148- «عندما كنت عند أبي، كان يقول لي كلّ وجهات نظره وبالتالي كنت أتبنّاها؛ وإن كانت لدي سواها كنت أخفيها؛ لأنّه لم يكن ليحبّ ذلك... انتقلت من يدي أبي إلى يديك... كنت تفعل كلّ شيءٍ حسبما تحبّ وكنت أحبّ نفس الأشياء أو أتظاهر بذلك؛ لا أعرف كثيرًا؛ أعتقد أن الأمر كان مزيجًا من الاثنين؛ مرّةً هذا ومرّةً ذاك. أنت وأبي، أسأتما إليّ كثيرًا. إنّها غلطتكما إن غدوت لا أصلح لشيءٍ».

149- يقول هلمر لنورا: «أتظنّين أنّي أحبّك أقل لأنّك لا تعرفين كيف تتصرّفين من تلقاء نفسك؟ كلّا، كلّا، ليس عليك سوى الاعتماد عليّ؛ سأنصحك؛ وأوجّهك. لن أكون رجلًا إن لم يجعلك هذا العجز الأنثوي تحديدًا أكثر سحرًا في نظري...ارتاحي جيّدًا واهدئي: لدي جناحان عريضان يحميانك... بالنسبة للرجل هناك رقّةٌ ورضىً لا يمكن وصفهما عندما يسامح زوجته... أصبحت نوعًا ما امرأته وطفلته معًا. هذا ما ستصبحينه بالنسبة لي من الآن فصاعدًا، كائنًا صغيرًا ولهانًا حائرًا. لا تقلقي من شيءٍ يا نورا؛ افتحي لي قلبك فقط وسأكون إرادتك وضميرك معًا».

150- انظر لورنس Lawrence، فانتازيا اللاوعي: «عليك أن تناضل كي ترى زوجتك فيك رجلًا حقيقيًّا، رائدًا حقيقيًّا. لا يكون أحدٌ رجلًا إذا لم تر زوجته فيه رائدًا... وعليك القيام بمعركةٍ شاقّةٍ لكي تخضع المرأة هدفها لهدفك... عندها يا لها من حياةٍ رائعةٍ! يا لمتعة أن تعود مساءً إليها وتجدها بانتظارك، قلقةً! يا لعذوبة العودة إلى المنزل والجلوس بقربها... كم يشعر المرء بنفسه على طريق العودة غنيًّا ومثقلًا بعد كدّ النهار... يشعر بعرفانٍ لا يقدّر للمرأة الّتي تحبّه، وتؤمن بمهمّته».

يشجّع الزواج الرجل على تسلّطٍ نزويٍّ: محاولة السيطرة هي الأكثر شمولًا، الأكثر جاذبيّةً؛ تسليم الأطفال إلى الأمّ، والمرأة للزوج، هو تنميّة الاستبداد على الأرض؛ غالبًا لا يكفي الزوجَ أن توافقه وتعجب به وتنصحه وترشده؛ فيأمر ويلعب دور السيّد؛ يتخلّص في المنزل بتوجيه سلطته إلى زوجته من كل السخط المتراكم في طفولته، وعلى طول حياته، والمتراكم يوميًّا بين الرجال الآخرين الذي ينغصّ عليه وجودهم ويجرحه؛ فيقلّد العنف والقوّة والتعنّت؛ ويلقي أوامر بصوتٍ قاسٍ، أو يصرخ، ويضرب على الطاولة: هذه المسرحيّة هي بالنسبة للمرأة واقعٌ يوميٌّ. هو مقتنعٌ للغاية بحقوقه بحيث تبدو له أقل استقلاليّةٍ تحافظ عليها زوجته ثورةً؛ يتمنى لو يمنعها من التنفّس من دونه. مع ذلك، هي تثور. حتّى وإن اعترفت في البداية بالمكانة الذكريّة، فسرعان ما يتلاشى انبهارها؛ وتدرك الطفلة يومًا أن أباها ليس سوى شخصٍ عارضٍ؛ وتدرك الزوجة سريعًا أنّ الّذي أمامها ليس الصورة الساميّة للسيّد، والرئيس، والمعلّم، ولكنّه رجلٌ؛ ولا ترى أيّ سببٍ لتخضع له؛ لا يمثّل في نظرها سوى واجبٍ بغيضٍ وظالمٍ. أحيانًا تخضع بمسايرةٍ مازوشيّةٍ: وتأخذ دور الضحيّة واستسلامها ليس سوى لومٍ طويلٍ صامتٍ؛ ولكن غالبًا أيضًا تدخل في صراعٍ مفتوحٍ ضدّ زوجها، وتبذل جهدًا في التسلّط عليه بالمقابل.

الرجل ساذجٌ عندما يتخيّل أنّه سيخضع زوجته بسهولةٍ لإرادته وأن «يشكّلها» على هواه. ويقول بلزاك: «المرأة هي ما يصنعها زوجها»؛ لكنّه يقول العكس بعد بضع صفحاتٍ. على أرضيّة التجريد والمنطق، تستسلم المرأة غالبًا للسلطة الذكريّة؛ ولكن عندما يتعلّق الأمر بالأفكار أو العادات الّتي تهمّها فعلًا، تقابلها بتعنّتٍ خفيٍّ. تأثير الطفولة على الصبا أعمق بكثيرٍ لديها منه لدى الرجل، باعتبارها تبقى أكثر منه حبيسة قصتّها الشخصيّة. ما اكتسبته خلال هذه الفترات، غالبًا لا تستطيع التخلّص منه أبدًا. يفرض الزوج على زوجته رأيًا سياسيًّا، لكنّه لا يبدّل معتقداتها الدينية ولا يزعزع تطيّرها: هذا ما يلاحظه جان باروا Jean Barois الّذي يتخيّل أنّه يملك تأثيرًا حقيقيًّا على البلهاء الورعة الّتي ضمّها لحياته. ويقول بتثاقلٍ: «عقل فتاةٍ صغيرةٍ، تعيش في مدينةٍ ريفيّةٍ: مثالٌ للغباء والجهل لا يمكن إزالته». ورغم الآراء الّتي تعلّمتها، رغم المبادئ الّتي تكرّرها دون فهمٍ كالببّغاء، فهي تحتفظ برؤيتها للعالم. يمكن أن تجعلها هذه المقاومة غير قادرةٍ على فهم زوجٍ أكثر ذكاءً منها؛ أو

على العكس، ترفعه أعلى من الرجال كما يحدث لبطلات ستندال أو إيبسن. أحيانًا تتشبّث بمحض إرادتها بقيمٍ ليست قيمها، ضمن عدائيّةٍ للرجل، فإما أنّه خيّب أملها جنسيًّا أو على العكس يسيطر عليها وتتمنّى الانتقام منه؛ تستند إلى سلطة أمٍّ، أو أبٍ، أو أخٍ، أو شخصيّاتٍ رجاليّةٍ تبدو لها «متفوّقةً»، أو كاهنٍ تعترف له، أو أختٍ، لتجعله يفشل. أو تعارضه بشكلٍ منهجيٍّ، وتهاجمه، وتجرحه؛ وتبذل جهدًا كي ترسّخ في ذهنه عقدة نقصٍ دون أن تقابله بأيّ شيءٍ إيجابيٍّ. بالطبع، إن كانت لديها الإمكانيّات الضروريّة، تسرّ لإبهار زوجها، وفرض آرائها عليه، ومعتقداتها، وأوامرها؛ وتستولي على كلّ السلطات المعنويّة. وفي الحالات الّتي لا يمكنها فيها معارضة تفوّق الزوج الروحي، تحاول أن تثأر على الصعيد الجنسي. فإما ترفض الاستسلام له، مثل السيّدة **ميشليه** الّتي يقول لنا عنها **هالفي** Halévy إنّها:

> **كانت تريد السيطرة في كلّ شيءٍ؛ في السرير بما أن اجتيازه كان مفروضًا، وفي المكتب. إنّه المكتب الّذي كانت تريده وكان ميشليه يحرّمه عليها في البدء بينما كانت هي تحرّم عليه السرير. خلال بضعة شهورٍ سادت العفّة المنزل. وأخيرًا حصل ميشليه على السرير وحصلت آتينيه ميالاريه بعدها بقليلٍ على المكتب: لقد وُلِدت أديبةً وكان ذلك مكانها الحقيقيّ...**

إمّا أن تتصلّب بين ذراعيه وتهينه ببرودها؛ أو أنّها تصبح نزويّةً، غنجةً، وتفرض عليه أن يتوسّل؛ وترافق سواه لتجعله يغار، وتخونه، تحاول إهانة رجولته بطريقةٍ أو بأخرى. وإذا كان الحذر يمنعها من دفعه إلى الحدّ الأقصى، فهي على الأقلّ تخبئ في قلبها بكبرياءٍ سرّ برودها المتعالي؛ وتسرّ به أحيانًا لدفتر مذكّراتها، وبشكلٍ أكثر لرفيقاتها: يتسلّى العديد من النساء المتزوّجات بالبوح «بحيلٍ» يستخدمنها ليتصنّعن متعةً يدّعين أنهنّ لا يشعرن بها؛ ويضحكن بعنفٍ من السذاجة المزهوّة لأزواجهنّ المخدوعين؛ ربّما كانت هذه الأسرار تمثيليّةً جديدةً: لا توجد حدودٌ واضحةٌ بين البرود وتصنّع البرود. على كلّ حالٍ يعتقدن أنّهن غير حسّاساتٍ ويرضين بذلك شعورهنّ. هناك نساءٌ - تينك اللّواتي يُشبَّهن «بالسرعوفة الراهبة» - يرغبن بالانتصار ليلًا ونهارًا: فهنّ بارداتٌ أثناء الجنس، محتقِراتٌ في حديثهنّ، مسيطراتٌ في سلوكهنّ. وهكذا كانت تتصرّف **فريدا** مع **لورنس** حسب شهادة **ميبل دودج** Mabel Dodge. بما أنه لم يكن بإمكانها إنكار تفوّقه الفكري، كانت تريد أن تفرض عليه رؤيتها للعالم حيث كانت القيم الجنسيّة وحدها المهمّة.

كان عليه أن يرى الحياة من خلالها وكان دورها هي أن تراها من وجهة نظر الجنس. كانت تقبل الحياة أو ترفضها انطلاقًا من وجهة النظر هذه.

وصرّحت ذات يومٍ لـميبل دودج:

يجب أن يتلقّى كلّ شيءٍ مني. عندما لا أكون هناك، يشعر أنّه لا شيء. وتابعت بتفاخرٍ، إنه يتلقّى كتبه منّي. لا أحد يعلم أنّي كتبتُ صفحاتٍ كاملةً من كتبه بدلًا عنه.

مع ذلك، لديها حاجةٌ ماسّةٌ لتثبت لنفسها دون توقّفٍ حاجته هذه إليها؛ فتطالبه بالاهتمام بها دون توقّفٍ: وإن لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه ترغمه عليه:

كانت فريدا تهتمَ بألّا تسمح أبدًا أن تجري علاقتها بلورنس ضمن هذا الهدوء الّذي ينشأ عادةً بين الأزواج. ما إن كانت تشعر به يسكن إلى الاعتياد حتّى كانت تفجّر له قنبلةً. كانت تعمل على ألّا ينساها أبدًا. هذه الحاجة للاهتمام المستمرّ... أصبحت، عندما رأيتهما، السلاح المستخدَم ضدّ عدوٍّ. كانت فريدا تعرف كيف تخزه في الأماكن الحسّاسة... إذا لم ينتبه إليها خلال النهار، كانت تلجأ إلى الإهانات في المساء.

أصبحت الحياة الزوجيّة بينهما سلسلةً من الشجارات المستمرّة الّتي لم يكن أيٌّ منهما يرغب التنازل فيها، بحيث تأخذ أقلّ مشاحنةٍ شكل مبارزةٍ بين الرجل والمرأة.

بطريقةٍ مختلفةٍ جدًّا، نجد أيضًا لدى إليز، الّتي يصفها لنا جوهاندو[151] Jouhandeau، رغبةً جامحةً في السيطرة تقودها إلى إذلال زوجها لأبعد حدٍّ ممكنٍ:

إليز: من أوّل وهلةٍ، أصغّر كلّ شيءٍ حولي. ثم لا تعود لديّ مشكلةٌ بعدها. لم تعد لي علاقةٌ إلا بنساءٍ قبيحاتٍ ورجالٍ بشعين.

عندما تستيقظ تناديني:

يا قبيحي.

هذه سياسةٌ. تريد إذلالي.

بأيّ ابتهاجٍ صريحٍ تستمتع بجعلي أفقد كل أوهامي حول نفسي الواحد تلو الآخر.

151- وقائع زوجيّة ووقائع زوجيّة جديدةً.

لم تفوّت فرصةً لتقول لي أني كذا وكذا وأني بائسٌ أمام أصدقائي المذهولين أو خدمنا المصعوقين. وهكذا انتهى بي الأمر إلى تصديقها... كي تحتقرني لم تفوّت فرصةً لتشعرني أنّ ما يهمّها أكثر في عملي هو الرفاهية الّتي يمكن أن يجلبها لنا.

هي الّتي جفّفت نبع أفكاري بتثبيط عزيمتي بصبرٍ، وبطءٍ، وبدرايةٍ، مذلّةً إياي بمنهجيّةٍ، جاعلةً إياي أتخلّى شيئًا فشيئًا عن كبْريائي رغمًا عني، بمنطقٍ دقيقٍ، رابطة الجأش، ثابتة العزم. قالت لي يومًا أمام المدلّك:

بالنهاية أنت تكسب أقلّ من عاملٍ...

... تريد تصغيري لتظهر متفوّقةً أو معادلةً على الأقلّ وليبقيها هذا الاحتقار أمامي في مكانها... لا تحترمني إلا بقدر ما يفيدها ما أقوم به.

ولكي تقف إليزا وفريدا أمام الذكر بدورهما كالذات الأساسيّة تستخدمان طريقةً طالما استنكرها الرجال: تبذلان جهدًا في أن تنكرا كلّ تسامٍ لهم. يفترض الرجال بطيب خاطرٍ أنّ المرأة تغذّي تجاههم أحلام إخصاءٍ؛ وموقفها ملتبسٌ في الحقيقة، فهي ترغب بالأحرى أن تذلّ الجنس الذكوري بدل أن تلغيه. وما هو صحيحٌ أكثر بكثيرٍ هو أنّها تتمنى بتر الرجل من مشاريعه، ومستقبله. وتنتصر عندما يكون الزوج أو الطفل مريضين، أو متعبين، وقد أُنزلا إلى مرتبة الجسد. عندها لا يعودان يبدوان في المنزل الّذي تهيمن عليه سوى شيئين بين الأشياء الباقية؛ تعامله ربّة المنزل بجدارةٍ؛ وتضمّده كما تعيد لصق صحنٍ مكسورٍ، وتنظّفه كما تفرك قدرًا؛ لا شيء ينفر من يديها الملائكيّتين، المعتادتين عى تقشير الخضار وغسيل الصحون. كان لورنس يقول لـميبل دودج متحدّثًا عن فريدا: «لا يمكنك أن تعرفي ماذا يعني الشعور بيد هذه المرأة فوقك عندما تكونين مريضةً. يد الجسد الثقيلة». تفرض المرأة عمدًا هذه اليد بكلّ ثقلها لتُشعر الرجل أنّه أيضًا ليس سوى كائنٍ من لحمٍ. لا يمكن المضيّ إلى أبعد مما بلغته إليز كما يروي جوهاندو:

أذكر مثلًا قمل تشانغ تسن الّذي أصابني في بداية زواجنا... لم أعرف فعلًا الحميميّة مع امرأةٍ إلا بفضله، يوم أجلستني إليز عاريًا على ركبتيها لتحلق لي كخروفٍ، حتى الثنيات، ممسكةً بشمعةٍ تجول بها حول جسدي. أوه، تفتيشها البطيء لإبطيّ، وصدري، وسرّتي، وجلد خصيتيّ المشدود بين أصابعها كالطبل، توقّفها الطويل على طول فخذيّ، بين قدميّ، ومرور شفرة الحلاقة حول فتحة مؤخّرتي:

وأخيرًا سقوط ضمّةٍ من الشعر الأشقر الّذي كان القمل يختبئ به في سلّةٍ صغيرةٍ ثم كانت تحرقها، مفضيةً بي دفعةً واحدةً، في الوقت نفسه الّذي تخلّصني فيه منه ومن أوكاره، إلى عريٍ جديدٍ وإلى صحراء العزلة.

تحبّ المرأة ألّا يكون الرجل جسدًا تتجلّى فيه ذاتيّةٌ، ولكن جسدًا سلبيًّا. تؤكّد الحياة مقابل الوجود، والقيم الشهوانيّة مقابل القيم الروحيّة؛ وتتّخذ بطيب خاطرٍ تجاه التعدّيات الرجوليّة سلوك **باسكال** Pascal المتهكّم؛ تظنّ أيضًا أن «كلّ مآسي الرجال تأتي من شيءٍ واحدٍ، وهو أنّهمّ لا يعرفون كيف يبقون مرتاحين في غرفةٍ»؛ كانت لتحبسهم عن طيب قلبٍ في المنزل؛ يثير عداءها كلّ عملٍ لا يفيد الحياة الأسريّة؛ تستنكر زوجة **برنار باليسّي** Bernard Palissy أنّه يحرق الأثاث ليخترع مينا جديدةً كان العالم بغنىً عنها حتّى الآن؛ وتدفع السيّدة **راسين** Racine زوجها للاهتمام بعنب الديب في الحديقة وترفض قراءة مسرحيّاته التراجيديّة. ويبدو **جوهاندو** غالبًا محبطًا في «وقائع زوجيةٌ» لأنّ إليز تصرّ على ألّا تعتبر عمله الأدبيّ سوى مصدرٍ للفائدة المادّية.

أقول لها: قصّتي الجديدة تصدر هذا الصباح. دون أن تقصد أن تتهكّم، وفقط لأنّ لاشيء يهمّها في الحقيقة سوى ذلك، أجابت: ثلاثمئة فرنكٍ إضافيّةٌ لهذا الشهر ستكون أمرًا حسنًا على الأقل.

يحدث أن تتفاقم هذه الصراعات لتبلغ حدّ القطيعة. ولكن عمومًا، مع رفض المرأة سيطرة زوجها تريد مع ذلك «الاحتفاظ به». وتكافح ضدّه لتمنع استقلاليّته، وتقاتل بقيّة العالم لتحتفظ «بالوضع» الّذي يكرّسها للتبعيّة. هذه اللّعبة المزدوجة صعبةٌ، ما يفسّر جزئيًّا حالة القلق والعصبيّة الّتي تمضي بها العديد من الزوجات حياتهن. ويعطي **ستيكل** عن ذلك مثلًا شديد الدلالة:

السيّدة ز.ت. الّتي لم تعرف المتعة أبدًا متزوّجة من رجلٍ مثقفٍ جدًا. لكنّها لا تستطيع تحمّل تفوّقه وبدأت تريد مضاهاته بدراسة تخصّصه. وبما أنّ ذلك كان شاقًّا للغاية، تخلّت عن دراستها منذ خطوبتها. والرجل معروفٌ جدًّا ولديه تلميذاتٌ كثيراتٌ يركضن وراءه. وقرّرت ألّا تنساق لهذا الإجلال السخيف. في علاقتها معه كانت دون إحساسٍ منذ البداية وظلّت كذلك. لم تكن تبلغ الرعشة إلا بالعادة السرّية عندما

كان زوجها يتركها مشبَعًا وكانت تروي له ذلك. وكانت ترفض محاولاته إثارتها عبر مداعبات... وسرعان ما بدأت تسخّف وتقلّل من قيمة عمل زوجها. لم تستطع فهم «هاته الإوزّات اللّائي يركضن وراءه»، هي الّتي كانت تعرف دهاليز الحياة الخاصّة للرجل العظيم». ضمن مشاجراتهما اليوميّة، كانت تردّد تعابير مثل: «لن تسيطر عليّ بواسطة خربشاتك!»، أو: «تعتقد أنّك تستطيع أن تفعل بي ما تشاء لأنك كاتبٌ فاشلٌ». كان الزوج يهتمّ أكثر فأكثر بتلميذاته، وأحاطت نفسها هي بشباب. وتابعت هكذا خلال سنواتٍ إلى أن أغرم زوجها بامرأةٍ أخرى. لطالما تحمّلت علاقاته الصغيرة، حتّى أنّها كانت تصبح صديقة «الغبيّات المسكينات» اللّواتي هجرهنّ...عندئذٍ غيّرت سلوكها واستسلمت دون رعشةٍ لأوّل قادمٍ من الفتية. واعترفت لزوجها بأنّها خانته، وتقبّل ذلك تمامًا وعرض عليها الافتراق بهدوءٍ... ورفضت الطلاق. وكان هناك حوارٌ طويلٌ ومصالحةٌ... واستسلمت باكيةً وشعرت بأول رعشةٍ قويّةٍ لها...».

نرى أنّها رغم صراعها مع زوجها لم تفكّر أبدًا بتركه.

«التقاط زوجٍ» هو فنٌّ قائمٌ بحدّ ذاته: و«الاحتفاظ به» هو مهنةٌ. تستوجب براعةً كبيرةً. كانت أختٌ حذرةٌ تقول لزوجةٍ شابّةٍ مشاكسةٍ: «انتبهي، لفرط ما تتشاجرين مع مارسيل ستفقدين مركزك»». الرهان جدّيٌّ للغاية: فالأمان المادّي والمعنويّ، ومنزلٌ خاصٌّ، ومكانة الزوجة، هي بدائل لا بأس بها للحبّ والسعادة. تتعلّم المرأة بسرعةٍ أنّ جاذبيّتها الجنسيّة ليست سوى أضعف أسلحتها؛ فهي تتلاشى مع الاعتياد؛ وفي العالم نساءٌ أخرياتٌ جذّاباتٌ للأسف؛ مع ذلك تبذل جهدًا في أن تكون مغريةً تثير الإعجاب: ويتنازعها غالبًا عاملان: كبرياؤها الّذي يميل بها نحو البرود وفكرة أنّها تستطيع إرضاء زوجها وشدّه إليها بتوقّدها الجنسي. تعتمد أيضًا على قوّة الاعتياد، وعلى السحر الّذي يجده في منزلٍ لطيفٍ، وميله إلى الطعام اللّذيذ، وحنانه على الأطفال؛ وتبذل جهدًا في «رفع رأسه» بطريقتها في الاستقبال، واللّبس، والهيمنة عليه بنصائحها وتأثيرها؛ وتبذل جهدها لتجعله لا يستغني عنها، سواء في نجاحه الاجتماعيّ أو في عمله. ولكنّ هناك تقاليد تعلّم الزوجات فنّ «التعامل مع الرجل»؛ يجب اكتشاف نقط ضعفه وتنميتها، والموازنة بشكلٍ بارعٍ بين التملّق والازدراء، الطّاعة والمقاومة، التنبّه والتساهل. هذا المزيج الأخير دقيقٌ بشكلٍ خاصٍّ. لا يجب إعطاء الزوج

حريّةً أكثر أو أقلّ مما يجب. إذا كانت المرأة مسايرةً أكثر مما ينبغي فسيفلت زوجها منها: ويحرمها من النقود والغرام الّلاهب الّلذين ينفقهما على نساءٍ أخرياتٍ؛ وقد تملك عشيقةٌ ما يكفي من النفوذ عليه لتجعله يطلّق أو على الأقلّ لتحتلّ المكانة الأولى في حياته. مع ذلك، إذا منعته من كلّ مغامرةٍ، وخنقته برقابتها، وشجارها، ومتطلّباتها، يمكن أن تنفّره منها بشكلٍ كبيرٍ. عليها أن تعرف كيف «تقدّم تنازلاتٍ» برويّةٍ؛ فتغضّ الطرف إن قام الزوج ببعض المغامرات البسيطة؛ ولكن في أوقاتٍ أخرى يجب مراقبته جيّدًا؛ تحذر المرأة المتزوّجة الشابّات الّلواتي يسعدهنّ جدًّا أن يسرقن منها «مكانتها» كما تعتقد. ولانتزاع زوجها من غريمةٍ تثير القلق، تأخذه في رحلةٍ، وتحاول تسليته؛ وإن اقتضى الأمر ـ كما فعلت مدام دوبومبادور Mme de Pompadour ـ ستشجّع غريمةً أخرى أقلّ خطرًا؛ وإن لم ينجح شيءٌ من ذلك، تلجأ إلى نوبات الدموع، والنوبات العصبيّة، ومحاولات الانتحار، إلخ..؛ لكن الإكثار من الشجار والمعاتبات يجعل الزوج يهرب من البيت؛ ستجعل المرأة نفسها لا تُحتَمل في الوقت الّذي هي أحوج ما تكون فيه لأن تكون مغريةً. إن أرادت ربح الجولة، عليها أن تعاير بشكلٍ بارعٍ الدموع المؤثرة وابتسامات الانتصار والابتزاز والغنج. إنه علمٌ حزينٌ أن تخفي وتحتال وتكره وتخشى بصمتٍ، وتراهن على غرور رجلٍ ونقاط ضعفه، وتتعلّم أن تعاكسه، وتخدعه، وتتلاعب به. عذر المرأة الكبير هو أنّهم فرضوا عليها أن تستثمر كلّ ما لديها في الزواج: ليست لديها مهنةٌ، ولا كفاءاتٌ، ولا علاقاتٌ شخصيّةٌ، حتّى اسمها لم يعد لها؛ ليست سوى «نصف» زوجها. إذا هجرها، لن تجد غالبًا أيّة مساعدةٍ لا في نفسها ولا لدى الآخرين. من السهل لوم صوفي تولستوي كما يفعل أ. دومونزي A. de Monzie ومونترلان Montherlant: ولكن إذا رفضت نفاق الحياة الزوجيّة أين كانت لتذهب؟ وما هو المصير الّذي ينتظرها؟ بالتأكيد يبدو أنّها كانت امرأةً شرسةً بغيضةً للغاية: ولكن هل يمكن أن نطلب منها أن تحبّ طاغيتها وتبارك عبوديّته؟ الشرط اللازم كي يكون بين الزوجين نزاهةٌ وصداقةٌ هو أن يكونا كلاهما حرّين تجاه بعضهما ومتساويين فعلًا. طالما ملك الرجل وحده الاستقلال الاقتصاديّ ويمتلك ـ حسب القانون والأعراف ـ الامتيازات الّتي تمنحها الذكوريّة، من الطبيعي أن يبدو غالبًا مستبدًّا، ما يدفع بالمرأة إلى الثورة والحيلة.

لا أحد يفكّر في إنكار المآسي والحقارات الزوجيّة: لكنّ ما يدافع به أنصار الزواج هو أنّ

صراعات الزوجين تأتي من سوء نيّة الأفراد، وليس من المؤسّسة ذاتها. وصف **تولستوي**، في خاتمة «حرب وسلم» الزوجين المثاليين: **بيير وناتاشا**. كانت هذه شابّةً غنجةً ورومنسيّةً؛ وعندما تزوّجت أدهشت كلّ المحيطين بها لأنّها تخلّت عن الزينة والناس وكلّ تسليةٍ لتكرّس نفسها فقط لزوجها وأطفالها؛ أصبحت سيّدةً بكلّ معنى الكلمة.

> **لم تعد لديها شعلة الحياة المتأجّجة دومًا والّتي كانت تمنحها سحرها فيما مضى. الآن، غالبًا لم يعُد يُرى منها سوى وجهها وجسدها، لم تعُد تُرى روحها، لم تعُد تُرى سوى الأنثى القويّة، الجميلة والخصبة.**

طلبت من بيير حبًّا خالصًا مثل الّذي تكنّه له؛ وهي تغار عليه؛ فتخلّى عن الخروج، والرفاق، ليكرّس نفسه هو أيضًا بشكلٍ كاملٍ لأسرته.

> **لم يكن يجرؤ على الذهاب للعشاء في الأندية، ولا القيام برحلةٍ طويلةٍ، عدا من أجل أعماله الّتي أدخلت زوجته على العديد منها مؤلفاته في العلوم الّتي كانت توليها أهمّيةً بالغةً رغم أنّها لم تكن تفهم منها شيئًا.**

كان بيير «تحت خفّ امرأته»، ولكن بالمقابل:

> **جعلت ناتاشا من نفسها عبدةً لزوجها. كان كلّ المنزل يدار حسب أوامر الزوج كما تقول، أي حسب رغبات بيير الّتي كانت ناتاشا تبذل جهدًا لتحزرها.**

عندما كان بيير يغيب عنها، كانت **ناتاشا** تستقبله لدى عودته بصبرٍ نافذٍ لأنها تعذّبت لغيابه؛ لكنّ تفاهمًا رائعًا ساد علاقة الزوجين؛ فهما يتفاهمان برمشة العين. وهي تتذوّق طعم سعادةٍ لا يشوبها شيءٌ تقريبًا بين أطفالها ومنزلها والزوج المحبوب المحترم.

تستحق هذه اللوحة المثالية أن ندرسها عن قربٍ. فناتاشا **وبيير** متّحدان، كما يقول **تولستوي**، كما تتّحد الروح بالجسد؛ ولكن عندما تترك الروح الجسد، فهو موتٌ واحدٌ؛ ماذا يحدث إذا كفّ **بيير** عن حبّ **ناتاشا**؟ **لورنس** أيضًا يرفض فكرة عدم الثبات الذكوري: **دون رامون** سيحب إلى الأبد الهنديّة الصغيرة **تيريزا** الّتي وهبته روحها. مع ذلك فأكبر المتحمّسين للحب الوحيد المطلق الخالد، **أندريه بروتون** André Breton مضطرٌّ إلى الإقرار بأنّ هذا هذا الحب يمكن أن يخطئ هدفه، على الأقل في الظروف الحاليّة، وسواء

كان ذلك خطأً أم تقلّبًا فهو يبقى هجرًا بالنسبة للمرأة. قد تجذب نساءٌ أخرياتٌ جنسيًّا **بيير** القويّ والشهوانيّ؛ فتغار **ناتاشا** وسرعان ما تصبح العلاقات حادّةً؛ فإمّا أن يتركها، الأمر الّذي يخرّب حياتها، أو أن يكذب ويتحمّلها ساخطًا، الأمر الذي يخرّب حياته هو، أو يعيشان حالة تسويةٍ وحلٌّ وسطٍ، ما سيجعلهما غير سعيدين كليهما. قد يعترض البعض قائلًا إنّه سيكون لدى **ناتاشا** أطفالها على الأقلّ: لكنّ الأطفال ليسوا مصدر بهجةٍ إلا ضمن شكلٍ متوازنٍ، يكون الزوج أحد قمّتيه؛ ويصبحون عبئًا ثقيلًا على الزوجة المهجورة الغيورة. يُعجَب **تولستوي** بإخلاص **ناتاشا** الأعمى لأفكار **بيير**؛ لكنّ رجلًا آخر، **لورنس**، الّذي يطالب المرأة أيضًا بإخلاصٍ أعمىً، يسخر من **بيير** و**ناتاشا**؛ يستطيع الرجل إذًا، برأي رجالٍ آخرين، أن يكون معبودًا من الصلصال وليس إلهًا حقيقيًّا؛ وبعبادته نخسر حياتنا بدل أن ننقذها؛ ما العمل؟ تتناقض الادّعاءات الرجاليّة، ولا يعود للسلطة تأثيرٌ: يجب أن تبدي المرأة رأيًا وتنتقد، لا يمكن أن تظلّ صدىً طيّعًا. عدا عن أنّ فرض مبادئ عليها يذلّها، وكذا فرض قيمٍ لا تعتنقها بحرّيةٍ ؛ إذ لا تستطيع مشاركة الزوج أفكاره إلّا عبر رأيٍ مستقلٌّ؛ يجب ألّا تقبل أو ترفض ما هو غريبٌ بالنسبة لها؛ ولا تستطيع استعارة أسباب وجود الآخرين الخاصّة.

أكثر نقضٍ جذريٌّ لأسطورة **بيير ـ ناتاشا**، يعطيه الثنائي **ليون ـ صوفي**. تنفر **صوفي** من زوجها، تجده «ثقيلًا»؛ يخونها مع كلّ فلّاحات المنطقة، وهي تغار وتضجر؛ وتمضي فترات حمولها المتعدّدة بعصبيّةٍ ولا يملأ أطفالها فراغ قلبها ولا أيّامها؛ المنزل بالنسبة إليها صحراء قاحلةٌ، وبالنسبة لزوجها جحيمٌ. وانتهى بهما الأمر إلى أن تصبح زوجةً عجوزًا هستيريّةً تنام نصف عاريةٍ في ليل الغابات الرطب، وهو عجوزًا ملاحَقًا يولّي الأدبار، ما ينكر في النهاية فكرة «الارتباط» مدى الحياة.

حالة **تولستوي** استثنائيّةٌ دون شكٌّ؛ هناك العديد من البيوت الّتي «تسير بشكلٍ جيّدٍ»، أي توصّل فيها الزوجان إلى تسويةٍ؛ يعيشان معًا دون أن ينغّص أحدهما حياة الآخر، ودون أن يكذب عليه كثيرًا. ولكن هناك لعنةٌ نادرًا ما يتملّصان منها: هي السأم. إن نجح الزوج في أن يجعل من زوجته صدىً لنفسه أو إن انعزل كلٌّ منهما في عالمه، فلا يعود لديهما أيّ تواصلٍ بعد بضعة أشهرٍ أو بضع سنواتٍ. الزوجان هما مجموعةٌ فقد عضواها استقلاليتهما دون أن يتخلّصا من وحدتهما؛ يتماثلان في وضعٍ سكونيٌّ بدل أن يقيم الواحد مع الآخر

علاقةً ديناميكيّةً حيويّةً؛ ولهذا لا يمكنهما أن يمنحا نفسيهما لبعضهما ولا أن يتبادلا أيّ شيءٍ في المجال الروحي كما على الصعيد الجنسي. لخّصت دوروثي باركر في إحدى أفضل قصصها «خسارة! Too Bad» حكايةً حزينةً لبضع حالاتٍ زوجيّةٍ. لدى عودة السيّد ولتن إلى البيت مساءً:

فتحت السيّدة ولتن الباب لدى قرعه الجرس، وقالت بمرحٍ:

حسنًا!

وابتسما لبعضهما بهيئةٍ منتعشةٍ. وقال:

مرحبًا! هل بقيتِ في المنزل؟

وتبادلا القبل بخفّةٍ ونظرت إليه باهتمامٍ مهذّبٍ وهو يعلّق معطفه وقبّعته، ويخرج الصحف من جيبه ويمدّ لها إحداها. وقالت له وهي تتناولها:

لقد أحضرتَ الصحف!

فقال لها:

وإذن؟ ماذا فعلتِ طيلة النهار؟

سمعت السؤال؛ كانت قد أعدّت قبل عودته ما سترويه له من أحداث النهار الصغيرة... ولكن الآن بدا ذلك قصّةً طويلةً تافهةً. وقالت بضحكةٍ مرحةٍ صغيرةٍ:

أوه! لا شيء. هل كانت فترة بعد الظهر جيّدةً؟

وبدأ قائلًا:

حسنًا!... لكنّ اهتمامه تلاشى قبل أن يبدأ حديثه... عدا عن أنّها كانت مشغولةً باقتلاع خيطٍ من خصلة صوفٍ على إحدى الوسائد. وقال:

أوه، لا بأس.

...كانت تعرف جيّدًا كيف تتحدّث إلى الآخرين... إرنست كان أيضًا ثرثارًا بين الناس... حاولت أن تتذكّر عمّاذا كانا يتحدّثان قبل أن يتزوّجا، خلال خطبتهما. لم يكن لديهما أبدًا الشيء الكثير ليقولاه. لكنّها لم تقلق لذلك... كانت هناك القبلات والأشياء الّتي تشغل الفكر. ولكن لا يمكن الاعتماد على القبلات والأمور الأخرى لتمضية الأمسيات بعد سبع سنواتٍ.

يمكن الاعتقاد بأن المرء يعتاد بعد سبع سنواتٍ، ويدرك أنّ الأمر هكذا، ويجب

الاستسلام له. ولكن لا. ينتهي الأمر بإثارة أعصابك. فهو ليس صمتًا ناعمًا ودودًا ممّا يسود أحيانًا بين الناس. إنّه يعطيك انطباعًا بأنّ هناك ما يجب عمله، وأنك لا تقوم بواجبك. لم يكن مساؤها جيّدًا كربّة منزلٍ...كان إرنست يذهب للقراءة بانهماكٍ وفي حوالي منتصف الصحيفة كان يبدأ بالتثاؤب. وعندما كان يفعل ذلك كان شيءٌ ما يحدث داخل السيّدة ولتن. وكانت تتمتم بأنّها يجب أن تقول شيئًا لـ«دليا»، وتسارع إلى المطبخ. وتبقى هناك برهةً طويلةً، تنظر إلى الأوعية ساهمةً، مدقّقةً بلائحة الغسيل، وعندما تعود يكون منهمكًا بالاستعداد للنوم.

كانت ثلاثمئةٍ من سهراتهما في السنة تجري بهذه الصورة. سبع مرّاتٍ ثلاثمئةٍ، الناتج ألفان.

يزعمون أحيانًا أنّ هذا الصمت نفسه علامة حميميّةٍ أعمق من كلّ كلامٍ؛ وبالتأكيد لا يفكّر أحدٌ في إنكار أنّ الحياة الزوجيّة تخلق حميميّةً: وهكذا هي كلّ العلاقات الأسريّة الّتي تتضمّن أيضًا الكره والغيرة والحقد. جوهاندو يؤكّد بقوّةٍ على الاختلاف بين هذه الحميميّة وأخوّةٍ إنسانيّةٍ حقيقيّةٍ عندما يكتب:

إليز زوجتي ولا شكّ في أنّ أيًا من أصدقائي، أو أفراد عائلتي، أيًّا من المقرّبين إلي ليس أكثر حميميّةً معي منها، ولكن مهما كان مكانها الّذي صنعَتْه قريبًا مني، والّذي صنعتُه لها في عالمي الأكثر خصوصيّةً، ومهما كانت متجذّرةً في نسيج روحي بشكلٍ لا يمكن انتزاعه (وهنا كلّ سرّ مأساة ارتباطنا غير القابل للفصل)، فالغريب الّذي يمرّ هذه اللحظة في الشارع والّذي ألمحه بالكاد من نافذتي، كائنًا من كان، أقرب منها إنسانيًا إليّ.

ويقول في مكانٍ آخر:

يدرك المرء أنّه ضحيّة سمٍّ، ولكنّه اعتاد عليه. كيف يتخلّى عنه بعد الآن دون أن يتخلّى عن نفسه؟

وأيضًا:

عندما أفكّر فيها أشعر أنّ الحبّ الزوجي لا علاقة له بالتعاطف ولا بالجنس، ولا بالشغف، ولا بالصداقة، ولا بالحبّ. يشبه نفسه فقط، لا يمكن إرجاعه بالنسبة

للطرفين إلى هذه المشاعر المتنوّعة، فله طبيعته الخاصّة، وجوهره الخاصّ وطرزه الفريد حسب الزوجين اللّذين يجمعهما.

يدافع محامو الحبّ الزوجي[152] بطيب خاطرٍ بأنّه ليس حبًّا وأنّ ذلك نفسه يمنحه صفةً رائعةً. لأنّ البورجوازيّة اخترعت في هذه السنوات الأخيرة أسلوبًا ملحميًّا: فيأخذ الروتين شكل المغامرة، والإخلاص شكل جنونٍ فائقٍ، ويصبح الملل تعقّلًا والكره العائليّ أكبر أشكال الحبّ. في الحقيقة، أن يكره شخصان بعضهما دون أن يستطيعا مع ذلك الاستغناء أحدهما عن الآخر فذلك ليس أكثر العلاقات الإنسانيّة واقعيّةً وإثارةً للتأثّر، بل هو أكثرها إثارةً للشفقة. وعلى العكس، الوضع المثاليّ هو وضع شخصين مكتفيين ذاتيًّا تمامًا، لا يربط أحدهما بالآخر سوى حبّهما الّذي اختاراه بمطلق حرّيتهما. يعجب **تولستوي** أن يكون ما يربط **ناتاشا** و**بيير** شيئًا «لا يمكن تحديده، ثابتًا قويًّا كارتباط الروح بالجسد». إذا قبلنا فرضيّة الثنائيّة، لا يمثّل الجسد بالنسبة للروح سوى واقعٍ صرفٍ؛ وبالتالي في الارتباط الزوجي، يكون كلّ منهما للآخر ثقلًا لا مفرّ منه كمعطىً عارضٍ؛ يجب تحمّل مسؤوليته وحبّه كوجودٍ عبثيٍّ وغير مختارٍ، وظرفٍ ضروريٍّ وحتّى مادة الوجود. يتمّ الخلط بشكلٍ متعمّدٍ بين هاتين الكلمتين، التحمّل والحبّ ومن هنا يأتي الخداع: ما نتحمّله لا نحبّه. نتحمّل مسؤوليّة جسدنا، وماضينا، ووضعنا الحالي: لكنّ الحبّ هو اندفاعٌ نحو آخر، نحو وجودٍ منفصلٍ عن وجودنا، غايةٍ، مستقبلٍ؛ طريقة الاضطلاع بعبءٍ أو استبدادٍ ليست أن نحبّه بل أن نثور عليه. ليس للعلاقة الإنسانيّة قيمةٌ ما لم نخضع لها بشكلٍ مباشرٍ؛ لا تأخذ علاقة الأطفال بالأهل مثلًا قيمةً إلّا عندما تنعكس ضمن شعورٍ؛ ليس جيّدًا أن تسقط العلاقات الزوجية في المباشرة وأن يبدّد فيها الطرفان حرّيتهما. هذا المزيج المعقّد من التعلّق والحقد والكره والأسر والاستسلام والكسل والنفاق، المدعو حبًّا زوجيًّا، لا نطالب باحترامه إلّا لأنّه يستعمل كحجّةٍ. ولكن فيه صداقةً وحبًّا جسديًّا معًا: كي يكون أصليًّا يجب أن يكون حرًّا. والحرّية لا تعني النزوة: العاطفة التزامٌ يتجاوز الآنيّ؛ لكنّ يعود للفرد وحده فقط مواجهة إرادته العامة

152- يمكن أن يكون هناك حبٌّ ضمن الزواج؛ ولكن عندئذٍ لا نتحدّث عن «حبٍّ زوجيٍّ»؛ عندما نلفظ هاتين الكلمتين فهذا يعني غياب الحبّ؛ وكذلك عندما نقول عن رجلٍ إنّه «شيوعيٌّ جدًّا» نعني بذلك أنّه ليس شيوعيًّا؛ و«رجل شريفٌ جدًّا» هو رجلٌ لا ينتمي إلى صنف الرجال الشرفاء العادي، إلخ.

وسلوكه الخاصّ بحيث يحافظ على قراره أو يتخلّى عنه؛ العاطفة حرّةٌ عندما لا تتعلّق بأيّة أوامرخارجيّةٍ، عندما تُعاش بصدقٍ ودون خوفٍ. وعلى العكس تدعو فريضة «الحبّ الزوجي» لكلّ أنواع الكبت والكذب. وهي أولًا تمنع الزوجين من أن يعرفا بعضهما بصورةٍ حقيقيّةٍ. فالحميميّة اليوميّة لا تخلق تفاهمًا ولا ودًّا. يحترم الزوج زوجته كثيرًا بحيث لا يهتم بتحوّلات حياتها النفسيّة: لأنّه إن فعل فهو يعترف لها باستقلاليةٍ يمكن أن تكون مزعجةً أو خطيرةً؛ هل تجد متعةً حقًّا في السرير؟ هل تحبّ زوجها فعلًا؟ هل هي سعيدةٌ حقًّا عندما تطيعه؟ ويفضّل ألّا يطرح على نفسه هذه الأسئلة الّتي تبدو له صادمةً. لقد تزوّج «امرأةً فاضلةً»؛ وهي شريفةٌ في جوهرها، ومتفانيةٌ ومخلصةٌ، ونقيّةٌ، وسعيدةٌ وتفكّر كما يجب. أحد المرضى، بعد أن شكر أصدقاءه والمقرّبين، وممرّضاته، قال لزوجته الشابّة الّتي لم تتركه لمدة ستة أشهرٍ: «لا أشكرك أنت لأنك لم تفعلي سوى واجبك». لا يمتدح أيًّا من فضائلها: فالمجتمع يضمنها، وتفرضها مؤسسة الزواج ذاتها؛ وهو لا يرى أنّ زوجته لا تخرج من كتابٍ **لبونالد**، وأنّها مخلوقٌ من لحمٍ ودمٍ؛ بل يرى إخلاصها للتعليمات الّتي تفرضها على نفسها أمرًا مفروغًا منه: ولا يأخذ بعين الاعتبار أنّ لديها إغراءاتٌ عليها مقاومتها، وأنّها ربّما استسلمت لها، وأنّ صبرها وعفّتها وذوقها هي على كلّ حالٍ أشياء تعبت في الوصول إليها؛ ويجهل أكثر أيضًا أحلامها وتخيّلاتها، وما تحنّ إليه، والمناخ العاطفي الّذي تمضي فيه أيّامها. وهكذا يُظهر لنا **شاردون** في «حوّاء Eve» زوجًا ظلّ يكتب يوميّاتٍ عن حياته الزوجيّة خلال سنواتٍ: فيتحدّث عن زوجته بإيحاءاتٍ دقيقةٍ؛ ولكن عن زوجته فقط كما يراها، كما تبدو له دون أن يعيد إليها أبعادها كمخلوقٍ حرٍّ: ويصعق عندما يعلم فجأةً أنّها لا تحبّه، وتهجره. لقد تحدّثوا غالبًا عن خيبة أمل الرجل الساذج المستقيم تجاه الخداع الأنثوي: يكتشف أزواج **برنشتين** Bernstein باستنكارٍ أنّ رفيقة حياتهم لصّةٌ، شرّيرةٌ، خائنةٌ؛ ويمتصّون الصدمة بشجاعةٍ رجوليّةٍ ولكن الكاتب فشل مع ذلك في إظهارهم كرماء وأقوياء: فيبدون لنا خصوصًا حمقى مجرّدين من الإحساس والنيّة الحسنة؛ يلوم الرجل النساء على تكتّمهنّ ولكن يحتاج المرء إلى الكثير من المسايرة كي يظلّ مخدوعًا طول الوقت. المرأة منذورةٌ للفسق لأنّ الأخلاق بالنسبة لها هي أن تتقمّص كيانًا غير بشريٍّ: المرأة القويّة، الأم المثيرة للإعجاب، المرأة الشريفة، إلخ.. ما إن تفكّر، وتنام، وترغب، وتتنفس دون تعليماتٍ، حتّى تشوّه المثل الذكوري.

ولهذا كثيرٌ من النساء لا يتركن أنفسهنّ «على سجيّتها» إلا في غياب أزواجهنّ. وبالمقابل، لا تعرف المرأة زوجها؛ تظنّ أنّها تلمح وجهه الحقيقي لأنّها تدركه في ما يطرأ عليه يوميًّا: لكنّ الرجل هو أولًا «ما يفعل» في العالم بين الرجال الآخرين. ورفض فهم حركة تساميه يعني تجريده من طبيعته.

تقول إليز: «نتزوّج شاعرًا، وعندما نصبح زوجته نلاحظ أولًا أنّه ينسى أن يسحب سلسلة المرحاض[153]». مع ذلك يظلّ شاعرًا والقارئ الغريب يعرفه أكثر مما تعرفه الزوجة الّتي لا تهتم بمؤلفاته. غالبًا ليست هذه غلطة الزوجة إن كانت لا تستطيع مشاركته فليست لديها الخبرة للاطّلاع على مؤلّفات زوجها، ولا الثقافة الضروريّة «لمتابعته»: تفشل في الاتحاد معه عبر المشاريع الّتي هي أساسيّةٌ بالنسبة له أكثر من تواتر الأيّام الرتيب. في بعض الحالات المميّزة تنجح المرأة في أن تصبح بالنسبة لزوجها رفيقةً حقيقيّةً: فتناقش مشاريعه، وتعطيه نصائح، وتساهم في أعماله، لكنّها واهمةٌ إن اعتقدت أنّها تحقّق بذلك عملًا شخصيًّا: إذ يبقى هو الحرّية الوحيدة الفاعلة والمسؤولة. ويجب أن تحبّه لتجد متعتها في خدمته؛ وإلّا ما كانت لتشعر سوى بالغيظ لأنّها ستحس أنها محرومةٌ من نتاج جهودها. يستمتع الرجال ـ المقتنعون بتنفيذ تعليمات بلزاك بمعاملة الزوجة كعبدةٍ مع إقناعها بأنّها ملكةٌ ـ بالمبالغة بأهمّيّة تأثير النساء؛ ويعرفون في أعماقهم أنّهم يكذبون.

وقعت **جورجيت لوبلان** Georgette Le Blanc بهذه الخدعة عندما طالبت **ماترلنك** Maeterlinck أن يسجّل اسميهما على الكتاب الّذي اعتقدت أنّهما كتباه سويًّا؛ في التمهيد الّذي وضعه لكتاب «ذكريات المغنيّة»، شرح لها **غراسيه** Grasset بفظاظةٍ أن كلّ رجلٍ يسارع إلى تكريم الّتي تشاطره حياته كشريكةٍ وملهمةٍ ولكنّه مع ذلك ينظر إلى عمله على أنّه نتاجه وحده وهو محقٌّ في ذلك. في كلّ فعلٍ، وفي كلّ عملٍ، لحظة الاختيار والقرار هي المهمّة. تلعب المرأة عمومًا دور كرة الزجاج هذه الّتي تنظر فيها العرّافات: تستطيع واحدةٌ أخرى أن تؤدّي نفس المهمّة بنفس النجاح. والدليل، أنّ الرجل غالبًا ما يتقبّل بنفس الثقة ناصحةً أخرى، ومساعدةً أخرى. كانت **صوفي تولستوي** تنسخ مخطوطات زوجها وتنظمها، وكلّف

153- راجع جوهاندو Jouhandeau، وقائع زوجيّة.

إحدى بناته بذلك فيما بعد؛ فهمت عندئذٍ أنّه حتّى حماستها لم تمنعه من أن يستغني عنها. لا يؤمّن للمرأة استقلالًا أصليًا سوى عملٍ مستقلّ»[154].

تتّخذ الحياة الزوجيّة حسب الحالات صورًا مختلفةً. ولكن بالنسبة للعديد من النساء يجري النهار تقريبًا بنفس الطريقة. صباحًا يترك الزوج زوجته مسرعًا: بسرورٍ تسمع الباب يغلق وراءه؛ لأنّها تحبّ أن تبقى حرّةً، دون تعليماتٍ، سيّدة منزلها. ويذهب الأطفال بدورهم إلى المدرسة: ستبقى وحدها كلّ النهار؛ الرضيع الّذي يتحرّك في المهد أو الّذي يلعب خلف حاجزٍ ليس رفقةً مسلّيةً. وتمضي وقتًا متفاوت الطول في زينتها، وأعمال البيت؛ وإذا كانت لديها خادمةٌ، تعطيها أوامرها، وتتلكأ قليلًا في المطبخ وهي تثرثر؛ وإلّا تذهب للتجوّل في السوق، وتتبادل بضع كلماتٍ حول تكاليف الحياة مع جاراتها أو مع مورّدي الحاجيات. إذا عاد الزوج والأطفال إلى البيت للغداء، لا تستفيد كثيرًا من وجودهم؛ فلديها عملٌ كثيرٌ في تحضير الوجبات، وتقديمها، وتنظيف المائدة؛ وغالبًا لا يعودون. على أيّ حالٍ لديها فترة فراغٍ طويلةٌ بعد الظهر. تصحب أطفالها الصغار إلى الحديقة العامة وتحيك الصوف أو تخيط وهي تراقبهم؛ أو جالسةً في بيتها بقرب النافذة، ترتق؛ يداها تعملان، وذهنها غير مشغولٍ؛ وتجترّ همومها؛ وترسم مشاريع؛ وتحلم، وتسأم؛ لا تكفيها أيٌّ من مشاغلها؛ فكرها مشغولٌ بالزوج، والأطفال الّذين سيرتدون هذه القمصان، وسيأكلون الصنف الّذي تعدّه؛ فهي لا تحيا إلا من أجلهم؛ وهل يشعرون نحوها بالعرفان لذلك؟ شيئًا فشيئًا يتحوّل مللها إلى نفاد صبرٍ، وتبدأ بانتظار عودتهم بقلقٍ. ويعود الأطفال من المدرسة، فتقبّلهم، وتسألهم؛ ولكنّ لديهم وظائف، ويريدون اللهو مع بعضهم، فيبتعدون عنها، ليسوا إذن مصدر تسليةٍ. ثم، لقد حصلوا على علاماتٍ سيّئةٍ، أو أضاعوا منديلًا، ويحدثون ضجّةً، وفوضى، ويتعاركون: يجب توبيخهم باستمرارٍ. يتعب الأم وجودهم أكثر مما يهدئها. وتنتظر زوجها بإلحاحٍ متزايدٍ. ماذا يفعل؟ لماذا لم يعد حتّى الآن؟ لقد اشتغل، ورأى العالم، وتحدّث مع الناس، ولم يفكّر بها؛ وتبدأ تجترّ بعصبيّةٍ أنّها حمقاء إذ كرّست له شبابها؛ وهو لا يقدّر ذلك. ويشعر الزوج

154- هناك أحيانًا تعاونٌ حقيقيٌّ بين الرجل والمرأة، حيث يكون الإثنان مستقلين أيضًا: كما في حالة الثنائي جوليو- كوري مثلًا. ولكن عندئذٍ تخرج المرأة من دورها كزوجةٍ إذ تكون جديرةً بقدر الرجل؛ لم تعد علاقتهما علاقةً زوجيّةً. هناك أيضًا نساءٌ يستخدمن الرجل لبلوغ غاياتٍ شخصيّةٍ؛ ويقعن خارج إطار المرأة المتزوّجة.

العائد إلى المنزل أنّه مذنبٌ بشكلٍ ما تجاه زوجته المحبوسة؛ في بداية الزواج، كان يقدّم لها باقة وردٍ أو هديّةً صغيرةً؛ لكن هذا الطقس فقد معناه بسرعةٍ؛ يأتي الآن فارغ اليدين، ويسرع بقدر ما يخشى الاستقبال اليومي. في الواقع، تنتقم الزوجة غالبًا بمشاحنةٍ حول الملل، وانتظار النهار؛ بذلك تستدرك أيضًا خيبة حضورٍ لا يعوّض عن آمال الانتظار. حتّى إن صمتت فالزوج من ناحيته خائبٌ. لم يكن يلهو في مكتبه، إنّه متعَبٌ؛ لديه رغبةٌ متناقضةٌ في الإثارة والراحة. وجه زوجته المعتاد كثيرًا لا ينتزعه من نفسه؛ يشعر أنّها تريد أن يقاسمها همومها، وأنّها تنتظر منه أيضًا التسلية والاسترخاء: يثقل عليه وجودها دون أن يرضيه، ولا يجد بقربها راحةً حقيقيّةً. والأطفال كذلك لا يأتون بالتسليّة ولا بالسلام؛ يمرّ العشاء ثم السهرة ضمن مزاجٍ سيّءٍ مبهمٍ؛ يقرآن، ويصغيان إلى محطّة .T.S.F، ويتحدّثان بفتورٍ، وسيبقى كلٌّ منهما وحيدًا تحت ستار الحميميّة. في هذه الأثناء تتساءل الزوجة بأملٍ قلِقٍ ـ أو توجّسٍ قلِقٍ كذلك ـ إن كان سيحدث شيءٌ هذه الليلة ـ أخيرًا! أيضًا! ـ. تنام خائبةً، ثائرةً أو مرتاحةً؛ وستسمع الباب يغلق غدًا صباحًا بارتياحٍ. يزداد قدر النساء صعوبةً كلّما كنّ أشدّ فقرًا ومثقلاتٍ أكثر بالأعباء؛ ويتحسّن عندما يكون لديهنّ تسليةٌ وترفيهٌ. لكنّ هذا المخطّط موجودٌ في حالاتٍ عديدةٍ: مللٌ، انتظارٌ، خيبة أملٍ.

يعرض على المرأة بعض الترويح عن النفس[155]؛ ولكنّ ذلك لا يتوفّر عمليًّا للجميع. خصوصًا في الأقاليم، سلاسل الزواج ثقيلةٌ؛ وعلى المرأة إيجاد طريقةٍ تضطلع فيها بمسؤوليات وضعٍ لا تستطيع الإفلات منه. توجد منهنّ، كما رأينا، من يعطين أنفسهنّ أهميّةً بالغةً ويصبحن نساءً متسلّطاتٍ، شرساتٍ. وأخرياتٌ يستمتعن بدور الضحيّة، فيجعلن من أنفسهنّ عبداتٍ متألماتٍ لأزواجهنّ وأولادهنّ، ويحصلن من ذلك على متعةٍ مازوشيّةٍ. وأخرياتٌ يستمررن بسلوكٍ نرجسيٍّ كما ذكرنا لدى الفتاة الشابّة: يعانين هنّ أيضًا لعدم تحقيق ذاتهنّ في أيّ موضعٍ وبالتالي يشعرن أنّهنّ لا شيء؛ ويشعرن بأنّهنّ غير محدوداتٍ لأنّهنّ غير محدّداتٍ ويفكّرن أنّهنّ غير معروفاتٍ؛ ويقعن في الكآبة؛ ويلجأن إلى الأحلام، والتمثيليات والمرض والمشاحنات؛ ويخلقن مآسي حولهنّ أو ينغلقن ضمن عالمٍ خياليٍّ؛ «السيّدة بودل المبتسمة» الّتي رسمها آمييل Amiel هي من هذا الصنف. حبيسة حياة

155- انظر الفصل السابع.

أقاليم رتيبةٍ، بقرب زوجٍ فظٍّ، ليس لديها فرصة التصرّف ولا الحبّ، ينهشها شعور الفراغ وعدم جدوى حياتها؛ تحاول إيجاد معاوضةٍ في تخيّلاتٍ حالمةٍ، في الزهور الّتي تحيط نفسها بها، في زينتها، وشخصيّتها: يزعجها زوجها حتّى في هذه الأمور. وينتهي بها الأمر إلى أن تحاول قتله. قد يؤدّي السلوك الرمزي الّذي تهرب عبره المرأة إلى انحرافاتٍ، وقد تفضي هواجسها إلى جرائم. هناك جرائم زوجيّةٌ يمليها الكره أكثر من المصالح. وهكذا يرينا **مورياك تيريز ديكيرو** تحاول تسميم زوجها كما فعلت في السابق السيدة **لافارج**. وقد أخلوا حديثًا سبيل امرأةٍ في الأربعين تحمّلت خلال عشرين سنةً زوجًا بغيضًا وذات يومٍ، خنقته بدمٍ باردٍ، بمساعدة ابنها الكبير. لم تكن هناك بالنسبة لها وسيلةٌ أخرى للتخلّص من وضعٍ غير محمولٍ.

لا يبقى غالبًا سوى الكبرياء القاسية كملجأٍ لامرأةٍ تودّ أن تعيش وضعها بوضوحٍ وأصالةٍ. لأنّها تابعةٌ لكلّ شيءٍ وللجميع، لا يمكنها أن تعرف سوى حرّيةٍ داخليّةٍ، وبالتالي مجرّدةٍ؛ ترفض المبادئ والقيم الجاهزة، وتحكم، وتسأل، وبذلك تفلت من العبوديّة الزوجيّة؛ لكنّ تحفّظها المتعالي، وتبنّيها صيغة «تحمّلي واستنكفي» لا يشكّل سوى وضعٍ سلبيٍّ. وتتصلّب في تخلّيها واستخفافها، وينقصها استخدامٌ إيجابيٌّ لقواها؛ مادامت متوقّدةً، حيّةً، تبذل جهدها في استخدامها: تساعد الغير، وتواسي، وتحمي، وتعطي، وتعدّد مهامها؛ لكنّها تعاني من عدم إيجاد أيّ عملٍ يتطلّب فعلًا هذه القوى، ومن عدم تكريس نشاطها لأيّة غايةٍ. تنهشها وحدتها وعقمها غالبًا، وينتهي بها الأمر إلى أن تنكر ذاتها، وتتحطّم. السيّدة **دوشاريير** مثالٌ واضحٌ لمثل هذا المصير. في الكتاب الشيّق الّذي خصصه لها **جوفري سكوت**[156] Geoffrey Scott صوّرها كما يلي «تقاطيع ناريّةً، وجبينٌ من الجليد». ولكنّ ليس إدراكها هو ما أخمد فيها شعلة الحياة هذه الّتي قال عنها **هرمنش** Hermenches أنّ بإمكانها «تدفئة قلب لابونيٍّ»[157]؛ بل هو الزواج الّذي اغتال ببطءٍ حسناء **زويلن** الرائعة؛ لقد اختارت الاستسلام: كان إيجاد مخرجٍ آخر بحاجةٍ إلى بطولةٍ أو عبقريّةٍ. لم تكن ميزاتها النادرة والرفيعة كافيةً لإنقاذها وذاك أحد أكبر الإدانات للمؤسّسة الزوجية المصادفة عبر التاريخ.

156- «صورة زيليد».

157- من سكان لابونيا (المترجمة).

الآنسة **زويلن** متألّقةٌ، مثقّفةٌ، ذكيّةٌ، متّقدةٌ، أدهشت أوروبا؛ كانت تخيف طلّاب الزواج؛ ورفضت منهم أكثر من اثني عشر، وتراجع آخرون ربّما كانوا مقبولين أكثر. الرجل الوحيد الّذي كان يهمّها، **هرمنش**، لم يكن واردًا أن تتزوجه: كانت بينهما مراسلاتٌ دامت اثنتي عشرة سنةً؛ لكن لم تعد تكفيها هذه الصداقة ودراستها. كانت تقول: «عذراء وشهيدةٌ، هذا لغوٌ»؛ لم تكن **زويلن** تتحمّل ضغوطات الحياة؛ أرادت أن تصبح امرأةً، أن تكون حرّةً. في سنّ الثلاثين تزوّجت السيد **دوشارييز**؛ كانت معجبةً «بنزاهة القلب وروح العدالة» اللتين وجدتهما فيه، وقرّرت أولًا أن تجعل منه «أكثر الأزواج المحبوبين بحنانٍ في العالم». فيما بعد، روى **بنجامان كونستان** Benjamin Constant «أنّها عذّبته كثيرًا لترغمه على مجاراتها»؛ لم تنجح في التغلّب على طبعه الهادئ المنهجي؛ وبدأت السيّدة **دوشارييز** تشعر بالسأم، حبيسة **كولومبييه** بين هذا الزوج النزيه الكئيب، وحمٍ شيخٍ، وشقيقتين لزوجها بلا جاذبيّةٍ؛ وكان مجتمع نيوشاتل لا يروقها بفكره الضيّق؛ كانت تقتل أيّامها بغسيل الملاءات وتلعب مساءً دور «النجمة». مرّ بحياتها شابٌّ، بشكلٍ موجزٍ، وتركها وحيدةً أكثر من ذي قبل. «واتّخذت من الملل ملهمًا لها»، فكتبت أربع رواياتٍ حول طبائع نيوشاتل، وضاقت حلقة أصدقائها أكثر. في إحدى رواياتها صوّرت البؤس الطويل لزواج امرأةٍ حيويّةٍ وحسّاسةٍ برجلٍ طيّبٍ إنّما باردٍ وثقيلٍ: كانت الحياة الزوجيّة تبدو لها سلسلةً من سوء التفاهم وخيبة الأمل والحقد البسيط. كان واضحًا أنّها هي أيضًا تعيسةٌ؛ ووقعت صريعة المرض، وشفيت، وعادت إلى نفس الوحدة الطويلة الّتي عاشتها بوجود الآخرين. ورد في سيرة حياتها: «من الواضح أنّ رتابة الحياة في كولومبييه ولطف زوجها السلبي الخاضع حفرا فراغًا دائمًا لم يكن بإمكان أيّ نشاطٍ أن يملأه». عندئذٍ ظهر **بنجامان كونستان**، الّذي شغلها عاطفيًّا لمدة ثماني سنواتٍ. وعندما منعتها عزّتها من منازعة **مدام دوستايل** Mme de Staél عليه تخلّت عنه، وتصلّب كبرياؤها. وكتبت له يومًا: «كانت الإقامة في كولومبييه بغيضةً بالنسبة لي وكنت أرجع إليها بيأسٍ. لم أعد أرغب بتركها وجعلتها محمولةً بالنسبة لي». وحبست نفسها فيها ولم تعد تخرج من حديقتها طيلة خمس عشرة سنةً؛ وهكذا كانت تطبّق الإدراك الرواقي: محاولة التغلّب على القلب بدلًا من الحظّ. وباعتبارها سجينةً، لم يكن بإمكانها إيجاد الحرّيّة إلا باختيار سجنها. وقال **سكوت**: «كانت تقبل وجود السيّد **دوشارييز** بقربها كما كانت تقبل وجود جبال الألب».

لكنّها كانت واعيّةً جدًّا بحيث أدركت أنّ هذا الاستسلام لم يكن سوى خدعةٍ؛ وانطوت على نفسها وأصبحت قاسيةً، وكان يأسها باديًا للعيان بشكلٍ مرعبٍ. وفتحت بابها للمهاجرين الّذين كانوا يتقاطرون على نيوشاتل، كانت تحميهم، وتساعدهم، وتوجّههم؛ وكتبت مؤلّفاتٍ أنيقةً مليئةً بالخيبة كان **هوبر** HÜber، وهو فيلسوفٌ ألمانيٌّ فقيرٌ، يترجمها؛ كانت تغدق نصائحها على حلقةٍ من الشابّات وتدرّس فلسفة **لوكه** Locke لصديقتها المفضّلة هنرييت؛ كانت تحب لعب دور القدر السعيد تجاه فلّاحي الجوار؛ متحاشيّة بعنايةٍ أكثر فأكثر مجتمع نيوشاتل، كانت تضيّق حياتها بكبرياءٍ؛ «لم تعد تبذل جهدًا في خلق الروتين وتحمّله. حتّى تصرّفاتها المفعمة بالطيبة كان فيها شيءٌ مخيفٌ، لفرط ما كان يمليها برود أعصابٍ جامدٌ.. كانت تبدو لمن يحيطون بها كخيالٍ يمرّ في غرفةٍ فارغةٍ[158]». في مناسباتٍ نادرةٍ ـ زيارة مثلًا ـ كانت شعلة الحياة تستيقظ. ولكنّ «السنوات كانت تمرّ قاحلةً. كان السيّد والسيّدة **دوشاريير** يتقدّمان في السنّ جنبًا إلى جنبٍ، يفرّق بينهما عالمٌ بأكمله، وكان أكثر من زائرٍ يطلق تنهيدة ارتياحٍ لدى خروجه من المنزل، كان لديه انطباعٌ بأنّه يخرج من قبرٍ مغلقٍ... كانت الساعة تعدّ الثواني، والسيّد **دوشاريير**، في الأسفل، يشتغل بحساباته؛ ومن المستودع يصعد صوت مدقّة الحبوب الرتيب... كانت الحياة تستمرّ رغم أنّ مدقّات الحبوب أفرغتها من محتواها... حياة أمورٍ صغيرةٍ، تضاءلت إلى أن بلغت حدّ سدّ أقلّ ثغرات النهار، ها هو ما وصلت إليه زليد هذه الّتي كانت تكره الضآلة».

ربما يقال إنّ حياة السيّد **دوشاريير** لم تكن أكثر بهجةً من حياة زوجته: لكنّه اختارها على الأقلّ؛ ويبدو أنّها كانت تلائم تفاهته. أو بالأحرى إن تخيّلنا رجلًا يتحلّى بفضائل حسناء زيولن الاستثنائيّة، من المؤكّد أنّه ما كان ليقبع في وحدة كولومبييه القاحلة. كان ليصنع مكانه في العالم الّذي عاش فيه وعمل وكافح. كم من نساءٍ ابتلعهنّ الزواج «وخسرتهنّ البشريّة» حسب تعبير **ستندال** Stendhal! قيل إنّ الزواج يصغّر الرجل: وهذا صحيحٌ غالبًا؛ ولكنّه يفني المرأة دائمًا تقريبًا. يوافق على ذلك **مارسيل بريفو** Marcel Prévost المدافع عن الزواج نفسه.

158- ج. سكوت G.Scott.

مئة مرّةٍ عندما كنت أصادف بعد عدة أشهرٍ أو عدّة سنواتٍ شابّةً عرفتها قبل أن تتزوّج، كنت أصعق لابتذال طبعها، وتفاهة حياتها.

وهي تقريبًا الكلمات نفسها الّتي نجدها بقلم صوفي تولستوي بعد زفافها بستة أشهرٍ.

وجودي تافهٌ جدًا: إنّه موتٌ. بينما هو لديه حياةٌ مليئةٌ، حياةٌ داخليّةٌ، موهبةٌ وخلودٌ. (1863.12.23).

قبل بضعة أشهرٍ، أطلقت شكوىً أخرى:

كيف تستطيع امرأةٌ أن تكتفي بالجلوس طول النهار وبيدها إبرةٌ، وان تعزف البيانو، وتبقى وحيدةً، وحيدةً مطلقًا، إن كانت تفكّر أنّ زوجها لا يحبّها وأنزلها دائمًا إلى مرتبة العبوديّة؟ (9 أيّار 1863).

بعدِ اثنتي عشرة سنةً، كتبت هذه الكلمات الّتي ما زال عددٌ كبيرٌ من النساء الآن يوافقن عليها (1875.10.22):

اليوم، غدًا، وبعد شهورٍ، وبعد سنواتٍ، سيكون الوضع كما هو دائمًا. أستيقظ في الصباح وليست لديّ الشجاعة لمغادرة السرير. من سيساعدني على النشاط؟ ما الّذي ينتظرني؟ أجل، أعرف، سيأتي الطبّاخ ثم ستليه نيانيا. ثم سأجلس بصمتٍ وأتناول مطرّزاتي، ثم سأذاكر القواعد والتمارين لأولادي. وعندما يأتي المساء سأعود إلى التطريز بينما العمّة وبيير يلعبان بالورق دون كللٍ...

وتكرّر شكوى السيّدة برودون تمامًا نفس الشيء. كانت تقول لزوجها: «لديك أفكارك. وعندما تكون في عملك، عندما يكون الأولاد في المدرسة، ليس لديّ شيءٌ».

تعلّل المرأة نفسها في السنوات الأولى غالبًا بأوهامٍ، تحاول أن تُعجَب بزوجها دون شروطٍ، وأن تحبّه دون تحفّظٍ، وأن تشعر أنّه لا يستغني عنها هو والأولاد؛ ثم تتكشّف مشاعرها الحقيقيّة؛ وترى أنّ بإمكان زوجها الاستغناء عنها، وأنّ أولادها خُلِقوا لينفصلوا عنها: فهم جاحدون دومًا بشكلٍ أو بآخر. ولا يحميها المنزل من حرّيّتها الفارغة؛ وتجد نفسها وحيدةً، مهجورةً، ذاتًا؛ ولا تجد ما تفعله بنفسها. قد يساعدها الحنان والعادات كثيرًا، ولكنّها ليست

خلاصًا لها. لقد ذكرت كلّ الكاتبات الصادقات هذه الكآبة الّتي تسكن قلب «المرأة في الثلاثين»؛ إنها سمةٌ مشتركةٌ بين بطلات **كاترين مانسفيلد** Catherine Mansfield، **ودوروثي باركر**Dorothy Parker **وفيرجينيا وولف** Virginia Woolf. **سيسيل سوفاج** الّتي امتدحت الزواج والأمومة ببهجةٍ فائقةٍ في بداية حياتها عبّرت فيما بعد عن ضيقها. من الملاحظ أنّه لو قارنّا عدد حالات الانتحار لدى النساء العازبات بمثيلتها لدى المتزوّجات، نجد أنّ العازبات أقلّ شعورًا بالقرف من الحياة بين سنّ العشرين والثلاثين (خصوصًا من سنّ الخامسة والعشرين إلى الثلاثين) ولكن ليس في السنوات التالية. كتب **هالبواش**[159] Halbwachs: «أمّا بالنسبة للزواج، فهو يحمي المرأة في الأقاليم كما يفعل في باريس خصوصًا حتّى سنّ الثلاثين ولكنّ ذلك يخفّ تدريجيًّا في السنوات التالية».

مأساة الزواج ليس أنّه لا يؤمّن للمرأة السعادة الّتي يعد بها ـ فلا توجد ضمانةٌ للسعادة ـ ولكن أنّه يبترها، ويكرّسها للتكرار والرتابة. سنوات المرأة العشرون الأولى غنيّةٌ بشكلٍ مدهشٍ؛ تجتاز المرأة تجارب الطمث والجنس والزواج والأمومة؛ وتكتشف العالم ومصيرها. وعندما تصبح في العشرين من عمرها ربّة منزلٍ، مرتبطةً للأبد برجلٍ، وبين ذراعيها طفلٌ، هاهي حياتها وقد اكتملت للأبد.. فالنشاطات الحقيقيّة والعمل الحقيقيّ مخصّصان للرجل: ليس لها سوى انشغالاتٍ تكون متعبةً أحيانًا ولكنّها لا ترضيها أبدًا. لقد امتدحوا لها التخلّي والتفاني؛ ولكن يبدو لها غالبًا من العبث أن تكرّس نفسها «لرعاية شخصين عاديّين حتّى نهاية حياتهما». جميلٌ جدًّا أن ينسى المرء نفسه ولكن يجب أن يعرف من أجل من ومن أجل ماذا. والأسوأ أنّ تفانيها نفسه يبدو لحوحًا؛ ينقلب في نظر الزوج إلى استبدادٍ يحاول التملّص منه؛ ومع ذلك هو الّذي يفرضه على المرأة كمبرّرها الأعلى والوحيد؛ فعندما يتزوّجها يرغمها على أن تهبه نفسها بكاملها؛ لا يقبل الالتزام المتبادل أي منحها نفس الهديّة. تثير كلمة **صوفي تولستوي** السخط بالتأكيد: «أحيا من خلاله، ولأجله، وأطالب بالشيء نفسه لي»؛ لكنّ **تولستوي** كان يطالبها بالفعل بأن تحيا من أجله فقط ومن خلاله، وهو موقفٌ لا يبرّره إلّا المعاملة بالمثل. مخادعة الزوج هي ما يكرّس الزوجة لبؤسٍ يشكو

159- أسباب الانتحار، ص195-239. الملاحظة المذكورة تنطبق على فرنسا وسويسرا ولكن ليس على هنغاريا أو على أولدنبورغ.

فيما بعد أنّه ضحيّته شخصيًّا. وكذلك في السرير يريدها متأجّجةً وباردةً في الوقت نفسه، يريدها أن تمنح نفسها بشكلٍ كاملٍ ومع ذلك سلبيّةً؛ يريدها أن تمنحه الاستقرار وتبقيه حرًّا، وتؤمّن تكرار الأيام الرتيب وألّا تصيبه بالملل، أن تكون حاضرةً دومًا ولا تثقل عليه؛ يريدها كلّها له دون أن تخصّه؛ أن يعيش معها كزوجٍ ويبقى وحيدًا. وهكذا ما إن يتزوجها حتّى يخدعها. وتمضي حياتها تقيس أبعاد هذه الخيانة. وما زال قول د. هـ. **لورنس** عن الحبّ الجنسيّ صحيحًا عمومًا: اتّحاد شخصين مصيره الفشل إذا كان جهدًا يبذلانه ليكمّل واحدهما الآخر، ما يَفترض بترًا أصليًّا؛ يجب أن يكون الزواج اجتماع وجودين مستقلّين، وليس انسحابًا، أو إلحاقًا، ولا هروبًا، ولا علاجًا. هذا ما فهمته **نورا**[160] عندما قرّرت أنّها يجب أن تكون شخصًا قبل أن تكون زوجةً وأمًّا. يجب ألّا يعتبر الزوجان نفسهما مجموعةً، أو خليّةً مغلقةً، ولكن أن يندمج الفرد كما هو بمجتمعٍ يستطيع ضمنه أن يزدهر دون مساعدةٍ؛ عندها سيكون بإمكانه خلق صلاتٍ بسخاءٍ مع فردٍ آخر متطابقٍ أيضًا مع المجموعة، صلاتٍ قائمةٍ على الاعتراف بحرّيّتين.

هذا الثنائيّ المتوازن ليس طوباويًّا؛ توجد نماذج له، حتّى ضمن إطار الزواج أحيانًا، وغالبًا خارجه؛ يجمع البعض حبٌّ جنسيٌّ كبيرٌ يتركهم أحرارًا في صداقاتهم وأشغالهم؛ وتربط آخرين صداقةٌ لا تعوق حرّيتهم الجنسيّة؛ وبصورةٍ أندر هناك من يكونون أصدقاء وعشّاقًا في الوقت نفسه ولكن دون أن يبحث أحدهما في الآخر عن باعث حياته الحصريّ. هناك أشكالٌ كثيرةٌ ممكنةٌ في علاقات رجلٍ وامرأةٍ: في الزمالة، والمتعة، والثقة، والحنان، والتواطؤ، والحب، يستطيعان أن يكون أحدهما للآخر أكبر مصدرٍ خصبٍ ناله إنسانٌ للبهجة والغنى والقوّة. الأفراد ليسوا مسؤولين عن فشل الزواج: مؤسّسة الزواج ـ بخلاف ما يزعم **بونالد وكومت وتولستوي** ـ هي الفاسدة أصلًا. إعلان أنّ على رجلٍ وامرأةٍ لم يختارا بعضهما حتّى أن يكتفيا ببعضهما بكلّ الطرق وطول حياتهما لهو فظاعةٌ تولد بالضرورة النفاق والكذب والعدائيّة والتعاسة.

الشكل التقليديّ للزواج في طريقه للتغيّر: لكنّه ما زال يشكّل قمعًا يشعر به الزوجان

160- إبسن Ibsen، بيت الدمية.

بشكلٍ مختلفٍ. وإذا تناولنا فقط الحقوق المجرّدة الّتي يتمتّعان بها، فهما اليوم متساويان تقريبًا، يختاران بعضهما بحرّيّةٍ أكثر من السابق، ويمكنهما الافتراق بشكلٍ أسهل بكثيرٍ، وخصوصًا في أمريكا حيث الزواج شائعٌ؛ وهناك بين الزوجين فوارق أقلّ في السنّ والثقافة ممّا مضى؛ ويعترف الزوج بطيب خاطرٍ باستقلاليّة زوجته الّتي تطالب بها؛ ويحدث أن يتقاسما أعباء المنزل بالتساوي؛ وتسليتهما مشتركةٌ: التخييم والدرّاجة والسباحة إلخ... لا تمضي يومها تنتظر عودة الزوج: تمارس الريّاضة، وتنضمّ إلى جمعيّاتٍ، ونوادٍ، وتشغل نفسها في الخارج، حتّى أنّ لديها أحيانًا مهنةً صغيرةً تدرّ عليها بعض المال. كثيرٌ من الأسر الشابة تعطي انطباعًا بمساواةٍ تامّةٍ. لكنّ ذلك ليس سوى وهمٍ طالما احتفظ الرجل بمسؤوليّات الأسرة الاقتصاديّة. فهو الّذي يحدّد المسكن الزوجيّ تبعًا لمتطلّبات عمله: وهي تتبعه من الأقاليم إلى باريس، ومن باريس إلى الأقاليم، وإلى المستعمرات، وإلى الخارج؛ ويتحدّد مستوى الحياة تبعًا لإيراده؛ وينتظم وقع الأيام والأسابيع والسنة حسب انشغالاته؛ وتتعلّق العلاقات والصداقات بمهنته. وبما أنّه مندمجٌ بالمجتمع بصورةٍ أكثر إيجابيّةً من زوجته، فهو يحتفظ بإدارة الأسرة في المجالات الفكريّة والسيّاسيّة والأخلاقيّة. والطلاق بالنسبة للمرأة ليس سوى إمكانيّةٍ مجرّدةٍ إن لم تكن لديها وسيلة كسب عيشها بنفسها: إن كانت «النفقة» في أمريكا عبئًا ثقيلًا على الرجل، فوضع المرأة في فرنسا، والأم المهجورة مع نفقةٍ زهيدةٍ، فضيحةٌ بحدّ ذاته. لكن ينبع عدم المساواة العميق من أنّ الرجل يكتمل فعليًّا بعمله أو نشاطه بينما بالنسبة للزوجة، ليس للحرّيّة سوى وجهٍ سلبيٍّ: فوضع الشابّات الأمريكيّات وسواهنّ يذكّرنا بوضع الرومانيّات المتحرّرات في فترة الانحطاط. رأينا أنّه كان لدى هاته الأخيرات الخيار بين نوعين من السلوك: تابع بعضهنّ نمط حياة جدّاتهنّ وفضائلهنّ، وأمضت الأخريات وقتهنّ في هرجٍ عبثيٍّ؛ وكذا ظلّ عددٌ من النساء الأمريكيّات «ربّات منزلٍ» بالطريقة التقليديّة؛ ومعظم الأخريات لا يفعلن سوى تبديد قواهنّ ووقتهنّ. في فرنسا، حتّى وإن كان الزوج حسن النيّة وكانت المرأة الشابّة أمًّا فما زالت أعباء المنزل تثقل كاهلها كما في الماضي.

من الشائع القول بأنّ المرأة استعبدت الرجل في الأسر الحديثة، وخصوصًا في الولايات المتّحدة الأمريكيّة. وهذا ليس بجديدٍ. منذ عصر الإغريق اشتكى الذكور من طغيان كزانتيب؛

والصحيح أنّ المرأة تتدخّل في المجالات الّتي كانت ممنوعةً عليها فيما مضى؛ أعرف مثلًا زوجات طلّابٍ بذلن جهدًا فائقًا لإيصال أزواجهنّ إلى النجاح؛ فقد نظّمن وقته، ونظامه، وراقبن عمله؛ وحرمنه من كلّ تسليةٍ حتّى كدن يقفلن عليه الباب بالمفتاح. صحيحٌ أيضًا أنّ الرجل أضعف من ذي قبل أمام هذا الاستبداد، ويعترف للمرأة بحقوقٍ مجرّدةٍ ويفهم أن ليس بإمكانها تحقيقها إلّا عبره: وعلى حسابه يعوّض العجز والعقم الّذي تعاني منه المرأة؛ وكي تتحقّق في اتّحادهما مساواةٌ ظاهرةٌ، يجب أن يكون هو من يمنح أكثر بما أنّه يملك أكثر. ولكن إن تلقّت، وأخذت، وطلبت، فلأنّها الأكثر فقرًا تحديدًا. هنا تطبّق جدليّة السيّد والعبد بشكلٍ واضحٍ: عندما نَضطهِدُ نُضطَهَدُ. الذكور مقيّدون بسيادتهم نفسها؛ فلأنّهم يكسبون المال وحدهم تطلب الزوجة شيكاتٍ، ولأنّهم يمارسون وحدهم مهنةً تفرِض عليهم النجاح فيها، ولأنّهم يجسّدون التسامي وحدهم تريد أن تسرقه منهم بانتحال مشاريعهم ونجاحاتهم. وبالعكس، يظهر التسلّط الّذي تمارسه المرأة تبعيّتها: تعرف أنّ نجاح الثنائيّ ومستقبله وسعادته ومبرّره يعتمد على الآخر؛ فعندما تحاول بشدّةٍ إخضاعه لإرادتها، فلأنّها تستلب فيه. وتجعل من ضعفها سلاحها؛ لكنّ الواقع أنّها ضعيفةٌ. والعبوديّة الزوجيّة يوميّةٌ ومزعجةٌ أكثر للزوج؛ لكنّها أعمق بالنسبة للزوجة؛ فالزوجة الّتي تبقي زوجها بقربها ساعاتٍ لأنّها تشعر بالملل تضايقه وتثقل عليه؛ ولكن في نهاية الأمر يستطيع أن يستغني عنها بسهولةٍ أكبر مما تستطيع هي فعله؛ إن هجرها ستتحطّم حياتها هي. الاختلاف الكبير هو أنّ التبعيّة لدى المرأة داخليّةٌ: إنها عبدةٌ حتّى عندما تتصرّف بحرّيّةٍ ظاهرةٍ؛ بينما الرجل مستقلٌّ أساسًا ويُقيَّد من الخارج. إن كان لديه انطباعٌ بأنّه الضحيّة، فلأنّ الأعباء الّتي يحملها هي الأكثر وضوحًا: فالمرأة تعيش على حسابه كطفيليّةٍ؛ لكنّ الطفيليّ ليس سيّدًا منتصرًا. في الحقيقة، رغم أنّ الذكور والإناث ليسوا أبدًا ضحايا بعضهم البعض لكنّهم جميعًا ضحايا النوع، وبنفس الشكل يخضع الزوجان معًا لاستبداد مؤسّسةٍ لم يبتدعاها. إن قلنا إنّ الرجال يقمعون النساء يستنكر الزوج؛ فهو من يشعر أنّه المقموع: وهو كذلك؛ لكنّ الواقع أنّ التشريع الذكوريّ، والمجتمع الّذي أعدّه الذكور ولمصلحتهم، هو من حدّد الوضع الأنثويّ بشكلٍ أصبح الآن مصدر عذابٍ للجنسين.

يجب تغيير الوضع من أجل مصلحتهما المشتركة، بمنع أن يكون الزواج بالنسبة للمرأة

«مهنةً». الرجال الّذين يصرّحون بأنّهم ضدّ القضيّة النسويّة بحجّة أنّ «النساء مزعجاتٌ بما فيه الكفاية هكذا» يفكّرون دون منطقٍ: لأنّ الزواج يجعل منهنّ «سرعوفةً راهبةً»، «ومصّاصات دماءٍ»، «وسمًّا»، يجب تحويل الزواج وبالتالي وضع المرأة عمومًا. تثقل المرأة على الرجل بهذا القدر لأنّه ممنوعٌ عليها أن ترتاح على نفسها: سيتحرّر عندما يحرّرها، أي عندما يعطيها شيئًا تعمله في هذا العالم.

هناك الآن شابّاتٌ يحاولن اكتساب هذه الحرّيّة الإيجابيّة؛ ولكن اللّواتي يثابرن طويلًا على الدراسة أو المهنة نادراتٌ: يعلمن غالبًا أنّهنّ سيضحّين بمكاسب عملهنّ لصالح حياة الزوج المهنيّة؛ فهنّ لا يقدّمن للأسرة سوى راتبٍ مساعدٍ؛ ولا يرتبطن إلّا بشكلٍ خجولٍ بمؤسّسةٍ لا تنتزعهنّ من العبوديّة الزوجيّة. حتّى تلك اللّواتي لديهنّ مهنةٌ مهمّةٌ لا ينلن منها نفس المكاسب الاجتماعيّة الّتي ينالها الرجال: زوجات المحامين مثلًا، لديهنّ الحقّ في نفقةٍ لدى موت زوجهنّ؛ ورُفِض دفع نفقةٍ مشابهةٍ لأزواج المحاميات في حال الوفاة. ما يعني أنّ المرأة الّتي تعمل لا تُعتَبر معيلةً للأسرة بقدر الزوج. هناك نساءٌ يجدن في مهنتهنّ استقلالًا حقيقيًا؛ ولكنّ العمل «في الخارج» لا يمثّل بالنسبة للعديدات سوى تعبٍ إضافيٍّ. عدا عن أنّ ولادة طفلٍ تجبرهنّ غالبًا على البقاء في دورهنّ كأمّهاتٍ؛ من الصعب جدًّا الآن التوفيق بين العمل والأمومة.

حسب التقاليد، الطفل تحديدًا هو من يجب أن يؤمّن للمرأة استقلالًا راسخًا يعفيها من تكريس نفسها لأيّة غايةٍ أخرى. إن لم تكن فردًا مكتملًا بصفتها زوجةً، فهي تصبح كذلك بصفتها أمًّا: الطفل هو بهجتها ومبرّر وجودها. ومن خلاله تكمل تحقيق ذاتها جنسيًّا واجتماعيًّا؛ من خلاله إذًا تأخذ مؤسّسة الزواج معناها وتبلغ هدفها. فلندرس إذًا هذه المرحلة السامية من مراحل تطوّر المرأة.

الفصل السادس

الأم

تكمل المرأة قدرها الفزيولوجيّ بشكلٍ كاملٍ من خلال الأمومة؛ إنّها نزعتها «الطبيعيّة» بما أنّ كلّ عضويّتها موجّهةٌ نحو إبقاء النوع. لكنّنا قلنا قبلًا أنّ المجتمع البشريّ غير متروكٍ أبدًا للطبيعة. وخصوصًا منذ حوالي قرنٍ، إذ لم تعد الوظيفة الإنجابيّة محكومةً بالصدفة البيولوجيّة وحدها، بل تابعةً للإرادة[161]. لقد تبنّت بعض البلدان رسميًّا طرقًا محدّدةً «لتحديد النسل»؛ وفي البلاد الخاضعة لتأثير الكاثوليكيّة، يتّم ذلك بشكلٍ مستترٍ: فإما يلجأ الرجل إلى إيقاف الإيلاج قبل القذف، أو أن تخلّص المرأة جسمها من النطاف بعد ممارسة الجنس. ويكون هذا غالبًا مصدر صراعٍ وسخطٍ بين العاشقين أو الزوجين؛ فالرجل يثور لأنّ عليه أن يراقب متعته؛ و المرأة تكره عبء الغسيل؛ هو يلوم المرأة لأنّ بطنها شديد الخصوبة، وتخشى هي بذور الحياة هذه الّتي يخاطر بوضعها فيها. وينهار الاثنان إذا «علقت» المرأة رغم الاحتياطات. وهذه الحال شائعةٌ في البلدان الّتي تكون فيها أساليب منع الحمل بدائيّةً. عندئذٍ تأخذ معارضة الطبيعة شكلًا خطيرًا هو الإجهاض. وهو ممنوعٌ أيضًا في البلدان الّتي

161- راجع الجزء الأول، القسم الثاني «التاريخ»، الفصل الخامس، حيث نجد سردًا تاريخيًّا لمسألة «تحديد النسل» والإجهاض.

تسمح «بتحديد النسل»، ولديه فرصٌ أقلّ بكثيرٍ ليجرى فيها. ولكنّه في فرنسا عمليّةٌ تضطرّ إليها العديد من النساء وترعب الحياة الغراميّة لمعظمهنّ.

يلجأ المجتمع البورجوازيّ إلى النفاق في موضوع الإجهاض أكثر من معظم المواضيع الأخرى: فالإجهاض جريمةٌ تثير الاشمئزاز ومن غير اللائق الإشارة إليه. إذا وصف كاتبٌ مباهج وآلام امرأةٍ نفساء فهذا ممتازٌ؛ أمّا إن تحدّث عن إمرأةٍ مُجهضة فيُتَّهم بالتمرّغ في القذارة وبوصف البشريّة من زاويةٍ دنيئةٍ: غير أنّ هناك في فرنسا كلّ عامٍ عددًا من الإجهاضات بقدر الولادات. وهو ظاهرةٌ منتشرةٌ لدرجة أنّه يجب اعتبارها إحدى المخاطر الّتي يفرضها وضع المرأة. مع ذلك يصرّ القانون على اعتباره جنحةً: ويفرض أن تتمّ هذه العمليّة الدقيقة في السرّ. الحجج المقدّمة ضدّ تشريع الإجهاض غير معقولةٍ البتّة. إذ يزعمون أنّه عمليّةٌ خطيرةٌ. لكنّ الأطبّاء الصادقين يعترفون مع الدكتور **ماغنوس هيرشفلد** Magnus Hirschfeld «بأنّ الإجهاض إذا مورس بيد طبيبٍ أخصّائيٍّ حقيقيٍّ، في عيادةٍ ومع الإجراءات الوقائيّة الضروريّة، لا يتضمّن هذه الأخطار الجمّة الّتي يؤكّد قانون العقوبات وجودها». بل إنّه على العكس يعرّض المرأة لأخطارٍ جسيمةٍ بصورته الحاليّة. فنقص كفاءة المُجهِضات والشروط الّتي يعملن ضمنها تؤدّي إلى العديد من الحوادث الّتي قد تكون قاتلةً. وتؤدّي الأمومة القسريّة إلى خروج أطفالٍ هزيلين إلى العالم، سيعجز أهلهم عن إطعامهم، وسيصبحون ضحايا الرعاية الاجتماعيّة أو «أطفالٍ شهداءٍ». يجب أن نلاحظ مع ذلك أنّ المجتمع الّذي يستبسل في الدفاع عن حقوق الجنين لا يهتمّ بالأطفال بعد ولادتهم؛ فيلاحق المُجهِضات بدل أن يدأب على إصلاح هذه المؤسّسة الفاضحة المسمّاة الرعاية الاجتماعيّة؛ ويطلق سراح المسؤولين الّذين يسلمون الأيتام لجلّادين؛ ويغضّ الطرف عن الاستبداد الفظيع الّذي يمارسه جلّادو الأطفال في «بيوت تأهيلٍ» أو في مساكن خاصّةٍ؛ ويرفض الاعتراف بأنّ الجنين يخصّ المرأة الّتي تحمله، ويقبل بالمقابل أن يكون الطفل ملك والديه؛ في نفس الأسبوع، رأينا جرّاحًا ينتحر لأنّه كان متّهمًا بممارسة الإجهاض وأبًا كان قد ضرب ابنه حتى شارف على الموت يُحكَم عليه بثلاثة شهور سجنٍ مع إيقاف التنفيذ. مؤخّرًا ترك أبٌ ابنه يموت من الخنّاق لقلّة العناية؛ ورفضت امرأةٌ استدعاء طبيبٍ لعلاج ابنتها لأنها مستسلمةٌ للعناية الإلهيّة دون قيدٍ ولا شرطٍ: في المقبرة، رماها أولادٌ بالحجارة؛

ولدى استنكار بعض الصحفيّين احتجّ حشدٌ من الرجال الشرفاء بأن الأطفال ملك الأهل، وأنّ كلّ رقابةٍ خارجيّةٍ عليهم مرفوضةٌ. وتقول صحيفة «هذا المساء Ce Soir» إنّ هناك «مليون طفلٍ في خطر»، وقالت صحيفة «فرانس سوار»: «إنّ خمسمئة ألف طفلٍ في خطرٍ جسديٍّ أو معنويٍّ». وليس لدى المرأة العربيّة في شمال أفريقيا إمكانيّة إجهاض نفسها: يموت سبعة أو ثمانية أطفالٍ من أصل عشرةٍ تنجبهم ولا أحد يهتمّ لذلك لأنّ الولادات الشاقّة وغير المعقولة قتلت شعور الأمومة. إذا كانت الأخلاق تستفيد من ذلك فماذا نقول عن هذه الأخلاق؟ علينا أن نضيف أنّ أكثر الرجال احترامًا للحياة الجنينيّة هم أيضًا أولئك الّذين يستعجلون أكثر من سواهم في الحكم على بالغين بالموت في الحرب.

لا قيمة للأسباب العمليّة الّتي استندوا إليها ضدّ الإجهاض القانوني؛ أمّا بالنسبة للأسباب الأخلاقيّة، فهي تنحصر بالحجّة الكاثوليكيّة القديمة: للجنين روحٌ نحرمها من الجنّة إن أزهقناها دون عمادةٍ. من الملاحظ أنّ الكنيسة تسمح أحيانًا بموت الرجال المكتملين: المحاربين أو المحكومين بالإعدام؛ وتحتفظ بإنسانيّةٍ متشدّدةٍ فيما يخصّ الجنين. إنّه لم يُفتَدى بالعماد: ولكن في زمن الحروب المقدّسة ضدّ الكفّار لم يكن هؤلاء كذلك معمّدين وبالتالي لا خلاص لهم ومع ذلك شجعت الكنيسة هذه المجازر. ولم تشمل الرحمة ضحايا محاكم التفتيش، ولا المجرم الذي يعدم ولا الجنود الموتى في ساحة المعركة. في جميع الأحوال تفوّض الكنيسة في ذلك رحمة الله؛ وتقبل ألّا يكون الرجل في يدها سوى أداةٍ وأن يكون خلاص الروح أمرًا بينها وبين الله. لماذا إذًا نمنع الله من استقبال روح الجنين في جنّته؟ إذا كان مجمع الأساقفة يسمح بذلك، فيجب أن يفعل كما فعل في حقبة المجازر الدينيّة ضدّ الهنود الحمر. في الحقيقة نصطدم هنا بتقليدٍ قديمٍ عنيدٍ لا علاقة له بالأخلاق. يجب أن نأخذ أيضًا بالاعتبار الساديّة الذكوريّة الّتي سبق أن تحدّثت عنها. الكتاب الّذي أهداه الدكتور روي Roy عام 1943 لبيتان Pétain نموذجٌ ساطعٌ على ذلك؛ إنّه آيةٌ في سوء النيّة. يلحّ بلهجةٍ أبويّةٍ على مخاطر الإجهاض؛ ولكن لا شيء يبدو له صحّيًا أكثر من العمليّة القيصريّة. يريد أن يُعتبَر الإجهاض جريمةً وليس جنحةً؛ ويتمنّى أن يُمنع حتّى عندما يكون مستطَبًّا، أي عندما يشكّل الحمل خطرًا على حياة الأم أو صحّتها: ويعلن أنّ من غير الأخلاقيّ أن نختار بين حياةٍ وأخرى، ويتسلّح بهذه الحجّة ناصحًا بالتضحية بالأم.

ويعلن أنّ الجنين لا يعود للأم، فهو كائنٌ مستقلٌّ. مع ذلك، عندما يشيد نفس هؤلاء الأطباء «العباقرة» بالأمومة، يؤكّدون أنّ الجنين جزءٌ من جسد الأم، وأنّه ليس طفيليًّا يتغذى على حسابها. نرى كم ما يزال العداء للنسويّة حيًّا عبر هذا الاستبسال الّذي يبديه بعض الرجال في رفض كلّ ما يمكن أن يحرّر المرأة.

غير أنّ القانون الّذي يكرّس العديد من النساء الشابّات للموت والعقم والمرض عاجزٌ تمامًا عن تأمين زيادةٍ في نسبة المواليد. ويتفق أنصار وأعداء الإجهاض القانوني على نقطةٍ، هي الفشل الجذريّ للقمع. تبعًا للأساتذة **دوليري** Doleris، **وبالتازار** Balthazard، **ولاكاسانيه** Lacassagne، كان في فرنسا خمسمئة ألف حالة إجهاضٍ في السنة في حوالي 1933؛ وقام الدكتور روي بإحصاءٍ عام 1938 قدّر فيه العدد بمليون. عام 1941 تردّد الدكتور **أوبرتان** Aubertin من بوردو بين ثمانمئة ألفٍ ومليونٍ. ويبدو هذا الرقم الأخير الأقرب للحقيقة. في مقالٍ نشرته صحيفة كومبا Combat يعود تاريخه إلى آذار 1948، كتب الدكتور **ديبلا** Desplas ما يلي:

> **أصبح الإجهاض معتادًا... وفشل القمع عمليًّا... ضمن مديريّة السين، عام 1943، أفضى 1300 تحقيقٍ إلى توجيه 750 اتّهامًا أوقف منها 360 امرأةً، وحكم على 513 بالسجن بين أقلّ من سنةٍ وأكثر من خمس سنواتٍ، وهذا قليلٌ بالنسبة إلى 15000 حالة إجهاضٍ مفترضةً في المديريّة. على الأرض أحصيت 10000 دعوى.**

ويضيف:

> **ما يدعى الإجهاض الجنائيّ في كل الطبقات الاجتماعيّة يساوي سياسات منع الحمل المقبولة من مجتمعنا المنافق. ثلثا المجهَضات نساءٌ متزوّجاتٌ... ويمكن تقدير أنّ عدد الإجهاضات في فرنسا يماثل تقريبًا عدد الولادات.**

وينتهي كثيرٌ من الإجهاضات بموت المجهَضة بما أن العمليّة تتمّ غالبًا في ظروفٍ كارثيّةٍ.

> **تصل أسبوعيًا جثّتا امرأتين مجهَضتين إلى معهد الطبّ الشرعي في باريس؛ ويؤدّي عددٌ كبيرٌ من الإجهاضات إلى أمراضٍ دائمةٍ.**

قيل أحيانًا إنّ الإجهاض كان «جريمةً طبقيّةً» وهذا صحيحٌ في جزءٍ كبيرٍ منه. فممارسة

منع الحمل منتشرةٌ أكثر بكثيرٍ في الطبقة البورجوازيّة؛ وجود المرحاض يجعل التطبيق أكثر سهولةً ممّا لدى العمّال أو الفلاحين المحرومين من الماء الجاري؛ والشابّات البورجوازيّات أكثر حذرًا من سواهنّ؛ والطفل يمثّل عبئًا أقلّ للمتزوجين، ومن بين أكثر أسباب الإجهاض شيوعًا الفقر وأزمة السكن واضطرار المرأة للعمل خارج المنزل. ويبدو أنّ الزوجين يقرّران غالبًا تحديد الولادات بعد طفلين؛ بحيث أنّ المجهَضة ذات الملامح القبيحة هي أيضًا هذه الأم الرائعة الّتي تهدهد بين ذراعيها ملاكين أشقرين: المرأة نفسها. في وثيقةٍ نُشِرت في مجلّة «الأزمنة الحديثة Les Temps modernes » في أكتوبر/ تشرين الأول 1945، تحت اسم «صالة عموميّة»، تصف السيّدة جنفييف سارو Geneviève Sarreau قاعة مستشفى تصادف أنّها أقامت فيها وحيث خضع كثيرٌ من المريضات لتجريف رحمٍ: خمس عشرة من أصل ثماني عشرة تعرّضن لإسقاطٍ وكان محرّضًا في أكثر من نصف الحالات. رقم 9 كانت زوجة حمّالٍ؛ أنجبت من زواجين عشرة أطفالٍ أحياء لم يبق منهم سوى ثلاثةٍ، وأسقطت سبع مرّاتٍ، خمسٌ منها محرّضةٌ؛ كانت تستخدم بملء إرادتها طريقة «القضيب المعدنيّ» الّتي كانت تشرحها مزهوّةً، وكذلك حبوبٌ كانت تذكر اسمها لرفيقاتها. الرقم 16، في السادسة عشرة من عمرها، متزوّجةٌ، كانت لديها مغامراتٌ وكانت تعاني من التهابٍ في البوقين تالٍ لإجهاضٍ. رقم 7، في الخامسة والثلاثين، كانت تشرح وضعها: «أنا متزوّجةٌ من عشرين سنةً، لم أحبّه أبدًا: عشرون عامًا تصرّفت خلالها كما يجب. منذ ثلاثة أشهرٍ أصبح لدي حبيبٌ. مرّةً واحدةً في غرفة فندقٍ. وأصبحت حاملًا... بالتالي كان عليّ أن أتصرّف، أليس كذلك؟ تخلّصت منه. لا أحد يعلم شيئًا، لا زوجي ولا... هو. الآن انتهى الأمر؛ لن أفعلها ثانيةً أبدًا. يتألّم المرء كثيرًا... لا أعني التجريف... لا، لا، هذا شيءٌ آخر؛ إنّه... إنّه الكرامة، كما ترى». رقم 14 أنجبت خمسة أطفالٍ خلال خمس سنواتٍ؛ بدت هرمةً في الأربعين. كان لدى الجميع استسلامٌ مبعثه اليأس، وكنّ يقلن بحزنٍ: «خُلِقت المرأة لتتعذّب».

تختلف جسامة هذه المحنة حسب الظروف. فالمرأة المتزوّجة في وسطٍ بورجوازيٍّ أو التّي تعيش برفاهيةٍ، يدعمها رجلٌ، ولديها المال والمعارف، تتمتّع بامتيازاتٍ أكبر؛ فهي تأخذ تصريحًا بإجهاضٍ «علاجيٍّ» بسهولةٍ أكبر بكثيرٍ من سواها؛ وعند الاقتضاء، لديها الإمكانيات لتقوم برحلةٍ إلى سويسرا حيث يتساهلون بالإجهاض؛ وهو عمليّةٌ سليمةٌ عندما

يقوم بها أخصّائيٌّ بضمانة كلّ الشروط الصحّيّة ضمن ظروف الطبّ النسائيّ الحاليّة، واللّجوء إلى التخدير إن اقتضى الأمر؛ وفي حال عدم وجود تواطؤٍ رسميٍّ، تجد العون من مصادر شبه رسميّةٍ مضمونةٍ بنفس القدر: فهي تعرف العناوين اللازمة، ولديها ما يكفي من المال لتدفع لقاء عنايةٍ جيّدةٍ وفي وقتٍ مبكّرٍ من الحمل؛ وتُعامل باهتمامٍ؛ تدّعي بعض هاته المحظوظات أنّ هذا الحادث الصغير مفيدٌ للصحّة ويمنح البشرة تألّقًا. بالمقابل لا توجد محنةٌ تثير الشفقة أكثر من محنة شابّةٍ وحيدةٍ دون مالٍ تجد نفسها متّهمةً «بجريمةٍ لتمحو «غلطةً» لن يسامحها عليها محيطها: هذا يعني في فرنسا قرابة ثلاثمئة مستخدمةٍ وسكرتيرةٍ وطالبةٍ وعاملةٍ وفلّاحةٍ سنويًّا ؛ ما تزال الأمومة غير الشرعيّة عارًا فظيعًا بحيث تفضّل الكثيرات الانتحار أو قتل الطفل على أن يكنّ أمهاتٍ عازباتٍ: أي أنّ أيّة عقوبةٍ لا تستطيع منعهنّ من «قتل الطفل». هناك حالةٌ عاديّةٌ نصادف الآلاف منها هي حالةٌ سردها بالتفصيل الدكتور ليبمان[162] Liepmann باحت له بها سيّدةٌ من برلين، ابنةٌ غير شرعيّةٍ لحذّاءٍ وخادمةٍ:

> **تعرّفت على ابن جارةٍ يكبرني بعشرة أعوامٍ... كانت المداعبات جديدةً عليّ بحيث تركته يفعل. على كلّ حالٍ لم يكن ذلك حبًّا إطلاقًا.مع ذلك، تابع في تدريبي بشتّى الأساليب، أعطاني كتبًا لأقرأها حول المرأة؛ وفي النهاية منحته عذريّتي. وبعد انتظار شهرين عندما قبلت كمعلّمة في مدرسة روضة شبوتز كنت حاملًا. لم يحدث لديّ طمثٌ البتة خلال شهرين آخرين. كتب لي الّذي أغواني أنّه يجب عليّ حتمًا أن أصلح الوضع بأن أشرب البترول وآكل الصابون الأسود. لم يعد بإمكاني أن أصف لك الآن ما قاسيته... واضطررت وحدي لإنهاء هذه المأساة. دعاني الخوف من إنجاب طفلٍ إلى إجراء هذا الشيء الفظيع. عندئذٍ تعلّمت أن أكره الرجل.**

عندما علم قسّ المدرسة بالقصّة من رسالةٍ ضلّت طريقها، تلا عليها موعظةً طويلةً وافترقت عن الشاب؛ ونعتوها بالغنمة الجرباء.

> **كأنّي عشت ثمانية عشر شهرًا في إصلاحيّةٍ.**

ثم أصبحت خادمة أطفالٍ لدى أستاذٍ وبقيت هناك أربع سنواتٍ.

162- الشباب والجنس.

في ذلك الوقت، تعرّفت على سيّدٍ محترمٍ. كنت سعيدةً لأنّي أحبّ رجلًا حقيقيًا. أعطيته مع حبّي كلّ شيءٍ. وكانت نتيجة علاقاتنا أن وضعتُ في الرابعة والعشرين من عمري صبيًا موفور الصّحة. عمر الطفل الآن عشر سنواتٍ. لم أر الأب ثانيةً منذ تسعة أعوامٍ ونصف... بما أنّي كنت أجد مبلغ ألفين وخمسمئة مارك غير كافٍ وبرفضه من جهته إعطاء اسمه للطفل فقد أنكر أبوّته، وانتهى كلّ شيءٍ بيننا. ولم يعد أيّ رجلٍ يثير رغبتي.

وغالبًا ما يكون مغوي المرأة هو من يقنعها بالتخلّص من الطفل. فإمّا أنّه هجرها أصلًا عندما حملت، أو أنّها تريد أن تخفي عنه مصيبتها بمروءةٍ، أو أنها لا تجد لديه عونًا لها. أحيانًا تشعر بأسفٍ وهي ترفض الطفل؛ إمّا لأنّها لا تقرّر على الفور أن تتخلّص منه، لأنّها لا تعرف أيّ عنوانٍ، أو لأنّها لا تملك المال وأضاعت وقتها في تجربة عقاراتٍ غير ناجعةٍ؛ وبلغت الشهر الثالث، أو الرابع، أو الخامس من حملها، فعندما تقدم عندها على التخلّص منه يكون الإجهاض أشدّ خطرًا بكثيرٍ، وأكثر إيلامًا، وأكثر توريطًا منه خلال الأسابيع الأولى. تعرف المرأة ذلك؛ وتحاول التخلّص منه قلقةً يائسةً. في الريف، استخدام المسبر غير معروفٍ البتّة؛ الفلاحة الّتي «أخطأت» توقع نفسها من على سلّم السقيفة، ترمي بنفسها من أعلى السلّم، وغالبًا ما تؤذي نفسها دون نتيجةٍ؛ كما يحدث أن نجد في السياجات، وفي الدغل، والمراحيض، جثثًا صغيرةً مخنوقةً. في المدينة، تساعد النسوة بعضهنّ. ولكن ليس من السهل دومًا إيجاد «مُجهِضةٍ»، وكذلك جمع المبلغ المطلوب؛ تطلب الحامل النجدة من صديقةٍ أو تجري العمليّة بنفسها؛ هاته النسوة اللّواتي أصبحن جرّاحاتٍ بالصدفة قليلات الكفاءة غالبًا؛ يسارعن إلى ثقب أنفسهنّ بمسبرٍ و سنّارة التريكو؛ روى لي طبيبٌ أنّ طبّاخةً جاهلةً أرادت حقن خلٍّ في رحمها، فحقنته في المثانة، ما سبّب لها آلامًا مبرّحةً. إذا حُرِّض الإجهاض فجأةً ولم يتمّ بعنايةٍ، وهو غالبًا شاقٌّ أكثر من الولادة الطبيعيّة، تصاحبه اضطراباتٌ عصبيّةٌ قد تبلغ حدود نوبة الصرع، وتحدث أحيانًا أمراضًا داخليّةً خطيرةً ويمكن أن تثير نزفًا مميتًا. روت كوليت في كتاب «Gribiche»، الاحتضار الطويل لراقصةٍ صغيرةٍ في مسرح المنوّعات تُركت ليدي أمّها الجاهلتين؛ قالت إنّه علاجٌ معتادٌ، وهو شرب محلول صابونٍ مركّزٍ ثم الركض ربع ساعةٍ: بمثل هذه العلاجات، غالبًا ما يُقتل الطفل عن

طريق قتل الأم. حدّثوني عن ضاربة آلةٍ كاتبةٍ ظلّت أربعة أيّامٍ في غرفتها، سابحةً بدمها، دون طعامٍ أو شرابٍ، لأنّها لم تجرؤ على أن تنادي أحدًا. من الصعب تخيّل شعورٍ بالهجران أصعب من ذاك الّذي يختلط فيه تهديد الموت بتهديد الجريمة والعار. تكون المحنة أقلّ فظاظةً لدى النسوة الفقيرات المتزوّجات اللّواتي يتصرّفن بالاتّفاق مع زوجهنّ ودون أن تعذّبهنّ وساوس لا طائل منها: كانت إحدى المساعدات الاجتماعيّات تقول لي إنهنّ في «المنطقة» يتبادلن النصائح، ويعرن بعضهنّ أدواتٍ ويدعمن بعضهنّ ببساطةٍ كما لو كنّ يستأصلن ثفنًا[163] من القدم. لكنّهنّ يعانين من آلامٍ قاسيةٍ؛ في المستشفيات يرغَمون على استقبال المرأة الّتي بدأ لديها الإسقاط؛ ولكنّهم يعاقبونها بساديّةٍ رافضين إعطاءها أيّ مسكّنٍ أثناء الآلام وأثناء عمليّة التجريف النهائيّة. وكما نرى ضمن الشهادات الّتي جمعها ج. سارو G. Sarreau، لا يثير هذا الاضطهاد حتّى استنكار النساء المعتادات كثيرًا على الألم: لكنّهن حسّاساتٌ تجاه الإهانات الّتي يشبعونهنّ بها. كون العمليّة المجراة مخالفة للقانون وجنائيّة يزيد أخطارها ويمنحها صفةً كريهةً ومقلقةً. ويأخذ الألم والمرض والموت شكل عقابٍ، ونعرف المسافة الفاصلة بين الألم والتعذيب، وبين الحادثِ والعقاب؛ تعتبر المرأة نفسها مذنبةً عبر المخاطر الّتي تتعرض لها، الصعب هنا هوهذا التفسير للألم والغلطة.

تشعر النساء بهذا الشكل الأخلاقي للمأساة بشكلٍ متراوح الشدّة حسب الظروف. بالنسبة للنساء المتمتّعات بحرّيتهنّ، بفضل ثروتهنّ، ووضعهنّ الاجتماعيّ، والوسط المتحرّر الّذي ينتمين إليه، وبالنسبة لّلواتي علّمهنّ الفقر أو البؤس احتقار الأخلاقيّات البورجوازيّة، لا تُطرح المسألة البتّة: فهناك لحظةٌ مزعجةٌ يجب اجتيازها ويجب أن تمرّ، هذا هو كلّ شيءٍ. لكنّ العديد من النسوة تلجمهنّ أخلاقيّاتٌ تبقى في نظرهنّ محترمةً مع أنّه ليس باستطاعتهنّ الالتزام بها في سلوكهنّ؛ فيحترمن ضمنًا القانون الّذي يخرقنه ويتألّمن لشعورهنّ بارتكاب جريمةٍ؛ ويعانين أكثر أيضًا من اضطرارهنّ لإيجاد شركاء. يخضعن أولًا لإذلال الاستجداء: يستجدين عنوانًا، وعناية الطبيب، والقابلة؛ ويخاطرن بالتعرّض للتوبيخ والاحتقار؛ أو يعرّضن أنفسهنّ لتغاضٍ مهينٍ. دعوة الغير عمدًا لارتكاب جريمةٍ هو وضعٌ

163- مسمارٌ لحميٌّ (المترجمة).

يجهله معظم الرجال وتعيشه المرأة ضمن مزيجٍ من الخوف والخجل. وغالبًا ما ترفض في أعماقها هذه العمليّة الّتي تطلبها. إنها ممزّقةٌ في داخلها. وقد تكون رغبتها التلقائيّة هي الاحتفاظ بهذا الطفل الّذي تمنعه من أن يولد؛ حتّى وإن لم تكن ترغب بالأمومة، فهي تشعر منزعجةً بالتباس الفعل الّذي تقوم به. لأنّه وإن لم يكن صحيحًا أنّ الإجهاض عمليّة قتلٍ، فلا يمكن كذلك تشبيهه بعمليّة منع حملٍ بسيطةٍ؛ لقد بدأ أمرٌ ونحن نوقف تطوّره. تطارد بعض النساء ذكرى هذا الطفل الّذي لم يخلق. وتذكر **هيلين دويتش**[164] حالة امرأةٍ متزوّجةٍ، طبيعيّةٍ نفسيًّا، فقدت مرّتين جنينين في الشهر الثالث من الحمل بسبب وضعها الجسمي وصنعت لهما قبرين صغيرين عاملتهما بورعٍ كبيرٍ حتّى بعد ولادة أطفالٍ عديدين. فإذا كان الإجهاض محرَّضًا بالأحرى، سيكون لدى المرأة غالبًا شعورٌ بأنّها اقترفت خطيئةً. ويظهر من جديدٍ الندم الّذي يلي في الطفولة الرغبة الغيورة في موت الأخ الصغير الوليد، وتشعر المرأة أنّها مذنبةٌ لأنّها قتلت فعلًا طفلًا. ويمكن أن يظهر هذا الشعور بالذنب بشكل كآبةٍ مرضيّةٍ. وإلى جانب النساء اللّواتي يعتقدن أنّهنّ أزهقن روحًا غريبةً هناك الكثيرات ممّن يعتقدن أنّهنّ بترن جزءًا منهنّ: من هنا ينشأ حقدٌ على الرجل الّذي قبل هذا البتر أو أراده. تورد هـ. **دويتش** أيضًا حالة شابّةٍ مغرمةٍ جدًّا بعشيقها، ألحّت هي نفسها على التخلّص من الطفل الّذي كان عقبةً في طريق سعادتهما؛ لدى خروجها من المستشفى، رفضت وإلى الأبد رؤية الرجل الّذي كانت تحبّه. وإن كان مثل هذه القطيعة النهائيّة بهذا القدر نادرًا، فمن الشائع بالمقابل أن تصبح المرأة باردةً، إمّا تجاه جميع الرجال، أو تجاه ذاك الّذي جعلها حاملًا.

يميل الرجال إلى الاستخفاف بالإجهاض؛ وينظرون إليه نظرتهم لأحد هذه الحوادث العديدة الّتي كرّس خبث الطبيعة المرأة لها: فلا يقدّرون القيم الّتي يتضمّنها. في اللّحظة الّتي تُناقَش فيها المرأة الأخلاق الذكريّة بشكلٍ جذريٍّ للغاية تنكر قيم الأنوثة وقيمها هي. ويتزعزع كلّ مستقبلها المعنوي نتيجة ذلك. في الواقع يردّدون على مسامع المرأة منذ طفولتها أنّها مخلوقةٌ كي تنجب ويشيدون لها بمحاسن الأمومة؛ و تُبرَّر كلّ مثالب وضعها

164- سيكولوجيّة النساء.

ـ كالطمث، والأمراض، إلخ.. ـ وإزعاج المهام المنزليّة بهذا الامتياز الرائع الّذي تملكه وهو إنجاب الأطفال. وها هو الرجل، كي يحافظ على حرّيّته، ولا يعوق مستقبله، ولمصلحة مهنته، يطلب من المرأة أن تتخلّى عن انتصارها كأنثى. لم يعد الطفل أبدًا ثروةً لا تقدّر بثمنٍ: لم يعد الإنجاب وظيفةً مقدّسةً: أصبح هذا التكاثر طارئًا، متطفّلًا، وهذا أيضًا أحد عيوب الأنوثة. يبدو عبء الدورة الشهريّة بالمقارنة نعمةً: فتترقّب بقلقٍ عودة هذا السيلان الأحمر الّذي كان قد أغرق الفتاة بالرعب؛ لقد عزّوها عنه بوعودٍ عن مباهج الإنجاب. وحتّى إن وافقت المرأة على الإجهاض، ورغبت به، فهي تشعر أنّه تضحيةٌ بأنوثتها: يجب أن ترى نهائيًّا في جنسها لعنةً، نوعًا من العاهة، خطرًا. تصبح بعض النساء بمغالاتهنّ في هذا الإنكار مثليّات الجنس إثر صدمةٍ سبّبها الإجهاض. مع ذلك، ففي نفس الوقت الّذي يطالب فيه الرجل المرأة بالتضحية بإمكانيّاتها الجسديّة لكي يحسّن وضعه كرجلٍ، ينتقد نفاق القانون الأخلاقي للذكور. فهؤلاء يمنعون الإجهاض كلّيًّا؛ ولكنّهم يقبلونه بصورةٍ خاصّةٍ كحلٍّ ملائمٍ؛ فيناقضون أنفسهم بوقاحةٍ؛ لكنّ المرأة تشعر بهذه التناقضات في جسدها الجريح؛ وهي خجولةٌ عمومًا بحيث لا تثور عمدًا ضدّ سوء النيّة الذكوريّ؛ وبينما هي ترى نفسها ضحيّة قرارٍ مجرمٍ رغمًا عنها، تشعر أنّها ملطّخةٌ، مهانةٌ؛ وهي الّتي تمثّل بصورةٍ ملموسةٍ وفوريّةٍ، في ذاتها، غلطة الرجل؛ إنّه يقترف الخطأ، ولكنّه يتخلّص منه بإلقائه عليها؛ يقول فقط كلماتٍ، بلهجةٍ متوسّلةٍ، أو مهدّدةٍ، أو عاقلةٍ أو غاضبةٍ وينساها بسرعةٍ؛ وعليها أن تترجم هذه الجمل ضمن الألم والدم. أحيانًا لا يقول شيئًا، يذهب؛ لكنّ صمته وهروبه هو إنكارٌ أكثر وضوحًا أيضًا من كلّ القانون الأخلاقيّ الّذي أسّسه الذكور. ينبغي ألّا يعجب المرء ممّا يسمّى «لا أخلاقيّة» النساء، وهو موضوعٌ مفضّلٌ لدى أعداء المرأة؛ كيف لا يشعرن بارتيابٍ ضمنيٍّ في المبادئ المتعجرفة الّتي يعلنها الرجال جهارًا ويستنكرونها في السرّ؟ إنّهنّ يتعلّمن ألّا يصدقن ثانيةً ما يقوله الرجال عندما يشيدون بالمرأة، ولا عندما يشيدون بالرجل: الشيء الوحيد الأكيد، هو هذا البطن المحشوّ والنازف، وأشلاء الحياة الحمراء هذه، وغياب الطفل هذا. تبدأ المرأة «بالفهم» مع أوّل إجهاضٍ. بالنسبة لكثيراتٍ منهنّ، لن يعود العالم أبدًا كما كان. ومع ذلك، بسبب عدم انتشار وسائل منع الحمل، الإجهاض اليوم هو الطريق الوحيد المفتوح في فرنسا أمام المرأة الّتي لا تريد إنجاب أطفالٍ محكومين

بالموت جوعًا. قال ستيكل[165] ذلك بدقّةٍ: «منع الإجهاض قانونٌ لا أخلاقيٌّ بما أنّه يجب خرقه إجباريًّا، كلّ يومٍ، وكلّ ساعةٍ».

*

كان «تحديد النسل» والإجهاض الشرعيّ ليسمحان للمرأة بالاضطلاع بحرّيّةٍ بأمومتها الّتي هي في الواقع في جزءٍ منها قرارٌ حرٌّ، وفي جزءٍ آخر تقرّر الصدفة الخصوبة النسائيّة. ما لم يصبح الإلقاح الصناعيّ ممارسةً شائعةً، يحدث أن تتمنى المرأة الإنجاب دون الحصول عليه ـ إمّا لأنّه ليس لديها علاقةٌ بالرجال، أو لأنّ زوجها عقيمٌ، أو لأنّ بها عيبًا خلقيًّا. وبالمقابل، تجد نفسها غالبًا مضطرّةً إلى الإنجاب رغمًا عنها. ويجري الحمل والولادة بطريقةٍ مختلفةٍ جدًّا حسبما يتمّان ضمن الثورة، أو الاستسلام، أو الرضى، أو الحماس. يجب الانتباه إلى أنّ القرارات والمشاعر الّتي تعترف بها الأمّ الشابّة لا تتناسب دائمًا مع رغباتها العميقة. قد تكون الأم العازبة مرهقةً مادّيًّا بالعبء الّذي ألقي على كاهلها فجأةً، وتأسف لذلك صراحةً، وتجد مع ذلك في الطفل إشباع أحلامٍ سرّيّةٍ؛ وعلى العكس، يمكن للعروس الشابّة الّتي تستقبل حملها ببهجةٍ وفخرٍ أن تخشاه بصمتٍ أو تكرهه عبر هواجس وتخيّلاتٍ وذكرياتٍ طفوليّةٍ ترفض هي ذاتها الاعتراف بها. وهذا أحد الأسباب الّتي تجعل النساء سرّيّاتٍ بهذا القدر. يأتي جزءٌ من صمتهنّ من رغبتهنّ في إحاطة تجربةٍ خاصّةٍ بهن بالغموض؛ ولكنّهنّ أيضًا مشوّشاتٌ بالتناقضات والصراعات الّتي تحلّ بهنّ. قالت امرأةٌ: «هموم الحمل هي حلمٌ ننساه بشكلٍ كاملٍ كحلم آلام الولادة[166]». إنّهنّ يحاولن نسيان الحقائق المعقّدة الّتي تتكشّف لهنّ.

رأينا أنّ المرأة تمرّ في الطفولة والمراهقة بالنسبة للأمومة بعدّة أطوارٍ. فعندما تكون صغيرةً، تكون الأمومة معجزةً ولعبةً: تجد في الدمية، وتشعر في الطفل القادم شيئًا تملكه وتسيطر عليه. وعندما تصبح مراهقةً، ترى فيها على العكس، تهديدًا ضد كمال شخصها الثمين. فإما أن ترفضها بشراسةٍ، كبطلة **كوليت أودري**[167] الّتي تبوح لنا بالتالي:

165- المرأة الباردة.

166- ن. هال N. Hale.

167- لعبة خاسرة، «الطفل». On joue perdant, l`enfant

أكره كلّ طفلٍ صغيرٍ يلعب على الرمل لأنّه خرج من امرأةٍ... أكره أيضًا الأشخاص الكبار لأنّهم يسيطرون على الأطفال ويطهّرونهم ويضربونهم ويلبسونهم ويحقّرونهم بشتّى الوسائل: النساء بأجسادهن الرخوة المستعدّة دائمًا لصنع أطفالٍ جددٍ، والرجال الّذين كانوا ينظرون إلى هذه المجموعة من النساء والأطفال الّذين يملكونهم بهيئةٍ راضيةٍ ومستقلّةٍ. كان جسدي لي وحدي، لم أكن أحبّه إلّا مسمرًا، مرصّعًا بملح البحر، وقد خدشته نباتات البحر الشائكة. يجب أن يبقى قاسيًا ومختومًا.

أو أنّها تخشاها وهي تتمنّاها في الوقت نفسه، ما يقود إلى تخيّلاتٍ عن الحمل وكلّ أنواع المخاوف. هناك شابّاتٌ يسرّهنّ أن يمارسن السلطة الّتي تمنحهنّ إياها الأمومة لكنّهنّ لسن مستعدّاتٍ لحمل مسؤوليّاتها بشكلٍ كاملٍ. وهذه حال ليديا الّتي ذكرتها هـ. دويتش والّتي وُضِعت في سنّ السادسة عشرة كخادمةٍ لدى أجانب، كانت تعتني بالأطفال الموكلين إليها بإخلاصٍ منقطع النظير: كان ذلك استمرارًا لأحلامها الطفوليّة حيث كانت تساعد أمها في تربية طفلٍ؛ فجأةً، بدأت تهمل عملها، وتبدي لا مبالاةً تجاه الأطفال، وتخرج، وتعاشر الشبّان؛ انتهى زمن اللّعب وبدأت تهتمّ بحياتها الحقيقية الّتي تحتل فيها الرغبة في الأمومة مكانًا صغيرًا. لدى بعض النساء طول حياتهنّ الرغبة في السيطرة على أطفالٍ، لكنّهنّ يذكرن فظاعة عمليّة الولادة: فيصبحن قابلاتٍ وممرضاتٍ ومعلّماتٍ؛ وخالاتٍ متفانياتٍ، لكنّهنّ يرفضن الإنجاب. بعضهنّ أيضًا، يستغرقن بحياتهنّ العاطفيّة أو المهنيّة بحيث لا يجدن للأمومة مكانًا في حياتهنّ دون أن يرفضنها باشمئزازٍ. أو أنّهنّ يخشين العبء الّذي يمثّله الطفل لهنّ أو لأزواجهنّ.

تضطلع المرأة غالبًا بمسؤوليّة عقمها إما بأن تتهرّب من كلّ علاقةٍ جنسيّةٍ، أو بممارسة «تحديد النسل»؛ ولكن هناك أيضًا حالاتٌ لا تعترف فيها بخوفها من الطفل وتمنع الحمل عمليّة دفاعٍ نفسيّةٌ؛ فتحدث لديها اضطراباتٌ وظيفيّةٌ من منشأٍ عصبيٍّ يمكن كشفها بفحصٍ طبّيٍّ. يذكر الدكتور آرتوس Arthus [168] مثالًا لافتًا من بين أمثلةٍ أخرى:

السيدة هـ. هيأتها أمها بشكلٍ سيّءٍ جدًا لحياتها كامرأةٍ؛ توقّعت لها أمّها أسوأ

168- الزواج.

الكوارث إذا حملت... عندما تزوجت السيدة ه. اعتقدت أنها حاملٌ في الشهر التالي؛ ثم أدركت خطأها؛ ثم مرّةً أخرى بعد ثلاثة أشهرٍ: خطأٌ آخر. بعد سنةٍ ذهبت لتستشير طبيب أمراضٍ نسائيّةٍ لم يجد لديها أو لدى زوجها سببًا يمنع الإنجاب. بعد ثلاث سنواتٍ، استشارت آخر قال لها: «ستحملين عندما تهملين الحديث في الموضوع...» بعد خمس سنواتٍ من الزواج قبلت السيدة هـ. وزوجها أنّهما لن ينجبا أطفالًا. ووُلد الطفل بعد ست سنواتٍ.

يتأثّر قبول الحمل أو رفضه بنفس العوامل المؤثّرة على الحمل عمومًا. تتجدّد خلال الحمل الأحلام الطفوليّة بشأن الموضوع ومخاوف المراهقة؛ وتعيشه المرأة بطريقةٍ مختلفةٍ حسب علاقتها بأمها وبزوجها وبنفسها.

عندما تصبح المرأة أمًّا بدورها، تأخذ نوعًا ما مكان تلك الّتي أنجبتها. بالنسبة لها يعدُّ ذلك تحرّرًا كاملًا. إن كانت تتمنى ذلك صدقًا، فستبتهج بحملها وستسرّ بتمضيته دون مساعدةٍ؛ وعلى العكس إن كانت ما تزال خاضعةً للسيطرة وموافقةً على ذلك، فستسلم نفسها ثانيةً لأمّها: سيبدو لها المولود أخًا أو أختًا أكثر من كونه ابنًا؛ وإذا كانت تريد أن تتحرّر ولا تجرؤ على ذلك، تخشى أن يجعلها الطفل تعود للعبوديّة ثانيةً بدل أن ينقذها: وقد يحرّض هذا القلق إجهاضاتٍ؛ تذكر هـ. دويتش حالة شابّةٍ كان عليها مرافقة زوجها في رحلةٍ وترك الطفل لأمّها، فولدت طفلًا ميّتًا؛ واستغربت أنّها لم تحزن عليه كثيرًا مع أنّها كانت قد رغبت به بشدّةٍ؛ لكنّها كانت تكره بشدّةٍ تركه لأمّها الّتي كانت ستسيطر عليها من خلاله. ورأينا أنّ الشعور بالذنب تجاه الأم شائعٌ لدى المراهِقة؛ فإن كان ما يزال متّقدًا، تتخيّل المرأة أنّ لعنةً تحلّ بذرّيتها أو بها: وتعتقد أنّ الطفل سيقتلها وهو يولد أو أنّه سيموت فور ولادته. يثير الندم هذا القلق الشائع لدى الشابّات بأنهن لن يكملن حملهنّ للنهاية. نرى في هذا النموذج الّذي أوردته هـ. دويتش كم يمكن للعلاقة بالأم أن تأخذ أبعادًا ضارّةً:

السيّدة سميث، ابنة عائلةٍ كبيرة العدد لم يكن بها سوى صبيٍّ واحدٍ، كانت أمّها قد استقبلتها بامتعاضٍ لأنّها كانت تريد ابنًا؛ لم تعاني كثيرًا من ذلك بسبب عطف أبيها وأختٍ أكبر. ولكن عندما تزوّجت وحملت، رغم أنّها كانت تريد الطفل بحرارةٍ، فقد جعلها الكره الّذي شعرت به فيما مضى تجاه أمّها تكره فكرة أن تصبح أمًّا بدورها؛

وولدت قبل أوانها بشهرٍ طفلًا ميّتًا. وحملت مرةً أخرى، وخافت من حادثٍ آخر؛ ولحسن الحظّ حملت إحدى صديقاتها المقرّبات في نفس الوقت؛ وكانت لديها أمٌّ عطوفةٌ للغاية رعت الشابّتين خلال فترة حملهما؛ لكن الصديقة كانت قد حملت قبلها بشهرٍ وخافت السيدة سميث من إكمال حملها لوحدها؛ ولدهشة الجميع ظلت الصديقة حاملًا شهرًا آخر بعد موعد الولادة المفترض[169] وولدت المرأتان في نفس اليوم. قرّرت الصديقتان أن تحملا في اليوم نفسه بطفلهما المقبل وبدأت السيدة سميث حملها الجديد دون قلقٍ. لكنّ صديقتها اضطرت لترك المدينة في الشهر الثالث؛ وفي اليوم الّذي علمت فيه السيدة سميث بالأمر أجهضت. ولم تتمكن أبدًا من إنجاب طفلٍ آخر؛ كانت ذكرى أمها تثقل كاهلها بشكلٍ كبيرٍ.

علاقةٌ ليست بأقلّ أهميّةً هي علاقة المرأة بوالد طفلها. قد ترغب امرأةٌ ناضجةٌ مستقلّةٌ بطفلٍ يخصّها وحدها: عرفت واحدةً من هذه النسوة كانت عيناها تشرقان لدى رؤيتها ذكرًا جميلًا، ليس عن رغبةٍ حسّيّةٍ، ولكن لأنها كانت تحكم على قدرته كفحلٍ؛ إنّهنّ هاته النساء المسترجلات الأموميّات اللّواتي يرحبن بحماسةٍ بمعجزة الإلقاح الصناعيّ. إذا كان والد الطفل يشاركهنّ حياتهنّ، فهنّ يرفضن كلّ حقٍّ له على ذرّيّتهنّ، ويحاولن ـ كأم بول في «عشاق وأبناء» ـ أن يشكّلن مع صغيرهنّ ثنائيًّا مغلقًا. ولكن المرأة في غالبية الحالات بحاجةٍ إلى سندٍ ذكوريٍّ لتقبل مسؤولياتها الجديدة؛ ولن تكرّس نفسها للوليد إن لم يكرّس رجلٌ نفسه لها.

وكلما كانت طفوليّةً وخجولةً، كلّما كانت هذه الحاجة ملحّةً. وهكذا تروي هـ. دويتش حكاية شابّةٍ تزوجت في سنّ الخامسة عشرة شابًّا في السادسة عشرة كان قد تسبب في حملها. كانت دائمًا تحب الأطفال عندما كانت صغيرةً وتساعد أمّها بالعناية بإخوتها وأخواتها. ولكن حين أصبحت هي ذاتها أمًّا لطفلين، انتابها الهلع. كانت تطلب من زوجها أن يظلّ إلى جوارها باستمرارٍ؛ واضطر إلى اختيار عملٍ يسمح له بالبقاء في المنزل ساعاتٍ طوالًا. كانت تعيش ضمن قلقٍ مستمرٍّ، مبالغةً في شجارات أطفالها، معطيةً أهمّيّةً فائقةً لأصغر أحداث اليوم. وهكذا يطلب كثيرٌ من الأمهات الشابّات العون من أزواجهنّ دافعاتٍ

169- تؤكد هـ. دويتش أنّها تحقّقت من أنّ الطفل ولد فعلًا بعد بداية الحمل بعشرة أشهرٍ.

إيّاهم إلى الهروب من المنزل بإرهاقهم بهمومهنّ. تذكر هـ. دويتش حالاتٍ أخرى غريبةً، هذه واحدة منها:

اعتقدت شابّةٌ متزوجةٌ أنها حاملٌ وسرّت لذلك للغاية؛ وافترقت عن زوجها بسبب رحلةٍ، فخاضت مغامرةً قصيرةً جدًا وقبلتها تحديدًا لأنها كانت راضيةً بأمومتها ولا شيء سواها يبدو لها مهمًّا؛ وعندما عادت إلى زوجها علمت بعد قليلٍ أنّها بالحقيقة أخطأت بتاريخ الحمل الّذي كان يعود إلى فترة رحلتها. عندما ولد الطفل، تساءلت فجأةً إن كان ابن زوجها أم ابن العشيق العابر؛ وأصبحت غير قادرةٍ على منح مشاعرها للطفل الّذي رغبت فيه؛ وغدت قلقةً، تعيسةً، ولجأت لطبيبٍ نفسيٍّ ولم تهتم بالطفل إلّا عندما قرّرت اعتبار زوجها والد الوليد.

المرأة الّتي تحب زوجها تقولب غالبًا مشاعرها بحسب ما يشعر به: فتستقبل الحمل والأمومة ببهجةٍ أو مزاجٍ سيّءٍ حسبما يكون هو فخورًا بهما أو منزعجًا. أحيانًا يكون الطفل مرغوبًا به لتقوية صلةٍ أو زواجٍ، ويرتبط تعلّق الأم به بنجاح خططها أو فشلها. يختلف الوضع أيضًا إذا كانت تشعر بعدائيّةٍ تجاه الزوج: يمكنها أن تكرّس نفسها بشدّةٍ للطفل الّذي تنكر امتلاك الأب له، أو على العكس تعتبره كارهةً نسل الرجل الّذي تكرهه. السيدة هـ. ن...، الّتي روينا نقلًا عن ستيكل ليلة زفافها، حملت على الفور وكرهت طيلة حياتها الطفلة الّتي تشكّلت ضمن بشاعة هذه المعرفة الفظّة. وهكذا نرى في يوميات صوفي تولستوي أنّ ازدواجيّة مشاعرها تجاه زوجها انعكست على حملها الأول. وكتبت:

لا أحتمل هذه الحالة جسديًا ومعنويًا. جسديًا أظلّ مريضةً، ومعنويًا أشعر بانزعاجٍ، فراغٍ، قلقٍ رهيبٍ. وبالنسبة لليوفا لم أعد موجودةً... لا أستطيع منحه أيّة متعةٍ بما أنّي حاملٌ.

المتعة الوحيدة الّتي تجدها في هذه الحالة هي على الصعيد المازوشي: لا بدّ أنّ فشل علاقاتها الغراميّة هو الّذي أعطاها حاجةً طفوليّةً لمعاقبة الذات.

أنا مريضةٌ تمامًا منذ البارحة. أخشى أن أجهض. يمنحني هذا الألم في البطن متعةً. كما لو كنت طفلةً ارتكبت حماقةً، كانت أمّي تسامحني أما أنا فلم أكن أسامح نفسي. كنت أقرص نفسي، أو أخز يدي بقوّةٍ إلى أن يصبح الألم غير محتملٍ. مع ذلك

كنت أتحمّله وأجد فيه متعةً فائقةً... عندما سيولد الطفل، سيبدأ ذلك من جديدٍ، هذا مقرفٌ! يبدو لي كلّ شيءً مملاً. تدقّ الساعات بحزنٍ. كلّ شيءٍ هو طفلٌ. آه لو كان ليوفا!...

لكنّ الحمل هو بشكلٍ خاصٍّ مأساةٌ تدور لدى المرأة بينها وبين نفسها؛ تشعر بها غنىً وبترًا في آنٍ معًا؛ الجنين جزءٌ من جسدها، وهو طفيليٌّ يستغلّها؛ تملكه ويملكها؛ يختصر كلّ المستقبل وعندما تحمله تشعر أنّها واسعةٌ كالعالم؛ لكنّ هذا الغنى نفسه يفنيها، لديها انطباعٌ بأنّها لم تعد شيئًا. وجودٌ جديدٌ سيظهر ويجعل لوجودها هدفًا، وهي فخورةٌ به؛ لكنها تشعر أيضًا أنّها لعبة قوىً غامضةٍ، إنّها تتأرجح، مكرهةً. الأمر الخاص لدى المرأة الحامل، هو أنّها في اللّحظة الّتي يتفوّق جسدها فيها يُكون مثوليًا: ينطوي على نفسه ضمن الغثيان والتوعّك؛ ويكفّ عن أن يوجد من أجل نفسه فقط وعندها يصبح أضخم من أيّ وقتٍ مضى. تفوّق الحِرفيّ والرجل الناشط تسكنه ذاتيّةٌ، ولكن تعارض الذات والشيء يزول لدى الحامل؛ وتشكّل مع هذا الطفل الّذي يملأ بطنها ثنائيًّا ملتبسًا تغمره الحياة، وإذ علقت بشبكة الحياة، فهي نبتةٌ وحيوانٌ، مخزونٌ من الغروانيّات، حاضنةٌ، بيضةٌ؛ تخيف الأطفال بالجسم الأناني وتجعل الشباب يسخرون لأنها كائنٌ بشريٌّ واعٍ وحرٌّ أصبح أداةً سلبيّةً من أدوات الحياة. الحياة عادةً ليست سوى أحد أوضاع الوجود؛ تبدو خلّاقةً في التعشيش؛ لكنّ هذا خلقٌ غريبٌ يتمّ ضمن الاحتمال والواقع. هناك نساءٌ تكون مباهج الحمل والإرضاع لديهنّ قويّةً بحيث يردن بملء إرادتهنّ تكرارها؛ وما إن يُفطم الطفل حتّى يشعرن بالإحباط. هاته النسوة، اللواتي هنّ «بيّاضاتٌ» أكثر منهنّ أمّهاتٍ، يبحثن بشراهةٍ عن إمكانيّة التخلّي عن حريتهنّ لصالح جسدهنّ: يبدو لهنّ وجودهنّ مبرّرًا بخصوبة جسدهنّ السلبيّة. إذا كان الجسد عطالةً بحتةً، لا تستطيع تجسيد التفوّق، حتّى بشكلٍ متراجعٍ؛ فهي كسلٌ وضجرٌ، ولكن ما إن تحمل حتى تصبح أرومةً، ونبعًا، وزهرةً، وتتجاوز نفسها، فتصبح حركةً نحو المستقبل بنفس الوقت الّذي هي فيه حضورٌ سميكٌ. تمّ تعويض الافتراق الّذي عانت منه المرأة فيما مضى في لحظة فطامها؛ غرقت من جديدٍ في تيّار الحياة، واندمجت ثانيةً بالكلّ، حلقةً في سلسلة حلقات الأجيال اللامنتهية، جسدًا موجودًا من أجل جسدٍ آخر ومن خلاله. الانصهار الّذي بحثت عنه الأم بين يدي الذكر والّذي ترفضه ما إن تقبله، تدركه عندما تشعر بالطفل في

بطنها الثقيل أو عندما تضغطه على ثدييها المنتفخين. لم تعد شيئًا خاضعًا لذاتٍ؛ وليست كذلك ذاتًا قلقةً من حريتها، إنها هذا الواقع الملتبس: الحياة. جسدها لها أخيرًا بما أنّه للطفل الّذي يخصّها. ويعترف المجتمع بأنّه ملكها عدا عن أنّه يكسو ذلك بصبغةٍ مقدسةٍ. الثدي الّذي كان سابقًا شيئًا شهوانيًا، تستطيع عرضه، فهو مصدر حياةٍ: إلى درجة أنّ لوحاتٍ ورعةٍ تظهر لنا العذراء الأم كاشفةً صدرها راجيةً ابنها العفو عن البشريّة. تشعر الأم واهمةً مستلبةً في جسدها وكرامتها الاجتماعيّة أنها كائنٌ بحدّ ذاته، قيمةٌ مكتملةٌ.

لكنّ ذلك ليس سوى وهمٍ. لأنها لا تصنع الطفل حقًّا: إنّه يتشكّل في داخلها؛ جسدها ينتج جسدًا فقط: وهي عاجزةٌ عن إقامة وجودٍ سيقيم نفسه بنفسه؛ الخلق الآتي من الحرية يطرح الشيء كقيمةٍ ويكسوه ضرورةً: في ثدي الأم لا مبرّر للطفل، ليس بعدُ سوى تكاثرٍ مجّانيٍّ، حدثٍ فجٍّ احتماله مشابهٌ لاحتمال الموت. قد يكون للأم أسبابها في الرغبة بطفلٍ، لكنّها لا تستطيع إعطاء أسباب وجودها لهذا الآخر الّذي سيكون غدًا؛ إنها تنجبه ضمن عموميّة جسدها، وليس ضمن خصوصيّة وجودها. هذا ما تفهمه بطلة **كوليت أودري** عندما تقول:

> **لم أفكر أبدًا أنّه يستطيع إعطاء حياتي معنىً...كان كيانه قد أينع فيَّ وكان عليّ أن أحسن رعايته مهما كلّف الأمر حتى النهاية، دون أن أستطيع استعجال الأمور حتّى لو أدّى ذلك إلى موتي. ثم أتى، وُلِد منّي، وهكذا كان يشبه العمل الّذي كان عليّ القيام به في حياتي... ولكنّه لم يكن كذلك في نهاية الأمر.**

يتكرّر غموض التقمّص لدى كلّ امرأةٍ من ناحيةٍ؛ فكلّ طفلٍ يولد هو إلهٌ بصورة إنسانٍ: لا يمكنه أن يتحقق كإدراكٍ وحريةٍ إن لم يأت إلى العالم؛ وتندمج الأم في هذا الغموض، لكنها لا تطلبه؛ لا تدرك الحقيقة الكبرى لهذا الكائن الّذي يتشكّل في بطنها. هذا الغموض هو ما تعبّر عنه في تخيّلين متناقضين: فكلّ أمٍ تظنّ أنّ طفلها سيصبح بطلًا؛ بهذا تعبّر عن انبهارها بفكرة إنجاب إدراكٍ وحريّةٍ؛ لكنها تخشى أيضًا أن تلد عاجزًا، وحشًا، لأنها تعرف احتماليّات الجسد الفظيعة، وهذا الجنين الّذي يسكنها هو جسدٌ فقط. هناك حالاتٌ يتغلّب بها هذا الوهم أو ذاك: ولكن المرأة غالبًا تتأرجح بينهما. وهي حساسةٌ أيضًا لالتباسٍ آخر. عالقةٌ في دورة النوع الكبيرة، تؤكّد الحياة ضدّ الزمن والموت: بذلك هي مرصودةٌ للخلود؛

لكنها تشعر أيضًا في جسدها بحقيقة كلمة **هيجل**: «ولادة الأطفال هي موت الآباء». كما يقول إنّ الطفل هو بالنسبة للآباء «الكينونة للذات لحبهما الّذي يسقط خارجهما»، وبالعكس، سيحصل على كينونته لذاته «ضمن الافتراق عن النبع، افتراقًا يجفّ فيه هذا النبع». هذا التفوّق على الذات هو أيضًا بالنسبة للمرأة تصوّرٌ مسبقٌ لموتها. وتترجم هذه الحقيقة عبر الخوف الّذي تشعر به عندما تتخيّل الولادة: فتخشى أن تفقد فيها حياتها.

وبالتالي بما أنّ معنى الولادة غامضٌ، من الطبيعي أن يكون موقف المرأة مزدوجًا: فيتبدّل حسب مراحل تطوّر الجنين المختلفة. تجب الإشارة أولًا إلى أنّ الطفل لا يكون حاضرًا في بداية العمليّة؛ ليس له بعدُ سوى وجودٍ خياليٌّ؛ تستطيع الأم أن تحلم بهذا الكائن الصغير الّذي سيولد بعد بضعة أشهرٍ، وتهتم بإعداد مهده وملابسه: ولا تدرك بشكلٍ ملموسٍ سوى الظواهر العضويّة المضطربة الّتي تنتابها. بعض كهنة الحياة والخصوبة يزعمون صوفيًّا أنّ المرأة تعرف من نوعيّة المتعة الّتي تشعر بها أنّ الرجل جعلها أمًّا: وهذه إحدى الخرافات الّتي يجب إسقاطها. فليس لديها أبدًا حدسٌ قاطعٌ بالحدث، بل تستنتج ذلك من علاماتٍ غير قاطعةٍ. فيتوقف طمثها، وتسمن، ويصبح ثدياها ثقيلين ومؤلمين، وتشعر بدوارٍ وغثيانٍ، وأحيانًا تعتقد ببساطةٍ أنّها مريضةٌ وتعلم بالحمل من الطبيب. عندها تعرف أنّ جسدها تلقّى مصيرًا يسمو به؛ ويومًا بعد يومٍ، ستكبر فيها زائدةٌ نمت من لحمها وغريبةٌ عنه؛ إنها فريسة النوع الّذي يفرض عليها قوانينه الغامضة وهذا الاستلاب يخيفها عمومًا: ويتجلّى خوفها بإقياءاتٍ. هذه الأخيرة محرّضةٌ في قسمٍ منها بتبدلات الإفرازات المعديّة الّتي تحدث عندئذٍ؛ ولكن إن كان رد الفعل هذا، الّذي لا تعرفه باقي إناث الثدييات، يأخذ أهميّةً، فلأسبابٍ نفسيّةٍ؛ إنه يظهر الصبغة الحادة الّتي يتّخذها لدى أنثى الإنسان الصراع بين النوع والفرد[170]. حتّى وإن كانت المرأة ترغب بالطفل بشدّةٍ، فجسدها يثور أولًا عندما يكون عليه أن ينجب. يؤكّد **ستيكل** في «حالات القلق العصبيّة» أنّ إقياء المرأة الحامل يعبّر دومًا عن نوعٍ من رفض الطفل؛ وإن كان هناك عدائيّةٌ نحو الطفل ـ لأسبابٍ لا يُعترف بها ـ تزداد الاضطرابات المعديّة.

170- راجع الجزء الأول، الفصل الأول.

تقول هـ. دويتش: «علّمنا التحليل النفسيّ أنّ المبالغة النفسيّة في أعراض الإقياء لا تصادَف إلّا عندما يعبّر الإخراج الفمويّ عن شعورٍ بالعداء تجاه الحمل أو الجنين». وتضيف قائلةً: «غالبًا ما يكون محتوى إقياءات الحمل النفسيّة مماثلًا تمامًا لمحتوى إقياءات الفتيات الهستيرية الآتية من تخيّلات حملٍ[171]». في الحالتين هناك إذكاءٌ للفكرة القديمة للإلقاح عبر الفم الّتي نجدها لدى الأطفال. بالنسبة للنساء الطفوليات خصوصًا، يُشبَّه الحمل، كما في السابق، بمرضٍ في الجهاز الهضميّ. تذكر هـ. دويتش مريضةً كانت تدرس بقلقٍ قيئها لترى إن كان يحوي أجزاءً من جنينٍ؛ مع ذلك كانت تعرف كما تقول أنّ هذا الهاجس كان غير مفهومٍ. تشير الشراهة ونقص الشهيّة والاشمئزاز إلى نفس التردد بين الرغبة في الحفاظ على الجنين والرغبة في إتلافه. عرفتُ شابّةً كانت تعاني من إقياءاتٍ عنيفةٍ وإمساكٍ شديدٍ معًا؛ قالت لي يومًا من تلقاء نفسها أن لديها انطباعًا أنها تحاول التخلص من الجنين وتبذل جهدًا في الإبقاء عليه في الوقت نفسه؛ ما كان يطابق تمامًا رغباتها الّتي أقرّت بها. يذكر الدكتور آرتوس[172] المثال التالي الّذي ألخّصه بما يلي:

> **السيدة ت... تبدي اضطرابات حملٍ خطيرةً مع إقياءاتٍ لا يمكن كبحها... الوضع مقلقٌ لدرجة أنّه يجب التفكير في إجراء إيقافٍ للحمل... والشابة تشعر بالأسف... وأظهر التحليل الموجز الّذي يمكن القيام به أنّ السيدة ت... تقوم بالتماهي اللاواعي مع إحدى صديقاتها القديمات الّتي لعبت دورًا كبيرًا جدًا في حياتها العاطفيّة وماتت إثر حملها الأول. ما إن كُشف هذا السبب حتى خفّت الأعراض؛ وبعد أسبوعين صارت الإقياءات تتردّد من وقتٍ لآخر ولكن دونما أيّ خطرٍ.**

الإمساك، والإسهالات، أي أعمال الطرد تبدي دومًا نفس خليط الرغبة والقلق؛ ونتيجة ذلك أحيانًا الإجهاض: جميع الإجهاضات العفويّة تقريبًا ذات منشأٍ نفسيٍّ. تزداد هذه الانزعاجات بقدر ما توليها المرأة أهمّيةً أكبر وبقدر ما «تصغي لنفسها» أكثر. بصورةٍ خاصّةٍ، «رغبات» النساء الحوامل الشهيرة هي هواجس من منشأٍ طفوليٍّ: تتعلّق دائمًا بالأغذية،

171- ذُكرت لي تحديدًا حالة رجلٍ ظلّ خلال شهور حمل زوجته الأولى ـ الّتي كان مع ذلك يحبها قليلًا ـ يبدي تمامًا أعراض الغثيان والدوار والإقياء الّتي نصادفها لدى النساء الحوامل. كانت تترجم بالطبع بطريقةٍ هستيريةٍ صراعاتٍ غير واعيةٍ.

172- الزواج.

نتيجة الفكرة القديمة عن الإلقاح الغذائي؛ عندما تشعر المرأة بارتباكٍ في جسدها تترجم هذا الشعور بالغرابة إلى رغبةٍ تفتتن بها كما يحصل في الوهط النفسي. عدا عن أنّ هناك «ثقافةً» تقليديّةً حول هذه الرغبات، كما كانت هناك في الماضي ثقافةٌ حول الهيستريا؛ تتوقّع المرأة أن تشعر برغباتٍ، فتترقبها، وتخترع بعضًا منها. ذُكرت لي حالة أمٍ عازبةٍ انتابتها رغبةٌ شديدةٌ بالسبانخ فركضت إلى السوق لتشتريه ولم تطق صبرًا وهي تنتظر أن ينضج: كانت تعبّر بذلك عن قلق وحدتها؛ فراحت ترضي رغباتها بعجالةٍ محمومةٍ عارفةً أنّه ليس بإمكانها الاعتماد إلّا على نفسها. وصفت دوقة داربانتيس d'Arbantès بطريقةٍ مسلّيةٍ للغاية في مذكراتها حالةً كانت الرغبة فيها موحىً بها بإلحاحٍ من المحيطين بالمرأة. وتشكو من أنّها كانت خلال حملها محاطةً برعايةٍ زائدةٍ.

تزيد هذه الرعاية والاهتمام التوعّك، والغثيان، وآلام الأعصاب والألف ألمٍ وألم الّتي ترافق دومًا الحمول الأولى. شعرت بها... بدأت أمي ذات يومٍ وأنا أتعشّى عندها... قالت لي فجأةً وهي تضع شوكتها وتنظر إليّ بهيئةٍ مذهولةٍ: «آه! يا إلهي، لم يخطر ببالي أن أسألك ما هي رغبتك». فأجبتها: «ولكن ليست لدي رغبةٌ». فقالت أمي: «ليست لديك رغبةٌ... ليست لديك رغبةٌ! ولكن لم يرَ أحدٌ شيئًا كهذا قطّ! أنت مخطئةٌ. الأمر أنك لم تنتبهي لذلك. سأحدّث حماتك في الموضوع».

وهكذا تباحثت أمي وحماتي فيما بينهما. وبالتالي راح جونو هلعًا من أن أصنع له طفلًا برأس خنزيرٍ برّيٍّ يسألني كلّ صباحٍ: «بماذا ترغبين يا لور؟»، وانضمّت أخته العائدة من فرساي إلى جوقة السائلين تروي لي كم رأت من أشخاصٍ مشوّهين بسبب رغباتٍ لم تنفّذ... وانتهى بي الأمر إلى أن ارتعبت بدوري... ورحت أبحث في رأسي عمّا كان يروقني أكثر من غيره ولم أجد شيئًا. وأخيرًا، ذات يومٍ، حدث أن خطر ببالي وأنا أمضغ قرص حلوى بطعم الأناناس أنّ الأناناس لا بد أن يكون شيئًا ممتازًا... وما إن أقنعت نفسي بأنّي أرغب بالأناناس حتى شعرت برغبةٍ قويّةٍ راحت تتعاظم عندما قالت كورسليه أنّه لم يحن أوان الأناناس. أوه! شعرت عندئذٍ بهذا الألم الممزوج بالثورة والّذي تحسّ أنك إما أن ترضيه أو تموت.

بعد العديد من الإجراءات تلقّى جونو أناناسةً من السيّدة بونابارت. استقبلتها دوقة أبرانتيس بفرحٍ وأمضت الليل تشمّها وتلامسها، بما أن الطبيب أمرها ألّا تأكلها إلّا في الصباح. وعندما قدمها لها جونو أخيرًا:

دفعتُ الصحن بعيدًا عنّي. «لا أعرف ما دهاني، لا أستطيع أكل الأناناس». وأعاد الصحن الّلعين تحت أنفي ما اكّد لي أني لا أستطيع أكل الأناناس. لم يتطلّب الأمر إبعاده فقط بل فتح النوافذ وتعطير غرفتي للخلاص من كلّ أثرٍ لرائحةٍ كانت ثانيةٌ واحدةٌ كافيةً لتجعلها كريهةً في نظري. الأمر الخاصّ في هذا الشأن هو أني منذئذٍ لم أستطع أبدًا أن آكل الأناناس دون أن أرغم نفسي على ذلك...

النساء الّلواتي يتعرّضن لاهتمامٍ زائدٍ أو الّلواتي يهتممن بأنفسهنّ بشكلٍ زائدٍ عن الحدّ هنّ الّلواتي تظهر لديهنّ ظواهر مرضيّةٌ أكثر. وتلك الّلواتي يجتزن تجربة الحمل بسهولةٍ أكثر هنّ السيّدات الّلواتي يكرّسن أنفسهنّ بشكلٍ كاملٍ لوظيفتهن الإنجابيّة من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى النساء المسترجلات الّلواتي لا يهمّهنّ كثيرًا ما يحدث لأجسادهنّ ويتجاوزن ذلك بسهولةٍ: كانت مدام دو ستايل Mme de Stael تدير حملها بنفس الرشاقة الّتي تدير فيها محادثةً.

عندما يستمر الحمل، تتغيّر العلاقة بين الأم والجنين. فقد استقرّ بثباتٍ في بطن أمّه، وتأقلم الجسدان مع بعضهما وبينهما تبادلاتٌ بيولوجيّةٌ تسمح للمرأة باستعادة توازنها. لم تعد تحسّ أنّ النوع يملكها: هي الّتي تملك ثمرة أحشائها. في الشهور الأولى كانت امرأةً عاديّةً، صغّرها العمل السرّيّ الّذي يكتمل فيها؛ فيما بعد هي أمٌّ بشكلٍ واضحٍ وهزائمها هي الوجه الآخر لنصرها. يصبح العجز الّذي تعاني منه مبرّرًا عندما يتفاقم. عندئذٍ يجد كثيرٌ من النساء في الحمل سلامًا رائعًا: يشعرن أنّ لهنّ مسوّغًا؛ لطالما أحببن أن يراقبن أنفسهنّ ويتفحّصن جسدهنّ؛ لم يكنّ يجرؤن على الاهتمام به كثيرًا، شعورًا منهنّ بواجباتهنّ الاجتماعيّة: الآن لديهنّ الحقّ في ذلك؛ كلّ ما يفعلنه من أجل رفاهيّتهنّ يفعلنه أيضًا من أجل الطفل. لم يعد يُطلب منهنّ عملٌ أو جهدٌ؛ ولم يعد عليهنّ الاهتمام ببقيّة العالم؛ وتتجلّى في الّلحظة الراهنة أحلام المستقبل الّتي تداعب خيالهنّ؛ إنّهنّ في عطلةٍ. وسبب وجودهنّ موجودٌ هنا، في بطنهنّ، يمنحهنّ شعورًا كاملًا بالاكتفاء. تقول امرأةٌ ذكرتها هـ. دويتش: «إنّه هناك، كمدفأةٍ صغيرةٍ في الشتاء، مشتعلةٍ دومًا، من أجلك وحدك، تحت تصرّفك. وهو أيضًا دوشٌ باردٌ ينهمر بلا انقطاعٍ خلال الصيف. إنّه هناك». تشعر المرأة أيضًا، مكتفيةً، بالرضى لشعورها أنّها «مهمّةٌ»، وهذا ما كانت ترغب به جدًّا منذ المراهقة؛ كانت تعاني

كزوجةٍ من تبعيّتها للرجل؛ الآن لم تعد شيئًا جنسيًّا، خادمةً، لكنّها تجسّد النوع، إنها وعد الحياة والخلود؛ ومحيطها يحترمها؛ حتى أنّ نزعاتها تصبح مقدّسةً: وهذا ما يشجّعها، كما رأينا، على اختراع «رغباتٍ». تقول **هيلين دويتش**: «يسمح الحمل للمرأة بعقلنة أفعالٍ كانت لتبدو مبهمةً في وقتٍ آخر». يبرّر لها وجود آخر داخلها، فتتمتع أخيرًا بشكلٍ كاملٍ بأن تكون هي ذاتها.

وصفت **كوليت** في «النجمة فسبر» هذه المرحلة من حملها.

> **بخبثٍ، ودونما استعجالٍ، كانت غبطة الإناث الحوامل تجتاحني. لم أعد أعاني من أيّ انزعاجٍ، ولا تعاسةٍ. بماذا أدعو هذه الوقاية، بالاسم العلميّ أو العاميّ، النشوة أم هرير القطّة؟ لا بدّ أنّها أفعمتني بما أني لم أنسها... يتعب المرء من كتم ما لم يقله أبدًا، كنت أرتشف حالة الفخر والعظمة العاديّة وأنا أعدّ ثمرتي... كنت كلّ مساءٍ أودّع أحد أوقات حياتي الجميلة. كنت أعرف أنّي سأتحسّر عليها. لكنّ الحبور، والهرير، والنشوة كانت تغمر كلّ شيءٍ، وكانت تهيمن عليّ البهيميّة الرقيقة واللامبالاة اللّتين يمليهما وزني المتزايد والنداءات الصمّاء للمخلوق الّذي كنت أشكّله.**
>
> **الشهر السادس، والسابع... أولى ثمار الفريز، أولى الورود. هل يمكن أن أسمّي حملي سوى احتفالٍ طويلٍ؟ ننسى هول النهاية، ولا ننسى احتفالًا طويلًا فريدًا: لم أنس شيئًا منه. أذكر خصوصًا أن الرقاد، في ساعاتٍ متقلّبةٍ، كان يتملّكني وانتابتني الحاجة إلى النوم على الأرض كما في طفولتي، وعلى العشب، وعلى التراب العفن. «رغبةٌ»، وحيدةٌ، رغبةٌ صحّيّةٌ.**
>
> **في حوالي النهاية كنت أشبه بجرذٍ يسحب بيضةً مسروقةً. كنت منزعجةً، يحدث لي أن أكون متعبةً بحيث لا أستطيع النوم... تحت ضغط الثقل، والتعب، لم يكن احتفالي ينقطع. كنت ممجَّدَةً محاطةً بالرعاية..**

تقول لنا **كوليت** إنّ أحد أصدقائها أسمى هذا الحمل السعيد «حمل رجلٍ». ويبدو بالفعل نموذجًا لهاته النساء اللّواتي يتحمّلن وضعهنّ ببسالةٍ لأنّهنّ لا يُشغَفن به. كانت تتابع في الوقت نفسه عملها ككاتبةٍ. «وضعتُ قلمي جانبًا عندما أعلن الطفل عن قدومه».

نساءٌ أخرياتٌ يُثقَلن أكثر؛ يجتررن إلى ما نهايةٍ أهمّيتهنّ الجديدة. وما إن يشجّعهنّ أحدٌ على ذلك حتّى يأخذن على عاتقهنّ ثانيةً الخرافات الذكوريّة: فيضعن ليل الحياة المخصب

مقابل وضوح الفكر، وغموض الباطنيّة مقابل الإدراك الواضح، ووزن هذا البطن الّذي هو هناك بكلّ وجوده الضخم مقابل الحريّة العقيمة؛ وتشعر الأم المقبلة أنّها سماد وحقلٌ، ونبعٌ، وجذرٌ؛ عندما تغفو، نومها نوم العماء الّذي تختمر فيه العوالم. هناك من ينسين أنفسهنّ أكثر فيسعدن خصوصًا بكنز الحياة الّذي ينمو فيهنّ. هذا الفرح هو ما تعبّر عنه سيسيل سوفاج Cécile Sauvage على طول قصائدها «الروح المبرعمة»:

أنت لي كما الفجر للسهل

حولك حياتي صوفٌ دافئٌ

حيث تنمو في السرّ أطرافك الّتي لا تتحمّل البرد

وبعد قليلٍ:

آه أنت من أداعبه في لفّة القطن قلقةً

يا برعم الروح الصغيرة الملتصق بزهرتي

أصنع قلبك من قطعةٍ من قلبي

آه يا ثمرتي الزغباء، أيّها الفم الصغير النديّ

وفي رسالةٍ إلى زوجها:

> **هذا غريبٌ، يبدو لي أنّي أشارك في صنع كوكبٍ صغيرٍ جدًا وأني أعجن كرته الواهية. لم أكن أبدًا قريبةً من الحياة بهذا القدر. لم أشعر أبدًا أني أخت الأرض مع النبات والنسغ لهذه الدرجة. قدماي تسيران على الأرض كما لو كانتا تسيران فوق حيوانٍ حيٍّ. أفكر باليوم المليء بالمزامير، والنحلات النشيطات، والندى، لأنّه يشبّ ويتحرّك داخلي. لو كنت تعرف أيّة نضارةٍ ربيعيّةٍ وأيّة فتوّةٍ يضع برعم هذه الروح في قلبي. المدهش أنّ فيه روح بييرو الطفوليّة وأنّها تشكّل في ليل كياني عينين كبيرتين تشبهان عينيه.**

بالمقابل، النساء الغنجات، اللّواتي يرين في نفسهنّ في الأساس شيئًا شهوانيًّا، اللّواتي يحببن في نفسهنّ جمال جسدهنّ، يعانين من رؤية تشوّه شكلهنّ، وزوال جمالهنّ، وعجزهنّ عن إثارة الرغبة. لا يبدو لهنّ الحمل أبدًا عيدًا أو غنىً، ولكن تصغيرًا لأناهنّ.

نقرأ في «حياتي» لـ إيزودورا دنكان Isadora Duncan:

> **كان الطفل الآن يعلن عن وجوده... وكان جسدي الرخاميّ يتمدّد، ويتكسّر، ويتشوّه... وأنا أمشي على شاطئ البحر، كنت أشعر أحيانًا بزيادةٍ في القوة والبأس وكنت أقول لنفسي أحيانًا إنّ هذا المخلوق الصغير سيكون لي، لي وحدي؛ ولكن في أيّامٍ أخرى كان لدي انطباعٌ أني حيوان مسكين عالقٌ بالفخ... مع تعاقب أملٍ ويأسٍ، كنت أفكر غالبًا في رحلات شبابي، وشرودي للتسوّق، واكتشافي للفنّ، وكلّ هذا لم يكن سوى تمهيدٍ قديمٍ، ضاع في الضباب المفضي إلى انتظار طفلٍ، تحفةٍ بمتناول أيّة فلّاحةٍ... بدأت كلّ أنواع المخاوف تنتابني. وعبثًا كنت أقول لنفسي إنّ كلّ النساء لديهنّ أطفالٌ. كان هذا شيئًا طبيعيًا ومع ذلك كنت خائفةً. من ماذا؟ ليس من الموت بالطبع ولا حتّى من الألم، كان لديّ خوفٌ مجهولٌ من شيئٍ لم أكن أعرفه. وكان جسدي الجميل يتشوّه أكثر فأكثر أمام عينيّ المدهوشتين. أين هي تقاطيعي الجميلة الفتيّة؟ أين هو طموحي، وشهرتي؟ كنت أشعر بالتعاسة والهزيمة غالبًا رغمًا عني. كان الصراع غير متكافئٍ مع الحياة، هذه العملاقة؛ ولكن كنت أفكر عندئذٍ بالطفل الّذي سيولد وكان كلّ حزني يتلاشى. ساعات انتظارٍ قاسيةٌ خلال الّليل. كم ندفع غاليًا ثمن مجد الأمومة!...**

يبدأ الافتراق بين الأم والطفل في آخر مراحل الحمل. تشعر النساء بأولى حركاته بشكلٍ مختلفٍ، ركلة القدم هذه على أبواب العالم، على جدار البطن الّذي يعزله عن العالم. يستقبل البعض بابتهاجٍ هذه الإشارة الّتي تعلن وجود حياةٍ مستقلّةٍ؛ وتشعر أخرياتٌ بنفورٍ من أنفسهنّ كوعاءٍ لفردٍ غريبٍ. من جديدٍ يضطرب اتحاد الجنين بجسد الأم: فيهبط الرحم، وتشعر المرأة بالضغط، والتوتّر، وصعوباتٍ في التنفس. لا يتملّكها هذه المرة النوع غير المحدّد، ولكن هذا الطفل الّذي سيولد؛ لم يكن حتّى الآن سوى صورةٍ وأملٍ؛ وأصبح حاضرًا بشدّةٍ. تخلق حقيقته مشاكل جديدةً. فكلّ مرحلةٍ تثير القلق: فتبدو الولادة مخيفةً بشكلٍ خاصٍّ. عندما تقترب المرأة من نهاية حملها تعود للظهور كلّ مخاوفها الطفوليّة؛ وإن اعتقدت نتيجة شعورٍ بالذنب أنّ أمها تلعنها، تقتنع أنّها ستموت أو أن الطفل سيموت. رسم تولستوي في «حرب وسلم» ملامح ليز، إحدى هذه النساء الطفوليّات الّلواتي يرين في الولادة حكمًا بالإعدام: وتموت بالفعل.

تأخذ الولادة صبغةً مختلفةً جدًّا حسب الحالات: تتمنى الأمّ الاحتفاظ في بطنها بالجسد الكنز الّذي هو قطعةٌ ثمينةٌ من أناها و في الوقت نفسه التخلص من مزعجٍ؛ تريد أن تمسك أخيرًا حلمها بين يديها، لكنها خائفةٌ من المسؤوليات الجديدة الّتي سيخلقها هذا التجسّد: قد تتغلّب إحدى الرغبتين على الأخرى، ولكنّها منقسمةٌ غالبًا. لا تحسم أمرها غالبًا أيضًا تجاه التجربة المقلقة: تريد أن تثبت لنفسها ولمحيطها ـ أمها وزوجها ـ أنّها قادرةٌ على اجتيازها دون مساعدةٍ؛ لكنها في الوقت نفسه تشعر بالسخط تجاه العالم والحياة والمقربين نتيجةً للآلام الّتي فُرضت عليها وتسلك بالاحتجاج سلوكًا سلبيًا. يسرّ النساء المستقلّات ـ السيّدات أو النساء المسترجلات ـ أن يلعبن دورًا عاطفيًّا في اللّحظات الّتي تسبق الولادة وخلالها حتّى؛ يستسلمن بصورةٍ سلبيّةٍ للقابلة، ولأمّهنّ؛ طفوليّاتٍ للغاية، وبعضهنّ تمنعهنّ عزّة النفس من الصراخ؛ وترفض أخرياتٌ أيّة تعليماتٍ. وبصورةٍ عامّةٍ، يمكن القول إنّهنّ يعبّرن بهذه الأزمة عن موقفهنّ العميق من العالم عمومًا، وأمومتهنّ خصوصًا: إنّهنّ عفيفاتٌ، أو مستسلماتٌ، أو مطالباتٌ، أو متسلطاتٌ، أو ثائراتٌ، أو خاملاتٌ، أو متوتّراتٌ... ولهذه النزعات النفسية تأثيرٌ كبيرٌ على طول وصعوبة الولادة (الّتي تتعلّق أيضًا بالطبع بعوامل عضويّةٍ بحتةٍ). ما هو ذو دلالةٍ، هو أنّ المرأة عادةً ـ مثل بعض إناث الحيوانات الأهليّة ـ تحتاج للعون لإكمال الوظيفة الّتي تكرسها لها الطبيعة؛ هناك فلّاحاتٌ ذوات طبعٍ قاسٍ وأمهاتٌ عازباتٌ يشعرن بالعار يلدن وحدهنّ: لكنّ ذلك يؤدي غالبًا إلى موت الطفل أو إصابة الأم بأمراضٍ لا شفاء منها. في نفس اللّحظة الّتي تكمل فيها المرأة تحقيق مصيرها الأنثوي، تظلّ تابعةً: وهذا يثبت أيضًا أنّ الطبيعة في النوع البشري لا تتميّز أبدًا عن المصطنع. الصراع بين مصلحة الفرد المؤنث ومصلحة النوع حادٌّ بالطبع بحيث يؤدي غالبًا إلى موت الأم أو الطفل: وقلّص التدخّل البشري للطب والجراحة بشكلٍ كبيرٍ ـ وحتّى ألغى تقريبًا ـ الحوادث الّتي كانت شائعةً فيما مضى. وأساليب التخدير في طريقها إلى نفي ما يقول الإنجيل: «ستلدين في الألم»؛ وهي شائعة الاستخدام في أمريكا، وبدأت تنتشر في فرنسا؛ وجعلها مرسومٌ إجباريّةً في إنجلترا في آذار 1949[173].

173- سبق أن قلت إن بعض أعداء الحركة النسوية يستنكرون باسم الطبيعة والإنجيل محاولة إلغاء آلام الولادة؛ بزعم أنّها مصدر «غريزة» الأمومة. وتبدو هـ. دويتش ميّالةً لهذا الرأي؛ فتقول إن الأم عندما لا تشعر بألم الولادة لا =

ما هي تحديدًا الآلام الّتي تخلّص المرأة منها، من الصعب معرفة ذلك. إنّ كون الولادة تدوم أحيانًا أكثر من أربعٍ وعشرين ساعةً وأحيانًا تنتهي في ساعةٍ أو ساعتين يمنع كلّ تعميمٍ. بالنسبة لبعض النساء، آلام الولادة مبرّحةٌ. وتلك حال إيزادورا دنكان: عاشت حملها فريسةً للقلق ولا بدّ أنّ مقاوماتٍ نفسيّةً زادت أيضًا من آلام الولادة؛ فكتبت ما يلي:

> **يمكن أن نقول ما نشاء عن محاكم التفتيش الإسبانية، فهي لا تخيف أيّة امرأةٍ أنجبت طفلًا. إذ كانت لهوًا بالمقارنة. لا هدنةٍ، ولا توقف، ولا رحمة، كان هذا الجنّي القاسي الخفيّ ينشب أظافره فيّ، يمزّق عظامي وأعصابي. يقال أنّ مثل هذه الآلام تُنسى بسرعةٍ. كلّ ما أستطيع الإجابة به هو أنّه يكفي أن أغمض عينيّ لأسمع من جديدٍ صراخي وتأوّهاتي.**

تعتبر بعض النساء على العكس أنّها تجربةٌ سهلة التحمّل نسبيًّا. ويجد فيها عددٌ قليلٌ متعةً حسّيةً. كتبت إحداهنّ[174]:

> **أنا كائنٌ جنسيٌّ لدرجة أنّه حتّى الولادة بالنسبة لي هي عملية جنسية. حظيت «بسيّدةٍ» جميلةٍ جدًّا. غسلتني وأعطتني حقنًا. كان ذلك كافيًا ليضعني في حالةٍ من الإثارة القصوى والارتعاشات العصبية.**

هناك من يقلن إنّهنّ شعرن خلال ولادتهنّ بالقوّة الخلّاقة؛ لقد قمن فعلًا بعملٍ إراديٍّ منتجٍ؛ وشعرت كثيراتٌ على العكس أنّهنّ سلبيّاتٌ، أداةٌ متألّمةٌ معذّبةٌ.

أول علاقةٍ للأم بالوليد متنوعةٌ أيضًا. بعض النساء يعانين من هذا الفراغ الّذي يشعرن به الآن في جسدهنّ: يبدو لهنّ أنّ كنزهنّ قد سُرِق. كتبت **سيسيل سوفاج**:

أنا الخليّة الصامتة

الّتي انطلقت نحلاتها في الهواء

= تعترف ضمنًا بأنّ الطفل لها عندما يقدّم لها؛ مع ذلك توافق على أنّ نفس الشعور بالفراغ والغرابة يصادَف أيضًا لدى الوالدات اللّواتي تألّمن؛ وتؤكّد على طول كتابها أن الحب الوالدي هو شعورٌ، وموقفٌ واعٍ؛ وليس غريزةً؛ وأنّه لا يرتبط بالضرورة بالحمل؛ وبرأيها أن المرأة يمكن أن تحب حبًا أموميًّا طفلًا متبنى، أو ابن زوجها من زواجٍ سابقٍ، إلخ. هذا التناقض يأتي طبعًا من أنها كرست المرأة للمازوشية وأن فرضيتها تجعلها تعطي قيمةً كبرى للآلام النسويّة.

174- أدلت باعترافاتٍ لستيكل لخصنا قسمًا منها.

لم أعد أجلب الطعام

من دمي إلى جسدك النحيل

كياني هو المنزل المغلق

الّذي أخرجوا منه للتوّ ميّتًا

وكذلك:

لم تعد لي وحدي. رأسك يعكس منذ الآن سماواتٍ أخرى.

وأيضًا:

لقد وُلِد، فقدتُ حبيبي الصغير

وُلِد الآن، وأنا وحيدةٌ،

أشعر في داخلي بفراغ دمي المذعور...

مع ذلك، يوجد في الوقت نفسه لدى كلّ أمٍّ شابّةٍ فضولٌ مدهوشٌ. إنّها لمعجزةٌ غريبةٌ أن ترى وتمسك كائنًا حيًّا تشكّل فيك، وخرج منك. ولكن ما هو نصيب الأم بالضبط في الحدث الرائع الّذي يلقي على الأرض بكائنٍ جديدٍ؟ إنها تجهل ذلك. ما كان ليوجد من دونها ومع ذلك فهو يفلت منها. هناك حزنٌ مدهوشٌ في رؤيته خارجًا، مفصولًا عنك. وربما خيبة أملٍ دائمًا. تودّ المرأة أن تشعر بأنّه يخصّها كما تخصّها يدها: ولكن كلّ ما يشعر به حبيسٌ داخله، إنه معتمٌ، لا يمكن دخوله، منفصلٌ؛ حتّى أنّها لا تتعرّف عليه؛ فقد عاشت حملها من دونه: ليس لديها أيّ ماضٍ مشترك مع هذا الصغير الغريب؛ كانت تنتظر أن يصبح فورًا مقربًا منها ولكن لا، إنّه قادمٌ جديدٌ وهي مذهولةٌ من اللامبالاة الّتي تستقبله بها. كان صورةً خلال أحلام فترة الحمل، كان سرمديًّا وكانت الأم تتخيّل أمومتها المقبلة؛ وهو الآن فردٌ صغيرٌ مكتملٌ، وهو هنا فعلًا، طارئٌ ضعيفٌ متطلّبٌ. وتمتزج فرحتها بأنه هنا حقيقةً بالأسف على أنّه ليس سوى ذلك.

بعد الافتراق تجد كثيرٌ من الأمّهات الشابات في الإرضاع علاقةً حيوانيّةً حميمةً بطفلهنّ؛ فهو متعبٌ أكثر من الحمل، لكنّه يسمح للمرضع أن تستمر في حالة «العطلة» والسلام واالاكتمال الّتي كانت تتمتّع بها المرأة الحامل.

تقول كوليت أودري[175] Colette Audry بشأن إحدى بطلاتها:

عندما كان الوليد يرضع، لم يكن هناك أيّ شيءٍ تفعله وقد يدوم ذلك ساعاتٍ؛ لم تكن تفكّر حتّى بما سيأتي لاحقًا. لم يكن هناك سوى انتظار أن ينفصل عن الثدي كنحلةٍ كبيرةٍ.

لكنّ هناك نساءً لا يستطعن الإرضاع وتستمرّ لديهن لامبالاة الساعات الأولى المتعجّبة طالما لم تصبح لديهنّ روابط ملموسةٌ مع الطفل. كانت هذه حال **كوليت** الّتي لم يكن بإمكانها إرضاع ابنتها والّتي وصفت بصراحتها المعهودة مشاعر الأمومة الأولى الّتي أحسّت بها[176].

ما تلا ذلك هو تأمّل شخصٍ جديدٍ دخل إلى المنزل دون أن يأتي من الخارج... هل كنت أضمّن تأملاتي ما يكفي من الحبّ؟ لا أجرؤ على تأكيد ذلك. لا شكّ أنّي كنت وما أزال شخصًا سريع الانبهار. كنت أمارس ذلك على مجموعة الأعاجيب هذه الّتي هي الوليد: أظافره، الّتي تشبه بشفافيّتها قشرة القريدس الزهريّ المحدّبة، وأخمص قدميه اللّتين جاءتا إلينا دون أن تمسّا الأرض. ريش أهدابه الخفيف، المنخفضة على الخدّ، بين المناظر الأرضيّة وحلم العين المزرقّ. والفرج الصغير، لوزةٌ مشقوقةٌ بالكاد، ذات مصراعين، مغلقةٌ تمامًا، شفةٌ بشفةٍ. لكنّي لم أكن أجد اسمًا للإعجاب الدقيق الّذي كنت أوليه لابنتي، لم أكن أشعر أنّه حبٌّ. كنت أترقّب... لم أكن أستمدّ يقظة الأمّهات المبهورات وتنافسهنّ من مشاهد طالما انتظرت في حياتي أن تتحقّق. متى ستأتيني إذًا الإشارة الّتي ستكمل كسر الحاجز الثاني والأصعب؟ قبلتُ أن تحوّلني أخيرًا إلى أمٍّ عاديةٍ مجموعةُ من التحذيرات والهيجانات الخفيّة الغيرى والهواجس الخاطئة وحتّى المصيبة، والفخر بالتصرّف بحياةٍ كنت أنا الدائنة المتواضعة لها. ولم أستعد هدوئي إلّا عندما أزهرت اللّغة غير المفهومة على الشفتين الرائعتين، عندما جعلت المعرفة والمرح وحتّى الحنان من طفلٍ صغيرٍ عاديٍّ بنتًا، ومن بنتٍ، ابنتي!

هناك أيضًا كثيرٌ من الأمّهات الخائفات من مسؤوليّاتهنّ الجديدة. لم يكن عليهنّ خلال

175- لعبة خاسرة On joue perdant

176- كوليت، النجمة فسبر Colette, l' étoile Vesper.

الحمل سوى الاستسلام لجسدهنّ؛ لم يكن يُطلب منهنّ أيّ مبادرةٍ. أمامهنّ الآن شخصٌ له حقوقٌ عليهنّ. تداعب بعض النساء طفلهنّ بمرحٍ طالما كنّ في المستشفى ما يزلن مرحاتٍ ولا مبالياتٍ، ولكن ما إن يرجعن إلى بيوتهنّ حتّى يبدأن بالنظر إليه كعبءٍ. حتّى الإرضاع لا يمنحهنّ بهجةً، على العكس، يخشين أن يفسدن صدرهنّ؛ ويشعرن بضغينةٍ لرؤية أثدائهنّ المتشقّقة، وغددها المؤلمة؛ يجرحها فم الطفل: يبدو لهنّ أنّه يمتصّ قواهنّ وحياتهنّ وسعادتهنّ. ويفرض عليهنّ عبوديةً شاقّةً ولا يعود جزءًا منهنّ: يبدو كطاغيةٍ؛ وينظرن بعدائيّةٍ إلى هذا المخلوق الصغير الغريب الّذي يهدّد جسدهنّ وحرّيتهنّ وأناهنّ بأكملها.

وتتدخّل عوامل كثيرةٌ أخرى. وتظلّ علاقة المرأة بأمها مهمّةً. تذكر هـ. **دويتش** حالة مرضعٍ شابّةٍ كان حليبها يجفّ في كلّ مرّةٍ تزورها أمها فيها؛ كانت تطلب المساعدة غالبًا، لكنّها كانت تغار من اهتمام أخرى بالوليد وتشعر تجاهه بالكآبة. كما أنّ هناك تأثيرًا كبيرًا للعلاقة بأب الطفل والمشاعر الّتي يغذّيها هو نفسه. تحدّد مجموعةٌ من الأسباب الاقتصاديّة والعاطفيّة إن كان الطفل عبئًا، قيدًا، أو تحريرًا وجوهرةً وأمانًا. وهناك حالاتٌ تصبح العدائيّة فيها كرهًا معلنًا يتجلّى بإهمالٍ تامٍّ أو سوء المعاملة. تكافحها الأم غالبًا، إذ تعي واجباتها؛ وتشعر بسبب ذلك بالندم الّذي يجلب قلقًا تتمادى فيه مخاوف الحمل. يتّفق كلّ المحلّلين النفسيين على أنّ الأمهات اللّواتي يعشن ضمن هاجس إيذاء أطفالهنّ، اللّواتي يتخيّلن حوادث فظيعةً يشعرن نحوهم بعدائيّةٍ يجهدن في دفعها. الملاحظ في كل الأحوال وما يميّز هذه العلاقة عن كلّ علاقةٍ بشريّةٍ أخرى أنّ الطفل نفسه لا يتدخّل في البداية: فابتساماته وتمتماته ليس لديها معنىً سوى ما تفهمه الأم؛ هي وليس هو من يقرّر أنّه ساحرٌ، فريدٌ، أو مزعجٌ وعاديٌّ وكريهٌ. ولهذا فالنساء الباردات، غير الراضيات، الحزينات، اللّواتي ينتظرن من الطفل صحبةً، ودفءًا، وإثارةً تنتزعهنّ من أنفسهنّ، يشعرن دومًا بخيبةٍ عميقةٍ. ومثل «اجتياز» مرحلة البلوغ، والتدريب الجنسي، والزواج، يؤدي اجتياز مرحلة الأمومة إلى خيبةٍ كئيبةٍ لدى الأشخاص الّذين يأملون بأن يجدّد حدثٌ خارجيٌّ حياتهنّ ويجد لها مسوّغًا. وهذا هو الشعور الّذي نصادفه لدى **صوفي تولستوي**. لقد كتبت:

> **كانت هذه الشهور التسعة الأسوأ في حياتي. أمّا العاشر، فالأفضل عدم التحدث عنه.**

وعبثًا تحاول جاهدةً كتابة فرحةٍ عاديّةٍ في يومياتها: يصعقنا حزنها وخوفها من المسؤوليات.

اكتمل كلّ شيءٍ. ولدتُ، نلت حصتي من الآلام، نهضت وعدت شيئًا فشيئًا إلى الحياة بخوفٍ وقلقٍ ثابتين بشأن الطفل وبشأن زوجي بشكلٍ خاصٍّ. شيءٌ ما انكسر في داخلي. شيءٌ يقول لي أني سأتألم دائمًا، أعتقد أنّ سبب ذلك هو القلق بشأن عدم قيامي بواجباتي تجاه عائلتي. لم أعد طبيعيّةً لأني خائفةٌ من هذا الحب العادي للأنثى تجاه صغارها ومن حبٍّ مبالغٍ به لزوجي. يؤكّدون أنّ حبّ الزوج والأطفال هو فضيلةٌ. تعزّيني هذه الفكرة أحيانًا... كم هو قويٌّ شعور الأمومة وكم يبدو لي طبيعيًا أن أكون أمًا. إنه طفل ليوفا ولهذا أنا أحبه.

لكننا نعلم تحديدًا أنّها لا تعلن كلّ هذا الحب زوجها إلّا لأنها لا تحبه؛ هذا النفور ينعكس على الطفل الّذي شكّلته عناقاتٌ كانت تثير اشمئزازها.

وصفت ك. مانسفيلد تردد أمٍّ شابةٍ تدلل زوجها لكنها تتقبل مداعباته بنفورٍ. وتشعر تجاه أطفالها بالحنين وبفراغٍ تعبّر عنه كئيبةً بلامبالاةٍ كاملةٍ. تفكّر ليندا بزوجها ستانلي[177]، وهي ترتاح في الحديقة بعد آخر مولودٍ لها.

الآن لقد تزوجته؛ وحتّى أنّها تحبه. ليس ستانلي الّذي كان الجميع يعرفونه، ليس ستانلي العادي؛ ولكن ستانلي الخجول، الحسّاس، البريء، الّذي يركع كلّ مساءٍ ليتلو صلواته. لكنّ المأساة كانت... أنّها كانت ترى «ستانليها» نادرًا. كانت هناك لحظاتٌ خاطفةٌ، لحظات هدوءٍ لكنّ فيما تبقّى من الوقت كانت تشعر أنّها تعيش في منزلٍ قابلٍ للاشتعال دائمًا، على مركبٍ يغرق كلّ يومٍ. وكان ستانلي دائمًا في قلب الخطر. كانت تمضي وقتها كلّه في إنقاذه والعناية به وتهدئته وسماع قصّته. كانت تمضي ما تبقى لها من الوقت خائفةً من إنجاب أطفالٍ... جميلٌ أن نقول إنّ إنجاب الأطفال هو قدر كلّ امرأةٍ. لم يكن ذلك صحيحًا، ولديها الدليل. كانت مكسورةً، موهنةً، مثبّطةً بسبب حمولها. و كان أكثر شيءٍ لا يحتمل أنّها لا تحبّ أطفالها. لا فائدة من التظاهر... كلّا، كما لو أنّ ريحًا باردةً جمّدتها في كلٍّ من هذه الرحلات الرهيبة؛ لم يعد لديها دفءٌ تمنحهم إياه. أمّا بالنسبة للصبي الصغير، حسنًا! بفضل السماء كان

177- على الخليج Sur la baie.

ينتمي لأمّه، لبيريل، لمن يشاء. بالكاد أمسكته بين ذراعيها. لم يكن يعني لها شيئًا بينما كان يرتاح عند قدميها. وخفضت نظرها... كان هناك شيءٌ غريبٌ غير منتظَرٍ في ابتسامته بحيث ابتسمت ليندا بدورها. لكنّها استعادت نفسها وقالت للطفل ببرودٍ: «لا أحبّ الأطفال». ـ «لا تحبّين الأطفال؟» لم يكن بإمكانه تصديق ذلك. «ألا تحبينني؟» كان يلوّح بذراعيه ببلاهةٍ نحو أمّه. وجلست ليندا على العشب. وقالت بصرامةٍ: «لماذا تتابع الابتسام؟ لو كنت تعرف بماذا أفكر ما كنت لتضحك...» كانت ليندا مدهوشةً لثقة هذا المخلوق الصغير. آه كلّا، كوني صريحةً. لم يكن ذلك ما تشعر به؛ كان شيئًا مختلفًا تمامًا، شيئًا جديدًا، شيئًا... وتراقصت دموعٌ في عينيها، وتمتمت بهدوءٍ للطفل: «صباح الخير، يا صغيري العجيب...»

تكفي كلّ هذه الأمثلة لإظهار أنّه ليس هناك «غريزة» أمومةٍ: وفي أيّة حالٍ لا تنطبق الكلمة على النوع البشري. يحدّد موقف الأم مجمل وضعها وطريقتها باللإضطلاع به. وهو مختلفٌ للغاية.

مع ذلك فإذا كانت كلّ الظروف إيجابيًّا ملائمةً، ستجد الأم في الطفل غنىً.

كان هذا أشبه بردٍّ من حقيقة وجودها نفسه... بواسطته أصبح لها تأثيرٌ على كلّ الأشياء وعلى نفسها كبدايةٍ.

كتبت ك. أودري عن أمٍّ شابّةٍ. وهي تعزو لأخرى هذه الكلمات:

كان يثقل على ذراعيّ وصدري كما لو كان أثقل شيءٍ في العالم، يستنفد قواي. كان يغرزني في الأرض ضمن الصمت واللّيل. بضربةٍ واحدةٍ ألقى على كتفيّ ثقل العالم. لهذا أردته هو. كنت خفيفةً جدًّا وحدي.

إذا كانت بعض النساء «البيّاضات» بالأحرى أكثر من كونهنّ أمّهاتٍ، لا يهتممن بالطفل ما إن يفطمنه أو منذ ولادته، ولا يتمنّين إلا حملًا جديدًا، فكثيراتٌ على العكس يشعرن أن الافتراق هو ما يمنحهنّ الطفلَ؛ لم يعد قطعةً غير متميّزةٍ من أناهنّ لكنّه جزءٌ من العالم؛ لم يعد يلازم الجسد خفيةً، ولكن أصبح بالإمكان رؤيته ولمسه؛ بعد كآبة الولادة، تعبّر سيسيل سوفاج عن بهجة الأمومة الاستئثاريّة:

ها أنت ذا يا محبوبي الصغير

على سرير أمّك الواسع

أستطيع أن أقبّلك، وأمسكك،

وأقدّر مستقبلك الجميل

صباح الخير يا تمثالي الصغير

المصنوع من الدم والبهجة واللحم العاري

يا نسخةً صغيرةً عني، يا عاطفتي...

قالوا وردّدوا إنّ المرأة لحسن الحظ تجد في الطفل معادلًا للقضيب: وهذا غير صحيحٍ أبدًا. في الواقع، كفّ الرجل البالغ عن اعتبار قضيبه لعبةً رائعةً: القيمة الّتي بقيت لعضوه هي قيمة الأشياء المرغوبة الّتي يجعلك تنالها؛ تحسد المرأة البالغة الذكر على الفريسة الّتي يستولي عليها وليس على أداة هذا الاستيلاء؛ ويشبع الطفل هذه الشهوانيّة العدوانيّة الّتي لا يشبعها العناق الذكوري: فهو مماثلٌ لهذه العشيقة الّتي تقدّمها للذكر الّذي هو ليس لها؛ لا يوجد تكافؤٌ دقيقٌ بالطبع: فكلّ علاقةٍ أصليّةٌ؛ لكنّ الأم تجد في الطفل ـ كما يجد العاشق في المحبوبة إشباعًا جسديًا، ليس في الاستسلام ولكن في السيطرة؛ لقد أدركت لديه ما يبحث الرجل عنه لدى المرأة: آخر يكون طبيعةً ووعيًا في آنٍ معًا، يكون طريدته، نسخةً عنه. يمثّل الطبيعة كلها. تقول لنا بطلة ك. أودري أنّها كانت تجد في طفلها:

الجلد الّذي كان لأصابعي، الّذي يذكّر بكلّ القطط الصغيرة، وكلّ الأزهار...

لجسده هذه النعومة، هذه المرونة الدافئة الّتي تمنّتها المرأة عندما كانت طفلةً من خلال جسد الأم، وفيما بعد، في كلّ أرجاء العالم. إنّه نباتٌ وحيوانٌ، وفي عينيه الأمطار والجداول، لازورد السماء والبحر، وأظافره من المرجان، وشعره نباتاتٌ حريريةٌ، إنه لعبةٌ حيّةٌ، عصفورٌ، هرٌّ صغيرٌ؛ زهرتي، لؤلؤتي، صوصي، وحمَلي... تهمس الأمّ تقريبًا بكلمات العشيق وتستخدم مثله أدوات التملّك بوفرةٍ؛ ونفس طرق الاستيلاء: المداعبات، والقبل؛ تضمّ الطفل إلى جسدها، وتغمره بحرارة ذراعيها، وسريرها. أحيانًا تكتسي هذه العلاقات صبغةً جنسيّةً واضحةً. وهكذا نقرأ في الاعتراف الّذي حصل عليه ستيكل والّذي ذكرته سابقًا:

كنت أرضع ابني، ولكن دون بهجةٍ لأنّه لم يكن ينمو وخسر كلانا وزنًا. كان هذا يمثّل

شيئًا جنسيًا بالنسبة لي وكنت أشعر بالخجل وأنا أعطيه الثدي. كان لديّ إحساسٌ لذيذٌ عندما كنت أشعر بيديه الصغيرتين تلمسانني... كان كلّ حبي ينفصل عن أناي ليذهب نحو ابني... كان الطفل غالبًا معي. ما إن يراني في السرير، كان وقتها في السنتين من عمره، حتى كان يذهب نحو السرير، محاولًا وضع نفسه فوقي. كان يداعب ثدييَ بيديه الصغيرتين ويريد إنزال إصبعه؛ ما كان يشعرني بالمتعة لدرجة أنّي كنت أجد صعوبةً في ردّه. كثيرًا ما اضطررت إلى مكافحة إغراء اللّعب بقضيبه...

وتتّخذ الأمومة صورةً جديدةً عندما يكبر الطفل؛ ففي البداية لا يكون سوى «طفلٍ صغيرٍ عاديٍّ»، غير موجودٍ إلا بعموميّته: ثمّ يتفرّد شيئًا فشيئًا. عندها تصبح النساء شديدات التسلّط أو الشهوانيّات جدًّا بارداتٍ تجاهه؛ في هذه اللّحظة على العكس تبدأ بعضُ الأخريات ـ مثل **كوليت** ـ بالاهتمام به. تصبح علاقة الأم بالطفل معقّدةً أكثر فأكثر: إنّه نسخةٌ وأحيانًا ترغب في أن تُستلب فيه بشكلٍ كاملٍ، لكنّه شخصٌ مستقلٌّ، وبالتالي متمرّدٌ؛ إنّه حقيقيٌّ فعلًا اليوم، لكنّه مراهق المستقبل، وتتخيّله بالغًا؛ إنّه غنىً، كنزٌ: وهو أيضًا عبءٌ، وطاغيةٌ. المتعة الّتي يمكن أن تشعر بها الأمّ هي متعة كرمٍ؛ يجب أن تُسرّ بالخدمة، بالعطاء، بخلق سعادةٍ مثل الأمّ الّتي ترسم ملامحها ك. أودري:

كانت لديه إذًا طفولةٌ سعيدةٌ كما في الكتب، لكنّها كانت بالنسبة للطفولة الموجودة في الكتب مثل الورود الحقيقيّة بالنسبة لورود البطاقات البريدية. وكانت سعادته هذه تخرج منّي كالحليب الّذي غذّيته به.

تفرح الأمّ كالعاشقة بشعورها بأنّها ضروريّةٌ؛ وتجد لها مسوّغًا في المتطلّبات الّتي تلبّيها؛ لكن ما يصنع صعوبة الحبّ الأمومي وعظمته هو أنّه لا يفرض مبادلةً؛ ليس أمام المرأة رجلٌ، بطلٌ، نصف إلهٍ، ولكن شعورٌ صغيرٌ متلعثمٌ، غارقٌ ضمن جَسدٍ هشٍّ طارئٍ؛ لا يملك الطفل أيّة قيمةٍ، ولا يمكنه إعطاء شيءٍ منها؛ تبقى المرأة أمامه وحيدةً؛ لا تنتظر أيّة مكافأةٍ مقابل ما تمنحه. عليها أن تثبت هذا العطاء. يستحقّ هذا الكرم ما يغدقه الرجال عليها باستمرارٍ من مديحٍ؛ لكن الخداع يبدأ عندما يعلن تقديس الأمومة أنّ كلّ الأمّهات مثاليّاتٌ. لأنّه قد يكون تفاني الأمّ أصليًّا ولكنّ ذلك نادرٌ. في العادة تكون الأمومة تواطؤًا غريبًا بين النرجسيّة والغيريّة والحلم والصدق وسوء النيّة والتفاني والاستخفاف.

الخطر الكبير الّذي تهدّد به معتقداتنا الطفل، هو أنّ الأمّ الّتي نعهد به بكلّيته إليها هي دائمًا تقريبًا أمّ غير مكتفيةٍ: فجنسيًّا هي باردةٌ أو غير مشبَعةٍ؛ واجتماعيًّا تشعر أنّها دون الرجل؛ لا تؤثّر على العالم ولا على المستقبل؛ وتبحث عن تعويض كل كبتها عبر الطفل؛ عندما فهمنا إلى أيّة درجةٍ يجعل وضع المرأة الحالي عليها صعبًا أن تزدهر بشكلٍ كاملٍ، وكم من الرغبات والثورات والمطالب والاستحقاقات تسكنها خفيةً، نخشى أن نترك لها أطفالها المجرّدين من أيّ دفاعٍ. كما كانت سابقًا تدلّل لعبها تارةً وتعذّبها تارةً أخرى، فسلوكيّاتها رمزيّةٌ: لكنّ هذه الرموز تصبح بالنسبة للطفل حقيقةً قاسيةً. الأمّ الّتي تجلد طفلها لا تضرب الطفل فقط، من جهةٍ هي لا تضربه البتّة: إنّها تنتقم من رجلٍ، من العالم، أو من نفسها؛ لكنّ الطفل هو من يتلقّى الضربات. لقد شرح **مولودجي** Mouloudji في «إنريكو Enrico» سوء التفاهم المؤسف هذا: فهم **إنريكو** جيّدًا أنّ أمّه لم تكن تضربه هو بهذا الشكل الجنونيّ؛ وعندما كانت تفيق من هذيانها كانت تنتحب من الندم والحنان؛ لم يحقد عليها، لكنّ هذه الضربات شوّهته مع ذلك. وأيضًا الأم الّتي ذكرتها **فيوليت لودوك** Violette Leduc في «الاختناق»، الّتي عندما تثور على ابنتها تنتقم من ذاك الّذي أغواها وتخلّى عنها، ومن الحياة الّتي أذلّتها وقهرتها. عرفنا دائمًا هذا الشكل القاسي من الأمومة؛ لكنّهم جرّدوا فكرة «الأمّ السيّئة» من معناها بحياءٍ منافقٍ باختراع نمط زوجة الأب؛ فالزوجة الثانية هي الّتي تعذّب طفل «أمٍّ جيّدةٍ» متوفّاةٍ. في الحقيقة، تصف لنا **مدام دوسيغور** Mme Ségur de في السيّدة **فيشيني** أمًّا هي نموذجٌ مطابقٌ للسيّدة **فلورفيل**. ومنذ قصّة «الأصهب poil de carotte» لـ**جول رنار** Jules Renard، تعدّدت الاتّهامات: **إنريكو**، الاختناق، الكره الأموميّ لـ س. **دو ترفاني** S.de Travagnes، الحيّة ذات القبضة لـ **إرفيه بازان** Hervè Bazin. إذا كانت النماذج الموصوفة في هذه الروايات استثنائيّةً بعض الشيء، فذلك لأنّ معظم النساء يخفين اندفاعاتهنّ التلقائيّة بدافع الأخلاق واللياقة؛ لكنّهنّ يفضحن أنفسهنّ بشكلٍ خاطفٍ من خلال مشاحناتٍ أو صفعاتٍ، أو غضبٍ، وشتائم، وعقابٍ، إلخ. وإلى جانب الأمهات الساديّات بشكلٍ صريحٍ، هناك كثيراتٌ ذوات نزواتٍ خصوصًا؛ تبهجهنّ السيطرة؛ والطفل الصغير لعبةٌ: إن كان صبيًّا يلهون بعضوه دون تردّدٍ؛ وإن كانت بنتًا يصنعن منها دميةً؛ فيما بعد، يرغبن في أن يطيعهنّ عبدٌ صغيرٌ بشكلٍ أعمى: وإن كنّ متفاخراتٍ يعرضن

الطفل كأنّه حيوانٌ مدرّبٌ؛ وإن كنّ غيوراتٍ واستئثاريّاتٍ يعزلنه عن بقيّة العالم. غالبًا أيضًا لا تتخلى المرأة عن مكافأتها لقاء عنايتها بالطفل: فتصنع عبره كائنًا خياليًّا يعترف بجميلها كأمٍّ تثير الإعجاب وترى نفسها فيه. عندما كانت **كورنيلي** تقول بفخرٍ وهي تظهر أبناءها: «ها هم جواهري»، كانت تعطي أسوأ مثالٍ للذرّيّة؛ كثيرٌ من الأمّهات يعشن على أمل تكرار هذه الحركة الفخورة ذات يومٍ؛ ولا يتردّدن في التضحية لهذه الغاية بالكائن الصغير من اللّحم والدم الّذي لا يرضيهنّ وجوده الطارئ، المتردّد. يفرضن عليه أن يشبه زوجهنّ أو على العكس ألّا يشبهه، أو أن يتقمّص أبًا، أو أمًّا، أو جدًّا موقّرًا؛ يقلّدن نموذجًا رائعًا: تروي **هيلين دويتش** حكاية ألمانيّةٍ اشتراكيّةٍ معجبةٍ للغاية بـ**ليلي براون** Lily Braun؛ وكان لمحرّكة الجماهير الشهيرة هذه ابنٌ متفوّقٌ مات صغيرًا؛ وأصرّت الّتي تقلّدها على أن تجعل من ابنها هي في المستقبل شخصًا متفوّقًا وكانت النتيجة أن أصبح لصًّا. هذا الاستبداد غير الملائم يؤذي الطفل وهو دائمًا مصدر خيبةٍ للأم. وتذكر هـ. دويتش مثالًا آخر صارخًا على ذلك، هو مثال إيطاليّةٍ تابعت قصّتها خلال بضع سنواتٍ.

> **كان للسيّدة مازيتي العديد من الأطفال وكانت تشكو دون توقّفٍ من أنّها تعاني متاعب مع هذا أو ذاك من بينهم، كانت تطلب المساعدة ولكن كان من الصعب مساعدتها لأنّها كانت تظنّ نفسها أعلى من الجميع وخصوصًا من زوجها وأطفالها؛ كانت تتصرّف بكثيرٍ من الإتّزان والتكبّر خارج نطاق أسرتها: ولكن كانت في بيتها على العكس مهتاجةً جدًّا وتثير شجاراتٍ عنيفةً. كانت آتيةً من وسطٍ فقيرٍ وجاهلٍ وأرادت دومًا أن «ترتقي»؛ فتابعت دروسًا مسائيّةً وكانت لتشبع طموحها ربّما لو لم تتزوّج في سنّ السادسة عشرة من رجلٍ كان يجذبها جنسيًّا وجعلها حبلى. تابعت محاولة الخروج من وسطها بمتابعة دروسٍ، إلخ.. كان الزوج عاملًا جيّدًا ذا خبرةٍ، فقاده سلوك زوجته العدوانيّ والمتعالي إلى إدمان الكحول كردّ فعلٍ؛ وقد جعلها حبلى مرّاتٍ عديدةً ربما لينتقم منها. وبعد أن قضت زمنًا مستكينةً لقدرها انفصلت عن زوجها، وبدأت تعامل أطفالها بنفس طريقتها مع أبيهم؛ في طفولتهم كانوا يرضونها فكانوا يدرسون بشكلٍ جيّدٍ وينالون علاماتٍ جيّدةً في المدرسة،إلخ.. ولكن عندما بلغت كبراهنّ لويز سنّ السادسة عشرة، خافت الأم من أن تكرّر تجربتها هي: وأصبحت صارمةً وقاسيةً بحيث أنّ لويز بالفعل ومن باب الانتقام أنجبت طفلًا غير شرعيٍّ. كان الأطفال منحازين لأبيهم بوجه الإجمال ضدّ أمهم الّتي كانت ترهقهم بمتطلّباتها الأخلاقيّة الكبيرة؛**

لم يكن باستطاعتها أبدًا الاهتمام بأكثر من طفلٍ واحدٍ في الوقت نفسه، واضعةً كلّ آمالها فيه؛ ثم كانت تمنح تفضيلها لآخر، دون سببٍ، ما جعل الأطفال ثائرين وغيورين. وبدأت الفتيات الواحدة تلو الأخرى يعاشرن الرجال، ويلتقطن الزّهري ويعدن إلى المنزل مع أطفالٍ غير شرعيين؛ وأصبح الصبيان لصوصًا. ولم تكن الأم تريد أن تفهم أنّ متطلّباتها المثاليّة هي ما دفعهم إلى هذهِ الطريق.

يمتزج غالبًا هذا العناد التربوي بالسادية المتقلّبة؛ وتبرّر الأم سورات غضبها بأنّها تريد «تشكيل» الطفل؛ وبالعكس يزيد فشل محاولتها عدوانيّتها.

سلوكٌ آخر كثير الحدوث وليس أقلّ إيذاءً للطفل، هو التفاني المازوشي؛ بعض الأمهات، كي يعوضن فراغ قلبهنّ ويعاقبن أنفسهنّ على عدوانيّةٍ لا يرغبن بالاعتراف بها، يجعلن من أنفسهنّ عبيد أولادهنّ؛ ويذكين إلى ما لا نهايةٍ قلقًا مرضيًّا، فلا يتحمّلن أن يبتعد الطفل عنهنّ؛ ويتخلّين عن كلّ متعةٍ، وكلّ حياةٍ شخصيّةٍ، ما يسمح لهنّ باتّخاذ وضعيّة الضحيّة؛ ويأخذن من هذه التضحيات الحق في إنكار كلّ استقلالٍ للطفل؛ يتوافق هذا التنازل بسهولةٍ مع إرادةٍ استبداديّةٍ في السيطرة؛ الأم المعذّبة تجعل من آلامها سلاحًا تستخدمه بساديّةٍ؛ تولد مشاهد استسلامها لدى الطفل شعورًا بالذنب يثقل عليه غالبًا طول حياته: وهي مؤذيةٌ أكثر من الثورات العنيفة. ويبقى الطفل متأرجحًا مضطربًا، ولا يجد أيّ وضعيّة دفاعٍ: ضرباتٌ حينًا ودموعٌ حينًا آخر تعطيه هيئة المجرم. وعذر الأم الكبير أنّ الطفل لا يمنحها اكتمال ذاتها السعيد الّذي وعدوها به منذ طفولتها: تنقم عليه للخديعة الّتي كانت ضحيّتها والّتي كشفها ببراءةٍ. كانت تتصرّف بلعبها على هواها؛ وعندما كانت تساعد أختًا أو صديقةً في العناية بوليدٍ لم تكن تلك مسؤوليتها. الآن يحاسبها المجتمع وزوجها وأمها وكبرياؤها على هذه الحياة الصغيرة الغريبة كما لو كانت من صنعها: يثور الزوج خصوصًا لأخطاء الطفل كما يثور لعشاءٍ فاشلٍ أو لفسق زوجته؛ وترمي متطلّباته المبهمة بثقلها غالبًا على علاقة الأم بالطفل؛ المرأة المستقلّة ـ بفضل وحدتها، ولا مبالاتها أو سيطرتها على المنزل ـ تكون هادئةً أكثر من تلك الّتي تُثقل عليها إراداتٌ مسيطرةٌ يجب عليها أن تطيعها شاءت أم أبت بأن تجعل الطفل يطيع. لأنّ الصعوبة الكبرى هي أن تَحبس ضمن أُطرٍ جاهزةٍ وجودًا غامضًا كوجود الحيوانات، مضطربًا وفوضويًا مثل قوى الطبيعة، بشريًّا مع ذلك؛ لا يمكن

ترويض الطفل بصمتٍ كما ندرّب كلبًا ولا أن نقنعه بكلمات الكبار: إنه يلعب بهذا التناقض، مقابلًا الكلمات ببهيميّة نشيجه واختلاجاته، والضغوط بفظاظة الكلام. تبدو المسألة شيّقةً بالتأكيد إن طرحناها بهذا الشكل وعندما يكون لدى الأم فرصةٌ يسعدها أن تكون مربّيةً: عندما تكون جالسةً بهدوءٍ في حديقةٍ عامةٍ، يظلّ الوليد حجّةً كما عندما كان معشّشًا في بطنها؛ غالبًا، بما أنها ظلّت طفوليّةً تقريبًا، يسرّها أن تتحامق معه، مستعيدةً الألعاب والكلمات والاهتمامات والمتع القديمة. ولكن عندما تغسل وتطبخ وترضع طفلًا آخر وتتسوّق وتستقبل زوّارًا وخصوصًا عندما تهتمّ بزوجها، لا يعود الطفل سوى حضورٍ مزعجٍ، متعبٍ؛ ليست لديها فرصة «تشكيله»؛ يجب أولًا منعه من الإيذاء؛ إنّه يكسر ويمزّق ويلوّث، وهو خطرٌ قائمٌ على الأشياء وعلى نفسه؛ يتحرّك ويصرخ ويتكلّم ويحدث ضجّةً: يعيش على حسابه؛ وهذه الحياة تزعج حياة أبويه. فلا تتقاطع مصلحته ومصلحتهما: من هنا تنشأ المأساة. إنّه يزعجهما باستمرارٍ، فيفرض عليه الأبوان دون توقّفٍ تضحياتٍ لا يفهم أسبابها: يضحّيان به من أجل راحتهما ومن أجل مستقبله أيضًا. ومن الطبيعي أن يتمرّد. إنّه لا يفهم ما تحاول أمه شرحه له: لا يمكنها أن تدخل ضمن وعيه؛ فأحلامه ومخاوفه وهواجسه ورغباته تشكّل عالمًا معتمًا: لا تستطيع الأم سوى أن تنظّم من الخارج، متلمّسةً، كائنًا يرى هذه القوانين مبهمةً وعنفًا غير مفهومٍ. عندما يكبر الطفل، يظل عدم الفهم قائمًا: يدخل إلى عالمٍ من المصالح، ومن القيم الّتي أقصت الأم نفسها عنها؛ وغالبًا ما يحتقرها لذلك. والصبي خصوصًا، فخورًا بامتيازاته الذكوريّة، يسخر من أوامر امرأةٍ: فهي تفرض عليه إنجاز واجباته، لكنها لا تستطيع حلّ المسائل الّتي عليه حلّها، أو ترجمة نصٍّ لاتينيٍّ؛ لا تستطيع «أن تتبعه». تتوتّر الأم أحيانًا إلى درجة البكاء من هذه المهمة الصعبة الّتي لا يقدّر الزوج صعوبتها إلّا نادرًا: أي إدارة شخصٍ لا نتواصل معه ومع ذلك فهو كائنٌ بشريٌّ؛ والتدخّل في حرّيّةٍ غريبةٍ لا تتحدّد وتتأكّد إلّا بثورتها ضدّك.

ويختلف الموقف حسبما يكون الطفل صبيًّا أو بنتًا؛ ورغم أنّ الأول «أكثر صعوبةً» فالأم عمومًا تنسجم معه بشكلٍ أفضل. كثيرٌ من النساء يتمنّين أبناءً بسبب الإجلال الّذي تسبغه المرأة على الرجال، وكذلك الامتيازات الّتي يتمتّع بها هؤلاء بشكلٍ ملموسٍ. ويقلن: «من الرائع إنجاب رجلٍ!» رأينا أنهنّ كنّ يحلمن بإنجاب «بطلٍ»، والبطل بالطبع ذكرٌ. سيصبح

الابن رئيسًا، يقود الرجال، جنديًا، خلّاقًا؛ سيفرض إرادته على وجه الأرض وستشاركه أمّه خلوده؛ سيعطيها البيوت الّتي لم تبنها، والبلاد الّتي لم تستكشفها، والكتب الّتي لم تقرأها. من خلاله ستملك العالم: ولكن بشرط أن تملك ابنها. من هنا ينشأ تناقض موقفها. يعتبر **فرويد** أنّ علاقة الأم والابن تحوي على ازدواجيّةٍ أقلّ؛ ولكن موقف المرأة من التسامي الذكوري ملتبسٌ في الواقع في الأمومة كما في الزواج والحبّ؛ إذا جعلتها حياتها الزوجية أو العاطفية معاديةً للرجال، سيكون ترضيةً لها أن تسيطر على الذكر المصغّر إلى صورته الطفوليّة؛ ستعامل العضو المتغطرس بمزاحٍ ساخرٍ: أحيانًا تخيف الطفل بقولها إنّهم سيقطعونه له إن لم يكن وديعًا. حتّى إن كانت أكثر تواضعًا ومسالمةً وتحترم في طفلها البطل المقبل، فستبذل جهدها في اختزاله إلى حقيقته المتأصّلة لكي يكون فعلًا لها: وكما تعامل زوجها كطفلٍ، تعامل طفلها كوليدٍ. إن ظننّا أنها تتمنى خصاء طفلها فسيكون ذلك عقلانيًا وبسيطًا أكثر مما يجب؛ فحلمها أكثر تناقضًا: تريده لا متناهيًا وفي قبضة يدها مع ذلك، مسيطرًا على العالم بأسره، وجاثيًا أمامها. تشجّعه على أن يكون رهيف الشعور شرهًا أنانيًا خجولًا ساكنًا، وتمنعه من الرياضة ولقاء الرفاق وتجعله يتحدّى نفسه، لأنّها تنوي إبقاءه لها؛ لكنها تشعر بخيبةٍ إذا لم يصبح في الوقت نفسه مغامرًا وبطلًا وعبقريًا تستطيع أن تفخر به. لا شكّ في أنّ تأثيرها مؤذٍ غالبًا كما أكّد **مونترلان** Montherlant، وكما أبرزه **موریاك** في «Génitrix». ولحسن حظ الصبي فهو يستطيع بسهولةٍ أن يفلت من هذه السيطرة: تشجّعه على ذلك الأعراف والمجتمع. وتستسلم الأم ذاتها لذلك: فهي تعلم أنّ الصراع ضدّ الرجل غير متكافئٍ. وتعزّي نفسها بلعب دور الأم المعذّبة أو أن تجترّ فخرها لأنها أنجبت أحد المنتصرين.

أمّا الفتاة الصغيرة فتخضع بشكلٍ كاملٍ لأمّها؛ وتزداد بذلك مطالب هذه الأخيرة. وتكتسي علاقتهما صبغةً أكثر مأساويّةً. لا ترى الأم في الفتاة أحد أعضاء الصفوة المختارة: بل تبحث فيها عن صورتها. وتعكس فيها كلّ التباس علاقتها بنفسها؛ وعندما تتأكّد غيريّة هذه الأنا الأخرى، تشعر أنه قد غُدِر بها. وتتّخذ الصراعات الّتي تحدّثنا عنها بين الأم والبنت شكلًا ساخطًا.

هناك نساءٌ راضياتٌ بحياتهنّ لدرجة أنّهنّ يتمنّين أن يتجسدن من جديدٍ في فتاةٍ أو على

الأقلّ أن يستقبلنها دونما خيبةٍ؛ يتمنّين إعطاء طفلتهنّ الفرص الّتي أتيحت لهنّ، وأيضًا تلك الّتي لم تتح لهنّ: أن يصنعن لها شبابًا سعيدًا. رسمت **كوليت** صورة إحدى هاته الأمهات المتوازنات والكريمات؛ تحبّ «سيدو» ابنتها ضمن حريتها؛ تغمرها دون أن تطلب منها شيئًا بالمقابل لأنها تستمدّ بهجتها من قلبها هي. يمكن بتفاني الأم لهذه النسخة الّتي ترى نفسها وتتفوّق على ذاتها فيها، أن ينتهي الأمر بها إلى أن تُستلب تمامًا فيها؛ فتتخلّى عن أناها، ويصبح همّها الوحيد سعادة طفلتها؛ حتّى تبدو أنانيّةً وقاسيةً تجاه بقيّة العالم؛ يتهدّدها خطر أن تصبح مزعجةً لتلك الّتي تعبدها، مثلما كانت **مدام دو سيفينييه** Mme de Sévigné بالنسبة لـ**مدام دوغرينيان** Mme de Grignan؛ تحاول الابنة بمزاجٍ سيّء أن تتخلّص من تفانٍ متسلّطٍ؛ وتفشل في ذلك غالبًا، وتبقى طول حياتها طفوليّةً، خجولةً أمام مسؤولياتها لأنّها كانت محاطةً برعايةٍ زائدةٍ. لكنّ قد يرمي شكلٌ مازوشيٌّ من أشكال الأمومة بثقله على الفتاة الشابة. وتشعر بعض النساء أنّ أنوثتهنّ لعنةٌ مطلقةٌ: يتمنين أو يستقبلن الفتاة بمرارة متعة أن يجدن أنفسهنّ ثانيةً في ضحيّةٍ أخرى؛ وفي الوقت نفسه يعتبرن نفسهنّ مذنباتٍ لأنّهن أنجبنها؛ ويتجلّى ندمهنّ والشفقة الّتي يشعرن بها تجاه نفسهنّ من خلال ابنتهنّ بقلقٍ لا متناهٍ؛ فلا يتركن الطفلة أبدًا؛ وينمن معها في نفس السرير خمس عشرة سنةً، أو عشرين؛ وتتلاشى الفتاة الصغيرة بنار هذه العاطفة القلقة.

تضطلع معظم النساء بمسؤوليّة وضعهنّ النسويّ ويكرهنه في آنٍ معًا؛ يعشنه بضغينةٍ. وقد يدفعهنّ الاشمئزاز الّذي يشعرن به نحو جنسهنّ إلى منح ابنتهنّ تربيّةً ذكوريّةً: ونادرًا ما يكنّ كريماتٍ. تثور الأمّ لإنجابها امرأةً، فتستقبلها بهذه اللّعنة الملتبسة: «ستصبحين امرأةً». وتأمل بأن تعوّض عن دونيّتها بأن تجعل من تلك الّتي تنظر إليها كنسخةٍ عنها مخلوقةً أرفع مقامًا؛ وتميل أيضًا إلى أن تفرض عليها العيب الّذي عانت منه. تحاول أحيانًا أن تفرض على الطفلة مصيرها ذاته: «ما كان جيّدًا لي جيّدٌ لك؛ هكذا ربّوني، ستشاركينني قدري». وأحيانًا على العكس، تمنعها بعنفٍ من أن تشبهها: تريدها أن تستفيد من تجربتها، وهذا يجعلها تشعر ثانيةً بمعاناتها القديمة. فتضع المرأة المستهترة ابنتها في الدير، وتدفعها الجاهلة إلى التعلّم. في «الاختناق L'Asphyxie»، الأمّ الّتي ترى في ابنتها نتيجةً كريهةً لغلطة شبابٍ تقول لها ثائرةً:

حاولي أن تفهمي. سأتبرّأ منك إذا حدث لك أمرٌ مشابهٌ. أنا لم أكن أعرف شيئًا. الخطيئة! هذا أمرٌ مبهمٌ، الخطيئة! إذا ناداك رجلٌ، لا تذهبي. تابعي طريقك. لا تلتفتي. أتسمعينني؟ لقد حذّرتك، لا يجب أن يحدث هذا لك وإن حدث، لن أشفق عليك، سأتركك في النهر.

رأينا أنّ السيدة **مازيتي**، لفرط ما أرادت تجنيب ابنتها الخطأ الّذي كانت هي نفسها قد اقترفته، دفعتها إليه دفعًا. يروي ستيكل حالةً معقّدةً من حالات كره الأمّ لابنتها:

كنت أعرف أمًّا لم تكن تستطيع تحمّل ابنتها الرابعة منذ ولادتها، والّتي كانت مخلوقةً صغيرةً محبّبةً ولطيفةً... كانت تتّهمها بأنّها ورثت عن زوجها كلّ عيوبه... ولدت الطفلة في فترةٍ كان قد غازلها فيها رجلٌ آخر، شاعرٌ أغرمت به بشدّةٍ؛ كانت تأمل أن تأخذ الطفلة ملامح الحبيب، كما في التجاذب الاختياري les Affinités électives لغوته Goethe. ولكنّها كانت تشبه أباها منذ ولادتها. عدا عن أنّ الأمّ كانت ترى في هذه الطفلة انعكاسًا لها: الحماس، والرقّة، والتفاني، والشبقيّة. كانت تتمنى أن تكون قويّةً، ذات عزمٍ، صلبةً، عفيفةً، حيويّةً. كانت تكره نفسها أكثر مما تكره زوجها في هذه الطفلة.

عندما تكبر الطفلة تبدأ صراعاتٌ حقيقيّةٌ؛ رأينا أنّها كانت تتمنّى تأكيد استقلالها تجاه أمها: وهذه علامة عقوقٍ بغيض بنظر الأم الّتي تصرّ على «قهر هذه الإرادة الّتي تتملّص؛ لا تقبل أن تصبح نسختها «آخر». لا تعرف المرأة المتعة الّتي يتذوّقها الرجل مع النساء، وشعوره بالتفوّق، إلّا مع أولادها وخصوصًا بناتها؛ تشعر أنّها مكبوتةٌ إن كان عليها التخلّي عن امتيازاتها وسلطتها. وسواءً كانت أمًّا شغوفةً أو عدوانيّةً، فاستقلال الطفلة يهدم آمالها. إنها تغار بشكلٍ مزدوجٍ: من العالم الّذي يأخذ منها ابنتها، ومن ابنتها الّتي تسرق منها العالم عندما تكسبه. تنسحب هذه الغيرة أولًا على علاقة الفتاة بأبيها؛ فأحيانًا تستخدم الأمّ البنت لتربط الزوج بالبيت: وتغتاظ في حال الفشل، ولكن إن نجحت مناورتها، تسارع في إذكاء عقدتها الطفوليّة بشكلٍ معكوسٍ: فتثور على ابنتها، كما كانت تثور في الماضي على أمّها؛ وتحرَد، وتظنّ أنّها مهجورةٌ وغير مفهومةٍ. إحدى الفرنسيات، المتزوجة بأجنبيٍّ كان يحبّ بناته كثيرًا، قالت يومًا غاضبةً: «لم أعد أحتمل العيش مع أجانب!» وغالبًا ما تتعرض

الكبرى، المفضّلة لدى أبيها، لاضطهاد أمّها. فترهقها الأم بمهمّاتٍ بغيضةٍ، وتطالبها بأن تكون جدّيّةً أكثر من سنّها: فتُعامَل كبالغةٍ بما أنّها منافِسةٌ؛ وتتعلّم هي أيضًا أنّ «الحياة ليست روايةً، وليس كلّ شيءٍ ورديًا، لا نفعل ما نريد، ولسنا في هذا العالم كي نتسلّى...» كثيرًا ما تصفع الأم الطفلة خبط عشواء فقط «كي تعلّمها»؛ وتصرّ على إفهامها أنّها تبقى السيّدة: لأنّ ما يضايقها أكثر من سواه هو أنّه ليس لديها أيّ تفوّقٍ حقيقيٌّ تقابل به طفلةً في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها؛ فهذه تستطيع تأدية المهام المنزلية بشكلٍ كاملٍ، إنّها «امرأةٌ صغيرةٌ»؛ لديها حتّى حيويّةٌ وفضولٌ ونفاذ بصيرةٍ تجعلها متفوّقةً على النساء البالغات لاعتباراتٍ عديدةٍ. يسرّ الأمّ أن تسود دون منازعٍ على عالمها النسويّ؛ تريد أن تكون فريدةً، لا يُستغنى عنها؛ وها هي مساعدتها الصغيرة تختزلها إلى عموميّة وظيفتها البحتة. توبّخ ابنتها بقسوةٍ إذا وجدت المنزل بحالة فوضى بعد غيابها عنه يومًا أو يومين؛ ولكنها تصاب بذعرٍ غاضبٍ إذا اتّضح أنّ الحياة الأسريّة جرت بشكلٍ ممتازٍ من دونها. لا تقبل أن تصبح ابنتها نسخةً فعلًا، بديلًا عنها. مع ذلك، يصعب عليها أكثر أن تؤكّد ذاتها بشكلٍ صريحٍ كأخرى. وتكره بشكلٍ منهجيٍّ الصديقات اللّواتي تبحث ابنتها لديهنّ عن العون ضدّ اضطهاد الأسرة واللّواتي «يحمّسنها»؛ فتنتقدهنّ، وتمنع ابنتها من رؤيتهنّ كثيرًا أو حتّى تتعلّل «بتأثيرهنّ السيّء» لتمنعها جذريًّا من معاشرتهنّ. كلّ تأثيرٍ غير تأثيرها سيّئٌ؛ لديها عداءٌ خاصٌّ للنساء اللّواتي في سنّها ـ الأستاذات، وأمّهات الرفيقات ـ اللّواتي تتعلّق بهنّ البنت: فتعلن أنّ هذه المشاعر غير مفهومةٍ أو ضارّةٍ. أحيانًا، يكفي لإغضابها مرح الطفلة أو لامبالاتها أو لعبها أو ضحكاتها؛ وتسامح الصبيان على ذلك بطيب خاطرٍ؛ فهم يستخدمون امتيازاتهم الذكوريّة، وهذا طبيعيٌّ، وقد تخلّت منذ زمنٍ طويلٍ عن تنافسٍ مستحيلٍ. ولكن لماذا تتمتّع هذه المرأة الأخرى بامتيازاتٍ حُرِمت هي منها؟ لقد وقعت في شراك الجدّيّة، وهي تحسد البنت على كلّ الاهتمامات والتسليات الّتي تخرجها من ملل المنزل؛ يكذّب هذا الهروب كل القيم الّتي ضحّت لأجلها. وكلما كبرت الطفلة، كلّما نهش الحقد قلب الأمّ؛ كلّ سنةٍ تقود الأمّ نحو انحدارها؛ وسنةً بعد سنةٍ يتأكّد الجسد الفتيّ ويزدهر؛ هذا المستقبل الّذي ينفتح أمام ابنتها، يبدو للأم أنّه يُسرَق منها؛ من هنا يأتي سخط بعض النساء، عندما يحدث الطمث لبناتهنّ أوّل مرّةٍ، فينقمن عليهنّ لأنّهنّ كُرِّسن كنساءٍ من الآن فصاعدًا. تُفتح

لهذه القادمة الجديدة إمكانيّاتٌ ما تزال غير محدّدةٍ، مقابل التكرار والروتين اللّذين تحظى بهما الكبرى: هذه هي الفرص الّتي تحسدها الأمّ وتكرهها؛ وبما أنّها لا تستطيع أخذها، فهي تحاول غالبًا أن تنقصها، أو تزيلها: فتبقي ابنتها في المنزل، وتراقبها، وتضطهدها، وتلبسها لباسًا مزريًّا قصدًا، وتمنع عنها كلّ تسليةٍ، وينتابها غضبٌ وحشيٌّ إن تزيّنت المراهقة وإن «خرجت»؛ وتصبّ كلّ حقدها على الحياة الغضّة الّتي تنطلق نحو مستقبلٍ جديدٍ؛ فتحاول إذلال الشابة، وتسخّف مبادراتها، وتنغّص عيشها. وينشب بينهما غالبًا صراعٌ مفتوحٌ، وعادةً تكسب الأصغر سنًّا لأنّ الوقت يعمل لصالحها؛ لكنّ لانتصارها طعم الخطأ: فسلوك أمها يولد لديها ثورةً وندمًا معًا؛ حضور الأم وحده يجعلها مذنبةً: يمكن لهذا الشعور أن يلقي بظلّه على مستقبلها كلّه كما رأينا. وينتهي الأمر بالأمّ إلى قبول هزيمتها شاءت أم أبت؛ عندما تصبح الابنة بالغةً، تنشأ بينهما صداقةٌ مزعجةٌ نوعًا ما. لكنّ إحداهما تظلّ إلى الأبد خائبةً، محبطةً؛ وتعتقد الأخرى غالبًا أنّ لعنةً تلاحقها.

سنعود إلى العلاقة الّتي تنشأ بين أمٍّ متقدّمةٍ في السن وأولادها الكبار: إنّهم يحتلون بالطبع أكبر موضعٍ في حياة أمّهم خلال العشرين سنةً الأولى من عمرهم. من الوصف الّذي قدّمناه لها للتوّ، يبرز بجلاءٍ الزيف الخطير لفكرتين مسبقتين مقبولتين بشكلٍ شائعٍ. الأولى هي أنّ الأمومة تكفي في جميع الأحوال لإرضاء امرأةٍ: فلا صحّة لذلك. هناك العديد من الأمهات التعيسات، الساخطات، غير الراضيات. مثال **صوفي تولستوي** الّتي ولدت أكثر من اثنتي عشرة مرّةً مثالٌ معبّرٌ؛ إذ لا تكفّ على طول يوميّاتها عن ترداد أنّ كلّ شيءٍ في العالم وفي نفسها يبدو لها غير ذي فائدةٍ وفارغًا. يجلب لها الأطفال نوعًا من السلام المازوشي. «مع الأطفال، لم يعد لديّ شعورٌ بأنّي شابّةٌ. أنا هادئةٌ وسعيدةٌ». يمنحها التخلّي عن شبابها وجمالها وحياتها الخاصّة قليلًا من الهدوء؛ تشعر أنّها مسنّةٌ، مبرَّرةٌ. «الشعور بأني ضروريّةٌ لهم سعادةٌ كبيرةٌ لي». إنهم سلاحٌ يسمح لها برفض تفوّق زوجها. «مصادري الوحيدة، أسلحتي الوحيدة لأقيم بيننا مساواةً هي الأطفال والحيوية والصحة...» ولكنّها لا تكفي مطلقًا لإعطاء معنىً لوجودٍ ينهشه الملل.

وكتبت يوم 25 كانون الثاني/ يناير عام 1875، بعد لحظة هذيانٍ:

أنا أيضًا أريد وأستطيع كلّ شيءٍ[178]. ولكن ما إن يزول هذا الشعور، حتّى ألاحظ أني لا أريد ولا أستطيع شيئًا، لا شيء سوى العناية بالأطفال والأكل والشرب والنوم وحبّ زوجي وأطفالي، ما يجب بالمحصّلة أن يكون السعادة لكنّه يجعلني حزينةً وكالبارحة يمنحني رغبةً في البكاء.

وبعد أحد عشر عامًا:

أكرّس نفسي لتربية الأطفال بعزمٍ ورغبةٍ متّقدةٍ في الإجادة. ولكن يا إلهي! كم أنّا قليلة الصبر، نزقةٌ، وكم أصرخ!... كم هو حزينٌ هذا الصراع الأزليّ مع الأطفال!

تتحدّد علاقة الأم بأطفالها ضمن الشكل العام الّذي هو حياتها؛ وتتعلّق بعلاقتها بزوجها، وبماضيها، وبمشاغلها، ومع ذاتها؛ إنّه خطأٌ ضارٌّ بقدر ما هو مبهمٌ أن ندّعي أنّ الطفل هو ترياقٌ. وهذه هي النتيجة الّتي تستخلصها أيضًا هـ. دويتش في الكتاب الّذي طالما ذكرته والّذي تدرس فيه من خلال تجربتها كطبيبة نفسيّة ظواهر الأمومة. فهي تضع هذه الوظيفة في مرتبةٍ عاليةٍ جدًّا؛ وتقدّر أنّ المرأة تكتمل تمامًا من خلالها: ولكن بشرط أن تضطلع بها بحرّيّةٍ وتريدها بصدقٍ؛ يجب أن تكون الشابّة في وضعٍ نفسيٍّ ومعنويٍّ وماديٍّ يسمح لها بتحمل أعبائها؛ وإلّا ستكون نتائجها كارثيّةً. من الإجرام خصوصًا أن ننصح بالطفل كعلاجٍ للمصابات بالكآبة أو للعُصابيّات؛ فذلك يسبب تعاسة المرأة والطفل. المرأة المتوازنة، السليمة، الواعية لمسؤولياتها هي وحدها قادرةٌ على أن تصبح «أمًّا جيّدةً».

قلت إنّ اللعنة الّتي تثقل على الزواج، هي أنّ الأفراد يلتقون فيه غالبًا بضعفهم وليس بقوّتهم، ذلك أنّ كلّ واحدٍ يطلب من الآخر بدل أن يبتهج بمنحه. إنّه فخٌّ مخيّب للآمال أكثر أيضًا أن نحلم بأن نبلغ من خلال الطفل كمالًا ودفئًا وقيمةً لم نستطع صنعها بأنفسنا؛ إنّه لا يمنح البهجة إلّا للمرأة القادرة على الرغبة في سعادة آخر دون مصلحةٍ، لتلك الّتي تبحث عن تجاوز وجودها دون العودة إلى ذاتها. إنّ الطفل بالتأكيد مشروعٌ يمكن تكريس النفس له شرعًا؛ لكنّه لا يمثّل أكثر من سواه نعمةً؛ ويجب أن يكون مرغوبًا لذاته، وليس من أجل مكاسب افتراضيّةٍ. يقول ستيكل تحديدًا:

178- صوفي تولستوي تشدّد على هذه الفكرة.

الأطفال ليسوا بديلًا للحبّ؛ ولا يحلّون محل هدف حياةٍ محطّمةٍ؛ ليسوا مادةً مخصّصةً لملء فراغ حياتنا؛ إنهم مسؤوليةٌ وواجبٌ ثقيلٌ؛ إنّهم أكثر أزهار الحبّ الحرّ كرمًا. ليسوا لعبة الآباء، ولا اكتمال حاجتهم للعيش، ولا بدائل طموحاتهم الخائبة. الأطفال هم التزامٌ بتشكيل أشخاصٍ سعداء.

مثل هذا الالتزام ليس طبيعيًا: لا تُملي الطبيعة خيارًا أخلاقيًا؛ هذا يفترض تعهّدًا. الإنجاب هو تعهّدٌ؛ إذا تهرّبت الأم منه فيما بعد فهي ترتكب خطأً بحقّ وجودٍ بشريٍّ، بحقّ حريّةٍ؛ لكن لا يستطيع أحدٌ فرضه عليها. علاقة الآباء بالأطفال ينبغي أن تكون مرغوبًا بها بحرّيّةٍ مثل علاقة الزوجين. وليس صحيحًا أنّ الطفل اكتمالٌ مميّزٌ للمرأة؛ يقال بطيب خاطرٍ عن امرأةٍ إنّها أنيقةٌ أو عاشقةٌ أو سحاقيّةٌ أو طموحةٌ «لأنّه ليس لديها أطفالٌ»؛ حياتها الجنسيّة، والأهداف والقيم الّتي تسعى إليها هي بدائل عن الطفل. في الواقع، هناك أصلًا التباسٌ: نستطيع أن نقول كذلك إنّ غياب الحبّ، والمشاغل، وعدم القدرة على إشباع ميولها المثلية الجنس هي ما تجعل المرأة ترغب بطفلٍ. تختبئ تحت هذه النزعة الطبيعيّة الكاذبة أخلاقٌ اجتماعيّةٌ ومصطنعةٌ. إن كان الطفل غاية المرأة العليا، فهذا قولٌ له قيمة إعلانٍ دعائيٍّ لا أكثر ولا أقلّ.

الفكرة المسبقة الثانية الّتي تفرضها الأولى فورًا، هي أنّ الطفل يجد سعادةً أكيدةً بين ذراعي الأم. لا توجد أمّهاتٌ «مشوّهاتٌ» بما أنّ الحب الأمومي ليس فيه شيءٌ من الطبيعة: ولكن، بسبب ذلك تحديدًا، هناك أمّهاتٌ سيّئاتٌ. وإحدى الحقائق الكبرى الّتي أعلنها التحليل النفسيّ، هو الخطر الّذي يشكّله على الطفل الأهل «الطبيعيّون» نفسهم. للعقد والهواجس والعُصابات الّتي يعاني منها الكبار جذورٌ في تاريخهم العائلي؛ فالأهل الّذين لديهم صراعاتهم الخاصّة وشجاراتهم ومآسيهم هم أسوأ صحبةٍ للأطفال. لقد أثّرت فيهم حياة منزل أبويهم بشكلٍ عميقٍ بحيث يتعاملون مع أطفالهم هم من خلال عقدٍ وإحباطاتٍ: وتستمر سلسلة البؤس هذه إلى ما لا نهايةٍ. بشكلٍ خاصٍّ تخلق سادية ـ مازوشيّة الأم لدى الابنة شعورًا بالذنب يتجلّى بسلوكاتٍ ساديّةٍ ـ مازوشيّةٍ تجاه أطفالها إلى ما لا نهايةٍ. هناك سوء نيّةٍ غريبٌ في التوفيق بين الاحتقار الموجّه للنساء والاحترام الّذي تحاط به الأمّهات. إنّه تناقضٌ مُدانٌ أن نمنع المرأة من كلّ عملٍ عامٍّ، ونغلق أمامها المهن الذكوريّة، ونعلن في

كلّ مجالٍ عن عجزها، ونعهد إليها بأكثر العمليات دقّةً والأكثر خطورةً: تشكيل كائنٍ بشريٍّ. هناك عديدٌ من النساء اللّواتي ما زالت العادات والتقاليد تمنعهنّ من التعليم والثقافة والمسؤوليّات والنشاطات الّتي هي امتيازات الرجال ومع ذلك يوضع الأطفال بين ذراعيهنّ دون تدقيقٍ، كما كانوا يعزّوهنّ في الماضي بدمىً عن دونيّتهنّ نسبةً للصبيان؛ يمنعوهنّ من أن يعشن؛ وكتعويضٍ يُسمح لهنّ باللعب بلُعَبٍ من لحمٍ ودمٍ. ينبغي أن تكون المرأة سعيدةً للغاية أو أن تكون قدّيسةً كي تقاوم الرغبة في استغلال حقوقها. ربّما كان **مونتسكيو** Montesquieux مُحقًّا عندما كان يقول إنّ من الأفضل أن نعهد للنساء بإدارة الدولة بدل الأسرة؛ لأنّه ما إن تسنح لها الفرصة حتى تكون عقلانيّةً وفعّالةً كالرجل: فتتفوّق بسهولةٍ على جنسها بالتفكير المجرّد، والعمل المتّفق عليه؛ والأكثر صعوبةً بالنسبة لها حاليًّا هو أن تتحرّر من ماضيها كامرأةٍ، وتجد توازنًا عاطفيًّا لا يساعد عليه وضعها. الرجل أيضًا أكثر توازنًا وعقلانيّةً بكثيرٍ في عمله منه في المنزل؛ يقوم بحساباته بدقّةٍ رياضيّةٍ: ويصبح غير منطقيٍّ وكاذبًا ونزويًّا بقرب المرأة الّتي يستسلم لها: وبنفس الشكل «تستسلم» للطفل. وهذه المسايرة أكثر خطورةً، لأنّها تستطيع أن تدافع عن نفسها ضدّ زوجها أفضل مما يستطيع الطفل أن يدافع عن نفسه ضدها. كنّا لنتمنّى بالطبع من أجل مصلحة الطفل أن تكون أمّه شخصًا كاملًا غير مبتورٍ، امرأةً تجد في عملها، وفي علاقتها بالمجموعة، اكتمالًا للذات لا تحاول بلوغه بتسلّطٍ من خلاله؛ وكنّا لنتمنّى أيضًا أن يُترَك لأبويه أقلّ مما هو عليه الآن، وأن تجري دراسته وتسليته وسط أطفالٍ آخرين، تحت إشراف أشخاصٍ بالغين لا تربطهم به سوى صلاتٍ غير شخصيّةٍ ونقيّةٍ.

حتّى في حالٍ يبدو فيها الطفل ثروةً ضمن حياةٍ سعيدةٍ أو متوازنةٍ على الأقلّ، لا يستطيع أن يحدّ أفق أمّه. لا ينتزعها من مُثوليّتها؛ إنّها تشكّل جسده، وترعاه، وتعتني به: لا يمكنها أبدًا أن تخلق سوى وضعٍ بما أنّه يعود لحرّيّة الطفل وحدها أن تتجاوزه؛ عندما تراهن على مستقبله، فهي تتجاوز عالم المعرفة أيضًا بالوكالة من خلال الكون والزمن، أي أنّها تكرّس نفسها للتبعيّة مرةً أخرى. سيكون عقوق ابنها وفشله كذلك تفنيدًا لكلّ آمالها: تعتمد على آخر في تبرير حياتها كما في الزواج أو الحبّ بينما السلوك الوحيد الأصلي هو الاضطلاع بها بحرّيةٍ. رأينا أنّ دونيّة المرأة كانت تأتي في الأصل من أنّها اكتفت أولًا بتكرار الحياة

بينما كان الرجل يبتدع أسبابًا للحياة يرى أنّها أهمّ من تكلّف الوجود البحت؛ حبس المرأة في الأمومة هو إدامة هذا الوضع. وتطالب اليوم بالمشاركة في الحركة الّتي تحاول البشريّة باستمرارٍ أن تبرّر ذاتها بها بأن تتفوّق على نفسها؛ لا تستطيع الموافقة على إعطاء الحياة إلّا إذا كان للحياة معنىً؛ ولا تستطيع أن تكون أمًّا دون أن تحاول أن تلعب دورًا في الحياة الاقتصاديّة والسياسية والاجتماعيّة. لا يتساوى إنجاب جنودٍ، وعبيدٍ، وضحايا أو رجالٍ أحرارٍ. في مجتمعٍ منظّمٍ كما يجب، تتعهّد الجماعة فيه الطفل في جزءٍ كبيرٍ، وتعتني بالأم وتساعدها، لن تعيق الأمومة أبدًا عمل المرأة. على العكس: المرأة الّتي تعمل ـ فلّاحةً أو كيميائيّةً أو كاتبةً ـ هي من يكون حملها الأسهل بما أنها ليست مفتونةً بشخصها؛ المرأة ذات الحياة المهنيّة الأغنى هي من ستعطي الطفل أكثر وستطلب منه أقلّ، أفضل مربّيةٍ هي تلك الّتي تكتسب بجهدها وكفاحها معارف القيم الإنسانيّة الحقيقية. إذا كانت المرأة تجد اليوم غالبًا صعوبةً في التوفيق بين المهنة الّتي تبقيها ساعاتٍ خارج المنزل وتأخذ منها كلّ قواها ومصلحة الأطفال، فذلك لأنّ العمل النسويّ من جهةٍ ما يزال غالبًا عبوديّةً؛ ومن جهةٍ أخرى، لم يُبذَل أيّ جهدٍ لتأمين العناية بالأطفال خارج المنزل وحضانتهم وتعليمهم. وهذا نقصٌ اجتماعيٌّ: ولكنّ من المغالطة تبريره مدّعين أنّ قانونًا مكتوبًا في السماء أو في أعماق الأرض يقول بأنّ الأم والطفل ينتميان لبعضهما حصريًا؛ في الواقع لا يشكّل هذا الانتماء المتبادل إلّا مزدوجًا وقمعًا مؤذيًا.

إنّها خديعةٌ أن نقول إنّ المرأة تصبح بالأمومة مساويةً تمامًا للرجل. بذل المحلّلون النفسيون جهدًا كبيرًا لإظهار أنّ الطفل كان يمنحها معادلًا للقضيب: ولكن مهما كان هذا الرمز مرغوبًا، فلا أحد يدّعي أنّ امتلاكه يمكن أن يبرّر وجودًا ولا أن يكون غاية هذا الوجود القصوى. كما تحدّثوا طويلًا عن حقوق المرأة المقدّسة ولكن لم تحصل النساء على حق الاقتراع كأمّهاتٍ؛ ما تزال الأمّ العازبة محتَقَرةً؛ وتمّجَّد الأم فقط ضمن الزواج، أي ما دامت تابعةً للزوج. ما دام هذا الأخير زعيم الأسرة الاقتصادي، ورغم أنّها تهتمّ أكثر بالأطفال، فهم يعتمدون عليه أكثر بكثيرٍ مما يعتمدون عليها. ولهذا كما رأينا، تحكم علاقة الأم بالأطفال بشدّةٍ علاقتها بالزوج.

وهكذا تشكّل العلاقات الزوجيّة والحياة المنزليّة والأمومة كلّاً مترابطًا؛ إذا كانت هناك

عاطفةٌ رقيقةٌ تجمع المرأة بزوجها، تستطيع أن تحمل أعباء المنزل بنشاطٍ؛ وإن كانت سعيدةً بأطفالها، تكون متسامحةً مع زوجها. لكنّ هذا الانسجام ليس سهل التحقيق لأنّ الوظائف الموكلة للمرأة لا تتوافق جيّدًا فيما بينها. تعلّم الصحف النسائيّة ربّة المنزل بسخاءٍ فنّ المحافظة على جاذبيّتها الجنسيّة وهي تغسل الصحون، وأن تبقى أنيقةً خلال حملها، وأن تجمع الدلال والأمومة والتوفير؛ ولكنّ من تلتزم باتّباع نصائحها بانتباهٍ ستفقد عقلها لكثرة القلق؛ من الصعب البقاء مرغوبةً عندما تكون اليدان مشقّقتين والجسد مشوّهًا بالأمومة؛ ولهذا تشعر المرأة المغرمة بالسخط تجاه الأطفال الّذين يهدمون سحرها ويحرمونها من مداعبات زوجها؛ إن كانت على العكس أمًّا بملء الكلمة تغار من الرجل الّذي يطالب أيضًا بملكيّة أطفاله. من جهةٍ أخرى، يناقض البيت المثالي كما رأينا حركة الحياة؛ فالطفل عدوّ الأرضيّات الملمّعة. وغالبًا ما يضيع الحبّ الأمومي في التوبيخ والغضب الّذين يمليهما الاهتمام بالعناية بالمنزل. من غير المدهش أنّ نرى المرأة الّتي تتخبّط بين هذه التناقضات تمضي أيامها غالبًا في العصبيّة والمرارة؛ تخسر دومًا ولا تكسب شيئًا ذا بالٍ. ولا ينقذها عملها حتّى؛ إنّه يشغلها لكنه لا يشكّل لها تبريرًا: يستند هذا التبريرعلى حرّيّاتٍ غريبةٍ. لا تستطيع المرأة المحبوسة في المنزل تأسيس وجودها بنفسها؛ ليست لديها الوسائل لتأكيد نفسها ضمن فرديّتها: وبالنتيجة لا يُعتَرف بهذه الفرديّة. لدى العرب، والهنود، وفي كثيرٍ من الجماعات الريفيّة، المرأة ليست سوى أنثى بيتيّةٍ يقدّرونها بحسب العمل الّذي تقدمه ويستبدلونها دون أسفٍ إن غابت. وفي الحضارة الحديثة هي بنظر زوجها متفرّدةٌ تقريبًا؛ ولكن إن لم تتخلّ تمامًا عن أناها، تعاني من اختزالها إلى عموميتها بانغماسها مثل **ناتاشا** في تفانٍ متحمّسٍ ومتسلّطٍ تجاه عائلتها. هي ربّة المنزل، والزوجة، والأم الفريدة اللامحدودة؛ تسرّ **ناتاشا** بهذه السيادة الّتي تلغيها، وتنكر الآخرين باستبعاد كلّ مجابهةٍ. لكن المرأة الغربية الحديثة تتمنى على العكس أن يلاحظها الآخرون بصفتها ربّة البيت هذه، وهذه الزوجة، وهذه الأم، وهذه المرأة. ذلك هو الارتياح الّذي تسعى إليه في حياتها الاجتماعيّة.

الفصل السابع

الحياة الاجتماعية

الأسرة ليست جماعةً منغلقةً على نفسها: فهي تتواصل مع خلايا اجتماعيةٍ أخرى إلى جانب كونها منفصلةً؛ والمنزل ليس فقط «بيتًا خاصًا» ينعزل فيه الزوجان؛ إنه أيضًا تعبيرٌ عن مستوى معيشتهما وثروتهما وذوقهما: فيجب أن يُعرض لأنظار الآخرين. من ينظّم هذه الحياة الاجتماعيّة بشكلٍ أساسيٍّ هو المرأة. ويرتبط الرجل بالجماعة، كمنتجٍ ومواطنٍ، بصلاتٍ متينةٍ قائمةٍ على تقسيم العمل؛ والثنائي هو شخصٌ اجتماعيٌّ، يتحدّد بالعائلة والطبقة والوسط والعرق الّتي ينتمي إليها، ويرتبط بروابط ذات متانةٍ آليّةٍ مع المجموعات ذات الوضع الاجتماعي المماثل؛ والمرأة هي القادرة على تمثيله بنقاءٍ أكبر: غالبًا ما لا تتوافق علاقات الزوج المهنيّة مع قيمته الاجتماعيّة؛ بينما يمكن للمرأة الّتي لا يقيّدها أيّ عملٍ أن تنصرف إلى معاشرة قريناتها؛ ولديها عدا عن ذلك فرصة القيام «بزياراتٍ واستقبالاتٍ» لتأكيد هذه العلاقات عديمة الجدوى والّتي ليست لها أهميّةٌ بالطبع سوى لدى الفئات الّتي تجهد للحفاظ على طبقتها ضمن الترتيب الاجتماعي، أي الّتي تعتبر نفسها أرفع من بعض الفئات الأخرى. ويبهجها عرض منزلها، وحتّى صورتها، الّتي لا يراها الزوج والأطفال لأنهم يدخلون ضمنها، أمام الآخرين. وتختلط وظيفتها الاجتماعيّة الّتي هي «التمثيل» بالمتعة الّتي تشعر بها عندما تُظهر نفسها.

يجب أن تمثّل نفسها أوّلًا؛ ففي المنزل، عندما تتفرّغ لأشغالها، هي ترتدي ثيابها فقط: أمّا عندما تخرج أو تستقبل، فهي «تتأنّق». وللزينة وظيفةٌ مزدوجةٌ: فهي مخصّصةٌ لإظهار مرتبة المرأة الاجتماعية (مستوى معيشتها وثروتها والوسط الّذي تنتمي إليه) لكنّها في الوقت نفس تُحقّق النرجسية الأنثوية؛ فهي كسوةٌ وزينةٌ؛ بواسطتها تظنّ المرأة، الّتي تعاني لأنها لا تعمل شيئًا، أنها تعبّر عن كيانها. العناية بالجمال، والتأنّق في الملبس، هما نوعٌ من العمل الّذي يسمح لها بامتلاك شخصها كما تمتلك منزلها بالعمل المنزلي؛ يبدو لها عندئذٍ أنها اختارت أناها وأعادت ابتكارها. تدعوها التقاليد إلى أن تُرتَهن كذلك في صورتها. على ثياب الرجل أن تشير إلى تساميه وليس أن تلفت الأنظار[179] وكذا جسده؛ بالنسبة له لا تجعله الأناقة ولا الجمال موضوعًا؛ كذلك لا يُنظر عادةً إلى مظهره كانعكاسٍ لكيانه. بل على العكس، يطلب المجتمع نفسه من المرأة أن تكون موضوعًا شهوانيًّا. هدف الموضات الّتي تستعبدها ليس إظهارها كفردٍ مستقلٍّ، ولكن على العكس فصلها عن تساميها لتقديمها كغنيمةٍ للرغبات الذكوريّة: لا تحاول خدمة مشاريعها، ولكن تعرقلها بالعكس. فالبنطال مريحٌ أكثر من التنورة، والحذاء ذو الكعب العالي يعيق المشي؛ والأثواب والأحذية الأقل عمليّةً هي الأكثر أناقةً، ومثلها القبعات والجوارب الأكثر هشاشةً؛ وسواء كان اللباس يخفي الجسم أو يشوّه شكله أو يقولبه، فهو يعرضه للأنظار على كلّ حالٍ. ولهذا فالزينة لعبةٌ ساحرةٌ بالنسبة للبنت الصغيرة الّتي تودّ أن تتأمل نفسها؛ فيما بعد تثور استقلاليتها كطفلةٍ ضد ضغوط الموسلين الفاتح والأحذية اللماعة؛ وفي سن المراهقة تكون ممزّقةً بين الرغبة في الاستعراض ورفضه؛ وعندما تقبل ميلها لأن تكون موضوعًا جنسيًّا يسرّها أن تتزيّن.

قلنا إنّ المرأة بالزينة[180] تتشبه بالطبيعة مع بعض التحايل الضروري؛ فتصبح بالنسبة للرجل زهرةً وجوهرةً: وتصبح كذلك بالنسبة لنفسها. قبل تشبيهها بتموّجات الماء، ونعومة الفراء الدافئة، تستولي عليها. تستولي على الريش واللآلئ والبروكار والحرائر الّتي تمزجها بجسدها بصورةٍ أكثر حميميةً مما تفعل بتحفها وسجاداتها ووسائدها وباقاتها؛ وتعلّق أهميّةً

179- راجع الجزء الأول. هناك استثناء بالنسبة للّوطيين الّذين يرون أنفسهم تحديدًا مواضيع جنسيةً؛ وكذلك بالنسبة للمتأنّقين الّذين تجب دراستهم على حدةٍ. اليوم سود أمريكا يرتدون بذلاتٍ فاتحة اللون بقصّاتٍ لافتة للنظر، يمكن تفسير ذلك بأسبابٍ شديدة التعقيد.

180- الجزء الأول، القسم الثالث «الأساطير»، الفصل 1.

على مظهرها البرّاق وملمسها الناعم الّذي يعوّض فظاظة العالم الشهواني الّذي هو قسمتها بقدر ما تكون شهوانيتها غير مشبَعة. إن كانت كثيرٌ من السحاقيّات يرتدين ملابس ذكوريّةً، فذلك ليس فقط تقليدًا للذكور وتحدّيًا للمجتمع: فلسن بحاجةٍ إلى مداعبات المخمل والساتان لأنّهنّ يدركن خصائصها السلبية على جسدهنّ الأنثوي[181]. المرأة المكرّسة لعناق الرجل الخشن ـ حتى إن كانت تستحسنه وأكثر أيضًا إن كانت تشعر به دون متعةٍ ـ لا يمكنها معانقة طريدةٍ شهوانيةٍ أخرى سوى جسدها ذاته: فتعطّره لتحوّله إلى زهرةٍ ولا يتميّز بريق الماسات الّتي تعلّقها حول عنقها عن بريق جلدها؛ فتتماثل مع كلّ ثروات العالم كي تملكها. لا تشتهي فقط الكنوز الحسّية ولكن أحيانًا كذلك القيم العاطفية والمثالية.. فهذه الحلية ذكرى، وهذه الحلية الأخرى رمز. هناك نساءٌ يجعلن من نفسهنّ باقةً، وقاربًا شراعيًّا؛ وأخرياتٌ هنّ متاحفٌ، وأخرياتٌ هيروغليفياتٌ. تقول لنا جورجيت **لوبلان** في مذكراتها، ذاكرةً سنوات شبابها:

> **كنت دائمًا أرتدي ثيابًا كاللوحات. كنت أتنزّه في ملابس تشبه لوحات فان إيك، أو تقلّد روبنز أو عذراء مملينغ. ما زلت أذكر كيف كنت أعبر شارعًا في بروكسل ذات يومٍ شتائيٍّ بثوبٍ من المخمل البنفسجي مزيّنٍ بأشرطةٍ قديمةٍ فضّيةٍ أخذتها من ثوبٍ آخر. أجرّ ذيلًا طويلًا لم أكن أبالي به، كنت أكنس الأرصفة به عمدًا. كانت طاقيتي من الفراء الأصفر تحيط بشعري الأشقر، لكنّ الأكثر غرابةً كانت الماسة الموضوعة وسط جبيني. لماذا كلّ ذلك؟ لأنّه كان بكلّ بساطةٍ يروقني وكنت أعتقد أني بذلك أعيش خارج كلّ الأعراف. كلّما كانوا يضحكون لدى مروري، كلّما كنت أضاعف الحركات الهزلية. كنت لأخجل لو غيّرت شيئًا من هيئتي لأنّهم كانوا يسخرون منها. كان ذلك سيبدو لي استسلامًا مخزيًا... في بيتي كان الأمر مختلفًا. كانت نماذجي ملائكة غوزولي، وفرا أنجليكو، وليبورن جونز وليواتس. كنت دائمًا أرتدي اللون السماوي والذهبي؛ وكانت أثوابي الفضفاضة تنتشر حولي في أذيالٍ متعدّدةٍ.**

نجد أجمل نماذج هذا الاستملاك السحري للكون في المصحات العقلية. المرأة الّتي لا تسيطر على حبها للأشياء الثمينة والرموز تنسى صورتها وتلبس أزياءً شاذّةً. وهكذا ترى الفتاة الصغيرة في التزيّن تنكّرًا يحوّلها إلى جنيّةٍ وملكةٍ وزهرةٍ؛ وتعتقد أنها جميلةٌ ما إن

181- ساندور، الّتي ذكر كرافت ـ إبينغ Krafft-Ebing حالتها، كانت تعبد النساء الأنيقات لكنها لم تكن «تتأنّق».

تغطي نفسها بالأشرطة والزهور لأنّها تتماثل مع هذه البهرجات الرائعة؛ لا تلاحظ الفتاة الساذجة المسحورة بلون القماش اللونَ الباهت الّذي ينعكس على وجهها؛ نجد أيضًا هذا الذوق السيّء المبالغ لدى الكبار من الفنانات أو المفكرات المسحورات بالعالم الخارجي أكثر من إدراكهنّ لصورتهنّ الخاصّة: فيُسحرن بهذه الأقمشة العتيقة، وهذه الحلي القديمة، ويفتنهنّ تقليد الصين أو العصور الوسطى ولا يلقين على مرآتهنّ سوى نظرةٍ خاطفةٍ أو منحازةٍ. تدهشنا أحيانًا تلك الأزياء المضحكة الّتي تعجب النساء المسنّات: فالأكاليل والدنتيلا والأثواب البراقة والعقود الغريبة تجذب الانتباه إلى تقاطيعهنّ الّتي خرّبها الزمن. ذلك لأنهنّ غالبًا تخلّين عن فكرة الإغراء وأصبح التبرّج بالنسبة لهنّ لعبةً دون مسؤوليّةٍ كما في طفولتهنّ. وعلى العكس يمكن للمرأة الأنيقة أن تبحث في تبرّجها عن متعٍ حسّيةٍ أو جماليّةٍ، ولكن يجب أن تقوم به بشكلٍ يلائم صورتها: فلون ثوبها يجمّل بشرتها، والقصة تحدّد جسمها أو تصحّحه؛ إنها تحب نفسها مزيّنةً ولا تحب الأشياء الّتي تزينها.

التبرّج ليس زينةً فقط: إنه يعبّر كما قلنا عن وضع المرأة الاجتماعي. على المومس الّتي وظيفتها أن تكون فقط غرضًا جنسيًا أن تظهر بهذه الهيئة؛ وكما كان لون شعرها فيما مضى أصفر برتقاليًا والزهور تغطّي ثوبها، تدلّ على مهنتها اليوم الكعوب العالية والساتان الضيّق والتبرّج الصارخ والعطور الثقيلة. وتُنتقد كلّ امرأةٍ أخرى ترتدي «زيّ البغي». تندمج ميزاتها الشهوانية بالحياة الاجتماعية ويجب أن تظهر بهذه الصورة المتعقّلة. ولكن تجب الإشارة إلى أنّ الاحتشام لا يكون بارتداء ملابس صارمةٍ. المرأة الّتي تثير رغبة الذكر بشكلٍ واضحٍ قليلة الذوق؛ ولكن تلك الّتي يبدو أنّها تبعدها غير مرغوبةٍ كذلك؛ فقد يُظنّ أنها تتشبه بالذكور، أي سحاقيةٌ؛ أو تريد التفرّد: أي غريبة الأطوار؛ عندما ترفض دورها كشيءٍ، فهي تتحدّى المجتمع: أي فوضويةٌ. فإن أرادت فقط ألا يلاحظها أحدٌ، عليها المحافظة على أنوثتها. تنظم العادة التوفيق بين الاستعراض والحشمة؛ على «المرأة الشريفة» أن تخفي صدرها حينًا أو كاحلها حينًا آخر؛ وأحيانًا يحقّ للشابة أن تظهر مفاتنها لتجتذب الخطّاب بينما تتخلى المرأة المتزوجة عن كلّ زينةٍ: وهذا الشائع لدى كثيرٍ من الحضارات الفلاحية؛ أحيانًا يفرض على الفتيات ملابس رقيقةٌ بألوان الملبّس، بقصّاتٍ محتشمةٍ، بينما يحق للأكبر سنًّا ارتداء أثوابٍ ضيّقةٍ، وأقمشةٍ ثقيلةٍ، وألوانٍ غنيّةٍ، وقصّاتٍ مثيرةٍ؛ يبدو الأسود

صارخًا على جسد ابنة الستة عشر عامًا لأنّ القاعدة في هذا العمر هي عدم ارتدائه[182].
يجب الانصياع لهذه القوانين بالطبع؛ ولكن على أي حالٍ، وحتى في أكثر الأوساط تزمتًا، يتم التأكيد على الصفة الجنسية للمرأة: فتموّج زوجة القس البروتستنتي شعرها، وتتبرج بشكلٍ خفيفٍ، وتتبع الموضة برصانةٍ، مشيرةً باهتمامها بجمالها الجسدي إلى قبولها بدورها كأنثى. يتجلّى هذا الدمج للشهوانية في الحياة الاجتماعية بصورةٍ خاصةٍ في «ثوب السهرة». على هذه الأثواب أن تكون غاليةً وسريعة العطب للإشارة إلى أن هناك احتفالًا، أي ترفًا وتبذيرًا، يريدون أيضًا أن تكون غير مريحةٍ بقدر الإمكان؛ التنانير طويلةٌ وواسعةٌ أو تعيق المشي؛ وتحت الحلي، والطبقات، والبَرَق، والزهور، والريش، والشعر المستعار، تتحوّل المرأة إلى دميةٍ من لحمٍ ودمٍ، وهذا الجسد ذاته يعرض نفسه؛ وكما تزدهر الزهور مجانًا تعرض المرأة كتفيها وظهرها وصدرها؛ ويجب ألّا يشير الرجل إلى أنّه يشتهيها إلّا في طقوس العربدة: لا يحق له سوى النظر والاحتضان وقت الرقص؛ ولكنّه يستطيع أن يبتهج لكونه مَلِك عالمٍ يحوي مثل هذه الكنوز الرقيقة. من رجلٍ لرجلٍ يأخذ الحفل هنا شكل بوتلاش[183]؛ كلّ شخصٍ يهدي لجميع الآخرين فرصة رؤية هذا الجسد الّذي يملكه. تتنكّر المرأة في ثوب السهرة بزيّ امرأةٍ من أجل متعة كلّ الذكور وزهوّ مالكها.

يسمح هذا المعنى الاجتماعي للتبرّج للمرأة بالتعبير بطريقتها في اللبس عن موقفها تجاه المجتمع؛ فهي إذ تخضع للنظام القائم، تمنح نفسها شخصيّةً كتومةً وتتبع الدارج؛ هناك درجاتٌ كثيرةٌ ممكنةٌ: قد تجعل نفسها هشّةً، طفوليّةً، غامضةً، ساذجةً، صارمةً، مرحةً، رزينةً، جريئةً قليلًا، منعزلةً حسب رغبتها. أو على العكس، تؤكّد بالابتكار رفضها للتقاليد. من اللافت أنّ المرأة «المتحرّرة» في كثيرٍ من الروايات تتميّز بجرأةٍ في التبرّج تشير إلى صفتها كموضوعٍ جنسيٍّ، وبالتالي تبعيتها: وهكذا في «عصر البراءة هذا» لـ إديث وارتون Edith Wharton، تقدّم المطلّقة الشابة ذات الماضي المليء بالمغامرات والقلب الجريء كاشفةً صدرها بشكلٍ مبالغٍ فيه أولًا؛ و تعكس الفضيحة الّتي تثيرها احتقارها

182- في فيلمٍ سخيفٍ تقع حوادثه في نهاية القرن الماضي، أثارت بيتي ديفيز فضيحةً بارتدائها ثوبًا أحمر في إحدى الحفلات بينما كانت القاعدة الصارمة هي ارتداء الأبيض حتى الزفاف. اعتبر تصرفها ثورةً على النظام السائد.
183- Potlach مهرجان لدى الهنود الحمر يتبادلون فيه الهدايا (المترجمة).

للتقليدية، وهكذا تتسلى الفتاة بارتداء ملابس النساء، والمرأة المسنة بارتداء ملابس الصغيرات، وترتدي المحظية ملابس سيدة المجتمع وهذه ملابسَ المرأة المغوية. حتى وإن لبست كلّ واحدةٍ حسب وضعها فهناك أيضًا لعبةٌ في ذلك. فالتصنع يقع في الخيال كالفن. ليست المشدات ورافعات النهد والصبغات والزينة هي فقط الّتي تخفي الجسد والوجه؛ لكنّ أقل النساء تكلّفًا حين «تتأنّق» لا تعرض نفسها: فهي كاللوحة، والتمثال، والممثّل على خشبة المسرح، ومشابهٌ يُشار من خلاله إلى ذاتٍ غائبةٍ يُفترض أنها شخصيته ولكنها ليست كذلك. يمتدحها هذا الاختلاط مع موضوعٍ خياليٍّ ضروريٍّ كاملٍ كبطل روايةٍ، كلوحةٍ لشخصٍ أو تمثالٍ نصفيٍّ؛ تجهد نفسها في الاغتراب فيه وبالتالي تبدو لنفسها مدهوشةً، مبرَّرةً.

وهكذا من خلال «الكتابات الحميمة» لماري بشكيرتسف Marie Bashkirtsef، نراها من صفحةٍ لأخرى تكرّر صورتها بلا توقّفٍ. وتعرض علينا ثيابها: وعند كلّ زينةٍ جديدةٍ تخال نفسها أخرى وتحبّ نفسها من جديد.

> **أخذت شالًا كبيرًا لأمي، صنعت فتحةً للرأس وخيّطت الجانبين. هذا الشال الّذي يتهدّل في طيّاتٍ كلاسيكيةٍ يمنحني هيئةً شرقيةً، إنجيليةً، غريبةً.**
>
> **ذهبت لعند لافيريير وصنعت لي كارولين في ثلاث ساعاتٍ ثوبًا بدوت فيه كأنّ سحابةً تلفّني. هو قطعةٌ من الكريب الإنجليزي الّتي ثنّتها عليّ وجعلتني أبدو نحيلةً وأنيقةً وطويلةً.**
>
> **ملفوفةً بثوبٍ من الصوف الدافئ ذي الثنيات المنسجمة، صورةٌ من صور لوفيفر الّذي يعرف جيّدًا كيف يرسم هذه الأجساد المرنة الشابة ضمن أثوابٍ محتشمةٍ.**

تتكرّر هذه اللازمة يومًا بعد يومٍ: «كنت ساحرةً بالأسود.. بالرمادي، كنت ساحرةً... كنت أرتدي الأبيض، ساحرةً».

السيدة دونواي، الّتي كانت تعطي أيضًا أهمّيةً كبيرةً لزينتها، تذكر بحزنٍ في مذكراتها مأساة ثوبٍ فاشلٍ.

> **كنت أحب حيوية الألوان، وتناقضها الجريء، بدا لي ثوبٌ منظرًا، مدخلًا للقدر، وعدًا بمغامرةٍ. عندما ارتديت الثوب المكتمل بيدين مترددتين، شعرت بالحزن لكلّ الأغلاط الّتي تبدّت لي.**

إن كان للزينة هذا القدر من الأهميّة لكثيرٍ من النساء، فذلك لأنها تقدّم لهنّ وَهْمَ العالم وأناهنّ نفسها في آنٍ معًا. هناك روايةٌ ألمانيةٌ «الفتاة المرتدية الحرير الصناعي[184]» تحكي عن شغف فتاةٍ فقيرةٍ بمعطفٍ من فراء السنجاب الروسي؛ أحبت بشكلٍ حسّيٍ دفء ملمسه، ونعومته؛ إنها تحبّ نفسها المتغيرة تحت الجلود الثمينة؛ وتملك أخيرًا جمال العالم الّذي لم تعانقه أبدًا والقدر المشرق الّذي لم يكن أبدًا قدرها.

وهكذا رأيت معطفًا معلّقًا على علاقةٍ، فراءً طريًا، ناعمًا، رقيقًا، رماديًا، خجولًا للغاية: كنت أرغب في تقبيله لفرط ما أحببته. كان يبدو تعويضًا، وعيد جميع القديسين، وأمانًا كاملًا، كالسماء. كان فراءً حقيقيًا من السنجاب الروسي. وبصمتٍ، خلعت ممطري، وارتديت معطف الفراء. كان هذا الفراء كماسةٍ بالنسبة لجلدي الّذي أحبّه و نحن لا نعيد ما نحب بعد أن نحصل عليه. في الداخل، بطانةٌ من الكريب المغربي، من الحرير الصرف، وتطريزٌ يدويٌ. كان المعطف يلفني وكان يتكلّم أكثر مني مع قلب «أوبيرت»... أنا أنيقةٌ جدًا بهذا الفراء. كأنه رجلٌ نادرٌ سيجعلني ثمينةً بحبّه لي. هذا المعطف يريدني وأنا أريده، مَلكنا بعضنا.

بما أنّ المرأة شيءٌ، نفهم أنّ طريقة لباسها وزينتها تغيّر قيمتها الجوهريّة. ليس عبثًا أن تعلّق كلّ هذه الأهميّة على جوارب حريريةٍ وقفازاتٍ وقبعةٍ: فالمحافظة على مكانتها أمرٌ ضروريٌّ. يخصّص قسمٌ هائلٌ من ميزانية المرأة العاملة في أمريكا للعناية بالمال والملابس؛ هذا العبء أقلّ في فرنسا؛ إلّا أنّ المرأة تُحتَرم أكثر إن كان مظهرها أفضل؛ وكلما كانت بحاجةٍ أكبر لإيجاد عملٍ، كلّما ساعدها أن تبدو أكثر غنىً: الأناقة سلاحٌ، وعنوانٌ، ومدعاةٌ للاحترام، ورسالة توصيةٍ.

وهي استرقاقٌ؛ فالقيم الّتي تمنحها تُشترى؛ وتُشترى بثمنٍ غالٍ لدرجة أنّ مفتشًا يفاجئ سيدة مجتمعٍ أو ممثلةً في المخازن الكبرى وهي تسرق عطورًا أو جوارب حريريةً أو ملابس داخليّةً. كثيرٌ من النساء يمارسن الدعارة أو «يقبلن مساعدة أحدٍ» في سبيل شراء الملابس؛ يقود التبرّج حاجتهنّ للمال. ويتطلّب التأنّق أيضًا وقتًا واهتمامًا؛ وهي مهمّةٌ تعطي أحيانًا متعًا إيجابيةً: في هذا المجال أيضًا يوجد «اكتشافٌ لكنوزٍ مخبأةٍ»؛ مساوماتٌ وحيَلٌ وترتيباتٌ

184- ي. كون I.Keun

واختراعٌ؛ والمرأة بارعةٌ، يمكنها حتّى أن تكون خلّاقةً. أيام المعارض ـ وخصوصًا التنزيلات ـ مغامراتٌ محمومةٌ. والثوب الجديد عيدٌ قائمٌ بذاته. والتبرّج والتسريحة بديلان لعملٍ فنّيٍّ. اليوم، أكثر من ذي قبل[185]، تستمتع المرأة بقولبة جسدها بالرياضة، والتربية البدنية، والحمامات، والتدليك، والأنظمة الغذائية؛ تقرر وزنها، وقوامها، ولون جلدها؛ ويسمح لها علم التجميل الحديث بإعطاء جمالها صفاتٍ حيويّةً: إذ يحق لها الحصول على عضلاتٍ مشدودةٍ، وترفض تراكم الدهون؛ تؤكد نفسها بالرياضة كذاتٍ؛ في ذلك بالنسبة لها نوعٌ من التحرّر بالنسبة إلى الجسد العارض؛ لكن هذا التحرر يعود بها بسهولةٍ إلى التبعية. فتنتصر نجمة هوليود على الطبيعة: لكنها تجد نفسها شيئًا سلبيًّا بين يدي المنتج.

إلى جانب هذه الانتصارات الّتي تستمتع بها المرأة بوجه حقٍّ، يتطلّب التأنق ـ كما العناية بالمنزل ـ صراعًا ضد الزمن؛ لأنّ جسدها أيضًا هو شيءٌ يتآكل مع الزمن. وصفت كوليت أودري هذه المعركة، المشابهة لتلك الّتي تخوضها ربة المنزل في بيتها ضد الغبار[186].

> لم يعد ذلك الجسد المتماسك الشاب؛ كانت العضلات على طول ذراعيها وفخذيها ترتسم تحت طبقةٍ من الدهن والجلد المرتخي بعض الشيء. وغيّرت مواعيدها من جديدٍ: سيبدأ النهار بنصف ساعةٍ من التمارين وفي المساء قبل الذهاب إلى السرير، ربع ساعةٍ من التدليك. وبدأت تقرأ كتيّبات أطباء ومجلات الأزياء، وتراقب محيط خصرها. وتعدّ لنفسها عصير فواكه، وتتناول مسهلًا من وقتٍ لآخر وتغسل الأطباق مرتديةً قفازاتٍ من المطاط. وأصبح لديها همٌّ واحدٌ: إبقاء جسدها شابًا والعناية بمنزلها بحيث تصل ذات يومٍ إلى مرحلةٍ من الهدوء، نوعٍ من العطالة... سيبدو الكون وكأنّه توقف، معلّقًا خارج الشيخوخة والفضالة... في المسبح، بدأت تأخذ دروسًا حقيقيةً لتحسّن مظهرها وتلهث وراء مجلات الجمال الّتي تعطيها وصفات متجددةٍ دومًا. جينجر روجرز تسرّ إلينا: «أسرح شعري كل صباح بمئة ضربة فرشاةٍ، يستغرق هذا تمامًا دقيقتين ونصفًا ولديّ شعرٌ كالحرير... كيف تجعلين كاحليك نحيلين: ففي كل يومٍ ثلاثين مرةً متتاليةً على رؤوس أصابعك دون أن يلمس كعباك الأرض،

185- يبدو مع ذلك طبقًا للاستقصاءات الحديثة أن صالات الرياضة النسائية اليوم شبه مقفرة؛ مارست الفرنسيات الرياضة خصوصًا بين 1920-1940. الآن تثقل كاهلهنّ كثيرًا المصاعب المنزليّة.

186- لعبة خاسرة.

هذا التمرين لا يتطلب إلا دقيقةً؛ وما قيمة الدقيقة في اليوم؟ مرةً أخرى، حمام الزيت للأظافر، وعجينة الليمون لليدين، والفراولة المسحوقة على الخدين.

هنا يجعل الروتين العناية بالجمال مشقّةً، كالعناية بخزانة الملابس. الرعب من الانحطاط الّذي يحمله مستقبل كلّ شخصٍ يثير لدى بعض النساء الباردات أو المكبوتات الخوف من الحياة ذاتها: فيحاولن المحافظة على أنفسهن كما تحافظ أخرياتٌ على الأثاث والمربيات؛ يجعلهنّ هذا العناد السلبي معادياتٍ لوجودهنّ نفسه وللغير: فالوجبات اللذيذة تشوّه القوام، والنبيذ يفسد البشرة، والإكثار من الابتسام يجعّد الوجه، والشمس تؤذي الجلد، والراحة تُثقل، والعمل يُضني، والحبّ يحيط العينين بالهالات، والقبلات تلهب الخدود، والمداعبات تشوّه الثديين، والعناق يرخي الجسد، والأمومة تجعل الوجه والجسد قبيحين؛ نعرف كم تدفع أمهاتٌ شاباتٌ بغضبٍ الطفل المعجب بثوب الحفل الّذي يرتدينه. «لا تلمسني، يداك دبقتان، ستلوثني»؛ وتبدي المتأنّقة نفس الصدّ تجاه مبادرات الزوج أو العشيق. وكما يُغطّى الأثاث تودّ أن تتملّص من الرجال، والعالم، والزمن. لكنّ كلّ هذه الاحتياطات لا تمنع ظهور الشعر الأبيض، والتجاعيد بقرب العين. تعرف المرأة منذ فتوتها أنّ لا مفرّ من هذا المصير. ورغم كلّ احتياطها تقع ضحية حوادث: نقطة نبيذٍ تسقط على ثوبها، سيجارةٌ تحرقه؛ عندئذٍ تختفي المخلوقة المترفة المحتفلة التي كانت تتبختر في الصالة: فتتخذ هيئة ربة المنزل الجديّة والقاسية؛ ونكتشف فورًا أنّ زينتها لم تكن باقةً من الزهور، وأسهمًا ناريّةً، وروعةً غير مكلفةٍ قابلةً للتلف مخصصة لإضاءة لحظةٍ بسخاءٍ: إنها ثروةٌ، ورأس مالٍ، واستثمارٌ، كلّفت تضحياتٍ؛ وفقدها كارثةٌ لا يمكن إصلاحها. البقع، والتمزق، والأثواب الفاشلة، والتجعيدات المخفقة، هي كوارث أخطر من شواءٍ محروقٍ أو مزهريةٍ مكسورةٍ: لأنّ المتأنّقة لم تُستَلب في الأشياء فقط، بل أرادت أن تكون شيئًا، وتشعر أنها بخطرٍ في العالم. علاقاتها بالخياطة وصانع القبعات، ونفاد صبرها، ومتطلباتها تظهر روح الجدية لديها وعدم شعورها بالأمان. يخلق الثوب الناجح لديها شخصية أحلامها؛ ولكنّها تشعر أنها خاسرةٌ بزينةٍ مُتعَبةٍ، فاشلةٍ.

كتبت ماري بشكيرتسف:

«كان مزاجي وجلستي وتعابير وجهي وكلّ شيءٍ تتعلّق بالثوب...» وأيضًا: «كان عليّ

إما أن أتجوّل عاريةً، أو أن أرتدي ما يلائم شكلي وذوقي وطباعي. عندما لا يكون الأمر كذلك أشعر أني خرقاء، عاديةٌ، وبالتالي مهانةٌ. أين ذهب المزاج والروح؟ إنهما يفكران في الأقمشة وعندها يصبح المرء غبيًا، ضجِرًا، لا يعلم أين يندسّ».

تفضّل العديد من النساء التخلّي عن حفلٍ على الذهاب إليه بملابس سيّئةٍ، حتّى لو لم يكن أحدٌ ليلاحظهنّ.

مع ذلك، مع أنّ بعض النساء يؤكدن: «أنا لا ألبس إلّا من أجل نفسي»، فقد رأينا حتّى أنّ نظرة الغير تدخل في النرجسية. في المصحات العقلية فقط تحافظ المتأنقات بعنادٍ على اعتقادٍ كاملٍ بوجود نظراتٍ غير موجودةٍ؛ فعادةً يرغبن بوجود شهودٍ.

كتبت صوفي تولستوي بعد زواجها بعشر سنين:

«أودّ أن أثير الإعجاب، أن يقال إني جميلةٌ وأن يرى ليوفا ذلك ويسمعه... وإلّا مافائدة أن أكون جميلةً؟ صغيري الساحر بيتيا يحب مربيته العجوز كما لو كانت جميلةً واعتاد ليوفوتشكا على أقبح الوجوه... أرغب في تمويج شعري. لن يعرف ذلك أحدٌ لكنه سيكون جميلًا. ما حاجتي كي يراني أحدٌ؟ الشرائط والعقد تبهجني، أرغب بزنارٍ جديدٍ من الجلد والآن بعد أن كتبت هذا، أرغب بالبكاء...».

يؤدي الزوج هذا الدور بشكلٍ سيّءٍ جدًّا. هنا أيضًا نجد نفاقًا في متطلباته. إن كانت زوجته شديدة الجاذبية يصبح غيورًا؛ مع ذلك، كلّ زوجٍ هو الملك **كاندول**[187] قليلًا أو كثيرًا؛ يود أن تشرّفه زوجته؛ أن تكون أنيقةً، جميلةً أو على الأقل «جيدةً»؛ وإلّا سيقول لها متبرّمًا كلمات الأب أوبو Ubu: «أنت قبيحةٌ اليوم! هل ذلك لأنّ لدينا ضيوفٌ؟» رأينا أنّ القيم الشهوانية والاجتماعية في الزواج غير متوافقة؛ ينعكس هذا التضادّ هنا. فالمرأة الّتي تؤكّد على جاذبيتها الجنسية تبدو سيئةً في نظر زوجها؛ يلومها على جرأةٍ كانت لتغريه لدى امرأةٍ غريبةٍ ويقتل هذا اللوم كلّ رغبةٍ لديها؛ إن كانت المرأة محتشمةً في ملابسها، يقبلها ولكن ببرودٍ: إذ لا يجدها جذّابةً ويلومها على ذلك بشكلٍ غير واضحٍ. وبسبب ذلك ينظر إليها نادرًا بعينيه: فهو يتفحّصها بعيون الغير. «ماذا سيقولون عنها؟» لا يتوقّع جيّدًا لأنّه يعلّق على الغير

187- الّذي كان يحب عرض زوجته على الآخرين (المترجمة).

منظوره كزوجٍ. لا شيء أكثر إزعاجًا للمرأة من رؤيته يتذوق لدى أخرى الأثواب أو المظهر الّذي ينتقدها عليه. عدا عن أنّه تلقائيًّا قريبٌ منها لدرجة أنّه لا يراها؛ فمحيّاها بالنسبة له لا يتغيّر، ولا يلاحظ زينتها ولا تغيير تسريحتها. حتّى الزوج المغرم أو العشيق المولّه لا يباليان غالبًا بزينة المرأة. إن كانا يحبّانها بشغفٍ في عريها، فأكثر الزينات ملاءمةً لها هي بالنسبة لهما أقنعةٌ تخفيها؛ ويحبّانها سواءً كانت سيئة اللبس متعبةً أو متألّقةً. وإن لم يعودا يحبانها، فلن تفيدها أجمل الأثواب. قد تكون الزينة أداة استمالةٍ، ولكن ليس سلاح دفاعٍ؛ فنُّها خلق أوهامٍ، تقدّم للأنظار غرضًا خياليًّا: في العناق الجسديّ، يتلاشى كلّ وهمٍ في المعاشرة اليومية؛ تقع المشاعر الزوجية كالحب الجسدي في أرض الواقع. لا تتأنّق المرأة من أجل الرجل الّذي تحبّ. تصف دوروثي باركر، في إحدى قصصها[188]، شابةً تنتظر بصبرٍ نافدٍ زوجها القادم في إجازةٍ، وتقرّر أن تتجمّل لاستقباله:

اشترت ثوبًا جديدًا؛ أسود: كان يحب الأثواب السوداء؛ بسيطًا، كان يحبّ الأثواب البسيطة؛ وغاليًا لدرجة أنها لم تكن تريد أن تفكّر بثمنه...

- ... هل تحبّ ثوبي؟

قال:

أوه أجل! لطالما أحببت هذا الثوب عليك.

شعرت كأنها تحولت إلى قطعة خشبٍ. وقالت وهي تفصّل الكلمات بوضوحٍ مهينٍ:

هذا الثوب جديدٌ. لم ألبسه أبدًا. لقد اشتريته خصيصًا للمناسبة، إن كان ذلك يهمّك.

فقال:

- آسفٌ يا حبيبتي. أوه! بالطبع، أرى الآن أنّه لا يشبه الآخر أبدًا؛ إنّه رائعٌ؛ أحبّك دائمًا بالأسود.

فقالت:

في لحظاتٍ كهذه، أكاد أتمنّى أن يكون لديّ سببٌ آخر لارتداء الأسود.

قيل كثيرًا إنّ المرأة تتأنّق لتثير غيرة نساءٍ أخرياتٍ: وهذه الغيرة في الواقع علامة نجاحٍ

188- إيفا المحبوبة.

ساطعةٌ؛ لكنها ليست الهدف الوحيد. تبحث المرأة من خلال الآراء الحاسدة أو المعجبة عن تأكيدٍ مطلقٍ لجمالها وأناقتها وذوقها: وذاتها. تتأنق كي تظهر؛ وتظهر كي تكون. بذلك تخضع لتبعيةٍ مؤلمةٍ؛ تفاني ربة المنزل مفيدٌ حتّى وإن لم يعترف به أحدٌ؛ لكنّ الجهد المبذول في التأنّق عبثٌ إن لم يشعر به أحدٌ. إنّها تبحث عن تقييمٍ نهائيٍّ لذاتها؛ وطلب المطلق هذا هو ما يجعل بحثها متعبًا؛ إذا انتقد شخصٌ واحدٌ هذه القبعة فهي ليست جميلةً؛ وتسرّها المجاملة لكن انتقادًا واحدًا يحطّمها؛ وبما أن المطلق لا يظهر إلّا بسلسلةٍ لا تنتهي من التجلّيات، فلن تكسب أبدًا تمامًا؛ ولهذا فالمتأنّقة مشكّكةٌ للغاية؛ ولهذا أيضًا قد تكون بعض النساء الجميلات والمحبوبات مقتنعاتٍ بشكلٍ محزنٍ أنّهنّ لسن جميلاتٍ ولا أنيقاتٍ، وأنّه ينقصهنّ تحديدًا الموافقة العليا من حَكمٍ لا يعرفنه: يبحثن عن ذاتٍ لا يمكن تحقيقها. يندر وجود المتأنقات الرائعات اللّواتي يجسّدن قوانين الأناقة، واللّواتي لا يمكن أن يتّهمهنّ أحدٌ بأنهنّ مخطئاتٌ لأنّهن من يحدّد النجاح والفشل؛ يمكن لهنّ مهما طال نفوذهنّ أن يعتقدن أنهنّ النجاح بذاته. المأساة أنّ هذا النجاح لا يفيد شيئًا ولا أحدًا.

الأناقة تفترض فورًا خروجًا واستقبالاتٍ، عدا عن أنّ ذلك هو غايتها الأصلية. تجول المرأة بين قاعات الاستقبال بطقمها الجديد وتدعو نساءً أخرياتٍ لرؤيتها تهيمن على «بيتها». في بعض الحالات الصاخبة بصورةٍ خاصةٍ، يرافقها الزوج في «زياراتها»؛ لكنّ في معظم الوقت، بينما يتفرّغ لعمله تقوم هي «بواجباتها الاجتماعية». وصفوا ألف مرةٍ السأم الفظيع الّذي يسود هذه الاجتماعات. يأتي ذلك من أنّه ليس لدى السيدات اللّواتي تجمعهنّ «الواجبات الاجتماعية» ما يتبادلنه. لا توجد مصلحةٌ مشتركةٌ تربط زوجة المحامي بزوجة الطبيب ـ ولا كذلك زوجة الطبيب ديبون بزوجة الطبيب دوران. من غير المهذّب ضمن حديثٍ عامٍّ الحديث عن حماقة الأطفال والهموم البيتية. يقتصر الأمر إذًا على ملاحظاتٍ بشأن الطقس، وآخر روايةٍ رائجةٍ، وبعض الأفكار العامة المستعارة من الأزواج. تميل عادة «يوم استقبال السيدة» شيئًا فشيئًا إلى الزوال؛ ولكنّ عبء «الزيارة» يبقى قائمًا في فرنسا بأشكالٍ شتّى. يستبدل الأمريكان بطيب خاطرِ المحادثة بلعب البريدج، وهذا ليس ميزةً إلّا بالنسبة للنساء اللّواتي يحببن هذه اللعبة.

مع ذلك تكتسي الحياة الاجتماعية أشكالًا أكثر جاذبيةً من هذا التنفيذ الفارغ لوظيفة

مجاملةٍ. الاستقبال ليس فقط استقبال المرء للغير في منزله الخاصّ؛ إنه تغيير هذا البيت إلى مكانٍ بهيجٍ؛ والمناسبة الاجتماعية هي احتفالٌ. تعرض ربة المنزل كنوزها: فضّياتٌ ومفارش وقطع كريستالٍ؛ وتضع الزهور في المنزل: فالأزهار الزائلة، غير المفيدة، تمثّل مجّانية الأعياد الّتي هي إنفاقٌ وترفٌ؛ مزدهرةً في المزهريات، مخصّصةً لموتٍ سريعٍ، هي نار بهجةٍ، وبخورٌ، ومرٌّ، وإراقة خمرٍ، وتضحيةٌ. تمتلئ المائدة بالأطباق الثمينة، والنبيذ النفيس. يتعلق الأمر بإرضاء حاجات الضيوف، وابتكار تقدماتٍ لطيفةٍ ترضي رغباتهم المتوقّعة؛ ويتحول الطعام إلى طقوسٍ غامضةٍ. تشير فرجينيا وولف V. Woolf إلى هذه الصفة في هذا المقطع من السيدة دالواي:

عندئذٍ بدأ الرواح والمجيء الصامت والساحر عبر الأبواب ذات المصراعين لخادماتٍ يرتدين مريلاتٍ وقبعاتٍ بيضاء، لسن خادمات لقضاء الحاجات ولكن كاهنات لغزٍ، كاهنات الخدعة الكبيرة الّتي تقوم بها سيّدات منزل «مايفير» من الساعة الواحدة والنصف وحتى الثانية. بحركةٍ من اليد، توقفت حركة الشارع وبدلًا عنها بدأ هذا الوهم الخادع: فأولًا ها هي الأطعمة المبذولة مجانًا، ثم تغطت المائدة من تلقاء نفسها بالكريستالات والفضّيات والسلال وأطباق الفواكه الحمراء؛ يغطّي وشاحٌ من الكريمة السمراء سمك موسى؛ وتسبح قطع الدجاج في القدور، و تشتعل النار، ملوّنةً، احتفاليّةً؛ ومع النبيذ والقهوة ـ المقدّمة مجانًا ـ تطوف رؤىً مرحةٌ أمام العيون الحالمة، العيون الّتي تتأمل بهدوءٍ، الّتي تبدو الحياة لها موسيقى، غامضةً...

المرأة الّتي تترأس هذه العجائب فخورةٌ لشعورها بأنها مبدعةٌ للحظةٍ مثاليةٍ، موزّعةٌ للسعادة والمرح. فبواسطتها يجتمع المدعوون، وهي الّتي صنعت الحدث، وهي مصدرٌ مجّانيٌّ للفرح، والانسجام.

وهذا بالطبع ما تشعر به السيدة دالواي.

ولكن لنفترض أن بيتر يقول لها: حسنًا! ولكن ما هو سبب سهراتك هذه؟ كل ما تستطيع الإجابة به هو هذا (بئسًا إذا لم يفهم أحد): إنها تقدمة مني... ها هو واحدٌ يعيش في ساوثكنينغتون، وآخر يعيش في بيسواتر وثالثٌ في مايفير. وتشعر بوجودهم باستمرارٍ؛ وتقول لنفسها: يا للأسف! يا للخسارة! وتقول لنفسها: كم من الصعب جمعهم! وتجمعهم. إنها تقدمةٌ؛ تدبيرٌ وابتكارٌ. ولكن من أجل من؟

تقدمةً من أجل بهجة الإهداء ربما. على كلّ حالٍ إنه حاضرها. وليس لديها شيءٌ آخر...

كان بإمكان شخصٍ آخر، لا يهم من يكون، البقاء هناك، والقيام بكل شيءٍ بنفس البراعة. وفكرت أنه كان مع ذلك أمرًا مثيرًا للإعجاب. وقد قامت بما ينبغي كي يحصل.

إن كان في هذا التكريم للغير محض كرمٍ، فالحفل حقًّا حفلٌ. لكن الروتين الاجتماعي بدّل البوتلاش بسرعةٍ إلى مؤسسةٍ، والتقدمة إلى التزامٍ وتعقّد الحفل بالطقوس. بينما تستمتع المدعوة «بالعشاء في الخارج» تفكر أنها يجب أن تردّه: تشكو أحيانًا من بهاء الاستقبال. وتقول لزوجها بمرارةٍ: «أراد آل... إبهارنا». رووا لي أنّ حفلات الشاي خلال الحرب الأخيرة في مدينةٍ صغيرةٍ في البرتغال أصبحت مكلفةً جدًا: كان على ربة المنزل في كل اجتماعٍ تقديم تشكيلةٍ متنوعةٍ وواسعةٍ من الحلوى أكثر مما كان في الاجتماع السابق؛ أصبح هذا العبء ثقيلًا لدرجة أنّ النساء قررن ذات يومٍ بالإجماع عدم تقديم أي شيءٍ مع الشاي. يفقد الحفل في مثل هذه الظروف صفته السخيّة والرائعة؛ ويصبح مشقةً مثل البقية؛ وتغدو الأشياء الملحقة التي تعبر عن الاحتفال مبعث همٍّ: إذ يجب مراقبة الكريستالات، والمفرش، وحساب الشمبانيا وقطع الحلوى؛ فنجانٌ مكسورٌ، أو حرير مقعدٍ محروقٌ، هي كارثةٌ؛ ويجب التنظيف والتصفيف والترتيب في الغد: تخشى المرأة هذا العمل الإضافي. وتشعر بهذه التبعية المتعدّدة الّتي تحدّد مصير ربة المنزل: فهي تابعة لكعكة الجبن، والشواء، واللحّام، والموقد، والخدم الإضافيين؛ وهي تابعة للزوج الّذي يعقد حاجبيه ما إن يسير شيءٌ ما على غير ما يرام؛ وهي تابعةٌ للمدعوين الّذين يتفحصون بأنظارهم الأثاث والنبيذ ويقررون إن كانت السهرة ناجحةً أم لا. وحدهنّ النساء الكريمات أو الواثقات من نفسهنّ يجتزن مثل هذه التجربة بقلبٍ صافٍ. يمكن لانتصارهنّ أن يمنحهنّ رضىً كبيرًا. ولكن الكثيرات يشبهن في هذه النقطة السيدة دالواي الّتي تقول لنا عنها فرجينيا وولف: «رغم أنها تحب هذه الانتصارات... وبريقها والإثارة الّتي تمنحها، كانت تشعر بفراغها أيضًا، بزيفها». لا يمكن للمرأة أن تسعد بها فعلًا إلّا إن لم تكن تعلّق عليها أهميةً كبيرةً؛ وإلّا ستشعر بعذاب الغرور الّذي لا يُشبع أبدًا. عدا عن أنّ هناك قلةً من النساء الغنيات لدرجة أنّهنّ يجدن في

المناسبات الاجتماعية شغلًا لحياتهنّ. عادةً تحاول اللّواتي يكرّسن أنفسهنّ لها بشكلٍ كاملٍ ليس فقط إجلال أنفسهنّ ولكن أيضًا تجاوز هذه الحياة الاجتماعية نحو بعض الأهداف: «فالصالونات» الحقيقية ذات صبغةٍ ثقافيةٍ أو سياسيةٍ. ويجهدن بهذه الوسيلة في التعالي على الرجال ولعب دورٍ شخصيٍّ. يفلتن من وضع المرأة المتزوجة. فهذه عمومًا غير مفعمةٍ بالمتع والانتصارات العابرة الّتي تمنح لها نادرًا والتي تمثل غالبًا بالنسبة لها تعبًا بقدر ما هي تسليةٌ. تتطلب الحياة الاجتماعية منها أن «تمثّل»، أن تتفاخر، لكنها لا تخلق بينها وبين الغير تواصلًا حقيقيًّا. ولا تنتزعها من وحدتها.

كتب **ميشليه**: «من المؤلم التفكير في أنّ المرأة، الكائن التابع الّذي لا يستطيع العيش إلا مع كائنٍ آخر، هي وحيدةٌ غالبًا أكثر من الرجل. فهو يجد المجتمع في كلّ مكانٍ، ويخلق لنفسه علاقاتٍ جديدةً. وهي لا شيء دون الأسرة. والأسرة تثقل كاهلها؛ ويقع عليها كلّ العبء». وبالفعل، المرأة المحبوسة، المعزولة، لا تعرف متع الزمالة الّتي تفرض السعي المشترك نحو بعض الأهداف؛ لا يشغل عملُها تفكيرَها، ولم يعطها تأهيلها الميل للاستقلال ولا الاعتياد عليه، ومع ذلك تمضي أيامها في الوحدة: رأينا أنّ هذه هي إحدى المآسي الّتي كانت **صوفي تولستوي** تشتكي منها. فقد أبعدها زواجها عن المنزل الأبوي، وعن صديقات الشباب. وصفت **كوليت** في «تدريباتي» اقتلاع عروسٍ شابةٍ من موطنها في الأقاليم منتقلةً إلى باريس؛ فهي لا تجد ملاذًا إلا في الرسائل الطويلة الّتي تتبادلها مع أمها؛ لكنّ الرسائل لا تحل محل الحضور ولا تستطيع أن تعترف لسيدو بخيباتها. وغالبًا لا تبقى هناك حميميةٌ بين الشابة وأسرتها: فأمها وشقيقاتها لسن صديقاتٍ. يعيش اليوم كثيرٌ من المتزوجين حديثًا مع أسرة أهلهم أو حميهم نتيجةً لأزمة السكن؛ لكن هذا الحضور المفروض لا يشكل بالنسبة لها صحبةً حقيقيةً.

الصداقات النسائية التي تتمكن المرأة من الحفاظ عليها أو خلقها ثمينةٌ بالنسبة لها؛ ولها صبغةٌ مختلفةٌ جدًا عن العلاقات الّتي يعرفها الرجال؛ فهؤلاء يتواصلون فيما بينهم كأفرادٍ من خلال الأفكار والمشاريع الشخصية؛ أما النساء، الحبيسات ضمن عمومية قدرهنّ كنساءٍ، فيوحدهنّ نوعٌ من التواطؤ المتأصّل. وما يبحث عنه بعضهنّ لدى البعض الآخر أولًا هو تأكيد عالمهنّ المشترك. لا يناقشن آراءً: يتبادلن بوحًا ووصفاتٍ؛ يتّحدن لخلق

نوعٍ من العالم المضاد تتفوق قيمه على القيم الذكورية؛ متّحداتٍ، يجدن القوة على هزّ أغلالهنّ؛ يرفضن السيطرة الجنسية للرجل عبر إسرار بعضهنّ للبعض الآخر ببرودهنّ الجنسي، ساخراتٍ متهكّماتٍ على رغبات ذكورهنّ، أو رعونتهم؛ يرفضن كذلك بسخريةٍ التفوق الفكري لأزواجهنّ وللرجال عمومًا. ويقارنّ تجاربهنّ: فيصبح الحمل والولادة وأمراض الأطفال والأمراض الشخصية وأعمال المنزل الأحداث الرئيسية للتاريخ البشري. عملهنّ ليس تقنيةً: بتبادلهنّ وصفات الطبخ والتنظيف يسبغن عليها جلال علمٍ سريٍّ قائمٍ على تقاليد شفهيّةٍ. أحيانًا يدرسن معًا مشاكل أخلاقيةً. تعطينا «المراسلات الصغيرة» في المجلات النسائية عيّنةً جيّدةً عن هذه التبادلات؛ ولا نتخيّل وجود «بريد قلوبٍ» مخصّصٍ للرجال؛ فهم يلتقون في العالم الّذي هو عالمهم؛ بينما على النساء تحديد مجالهنّ الخاص وقياسه واستكشافه؛ يتبادلن بشكلٍ خاصٍّ نصائح تتعلّق بالجمال، ووصفات الطهو أو حياكة الصوف، ويطلبن آراءً؛ ومن خلال ميلهنّ للثرثرة والاستعراض، نشعر أحيانًا بمخاوف حقيقيةٍ. تعرف المرأة أن التشريع الذكوري ليس لها، وأن الرجل لا يحاسبها إن لم تتقيّد به، بما أنه يدفعها إلى الإجهاض، والخيانة الزوجية، والأخطاء، والخيانات، والكذب، الّتي يدينها رسميًا؛ وتطلب بالتالي من النساء الأخريات مساعدتها في تحديد نوعٍ من «قانونٍ وسطٍ»، تشريعٍ أخلاقيٍّ نسائيٍّ بحتٍ. لا تعلّق النساء على سلوك صديقاتهنّ وينتقدنه طويلًا بسوء نيّةٍ: ولكي يحكمن عليهنّ ويتصرّفن هنّ ذاتهنّ، يلزمهنّ ابتكارٌ أخلاقيٌّ أكثر من الرجال.

ما يعطي مثل هذه العلاقات قيمتها، هو الحقيقة الّتي تتضمنها. المرأة دومًا تمثيلٌ أمام الرجل؛ تكذب متظاهرةً أنها تقبل نفسها كالآخر اللاأساسي، وتكذب عندما تضع قبالته شخصيةً خياليةً عبر إيماءاتٍ وتبرّجٍ وكلامٍ مدبَّرٍ؛ تتطلب هذه المسرحية توتّرًا مستمرًّا؛ تفكر المرأة بقرب زوجها أو عشيقها كالتالي: «أنا لست أنا»؛ عالم الذكور قاسٍ، ذو أشواكٍ قاطعةٍ، والأصوات فيه رنّانةٌ، والأنوار فياضةٌ والملمس خشنٌ. بقرب النساء الأخريات، تقع المرأة خلف المشهد؛ تصقل أسلحتها، ولا تقاتل؛ وترتب زينتها، وتخترع تبرّجًا، وتهيّء حيلها: تجوب الكواليس بالخف وبرنس الحمام قبل أن تصعد على خشبة المسرح؛ تحب هذا الجو الدافئ، الناعم، المرتاح. هكذا تصف **كوليت** الأوقات التي كانت تمضيها مع صديقتها **ماركو:**

مسارّةٌ موجزةٌ، تسليةٌ انفراديةٌ، ساعاتٌ تشبه بالأحرى حينًا ساعات مشغلٍ للراهبات، وحينًا آخر أوقات الفراغ خلال النقاهة[189]...

كان يروق لها أن تلعب دور الناصحة مع المرأة الأكبر سنًّا:

خلال فترات بعد الظهر الحارة، تحت ستارة الشرفة، كانت ماركو تعتني بملابسها الداخلية. لم تكن تجيد الخياطة وكنت أزهو بالنصائح التي كنت أوجهها لها... «يجب عدم وضع شريطٍ رفيعٍ سماويٍّ على القمصان، اللون الوردي أجمل على الملابس الداخلية وبقرب الجلد». وسريعًا ما رحت أعطيها نصائح حول بودرة الأرز، ولون أحمر شفاهها، وخطٌّ قاسٍ بالقلم أحاطت به جفنيها. كانت تقول: «هل تظنين ذلك؟ هل تظنين ذلك؟». لم تكن سلطتي الحديثة تتراخى. كنت أتناول المشط، وأفتح ثغرةً صغيرةً جميلةً في غرّتها الّتي تشبه الفرشاة، كنت أبدي أني خبيرةٌ في جعل نظرتها متوهّجةً، وإشعال فجرٍ أحمر أعلى وجنتيها، بقرب الصدغين.

بعد قليلٍ، تظهر لنا ماركو تستعدّ قلقةً لمواجهة شابٍّ تود استمالته:

... كانت تريد مسح عينيها المبلّلتين، منعتها من ذلك.

دعيني أقوم بذلك.

وبإبهاميّ، رفعت جفنيها العلويين نحو الجبهة كي ترتشف الدمعتان اللّتان كانتا على وشك الانهمار وكيلا تذوب ماسكارا الأهداب عندما تمساها.

انتظري! لم ينته هذا بعدُ.

أصلحت تقاطيعها. كان فمها يرتعش قليلًا. وتركتني أفعل بصبرٍ، متنهدّةً كما لو كنت أضمّد جرحها. في النهاية، وضعت بودرة ورديةً على فرشاة البودرة الّتي كانت في حقيبتها. لم نكن نتحدث لا أنا ولا هي. وقلت لها:

... مهما حدث، لا تبكي. لا تدعي الدموع تغلبك بأي ثمنٍ.

... مررت يدها بين غرّتها وجبينها.

كان يجب أن أشتري يوم السبت الفائت هذا الثوب الأسود الّذي رأيته في المتجر... أخبريني هل تستطيعين إعارتي جوارب رقيقةً جدًّا؟ لم يعد لدي الوقت الآن.

ولكن أجل، أجل.

189- القبعة العسكرية Le Kèpi.

شكرًا. ألا تعتقدين من الأفضل وضع زهرةٍ لتمنح ثوبي بعض الألق؟ لا، ليس على الصدر. هل صحيح أن عطر السوسن لم يعد دارجًا؟ يبدو لي أن لدي أمورًا كثيرةً أسألك عنها؛ أمورًا كثيرةً...

وفي كتابٍ آخر «السعال» تذكر **كوليت** الوجه الآخر لحياة النساء. ثلاث شقيقاتٍ بائساتٍ يعانين من قلقٍ في علاقاتهنّ الغرامية يتجمعن كلّ ليلةٍ حول أريكة طفولتهنّ القديمة؛ هناك يسترخين، مجترّاتٍ هموم اليوم، مهيّئاتٍ معارك الغد، مستمتعاتٍ بمتع راحةٍ عابرةٍ، ونومٍ جيّدٍ، وحمّامٍ ساخنٍ، ونوبة دموعٍ، لا يتحدّثن إلى بعضهنّ أبدًا لكنّ كلّ واحدةٍ تخلق للأخريات نوعًا من العشّ، وكل ما يجري بينهنّ حقيقيٌّ.

بالنسبة لبعض النساء، هذه الحميمية العابثة والحارّة أثمن من العلاقات الفخمة مع الرجال. تجد النرجسيةُ لدى امرأةٍ أخرى، كما في فترة مراهقتها، نسخةً مميّزةً؛ تستطيع أن تستحسن بعينيها المنتبهتين القديرتين ثوبها ذا القصّة الممتازة، ومنزلها الرفيع. فيما وراء الزواج، تبقى الصديقة الحميمة شاهدًا مختارًا: يمكنها أيضًا أن تتابع الظهور كشيءٍ يثير الرغبة، مرغوبٍ فيه. لدى كلّ الفتيات تقريبًا، كما قلنا، هناك ميلٌ للمثلية الجنسية: لا تمحوه عناقات الزوج الخرقاء غالبًا؛ من هنا تأتي هذه النعومة الحسّية الّتي تجدها المرأة لدى شبيهاتها والّتي لا يوجد معادلٌ لها لدى الرجال العاديين. يمكن للتعلّق الحسّي بين الصديقتين أن يتسامى إلى عاطفيّةٍ متحمّسةٍ، أو يتجلّى بمداعباتٍ منتشرةٍ أو محدّدةٍ. يمكن أيضًا لعناقهما ألّا يكون سوى لعبةٍ للتسلية في أوقات الفراغ ـ وهذه حال نساء الحريم اللواتي شغلهنّ الرئيسي قتل الوقت ـ أو يمكنها أن تأخذ أهميةً جوهريةً.

مع ذلك، من النادر أن يرتفع التواطؤ النسائيّ ليبلغ مرحلة الصداقة الحقيقية؛ تشعر النساء أنهن متضامناتٌ تلقائيًا فيما بينهنّ أكثر من الرجال، ولكن من قلب هذا التضامن لا تتفوّق إحداهنّ على الأخرى، بل يلتفتن معًا نحو العالم الذكوري الّذي تتمنّى كلّ واحدةٍ لنفسها الاستئثار بقيمه. لا تُبنى علاقاتهنّ على خصوصيتهنّ، ولكنّهنّ يعشنها مباشرةً ضمن العمومية: وبذلك يدخل فورًا عنصر عدائيةٍ. **ناتاشا**[190] الّتي كانت تحبّ نساء أسرتها

190- تولستوي، حربٌ وسلمٌ.

لأنها كانت تستطيع أن تعرض أمامهنّ فوط أطفالها الرضّع كانت تشعر مع ذلك تجاههنّ بالغيرة: قد تتجسّد المرأة في عيني بيير في أيٍّ منهنّ. يأتي تفاهم النساء من أنهنّ يجدن أنفسهنّ الواحدة في الأخرى: ولكن حتى بذلك تعارض كل واحدةٍ رفيقتها. لربة المنزل علاقاتٌ بخادمتها أكثر حميميةً بكثيرٍ من علاقة الرجل بخادمه أو سائقه، إلّا إن كان لوطيًّا؛ تتبادلان البوح، وأحيانًا تتواطآن؛ لكن بينهما أيضًا تنافسًا عدائيًّا، لأن السيدة إذ تخفف عن نفسها عبء العمل تودّ أن تضمن بقاء مسؤوليته وفضله لها؛ تودّ أن تظن أنها ضروريةٌ لا يمكن الاستغناء عنها. «ما إن أغيب، حتى يفسد كل شيءٍ». تحاول بشراسةٍ تحميل خادمتها الخطأ؛ فإن أنجزت هذه واجباتها بشكلٍ ممتازٍ، لن تزهو الأخرى بشعورها أنها فريدةٌ. وكذلك تثور بشكلٍ تلقائيٍّ على المعلّمات والمربيات والحاضنات وخادمات الأطفال اللواتي يعتنين بأطفالها، وضد القريبات والصديقات اللواتي يساعدنها في مهامها؛ وتتعلّل بأنهن لا يحترمن «إرادتها» ولا يتبعن «أفكارها»؛ والحقيقة أنّه ليس لديها إرادةٌ ولا أفكارٌ خاصّةٌ؛ ما يزعجها على العكس هو أنّ أخريات يقمن بوظيفتها تمامًا كما كانت هي لتفعل. ذلك أحد المصادر الرئيسية لكل النقاشات العائلية والمنزلية الّتي تسمّم حياة الأسرة: كلّ امرأةٍ تطالب بشراسةٍ بأن تكون السيدة بحيث ليس لديها أيّة وسيلةٍ لتجعل الآخرين يعترفون بمزاياها الفريدة. ولكن على أرضية الأناقة والحب خصوصًا ترى كل واحدةٍ في الأخرى عدوةً؛ أشرت إلى هذا التنافس لدى الفتيات: يستمر غالبًا طول الحياة. رأينا أن مثال الأنيقة، الاجتماعية، هو إضفاء قيمةٍ مطلقةٍ؛ تعاني من عدم شعورها البتة بهالة مجدٍ تكلل رأسها؛ وتكره أن ترى أصغر هالةٍ تكلّل جبينًا آخر؛ كلّ الثناءات التي تتلقاها أخرى، تسرقها منها؛ ما هو المطلق إذا لم يكن فريدًا؟! تكتفي العاشقة الصادقة بالتربع على عرش قلبٍ، ولا تحسد صديقاتها على نجاحاتهنّ السطحية؛ لكنها تشعر أنها بخطرٍ في حبّها ذاته. الواقع أنّ أسطورة المرأة المخدوعة من قبل صديقتها المفضّلة ليست فقط «كليشة» أدبية؛ فكلما كانت امرأتان صديقتين، كلما غدت ثنائيتهما خطرةً. كاتمة السرّ مدعوةٌ لأن ترى من خلال عيني العاشقة، أن تشعر بقلبها، بجسدها: ويجذبها العاشق، مسحورةً بالرجل الّذي أغوى صديقتها؛ وتظن أنّ وفاءها يحميها بما فيه الكفاية من مشاعرها؛ يضايقها كذلك ألّا تلعب سوى دورٍ ثانويٍّ: وسرعان ما تكون مستعدّةً للاستسلام، وتقديم نفسها. كثيرٌ من

النساء الحذرات ما إن يقعن في الغرام حتى يتحاشين «الصديقات المقربات». لا يسمح هذا التناقض البتة للنساء بالركون إلى مشاعرهنّ المتبادلة. فظلّ الذكر يثقل عليهن. حتى عندما لا يتحدثن عنه، ينطبق عليه بيت الشعر للشاعر سان جونز بيرس:

لم نذكر اسم الشمس، لكنها حاضرةٌ بيننا.

تنتقمان معًا منه، وتنصبان له فخاخًا، وتلعنانه، وتشتمانه: لكنهما تنتظرانه. بينما تقبعان في الخدر، تسبحان في الاحتمال، في التفاهة والملل؛ احتفظت هذه الحدود ببعض دفء ثدي الأم، لكنها تبقى حدودًا. لا تتوقف المرأة عندها مستمتعةً إلّا بشرط أن تأمل في الخروج منها قريبًا. وبالتالي لا تستمتع ضمن رطوبة الحمام إلّا وهي تتخيّل القاعة المضاءة الّتي ستدخل إليها بعد قليلٍ. النساء بعضهن لبعضٍ رفيقات أسرٍ، يتساعدن في تحمّل سجنهنّ، وحتّى في تدبير هروبهنّ: لكنّ التحرير سيأتي من العالم الذكوري.

بالنسبة لغالبية النساء العظمى، يحتفظ هذا العالم بألقه بعد الزواج؛ الزوج وحده يفقد مكانته؛ وتكتشف المرأة أنّ جوهر الرجل البحت تراجع لديه: لكن الرجل يظلّ حقيقة الكون، والسلطة العليا، الرائع، المغامرة، السيد، النظرة، الغنيمة، المتعة، الخلاص؛ لا يزال يمثّل التسامي، وهو جواب كلّ الأسئلة. ولا توافق أكثر الزوجات إخلاصًا أبدًا على التخلي عنه تمامًا كي تحبس نفسها وجهًا لوجهٍ مع شخصٍ عارضٍ. ما زالت لديها منذ طفولتها حاجةً إلى مرشدٍ؛ وعندما يفشل الزوج في لعب هذا الدور، تلتفت نحو شخصٍ آخر. أحيانًا الأب أو أخٌ، عمٌّ، قريبٌ، صديقٌ قديمٌ احتفظ بمكانته القديمة: فتستند إليه. هناك صنفان من الرجال تؤهلهم مهنتهم لأن يكونوا موضع ثقةٍ وناصحين: الكهنة والأطباء. لدى الكهنة ميزةٌ كبيرةٌ هي أنهم لا يتقاضون أجرًا لقاء استشاراتهم؛ يسلمهم كرسي الاعتراف عزّلًا لثرثرات الأتقياء؛ ويتهربون قدر الإمكان من التقيات اللّواتي يتردّدن طول الوقت على الكنيسة، لكن واجبهم قيادة رعيتهم على دروب الأخلاق، وهو واجبٌ ملحٌّ بقدر ما تأخذ النساء أهميةً اجتماعيةً وسياسيةً وتبذل الكنيسة جهدًا في جعلهنّ أداتها. يملي «مدير الضمير» على التائبة آراءه السياسية ويتحكم بتصويتها؛ وثار كثيرٌ من الأزواج لرؤيته يتدخّل في حياتهم الزوجية: فهو من يحدّد الممارسات القانونية وغير القانونية، ويهتم بتربية الأولاد؛ ويعطي

نصائح للمرأة تمسّ مجمل سلوكها مع زوجها؛ فتلك الّتي كانت تجد في زوجها إلهًا تركع باستمتاعٍ على قدمي الذكر الّذي يمثّل الله على الأرض. ويتمتّع الطبيب بحمايةٍ أفضل بما أنه يطلب أتعابًا؛ ويستطيع أن يغلق بابه في وجه الزبونات غير المتحفظات؛ لكنه يتعرض لملاحقاتٍ أكثر تحديدًا، وأكثر تصميمًا؛ ثلاثة أرباع الرجال الّذين تلاحقهنّ نساءٌ شبقاتٌ هم أطباء؛ تعرية الجسد أمام رجلٍ يشكل للعديد من النساء متعة استعراضٍ كبيرةً.

يقول ستيكل:

أعرف بعض النساء اللواتي يجدن إشباعًا فقط في فحص طبيبٍ يجدنه جذابًا. هناك عدد كبير من المريضات من بين العوانس اللواتي يأتين لعند الطبيب كي يفحصهنّ «بعنايةٍ بالغةٍ» من أجل إفرازاتٍ لا أهمية لها أو من أجل اضطراباتٍ بسيطةٍ. وأخرياتٌ يعانين من رهابٍ من السرطان أو الإنتانات (من المراحيض) وتمنحهن هذه المخاوف حجّةً للفحص.

ويذكر من بين حالاتٍ أخرى الحالتين التاليتين:

عانسٌ، ب.ف...، ثلاثة وأربعون عامًا، غنيّةٌ، تذهب لعند طبيبٍ مرةً كل شهرٍ، بعد انتهاء الطمث، مطالبةً بفحصٍ دقيقٍ للغاية لأنها كانت تعتقد أن شيئًا ما ليس على ما يرام. تغيّر الطبيب كل شهرٍ وتكرر نفس اللعبة كل مرةٍ. يطلب منها الطبيب أن تخلع ملابسها وتتمدد على طاولة الفحص أو الأريكة. وترفض قائلةً أنها محتشمة جدًا، وأنها لا تستطيع القيام بمثل هذا العمل، وأنه مخالف للطبيعة! ويجبرها الطبيب أو يقنعها بهدوءٍ، وأخيرًا تخلع ملابسها، شارحةً له أنها عذراء وأنّه يجب ألّا يجرحها. ويعدها بالقيام بمسٍّ شرجيٍّ. وغالبًا تحدث الرعشة ما إن يفحصها الطبيب؛ وتتكرر، منتشرةً، أثناء المسّ الشرجيّ. ودائمًا تعطي اسمًا مستعارًا وتدفع فورًا... وتعترف أنّها مارست هذه اللعبة أملًا في أن يغتصبها طبيبٌ...

السيدة ل. م...، ثمانية وثلاثون عامًا، متزوجة، قالت لي أنها لا تشعر بشيءٍ مع زوجها. وأتت من أجل جلسات تحليلٍ. وبعد جلستين فقط، اعترفت لي أنّ لديها عشيقًا. ولكنه لم يفلح في إيصالها إلى الرعشة. لم تكن تبلغ الرعشة إلّا عندما يفحصها طبيبٌ نسائيٌّ! (كان أبوها طبيبًا نسائيًا!). كلّ جلستين أو ثلاثًا تقريبًا كانت تشعر بحاجةٍ تدفعها للذهاب إلى طبيبٍ ليفحصها. من وقتٍ لوقتٍ، كانت تطلب

علاجًا وكانت تلك أسعد الفترات. في آخر مرةٍ، مسّدها طبيبٌ نسائيٌّ طويلًا بسبب هبوطٍ مزعومٍ للرحم. أثار كلّ تمسيدٍ عدة رعشاتٍ. تفسّر شغفها بهذه الفحوص بأول مسٍّ كان قد أثار لديها أول رعشةٍ في حياتها...

تتخيّل المرأة بسهولةٍ أنّ الرجل الّذي عرضت نفسها أمامه تأثّر بجمال شكلها أو جمال روحها وهكذا تقنع نفسها، في الحالات المرضية، بأنّ الكاهن أو الطبيب يحبّانها. حتى لو كانت طبيعيةً، تشعر أن بينهما صلةً دقيقةً؛ ويسعدها هذا الخضوع المطيع؛ عدا عن أنّها تجد فيه أحيانًا أمانًا يساعدها في قبول حياتها.

مع ذلك هناك نساءٌ لا يكتفين بعرض وجودهن على سلطةٍ أخلاقيةٍ؛ بل يحتجن أيضًا إلى إثارةٍ عاطفيةٍ ضمن هذا الوجود. إن لم يشأن خيانة أزواجهنّ أو تركهم، يلجأن إلى نفس طريقة الفتاة الّتي تخشى الذكور من لحمٍ ودمٍ: يستسلمن لغرامياتٍ خياليةٍ. يعطينا ستيكل عدة أمثلةٍ لذلك[191]:

امرأةٌ متزوجةٌ، محتشمةٌ، من وسطٍ محترمٍ، تشكو من حالةٍ عصبيةٍ واكتئابٍ. ذات مساءٍ في الأوبرا، اكتشفت أنها مغرمةٌ بالمغني. وتشعر باضطرابٍ عندما تسمعه. وأصبحت من أشدّ معجبي المغنّي. لم تفوّت حفلةً له، واشترت صورته، وحلمت به، وأرسلت له باقةً من الورود مع إهداءٍ: «من مجهولةٍ تعترف بفضلك». حتى أنها قررت أن تكتب له رسالةً (موقعةً أيضًا باسم «معجبة»). لكنها ظلت بعيدةً. وسنحت لها فرصة التعرّف على المغنّي. وعرفت فورًا أنها لن تذهب. إذ لم ترغب بمعرفته عن قربٍ. وليست بحاجةٍ إلى حضوره. فهي سعيدة بأن تحب بحماسةٍ وأن تبقى زوجةً مخلصةً.

تدلّهت سيدةٌ في هوى كينز، وهو ممثّلٌ مشهورٌ للغاية في فيينا. كانت قد خصصت في منزلها غرفةً لكينز فيها صورٌ لا حصر لها للفنان الكبير. في إحدى الزوايا توجد مكتبةٌ لكينز. كان كلّ ما استطاعت جمعه محفوظًا بعنايةٍ: كتبٌ، وكتيّباتٌ أو صحفٌ تتحدث عن بطلها، وكذلك مجموعةٌ من برامج المسارح، وحفلات كينز الافتتاحية أو يوبيله. وكانت الذروة صورةً موقّعةً من الفنان الكبير. وارتدت الحداد لمدة عامٍ

191- ستيكل، المرأة الباردة.

عندما مات معبودها، وقامت بسفراتٍ طويلةٍ لتحضر محاضراتٍ حول كينز. كانت عبادة كينز قد حصّنت شهوانيتها وشبقيتها.

نذكر الدموع الّتي ذرفت لدى موت رودولف **فالنتينو**. تعبد النساء المتزوجات كما الفتيات أبطال السينما. أحيانًا يتخيّلن صورهم عندما يمارسن العادة السرية أو عندما يستعنّ بالخيال خلال العلاقات الزوجية؛ غالبًا أيضًا تبعث هذه الخيالات من جديدٍ ذكريات طفولةٍ بصورة جدٌ أو أخٍ أو أستاذٍ، إلخ..

مع ذلك، هناك أيضًا في محيط المرأة رجالٌ من لحمٍ ودمٍ؛ وتهتم جدًّا بآرائهم حولها سواءً كانت مكتفيةً جنسيًّا، أو باردةً أو مكبوتةً، إلا في حالةٍ نادرةٍ جدًا يكون الحب فيها كاملًا، مطلقًا، حصريًّا. لم تعد نظرة الزوج اليومية تفلح في إذكاء صورته؛ فهي بحاجةٍ إلى عيونٍ مليئةٍ بالغموض تكتشفها هي نفسها كغموضٍ؛ يلزمها شعورٌ سيّدٌ أمامها لتلقّي أسرارها، وإيقاظ الصور الباهتة، ليخلق هذه الغمّازة في زاوية فمها، ورفيف الأهداب هذا الّذي يخصّها وحدها؛ ليست مرغوبةً ولا محبوبةً إلّا إن رغب فيها أو أحبها أحدٌ. إن كانت مرتاحةً تقريبًا في زواجها تبحث بصورةٍ خاصّةٍ لدى الرجال الآخرين عن إرضاءٍ لغرورها: تدعوهم إلى مشاركتها إعجابها بنفسها؛ تغري، وتُعجِب، سعيدةً بأن تحلم بغرامياتٍ محرّمةٍ، وأن تفكر: لو شئتُ...؛ وتفضّل أن تسحر العديد من المحبين على أن يتعلّق بها أيٌّ منهم بعمقٍ؛ أكثر تأججًا وأقل نفورًا من الفتاة، يطلب غنجها من الذكور أن يزيدوا شعورها بقيمتها وسلطتها؛ وهي غالبًا جريئةٌ أكثر منها راسخة في منزلها، بما أنها نجحت في اكتساب رجلٍ، فهي تقود اللعبة دون آمالٍ عريضةٍ دون مخاطر كبيرةٍ.

يحدث بعد مرحلةٍ من الإخلاص تطول أو تقصر ألّا تكتفي المرأة بهذه المغامرات وهذا الغنج. وتقرر أن تخون زوجها غالبًا عن ضغينةٍ. يدّعي آدلر Adler أنّ خيانة المرأة انتقامٌ دومًا؛ هي الذهاب بعيدًا؛ لكنّ الأمر أنها تستسلم للعشيق غالبًا رغبةً منها في تحدي زوجها أكثر من وقوعها في الغواية: «ليس الرجل الوحيد في العالم ـ هناك آخرون مثله أستطيع أن أعجبهم ـ لست عبدته، يعتقد أنه ذكي لكنّي أخدعه»، يحدث أن يحتفظ الزوج المخدوع في نظر المرأة بأهميّةٍ جوهريةٍ؛ وكما تتّخذ الشابة أحيانًا عشيقًا كي تثور على أمها، أو

تتشكّى من أهلها، أو كي تعصيهم، أو لتؤكّد ذاتها، كذلك المرأة الّتي تربطها ضغائنها نفسها بزوجها تبحث لدى العشيق عمّن يسمع شكواها، عن شاهدٍ يراها ضحيّةً، وشريكٍ يساعدها على تحقير زوجها؛ فتحدثه عنه باستمرارٍ كي تتركه نهبًا لاحتقاره؛ وإذا لم يلعب العشيق هذا الدور جيّدًا تنصرف عنه غاضبةً إما عائدةً نحو زوجها، أو بحثًا عن آخر يواسيها. ولكن غالبًا ما ترميها الخيبة أكثر من الضغينة بين ذراعي عشيقٍ؛ فلا تجد الحب في الزواج؛ وتقنع بصعوبةٍ بعدم الإحساس بالشهوانية، والمتع الّتي استمتعت بانتظارها في شبابها. عندما يكبت الزواج كل إشباعٍ جنسيٍّ لدى النساء، منكرًا عليهن حرية مشاعرهن وتفرّدها، يقودهن عبر جدليّةٍ ضروريةٍ وساخرةٍ إلى الخيانة الزوجية.

يقول مونتينيه:

«نروضهنّ منذ الطفولة على تحكيم الحبّ، لا يتوجّه سحرهنّ، وزينتهنّ، ومعرفتهنّ، وكلامهنّ، وكل تعليمهنّ، إلّا نحو هذا الهدف. لا ترسّخ مربياتهنّ لديهنّ سوى وجه الحبّ، ولفرط تقديمه لهنّ باستمرارٍ يثرن اشمئزازهنّ منه...».

ويضيف بعد ذلك بقليلٍ:

من الجنون إذًا أن نكبح لدى المرأة رغبةً قويةً وطبيعيةً بهذا القدر.

ويصرّح إنجلز بما يلي:

مع الزواج الأحادي يظهر بشكلٍ مستمرٍّ وجهان اجتماعيان وصفيان: عشيق المرأة والزوج المخدوع... إلى جانب الزواج الأحادي والخليلة، تصبح الخيانة الزوجية مؤسسةً اجتماعيةً محتّمةً، محرمةً، تخضع لعقابٍ صارمٍ، ولكن مستحيلة الإلغاء.

إذا أثارت العناقات الزوجية فضول المرأة دون إشباع حواسها، مثل «الساذجة الطائشة» لكوليت، تحاول إنهاء تدريبها في أَسِرّةٍ غريبةٍ. وإذا نجح زوجها في إيقاظ شهوانيتها، بما أنها غير متعلقة به بشكلٍ خاصٍّ، تود أن تذوق مع آخرين المتع الّتي كشفها لها.

استنكر كتّابٌ أخلاقيون إعطاء التفضيل للعشيق، وأشرتُ إلى الجهد الّذي بذله الأدب البورجوازي لإعادة تصحيح صورة الزوج؛ لكن من غير المعقول الدفاع عنه بإظهار أن له قيمةً أكبر من خصمه في نظر المجتمع، أي بقية الرجال، المهم هنا ماذا يمثّل بالنسبة

للمرأة. غير أنّ هناك سمتين أساسيتين تجعلانه بغيضًا. فأولًا هو الّذي يضطلع بدور المعلّم الكريه، تحكم عليه بالفشل حتمًا متطلبات العذراء المتناقضة الّتي تحلم بأن تعامل بعنفٍ واحترامٍ معًا؛ وتبقى للأبد باردةً بين ذراعيه نتيجةً لذلك؛ بقرب العشيق لا تعرف ألم فضّ البكارة ولا ذلّ الحياء المقهور؛ ولا تتعرض لصدمة المفاجأة: تعرف تقريبًا ما ينتظرها؛ وهي أكثر صراحةً مما كانت ليلة زفافها، وأقل تشكيكًا، وأقلّ سذاجةً، ولم تعد تخلط الحب المثالي مع الرغبة الجسدية والمشاعر والاضطراب: عندما تتخذ عشيقًا، فهي تريد عشيقًا فعلًا. هذا الوضوح هو أحد مظاهر حرية خيارها. لأن هذا هو العيب الآخر للزوج: لقد خضعت له بشكلٍ عاديٍّ ولم تختره. أو أنها قبلته مستسلمةً، أو أن عائلتها قدمتها له؛ على أي حالٍ، حتى لو تزوجته بدافع الحب، فبزواجها جعلته سيدها؛ وأصبحت علاقتهما واجبًا وغالبًا ما يبدو لها بشكل مستبدٌّ. لا شك في أن اختيار العشيق محدودٌ بالظروف، لكنّ في هذه العلاقة بُعدَ حريّةٍ؛ الزواج فرضٌ، واتّخاذ العشيق ترفٌ؛ تستسلم المرأة له لأنه طلبها بإلحاحٍ: وهي متأكدةٌ إن لم يكن من حبه فمن رغبته؛ إنه لا يتصرف طاعةً للقوانين. لديه أيضًا امتياز عدم استهلاك غوايته ومكانته في احتكاك الحياة اليومية: يبقى بعيدًا، آخر. وكذلك في لقاءاتهما لدى المرأة انطباعٌ بالخروج من ذاتها، وبلوغ ثرواتٍ جديدةً: تشعر بنفسها أخرى. وهذا ما تبحث عنه بعض النساء في العلاقة قبل كل شيءٍ: أن يشغلهنّ الآخر، ويدهشهنّ، وينتزعهنّ من أنفسهنّ. تترك القطيعة عندهنّ شعورًا يائسًا بالفراغ. يذكر جانيه[192] Janet عدة حالاتٍ من هذه الكآبة الّتي تُظهر لنا ما كانت المرأة تبحث عنه ووجدته لدى العشيق:

امرأةٌ في التاسعة والثلاثين من عمرها، تعاني لأن أديبًا هجرها بعد أن شاركته في أعماله لمدة خمس سنواتٍ، كتبت لجانيه: «كانت لديه حياةٌ غنيةٌ وكان متسلطًا بحيث لم يكن بإمكاني الاهتمام إلّا به ولم أكن أستطيع التفكير في شيءٍ آخر».

وأخرى، عمرها واحدٌ وثلاثون عامًا، مرضت إثر قطيعةٍ مع عشيقٍ كانت تعبده. كتبت: «أودَ أن أكون محبرةً على مكتبه لأراه وأسمعه». وفسّرت ذلك: «أشعر بالسأم وحدي، زوجي لا يجعل عقلي يعمل بما يكفي، لا يعرف شيئًا، ولا يعلّمني شيئًا، لا

192- راجع: هواجس الهبوط النفسي.

يدهشني...، ليس لديه سوى التفكير السليم العادي، وهذا يزعجني». وعلى العكس كتبت عن العشيق: «إنه رجلٌ مدهشٌ، لم أره لحظةً مضطربًا، متأثرًا، مرحًا، متهاونًا، إنّه دائمًا متحكّمٌ بنفسه، متهكّمٌ، باردٌ دومًا لدرجةٍ تقتلك حزنًا. بالإضافة لذلك لديه جسارةٌ، وشجاعةٌ، وحدةٌ بالتفكير، وحيوية ذكاءٍ كانت تجعلني أفقد عقلي...».

هناك نساءٌ لا يشعرن بشعور الاكتفاء والإثارة هذا إلّا في بداية علاقةٍ؛ إن لم يمنحهنّ العشيق فورًا متعةً ـ وكثيرًا ما يحدث هذا في المرة الأولى بما أن الشريكين يشعران بالخجل وغير متآلفين معًا ـ يشعرن نحوه بالضغينة والقرف؛ هاته العاهرات يعدّدن التجارب ويتركن عشيقًا تلو الآخر. ولكن يحدث أيضًا أن تنجذب المرأة الّتي عرفت الفشل الزوجي هذه المرة إلى الرجل الّذي يلائمها تحديدًا وتنشأ بينهما علاقةٌ دائمةٌ. يروق لها غالبًا لأنه من نمطٍ معاكسٍ تمامًا لنمط زوجها. ولاشك أنّ هذا التباين بين سانت بوف وفيكتور هيغو هو ما فتن أديل. يذكر ستيكل الحالة التالية:

السيدة ب. هـ.... متزوجةٌ منذ ثماني سنواتٍ من عضوٍ في نادٍ لألعاب القوى. ذهبت إلى عيادةٍ نسائيةٍ لاستشارةٍ بسبب التهابٍ بسيطٍ في البوق وشكت من أنّ زوجها لا يتركها ترتاح... وأنّها لا تشعر سوى بآلامٍ. فالرجل خشنٌ وعنيفٌ. وانتهى به الأمر أن اتّخذ عشيقةً، وهي سعيدةٌ بذلك. وأرادت الطلاق وفي مكتب المحامي تعرّفت على سكرتيرٍ هو عكس زوجها تمامًا. فهو نحيفٌ، رقيقٌ، ضعيفٌ، لكنه لطيفٌ جدًا وناعمٌ. وأصبحا حميمين؛ وسعى الرجل إلى الحصول على حبها وكتب لها رسائل رقيقةً وأحاطها بألف اهتمامٍ. واكتشفا اهتماماتٍ فكريةٍ مشتركةٍ... وأذابت جمودها أول قبلةٍ... وأدت قوة هذا الرجل الضعيفة نسبيًا إلى حصول أقوى رعشاتٍ لدى المرأة... وبعد طلاقها تزوجا وعاشا سعيدين... كان يستطيع إيصالها للرعشة بالقبل والمداعبات. كانت هذه المرأة هي نفسها الّتي كان زوجها يتهمها بالبرود!

لا تنتهي كل العلاقات نهايةً سعيدةً بهذا الشكل. يحدث، كما تحلم الفتاة بمحرّرٍ ينتزعها من المنزل الأبوي، أن تنتظر الزوجة من العشيق أن يخلصها من نير الزوج: وهذا الوهم شائعٌ كقصة العاشق المتيم الّذي يفتر ويهرب ما إن تبدأ عشيقته بالحديث عن الزواج؛ فيجرحها تردده غالبًا وتفسد هذه العلاقات بدورها بسبب الضغينة والعدائية. إن استقرت

علاقةٌ، ينتهي بها الأمر إلى اتخاذ صبغةٍ عائليةٍ، زوجيةٍ؛ ونجد فيها الضجر، والغيرة، والحذر، والحيلة، وكل عيوب الزواج. وتحلم المرأة برجلٍ آخر ينتزعها من هذا الروتين.

عدا عن أنّ الخيانة تكتسب صفاتٍ مختلفةٍ جدًا حسب الطبائع والظروف. ما زالت الخيانة الزوجية تبدو في حضارتنا الّتي ظلت فيها التقاليد الأبوية جسيمةً بالنسبة للمرأة أكثر بكثيرٍ منها للرجل.

يقول مونتينيه:

> **هذا تقييمٌ جائرٌ للعيوب! نحن نفعل الرذائل ونقيّمها ليس حسب طبيعتها ولكن حسب مصلحتنا، من هنا تأخذ أشكالًا غير متساويةٍ. فظاظة قوانيننا تجعلنا نحكم على النساء حكمًا جائرًا يستدعي توابع أكبر مما تستحق المسألة.**

رأينا الأسباب الأصلية لهذه الصرامة: خيانة المرأة تعرّض إلى إدخال ابن غريبٍ إلى الأسرة وهذا يؤذي الوريثين الشرعيين؛ فالزوج هو السيد، والمرأة ملكه. أضعفت التبدلات الاجتماعية ووسائل تحديد النسل كثيرًا هذه الدوافع. لكنّ الرغبة في إبقاء المرأة في حالة تبعيةٍ تبقي الموانع الّتي ما زالت تحيط بها. وغالبًا ما تستبطنها؛ وتغضّ الطرف عن طيش الزوج دون أن يسمح لها دينها أو أخلاقياتها، أو «عفتها» بتصوّر قيامها بعملٍ مماثلٍ. الضبطَ الّذي يقوم به محيطها ـ وخصوصًا في المدن الصغيرة في العالمين الجديد والقديم ـ أكثر صرامةً بكثيرٍ مما يقع على زوجها: فهو يخرج أكثر، ويسافر، ويتسامحون مع تجاوزاته؛ وهي تخاطر بفقد سمعتها ووضعها كامرأةٍ متزوجةٍ. كثيرًا ما وصفوا الحيل التي تتمكن المرأة بواسطتها من التملص من هذه الحراسة: أعرف مدينةً برتغاليةً صغيرةً، ظلت على صرامتها القديمة، حيث النساء الشابات لا يخرجن إلّا بصحبة حماةٍ أو أخت زوجٍ؛ لكنّ الحلّاق يؤجر غرفًا صغيرةً تقع فوق محلّه؛ بين «التجعيد» والتسريح، يتعانق العاشقان على عجلٍ. في المدن الكبيرة، حرّاس المرأة أقلّ بكثيرٍ: وحتى المواعيد بين «الخامسة والسابعة» الّتي كانت تمارس قديمًا لم تكن تسمح كذلك للمشاعر غير الشرعية بالازدهار بسعادةٍ. لا تخلق الخيانة علاقاتٍ إنسانيةً حرّةً، كونها عجلى، سرية؛ وتفرض أكاذيب تكمل تجريد العلاقات الزوجية من كلّ كرامةٍ.

اكتسبت النساء اليوم جزئيًا حريتهنّ الجنسية في كثيرٍ من الأوساط. ولكن ما زالت لديهن مشكلةٌ صعبةٌ هي التوفيق بين حياتهنّ الزوجية وإشباعهنّ الجنسي. لا يتضمن الزواج عمومًا الحب الجسدي، وربما كان من المنطقي فصل أحدهما عن الآخر صراحةً. نقبل أن الرجل قد يكون زوجًا ممتازًا، ومع ذلك ذا مغامراتٍ: لا تمنعه نزواته الجنسية في الواقع من إقامة حياةٍ مشتركةٍ مع زوجته في إطار صداقةٍ تكون أكثر نقاءً وأقلّ تناقضًا بحيث لا تشكّل قيدًا. يمكن قبول أن يجري مثل ذلك بالنسبة للزوجة؛ تتمنى غالبًا أن تشاركه وجوده، وتخلق معه بيتًا للأطفال، وتجرب مع ذلك أحضانًا أخرى. هذه هي توافقات الحذر والنفاق الّتي تجعل الخيانة مهينةً؛ كان بإمكان اتفاق حريةٍ وصدقٍ إزالة أحد عيوب الزواج. مع ذلك، يجب الاعتراف بأنّ هناك بعض الحقيقة في الصيغة المثيرة التي أوحت لـ**دوماس الابن** اليوم بمسرحية «فرانسيون»: «الأمر مختلفٌ بالنسبة للمرأة». الاختلاف غير طبيعيٍّ. يزعمون أنّ حاجة المرأة الجنسية أقلّ من حاجة الرجل: وهذا غير مؤكدٍ البتة. تصبح النساء المكبوتات زوجاتٍ مشاكساتٍ، وأمهاتٍ سادياتٍ، وربات منزلٍ مهووساتٍ، ومخلوقاتٍ تعيسةً خطرةً؛ على كل حالٍ، وإن كانت رغباتها قليلةً فهذا ليس سببًا لنجد أن إرضاءها غير ضروريٌ. يأتي الاختلاف من مجمل الوضع الشهواني للرجل والمرأة كما تعرّفهما التقاليد والمجتمع الحالي. مازالوا يعتبرون العمل الجنسي لدى المرأة «خدمةً» تقدمها للرجل وتُظهره بالتالي كسيّدها؛ رأينا أنّه يستطيع دائمًا أن «يمتلك» مَن هي دونه ولكنها تنحطّ إذا استسلمت لذكرٍ ليس ندًّا لها؛ على كل حال تتخذ موافقتها شكل الاستسلام والسقوط. تقبل المرأة غالبًا عن طيب خاطرٍ أن يضاجع زوجها نساءً أخرياتٍ: حتى أنها تزهو بذلك؛ يبدو أن **آديل هيغو** لم تأسف إذ رأت زوجها الجموح يوجّه حماسته نحو أسِرّةٍ أخرى؛ حتى أن بعض النساء يقلّدن البومبادور فيقبلن أن يكنّ وسيطاتٍ[193]. وبالعكس، في العناق تتحوّل المرأة إلى شيءٍ، إلى فريسةٍ؛ يبدو للزوج أنها أُشبِعت بمانا غريبةٍ، لم تعد ملكه، سُرقت منه. والواقع أنّ المرأة تشعر غالبًا في الفراش أنها خاضعةٌ، وتريد ذلك، وبالتالي تصبح كذلك؛ الواقع أيضًا أنّها تميل بسبب المهابة الذكورية إلى موافقة وتقليد الذكر الّذي يجسّد في نظرها بامتلاكه لها الرجل كاملًا. يثور الزوج، ولديه الحقّ في ذلك، لسماعه من فمٍ مألوفٍ صدى فكرٍ غريبٍ:

193- أتحدث هنا عن الزواج. في الحب سنرى أنّ موقف الثنائي معكوسٌ.

يبدو له نوعًا ما أنه هو المُمتلَك، المغتصَب. وإن كانت السيدة **دوشاريير** قد قطعت علاقتها مع الشاب **بنجامان كونستان** ـ الّذي كان يلعب الدور الأنثوي بين امرأتين مسترجلتين ـ فذلك لأنها لم تكن تتحمّل أن تشعر بتأثير السيدة **دوستايل** البغيض عليه. طالما تجعل المرأة من نفسها عبدةً وانعكاسًا للرجل الّذي تمنح نفسها له، فعليها الاعتراف بأن خياناتها تنتزعها بشكلٍ جذريٍّ من زوجها أكثر من الخيانات المتبادلة.

إن حافظت على سيادتها، يمكنها مع ذلك أن تخشى أن يشعر العشيق أنّه خدع الزوج. حتى المرأة تسارع إلى تخيّل أنها تتفوّق على الزوجة الشرعية عندما تضاجع رجلًا ولو كان ذلك لمرةٍ، بعجالةٍ، على أريكةٍ؛ بالأحرى يعتقد الرجل عندما يضاجع عشيقته أنه يخدع الزوج. ولهذا في «الحنان» لـ**باتاي** Bataille، وفي «حسناء الليل» لـ**كيسل** Kessel، تعتني المرأة باختيار عشاقٍ من وسطٍ وضيعٍ: تبحث لديهم عن إشباعٍ حسّيٍّ، لكنها لا تريدهم أن يتفوّقوا على زوجٍ محترمٍ. في «الوضع الإنساني»، يُظهر لنا **مالرو** زوجين عقدا اتفاق حريّةٍ متبادلةٍ: مع ذلك عندما روت **ماي** لـ**كيو** أنّها ضاجعت زميلًا، تألّم إذ فكّر أنّ هذا الرجل تخيّل أنّه «خدعه»؛ اختار احترام استقلاليتها لأنه يعرف جيّدًا أنّه لا يمكن امتلاك أحدٍ أبدًا؛ لكنّ الأفكار الّتي تجول بفكر آخر تجرحه وتهينه من خلال **ماي**. يخلط المجتمع بين المرأة الحرّة والمرأة السهلة؛ حتى العشيق لا يعترف عن طيب خاطرٍ بالحرية التي يستغلها؛ يفضّل أن يعتقد أن عشيقته استسلمت، وتركته يجرجرها، وأنه انتصر عليها، وأغواها. قد تذعن امرأةٌ فخورةٌ شخصيًّا لزهوّ شريكها؛ لكنّها تكره أن يتحمل زوجٌ محترمٌ غطرسته. ومن الصعب جدًّا على المرأة أن تتصرف بشكلٍ مساوٍ للرجل طالما لم يتم اعتراف الجميع بهذه المساواة وتحقيقها بشكلٍ ملموسٍ.

على كلّ حالٍ لا تشكّل الخيانة والصداقة والحياة الاجتماعية ضمن الحياة الزوجية إلّا تسليةً؛ يمكنها أن تساعد على تحمّل الضغوط لكنها لا تحطمها. إنها ليست سوى هروبٍ زائفٍ لا يسمح البتة للمرأة بأن تمسك بيدها مصيرها رسميًّا.

الفصل الثامن

المومسات والخليلات

رأينا أنّ البغاء هو التابع المباشر للزواج[194]. يقول **مورغان**: «الخليلة تتبع البشرية حتى ضمن حضارتها كظلٍّ قاتمٍ يخيّم على العائلة». من باب الحذر، يكرّس الرجل زوجته للعفّة لكنه لا يرضى شخصيًّا بالنظام الّذي يفرضه عليها.

> **يروي مونتينيه الّذي يوافق على حكمة ملوك الفرس، أنهم كانوا يدعون زوجاتهم إلى حفلاتهم؛ ولكن عندما كان النبيذ يؤجّجهم وكان عليهم ترك العنان لشهواتهم كانوا يعيدوهنّ إلى مخادعهنّ كيلا يشاركن في هذا الشبق غير المحدود وكانوا يأتون مكانهنّ بنساءٍ لا يكنون لهنّ هذا الاحترام.**

كان آباء الكنيسة يقولون إنّ من الضروري وجود المجاري لتبقى القصور بحالة صحيةٍ جيدة. وقال **ماندفيل** Mandeville في كتابٍ أحدث ضجّةً: «من الجليّ أنّ هناك ضرورةً للتضحية بقسمٍ من النساء للحفاظ على الجزء الآخر وللوقاية من قذارةٍ منفّرةٍ أكثر». إحدى حجج الأمريكيين المدافعين عن الاستعباد هي أنّه بما أنّ الجنوبيين البيض تحرروا جميعًا من مهامهم الدنيئة فهم يستطيعون إقامة علاقاتٍ ديموقراطيةٍ راقيةٍ فيما بينهم؛ وكذلك

194- الجزء الأول، القسم الثاني.

يسمح وجود طائفةٍ من «الفتيات الساقطات» بمعاملة «المرأة المحترمة» باحترامٍ كاملٍ. العاهرة هي كبش فداءٍ؛ يفرغ الرجل لديها دناءته ويتنكّر لها. سواءً كان وضعها قانونيًّا تحت رقابة الشرطة أو إن كانت تعمل في الخفاء فهي منبوذةٌ على كل حالٍ.

وضعها من وجهة النظر الاقتصادية مماثلٌ لوضع المرأة المتزوجة. يقول **مارو**[195] Marro: «الاختلاف الوحيد بين اللّواتي يبعن أنفسهنّ بالبغاء واللّواتي يبعن أنفسهنّ بالزواج هو ثمن الاتفاق ومدته». بالنسبة للاثنتين العمل الجنسي خدمةٌ؛ الثانية مرتبطةٌ مدى الحياة برجلٍ واحدٍ؛ والأولى بعدة زبائن يدفعون لها بالمفرّق. تلك يحميها ذكرٌ من بقية الرجال، وهذه يحميها الجميع من استبداد كلٍّ منهم الحصري. في جميع الأحوال الفوائد الّتي يجنينها من وهب أجسادهنّ محدودةٌ بالمنافسة؛ يعرف الزوج أنّه كان بإمكانه الحصول على زوجةٍ أخرى: القيام «بالواجبات الزوجية» ليس منّةً، إنّه تنفيذ عقدٍ. في البغاء، بما أنّ الرغبة الذكورية ليست خاصّةً ولكن نوعيّةً، يمكن إشباعها بأيّ جسدٍ. ولا تنجح الزوجات أو الخليلات في استغلال الرجل إلّا إن كان لهنّ عليه نفوذٌ خاصٌّ. الاختلاف الكبير بينهنّ، هو أنّ الزوجة الشرعية، المضطهدة كامرأةٍ متزوّجةٍ، محترمةٌ كإنسانٍ؛ هذا الاحترام بدأ يحبط الاضطهاد جدّيًا. بينما ليس للعاهرة حقوق شخصٍ، وتُختَصر فيها جميع صور الاستعباد الأنثوي.

من السذاجة أن نتساءل ما الّذي يدفع المرأة إلى البغاء؛ لم نعد نعتقد اليوم بنظرية **لومبروزو** Lombroso الّذي شبّه البغايا بالمجرمين والّذي كان يرى كليهما منحطًّا؛ من الممكن، كما تؤكّد الإحصائيات، أن المستوى العقلي للعاهرات بشكلٍ عامٍّ تحت المتوسّط وأنّ بعضهنّ حمقاواتٌ بشكلٍ صريحٍ: النساء ذوات التفكير الضحل يخترن عن طيب خاطرٍ مهنةً لا تتطلّب منهنّ أي تخصّصٍ؛ لكنّ معظمهنّ طبيعياتٌ، وبعضهنّ ذكياتٌ. ليس لديهنّ أيّ قدرٍ وراثيٍّ، ولا علّةٌ جسديةٌ. في الحقيقة، في عالمٍ يسوده البؤس والبطالة، ما إن تكون هناك مهنةٌ حتّى يمتهنها أشخاصٌ؛ وطالما كان هناك شرطةٌ وبغاءٌ، سيكون هناك رجال شرطةٍ وبغايا. لأن هاتين المهنتين خصوصًا تدرّان مكاسب أكثر من العديد من سواهما

195- البلوغ.

في المتوسّط. من الرياء أن نتعجّب من العرض الّذي يستدعيه الطلب الذكوريّ؛ ذلك سياقٌ اقتصاديٌّ فطريٌّ وعامٌّ. كتب **باران-دوشاتليه** Parent-Duchatelet عام 1857 أثناء تحقيقه: «انعدام فرص العمل هو أكبر سببٍ للبغاء وكذلك البؤس الّذي هو نتيجةٌ حتميّةٌ للرواتب غير الكافية». يردّ الكتّاب الأخلاقيون العاقلون هازئين أنّ قصص العاهرات المثيرة للشفقة هي رواياتٌ موجّهةٌ للقارئ الساذج. في الواقع، في العديد من الحالات، كان بإمكان البغي أن تكسب عيشها بطريقةٍ أخرى: ولكن إن لم تعتبر أنّ المهنة الّتي اختارتها هي الأسوأ فهذا لا يعني أنها فاسقةٌ بطبعها؛ هذا يدين بالأحرى مجتمعًا ما زالت هذه المهنة فيه إحدى المهن الّتي يراها العديد من النساء أفضل من سواها. ونسأل: لماذا اختارتها؟ والسؤال بالأحرى: لماذا لم تكن لتخترها؟ لاحظنا أنّ قسمًا كبيرًا من «الفتيات» كنّ خادماتٍ سابقًا؛ وهذا ما وجده **باران-دوشاتليه** في كلّ البلاد، ولاحظته **ليلي براون** Lily Braun في ألمانيا و**ريكير** Rykère في بلجيكا. حوالي 50% من المومسات كنّ في الأصل خادماتٍ. نظرةٌ إلى «غرف الخدم» تكفي لشرح الأمر. فالخادمة المستغَلّة، المستعبَدة، الّتي تُعامَل كشيءٍ وليس كشخصٍ، الخادمة الّتي تقوم بجميع المهام، لا تتوقّع من المستقبل أيّ تحسينٍ لمصيرها؛ وعليها أحيانًا تحمّل نزوات سيّد المنزل: فتنزلق من الاستعباد المنزليّ وغراميّات الخدم إلى استعبادٍ ليس أكثر انحطاطًا وتحلم بأن يكون أفضل. عدا عن ذلك، غالبًا ما تكون الخادمات بلا جذورٍ؛ يقدّر أنّ 80% من المومسات الباريسيات يأتين من الأقاليم أو من الأرياف. قرب المرأة من عائلتها وخوفها على سمعتها يمنعانها من امتهان مهنةٍ غير محترمةٍ عمومًا؛ ولكن ضياعها في مدينةٍ كبيرةٍ، وعدم اندماجها بالمجتمع، ومفهوم «الأخلاق» المبهم لا تضع أمامها أيّة عوائق. وبقدر ما تحيط البورجوازية العمل الجنسيّ ـ والعذرية خصوصًا ـ بالمحرّمات المخيفة، بقدر ما تبدو في كثيرٍ من الأوساط الريفية والعمالية شيئًا غير ذي بالٍ. وتتطابق كثيرٌ من التحقيقات حول هذه النقطة: عددٌ كبيرٌ من الشابات يتركن أوّل قادمٍ يفضّ بكارتهنّ ويجدن من الطبيعي بعد ذلك أن يستسلمن لأيّ شخصٍ. استخلص **الدكتور بيزار** Bizard في تحقيقٍ أجراه على مئة مومسٍ ما يلي: واحدةٌ فُضَّت بكارتها في سن الحادية عشرة، واثنتان في سنّ الثانية عشرة، واثنتان في الثالثة عشرة، وستٌّ في الرابعة عشرة، وسبعٌ في الخامسة عشرة، وإحدى وعشرون في السادسة عشرة، وتسع عشرة في

السابعة عشرة، وسبع عشرة في الثامنة عشرة، وستٌّ في التاسعة عشرة؛ والبقية بعد سن الواحدة والعشرين. بالتالي كان هناك 5% اغتصبن قبل التعلّم. وقال أكثر من النصف أنهنّ استسلمن بدافع الحبّ؛ والبقية وافقن عن جهلٍ. أوّل مغوٍ شابٌّ غالبًا. وهو غالبًا زميل مشغلٍ، أو زميلٌ في المكتب، أوصديق طفولةٍ؛ ثم يأتي الجنود، ورؤساء فرق العمل، والبوابون، والطلاب؛ وتتضمن قائمة الدكتور بيزار من بين آخرين، محاميين، ومهندسٌ، وطبيبٌ، وصيدلانيٌّ. يندر أن يقوم بدور المدرِّب ربّ العمل نفسه كما تقول الأسطورة: ولكن غالبًا ابنه أو ابن أخته أو أحد أصدقائه. يذكر كومنج Commenge في دراسته أيضًا خمسًا وأربعين فتاةً بين الثانية عشرة والسابعة عشرة تمّ فضّ بكارتهنّ من قبل غرباء لم يرينهم بعد ذلك أبدًا؛ كنّ قد وافقن دونما اكتراثٍ، دون أن يشعرن بمتعةٍ. أورد الدكتور بيزار الحالات التالية من بين أخرى:

الآنسة ج. من بوردو، لدى عودتها من الدير في سن الثامنة عشرة، من باب الفضول ودون تفكيرٍ سيّءٍ تركت بائعًا جوالًا لا تعرفه يستدرجها إلى عربةٍ حيث فضّ بكارتها.

طفلةٌ في الثالثة عشرة من عمرها وهبت نفسها دون تفكيرٍ لرجلٍ صادفته في الشارع، لا تعرفه ولن تراه ثانيةً أبدًا.

تروي لنا م... أنّ شابًا لا تعرفه فضّ بكارتها في سنّ السابعة عشرة... تركته يفعل عن جهلٍ تامٍّ.

ر... فقدت عذريتها في سن السابعة عشرة والنصف على يدي شابٌ لم تره قبلًا وقابلته صدفةً عند طبيبٍ في الجوار ذهبت تستدعيه من أجل أختها المريضة، وأعادها بالسيارة كيلا تتأخر وفي الحقيقة بعد أن قضى وطره منها تركها في وسط الشارع.

ب... أفقدها عذريتها في سن الخامسة عشرة ونصف «دون أن تدري ما تفعل» شابٌ لم تره ثانيةً أبدًا؛ بعد تسعة أشهرٍ، ولدت طفلًا موفور الصحة.

س... فقدت عذريتها في سنّ الرابعة عشرة على يدي شابٍ استدرجها إلى منزله بحجة التعرف على أخته. في الحقيقة لم يكن للشاب أختٌ ولكن كان لديه الزهري ونقل العدوى للفتاة.

ر... أفقدها عذريتها في سن الثامنة عشرة ابن عمٍ متزوجٍ كانت تزور برفقته ساحات المعارك في جزءٍ من الجبهة، جعلها حبلى وأرغمها على ترك أسرتها.

ك... في السابعة عشرة، فضّ بكارتها ذات مساءٍ صيفيٍّ على الشاطئ شابٌّ تعرفت عليه حديثًا في الفندق وعلى بعد مئة مترٍ من والدتيهما اللّتين كانتا تتحدثان عن الطيش. ونقل إليها السيلان.

ل... أفقدها عذريتها في سن الثالثة عشرة عمها وهما يستمعان إلى التلفزيون السويسري بينما كانت زوجته، الّتي كانت تحب أن تنام باكرًا، مستلقيةً بهدوءٍ في الغرفة المجاورة.

هاته الشابات اللّواتي استسلمن بسلبيةٍ شعرن مع ذلك بالتأكيد بصدمة فضّ البكارة؛ نود معرفة التأثير النفسي لهذه التجربة القاسية على مستقبلهنّ؛ ولكنّنا لا نجري تحليلًا نفسيًّا «للفتيات»، إنهنّ لا يحسنّ وصف أنفسهنّ ويتهرّبن مختبئاتٍ وراء أفكارٍ مكررةٍ. لدى بعضهنّ، يمكن تفسير سهولة استسلامهنّ لأول قادمٍ بوجود تخيّلاتٍ للبغاء تحدّثنا عنها: بسبب ضغينةٍ عائليةٍ، أو خوفًا من شهوانيتهنّ الوليدة، أو رغبةً في الظهور كشخصٍ مهمٍّ. هناك فتياتٌ صغيراتٌ يقلّدن المومسات؛ يتبرّجن بشكلٍ صارخٍ، ويعاشرن الفتيان، ويبدون مغناجاتٍ ومثيراتٍ؛ هنّ اللّواتي ما زلن طفولياتٍ، لا جنسياتٍ، بارداتٍ، يعتقدن أنّ بإمكانهنّ اللعب بالنار دونما عقابٍ؛ يومًا ما سيصدّق رجلٌ ما كلامهنّ وسينزلقن من الحلم إلى الفعل.

كانت إحدى المومسات في الرابعة عشرة من عمرها تقول: «عندما يتم اقتحام بابٍ، من الصعب بعد ذلك إبقاؤه مغلقًا»[196]. مع ذلك نادرًا ما تقرر الفتاة امتهان البغاء فورًا بعد فضّ بكارتها. في بعض الحالات، تبقى مرتبطةً بعشيقها الأول وتتابع العيش معه؛ وتختار مهنةً «شريفةً»؛ عندما يهجرها العشيق، يواسيها آخر؛ وبما أنها لم تعد ملك رجلٍ واحدٍ، ترى أنّ بإمكانها منح نفسها للجميع؛ وأحيانًا، العشيق ـ الأول أو الثاني ـ هو من يقترح هذه الطريقة لكسب المال. هناك أيضًا كثيرٌ من الفتيات اللّواتي يجعلهنّ أهلهنّ يمارسن البغاء: في بعض العائلات ـ كعائلة جوك الأميركية الشهيرة ـ كلّ النساء مكرساتٌ لهذه المهنة. بين الشابات المتشرّدات، نرى أيضًا عددًا كبيرًا من الفتيات اللّواتي تخلّى عنهنّ ذووهنّ، وبدأن بالتسوّل وانزلقن من ذلك إلى البغاء. عام 1857، وجد باران-دوشاتليه من أصل 5000 مومسٍ أنّ دافع 1441 كان الفقر، و1425 أغوين وهُجِرن، و1255 تركهنّ ذووهنّ دون

196- ذكرها مارو، البلوغ.

مصدر رزقٍ. وتقترح التحقيقات الحديثة نفس النتائج تقريبًا. يدفع الفقر غالباً إلى البغاء المرأة الّتي أصبحت غير قادرةٍ على ممارسة عملٍ حقيقيٍّ، أو فقدت عملها، فيفسد توازن الميزانية الهش، ويجبر المرأة على ابتكار موارد جديدةٍ على عجلٍ. وكذلك ولادة طفلٍ. أكثر من نصف نساء سان لازار أنجبن طفلًا على الأقل؛ وكثيراتٌ ربّين بين ثلاثة إلى ستة أطفالٍ؛ يذكر الدكتور بيزار واحدةً أنجبت أربعة عشر طفلًا، كان ثمانيةٌ منهم مايزالون أحياء عندما تعرف إليها. ويقول إن قليلًا منهنّ يتخلّين عن طفلهنّ؛ ويحدث أن تمارس الفتاة ـ الأم البغاء كي تعيله. ويذكر هذه الحالة من بين سواها:

فقدت عذريتها في الأقاليم، في سنّ التاسعة عشرة، على يد ربّ عملٍ في الستين من عمره بينما كانت ما تزال مع أسرتها، واضطرت بعد أن حملت إلى ترك أهلها وأنجبت بنتًا بصحةٍ جيدةٍ ربتها كما يجب. بعد ولادتها أتت إلى باريس، وعملت مربيةً وبدأت تمارس البغاء في سنّ التاسعة والعشرين. إذن هي تمارسه منذ ثلاثةٍ وثلاثين عامًا. وبعد أن فقدت قواها وشجاعتها، تطلب الآن أن تدخل مشفى سان لازار.

نعرف أنّ هناك أيضًا انتشارًا للبغاء خلال الحروب وفي الأزمات الّتي تليها.

مؤلفة «حياة عاهرةٍ»، الّذي نُشر على أجزاءٍ في مجلة الأزمنة الحديثة[197] Les Temps modernes، تروي بداياتها:

تزوجت في سن السادسة عشرة من رجلٍ يكبرني بثلاث عشرة سنةً. تزوجت كي أترك أهلي. لم يكن زوجي يفكر سوى بأن يصنع لي أطفالًا. وكان يقول: «هكذا تظلين في المنزل، ولا تخرجين». لم يكن يريد أن أتزيّن، لم يكن يريد أن يأخذني للسينما. كنت مضطرةً لتحمل حماتي، الّتي كانت تأتي إلى المنزل كلّ يومٍ وتؤيّد ابنها السافل دومًا. كان أول أطفالي صبيًا، جاك؛ بعد أربعة عشر شهرًا، ولدت آخر، بيير... وبما أني كنت أشعر بالملل كثيرًا، بدأت أتبع دروسًا في التمريض، وكان ذلك يروقني جدًا... دخلت إلى المستشفى في ضواحي باريس، في قسم النساء. علّمتني ممرّضةٌ صغيرةٌ في السنّ أشياء لم أكن أعرفها قبلًا. كانت مضاجعة زوجي عبئًا. بقيت في قسم الرجال ستة أشهرٍ دون أن أقيم علاقةً. وذات يومٍ، دخل إلى غرفتي

197- نشرت هذه القصة سرًّا باسمٍ مستعارٍ هو ماري تيريز، وسأشير إليها بهذا الاسم.

الخاصة جنديٌ بلديٌ[198] قاسٍ، ولكنه كان وسيمًا... أفهمني أن بإمكاني تغيير حياتي، وأذهب معه إلى باريس، وأني لن أعمل ثانيةً... كان يعرف كيف يخدّرني... قررت الذهاب معه... وبقيت شهرًا سعيدةً فعلًا... وذات يومٍ، أحضر امرأةً حسنة الهندام، أنيقةً، قائلًا: «انظري، هذه امرأةٌ تدبّر أمورها جيدًا». في البدء، لم أقبل. حتى أني وجدت عملًا كممرضةٍ في عيادةٍ في الحيّ لأريه أنّي لم أكن أريد امتهان البغاء، لكني لم أستطع المقاومة طويلًا. كان يقول لي: «أنت لا تحبينني. عندما تحب المرأة رجلها، تعمل من أجله». كنت أبكي. كنت حزينةً في العيادة. في النهاية، تركته يأخذني إلى الحلّاق... وبدأت بممارسة الدعارة! كان جيلو يتبعني كي يرى إن كنت أدافع عن نفسي جيدًا وليستطيع تحذيري في حال أتى رجال الشرطة نحوي...

من بعض الجوانب تتطابق هذه القصة مع القصة الكلاسيكية للفتاة الّتي يدفعها قوّادٌ لامتهان الدعارة. يحدث أن يقوم الزوج بهذا الدور. وأحيانًا أيضًا امرأةٌ. أجرى ل. فيفر L. Faivre، عام 1931، تحقيقًا حول 510 مومسًا شابةً[199]: وجد أنّ 284 من بينهنّ يعشن وحدهنّ، و132 مع صديقٍ، و94 مع صديقةٍ تربطهن بها عادةً علاقةٌ سحاقيةٌ. ويورد (بكتابتهنّ) مقاطع الرسائل التالية:

سوزان، سبعة عشر عامًا. امتهنت البغاء مع بغايا خصوصًا. إحداهنّ احتفظت بي طويلًا، كانت غيورةً للغاية، فتركت شارع (...).

أندريه، خمسة عشر عامًا ونصف. تركتُ أهلي لأسكن مع صديقةٍ التقيت بها في حفلٍ، لاحظت بسرعةٍ أنها كانت تريد أن تحبني كرجلٍ، بقيت معها أربعة أشهرٍ، ثم...

جان، أربعة عشر عامًا. كان أبي المسكين يدعى س...، مات نتيجة الحرب في المشفى عام 1922. تزوجت أمي ثانيةً. كنت أرتاد المدرسة كي أحصل على شهادة الدراسة، ثم عندما حصلت عليها اضطررت لتعلم الخياطة... ثم بما أن مكسبي كان ضئيلًا، بدأت مشاجراتي مع زوج أمي... وضعوني كخادمةٍ لدى السيدة س...، شارع (...) وكنت وحدي منذ عشرة أيامٍ مع ابنتها الصغيرة التي كان عمرها خمسة وعشرون عامًا تقريبًا، لمحت تغييرًا كبيرًا تجاهها. ثم ذات يومٍ، كما يفعل الشاب، باحت لي بحبها. ترددتُ ثم استسلمت خوفًا من الطرد؛ فهمت عندئذٍ بعض الأمور...

198- جندي فرنسي آتٍ من شمال إفريقيا (المترجمة).

199- المومسات الشابات المشردات في السجن.

اشتغلت، ثم عندما أصبحت بلا عملٍ اضطررة للذهاب إلى الغابة حيث كنت أمارس الدعارة مع نساءٍ. تعرفت إلى سيدةٍ كريمةٍ جدًا، إلخ.

كثيرًا ما تنظر المرأة إلى البغاء فقط كوسيلةٍ مؤقتةٍ لزيادة مواردها. ولكن وصفنا مراتٍ عديدةً الطريقة التي تجد نفسها بها مقيدةً فيما بعد. إذا كانت «تجارة الرقيق الأبيض» حيث تساق إلى الفخ بطريق العنف، أو الوعود الزائفة، أو الخداع إلخ... نادرة نسبيًا، فالشائع أن تبقى في المهنة غصبًا عنها. يؤمن رأس المال الضروري لبداية عملها القوّاد أو القوادة اللّذان اكتسبا حقوقًا عليها، واللّذان يأخذان جزءًا كبيرًا من أرباحها ولا تستطيع التملّص منهما. ناضلت «ماري تيريز» عدة سنواتٍ كي تنجح في ذلك.

فهمت أخيرًا أنّ جيلو كان يريد نقودي فقط وفكرت أني أستطيع بعيدًا عنه أن أوفّر بعض النقود... في المنزل في البدء كنت خجولةً، لم أكن أجرؤ على الاقتراب من الزبائن لأقول لهم «هل تصعد». كانت امرأة رفيقٍ لجيلو تراقبني عن قربٍ وتحصي حتى عدد زبائني... وهكذا كتب لي جيلو أنّ عليّ أن أعطي نقودي كلّ مساءٍ لصاحبة الفندق، «هكذا لن يسرقوك...» وعندما أردت أن أشتري ثوبًا لي قالت لي صاحبة الفندق أنّ جيلو منعهم من إعطائي نقودي... قررت أن أترك هذا السجن بأسرع ما يمكن. عندما علمت ربة العمل أنّي كنت أريد الذهاب، لم تضع لي ضمادةً[200] قبل الزيارة كما في المرات السابقة وأوقفت ووضعت في المشفى... واضطررت للعودة إلى الفندق لأكسب نقود رحلتي... لكني لم أبق في الماخور سوى أربعة أسابيع... عملت بضعة أيامٍ في باريس كما في الماضي لكني كنت حانقةً على جيلو لدرجة أني لم أكن أستطيع البقاء في باريس: كنا نتشاجر، وكان يضربني، ومرةً كاد يلقي بي من النافذة... تدبرت أمري مع مخدّمٍ كي أذهب إلى الأقاليم. عندما أدركت أن المخدّم يعرف جيلو، لم أذهب إلى الموعد كما اتفقنا. لاقتني فتاتا المخدّم بقرب شارع بيلوم وأشبعتاني ضربًا... في اليوم التالي حزمت حقيبتي وذهبت وحدي إلى جزيرة ت... بعد ثلاثة أسابيع، مللت الفندق، وكتبت للطبيب عندما أتى للزيارة أن يسجل أني خرجت... لمحني جيلو في بولفار ماجنتا وضربني... كانت هناك علامات على وجهي. لم أعد أحتمل جيلو. بالتالي وقعت عقدًا للذهاب إلى ألمانيا...

200- «ضمادة لتخفيف السيلان البني كانت تعطى للنساء قبل الزيارة بحيث لا يجد الطبيب المرأة مريضةً إلّا عندما كانت صاحبة الفندق تريد التخلص منها».

شهر الأدب صورة «جيلو». فهو يلعب في حياة الفتاة دور الحامي. يقرضها بعض النقود لتشتري زينةً، ثم يدافع عنها ضد منافسة النساء الأخريات، وضد الشرطة ـ يكون هو نفسه أحيانًا رجل شرطةٍ ـ وضد الزبائن. يتمنى هؤلاء أن يستمتعوا دون أن يدفعوا؛ ومنهم من يفرغون ساديتهم بطيب خاطرٍ على المرأة. في مدريد، منذ بضع سنواتٍ، كان الشباب الفاشيّون من أولاد الذوات يتسلّون بإلقاء المومسات في النهر، في الليالي الباردة؛ في فرنسا، اصطحب طلّابٌ أحيانًا وهم يمرحون مومساتٍ إلى الريف وتركوهنّ هناك ليلًا، عارياتٍ تمامًا؛ تحتاج المومس إلى رجلٍ كي تأخذ أجرها، وتتحاشى المعاملة القاسية. كما يمنحها دعمًا معنويًّا، تقول بعضهنّ: «وحدك لا تعملين جيّدًا، لا شجاعة لك على العمل، تستسلمين». وهي تحبه غالبًا؛ وبسبب الحب امتهنت هذه المهنة، أو تبرر ذلك؛ في محيطها فوقيةٌ كبيرةٌ للرجل على المرأة: هذه المسافة تشجّع اتّباع الحب كدينٍ، ما يفسّر التضحية الشغوفة لبعض المومسات. يرين في عنف رجلهنّ علامة رجولةٍ ويخضعن له مطيعاتٍ. يعرفن معه الغيرة والعذاب ولكن أيضًا متع المرأة العاشقة.

مع ذلك، أحيانًا ليس لديهنّ تجاهه سوى العدائية والحقد: يبقين تحت سيطرته خوفًا أو لأنه يمسكهنّ، كما رأينا في حالة ماري تيريز. غالبًا عندئذٍ يتعزّين بمغامرةٍ عابرةٍ مع زبونٍ يخترنه.

كتبت ماري تيريز:

> «كان لجميع النساء علاقاتٌ عابرةٌ بالإضافة لـ«جيلوهنّ»، وأنا أيضًا. كان بحارًا وسيمًا للغاية. رغم براعته في الجنس لم أكن أستمتع معه لكنّ صداقةً قويةً جمعتنا. غالبًا كان يصعد معي دون أن نمارس الحب، فقط كي نتحدث، كان يقول لي أنّ عليّ أن أخرج من هناك، وأن مكاني ليس هنا».

يتعزّين أيضًا مع نساءٍ. عددٌ كبيرٌ من المومسات مثليات الجنس. رأينا أنّه كان لديهن غالبًا مغامرةٌ مثلية الجنس في بداية مهنتهنّ وأن كثيراتٍ تابعن العيش مع صديقةٍ. تبعًا لـ آنا رولنغ Anna Rueling، حوالي 20% من المومسات في ألمانيا مثليات الجنس. يشير فيفر إلى أن السجينات الشابات كنّ يتبادلن في السجن رسائل داعرةً، بشغفٍ، يوقعنها بعبارة «معًا مدى الحياة». هذه الرسائل مماثلةٌ لتلك الّتي تكتبها الطالبات مغذّياتٍ «شعلةً»

في قلوبهنّ؛ هاته هنّ أقلّ تجربةً وأكثر خجلًا؛ وأولئك يندفعن لأقصى حدود مشاعرهنّ، بكلامهنّ وبأفعالهنّ. نرى في حياة ماري تيريز ـ الّتي دربتها امرأةٌ على الشهوانية ـ أيّ دورٍ مميّزٍ تقوم به «الرفيقة» أمام الزبون المحتقَر، والقوّاد المتسلّط:

> **اصطحب جيلو فتاةً، خادمةً مسكينةً لم يكن لديها حتّى حذاءٌ تنتعله. اشترى لها كلّ شيءٍ من سوق الأشياء المستعملة ثم أتت معي إلى العمل. كانت صغيرةً ولطيفةً وبما أنها كانت فوق ذلك تحبّ النساء، انسجمنا جيّدًا. كانت تذكّرني بكلّ ما تعلّمته مع الممرضة. كنا نضحك غالبًا وبدل العمل كنا نذهب للسينما. كنت سعيدةً بوجودها معنا.**

نرى أنّ الرفيقة تلعب نوعًا ما دور الصديقة الحميمة للمرأة الشريفة المحبوسة بين النساء: فهي رفيقة المتعة، والعلاقات معها حرّةٌ، دون التزامٍ، عن طيب خاطرٍ؛ المومس المتعبة من الرجال، المشمئزة منهم أو الّتي ترغب في تسليةٍ، تبحث غالبًا بين ذراعي امرأةٍ أخرى عن الاسترخاء والمتعة. في جميع الأحوال، التواطؤ الّذي تحدثت عنه والّذي يوحّد النساء مباشرةً موجودٌ في هذه الحالة أكثر من سواها. بما أنّ علاقات المومسات مع نصف البشرية ذات طابعٍ تجاريٍّ، وأنّ مجمل المجتمع ينبذهنّ، ينشأ تضامنٌ وثيقٌ بينهنّ؛ وقد يحدث بينهنّ تنافسٌ وغيرةٌ، وشتائم، وعراكٌ؛ لكنهنّ بحاجةٍ عميقةٍ لبعضهنّ البعض ليشكلن «عالمًا مضادًّا» يجدن فيه كرامتهنّ الإنسانية؛ الرفيقة هي بيت السرّ والشاهد المميز؛ هي الّتي تبدي إعجابًا بالثوب، وبالتسريحة الّتي هي وسائل معدّةٌ لإغواء الرجل، ولكنّها تبدو غايةً بحدّ ذاتها في نظرات النساء الأخريات الحاسدة أو المعجبة.

أما علاقة المومس بزبائنها، فالآراء منقسمة حولها جدًّا وتتنوع الحالات حتمًا. أُشير غالبًا إلى أنها تحتفظ للعشيق الحميم بالقبلة على الشفاه، وهي تعبيرٌ عن حنانٍ حرٍّ، ولا تقيم أيّ مقارنة بين العناق المغرم والعناق المهني. شهادات الرجال مشكّكٌ فيها لأنّ خيلاءهم يدعوهم لتصديق تمثيلها للمتعة. ينبغي القول أن الظروف مختلفةٌ جدًّا عندما يتعلّق الأمر بمضاجعةٍ يصاحبها غالبًا تعبٌ جسديٌّ منهكٌ، أو مضاجعةٍ سريعةٍ، أو «وضعيةٍ مزعجةٍ»، أو علاقاتٌ متتاليةٌ مع زبونٍ معتادٍ. كانت ماري تيريز تمارس مهنتها عادةً بلامبالاةٍ، لكنّها تذكر بعض الليالي بلذّةٍ؛ كانت لها علاقات حبٍّ عابرةٌ وتقول إنّ جميع رفيقاتها كان لديهنّ منها

أيضًا؛ يحدث أن ترفض المرأة أن تتلقى أجرًا من زبونٍ راق لها، وأحيانًا إن كان بحاجةٍ تعرض عليه المساعدة. مع ذلك، وبوجه الإجمال، تعمل المرأة «بلا حماسٍ». ليس لدى بعضهنّ تجاه مجمل زبائنهنّ سوى لا مبالاةٍ يشوبها الاحتقار. كتبت ماري تيريز: «أوه! كم الرجال حمقى! وكم تستطيع النساء إدخال ما شئن في رؤوسهم!». لكنّ كثيراتٍ يشعرن بضغينةٍ واشمئزازٍ تجاه الرجال؛ ينفرن من فسقهم. فإما أنهم يذهبون إلى الماخور لإشباع نزعاتٍ فاسقةٍ لا يجرؤون على الاعتراف بها لزوجتهم أو عشيقتهم، أو لأنّ كونهم في الماخور يشجّعهم على ابتكار رذائل، يطلب العديد من الرجال من المرأة «نزواتٍ غير مألوفةٍ». كانت **ماري تيريز** تشكو خصوصًا أنّ الفرنسيين ذوو خيالٍ لا يرتوي. المرضى الّذين يعالجهم الدكتور بيزار اعترفوا له أنّ جميع الرجال فاسقون بدرجاتٍ متفاوتةٍ». تحدّثت إحدى صديقاتي طويلًا في مشفى بوجون مع مومسٍ شابةٍ ذكيةٍ جدًا، بدأت كخادمةٍ وتعيش مع قوادٍ تحبه جدًا. كانت تقول: «كلّ الرجال فاسقون، عدا رجلي. ولهذا أحبه. إذا اكتشفت يومًا أنه فاسقٌ سأتركه. لا يجرؤ الزبون في المرة الأولى دائمًا، يبدو طبيعيًا؛ ولكن عندما يعود، يبدأ في طلب أشياء... تقولين إنّ زوجك ليس فاسقًا: سترين. كلهم فاسقون». كانت تكرههم بسبب هذه الرذائل. صديقةٌ أخرى، عام 1943، في فرين، صادقت مومسًا. وأكّدت هذه أنّ 90% من زبائنها كانوا فاسقين، وحوالي 50% لوطيين مخجلين. كان أصحاب الخيال الواسع يخيفونها. طلب منها ضابطٌ ألمانيٌّ أن تتمشّى عاريةً في الغرفة حاملةً على ذراعيها زهورًا بينما كان يقلّد طيران عصفورٍ؛ رغم لباقته وكرمه، كانت تهرب كلّما لمحته. كانت **ماري تيريز** تكره «النزوات غير العادية» رغم أن أجرها كان أعلى بكثيرٍ من الإيلاج البسيط، وأنها لم تكن تتطلّب الكثير من المرأة غالبًا. كانت هذه النسوة الثلاث ذكياتٍ بشكلٍ خاصٍّ وحساساتٍ. لا شكّ أنهنّ كنّ يدركن أنّ روتين المهنة لم يعد يحميهنّ، ما إن كان الرجل يكفّ عن أن يكون زبونًا بشكلٍ عامٍّ ويصبح فردًا، حتى يصبحن فريسة شعورٍ، حرّيّةٍ ذات نزواتٍ: لم يعد الأمر مجرّد سوقٍ بسيطةٍ. تتخصص بعض المومسات مع ذلك في «النزوات غير المعتادة» لأنها تدرّ أكثر. يوجد حقدٌ طبقيٌّ ضمن عدائيتهنّ تجاه الزبون. تروي **هيلين دويتش** قصة آنا، وهي مومسٌ جميلةٌ شقراء، طفوليةٌ، لطيفةٌ جدًا عمومًا، ولكن كانت لديها نوبات هياجٍ غاضبٍ ضدّ بعض الرجال. كانت تنتمي لعائلةٍ عماليةٍ؛ وكان أبوها يشرب، وأمها مريضةً:

هذه الأسرة البائسة جعلتها تكره الحياة الأسرية بحيث لم تقبل أبدًا أن تتزوج، رغم طلبات الزواج العديدة الّتي انهالت عليها خلال عملها. كان شبان الحي يغرونها بترك عملها؛ كانت تحب مهنتها؛ ولكن عندما أصيبت بالسل أُرسلت إلى المشفى ونما لديها كرهٌ فظيعٌ تجاه الأطباء؛ كانت تكره الرجال «المحترمين»؛ لم تكن تتحمّل لطف طبيبها وتعاطفه. وكانت تقول: «ألا نعرف أنّ هؤلاء الرجال يسقطون بسهولةٍ أقنعة اللطف والكرامة والسيطرة على النفس، وأنهم يتصرفون كالبهائم الفظّة؟». عدا ذلك، كانت متوازنةً تمامًا عقليًّا. وادّعت كذبًا أن لها طفلًا لدى المربية، عدا ذلك لم تكن تكذب. وماتت بالسل. مومسٌ شابةٌ أخرى، جوليا، الّتي كانت تمنح نفسها لجميع الشبان الّذين كانت تصادفهم منذ سنّ الخامسة عشرة، ولم تكن تحب سوى الرجال الفقيرين والضعفاء؛ كانت لطيفةً وناعمةً معهم؛ وكانت تعتبر الآخرين «حيواناتٍ متوحشةً تستحق أسوأ معاملةٍ». (كانت لديها عقدةٌ واضحةٌ تُظهِر ميلًا لا يرتوي للأمومة: فكانت تصاب بذعرٍ عنيفٍ ما إن تُلفّظ أمامها كلمات أمٌّ، طفلٍ، أو كلماتٍ مشابهةٍ).

معظم المومسات متأقلماتٌ معنويًّا مع وضعهنّ؛ هذا لا يعني أنّهن غير أخلاقيّاتٍ بالوراثة أو بالولادة ولكن أنّهنّ يشعرن، وهنّ محقّاتٌ في ذلك، أنهنّ مندمجاتٌ في مجتمعٍ يطلب خدماتهنّ. ويعرفن جيدًا أنّ محاضرات الشرطي الواعظة الّذي يسجلها في سجل المومسات هي هذرٌ صرفٌ وأن الآراء العنيفة التي يجهر بها زبائنهنّ خارج الماخور لا تخيفهنّ كثيرًا. تشرح ماري تيريز للخبّازة الّتي تسكن عندها في برلين قائلةً:

> أنا أحبّ الجميع عندما يتعلق الأمر بالنقود يا سيدتي... أجل، لأنّك إن ضاجعت رجلًا مجانًا فسيقول عنك الشيء نفسه، أنك عاهرةٌ، وإن تقاضيت منه أجرًا سيعتبرك عاهرةً، أجل، ولكن عاهرة ذكيّةً؛ لأنك عندما تطلبين مالًا من رجلٍ كوني أكيدةً أنه سيقول لك بعدها: «أوه! لم أكن أعرف أنك تمارسين هذا العمل» أو: «هل لديك رجلٌ؟» ها هو الأمر. سواءً دفع لي أم لا، فذلك بالنسبة لي الشيء نفسه. وتجيب «آه! أجل، لديك حقٌّ». لأني أقول لها، ستقفين بالصف نصف ساعةٍ للحصول على بطاقةٍ من أجل حذاءٍ. أنا خلال نصف ساعة أضاجع رجلًا. وأحصل على حذاءٍ مجّانًا، بالعكس، إذا عرفت كيف أتملّقهم يدفعون لي مع الحذاء. ترين بالتالي أني محقّةٌ.

ما يجعل حياة المومسات صعبةً ليس وضعهنّ المعنوي والنفسي. إنه وضعهنّ المادي المؤسف في غالبية الحالات. إنّهن مستغَلاتٌ من قبل القوّاد وصاحبة الفندق، ويفتقدن للأمان وثلاثة أرباعهنّ بلا نقودٍ. 75% منهنّ يصبن بالزهريّ بعد خمس سنواتٍ من ممارسة المهنة، كما يقول الدكتور بيزار الّذي عالج أعدادًا كبيرةً منهنّ؛ القاصرات قليلات الخبرة يصبن بالعدوى بسهولةٍ مخيفةٍ؛ يضطرّ قرابة 25% منهنّ إلى إجراء جراحةٍ إثر مضاعفات السيلان البنّي. وتصاب واحدة من أصل عشرين بالسلّ، ويدمن 60% على الكحول أو المخدرات؛ ويموت 40% منهنّ قبل سنّ الأربعين. ينبغي إضافة أنّه يحدث من وقتٍ لآخر أن يحملن، رغم الاحتياطات، ويخضعن للجراحة عمومًا في ظروفٍ سيّئةٍ. البغاء الوضيع مهنةٌ شاقّة تنحطّ فيها المرأة حقًّا إلى مرتبة الشيء، مضطهَدةٌ جنسيًّا واقتصاديًّا، خاضعةً لتعسّف الشرطة، والرقابة الطبيّة المهينة، ونزوات الزبائن، مرصودةً للجرائيم والأمراض، والفاقة[201].

هناك مراتب عديدةٌ بين المومس المنحطّة والخليلة الكبيرة. الاختلاف الجوهري، هو أنّ الأولى تتاجر بعموميتها الصرفة، بحيث تبقيها المنافسة في مستوى حياةٍ بائسٍ بينما تبذل الثانية جهدًا ليُعترف بها ضمن خصوصيتها: إن نجحت في ذلك، يمكنها أن تطمح إلى مصيرٍ أفضل. الجمال والسحر أو الجاذبية الجنسية ضروريةٌ هنا لكنها غير كافيةٍ: يجب أن تتميّز المرأة بآرائها. كثيرًا ما تنكشف قيمتها من خلال رغبة رجلٍ: لكنّها لن تنطلق إلّا عندما يعلن الرجل عن قيمتها أمام العالم. في القرن الماضي، كان المنزل والمعدّات واللآلئ هي الّتي تشهد على ارتفاع قيمة عاهرةٍ» لدى راعيها الّذي يرفعها إلى مرتبة نصف سيدة مجتمعٍ؛ وتظلّ قيمتها ثابتةً طالما ظلّ الرجال يفلسون من أجلها. ألغت التبدلات الاجتماعية والاقتصادية نموذج بلانش دانتينيي[202]. لم يعد هناك «مجتمعٌ متحرّرٌ» تتأكّد السمعة ضمنه. تبذل الطموحة جهدًا لكسب شهرةٍ بطريقةٍ أخرى. آخر تجسّدٍ للخليلة هو النجمة. يدعمها

201- لا نستطيع بالطبع تغيير الوضع عبر وسائل سلبيةٍ ومنافقةٍ. كي يختفي البغاء يجب توفر شرطين: أن تؤمّن مهنةً محترمةً للنساء؛ وألّا تضع التقاليد أيّ عقبةٍ أمام حريّة الحبّ. فقط بإلغاء الحاجات الّتي يلبيها البغاء نستطيع إلغاءه.

202- مغنية فرنسية مشهورة في القرن التاسع عشر (المترجمة).

زوجٌ ـ وهو مطلبٌ ملحٌّ في هوليود ـ أو صديقٌ جادٌّ، بحيث تشبه **فرينيه** **وإمبريا** **وكاسكدور**. وهي تسلم المرأة لأحلام الرجال الّذين يعطونها الثروة والمجد بالمقابل.

كان هناك على الدوام بين البغاء والفنّ عبورٌ غير واضحٍ، بما أنّ المرء يجمع بطريقةٍ مبهمةٍ الجمال والشهوانية؛ في الحقيقة ليس الجمال ما يولد الرغبة؛ لكن النظرية الأفلاطونية حول الحب تقدّم تبريراتٍ منافقةً للشبق. عندما تعرّي **فرينيه** صدرها تقدّم لمجمع حكماء أثينا فرصة تأمل فكرةٍ صرفةٍ. يصبح عرض جسدٍ مكشوفٍ مشهدًا فنيًّا؛ جعل «الهزليون» الأمريكيون التعرّي مأساةً. ويؤكّد السادة المسنون الّذين يجمعون صورًا فاضحةً باسم «العري الفني» أن «العري عفّةٌ». في الماخور، لحظة «الاختيار» هي استعراضٌ؛ ما إن تتعقّد، حتى تُعرَض على الزبائن «لوحاتٌ حيّةٌ»، و«أوضاعٌ فنيّةٌ». لم تعد المومس الّتي ترغب في الحصول على قيمةٍ خاصّةٍ تكتفي بعرض جسدها بشكلٍ سلبيٍّ؛ بل تبذل جهدًا في إبراز مواهب خاصّةٍ. كانت «عازفات الناي» اليونانيات يسحرن الرجال بموسيقاهنّ ورقصهنّ. قيام أولاد نايل[203] برقصة البطن، ورقص الإسبانيات وغناءهنّ في الحيّ الصيني، ليس سوى عرضٍ للنفس بطريقةٍ راقيةٍ أمام الراغب. صعدت «**نانا**» على خشبة المسرح كي تجد راعيًا. بعض المسارح الاستعراضية كما في المقهى الموسيقي قديمًا، هي مواخير بكل بساطةٍ. يمكن استخدام كل المهن الّتي تعرض فيها المرأة نفسها لغاياتٍ مستهترةٍ. بالتأكيد هناك «فتياتٌ»، و«فتيات تاكسي»، وراقصاتٌ عارياتٌ، وجليساتٌ في الحانات، وفتياتٌ فاتناتٌ، وعارضات أزياء، ومغنّياتٌ، وممثّلاتٌ لا يسمحن لحياتهنّ الجنسية بالتطاول على مهنتهنّ؛ وكلّما كانت هذه المهنة تتطلّب تقنيّةً وابتكارًا، كلّما كانت هدفًا بحدّ ذاتها؛ ولكن كثيرًا ما تشعر المرأة الّتي «تعرض» نفسها للجمهور لتكسب لقمتها برغبةٍ في المتاجرة بمفاتنها بشكلٍ أكثر حميميةً. وبالعكس، تتمنّى الخليلة مهنةً تستخدمها كذريعةٍ. نادراتٌ هنّ اللّواتي، مثل **ليا** بطلة **كوليت**، الّتي أجابت صديقًا ناداها «بالفنانة العزيزة» بقولها: «فنانةٌ؟ حقًّا إنّ عشاقي غير متكتمين». قلنا إنّ سمعتها هي الّتي تمنحها قيمةً تجاريّةً: يمكن على خشبة المسرح أو شاشة السينما اكتساب شهرةٍ تصبح رأسمال تجارةٍ.

لا تحلم **سندريلا** دائمًا بالأمير الساحر: فهي تخشى أن يتحوّل إلى طاغيةٍ، سواء كان

203- قبيلة جزائرية (المترجمة).

زوجًا أم عشيقًا؛ تفضّل أن تحلم بصورتها ضاحكةً على أبواب صالات السينما. ولكنّها تصل غالبًا إلى غاياتها بفضل «حمايةٍ» ذكوريّةٍ؛ والرجال ـ زوجٌ أو عشيقٌ أو معجبٌ ـ هم من يؤكّد انتصارها بجعلهم إياها تشاطرهم ثروتهم أو شهرتهم. ضرورة إثارة إعجاب أشخاصٍ، أو جمهورٍ، هي ما يجعل النجمة شبيهةً بالخليلة. فدورهما في المجتمع متشابهٌ: سأستخدم كلمة خليلة للإشارة إلى كلّ النساء اللّواتي يعتبرن ليس فقط جسدهنّ وإنما شخصهنّ بكامله رأس مالٍ يجب استغلاله. موقفهنّ مختلفٌ جدًّا عن موقف مبدعٍ يتسامى ضمن عملٍ متفوقًا على المعطى ويستدعي لدى الغير حرّيةً يفتح لها المستقبل؛ لا تكشف الخليلة العالم، ولا تفتح أيّ طريقٍ للتسامي الإنساني[204]؛ بالعكس، تحاول استغلاله لمصلحتها، ببحثها عن رضى معجبيها، لا تنكر هذه الأنوثة السلبية الّتي تكرّسها للرجل: فهي تزودها بقدرةٍ سحريةٍ تسمح لها بإيقاع الذكور في فخّ حضورها، والتغذّي بهم؛ وتغرقهم معها في المثوليّة.

عبر هذا الطريق، تنجح المرأة في اكتساب نوعٍ من الاستقلاليّة. إذ تمنح نفسها لعدة رجالٍ، فلا تنتمي إلى أيٍّ منهم بشكلٍ نهائيٍّ؛ تؤمّن لها النقود الّتي تجمعها، والاسم الّذي «تطلقه» كما يطلق المرء منتجًا، استقلالًا اقتصاديًا. أكثر نساء العصور القديمة تحرّرًا لم يكنّ السيدات الفاضلات ولا المومسات من المستوى الوضيع، ولكن الخليلات. تتمتّع محظيّات عصر النهضة، وفتيات الجيشا اليابانيات بحريّةٍ أكبر بكثيرٍ من معاصراتهنّ. في فرنسا، ربما كانت نينون دو لانكلو المرأة الّتي تبدو لنا الأكثر تحررًا بشكلٍ مسترجلٍ. وبشكلٍ متناقضٍ، هذه النسوة اللّواتي يستغللن أنوثتهنّ لأقصى حدٍّ يخلقن لأنفسهنّ وضعًا مماثلًا تقريبًا لوضع رجلٍ؛ يصبحن ذاتًا انطلاقًا من هذا الجنس الّذي يقدّمهنّ للذكور كشيءٍ. لا يكسبن عيشهن فقط كالرجال، لكنهنّ يعشن ضمن صحبةٍ ذكوريةٍ حصريًا تقريبًا؛ متحرراتٍ من التقاليد والأقوال، يمكنهنّ أن يرتقين ـ مثل نينون دولانكلو ـ إلى أكثر حرية الفكر ندرةً. تُحاط الأكثر تميّزًا غالبًا بفنانين وأدباء تضجرهم «المرأة الشريفة». تجد التخيلات الذكورية تجسّدها الأكثر سحرًا في الخليلة: فهي جسدٌ وشعورٌ أكثر من أيّ أخرى، معبودةٌ، ملهمةٌ، موحيةٌ؛ يرغب بها الرسامون والنحاتون كموديلٍ؛ وتغذّي أحلام الشعراء؛

204- يحدث أن تكون أيضًا فنانةً وتبدع وتبتكر لتثير الإعجاب. عندها يمكنها إما جمع الوظيفتين، أو تجاوز مرحلة الغرام والانضمام إلى النساء الممثلات والمغنيات والراقصات إلخ.. اللواتي سنتحدث عنهنّ لاحقًا.

ويستكشف فيها المثقف كنوز «الحدس» الأنثويّ؛ وهي أكثر ذكاءً من السيّدة المحترمة لأنّها أقل تصنّعًا ونفاقًا. ولا تكتفي الأكثر موهبةً بدور الملهمة هذا؛ إذ تشعر بحاجةٍ إلى إظهار القيمة الّتي يمنحها إياها رضى الغير؛ تودّ ترجمة فضائلها السلبية إلى أفعالٍ. يكتبن شعرًا، ونثرًا، ويرسمن، ويؤلّفن الموسيقى منبثقاتٍ في العالم كذواتٍ مسيطرةٍ. وهكذا اشتهرت إمبريا بين المحظيات الإيطاليات. يمكن أيضًا باستخدامها الرجل كأداةٍ أن تمارس بهذه الواسطة وظائف ذكوريةً: «فالمحظيات المهمات» ساهمن من خلال عشاقهنّ الأقوياء في حكم العالم[205].

يمكن لهذا التحرّر أن يتجلّى على الصعيد الشهواني من بين سواه. يحدث أن تجد المرأة في النقود أو الخدمات الّتي تحصل عليها من الرجل تعويضًا عن عقدة الدونية الأنثوية؛ فللمال دورٌ مطهّرٌ؛ يلغي صراع الجنسين. إذا كان كثيرٌ من النساء غير المهنيات يرغبن في سحب الشيكات والهدايا من عشاقهن فليس ذلك من باب الطمع فقط: جعل الرجل يدفع ـ أو أن تدفع له كما سنرى فيما بعد ـ هو تحويله إلى أداةٍ. بذلك تحمي المرأة نفسها من أن تصبح هي أداةً؛ ربما يعتقد أنّه «امتلكها»، لكنّ هذا الامتلاك الجنسي وهميٌّ؛ هي الّتي تمتلكه على الصعيد الاقتصادي الّذي هو أكثر متانةً بكثيرٍ. فتشبع كبرياءها. يمكنها أن تستسلم لعناق العشيق؛ ولا تستسلم لإرادةٍ غريبةٍ؛ لا «تُفرَض» عليها المتعة، ستبدو بالأحرى مكسبًا جديدًا؛ لن «تؤخذ» بما أنّها تتقاضى أجرًا.

مع ذلك تشتهر المحظية بأنّها باردةٌ. يفيدها أن تعرف كيف تتحكّم بقلبها وبطنها: عاطفيةً كانت أم شهوانيةً، تخاطر بالخضوع لسطوة رجلٍ يستغلها أو يستأثر بها ويعذّبها. كثيرٌ من المعانقات الّتي تقبلها تهينها، خصوصًا في بداية مهنتها؛ فتتجلى ثورتها على الصلف الذكوري في برودها. تبوح الخليلات كما السيدات المحترمات لبعضهن عن طيب خاطرٍ «بالأشياء» الّتي تسمح لهنّ بالعمل «بالإبهار». هذا الاحتقار، هذا الاشمئزاز من الرجل يُظهِر جيّدًا أنّهنّ لسن متأكّداتٍ البتة من الربح في لعبة المستغِلّ ـ المستغَلّ. وبالفعل، في الغالبية العظمى من الحالات، ما تزال التبعيّة نصيبهنّ.

205- وكذلك تستخدم بعض النساء الزواج لخدمة غاياتهنّ الخاصّة، وتستخدم أخرياتٌ عشاقهنّ كوسائل للوصول لغايةٍ سياسيةٍ أو اقتصاديةٍ... إلخ. ويتجاوزن وضع الخليلة كما تتجاوز الأخريات وضع السيدة المحترمة.

لا يكون أيّ رجلٍ سيّدهنّ بشكلٍ نهائيٍّ. ولكنهنّ بحاجةٍ ملحةٍ للرجل. تفقد المحظية كلّ موارد وجودها إن كفّ عن الرغبة بها؛ وتعرف المبتدئة أنّ كلّ مستقبلها بين أيديهم؛ حتى النجمة تخسر مكانتها إن جُرِّدت من الدعم الذكوري: عندما ترك **أورسون ويلز ريتا هيوارث** هامت عبر أوروبا كاليتيمة البائسة قبل أن تلتقي بـ**علي خان**. أجملهنّ ليست أكيدةً من الغدّ أبدًا، لأنّ أسلحتها سحريّةٌ وللسحر نزواته؛ فهي تلتصق براعيها ـ زوجًا أو عشيقًا ـ بشكلٍ لصيقٍ كما الزوجة «الشريفة» بزوجها. تدين له ليس فقط بخدمة السرير إنما عليها تحمّل حضوره، وحديثه، وأصدقاءه، وخصوصًا متطلّبات غروره. عندما يدفع الراعي لزوجته حذاءً ذا كعبٍ عالٍ، أو تنورةً من الساتان، فهو يقوم باستثمارٍ يعود عليه بمكاسب؛ وعندما يهدي الصناعي أو المنتج لآلئ وفراءً لصديقته يؤكد من خلالها أنّ لديه ثروةً ونفوذًا: إن كانت المرأة وسيلةً لكسب المال أو عذرًا لإنفاقه، فتلك نفس التبعيّة. المواهب الّتي تغمرها قيودٌ. وزينتها، والحليّ الّتي ترتديها هل هي حقًّا لها؟ أحيانًا يطالب الرجل باسترجاعها بعد القطيعة، كما فعل في الماضي **ساشا غيتري** بأناقةٍ. «لاحتفاظ» المرأة براعيها دون التخلّي عن متعها، تستخدم الحيل والمناورات والكذب والرياء الّتي تفسد الحياة الزوجيّة؛ حتّى وإن كانت تمثّل التبعيّة فذلك تبعيّةٌ في حدّ ذاته. إن كانت جميلةً، شهيرةً، تستطيع، إذا غدا السيّد الحالي بغيضًا بالنسبة لها، أن تختار آخر. لكنّ الجمال همٌّ، إنّه ثروةٌ هشّةٌ؛ والخليلة تابعةٌ بشكلٍ لصيقٍ لجسدها الّذي يفسده الزمن بلا رحمةٍ؛ لهذا يأخذ الكفاح ضدّ الشيخوخة لديها مظهرًا مأساويًا. إن كانت لها مكانةٌ كبيرةٌ، تستطيع تجاوز تخرّب وجهها وشكلها. لكنّ العناية بهذه الشهرة الّتي هي رأس مالها الأكيد تخضعها لأشدّ استبدادٍ قسوةً: استبداد الرأي. نعرف الاستعباد الّذي تقع فيه نجمات هوليود. فجسدهنّ لم يعد ملكهنّ؛ يقرّر المنتج لون شعرهنّ ووزنهنّ وقوامهنّ ونمطهنّ؛ من أجل تغيير انحناءة خدٍّ يقلعون لهنّ أسنانًا. والحمية والرياضة والقياس والتبرّج هي أعباءٌ يوميةٌ. وتحت شعار «المظهر الشخصي» يُقرَّر الخروج والمغازلات؛ لا تعود الحياة الخاصة سوى لحظةٍ من الحياة العامة. في فرنسا، القواعد ليست مكتوبةً؛ لكنّ المرأة الحذرة والحاذقة تعرف ما تتطلّبه «دعايتها» منها. النجمة الّتي ترفض الانصياع لهذه المتطلّبات تتعرّض لانحطاطٍ حادٌّ أو بطيءٍ لا مفرّ منه. ربما كانت المومس الّتي لا تقدّم سوى جسدها أقل عبوديةً من المرأة الّتي تتطلّب

مهنتها إثارة الإعجاب. والمرأة «الناجحة» الّتي تملك مهنةً حقيقيّةً، وموهبةً معترفٌ بها ـ ممثلة أو مغنية أو راقصة ـ تفلت من مصير الخليلة؛ ويمكنها أن تتمتع باستقلالٍ حقيقيٍّ؛ لكنّ أغلبهنّ يبقين في خطرٍ طيلة حياتهنّ: عليهن إغواء الجمهور والرجال دون راحةٍ.

كثيرًا ما تستبطن الخليلة تبعيتها؛ بخضوعها للرأي العام، تعترف بقيمه؛ وتُعجَب «بالعالم الراقي» وتتبنّى تقاليده؛ تريد أن يصنّفوها انطلاقًا من المعايير البورجوازية. فتتطفّل على البورجوازية الغنية، وتنضمّ لأفكارها؛ «تفكّر بشكلٍ جيّدٍ»؛ وفيما مضى كانت تضع بناتها بطيب خاطرٍ في الدير وعندما تشيخ كانت تذهب هي نفسها لحضور القداس، عائدةً إلى الدين بعظمةٍ. فهي إلى جانب المحافظين. وهي فخورةٌ لأنها نجحت بإيجاد مكانها في هذا العالم لدرجة أنها لا تودّ أن يتغيّر. والمعركة الّتي تقوم بها من أجل «الوصول» لا تؤهّلها لمشاعر الأخوّة والتضامن الإنساني؛ فقد دفعت ثمن نجاحها كثيرًا من مسايرة العبد بحيث لا تتمنى الحريّة الشاملة في أعماقها. أشار زولا Zola إلى هذه الناحية لدى نانا:

> **كانت لنانا آراءٌ حاسمةٌ بشأن الكتب والقصص: كانت تريد كتبًا رقيقةً نبيلةً، أشياء تجعلها تحلم وتبسط روحها... فثارت على الجمهوريين. ماذا يريد هؤلاء الناس القذرين الّذين لم يكونوا يستحمون أبدًا؟ ألم نكن سعداء، ألم يفعل الإمبراطور كلّ شيءٍ من أجل الشعب؟ الشعب، يا لها من قذارةٍ! كانت تعرفه، وبإمكانها الحديث عنه: لا، ستكون جمهوريتهم شقاءً كبيرًا للجميع. آه! فليحفظ لنا الله الإمبراطور أطول مدةٍ ممكنةٍ.**

أثناء الحروب، لا يعرض أحدٌ وطنيّةً هجوميّةً أكثر من العاهرات الكبيرات؛ تأمل أن ترتقي لمستوى الدوقات من خلال نبل المشاعر الّتي تتظاهر بها. تقوم محادثاتهنّ العامة على أفكارٍ مبتذلةٍ، ومكررةٍ، وأحكامٍ مسبقةٍ، وانفعالاتٍ اتفاقيةٍ، وغالبًا ما يفتقرن إلى الصدق في أعماق أنفسهنّ. تتبدّد اللغة بين الكذب والمبالغة. حياة الخليلة كلها استعراضٌ: كلماتها وإيماءاتها ليست من أجل التعبير عن أفكارها ولكن لإحداث تأثيرٍ. تمثّل الحبّ على راعيها: وأحيانًا على نفسها. تلعب دور المحتشمة والوقورة أمام الرأي العام: وينتهي بها الأمر إلى أن تصدق أنها مثال الفضيلة ومعبودةٌ مقدّسةٌ. يسود حياتها الداخلية سوء نيّةٍ عنيدٌ ويسمح لكذبها المدبّر أن يقتبس طبيعية الحقيقة. في حياتها أحيانًا حركاتٌ تلقائيةٌ: لا

تتجاهل الحبّ تمامًا؛ فلديها «علاقاتٌ سطحيةٌ»، «وافتتاناتٌ»؛ وأحيانًا حتّى تكون «مهووسةً». ولكنّ من تفسح مكانًا أكبر مما ينبغي للنزوة والإحساس والمتعة تفقد «وضعها» سريعًا. عمومًا، تعطي نزواتها حذر الزوجة الخائنة؛ فتختبئ من منتجها ومن الرأي العام؛ وبالتالي لا تستطيع إعطاء الكثير من نفسها «لعشاقها المفضّلين»؛ فليسوا سوى تسليةٍ واستراحةٍ. عدا عن أنّها مهووسةٌ عمومًا بهمّ نجاحها لدرجة أنها لا تستطيع نسيان نفسها ضمن حبٍّ حقيقيٍّ. أما بالنسبة للنساء الأخريات، فيحدث كثيرًا أن تحبّهن حبًّا شهوانيًّا؛ فهي عدوّةٌ للرجال الّذين يفرضون عليها سيطرتهم، وتجد بين ذراعي صديقةٍ راحةً شهوانيةً وانتقامًا: مثل **نانا** بين يدي عزيزتها **ساتان**. وكما تتمنى أن تلعب في العالم دورًا فعّالًا لتستخدم حرّيتها بشكلٍ إيجابيٍّ، يسرها كذلك أن تتملّك أشخاصًا آخرين: شبابٌ صغارٌ في السنّ تتسلّى «بمساعدتهم»، أو شاباتٍ تعيلهنّ بطيب خاطرٍ، وتكون بقربهنّ شخصيّةً مسترجلةً. وسواء كانت مثلية الجنس أم لا، تكون علاقاتها مع مجمل النساء معقّدةً كما ذكرتُ: فهي بحاجةٍ إليهنّ كحكامٍ وشهودٍ، وبيت سرٍّ وشريكاتٍ، لخلق هذا «العالم المضاد» الّذي تطالب به كلّ امرأةٍ يضطهدها الرجل. لكنّ التنافس الأنثوي يبلغ هنا ذروته. للمومس الّتي تتاجر بعموميتها منافساتٌ؛ ولكن إن كان هناك عملٌ كافٍ للجميع، يشعرن أنهنّ متضامناتٌ حتّى من خلال شجارهنّ. الخليلة الّتي تحاول أن «تتميّز» هي عدائيةٌ تجاه تلك الّتي تطلب مثلها مكانًا مميّزًا. في هذه الحال تظهر كلّ «البذاءة» النسائية المعروفة.

أكبر مآسي الخليلة ليست فقط أنّ استقلالها هو الوجه الآخر الكاذب لألف تبعيّةٍ، ولكن أنّ هذه الحرّيّة ذاتها سلبيةٌ. ممثلةٌ مثل **راشيل**، وراقصةٌ مثل **إيزودورا دنكان**، حتّى لو ساعدهما رجالٌ، لديهما مهنةٌ تطلبهما وتمنحهما مبرّرًا؛ يبلغان بهذا العمل الّذي أرادتاه وأحبتاه حرّيّةً حقيقيةً. ولكن بالنسبة للغالبية العظمى من النساء ليس الفنّ والمهنة سوى وسيلةٍ لا توظّف مشاريع حقيقيّةً. السينما بوجهٍ خاصٍّ الّتي تخضِع النجمة للمخرج لا تسمح لها بالابتكار ولا بتطوير نشاطٍ مبدعٍ. تُستغلّ كما هي؛ لا تخلق موضوعًا جديدًا. كما أنّه من النادر أن يصبح المرء نجمًا. في «الغزل» بحدّ ذاته، لا يُفتَح أيّ طريقٍ للتسامي. هنا أيضًا يصاحب السأم إبقاء المرأة ضمن المثوليّة. أشار **زولا** إلى هذه النقطة لدى **نانا**:

> **مع ذلك في هذا الترف، في هذه الحلقة، كانت نانا تشعر بضجر شديدٍ. كان لديها**

رجالٌ لكلّ أوقات الليل ونقودٌ حتّى في جوارير طاولة زينتها، لكنّ هذا لم يعد يكفيها، كانت تشعر بفراغٍ في مكانٍ ما، ثقبٍ يجعلها تتثاءب. كانت حياتها تمضي فارغةً، تعيد نفس الساعات الرتيبة... كان اطمئنانها إلى أنّهم سوف يطعمونها يدعها مستلقيةً طول النهار، دون جهدٍ، نائمةً في أعماق هذا القلق وهذا الخضوع كأنما هي في ديرٍ، أو حبيسة مهنتها كفتاةٍ. كانت تقتل الوقت بمتعٍ بلهاء بانتظار الرجل فقط.

وصف الأدب الأمريكي مئة مرةٍ هذا السأم البليد الّذي يسحق هوليود والّذي يمسك بحلق المسافر حال وصوله: يشعر الممثلون الرئيسيون والثانويون فيها بالملل بقدر شعور النساء اللّواتي يشاطرونهنّ وضعهنّ. حتى في فرنسا، تأخذ السهرات الرسمية غالبًا شكل عبءٍ. الراعي الذي يهيمن على حياة النجمة هو رجلٌ مسنٌّ، وأصدقاؤه مسنّون: واهتماماتهم غريبةٌ على الشابة، وأحاديثهم تزعجها؛ توجد هوّةٌ أكثر عمقًا مما في الزواج البورجوازي بين المبتدئة ذات العشرين عامًا والمصرفي ذي الخمسةِ والأربعين عامًا اللّذين يمضيان النهار والليل معًا.

الوحش الّذي تضحي الخليلة من أجله بالمتعة والحب والحرّية هو مهنتها. الوضع المثالي بالنسبة للسيّدة المحترمة هو سعادةٌ ساكنةٌ تغلّف علاقتها بزوجها وأولادها. تمتدّ «المهنة» عبر الزمن، لكنها تظلّ موضوعًا متأصّلًا يُختَصر باسمٍ. ويكبر الاسم على الإعلانات وفي الأفواه أولًا بأوّلٍ بقدر ما تتسلّق درجات السلّم الاجتماعي أعلى فأعلى. تدير المرأة مؤسستها حسب مزاجها بحذرٍ أو بجرأةٍ. الواحدة تتذوق فيها رضى ربّة منزلٍ تطوي ملاءاتٍ جميلةً في خزانتها، والأخرى نشوة المغامرة. تكتفي المرأة تارةً بإبقاء وضعٍ مهدَّدٍ دومًا في حالة توازنٍ مستمرٌّ ينهار أحيانًا؛ وتارةً تبني شهرتها إلى ما لا نهايةٍ، كبرج بابل يطمح إلى السماء عبثًا. يمزج بعضهنّ الغزل بأنشطةٍ أخرى، يبدون مغامراتٍ حقيقياتٍ: إنّهنّ جاسوساتٌ، مثل **ماتا هاري**، أو عميلاتٌ سرّياتٌ؛ ليس لديهن غالبًا المبادرة في مشاريعهنّ، فهنّ بالأحرى أدواتٌ في أيدي الرجال. ولكن موقف الخليلة يشبه موقف المغامر بوجه الإجمال؛ فهي مثله في منتصف الطريق بين الجدّية والمغامرة؛ تطمح إلى قيمٍ جاهزةٍ: المال والمجد؛ لكنها تعلّق على الفوز بها قيمةً أكبر من امتلاكها؛ وفي النهاية، القيمة الكبرى بنظرها هي نجاحها الذاتي. تبرّر، هي أيضًا، هذه الفردية بعدميّةٍ منهجيّةٍ قليلًا أو كثيرًا، ولكنّها تعيشها بقناعةٍ

أكبر بقدر ما تكون عدائيةً تجاه الرجال وترى النساء الأخريات عدواتٍ. إن كانت ذكيّةً بما يكفي لتشعر بالحاجة إلى تبريرٍ أخلاقيٍّ، تعتمد على شيءٍ من نظريات نيتشه؛ فتؤكّد حقّ الصفوة على المبتذل، يبدو لها شخصها كنزًا وجوده بحدّ ذاته هبةً: بحيث أنها إذ تكرّس نفسها لذاتها تزعم أنها تخدم الجماعة. يسكن الحبّ مصير المرأة المخلصة للرجل: تلك الّتي تستغلّ الرجل ترتاح في تمجيدها لنفسها. إن كانت تعلّق هذا القدر من القيمة على مجدها، فذلك ليس عن مصلحةٍ اقتصاديةٍ فقط: فهي تبحث فيه عن تمجيد نرجسيتها.

الفصل التاسع

من النضج إلى الشيخوخة

يتعلّق تاريخ المرأة ـ بما أنها ما زالت حبيسة وظائفها كأنثى ـ بقدرها الفيزيولوجي أكثر بكثيرٍ ممّا يفعل تاريخ الرجل؛ ومنحنى هذا القدر أكثر تخبّطًا وانقطاعًا من المنحنى الذكوري. كلّ مرحلةٍ من الحياة الأنثوية منبسطةٌ ورتيبةٌ: لكنّ العبور من مرحلةٍ لأخرى عنيفٌ وخطرٌ؛ يتجلّى بأزماتٍ حاسمةٍ أكثر بكثيرٍ ممّا هي لدى الرجل: كالبلوغ، والتدريب الجنسي، وسن اليأس. وبينما يتقدم الرجل في السن بشكلٍ مستمرٍ، تُجرّد المرأة فجأةً من أنوثتها؛ تفقد وهي ما تزال شابّةً جاذبيتها الجنسية وخصوبتها الّتي تأخذ منها في نظرها ونظر المجتمع مبرّر وجودها وفرصها في السعادة: يبقى لها أن تعيش حوالي نصف حياتها كبالغةٍ، محرومةً من كلّ مستقبلٍ،.

تتّصف «السنّ الخطرة» ببعض الاضطرابات العضوية[206]، لكن ما يمنحها أهميتها، هو القيمة الرمزية الّتي تكسوها. تشعر النساء اللّواتي لم يراهنّ على أنوثتهنّ بشكلٍ أساسيٍّ بالأزمة بشكلٍ أقلّ حدةً بكثيرٍ؛ اللّواتي يكدحن في عملهنّ ـ في المنزل أو في الخارج ـ يستقبلن بارتياحٍ اختفاء عبودية الطمث؛ فالفلّاحة، وزوجة العامل، الّتين يهددهما باستمرارٍ حدوث

206- راجع الجزء الأول، الفصل الأوّل.

حملٍ جديدٍ، يسرّهما زوال هذا التهديد. في هذه الظروف، كما في العديد من سواها، لا تأتي انزعاجات المرأة من جسدها ذاته بقدر ما تأتي من شعورها بالقلق من هذه الانزعاجات. تبدأ المأساة المعنويّة عادةً قبل ظهور المظاهر الفزيولوجية ولا تنتهي إلا بعد انتهاء هذه المظاهر بفترةٍ.

وقبل انتهاء النشاط الهرموني بفترةٍ طويلةٍ يسكن المرأة الرعب من الشيخوخة. فالرجل الناضج منخرطٌ في عملياتٍ أهمّ بكثيرٍ من الحب؛ حرارة شهوانيّته أقلّ توهّجًا مما كانت عليه في شبابه؛ وبما أنّه لا يُطلب منه أن يكون شيئًا سلبيًا، لا يفسد تلف وجهه وجسمه إمكانيات الإغواء عنده. وعلى العكس، في حوالي سن الخامسة والثلاثين عمومًا تبلغ المرأة ازدهارها الجنسي الكامل بعد أن تغلّبت على عوائقها: عندها تكون رغباتها عنيفةً أكثر من أيّ وقتٍ آخر بحيث تودّ إشباعها بأشدّ ما يمكن؛ راهنت أكثر من الرجل على القيم الجنسية التي لديها؛ ولكي تحتفظ بزوجها، وتؤمّن لنفسها حمايةً، من الضروري أن تُعجِب في معظم المهن الّتي تمارسها؛ لم يُسمح لها بالتأثير على العالم إلا عبر الرجل: ما الّذي سيحلّ بها عندما لا يعود لها تأثيرٌ عليه؟ هذا ما تسأل نفسها عنه بقلقٍ بينما تشاهد عاجزةً تراجع هذا الجسد الشيء الّذي تمتزج به؛ فتكافح؛ لكنّ الصبغة وتقشير الوجه والعمليات الجراحية لا تفعل سوى إطالة شبابٍ يحتضر. على الأقل بإمكانها التحايل بالمرآة. ولكن عندما تبدأ العملية الحتمية، غير القابلة للتراجع، والّتي سوف تخرّب كل ما بُني أثناء البلوغ، تشعر أنّ حتمية الموت ذاتها أصابتها.

قد نعتقد أنّ المرأة الأكثر انتشاءً بجمالها وبشبابها هي الّتي تشعر بأسوأ أنواع القلق؛ ولكن لا؛ فالنرجسية شديدة الاهتمام بشخصها بحيث توقعت الانحطاط الحتمي وأعدّت لنفسها مواضع انكفاءٍ؛ ستعاني من تشوّهها بالتأكيد: ولكن على الأقل لن يفاجئها الأمر وستتأقلم بسرعةٍ. أما المرأة الّتي نسيت نفسها، المتفانية، المضحّية، فستضطرب أكثر بكثيرٍ عندما تفاجأ بالأمر. «لم يكن لديّ سوى حياةٍ واحدةٍ؛ كان هذا نصيبي، وها أنذا الآن!» ولدى اندهاش المحيطين بها يحدث لديها تغييرٌ جذريٌّ: إذ بإخراجها من عزلتها، وانتزاعها من مشاريعها، تجد نفسها فجأةً ودون معينٍ، أمام ذاتها. وبعد أن تتجاوز هذا الحدّ الّذي اصطدمت به فجأةً، يبدو لها أنّها لن تفعل بعد الآن شيئًا سوى الصمود؛ لا

مستقبل لجسدها؛ ستظلّ أحلامها ورغباتها الّتي لم تحققها حتّى الآن غير مكتملةٍ؛ وضمن هذا المنظور الجديد تلتفت إلى الماضي؛ حانت لحظة قلب الصفحة، والقيام بحساباتٍ؛ وتقوم بالحساب الختامي. ويصيبها الهلع من الحدود الضيقة الّتي فرضتها عليها الحياة. أمام قصّتها الموجزة والمخيبة للآمال، تعود إلى سلوك المراهقة على عتبة مستقبلٍ ما زال ممتنعًا: فترفض محدوديتها؛ وتقابل فقر وجودها بغنى شخصيتها الضبابي. ويبدو لها أنّ فرصها قد سُرِقت منها، وأنّها خُدِعت، وأنّها انزلقت من الشباب إلى النضج دون أن تدرك ذلك بما أنها تقبّلت مصيرها بسلبيةٍ قليلةٍ أو كثيرةٍ كونها امرأة. وتكتشف أن زوجها، ومحيطها، واهتماماتها لم يكونوا جديرين بها؛ وتشعر أنّ لا أحد يفهمها. وتنعزل عن المحيط الّذي تعتبر نفسها أعلى منه؛ وتحبس نفسها مع السرّ الّذي تحمله في قلبها والّذي هو المفتاح الغامض لمصيرها البائس؛ وتحاول استعراض هذه الإمكانيات الّتي لم تستنفدها. وتبدأ بتدوين مذكراتها؛ وإذا وجدت من يتفهّم أسرارها، تنخرط في أحاديث لا تنتهي؛ وتجترّ طول النهار والليل أسفها وشكواها. وكما تحلم الفتاة بما سيكون عليه مستقبلها، تذكر هي ما كان ينبغي أن يكونه ماضيها؛ وتستذكر الفرص الّتي تركتها تضيع منها وتصنع قصصًا جميلةً مرتدّةً إلى الماضي. تذكر هـ. دويتش حالة امرأةٍ أنهت زواجًا تعيسًا عندما كانت شابّةً وأمضت بعد ذلك سنواتٍ طويلةً هانئةً مع زوجٍ ثانٍ: وبدأت في الخامسة والأربعين تندم على زوجها الأول بشكلٍ أليمٍ وغرقت في الكآبة. وتعود هموم الطفولة والبلوغ إلى الاحتدام، وتعيد المرأة دون توقّفٍ قصة شبابها وتهيج من جديدٍ مشاعرها الكامنة تجاه أبويها، وإخوتها وأخواتها وأصدقاء الطفولة. تستسلم أحيانًا لكآبةٍ حالمةٍ سلبيّةٍ. ولكن غالبًا ما تحاول في انتفاضةٍ إنقاذ وجودها الناقص. فتعلن هذه الشخصية الّتي اكتشفتها للتو من خلال التناقض مع دناءة قدرها، وتعرضها وتتغنّى بفضائلها، وتطالب بإنصافها بإلحاحٍ. تظنّ أنّها قادرةٌ أخيرًا على إبراز قيمتها بعد أن أنضجتها التجربة؛ تودّ أن تعيد ما مضى. وتحاول أوّلًا إيقاف الزمن بجهدٍ مؤثرٍ. وتؤكّد المرأة المشبعة بغريزة الأمومة أنّ ما زال بإمكانها الإنجاب: فتحاول بحماسةٍ خلق الحياة مرّةً أخرى. وتبذل المرأة الشهوانيّة جهدًا في اكتساب عشيقٍ جديدٍ. وتصبح المغناج نهمةً أكثر من أيّ وقتٍ آخر لكسب الإعجاب. ويصرّحن جميعهنّ أنّهنّ لم يشعرن أبدًا بأنّهنّ شابّاتٌ بهذا القدر. ويرغبن في إقناع الغير

أن مرور الزمن لم يمسّهنّ حقًّا؛ ويبدأن في ارتداء ملابس الشابّات، ويقمن بحركاتٍ طفوليّةٍ. تعرف المرأة الّتي تتقدّم بالعمر جيّدًا أنّها عندما تكفّ عن كونها شيئًا شهوانيًّا، فذلك ليس فقط لأنّ جسدها لم يعد يقدّم للرجل ثرواتٍ يانعةٍ: بل أيضًا لأنّ ماضيها وتجربتها جعلا منها طوعًا أو كرهًا شخصًا؛ لقد كافحت، وأرادت، وعانت، واستمتعت من جهتها: وهذه الاستقلالية تخيف الآخرين؛ فتحاول إنكارها؛ وتبالغ بإظهار أنوثتها، فتتزيّن، وتتعطّر، وتظهر سحرها ودلالها ومثوليتها الصرفة؛ وتُعجَب بعينٍ ساذجةٍ ونبراتٍ طفوليةٍ بالرجل الّذي يحدّثها، وتذكر بإلاقةٍ ذكريات طفولتها؛ وبدل الكلام تزقزق، وتصفق بيديها، وتقهقه عاليًا. وتلعب هذا الدور بنوعٍ من الصدق. لأنّ اهتمامها الجديد بنفسها، ورغبتها في انتزاع نفسها من الرتابة القديمة والانطلاق من جديدٍ يمنحانها الانطباع بأنها تبدأ بدايةً جديدةً.

في الحقيقة، لا يتعلّق الأمر بانطلاقٍ حقيقيٍّ؛ ولا تكتشف في العالم غاياتٍ تنطلق نحوها في حركةٍ حرّةٍ وفعّالةٍ. يأخذ هياجها شكلًا غريبًا عبثيًّا غير منسجمٍ لأنّه ليس مؤهلًا سوى لمعاوضة الأخطاء الماضية رمزيًّا. وتبذل المرأة جهدًا لتحقيق كلّ رغبات طفولتها ومراهقتها قبل أن يفوت الأوان: فهذه تعود إلى البيانو، وتلك تبدأ بالنحت، أو الكتابة، أو السفر، أو تتعلم التزلج على الجليد، أو اللّغات الأجنبية. وتقرّر قبول كلّ ما كانت قد رفضته قبل الآن من نفسها، دائمًا قبل فوات الأوان. وتعترف بنفورها من زوجٍ كانت تتحمّله وأصبحت باردةً بين ذراعيه؛ أو بالعكس، تستسلم للتأجّج الّذي كانت تكبته؛ فترهق الزوج بمتطلّباتها؛ وتعود إلى ممارسة العادة السرّية الّتي تخلت عنها منذ الطفولة. وتظهر الميول الجنسية المثلية، الموجودة بطريقةٍ مزمنةٍ لدى كلّ النساء تقريبًا. تنقلها المرأة غالبًا لابنها؛ ولكن أحيانًا أيضًا تولد مشاعر غير مألوفةٍ تجاه صديقةٍ. في كتاب روم لاندو Rom Landau «الجنس، والحياة، والإيمان» تروي القصة التالية الّتي روتها لها السيّدة المعنيّة:

كانت السيدة س... تقترب من الخمسين؛ متزوجة منذ خمسةٍ وعشرين عامًا، أمٌّ لثلاثة أولادٍ بالغين، تحتلّ مركزًا بارزًا في المنظمات الاجتماعية والخيرية في مدينتها، التقت في لندن بامرأةٍ أصغر سنًّا منها بعشر سنواتٍ ومتفانية في الأعمال الاجتماعية مثلها. وأصبحتا صديقتين واقترحت عليها الآنسة ي... أن تحلّ ضيفةً عليها في رحلتها المقبلة. وقبلت السيدة س..، وفي المساء الثاني لإقامتها وجدت

نفسها فجأةً تقبّل مضيفتها بشغفٍ. وأكّدت عدّة مرّاتٍ أنّه لم تكن لديها أيّة فكرةٍ عن الطريقة الّتي حصل الأمر فيها؛ وأمضت الليل مع صديقتها وعادت إلى منزلها، مرعوبةً. كانت تجهل قبل الآن كلّ شيءٍ عن المثلية الجنسية، لم تكن تعرف حتّى أنّ «شيئًا كهذا» ممكن الحدوث. كانت تفكر بالآنسة ي.. بشغفٍ وللمرة الأولى في حياتها وجدت مداعبات زوجها وقبلته اليومية غير مستحبّةٍ. وقررت أن ترى صديقتها ثانيةً «لإيضاح الأمور» وازداد شغفها؛ كانت هذه العلاقات تملؤها بمتعٍ لم تعرفها أبدًا حتى اليوم. ولكن كانت تعذّبها فكرة أنّها اقترفت خطيئةً واتجهت لطبيبٍ لتعرف إن كان هناك «تفسيرٌ علميٌّ» لحالتها وإن كان من الممكن تبريرها بمبرّراتٍ أخلاقيّةٍ.

في هذهِ الحالة استسلم الشخص لاندفاعٍ تلقائيٍّ سبّب له تشوّشًا عميقًا. ولكن المرأة تحاول غالبًا عن طيب خاطرٍ أن تعيش القصص الّتي لم تجرّبها، والّتي لن يعود بإمكانها قريبًا أن تعيشها. تبتعد عن منزلها، لأنّه يبدو لها غير جديرٍ بها ولأنّها تتمنى العزلة، وكذلك بحثًا عن المغامرة. فإذا صادفتها، اندفعت إليها بكلّ جوارحها. وهذا ما حدث في هذه القصّة الّتي أوردها ستيكل:

كانت السيدة ب. ز.. في الأربعين من عمرها، ولديها ثلاثة أولادٍ ووراءها عشرون عامًا من الحياة الزوجية عندما بدأت تفكّر أنّ لا أحد يفهمها، وأنّها أضاعت حياتها؛ وانخرطت في أنشطةٍ جديدةٍ متنوعةٍ ومن ضمنها ذهبت إلى الجبل للتزلّج؛ هناك صادفت رجلًا في الثلاثين من عمره وأصبحت عشيقته؛ ولكن بعد ذلك بقليلٍ وقع في غرام ابنة السيدة ب. ز.. ووافقت هي على تزويجهما لتحتفظ بعشيقها بقربها؛ كان بين الابنة والأم حبٌّ مثليّ الجنس مكتومٌ وقويٌّ، يفسّر جزئيًا هذا القرار. إلا أنّ الوضع سرعان ما غدا غير محتملٍ، إذ يترك العشيق أحيانًا سرير الأم أثناء الليل ليلتحق بالابنة. وحاولت السيدة ب. ز.. الانتحار. عندئذٍ ـ كانت في السادسة والأربعين ـ عالجها ستيكل. وقررت قطع العلاقة وتخلّت الابنة من جهتها عن مشروع الزواج. عندها أصبحت السيدة ب.ز.. من جديدٍ زوجةً مثاليّةً متفانيةً.

المرأة الّتي ترزح تحت وطأة التقاليد الّتي تطالبها بالرصانة والشرف لا تبلغ دائمًا حدّ الفعل. لكنّ أحلامها مسكونةٌ بتخيّلاتٍ شهوانيةٍ تظهرها أيضًا في الصحو؛ فتبدي تجاه أولادها حنانًا فائقًا وعواطف؛ وتنمّي تجاه ابنها هواجس سفاح القربى؛ وتقع سرًّا في غرام

شابٌ تلو الآخر؛ تسكنها كالمراهقة أفكار الاغتصاب؛ وتشعر أيضًا بإغراء البغاء؛ كما لديها ازدواجية رغباتها ومخاوفها الّتي تؤدي إلى قلقٍ يؤدي أحيانًا إلى عُصاباتٍ: تثير عندئذٍ استنكار المحيطين بها بسبب سلوكٍ غريبٍ يعبّر في الحقيقة عن حياتها الخيالية.

حدود الخيال والواقع هي أيضًا أكثر غموضًا في هذه المرحلة المضطربة منها في البلوغ. إحدى أوضح السمات لدى المرأة الّتي تتقدم بالعمر هي شعورٌ بانعدام الشخصية يجعلها تفقد كلّ سماتٍ موضوعيّةٍ. ويقول الأشخاص الّذين رأوا الموت قريبًا جدًّا وهم بصحةٍ جيّدةٍ أنهم شعروا أيضًا بانطباعٍ غريبٍ بالازدواجية؛ عندما يحس المرء أنّه شعورٌ، ونشاطٌ، وحريّةٌ، يبدو الشيء السلبي الّذي يلعب به القدر شخصًا آخر بالضرورة. لست أنا من دهسته سيّارةٌ؛ لست أنا هذه المرأة العجوز الّتي تعكس المرآة صورتها. المرأة الّتي «لم تشعر بنفسها أبدًا شابّةً بهذا القدر» والّتي لم تر نفسها أبدًا عجوزًا بهذا القدر لا تستطيع أن توفّق بين مظهريها هذين؛ ينساب الزمن في الحلم، وتأكلها المدة. وهكذا، يبتعد الواقع ويتضاءل: وفي الوقت نفسه، لا يعود يتميّز عن الوهم. تثق المرأة ببديهياتها الداخلية أكثر من ثقتها بهذا العالم الغريب حيث يتقدم الزمن القهقرى، حيث لا تشبهها قرينتها، حيث خانتها الأحداث. وهكذا هي مستعدةٌ للافتتان، والإلهام، والهذيان. وبما أنّ الحب هو الآن اهتمامها الرئيسي أكثر من أيّ وقتٍ آخر، من الطبيعي أن تستسلم لوهم أنها محبوبةٌ. تسعٌ من أصل كلّ عشرة شبقين هن نساءٌ؛ وجميعهنّ تقريبًا بين الأربعين والخامسة والأربعين من العمر.

مع ذلك ليس بإمكان الجميع اجتياز جدار الواقع بهذه الجرأة. كثيرٌ من النساء المكبوتات حتّى في أحلامهنّ عن كلّ حبٍّ بشريٍّ يبحثن عن العون لدى الله؛ في سن اليأس تصبح المغناج والعاشقة والمنحلة تقيّةً؛ فالأفكار الغائمة حول المصير، والسرّ، والشخصية غير المفهومة الّتي تطوف برأس المرأة وهي على عتبة خريف العمر تجد في الدين وحدةً عقلانيّةً. تعتبر التقيّة حياتها الناقصة امتحانًا من الربّ؛ وأنّ روحها نالت من البؤس فضائل استثنائيّةً تؤهّلها لتلقّي رحمةٍ إلهيةٍ خاصّةٍ؛ وتعتقد بطيب خاطرٍ أنّ السماء ترسل إليها وحيًا أو حتّى أنّها تكلّفها بإلحاحٍ ـ مثل السيدة كرودنر ـ بمهمّةٍ. إذ تفقد المرأة قليلًا أو كثيرًا شعورها بالواقع، تكون خلال هذه الأزمة منفتحةً لكلّ الاقتراحات: يستطيع المدير مثلًا أن يسيطر على روحها. تستقبل أيضًا بحماسةٍ سلطاتٍ فيها جدالٌ؛ فهي فريسةٌ مثاليّةٌ للطوائف

الدينية، والعلماء الروحانيين، والمنجمين، والمعالجين، والنصّابين. ليس فقط أنّها فقدت كلّ حسٍّ نقديٍّ بفقدها اتصالها مع العالم المعطى، ولكن كذلك أنّها شرهةٌ لحقيقةٍ نهائيّةٍ: بحاجةٍ للعلاج، والوصفة، والمفتاح، الّتي ستنقذها فجأةً عندما تنقذ الكون. وتحتقر أكثر من أيّ وقتٍ آخر منطقًا لا ينطبق بالطبع على حالتها الخاصّة؛ تبدو لها مقنعةً فقط الحجج الموجّهة لها بشكلٍ خاصٍّ: فتبدأ الرؤى والإلهامات والرسائل والإشارات وحتى المعجزات بالازدهار حولها. وتقودها اكتشافاتها أحيانًا إلى الفعل: فتندفع في الأعمال، والمؤسسات، والمغامرات الّتي أوحى بفكرتها لها بعض الناصحين أو صوتٌ داخليٌّ. وتكتفي أحيانًا بأن تكرّس نفسها كمالكةٍ للحقيقة والحكمة المطلقة. ويترافق موقفها بهيجانٍ محمومٍ سواء كانت ناشطةً أوتأمليّةً. تشطر أزمة سن اليأس الحياة الأنثوية بقسوةٍ إلى شطرين؛ ويعطي هذا الانقطاع المرأة وهم «حياةٍ جديدةٍ»؛ ينفتح أمامها زمنٌ جديدٌ: وهي تقترب منه بورع المهتدي؛ لقد اهتدت إلى الحبّ، والحياة، والله، والفن، والإنسانية: فتتوه في هذه الكيانات وتعظّم نفسها. لقد ماتت وبُعِثت، تتأمل الأرض بنظرةٍ تخترق أسرار الماوراء وتعتقد أنها تطير نحو قممٍ بعيدة المنال.

مع ذلك فالأرض لا تتغيّر؛ والقمم تبقى بعيدة المنال؛ والرسائل المتلقّاة تُفسَّر بشكلٍ خاطئٍ حتّى وإن كانت واضحةً للغاية؛ وتنطفئ الأنوار الداخلية؛ وتبقى أمام المرآة امرأةٌ شاخت يومًا إضافيًّا منذ البارحة. وتلي لحظات الحماس ساعاتٌ مغمّةٌ من الكآبة. تشير العضوية إلى هذا الإيقاع بما أنّ تناقص الإفرازات الهرمونية يعاوضه فرط نشاطٍ للغدة النخامية؛ لكن الوضع النفسي بشكلٍ خاصٍّ هو ما يتحكّم بهذا التناوب. لأنّ الهياج والتوهّم والورع ليست سوى دفاعٍ ضد حتمية ما حصل. من جديدٍ يمسك القلق بخناق تلك الّتي استُهلِكت حياتها ولم يستقبلها الموت. وتختار غالبًا أن تدع اليأس يسمّمها بدل أن تكافحه. وتكرر الشكوى والأسف والمطاليب؛ وتتخيّل دسائس كئيبةً يحوكها الجيران والأقارب؛ إن كان لديها أختٌ أو صديقةٌ في مثل عمرها شاركتها حياتها، يحدث أن تصابا معًا بجنون الاضطهاد. ولكن على الأخصّ تبدأ في الشعور بغيرةٍ مرضيّةٍ تجاه زوجها: فهي تغار من أصدقائه وأخواته ومهنته؛ وتتّهم منافِسةً ما بحقٍّ أو بغير حقٍّ بأنها مسؤولةٌ عن معاناتها. وبين الخمسين والخامسة والخمسين من عمرها تبلغ حالات الغيرة المرضية الذروة.

وتستمر صعوبات سن اليأس ـ أحيانًا حتّى الموت ـ لدى المرأة الّتي لا تقرر أن تشيخ؛ فإن لم يكن لديها من موردٍ سوى استغلال مفاتنها، تكافح خطوةً خطوةً للحفاظ عليها؛ وتكافح أيضًا بهياجٍ إذا كانت رغباتها الجنسية ما تزال متأجّجةً. وهذه الحالة ليست نادرةً. سألوا الأميرة مترنيخ في أيّ سنٍّ ينتهي هاجس الجنس لدى المرأة فقالت: «لا أدري، ما زلت في الخامسة والستين فقط». ويصبح الزواج الّذي لا يمنح المرأة أبدًا بحسب مونتيني سوى «بعض الإنعاش» علاجًا غير كافٍ فأكثر فأكثر كلّما تقدّم بها العمر؛ وغالبًا ما تدفع في سن نضجها ثمن مقاومات شبابها وبروده؛ فعندما تبدأ أخيرًا في الشعور بحرارة الرغبة، يكون الزوج قد استسلم منذ وقتٍ طويلٍ للامبالاتها، فرتّب أموره. لا فرصة للزوجة البتة في إذكاء الشعلة الزوجيّة وقد جرّدها الاعتياد والزمن من جاذبيتها. فتصبح أقلّ ترددًا من ذي قبل ـ إن كان لديها ترددٌ قبلًا ـ في اتّخاذ عشّاقٍ، مفتاظةً، مصممةً على «أن تعيش حياتها»؛ ولكن عليها أيضًا أن تنجح في التقاطهم: إنه صيد الرجل. وتستخدم ألف حيلةٍ: تفرض نفسها متظاهرةً بأنّها تعرضها؛ وتصنع من اللطف والصداقة والعرفان فخاخًا. وتلاحق الشبّان ليس فقط رغبةً في الأجساد الغضة: بإمكانها أن تأمل منهم فقط بهذا الحنان الّذي يخلو من المصلحة والّذي يشعر به المراهق أحيانًا تجاه مدرّسةٍ تتحلّى بصفات الأمومة؛ أصبحت هي نفسها عدوانيّةً ومسيطرةً: انقياد «شيري» هو ما أرضى «ليا» بقدر جماله؛ عندما تجاوزت مدام دوستايل الأربعين كانت تختار أشخاصًا تسحقهم بهيبتها؛ ثم من الأسهل اقتناص رجلٍ خجولٍ مبتدئٍ. وعندما لا يجدي السحر والألاعيب، يبقى أمام العنيدة مصدرٌ واحدٌ: أن تدفع. حكاية «السكاكين» الشعبية في العصور الوسطى تحكي عن مصير هاته الغولات اللّواتي لا يشبعن: طلبت إحدى الشابات من كلّ واحدٍ من عشّاقها «سكينًا» صغيرةً كشكرٍ على خدماتها، تضعها في خزانةٍ؛ أتى يومٌ امتلأت فيه الخزانة: ولكن في تلك اللحظة بدأ عشاقها يطلبون منها بعد كلّ ليلة غرامٍ سكينًا؛ وبوقتٍ قصيرٍ فرغت الخزانة؛ إذ أعيدت كلّ السكاكين: واضطرت لشراء غيرها ثانيةً. بعض النساء ينظرن إلى الوضع بتهكّمٍ: لقد عشن زمنهنّ وأتى دورهنّ «لإعادة السكاكين». يستطيع المال حتى أن يلعب دورًا معاكسًا للّذي يلعبه بالنسبة للمحظيّة، ولكن دورًا مطهّرًا أيضًا: فيغيّر الذكر إلى أداةٍ ويسمح للمرأة بهذه الحرّية الشهوانية الّتي كان كبرياؤها الشاب يرفضها في الماضي. لكنّ العشيقة

ـ المُحسنة، الخيالية أكثر منها واقعيّةً، تحاول غالبًا أن تشتري سرابًا من الحنان والإعجاب والاحترام؛ وتقنع نفسها حتى أنها تعطي لمتعة العطاء، دون أن يُطلب منها شيءٌ: هنا أيضًا يكون الشاب عشيقًا مختارًا لأنّ بإمكانها التبجّح أمامه بكرمٍ أموميٍّ؛ كما أنّ لديه بعض هذا «الغموض» الّذي يطلبه الرجل أيضًا من المرأة الّتي «يساعدها» لأن فجاجة الصفقة تتخفّى بذلك في شكل لغزٍ. لكنّ من النادر أن يظلّ سوء النيّة متسامحًا فترةً طويلةً؛ إذ يتحوّل صراع الجنسين إلى مبارزةٍ بين مستغِلٍّ ومُستغَلٍّ تخاطر فيها المرأة، خائبةً، مهانةً، بتلقّي هزيمةٍ نكراء. وبحذرٍ، تقنع «بإلقاء سلاحها»، دون أن تنتظر طويلًا، حتّى لو لم تخمد نيرانها كلها بعد.

ويتغيّر وضع المرأة منذ اليوم الّذي تقبل فيه أن تهرم. حتّى ذلك الحين، كانت ما تزال امرأةً شابةً، مستبسلةً في النضال ضدّ داءٍ يجعلها قبيحةً ويشوهها بشكلٍ غامضٍ؛ وتصبح شخصًا مختلفًا، لا جنس له، ولكن مكتملًا: امرأةً مسنّةً. يمكن عندئذٍ اعتبار أنّ أزمة سن اليأس قد انتهت. ولكن ينبغي ألّا نستنتج من ذلك أنّ الحياة ستكون سهلةً عليها من الآن فصاعدًا. عندما تخلت عن الكفاح ضد حتمية الزمن، بدأت معركةٌ جديدةٌ: عليها أن تحتفظ بمكانٍ لها على الأرض.

تتحرّر المرأة من قيودها في خريفها، في شتائها؛ تتعلّل بعمرها لتتملّص من الأعباء الّتي تثقل عليها؛ تعرف زوجها لدرجة أنّها لم تعد تهابه، فتتملّص من عناقه، وترتب لنفسها إلى جواره ـ ضمن الصداقة واللامبالاة أو العدائية ـ حياةً خاصةً بها؛ إذا ضعف قبلها، تمسك بيدها زمام أمور الزوجين. تستطيع أيضًا أن تسمح لنفسها بتحدي الموضة، والرأي العام؛ وتنسحب من الالتزامات الاجتماعية، ومن الأنظمة الغذائية ومن العناية بالجمال: مثل «ليا» الّتي يجدها «شيري» متحررةً من الخيّاطات، وصانعات المشدّات، والحلاقين وغارقةً بسعادةٍ بالشراهة. أما أطفالها، فهم كبارٌ يستطيعون الاستغناء عنها، يتزوجون ويتركون المنزل. وتكتشف أخيرًا حرّيتها إذ تحررت من واجباتها. للأسف يتكرر في حياة كل امرأةٍ الأمر الّذي لاحظناه خلال تاريخ المرأة: إذ تكتشف هذه الحريّة عندما لا تعود تعرف ما تصنع بها. هذا التكرار ليس وليد الصدفة: لقد أعطى المجتمع الأبوي لكلّ الوظائف الأنثوية شكل العبودية؛ ولا تفلت المرأة من الاستعباد إلّا في الأوقات الّتي تفقد فيها كلّ فعّاليةٍ.

في حوالي الخمسين، تملك كافة قواها، وتشعر أنها غنيّةٌ بالخبرة؛ وفي حوالي هذا السنّ يبلغ الرجل أعلى أوضاعه، وأهمّ مناصبه: أما بالنسبة لها، فها هي محالةٌ على التقاعد. لم يعلّموها إلا التفاني ولم يعد أحدٌ يطالبها بالتفاني. تصبح دون فائدةٍ، ولا مبررٍ، وتتأمّل هذه السنوات الطويلة غير الواعدة الّتي بقيت من حياتها وتتمتم: «لا أحد يحتاجني!».

ولا تستسلم فورًا. أحيانًا تتعلّق بزوجها مستنجدةً؛ فترهقه باهتمامها بشكلٍ أكثر إلحاحًا من أيّ وقتٍ آخر؛ لكنّ روتين الحياة الزوجية منتظمٌ أكثر مما يجب؛ فإما أنها تعرف منذ زمنٍ طويلٍ أنها ليست ضروريةً بالنسبة لزوجها، أو أنه لم يعد يبدو لها ذا قيمةٍ كافيةٍ لتبريرها. تأمين العناية بحياتهما المشتركة مهمّةٌ عارضةٌ بقدر اهتمام الشخص بنفسه لوحده. وتلتفت إلى أطفالها آملةً: بالنسبة لهم لم تنته اللعبة؛ فالعالم والمستقبل مفتوحان أمامهم؛ وتود لو تسارع إليهما في إثرهم. وتجد المرأة الّتي حالفها الحظ بالإنجاب في سنٍّ متأخرةٍ نفسها متميّزةً: فما زالت أمًّا شابةً في الوقت الّذي أصبحت الأخريات فيه جدّاتٍ. ولكن عمومًا، بين الأربعين والخامسة والأربعين، ترى الأم صغارها يصبحون بالغين. وفي اللحظة التي يفلتون فيها منها تبذل جهدًا حماسيًّا في العيش من خلالهم.

ويختلف موقفها حسبما تضع أملها في ابنٍ أو ابنةٍ؛ عادةً تضع في الابن أكبر آمالها. ها هو يأتي إليها من أعماق الماضي، الرجل الّذي كانت في الماضي تترقّب ظهوره الرائع في الأفق؛ منذ أول صراخٍ للوليد، انتظرت هذا اليوم الّذي سيوزّع عليها فيه كلّ الكنوز الّتي لم يعرف الأب أن يغدقها عليها. في هذه الأثناء وزّعت صفعاتٍ وعقوباتٍ لكنها نسيتها؛ ذلك الّذي حملته في بطنها، كان واحدًا من أنصاف الآلهة هؤلاء الّذين يحكمون العالم وقدر النساء: الآن، سيعترف بمجد أمومتها. سيدافع عنها ضد فوقية الزوج، وينتقم لها من العشاق الّذين اتّخذتهم وهؤلاء الّذين لم تتّخذهم، سيكون محرّرها، منقذها. وتعود أمامه إلى تصرفات الفتاة الشابة الّتي تترقب الأمير الساحر كالإغراء والاستعراض؛ وتظنّ، عندما تسير بجانبه، أنيقةً، ما تزال فاتنةً، أنها تبدو «أخته الكبرى»؛ وتبتهج إذا مازحها ودفعها ـ مقلّدًا أبطال الأفلام الأميركية ـ ضاحكًا ومحترمًا: بذلٍّ فخورٍ تعترف بالتفوّق الذكوري لذلك الّذي حملته في بطنها. بأيّ معيارٍ يمكن اعتبار هذه المشاعر سفاح قربى؟ من المؤكد أنّها عندما تقدّم نفسها مزهوّةً مستندةً إلى ذراع ابنها، كلمة «الأخت الكبرى»

تعبّر بحياءٍ عن هواجس ملتبسةٍ؛ عندما تنام، عندما لا تراقب نفسها، تأخذها أحلامها أحيانًا بعيدًا جدًّا؛ لكنّي قلت قبلًا إنّ الأحلام والتخيّلات لا تعبّر دومًا عن الرغبة المخبأة بفعلٍ حقيقيٍّ: غالبًا ما تكون كافيةً، وهي الاكتمال النهائي لرغبةٍ لا تطلب سوى إشباعٍ خياليٍّ. عندما ترى الأم في ابنها عشيقًا بطريقةٍ مواربةٍ قليلًا أو كثيرًا، فالأمر ليس سوى لعبةٍ. عادةً لا تحتلّ الشهوانية بحد ذاتها حيّزًا كبيرًا لدى هذا الثنائي. لكنّه ثنائيٌّ؛ ومن أعماق أنوثة الأم تحيّي في ابنها الرجل السيّد؛ وتضع نفسها بين يديه بنفس حرارة العاشقة، ومقابل هذا العطاء تأمل أن ترتقي إلى عرش الله. وللحصول على هذا الصعود، تلجأ العاشقة إلى حريّة العشيق: تخاطر بسخاءٍ؛ والضريبة هي متطلباتها القلقة. تعتقد الأم أنها معفاةٌ من الحقوق المقدسة فقط لأنها أنجبت؛ لا تنتظر أن يرى ابنها نفسه فيها كي تنظر إليه كصنيعتها، ملكها؛ إنها أقل تطلّبًا من العشيقة لأنها أكثر هدوءًا عن سوء نيّةٍ؛ بما أنها شكّلت جسدًا، تتملّك هذا الوجود: فتتملّك أفعاله وأعماله وميزاته. وعندما تمجّد ثمرتها، تمجّد شخصها نفسه.

العيش بالوكالة، هو ملائمٌ وقتيٌّ دومًا. قد لا تجري الأمور كما تمنى المرء. يحدث كثيرًا أن يكون الابن غير صالحٍ لشيءٍ، سوقيًّا، فاشلًا، بلا إحساسٍ، جاحدًا. وللأمّ أفكارها الخاصة حول البطل الّذي تنتظر أن يجسّده. نادرةٌ للغاية تلك الّتي تحترم فعلًا لدى ابنها الشخصية البشرية، الّتي تعترف بحريته حتى في فشله، الّتي تضطلع معه بالمخاطر الّتي يفرضها كلّ التزامٍ. ويتزايد عدد منافساتٍ هذه الاسبارطية الممجّدة الّتي كانت تحكم على ابنها ببساطةٍ بالمجد أو الموت؛ ما على الابن فعله على الأرض، هو تبرير وجود أمه باعتناق القيم الّتي تحترمها لمصلحتهما المشتركة. وتفرض الأم أن تكون مشاريع الطفل ـ الإله مطابقةً لمثلها الأعلى وأن يتأكّد نجاحها. تودّ كلّ امرأةٍ أن تنجب بطلًا، عبقريًّا؛ ولكن كانت كلّ أمهات الأبطال والعباقرة يقلن إنّهم كانوا يحطمون قلوبهنّ. غالبًا ما يكسب الرجل رغمًا عن أمه أكاليل المجد الّتي كانت تحلم بالتزيّن بها ولا تتعرف حتى عليها عندما يلقي بها على قدميها. حتى لو كانت توافق على أعمال ابنها بالمبدأ، يمزّقها تناقضٌ مماثلٌ لذلك الّذي يعذّب العاشقة. كي يبرر حياته ـ وحياة أمه ـ يجب أن يتجاوزها نحو غاياتٍ؛ ويضطر كي يبلغها إلى المخاطرة بصحته، والتعرّض لأخطارٍ: لكنه ينكر قيمة المنحة التي قدمتها

أمه له عندما يضع بعض الأهداف فوق مسألة العيش البحتة. وتستنكر هي ذلك؛ لا تسيطر على الرجل إلّا إذا كان هذا الجسد الّذي أنجبته هو الأسمى بالنسبة له: لا يحق له تدمير هذا العمل الّذي قامت به متألّمةً. وتصيح في أذنه: «ستتعب، وتمرض، ويحدث لك مكروه». مع ذلك، تعرف جيدًا أن العيش لا يكفي، وإلّا لكان الإنجاب نفسه أمرًا لا طائل منه؛ وهي أول من يثور إذا كان ابنها كسولًا، جبانًا. ولا ترتاح أبدًا. عندما يذهب إلى الحرب، تريد أن يعود منها حيًّا ولكن محمّلًا بالأوسمة. وفي حياته المهنيّة، تتمنى أن «يصل» لكنها تخشى أن يجهد نفسه. مهما فعل، تشاهد مهمومةً عاجزةً فصول حكايةٍ هي حكايتها ولكنّها لا تتحكّم بها: تخشى أن يخطئ وألّا ينجح، وأن يمرض وهو ينجح. وحتى إن كانت تثق به، لا يسمح اختلاف السن والجنس بأن ينشأ بينها وبين ابنها هذا التواطؤ الحقيقي؛ فهي لا تدري شيئًا عن أعماله؛ ولا تُطلَب منها أيّ مشاركةٍ بها.

ولهذا، حتّى لو كانت الأم تُعجَب بابنها وتزهو لأبعد الحدود، تبقى غير راضيةٍ. فهي تعتقد أنها لم تنجب جسدًا فقط، ولكن أنها أسست وجودًا ضروريًّا للغاية، تشعر بالمقابل أنها مبرَّرةٌ؛ لكنّ الحقوق ليست شغلًا: تحتاج كي تملأ أيامها إلى تكرار عملها المفيد؛ تريد أن تشعر أنّ لا غنى عنها لإلهها؛ في هذه الحالة تفتضح خدعة التفاني بشكلٍ حادٍ: ستجرّدها الزوجة من كلّ مهامها. وكثيرًا ما وصفوا العدائية الّتي تشعر بها تجاه هذه الغريبة الّتي «تأخذ» منها ابنها. حوّلت الأم المخاض العارض إلى غموضٍ إلهيٍّ: وترفض قبول أن يكون لقرارٍ بشريٍّ وزنٌ أكبر. القيم جاهزةٌ في نظرها، وهذه القيم تأتي من الطبيعة، من الماضي: وهي لا تعرف ثمن التزامٍ حرٍّ. يدين ابنها بحياته لها؛ بماذا يدين لهذه المرأة الّتي لم يكن البارحة يعرفها؟ لقد أقنعته برُقيةٍ مؤذيةٍ بوجود رباطٍ لم يكن موجودًا قبلًا؛ إنها متآمرةٌ، طامعةٌ، خطيرةٌ. وتنتظر الأم بصبرٍ نافدٍ انكشاف أمر الدجل؛ تشجعها الخرافة القديمة للأم الطيبة ذات اليدين المواسيتين الّتي تضمّد جراح ابنها الّتي أصابته بها المرأة الشريرة، وترقب على وجه ابنها علامات البؤس: وتكتشفها حتى إن أنكرها؛ وترثي له بينما هو لا يشتكي من شيءٍ؛ وتلاحق كنتها، وتنتقدها، وتقابل كلّ تجديدها بالماضي والعادة الّتي تدين وجود الدخيلة نفسه. تفهم كلٌّ منهما سعادة المحبوب بطريقتها؛ تريد المرأة أن ترى فيه رجلًا ستسيطر على العالم من خلاله؛ وتحاول الأم إعادته إلى طفولته لتحتفظ به؛

وتضع قوانينها الخاصّة مقابل مشاريع الشابة الّتي تنتظر أن يصبح زوجها غنيًا أو مهمًّا: إنه ضعيفٌ، يجب ألّا يرهق نفسه. ويحتدّ الصراع بين الماضي والمستقبل عندما تحمل القادمة الجديدة بدورها. «ولادة الأطفال موتٌ للآباء»؛ عندئذٍ تأخذ هذه الحقيقة كلّ قوّتها القاسية: تفهم الأم الّتي كانت تأمل في البقاء حيّةً ضمن ابنها أنّه يحكم عليها بالموت. لقد منحت الحياة: وستستمر الحياة من دونها؛ لم تعد «الأم»: إنّها رابطٌ فقط؛ تسقط من سماء الآلهة الخالدة؛ لم تعد سوى مخلوقٍ منتهٍ، لاغٍ. عندئذٍ وفي الحالات المرضيّة يثور كرهها حتّى يؤدي لعصابٍ أو يدفعها إلى الجريمة؛ بعد أن كرهت السيدة **لوفيفر** كنّتها زمنًا طويلًا قرّرت أن تقتلها عندما أُعلِن حملها[207].

وتتغلب الجدة عادةً على عدائيتها؛ أحيانًا تصرّ على أن ترى في الوليد طفل ابنها وحده، وتحبه بتسلّطٍ؛ ولكن عادةً تطالب به أمّه الشابة وأمها؛ فتنمّي الجدة الغيور تجاه الطفل عاطفةً ملتبسةً تختفي فيها العدائية وراء القلق.

موقف الأم من ابنتها الكبيرة متناقضٌ جدًا: تبحث لدى ابنها عن إلهٍ؛ وتجد نسخةً من نفسها عند ابنتها. «والنسخة» شخصيةٌ ملتبسةٌ؛ تقتل الشخصية الّتي نُسِخت عنها، كما نرى في قصص «بو»، في «صورة دوريان غراي» في القصة الّتي يرويها **مارسيل شوب Marcel Shwob**. بالتالي عندما تصبح البنت امرأةً تدين أمها حتى الموت؛ ومع ذلك تسمح لها بالبقاء. يختلف سلوك الأم حسبما ترى ازدهار طفلتها واعدًا بخرابٍ أو ببعثٍ جديدٍ لها.

وتتصلّب كثيرٌ من الأمهات ضمن موقفٍ عدائيٍّ؛ فلا يقبلن أن تحلّ محلهنّ الجاحدة الّتي تدين لهنّ بحياتها؛ كثيرًا ما تحدّثوا عن غيرة المتأنّقة تجاه المراهقة اليانعة الّتي تفضح تصنّعها: تلك الّتي كرهت كلّ امرأةٍ واعتبرتها غريمةً ستكره الغريمة ولو كانت ابنتها؛

207- في آب عام 1925، السيدة لوفيفر وهي بورجوازيةٌ من الشمال، في الستين من عمرها، كانت تعيش مع زوجها وأولادها، قتلت كنّتها التي كانت في الشهر السادس من الحمل خلال رحلةٍ بالسيارة، بينما كان ابنها يقود. حكم عليها بالموت، ونالت العفو، وأمضت بقية عمرها في إصلاحيّةٍ لم تبد فيها أيّ ندمٍ؛ كانت تظنّ أنّ الله يؤيدها عندما قتلت كنتها «كما يُقتلع العشب الضارّ، والبذرة السيئة، كما يُقتل حيوانٌ متوحّشٌ». كمبررٍ وحيدٍ لهذه الوحشية قالت إنّ الشابة قالت لها ذات يوم: «أنا هنا الآن، إذًا عليك أخذي بعين الاعتبار». وعندما شكّت بأن كنتها حاملٌ اشترت مسدسًا، بحجة الدفاع عن النفس ضد اللصوص. بعد انقطاع الطمث كانت قد تعلّقت بشكلٍ يائسٍ بأمومتها: وظلّت اثني عشر عامًا تشعر بتوعّكاتٍ كانت تعبّر رمزيًا عن حملٍ وهميٍّ.

فتبعدها أو تحتجزها، أو تتفنّن في حرمانها من فرصها. تلك الّتي بلغت مجدها عندما كانت بصورةٍ مثاليةٍ وفريدةٍ زوجةً، وأمًّا، ترفض بنفس العنف أن تزاح من على عرشها؛ وتظلّ تؤكّد أن ابنتها ليست سوى طفلةٍ، وتعتبر كلّ محاولاتها لعبةً صبيانيّةً؛ فهي صغيرةٌ على الزواج، وضعيفةٌ على الإنجاب؛ وإن أصرت على رغبتها بزوجٍ وأسرةٍ وأطفالٍ، فستقول دومًا إنهم ليسوا كما تظنّ؛ تنتقد الأم دونما كللٍ، أو تتنبأ بكوارث. تحكم على ابنتها بالبقاء طفلةً إلى الأبد إن سُمِح لها بذلك؛ وإلّا تحاول أن تخرّب حياة البالغة الّتي تطلب الأخرى أن تعيشها. وقد رأينا أنها تنجح دومًا: يبقى عديدٌ من النساء الشاباتِ عاقراتٍ، أو يجهضن، أو لا يقدرن على الإرضاع وتربية طفلهنّ أو إدارة منزلهنّ بسبب هذا التأثير المسيء. وتصبح حياتهنّ الزوجية مستحيلةً. ويصبحن تعيساتٍ، معزولاتٍ، ويجدن ملاذًا بين ذراعي أمهنّ المسيطرة. إذا قاومنها، ينشأ بينهما صراعٌ مستمرٌّ؛ وتفرغ الأم المحبطة على صهرها سخطها الّذي أثاره استقلال ابنتها الوقح.

والأم الّتي تتماثل بشغفٍ مع ابنتها ليست أقلّ تسلطًا؛ ذلك أنها تريد إعادة شبابها، مزوَّدةً بتجربتها الناضجة: وهكذا تنقذ ماضيها عندما تهرب منه؛ فتختار بنفسها صهرًا مطابقًا للزوج الّذي حلمت به ولم تحصل عليه؛ تتخيّل عن طيب خاطرٍ، مغناجةً، رقيقةً، أنّه يتزوجها هي نوعًا ما؛ ومن خلال ابنتها، تُشبِع رغباتها القديمة في الغنى، والنجاح، والمجد؛ كثيرًا ما وصفوا هاته النسوة الّلواتي «يدفعن» طفلتهنّ بحماسةٍ في دروب الغزل، والسينما، أو المسرح؛ وبحجة حمايتهنّ يسيطرن على حياتهنّ: ذُكرت لي حالاتٌ بلغن فيها مرحلة مضاجعة المعجبين بالفتاة. لكنّ من النادر أن تتحمّل هذه الأخيرة هذه الوصاية إلى ما لا نهايةٍ؛ ستثور حالما تجد زوجًا أو راعيًا جدّيًا. وتصبح الحماة الّتي كانت قد بدأت تدلل صهرها معاديةً له؛ وتئنّ من عقوق البشر، وتلعب دور الضحية؛ وتصبح بدورها أمًّا عدوةً. وتستشعر كثيرٌ من النساء هذه الخيبات، فيتصنّعن اللامبالاة عندما يرين طفلاتهنّ يكبرن: لكنهنّ يرين في ذلك بعض المتعة. يلزم الأم مزيجٌ من الكرم والانفصال كي ترى في حياة أطفالها غنىً دون أن تتحوّل لمستبدّةٍ وتحولهم إلى جلّادين.

ومشاعر الجدة تجاه أحفادها استمرارٌ لمشاعرها تجاه ابنتها: فتوجّه نحوهم عدائيتها غالبًا. كثيرٌ من النساء يجبرن بناتهنّ الّلواتي وقعن في الغواية على أن يجهضن ويتخلين

عن الطفل ويقتلنه، ليس فقط حرصًا على ما قد يقال: بل إنّهنّ سعيداتٌ للغاية بمنعهنّ من الأمومة؛ ويرغبن بإصرارٍ أن يملكن وحدهنّ هذا الامتياز. حتى الأم الشرعية ينصحنها بإجهاض الطفل، أو عدم إرضاعه، وإبعاده. هنّ أنفسهنّ يرفضن بلامبالاتهنّ هذا الكائن الصغير السفيه؛ أو يقمن بتوبيخ الطفل ومعاقبته باستمرارٍ أو حتى معاملته بقسوةٍ. وبالعكس، الأم الّتي تتماثل مع ابنتها تستقبل أطفالها غالبًا بنهمٍ أكثر من الشابة. تكون هذه مرتبكةً بمجيء الصغير المجهول؛ بينما الجدة تتعرف إليه: فترجع عشرين سنةً عبر الزمن إلى الوراء، وتعود شابةً ولدت؛ وتعود إليها كلّ بهجة الامتلاك والسيطرة الّتي لم يعد أولادها يمنحونها إياها، وتكتمل بشكلٍ عجيبٍ كلّ رغبات الأمومة الّتي تخلت عنها في لحظة انقطاع الطمث؛ إنها هي الأم الحقيقية، تتكفّل بالوليد بتسلطٍ وإن تركوه لها تتفانى من أجله بشغفٍ. ولسوء حظها، تصرّ الشابة على تأكيد حقوقها: لا يُسمح للجدة سوى بلعب دور المساعدة الّذي لعبته فيما مضى النسوة الأكبر منها؛ فتشعر أنها مخلوعةٌ عن عرشها؛ ثم يجب أخذ أمّ صهرها الّتي تغار منها بالطبع بالاعتبار. يفسد الغيظ غالبًا الحب التلقائي الّذي كانت تشعر به في البداية نحو الطفل. ويعبّر القلق الّذي نلاحظه لدى الجدات عن تناقض مشاعرهنّ: فهنّ يحببن الوليد بقدر ما يخصّهنّ، وهنّ معادياتٌ للصغير الغريب، ويخجلن من هذه العدائية. مع ذلك، إذا تخلت الجدة عن رغبتها في امتلاك أحفادها بكاملهم، تحتفظ تجاههم بحنانٍ دافئٍ، وتستطيع أن تلعب في حياتهم دورًا مميّزًا كوصايةٍ إلهيةٍ: فلا تعترف بحقوقٍ لها ولا مسؤولياتٍ، وتحبهم بكرمٍ محضٍ؛ ولا تنمي عبرهم أحلامًا نرجسيةً، ولا تطلب منهم شيئًا، ولا تضحي بهم من أجل مستقبلٍ لن تكون حاضرةً فيه: تحب هذه الكائنات الصغيرة من دمٍ ولحمٍ الّتي هي هنا اليوم ضمن احتمالها ومجانيتها؛ هي ليست معلمةً؛ ولا تجسّد العدالة المجردة، والقانون. من هنا يأتي الصراع الّذي يضعها أحيانًا في مواجهة الأبوين.

يحدث ألّا يكون للمرأة ذرّيةٌ أو أنها لا تهتم بها؛ وفي غياب صلاتٍ طبيعيةٍ مع أطفالٍ أو أحفادٍ، تحاول أحيانًا أن تخلق بشكلٍ مصطنعٍ أشباهًا لهم. فتعرض حنانًا أموميًّا على شبّانٍ صغارٍ؛ ويبقى حنانها أو لا يبقى أفلاطونيًّا، و تعلن أنها تحب محميّها «كابنها» ليس من باب النفاق فقط: فمشاعر الأم، بالمقابل غراميةٌ. صحيحٌ أنّ منافسات السيدة وارنز

يستمتعن بإرضاء رجلٍ بسخاءٍ ومساعدته وتشكيله: ويرغبن في أن يكنّ مصدرًا وشرطًا ضروريًا وأساسًا لوجودٍ يتجاوزهنّ؛ فيجعلن من أنفسهنّ أمهاتٍ ويرين أنفسهنّ في عشيقهنّ بصورة الأم أكثر من صورة العشيقة. غالبًا أيضًا تتبنّى المرأة ذات النزعة الأمومية فتاةً: هنا أيضًا تكتسي علاقتهما أشكالًا جنسيةً في قليلٍ أو كثيرٍ؛ ولكن سواءً كان ذلك أفلاطونيًا أم جنسيًا، فهنّ يبحثن لدى محميّاتهنّ عن نسخةٍ منهنّ شبابها متجددٌ بأعجوبةٍ. وتصبح الممثلة، والراقصة، والمغنّية مربياتٍ: فيدرّبن تلميذاتٍ؛ وتعلّم المثقفة أتباعًا مثل السيدة شاربير في عزلة كولومبييه؛ وتجمع التقيّة حولها بناتٍ روحيّاتٍ؛ وتصبح المرأة المستهترة قوّادةً. إذا تحمّسن كثيرًا لدعواتهنّ، فذلك ليس أبدًا عن مصلحةٍ بحتةٍ: فهنّ يحاولن بحماسةٍ أن يتجسّدن من جديدٍ. يولد كرمهنّ المتسلط تقريبًا نفس الصراعات التي تنشأ بين الأمهات والبنات اللّواتي تربطهن صلة الدم. ويمكن أيضًا تبنّي أحفادٍ: فتلعب أخوات الجدات والعرّابات بطيب خاطرٍ دورًا مماثلًا لدور الجدّات. لكن من النادر على كل حالٍ أن تجد المرأة في ذرّيتها ـ الطبيعية أو المختارة ـ تبريرًا لحياتها الآفلة: إذ تفشل في انتحال أعمال إحدى هذه الكائنات الشابة. فإما أنّها تصرّ على إلحاقها بها، وتضني نفسها في صراعاتٍ ومآسٍ تتركها محبطةً محطّمةً؛ أو أنها تقنع بمشاركةٍ متواضعةٍ. وهذه هي الحال الأكثر شيوعًا. تكبت الأم الهرمة والجدة رغباتهما المسيطرة، وتخفيان سخطهما؛ وتكتفيان بما يريد أولادهما إعطاءه لهما، ولكنهما عندئذٍ لا تجدان فيهم عونًا كبيرًا. وتظلّان أمام صحراء المستقبل، فريسةً للوحدة والأسف والملل.

نلامس هنا المأساة المحزنة للمرأة المتقدمة في العمر: فهي تعرف أنها غير مفيدةٍ؛ كان على المرأة البورجوازية طول حياتها أن تحلّ المعضلة السخيفة: كيف تقتل الوقت؟ لكنّ الأيام تصبح قاتلةً عندما يكبر الأطفال، ويبلغ الزوج منصبًا. وقد اختُرِعت «أشغال السيدات» لإخفاء هذا الفراغ الرهيب؛ فالأيدي تطرّز، وتحيك، وتتحرّك؛ وهذا ليس عملًا حقيقيًا لأن العمل الناتج ليس هو الهدف المنشود؛ ولا أهمية له البتة وغالبًا تكون هناك مشكلة معرفة ماذا نصنع به: فنتخلّص منه بإعطائه لصديقةٍ، أو مؤسسةٍ خيريةٍ، وتكدّسه على المدافئ الجداريّة والمناضد الصغيرة؛ وهو ليس كذلك لعبةً تكشف ببساطتها متعة الوجود؛ إنه بالكاد حجّةٌ بما أن الفكر يبقى فارغًا: إنه تسليةٌ مبهمةٌ، كما وصفه باسكال

Pascal؛ تنسج المرأة بحزنٍ بالإبرة أو الصنّارة المعقوفة عدَم أيامها ذاته. وللرسم بالألوان المائية، والموسيقى، والقراءة، نفس الدور؛ لا تحاول المرأة المتبطّلة عندما تقوم بها أن توسع تأثيرها على العالم، ولكن فقط أن تطرد عنها الملل؛ النشاط الّذي لا يفتح المستقبل يسقط ثانيةً في تفاهة المثوليّة؛ وتبدأ المتبطّلة كتابًا، وترميه ثانيةً، وتفتح البيانو، وتغلقه من جديدٍ، وتعود إلى تطريزها، وتتثاءب وينتهي بها الأمر إلى أن تتناول سماعة الهاتف. تبحث في الحياة الاجتماعية بالفعل عن المساعدة؛ فتخرج، وتقوم بزياراتٍ، وتعلّق ـ كالسيدة **دالوي** ـ أهميةً قصوى على استقبالاتها؛ وتحضر كل الأعراس، وكلّ المآتم، وتقتات من وجود الغير بما أنّه لم يعد لديها وجودٌ خاصٌّ؛ وتتحول من مغناجٍ إلى ثرثارةٍ: تراقب، وتعلّق؛ وتعاوض عدم فعلها بإطلاق الانتقادات والنصائح حولها. وتضع خبرتها في خدمة كلّ هؤلاء الّذين لا يطلبونها منها. وتنشئ صالونًا إن استطاعت، وتأمل بذلك أن تحوز على أعمال الغير ونجاحهم؛ نعرف بأيّ استبدادٍ كانت السيدتان **ديفان** و**فردوران** تحكمان أتباعهما. أن تكون مركز جذبٍ، ملتقىً، ملهمةً، وأن تخلق «جوًا»، هو بديلٌ للفعل. هناك أساليب أخرى أكثر مباشرةً للتدخل في سياق العالم؛ يوجد في فرنسا «أعمالٌ خيريّةٌ» وبعض «الجمعيات»، ولكن في أمريكا خصوصًا تتجمّع النساء في أنديةٍ يلعبن فيها البريدج، ويوزّعن جوائز أدبيةً، ويفكّرن في التحسينات الاجتماعية. ما يميّز معظم هذه المنظمات في القارتين، هو أنها بحدّ ذاتها مبرر وجودها: تستخدم الأهداف الّتي تدّعي أنها تسعى إليها فقط كحجةٍ.

تجري الأمور تمامًا كما في خرافة **كافكا**[208] Kafka الحكميّة: لا أحد يهتم ببناء برج بابل؛ بل ينشأ حول موضعه المثالي تجمّعٌ واسعٌ يفني كل قواه في إدارة نفسه، وتوسّعه، وحلّ خلافاته الداخليّة. وهكذا تمضي سيدات الأعمال الخيرية أغلب وقتهنّ في تنظيم المنظمات؛ وينتخبن مجلسًا، ويناقشن أوضاعه، ويتشاجرن فيما بينهنّ ويناضلن مع الجمعية المنافسة من أجل المكانة: يجب ألّا يسرق منهنّ فقراءهنّ، ومرضاهنّ، وجرحاهنّ، وأيتامهنّ؛ ويتركونهم بالأحرى يموتون بدل أن يتركونهم لجيرانهنّ. ولا يتمنين نظامًا يجعل تفانيهنّ بلا فائدةٍ حين يلغي الظلم والاستغلال؛ ويباركن الحروب، والمجاعات الّتي تحوّلهنّ إلى

208- أسلحة المدينة.

محسناتٍ للإنسانية. من الواضح أن القلنسوات الدافئة والطرود ليست مرسلةً إلى الجنود، والجياع، ولكن أنّ هؤلاء صُنِعوا عمدًا ليتلقّوا كنزاتٍ صوفيّةً ورزمًا.

رغم كلّ شيءٍ، تبلغ بعض هذه الجماعات نتائج إيجابيةً. تأثير منظّمة «الأمهات» المكرّمات قويٌّ في الولايات المتحدة الأميركية؛ يُفسَّر بأوقات الفراغ الّتي تتركها لهنّ حياةٌ طفيليةٌ: من ذلك يكنّ مؤذياتٍ. يقول فيليب ويلي[209] Philipp Wyllie متحدثًا عن «الأم» الأميركية: «مع أنها تجهل كلّ شيءٍ عن الطب، والفن، والعلم، والدين، والقانون، والصحة، والقواعد الصحية... نادرًا ما تهتم بما تعمله كعضوٍ في إحدى هذه المنظمات التي لا يمكن حصرها: يكفيها أن يكون ذلك «شيئًا». لا يدخل جهدهنّ ضمن مخطّطٍ ملائمٍ وبنّاءٍ، ولا يهدف إلى غاياتٍ موضوعيةٍ: لا يسعى سوى لإظهار أذواقهنّ، وأفكارهنّ المسبقة أو لخدمة مصالحهنّ. في المجال الثقافي مثلًا، يلعبن دورًا معتبرًا: فهنّ اللّواتي يستهلكن أكبر عددٍ من الكتب؛ لكنهنّ يقرأن كما يلعبن لعبة الصبر بالورق؛ يأخذ الأدب معناه وهيبته عندما يتوجّه نحو أشخاصٍ ملتزمين بمشاريع، عندما يساعدهم في التجاوز نحو آفاقٍ أوسع؛ يجب أن يكون مندمجًا في حركة التسامي الإنساني؛ بدل أن تحقّر المرأة من قدر الكتب والأعمال الفنية بإغراقها في مثوليتها؛ تصبح اللوحة تحفةً للزينة، والموسيقى أغنيةً مكرورةً، والرواية تخيلاتٍ عبثيةً مثل عروةٍ بالصنارة المعقوفة. الأمريكيات هنّ المسؤولات عن خزي الكتب الأكثر مبيعًا Best-sellers: فهذه الكتب لا تبحث فقط عن إثارة الإعجاب، ولكن تحديدًا إثارة إعجاب متبطّلاتٍ متشوقاتٍ إلى الانطلاق بعيدًا. أما بالنسبة لأنشطتهنّ، فيصفها فيليب ويلي بما يلي:

> **إنهنّ يرهبن السياسيين إلى درجة دفعهم إلى عبوديةٍ متباكيةٍ ويرعبن رجل الدين؛ يزعجن رؤساء المصارف ويصرعن مدراء المدارس. منظمة «أمهات» تعدّد التنظيمات الّتي هدفها الحقيقي تحويل المقربين منها إلى مجاملين دنيئين لرغباتها الأنانية... فهي تطرد المومسات الشابات من المدينة، ومن الولاية إن أمكن ذلك... وترتّب الأمر بحيث تمر خطوط الحافلات حيث يناسبها وليس ما يناسب العمال... وتقيم معارض واحتفالاتٍ خيريةً مدهشةً وتعطي إيرادها للبواب**

209- جيل الأفاعي.

كي يشتري جعةً ليعالج بها في الصباح التالي وجوه أعضاء اللجنة الّتي أفسد شكلها الإكثار من الشراب... تعطي الأندية «الأم» فرصًا لا حصر لها لتحشر أنفها في شؤون الآخرين.

هناك حقائق عديدةٌ في هذا النقد اللاذع. بما أنّ السيدات المسنّات لسن متخصّصاتٍ في السياسة، ولا في الاقتصاد، ولا في أيّ مجالٍ تقنيٍّ، فليس لهنّ أي تأثيرٍ ملموسٍ على المجتمع؛ فهنّ يجهلن المشاكل الّتي يطرحها الفعل؛ وهنّ غير قادراتٍ على إعداد أيّ برنامجٍ بنّاءٍ. أخلاقهنّ مبهمةٌ وقاطعةٌ مثل لزوميات كانت Kant؛ ويطلقن تحريماتٍ بدل محاولة اكتشاف دروب التقدم؛ لا يحاولن أن يخلقن إيجابيًّا مواقف جديدةً: يهاجمن ما هو كائنٌ أصلًا كي يزلن منه السوء؛ وهذا ما يفسّر أنهنّ يتحالفن دائمًا ضدّ شيءٍ ما: ضدّ الكحول، والبغاء، والإباحية؛ ولا يفهمن أنّ الجهد السلبي البحت مرصودٌ للفشل، كما أثبته في أمريكا فشل الحظر، وفي فرنسا فشل القانون الّذي طرحته للتصويت مارت ريشار Marthe Richard. طالما بقيت المرأة طفيليةً، لا تستطيع المشاركة بشكلٍ فعّالٍ في إعداد عالمٍ أفضل.

يحدث رغم كلّ شيءٍ أن تنخرط بعض النساء بكلّيتهنّ في بعض الأعمال فيصبحن فعّالاتٍ حقًّا؛ عندئذٍ، لا يحاولن فقط إشغال أنفسهنّ، بل يهدفن إلى غاياتٍ؛ وبما أنهنّ منتجاتٌ مستقلّاتٌ، يتملّصن من زمرة الطفيليات الّتي تحدثنا عنهاهنا: لكنّ هذا التحول نادرٌ. لا تهدف غالبية النساء في أنشطتهنّ الخاصة أو العامة إلى نتيجةٍ يصلن إليها، ولكن إلى طريقةٍ يشغلن أنفسهن بها: وكلّ انشغالٍ عبثيٌّ عندما لا يكون سوى وسيلةً لقتل الوقت. تعاني كثيرٌ منهنّ لهذا السبب؛ وبما أن وراءهن حياةً مكتملةً، يشعرن بنفس ارتباك المراهقة الّتي لم تنفتح الحياة بعدُ أمامها؛ لا شيء يغريهنّ، حولهنّ صحراءٌ؛ وأمام كلّ عملٍ يتمتمن: ما الفائدة؟ لكن المراهق يؤخذ طوعًا أو كرهًا إلى حياة رجلٍ يكشف له مسؤولياتٍ، وأهدافًا، وقيمًا؛ لقد قُذِف به إلى العالم، فهو يشارك، وينخرط. إن اقترحوا على المرأة المسنّة الانطلاق من جديدٍ نحو المستقبل، تجيب بحزنٍ: فات الأوان. لا يتعلّق الأمر بأنّ الزمن محسوبٌ بالنسبة لها من الآن فصاعدًا: إذ تُحال المرأة على التقاعد باكرًا جدًّا؛ ولكن ينقصها الاندفاع، والثقة، والأمل، والغضب الّذي يسمح لها باكتشاف غاياتٍ جديدةٍ حولها.

تلجأ إلى الروتين الّذي كان دائمًا من نصيبها؛ وتجعل من التكرار نظامًا، وتلقي بنفسها في أهواسٍ منزليّةٍ؛ وتغوص بعمقٍ أكثر فأكثر في التفاني؛ وتتعالى ضمن الرواقيّة مثل السيدة دوشاريير. فتصبح جافّةً، لا مباليةً، أنانيّةً.

وفي حوالي نهاية حياتها عادةً، تجد العجوز الصفاء عندما تتخلّى عن الكفاح، عندما يخلّصها اقتراب الموت من القلق على المستقبل. يكون زوجها غالبًا أكبر سنًّا منها، فتشهد انحطاطه بمراعاةٍ صامتةٍ: إنه ثأرها؛ إذا مات قبلها، تتحمّل هذا الحداد ببساطةٍ؛ لوحِظ مرارًا أن الرجال يعانون أكثر بكثيرٍ من الترمّل المتأخّر: فهم يستفيدون من الزواج أكثر من المرأة، وخصوصًا في أيامهم الأخيرة؛ لأنّ الكون عندئذٍ يتمركز في حدود المنزل؛ ولا تعود أيام الحاضر تطغى على المستقبل: فهي الّتي تؤمّن الإيقاع الرتيب والّتي تهيمن عليهما؛ عندما يفقد الرجل مهامّه العامة، يصبح عديم الفائدة كلّيًا؛ وتحتفظ المرأة على الأقلّ بإدارة المنزل؛ فهي ضروريّةٌ لزوجها بينما هو مزعجٌ فقط. ويشعرن بالفخر لاستقلالهنّ؛ ويبدأن أخيرًا في رؤية العالم بأعينهنّ؛ ويدركن أنّهنّ تعرّضن طيلة حياتهنّ للغشّ والخديعة؛ ويصبحن واعياتٍ، ومرتاباتٍ، ويستمتعن غالبًا بالتهكّم. بشكلٍ خاصٍّ للمرأة ذات التجارب معرفةٌ بالرجال لا يجاريها فيها أيّ رجلٍ: لأنها لم ترَ فقط وجههم العام، ولكن الفرد الحادث الّذي يظهره كلٌّ منهم في غياب أقرانه؛ تعرف النساء أيضًا، اللّواتي لا يظهرن على سجيّتهنّ سوى أمام النساء الأخريات، خلفيّة المشهد. ولكن إذا كانت تجربتها تسمح لها بفضح الخداع والكذب، فهي لا تكفيها لكشف الحقيقة. وسواءً كانت العجوز متسلّيةً أو تشعر بالمرارة، تظلّ حكمتها سلبيّةً: فهي تعترض، وتتّهم، وترفض؛ هي عقيمةٌ. أعلى شكلٍ للحرّية تستطيع المرأة ـ الطفيلية بلوغه بفكرها كما بأفعالها هو التحدّي الرواقي أو التهكّم المشكّك. في أيّ مرحلةٍ من عمرها، لا تنجح في أن تكون فعّالةً ومستقلّةً في الوقت نفسه.

الفصل العاشر

وضع المرأة وطبعها

يمكننا الآن أن نفهم لماذا توجد سماتٌ مشتركةٌ بين الاتّهامات الموجّهة للمرأة منذ زمن الإغريق وحتّى أيامنا هذه؛ فقد ظلّ وضعها كما هو مع تغيّراتٍ سطحيّةٍ، وهو الّذي يحدّد ما يدعى «طبع» المرأة: فهي «تنغمس في المثولية»، وتحب المعارضة، وهي حذرةٌ وشحيحةٌ، وليس لديها روح الحقيقة، ولا الدقّة، وتفتقر إلى الأخلاق، وهي نفعيّةٌ بشكلٍ منحطٍّ، وكاذبةٌ، وممثّلةٌ، ومنتفعةٌ... وكلّ هذه التأكيدات حقيقيةٌ. لكنّ ما يستنكرونه من سلوك المرأة لا تمليه عليها هرموناتها وليس مصوّرًا في أقسام دماغها: لقد رسّخه وضعها. ضمن هذا المنظور، سنحاول أخذ نظرةٍ تركيبيةٍ على وضعها، ما سيرغمنا على تكرار بعض الأمور، ولكن سيسمح لنا بإدراك «المؤنث الأزلي» في مجمل ظرفه الاقتصادي والاجتماعي والتاريخي.

يُقابلون أحيانًا «العالم النسائي» بالعالم الذكوري، ولكن تجب الإشارة مرةً أخرى إلى أنّ النساء لم يشكّلن أبدًا مجتمعًا مستقلاً ومغلقًا؛ لقد أُدخِلن إلى المجموعة الّتي يحكمها الذكور والّتي احتللن فيها مكانًا تابعًا؛ اتّحدن فقط كونهنّ متشابهاتٍ بتضامنٍ آليٍّ: ليس بينهنّ هذا التضامن العضوي الّذي تقوم عليه طائفةٌ متّحدةٌ؛ لقد بذلن دومًا جهدًا ـ في زمن غموض إيلوزيس كما اليوم في الأندية والصالونات والمشاغل ـ في الارتباط كي يؤكّدن

«عالمًا مضادًّا»، لكنّهنّ يطرحنه من قلب العالم الذكوري. من هنا يأتي تناقض وضعهنّ: فهنّ ينتمين في الوقت نفسه للعالم الذكوري ولمجالٍ يُعترض فيه على هذا العالم؛ وهنّ حبيسات الثاني، ومحاصراتٍ من الأوّل، لا يستطعن الاستقرار في أيّ مكانٍ. يُضاف دائمًا لطاعتهن رفضٌ، رفضهنّ للقبول؛ بذلك يقترب موقفهنّ من موقف الفتاة؛ لكنّ الاستمرار فيه أصعب لأنّ الأمر بالنسبة للمرأة البالغة لم يعد يتعلّق فقط بأن تحلم بحياتها من خلال رموزٍ، ولكن بأن تحياها.

تعترف المرأة نفسها بأنّ العالم بمجمله مذكّرٌ؛ فالرجال هم الّذين شكّلوه، وأداروه، وما زالوا يحكمونه إلى اليوم؛ أما بالنسبة لها، فهي لا تعتبر نفسها مسؤولةً عنه؛ من المتفق عليه أنّها أدنى، تابعةٌ؛ لم تتعلّم دروس العنف، لم تبرز أبدًا كذاتٍ أمام بقية أعضاء الجماعة؛ حبيسة جسدها، ومسكنها، تدرك نفسها سلبيةً أمام هذه الآلهة ذات الوجوه البشرية الّتي تحدّد الغايات والقيم. بهذا المعنى، يصحّ الشعار الّذي يحكم عليها بالبقاء «طفلةً أزليّةً»؛ قيل أيضًا عن العمّال، والعبيد السود، والسكان الأصليين المستعمَرين إنّهم كانوا «أطفالًا كبارًا» طالما لم يكونوا مصدر قلقٍ؛ كان هذا يعني أنّه كان عليهم أن يقبلوا بلا مناقشةٍ الحقائق والقوانين الّتي كان رجالٌ آخرون يفرضونها عليهم. نصيب المرأة هو الطاعة والاحترام. في الواقع لم تتعلّم التقنيّات الّتي كانت تسمح لها بالسيطرة على المادة؛ وهي ليست في صراعٍ مع المادة، ولكن مع الحياة، وهذه لا يمكن السيطرة عليها بالأدوات: لا يستطيع المرء سوى الخضوع لقوانينها السرّية. لا يبدو العالم للمرأة «مجموعة أدواتٍ» وسيطةٍ بين إرادتها وغاياتها، كما يعرّفها هيدجر Heidegger: إنّه بالعكس مقاومةٌ عنيدةٌ، لا يمكن إخضاعها؛ تسيطر عليه الحتميّة وتخترقه نزواتٌ غامضةٌ. هذا السرّ الغامض لقطعةٍ من الدم تتحوّل في بطن الأم إلى كائنٍ بشريٍّ، لا يستطيع أيّ علم رياضيّاتٍ أن يضعه في معادلةٍ، ولا تستطيع أيّة آلةٍ تسريعه أو إبطاءه؛ تشعر بمقاومة المدّة الّتي لا تستطيع أكثر الآلات براعةً إنقاصها أو مضاعفتها؛ تشعر بها في جسدها الخاضع لإيقاع القمر والّذي تنضجه السنوات أولًا ثم تفسده. يعلّمها الطهوُ أيضًا يوميًّا الصبر والسلبية؛ إنّه كيمياءٌ؛ يجب الخضوع للنار، والماء، «وانتظار أن يذوب السكّر»، وأن تختمر العجينة وأيضًا أن يجفّ الغسيل، وأن تنضج الفاكهة. تقارب أعمال المنزل عملًا تقنيًا؛ لكنها بدائيةٌ ورتيبةٌ أكثر مما ينبغي لإقناع المرأة بقوانين

السببيّة الآلية. عدا عن أنّ للأشياء نزواتها، حتّى في هذا المجال؛ هناك أقمشةٌ تظلّ كما هي بعد الغسيل وأخرى يتغيّر شكلها، بقعٌ تزول وأخرى تستعصي، أغراضٌ تُكسر لوحدها، غبارٌ ينبت كالنباتات. عقلية المرأة تُديم عقلية الحضارات الزراعية الّتي تعبد فضائل الأرض السحرية: إنها تؤمن بالسحر. وتكشف لها شهوانيتها السلبية الرغبة ليس كإرادةٍ وعدوانٍ ولكن كجاذبيةٍ مماثلةٍ لتلك الّتي تجعل رقّاص الساحر يتأرجح؛ وجود جسدها وحده يجعل العضو الذكر يتضخّم و ينتصب؛ لماذا لا تجعل المياه الجوفيّة فرع شجرة البندق ينتصب؟ وتشعر أنها محاطةٌ بموجاتٍ، وإشعاعاتٍ، وسوائل؛ وتؤمن بالتخاطر عن بعدٍ، وبعلم الفلك، وبفنّ كشف الإشعاعات الكهربية ومصادر الأشعة، ودلو مسمر[210] Mesmer، والتيوصوفية[211]، والموائد الّتي تدور، والعرّافات، والمعالجين؛ تُدخل التطيّر البدائي في الديانة كالشموع والنذور..إلخ؛ وتجسّد في القديسين أرواح الطبيعة القديمة: فهذا يحمي المسافرين، وتلك تحمي النساء في المخاض، وهذا الآخر يجد الأشياء الضائعة؛ وبالطبع لا تدهشها أيّة معجزةٍ؛ وتذعن لبعض الطقوس المجرّبة للحصول على نتيجةٍ ما. من السهل فهم لماذا هي نمطيةٌ؛ وليس للزمن بالنسبة لها بُعد الحداثة، ليس انبثاقًا خلّاقًا؛ ولا ترى في المستقبل سوى نسخةً من الماضي لأنها مكرّسةٌ للتكرار؛ إذا عُرِفت الكلمة والصيغة، تتّحد المدّة مع قوى الخصوبة: ولكن حتّى هذه تخضع لإيقاع الشهور، والفصول؛ تعيد دورة كلّ حملٍ وكلّ إزهارٍ إنتاج نفس الدورة الّتي سبقتها؛ في هذه الحركة الدائرية يصبح الزمن فقط انحطاطًا بطيئًا، يقرض الأثاث والثياب كما يفسد الوجه؛ و تتخرّب القوى المخصبة شيئًا فشيئًا بفعل تتالي السنين. بالتالي لا تثق المرأة بهذه القوّة المستبسلة في التخريب.

لا تجهل فقط ما هو الفعل الحقيقي، القادر على تغيير وجه العالم، ولكنها ضائعةٌ وسط هذا العالم كما لو كانت في قلب سديمٍ هائلٍ مشوّشٍ. لا تعرف كيف تستخدم المنطق الذكوري. كان ستندال يلاحظ أنها تستخدمه بنفس براعة الرجل إذا دفعتها الحاجة لذلك. لكنّه أداةٌ لا تسنح لها فرصة استخدامها البتة. فلا يفيد القياس في إنجاح صنع المايونيز، ولا تهدئة بكاء طفلٍ؛ ولا يطابق التفكير الذكوري الواقع الّذي خَبِرته. وفي مملكة

210- عالم فيزياء ألماني (المترجمة).

211- مذهب الاتصال بالله (المترجمة).

الرجال، بما أنها لا تفعل شيئًا، وبما أن تفكيرها لا ينصبّ على أيّ مشروعٍ، فهو لا يتميّز عن الحلم؛ ليس لديها مفهوم الحقيقة، لانعدام الفعّاليّة؛ ولا تتصارع إلّا مع صورٍ وكلماتٍ: ولهذا تستقبل دون حرجٍ أكثر الأقوال تناقضًا؛ ولا تهتمّ كثيرًا بإيضاح خفايا مجالٍ هو على كلّ حالٍ خارج متناولها؛ وتكتفي بشأنه بمعلوماتٍ مبهمةٍ للغاية: فتخلط الأجزاء، والآراء، والأماكن، والأشخاص، والأحداث؛ كلّ هذا تشوّشٌ غريبٌ في رأسها. ولكن بعد كلّ شيءٍ، لا يعنيها فهمه: علّموها أن تقبل السلطة الذكريّة؛ بالتالي أن تتخلّى عن النقد، والفحص، والحكم. وتدع ذلك للطائفة الأعلى. ولهذا يبدو لها العالم الذكوري واقعًا متساميًا، مطلقًا. يقول **فريزر** Frazer: «الرجال يصنعون الآلهة، والنساء يعبدنها». لا يمكنهم الركوع بقناعةٍ تامةٍ أمام الآلهة الّتي صنعوها؛ ولكن عندما تصادف النساء في طريقهنّ هذه الأصنام الكبيرة، لا يتخيّلن أن يدًا قد صنعتها ويسجدن لها طائعاتٍ[212]. وبشكلٍ خاصٍّ، يرغبن في أن يتجسّد النظام والقانون في زعيمٍ. في كلّ الأوليمب، هناك إلهٌ سيّدٌ؛ يجب أن يجتمع الجوهر الذكريّ المدهش في نموذجٍ أصليٍّ لا يكون الاباء والأزواج والعشاق إلّا انعكاساتٍ غامضةٍ له. من السخرية نوعًا القول إنّ العبادة الّتي يولينها لهذا الوثن الكبير جنسيّةٌ؛ ما هو صحيحٌ، هو أنّهن يرضين أمامه تمامًا الحلم الطفولي بالتنازل والسجود. كان تأييد النساء في فرنسا دائمًا للجنرالات: **بولانجيه، وبيتان، وديغول**[213]؛ نذكر أيضًا بأيّ ارتعاشٍ كانت صحفيّات جريدة «لومانيتيه» فيما مضى يذكرن «تيتو» وبزّته الجميلة. الجنرال، الديكتاتور، ذو نظرة النسر والذقن القويّة، هو الأب السماوي الّذي يتطلّبه عالم الجدّية، الضامن المطلق لكلّ القيم. ينشأ احترام النساء لأبطال وقوانين العالم الذكري من عدم فعاليتهنّ وجهلهنّ؛ لا يعترفن بهم عبر حكمٍ، ولكن عبر إيمانٍ: يستمدّ الإيمان قوّته المتزمّتة من أنّه ليس معرفةً: إنّه أعمىً، متحمّسٌ، عنيدٌ، غبيٌّ؛ يطرح ما يطرحه بلا شروطٍ، ضدّ العقل، ضدّ التاريخ، ضدّ

212- راجع ج. ب. سارتر، «الأيدي القذرة». «إنهنّ متعثّراتٌ عنيداتٌ، كما ترى. يتلقّين الأفكار الجاهزة، عندها يؤمنّ بها إيمانهنّ بالله. نحن من يصنع الأفكار ونعرف الطبخة، لسنا واثقين تمامًا أبدًا من أننا على حقٍّ».

213- «لدى مرور الجنرال كان الجمهور مؤلفًا خصوصًا من النساء والأطفال» (الصحف، حول جولة أيلول/ سبتمبر 1948 في سافوا).

«صفّق الرجال لخطاب الجنرال، لكنّ النساء تميّزن بحماسهنّ. لوحظ أنّ بعضهنّ كن يعبّرن عن حالة نشوةٍ صريحةٍ، يحيينه تقريبًا عند كلّ كلمةٍ ويصفقن صائحاتٍ بحماسةٍ تصبح معها وجوههنّ بلون شقائق النعمان» (مجلة Aux écoutes, 11 نيسان/ أفريل 1947).

كلّ التكذيبات. قد يأخذ هذا الإجلال العنيد حسب الظروف مظهرين: فأحيانًا تتقيّد المرأة بحماسٍ بمحتوى القانون، وأحيانًا أخرى بشكله الفارغ فقط. إذا كانت جزءًا من الصفوة المختارة الّتي تستفيد من النظام الاجتماعي القائم، تريده راسخًا وتلفت النظر بتعنّتها. يعرف الرجل أنه يستطيع إعادة بناء مؤسساتٍ جديدةً، وأخلاقٍ جديدةٍ، وقانونٍ جديدٍ؛ وإذ يدرك نفسه كتسامٍ، ينظر أيضًا إلى التاريخ كصيرورةٍ؛ ويعرف أكثر الناس محافظةً أنّ التطوّر حتميٌّ وأنّ عليه أن يلائم عمله وفكره معه؛ وبما أن المرأة لا تساهم في التاريخ فهي لا تفهم ضروراته؛ فلا تثق بالمستقبل وتتمنى إيقاف الزمن. إذا أُسقِطت الآلهة الّتي اقترحها أبوها وإخوتها وزوجها، لا ترى أيّ وسيلةٍ لإعادة إعمار السماء؛ وتستبسل في الدفاع عنها. خلال حرب الانفصال لم يكن أحدٌ من بين الجنوبيين أكثر حماسًا للرقّ من النساء؛ في إنجلترا في زمن حرب البوير، وفي فرنسا ضد الكومونة، كنّ هنّ الأكثر هياجًا؛ يحاولن معاوضة عدم فعلهنّ بقوّة المشاعر الّتي يظهرنها؛ وفي حال الانتصار، ينفلتن مثل الضباع على العدوّ المهزوم؛ وفي حال الهزيمة، يرفضن بإصرارٍ أيّة تسويّةٍ؛ بما أنّ أفكارهنّ ليست سوى سلوكٍ، فلا يهمّهنّ الدفاع عن القضايا الّتي انقضى عهدها: يمكنهنّ أن يكنّ شرعياتٍ في 1914، وقيصرياتٍ عام 1949. يشجّعهنّ الرجل أحيانًا باسمًا: يروق له أن يرى الآراء الّتي يعبّر عنها بحذرٍ تنعكس بشكلٍ متعصّبٍ؛ ولكن أحيانًا أيضًا ينزعج من الشكل السخيف والعنيد الّذي تبدو عليه عندئذٍ أفكاره الخاصة.

تبدو المرأة قويّةً في الحضارات والطبقات القويّة فقط. عمومًا، بما أن إيمانها أعمىً، فهي تحترم القانون فقط لأنّه القانون؛ وهو يحتفظ بمهابته إن تغيّر؛ تخلق القوة القانون في نظر النساء بما أنّ الحقوق الّتي يعترفن بها للرجال آتيةٌ من قوّتهم؛ ولهذا، عندما تتفكك جماعةٌ، فهنّ أوّل من يرتمي على أقدام المنتصرين. وبصورةٍ عامةٍ يقبلن الأمر الواقع. والخضوع هو إحدى السمات الّتي تميّزهنّ. عندما أُخرِجت تماثيل بومبي المحروقة من الأرض، لوحظ أنّ الرجال كانوا متحجّرين في وضعيات ثورةٍ، متحدّين السماء أو محاولين الهرب، بينما كانت النساء متكوّراتٍ، منطوياتٍ على أنفسهنّ، وقد أدرن وجوههنّ نحو الأرض. يعرفن أنهنّ عاجزاتٌ تجاه الأشياء: البراكين، ورجال الشرطة، والمدراء، والرجال. يقلن: «خُلقت النساء كي يتألمن. هكذا هي الحياة... لا نملك لها تغييرًا». هذا الاستسلام يولد الصبر الّذي نُعجَب

به لديهنّ. فيتحمّلن الألم الجسديّ أكثر بكثيرٍ من الرجل؛ وهنّ قادراتٌ على إبداء شجاعةٍ ورزانةٍ عندما تتطلّب الظروف ذلك: بدلًا من جرأة الذكر العدوانيّة، يتميّز كثيرٌ من النساء بعناد مقاومتهنّ السلبية الهادئ؛ يواجهن الأزمات، والبؤس، والشقاء، بشكلٍ أشدّ عزمًا من أزواجهنّ؛ ويأخذن كلّ وقتهنّ، محترماتٍ المدّة الّتي لا يفلح أي استعجالٍ في قهرها؛ عندما يستخدمن إصرارهنّ الهادئ في عملٍ ما، يحصلن أحيانًا على نجاحٍ باهرٍ. يقول المثل: «ما تريده المرأة تناله». ويأخذ الاستسلام مظهر التسامح لدى المرأة الكريمة: فهي تقبل كلّ شيءٍ، ولا تدين أحدًا لأنها تعتقد أنّه ليس بإمكان الناس والأشياء أن يكونوا غير ما هم عليه. تستطيع الفخورة أن تصنع منه فضيلةً متساميةً، كالسيدة **دوشارييه** الرزينة المتصلّبة. لكنه أيضًا يولد حذرًا عقيمًا؛ وتحاول النساء دائمًا أن يحافظن، ويرتقن، ويصلحن بدل أن يخربن ويشكّلن من جديدٍ؛ يفضّلن التسويات والمصالحات على الثورات.

في القرن التاسع عشر، شكّلن إحدى أكبر العقبات أمام الجهد المبذول لتحرير العمال: مقابل **فلورا تريستان** أو **لويز ميشيل** كم من ربّات البيوت التائهات والخجولات كنّ يرجون أزواجهنّ بألا يعرّضوا أنفسهم لأيّ مخاطرةٍ! كنّ خائفاتٍ ليس فقط من الإضرابات أو البطالة أو البؤس: كنّ يخشين أن تكون الثورة خطأً. ونعرف أنهنّ يفضّلن الروتين على المغامرة، طالما كان عليهنّ تحمّل أحدهما: يصنعن سعادةً بسيطةً في المنزل بسهولةٍ أكثر من صنعها في الخارج. يختلط مصيرهنّ بمصير الأشياء القابلة للزوال: ويفقدن كلّ شيءٍ إذ يفقدنها. وحدها الذات الحرّة الّتي تؤكد نفسها خارج المدّة تستطيع منع أيّ خرابٍ؛ حرموا المرأة من هذا الملاذ الأعلى. وهي لا تؤمن بالتحرير لأنها لم تشعر أبدًا بشكلٍ أساسيٍّ بقدرات الحرّية: يبدو لها العالم مُدارًا من قِبل قدرٍ غامضٍ من الغرور الوقوف في وجهه. هذه الطرق الخطيرة الّتي يُراد إجبارها على سلوكها، ليست هي مَن شقّها: فمن الطبيعي ألّا تندفع فيها بحماسٍ[214]. إذا فتحوا المستقبل أمامها، فلن تتكمّش بالماضي. عندما تُدعى النساء

214- راجع جيد Gide، اليوميات. «كريوز أو زوجة لوط: الواحدة تتأخر، والثانية تنظر إلى الوراء، ما يعني أنها تتأخر أيضًا. لا توجد صيحة شغفٍ أقوى من هذه:

فيدرا، التي نزلت معك في المتاهة

وجدت أو ضاعت معك.

لكن العاطفة تعميها؛ بعد بضع خطواتٍ تجلس، أو تريد العودة إلى الوراء ـ أو تجعل أحدًا يحملها».

فعليًّا للعمل، عندما يجدن أنفسهنّ ضمن الأهداف الّتي تحدَّد لهنّ، يبدون بجرأة الرجال وشجاعتهم[215].

كثيرٌ من العيوب الّتي ينتقدوهنّ عليها كالحطّة والحقارة والخجل والدناءة والكسل والسطحية والعبودية تعبّر ببساطةٍ عن الأفق المسدود أمامهنّ. يقال إن المرأة شهوانيّةٌ، تقبع في المثوليّة؛ ولكنّ الواقع أنهم حبسوهًا ضمنها. ليس لدى العبدة حبيسة الحريم أيّ هوسٍ مرضيٍّ بمربّى الورد، والحمّامات المعطّرة: بل هي تقوم بذلك لأنّ عليها أن تقتل الوقت؛ وبقدر ما تختنق المرأة ضمن الخدر الكئيب ـ سواء كان ذلك بيت دعارةٍ أو منزلًا بورجوازيًّا ـ تلجأ أيضًا إلى الرفاهية ولين العيش؛ عدا عن أنّها حين تتبع الشهوانية بلهفةٍ فذلك غالبًا لأنها محرومةٌ منها؛ غير مشبعةٍ جنسيًّا، مكرّسةً لفظاظة الذكر، «محكومةً بقباحات الرجال»، تتعزّى بصلصاتٍ قشديّةٍ، ونبيذٍ مسكرٍ، ومخامل، ومداعبات الماء والشمس والصديقة والعشيق الشاب. إذا بدت للرجل كشخصٍ «جسديٍّ» للغاية، فذلك لأن وضعها يحفزها على تعليق أهميةٍ كبيرةٍ على حيوانيتها. صوت الجسد لديها ليس أعلى منه لدى الذكر: لكنها ترصد أقل همساته وتضخمها؛ الشهوانية هي كتمزّق الألم انتصار المباشر الصاعق؛ يُرفَض المستقبل والعالم عبر عنف اللحظة: لا يعود الموجود شيئًا خارج اللهيب الجسدي؛ لم تعد معاقةً ولا مكبوتةً خلال هذا الانتصار الوجيز. ولكن مرّةً أخرى، لاتعطي قيمةً لانتصارات المثولية هذه إلا لأنها نصيبها الوحيد. لطيشها نفس سبب «ماديتها الرخيصة»؛ فتعطي أهميةً للأشياء الصغيرة لأنها لا تستطيع بلوغ الكبيرة: عدا عن أنّ التفاهات الّتي تملأ أيامها هي غالبًا جدّيةٌ؛ وتدين بسحرها وحظوظها لزينتها وجمالها. وتظهر غالبًا كسولةً، لا مباليةً؛ لكنّ ما يقترحونه عليها من مشاغل عبثيةٌ كانقضاء الزمن؛ إذا كانت ثرثارةً فذلك كي تسلّي فراغها: فتستبدل الأعمال المستحيلة بالكلمات. المسألة هي أنّه عندما تنخرط امرأةٌ بعمليّةٍ جديرةٍ بإنسانٍ، تعرف كيف تكون نشيطةً، فعّالةً، صامتةً، متقشّفةً كالرجل. وتتّهم بأنها خانعةٌ؛ مستعدّةٌ دومًا كما يقال لأن تستلقي على قدمي سيدها وتقبّل اليد الّتي ضربتها؛ صحيحٌ أنّ الكبرياء الحقيقية تنقصها عمومًا؛ النصائح

215- وهكذا تغيّر موقف نساء الطبقة العمالية كثيرًا منذ قرنٍ؛ وخصوصًا خلال الإضرابات الأخيرة في مناجم الشمال أثبتن نفس حماسة الرجال وعزمهم، متظاهراتٍ ومناضلاتٍ إلى جانبهم.

الّتي يوزعها «بريد القلوب» للزوجات المخدوعات، والعاشقات المهجورات نابعةٌ من فكر خضوعٍ كريهٍ؛ وتجهد المرأة نفسها في مشاداتٍ صلفةٍ وينتهي بها الأمر إلى جمع الفتات الّذي يقبل الذكر رميه لها. ولكن ماذا تستطيع المرأة فعله دون دعمٍ ذكوريٍّ كي يكون الرجل وسيلة الوجود الوحيدة وسببه الوحيد؟ إنها مرغمةٌ على قبول كلّ الإذلال؛ لا يستطيع العبد امتلاك حسّ «الكرامة الإنسانية»؛ يكفيه أن يتخلّص بلباقةٍ. أخيرًا إذا كانت قانعةً بمستواها، بيتيّةً، إذا كانت منفعيّةً بخِسّةٍ، فذلك لأنّه يُفرَض عليها أن تكرّس وجودها لإعداد الطعام وتنظيف الفضلات: ولن تستمدّ من ذلك معنى العظمة. عليها أن تؤمّن تكرار الحياة الرتيب ضمن احتمالها ووجودها: من الطبيعي أن تكرّر وتعيد، دون أن تبتكر أبدًا، وأن يبدو لها أنّ الزمن يدور في حلقةٍ دون أن يوصل إلى أيّ مكانٍ؛ إنها تنشغل دون أن تفعل شيئًا: بالتالي تُرتَهن فيما لديها؛ هذه التبعيّة للأشياء، الناتجة عن التبعية الّتي أبقاها الرجال فيها، تفسّر توفيرها الحذر، وبخلها. ولا تتوجه حياتها نحو غاياتٍ: إنها تُفني نفسها في إنتاج أشياء ليست سوى وسائل، والعناية بها: الغذاء واللباس والمسكن؛ إنها وسائط غير أساسيةٍ بين الحياة الحيوانية والوجود الحرّ؛ القيمة الوحيدة الّتي تمنح للوسيلة غير الأساسية، هي المنفعة؛ تعيش ربة المنزل في مستوى المفيد ولا تُعجَب بنفسها إلّا حين تكون مفيدةً لمن حولها. لكنّ لا يرضى أيّ شخصٍ بدورٍ غير أساسيٍّ: فيصنع فورًا من الوسائل غاياتٍ ـ كما نلاحظ لدى السياسيين ـ وتصبح قيمة الوسيلة في نظره قيمةً مطلقةً. بالتالي تسود النفعيّة في سماء ربة المنزل أكثر من الحقيقة والجمال والحرية؛ وضمن هذا المنظور الّذي هو منظورها تنظر إلى الكون بأسره؛ ولهذا تتبنى العرف الأرسطوطالي حول البين بين، الضآلة. كيف يمكن أن نجد لديها الجرأة والتوقّد والتجرّد والعظمة؟ لا تظهر هذه الخصال إلّا عندما ترمي حريّةٌ ما نفسها عبر مستقبلٍ مفتوحٍ، منبثقٍ إلى ما وراء كلّ معطىً. نحبس المرأة في مطبخٍ أو مخدعٍ، ونستغرب أن يكون أفقها محدودًا؛ نقصّ أجنحتها، ونأسف لأنها لا تعرف الطيران. فلنفتح لها المستقبل ولن تعود مضطرّةً للمكوث في الحاضر.

ونبدي نفس التناقض عندما نسجنها في حدود أناها أو منزلها، ونلومها على نرجسيتها وأنانيتها وما يصحبهما: كالغرور، والنزق، والشرّ، إلخ..؛ نجرّدها من كلّ إمكانية التواصل المحسوس مع الغير؛ فلا تشعر ضمن تجربتها بنداء التضامن ولا بفوائده بما أنّها مكرّسةٌ

بكلّيتها لأسرتها، منفصلةً؛ بالتالي لا يمكن أن نتوقّع منها أن تتجاوز نفسها نحو الصالح العام. تقبع بإصرارٍ في المجال الوحيد الّذي ألفته، حيث تستطيع ممارسة تأثيرٍ على الأشياء وتجد ضمنه سيادةً زائلةً.

مع ذلك، مهما أوصدت المرأة الأبواب، وأغلقت النوافذ، لا تجد في منزلها أمانًا مطلقًا؛ يحاصرها هذا المحيط الذكوري الّذي تحترمه عن بعدٍ دون أن تجرؤ على المغامرة بدخوله؛ ولأنها غير قادرةٍ تحديدًا على إدراكه بواسطة تقنياتٍ، ومنطقٍ أكيدٍ، ومعارف واضحةٍ، تشعر بنفسها كطفلٍ أو إنسانٍ بدائيٍّ محاطٍ بأسرارٍ خطيرةٍ. وتعكس فيه مفهومها السحري للواقع: يبدو لها مسار الأشياء حتميًّا ومع ذلك كلّ شيءٍ قابلٌ للحدوث؛ ولا تميّز جيّدًا بين الممكن والمستحيل، وهي مستعدةٌ لتصديق أيّ إنسانٍ؛ وتستقبل كلّ الشائعات وتنشرها، وتثير الذعر؛ وتعيش مهمومةً حتى في فترات الهدوء؛ وفي الليل، تخاف الراقدة وهي نصف نائمةٍ من أشكال الكوابيس الّتي تكسو الواقع: وهكذا بالنسبة للمرأة المحكومة بالسلبية تسكن أشباح الحرب والثورة والمجاعة والفقر المستقبل الغامض؛ وتشعر بالقلق لأنها لا تستطيع عمل شيءٍ. فعندما يندفع الزوج أو الابن في عملٍ، عندما يغرقان في حدثٍ، يخاطران لحسابهما: مشاريعهما، و ترسم لهما التعليمات الّتي يتبعانها طريقًا آمنًا في الظلمة؛ لكنّ المرأة تتخبّط في ليلٍ مشوّشٍ؛ تشعر بالقلق، لأنها لا تعمل شيئًا؛ في الخيال، لكلّ الممكنات نفس الواقع: يمكن أن يخرج القطار عن السكّة، وتفشل العمليّة الجراحيّة، وتخفق الأعمال؛ تحاول عبثًا إبعاد طيف عجزها الشخصي، ضمن اجترارها الكئيب الطويل.

ويعبّر الهمّ عن قلّة ثقتها بالعالم المعطى؛ فإن كان يبدو لها مثقلًا بالتهديدات، جاهزًا للاستغراق في كوارث غامضةٍ، فذلك لأنها لا تشعر بالسعادة فيه. معظم الوقت، لا تستسلم لأن تكون خاضعةً؛ تعرف جيّدًا أن ما تخضع له، تخضع له رغمًا عنها: إنها امرأةٌ دون أن يأخذوا رأيها بذلك؛ لا تجرؤ على الثورة؛ تخضع رغمًا عنها؛ موقفها احتجاجٌ شديدٌ مستمرٌّ. كلّ هؤلاء الّذين يتلقّون بوح النساء، الأطباء، والكهنة، والمساعدات الاجتماعيات يعرفون أن المعتاد فيها هو الشكوى؛ وتتأوّه الصديقات فيما بينهنّ كلٌّ حول مصائبها الخاصة وجميعهنّ حول ظلم القدر والعالم والرجال عمومًا. لا يلوم الفرد الحرّ إلّا نفسه على فشله، ويضطلع به: ولكن كلّ ما يحدث للمرأة هو بسبب الغير، الغير هو المسؤول عن مآسيها. يأسها الغاضب

يرفض كلّ الحلول؛ لا يفيد بشيءٍ اقتراح حلولٍ على امرأةٍ متشبّثةٍ بالشكوى: فلن يبدو لها أيٌّ منها مقبولًا. تريد أن تعيش وضعها تمامًا كما تعيشه: ضمن غضبٍ عاجزٍ. إذا عُرض عليها تغييرٌ ترفع ذراعيها للسماء: «هذا ما كان ينقصني»! وتعرف أنّ أزمتها أعمق من الأعذار الّتي تتعلّل بها، وأنّه لا يكفيها حلٌّ مناسبٌ ليخلّصها منها: وتلوم العالم بأسره لأنّه أُنشَئ من دونها، وضدّها؛ منذ المراهقة، منذ الطفولة، وهي تحتجّ على وضعها؛ وعدوها بتعويضاتٍ، أكّدوا لها أنها إن وضعت حظوظها بين يدي الرجل فستعود إليها مضاعفةً، وهي تعتبر أنّها خُدِعت؛ وتتّهم كلّ العالم الذكوري بذلك؛ والحقد هو الوجه الآخر للتبعيّة: عندما يعطي المرء كلّ شيءٍ فكلّ ما يتلقّاه بالمقابل غير كافٍ أبدًا. مع ذلك، هي أيضًا بحاجةٍ لاحترام العالم الذكوري؛ كانت لتشعر أنها بخطرٍ، بلا سقفٍ فوق رأسها، لو رفضته بمجمله: فتتبنّى الموقف المتناقض المانوي الّذي اقترحته عليها تجربتها البيتية. الفرد الّذي يعمل يرى نفسه مسؤولًا عن الخير والشرّ كالآخرين، يعرف أنّ عليه تحديد الغايات، وتحقيقها؛ يشعر في العمل بغموض كلّ حلٍّ؛ يختلط العدل والظلم، والربح والخسارة، بشكلٍ لا ينفصم. لكنّ الشخص السلبيّ يضع نفسه خارج اللعبة ويرفض أن يطرح الجدليات الأخلاقية ولو بالفكر: يجب تحقيق الخير وإن لم يحصل ذلك فهناك خطأٌ يجب معاقبة المسؤولين عنه. كالطفل، تتصوّر المرأة الخير والشر بأشكالٍ مبسّطةٍ؛ وتطمئن المانوية الفكر بإزاحة قلق الاختيار؛ الاختيار بين مصيبةٍ ومصيبةٍ أصغر، بين فائدةٍ حاليّةٍ وفائدةٍ أكبر قادمةٍ، تحديد الشخص لما هو هزيمةٌ وما هو انتصارٌ، يعرّضه لمخاطر رهيبةٍ؛ بالنسبة للمانويّ البذرة الصالحة متميّزةٌ بشكلٍ واضحٍ عن البذرة الطالحة، ولا وسيلة سوى اقتلاع الطالحة؛ الغبار مُدانٌ بذاته والنظافة هي غياب القذارة الكامل؛ التنظيف هو التخلّص من الفضلات والوحل. وهكذا تفكّر المرأة أنّ «كلّ شيءٍ هو غلطة» اليهود، أو الماسونيّين، أو البولشفيين، أو الحكومة؛ هي دائمًا ضدّ أحدٍ أو شيءٍ؛ كانت النساء أكثر استبسالًا من الرجال المعادين لدريفوس؛ لا يعرفن دومًا أين يكمن المبدأ السيّء؛ لكنّ ما ينتظرنه من «حكومةٍ جيّدةٍ»، هو أن تطرده كما يُطرَد غبار المنزل. بالنسبة لمناصرات **ديغول** المتحمسات، يبدو **ديغول** كملك الكنّاسين؛ يتخيّلنه ممسكًا بمنافض الريش والمماسح، يفرك ويمسح من أجل صنع فرنسا «نظيفةٍ».

لكنّ هذه الآمال تقع دومًا ضمن مستقبلٍ غير مؤكّدٍ؛ بانتظار ذلك لا يزال الشرّ يأكل

الخير؛ وبما أنّ اليهود والبولشفيين والماسونيين ليسوا بمتناول المرأة، فهي تبحث عن مسؤولٍ تستطيع أن تصبّ عليه جام غضبها: والرجل ضحيّةٌ مناسبةٌ. ففيه يتجسّد العالم الذكوريّ، ومن خلاله أخذ المجتمع الذكريّ المرأة على عاتقه وخدعها؛ فهو يتحمّل وزر العالم، وإذا ساءت الأمور، فتلك غلطته. عندما يعود مساءً، تشكو إليه الأطفال، وموزعي الحاجيات، وشغل البيت، وكلفة الحياة، وآلام مفاصلها، والطقس: وتريد أن يشعر بالذنب. تتمولديها تجاهه شكاوى خاصّةٌ؛ لكنّه مذنبٌ قبل كلّ شيءٍ لكونه رجلًا؛ قد تكون له هو أيضًا أمراضه وهمومه: «هذا أمرٌ مختلفٌ»؛ وهو يملك امتيازًا تشعر دائمًا أنّه ظلمٌ. ومن اللافت أنّ العداء الّذي تشعر به تجاه الزوج والعشيق يربطها بهما بدل أن يبعدها عنهما؛ الرجل الّذي بدأ يكره زوجةً أو عشيقةً يحاول الهرب منها: لكنها تريد أن يكون في متناولها الرجل الّذي تكرهه كي تقتصّ منه. اختيار التجريم لا يعني اختيار التخلّص من الضرر ولكن الاستغراق فيه؛ وعزاؤها الأكبر أن تجعل نفسها شهيدةً. لقد قهرها الرجال والحياة: وستجعل من هذه الهزيمة ذاتها انتصارًا. ولهذا ستستسلم كما في طفولتها لسورة الدموع والمشاحنات.

ذلك لأن حياة المرأة تقوم على أساسٍ من الثورة العاجزة فالبكاء سهلٌ بالنسبة لها؛ لأنّ سيطرتها وظيفيًّا على جملتها العصبية والودّية أقلّ من سيطرة الرجل دون شكٍّ؛ علمتها تربيتها أن تترك نفسها على سجيّتها: تلعب التوجيهات هنا دورًا كبيرًا بما أن ديدرو Diderot، وبنجامان كونستان Benjamin Constant كانا يذرفان فيضًا من الدموع، بينما كفّ الرجال عن البكاء منذ أن أصبح ذلك ممنوعًا بحكم العادة. لكنّ المرأة تحديدًا مؤهلةٌ دومًا لتبني سلوك فشلٍ تجاه العالم لأنّها لم تتحمّل مسؤوليته بشكلٍ صريحٍ أبدًا. يقبل الرجل العالم؛ ولن يغيّر الشقاء نفسه موقفه، فسيواجهه، ولن يدعه «يتغلّب عليه»؛ بينما يكفي إزعاجٌ بسيطٌ لكشف عدائية العالم من جديدٍ للمرأة وظلم قدرها؛ تسارع عندئذٍ إلى ملاذها الآمن: ذاتها؛ هذا المسيل الدافئ على الخدّين، هذه الحرقة في المحجرين، هي وجود روحها المتألمة الحساس؛ الدموع أيضًا مداعبةٌ رقيقةٌ ومريرةٌ، ناعمةٌ على الجلد، مالحةٌ بالكاد على اللسان؛ يتوهّج الوجه تحت سيلانٍ من الماء الرحيم؛ الدموع هي شكوىً وتعزيةٌ في الوقت نفسه، حمّى وبرودةٌ مهدّئةٌ. هي أيضًا حجّةٌ كبرى؛ مفاجئةٌ كالعاصفة، منبثقةٌ بلا انتظامٍ، إعصارٌ، موجةٌ، وابلٌ، تحوّل المرأة إلى نبعٍ متأوّهٍ، إلى سماءٍ مكدّرةٍ؛ لا تعود

عيناها تريان، تنصهران في مطرٍ؛ تعود المرأة عمياء إلى سلبية الأشياء الطبيعية. يريدونها مهزومةً: فتستغرق في هزيمتها؛ وتنزلق عموديًّا، فتغرق، وتهرب من الرجل الّذي يتأملها عاجزًا كما لو كان أمام سيلٍ. ويعتبر هذا التصرّف غير مشروعٍ: لكنّها تعتبر أنّ الصراع غير مشروعٍ منذ البداية لأنّهم لم يضعوا في يدها أيّ سلاحٍ فعّالٍ. تلجأ مرةً أخرى إلى رقيةٍ سحريّةٍ. ولأنّ دموعها تغيظ الذكر فذلك يعطيها سببًا آخر للّجوء إليها.

إذا لم تكفها الدموع للتعبير عن ثورتها، تلجأ إلى مشاحناتٍ يحيّر عنفها المتنافر الرجل أكثر أيضًا. في بعض الأوساط، يحدث أن يضرب الرجل زوجته ضربًا حقيقيًّا؛ في أوساطٍ أخرى، يمنع نفسه من كلّ عنفٍ تحديدًا لأنّه الأقوى وقبضته أداةٌ فعّالةٌ. لكنّ المرأة، كالطفل، تقوم باندفاعاتٍ رمزيةٍ: قد ترتمي على الرجل، وتخدشه، وهذه ليست سوى حركاتٍ. ولكنّها تعبّر بوجه الخصوص بحركات جسمها في نوباتٍ عصبيةٍ عن الرفض الّذي لا تستطيع القيام به بشكلٍ ملموسٍ. إنّها عرضةٌ للمظاهر الاختلاجيّة ليس فقط لأسبابٍ فزيولوجيةٍ: الاختلاج هو استبطان طاقةٍ حين ترمى نحو العالم تفشل في الإمساك بأي غرضٍ فيه؛ إنّه تبديدٌ لا طائل منه لكلّ قوى الرفض الّتي يحفزها الوضع. نادرًا ما تتعرّض الأم لنوباتٍ عصبيةٍ أمام أطفالها الصغار لأن بإمكانها ضربهم ومعاقبتهم: تستسلم المرأة لنوبات يأسٍ هائجةٍ أمام ابنها الكبير وزوجها وعشيقها الّذي ليس لها عليه سيطرةٌ. نوبات **صوفي تولستوي** الهستيرية ذات مغزىً؛ أخطأت بالتأكيد لأنها لم تحاول أبدًا فهم زوجها ولا تبدو من خلال يومياتها كريمةً ولا حساسةً ولا صريحةً، ولا تبدو لنا صورةً جذّابةً؛ ولكن سواءً كانت على خطأٍ أم صوابٍ فهذا لا يغيّر شيئًا من فظاعة وضعها: فلم تفعل طول حياتها سوى أن تحتمل من خلال اعتراضٍ مستمرٍ عناق زوجها، والأمومة، والوحدة، وطرز الحياة الّتي يفرضها عليها زوجها: عندما أثارت قراراتها الجديدة الصراع، وجدت نفسها بلا سلاحٍ في وجه الإرادة العدوة الّتي ترفضها بكلّ مشيئتها العاجزة؛ فاندفعت في تمثيليات رفضٍ ـ انتحارٌ زائفٌ، هروبٌ زائفٌ، مرضٌ زائفٌ، إلخ.. ـ بغيضةٍ بالنسبة للمحيطين بها، متعبةٍ لها نفسها: لا نرى البتة أيّ مخرجٍ آخر مفتوحٍ أمامها بما أنّه لم يكن لديها أيّ سببٍ إيجابيٍّ لإسكات مشاعر الثورة لديها، وأيّة وسيلةٍ فعّالةٍ للتعبير عنها.

هناك مخرجٌ للمرأة الّتي وصلت لأقصى درجات الرفض، وهو الانتحار. ولكن يبدو أنها

تلجأ إليه أقل مما يفعل الرجل. الإحصائيات هنا غامضةٌ للغاية[216]: إذا حسبنا الانتحارات المكتملة، فعدد الرجال الّذين يضعون حدًّا لحياتهم أكبر بكثيرٍ من عدد النساء؛ لكنّ محاولات الانتحار أكثر شيوعًا لدى النساء. قد يكون هذا لأنّهن يكتفين غالبًا بالمسرحيات: يتظاهرن أكثر من الرجل بنيّتهنّ الانتحار لكنّهنّ يرغبن به بصورةٍ أقلّ. كما أن هذا يعود جزئيًّا لأن الوسائل العنيفة تثير نفورهنّ: إذ لا يستخدمن الأسلحة البيضاء أبدًا تقريبًا ولا الأسلحة النارية. ويغرقن أنفسهنّ أكثر بطيب خاطرٍ، كأوفيليا، مظهراتٍ بذلك تجانس المرأة والماء السلبي والمفعم بليلٍ يبدو أن الحياة يمكنها أن تذوب فيه بسلبيةٍ. بالمجمل نرى هنا الالتباس الّذي أشرتُ إليه: لا تحاول المرأة ترك ما تكرهه بصراحةٍ. تتظاهر بالقطيعة لكنها في النهاية تظل بقرب الرجل الّذي يعذّبها؛ تتظاهر بترك الحياة الّتي تزعجها ولكن يندر نسبيًّا أن تنتحر. فهي لا تميل إلى الحلول النهائية: تحتجّ على الرجل، والحياة، ووضعها، لكنها لا تهرب منهم.

هناك العديد من السلوكيات النسائية الّتي يجب تفسيرها بأنها احتجاجاتٌ. رأينا أنّ المرأة كثيرًا ما تخون زوجها من باب التحدّي وليس من باب المتعة؛ وتصبح طائشةً ومبذّرةً عن قصدٍ لأنه مرتّبٌ ومقتصدٌ. يظنّ أعداء المرأة الّذين يتّهمونها بأنّها «تتأخّر دومًا» أنّ «حس الدّقة» ينقصها. في الحقيقة، رأينا كم تنحني مطيعةً لمتطلّبات الزمن. فتأخرها مقصودٌ. تعتقد بعض المغناجات أنّهنّ بذلك يثرن رغبة الرجل ويمنحن حضورهنّ قيمةً أكبر؛ ولكنّ المرأة إذ تفرض على الرجل بضع لحظات انتظارٍ تحتجّ على حياتها الّتي هي انتظارٌ طويلٌ. بمعنىً ما وجودها كلّه انتظارٌ بما أنها حبيسة غموض المثولية، والحدوث، وأنّ مسوّغها هو دائمًا في يد شخصٍ آخر: فتنتظر تكريم الرجال وقبولهم لها، تنتظر الحبّ، والعرفان بالجميل وتقريظ الزوج والعشيق؛ تنتظر منهما أسباب وجودها، وقيمتها، وحتى كيانها. تنتظر منهما معيشتها؛ وسواء كان دفتر الشيكات بيدها أو كانت تتلقّى كلّ أسبوعٍ أو كلّ شهرٍ المبلغ الّذي يخصّصه الزوج لها، فيجب أن يقبض راتبه، أو يحصل على هذه العلاوة كي تستطيع تسديد حساب البقّال أو شراء ثوبٍ جديدٍ. تنتظر حضورهما: تضعها تبعيّتها الاقتصاديّة تحت تصرّفهما؛ فهي ليست سوى أحد عناصر حياة الرجل بينما هو

216- انظر هالبواش Halbwachs، أسباب الانتحار.

حياتها كلها؛ للزوج انشغالاته خارج المنزل، وتتحمّل الزوجة غيابه طول النهار؛ والعشيق هو من يحدّد الافتراق أو اللقاء حسب التزاماته، ولو كان مغرمًا. تنتظر رغبة الذكر في السرير، تنتظر رغبتها هي، بقلقٍ أحيانًا. كلّ ما يمكنها فعله هو الوصول متأخّرةً إلى الموعد الّذي حدّده العشيق، أو ألّا تكون جاهزةً في الساعة الّتي حدّدها الزوج؛ فتؤكّد بذلك أهمّية انشغالاتها هي، وتطالب باستقلالها، وتصبح ثانيةً للحظةٍ الذات الأساس الّتي يخضع الآخر لإرادتها بسلبيّةٍ. لكنّ هذا ثأرٌ خجولٌ؛ مهما أصرّت على جعل الرجال «يستسلمون»، فلن تعوّض أبدًا الساعات اللامتناهية الّتي أمضتها تترقّب، وتأمل، وتخضع لرغبتهم.

عمومًا، تحتجّ على سلطة الرجال شيئًا فشيئًا رغم اعترافها بالمجمل بتفوّقهم، وقبولها بسلطتهم، وعبادتها لآلهتهم؛ من هنا تأتي «روح الاعتراض» الشهيرة الّتي يلومونها عليها غالبًا؛ بما أنّها لا تملك مجالًا مستقلًّا، فلا يمكنها معارضة ما يطرحه الذكور بحقائق أو قيمٍ إيجابيةٍ؛ يمكنها فقط رفضه. ورفضها منهجيٌّ قليلًا أو كثيرًا تبعًا للطريقة الّتي يتوازن فيها لديها الاحترام والضغينة. لكنّ الأمر هو أنّها تعرف كلّ نقائص النظام الذكوري وتسارع إلى فضحها.

لا سيطرة للنساء على عالم الرجال لأنّ تجربتهنّ لم تعلّمهنّ استعمال المنطق والتقنيّة: وبالعكس، تنهار قوّة الأدوات الذكوريّة على حدود المجال الأنثويّ. هناك منطقةٌ كاملةٌ من الخبرة البشرية يختار الذكر عامدًا أن يتجاهلها لأنه يفشل في تصوّرها: هذه التجربة، تعيشها المرأة. مهما كان المهندس دقيقًا عندما يضع مخطّطاته، يتصرّف في بيته كأنّه إلهٌ: كلمةٌ منه ويحضّر طعامه، وتُنشّى قمصانه، ويصمت أطفاله؛ الإنجاب عملٌ سريعٌ كضربة عصا موسى؛ هذه العجائب لا تدهشه. يختلف مفهوم العجيبة عن مفهوم السحر: فهو يطرح ضمن عالمٍ محدّدٍ عقلانيًّا الانقطاع الجذريّ لحدثٍ دون سببٍ يتحطّم في مواجهته كل فكرٍ؛ بينما الظواهر السحريّة توحّدها قوىً خفيّةٌ يمكن لشعورٍ مطيعٍ اتّباع مصيرها المستمرّ دون أن يفهمه. الوليد معجزةٌ بالنسبة للأب الخالق، سحريٌّ بالنسبة للأم الّتي تحمّلت نضوجه في بطنها. تجربة الرجل مفهومةٌ، لكنّها مليئةٌ بالفراغات؛ تجربة المرأة في حدودها الخاصّة غامضةٌ إنّما مليئةٌ. وتثقلها هذه الكثافة؛ يبدو لها الذكر في علاقته بها خفيفًا: لديه خفّة الديكتاتوريين، والجنرالات، والقضاة، والبيروقراطيين، والشرائع والمبادئ المجرّدة. هذا

ما كانت تودّ قوله دون شكٍّ ربّة المنزل الّتي كانت تتمتم ذات يومٍ وهي ترفع كتفيها: «الرجال لا يفكّرون»! يقلن أيضًا: «الرجال لا يعلمون؛ لا يعرفون الحياة». ويقابلن خرافة السرعوفة الراهبة برمز الطنّان الطائش والمتطفّل.

نفهم أن المرأة ترفض المنطق الذكوري من هذا المنظور. ليس فقط لأنّ هذا لا يتداخل مع تجربتها ولكنّها تعرف أيضًا أن العقل في أيدي الرجال يصبح شكلًا آخر للعنف؛ وتهدف تأكيداتهم الحاسمة إلى خداعها. يراد حبسها في خيارٍ صعبٍ:إما أن توافقي أو لا توافقي؛ وعليها أن توافق باسم كلّ جملة المبادئ المقبولة: برفضها الموافقة ترفض كل النظام بجملته؛ لا يمكنها أن تسمح لنفسها بمثل هذا التألّق؛ لا تستطيع إعادة بناء مجتمعٍ آخر: مع ذلك، فهي لا توافق على هذا. ووسط المسافة بين الثورة والعبودية، تخضع للسلطة الذكورية رغمًا عنها. يجب في كلّ فرصةٍ جعلها بالعنف تتحمّل نتائج خضوعها المتردّد. يتابع الذكر وهم رفيقةٍ عبدةٍ باختيارها: يريد باستسلامها له أن تستسلم لبداهة نظريّةٍ؛ لكنها تعرف أنّه هو نفسه اختار المسلّمات الّتي ترتبط بها استنتاجاتها النشيطة؛ طالما تفادت إعادة مناقشتها، سيغلق فمها بسهولةٍ؛ إلّا أنّه لن يقنعها لأنّها تدرك تعسّفه. بالتالي سيتّهمها غاضبًا بالعناد وبانعدام المنطق: وترفض أن تلعب هذه اللعبة لأنها تعرف أنّ النرد مزيّفٌ.

لا تفكّر المرأة إيجابيًا بأنّ الحقيقة هي غير ما يزعمه الرجال: بل تقبل بالأحرى أن الحقيقة ليست موجودةً. ليس فقط مستقبل الحياة هو ما يضعها في موضع التحدي بالنسبة لمبدأ الهويّة، ولا الظواهر السحرية الّتي تحيط بها والّتي تخرب مبدأ العلّة: تدرك إبهام كلّ مبدأٍ، وكلّ قيمةٍ، وكلّ ما هو موجودٌ في قلب العالم الذكوري نفسه، فيها، كمنتميةٍ لهذا العالم. تعرف أنّ العرف الذكوري فيما يخصّها خدعةٌ كبيرةٌ. يرمي الرجل بوجهها قانونه المتعلّق بالفضيلة والشرف؛ لكنّه يدعوها برقّةٍ إلى عصيانه: حتّى أنّه يسقط هذا العصيان؛ من دونها تنهار كلّ هذه الواجهة الجميلة الّتي يحتمي وراءها.

يسمح الرجل لنفسه بطيب خاطرٍ بفكرة **هيجل** الّتي تقول إنّ المواطن يكتسب كرامته الأخلاقية بتساميه نحو العامّ: كفردٍ خاصٌ لديه حقٌّ في الرغبة، والمتعة. علاقاته بالمرأة تقع إذًا في منطقةٍ طارئةٍ لم يعد يطبّق فيها العرف، والسلوكيات فيها لا مباليةٌ. وتدخل

القيم في علاقاته مع الرجال الآخرين؛ إنّه حريّةٌ تواجه حرّياتٍ أخرى حسب القوانين المعترف بها بشكلٍ عامٍّ؛ ولكنّه يكفّ عن تحمّل مسؤولية وجوده إزاء المرأة، فقد خُلقت لهذا الهدف، ويستسلم لسراب الذات، فهو موجودٌ على صعيدٍ غير أصليٍّ؛ يبدو طاغيةً ساديًّا عنيفًا، أو صبيانيًّا مازوشيًّا شاكيًّا؛ ويحاوِل إرضاء هواجسه، وعاداته المستهجنة؛ «فيسترخي»، «ويتكاسل» باسم الحقوق الّتي اكتسبها في حياته العامة. تستغرب زوجته غالبًا ـ مثل تيريز ديكيرو ـ التباين بين كلماته المنمّقة وسلوكه العام. يدعو إلى إعادة التعمير: لكنّه بارعٌ لا ينجب أطفالًا أكثر مما يناسبه. يمجّد الزوجات العفيفات والمخلصات: لكنه يدعو زوجة جاره إلى الخيانة. رأينا بأيّ رياءٍ يقرر الرجال أنّ الإجهاض جرمٌ بينما في فرنسا مليون امرأةٍ يضعهنّ الرجل كلّ عامٍ في وضعٍ يضطررن معه إلى الإجهاض؛ كثيرًا ما يفرض الزوج أو العشيق عليها هذا الحلّ؛ غالبًا أيضًا يفترضان ضمنًا أنّها ستلجأ إليه إن دعت الحاجة. يأملان أن توافق المرأة على أن تكون مذنبةً بجرمٍ: «لا أخلاقيتها» ضروريّةٌ لانسجام المجتمع الأخلاقي الّذي يحترمه الرجال. أكبر مثالٍ صارخٍ على هذا الرياء هو موقف الذكر من البغاء: طلبه هو ما يخلق العرض؛ وقلت إنّ المومسات ينظرن بارتيابٍ إلى السادة المحترمين الّذين يفضحون الرذيلة عمومًا ولكنهم يبدون تسامحًا كبيرًا مع عاداتهم المستهجنة الشخصية؛ مع ذلك، تُعتبر الفتيات اللّواتي يكسبن قوتهن من جسدهنّ فاسقاتٍ فاجراتٍ وليس الذكور الّذين يستخدمونهنّ. تظهر طرفةٌ هذا التفكير: في نهاية القرن الماضي، اكتشفت الشرطة في بيت دعارةٍ فتاتين في الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمرهنّ؛ وقامت قضيةٌ شهدتا فيها وتحدثتا عن زبائنهما الّذين كانوا سادةً مهمّين؛ فتحت إحداهنّ فمها لتذكر اسمًا، فأوقفها النائب بسرعةٍ قائلًا: لا تلوثي اسم رجلٍ شريفٍ! يبقى السيّد الّذي يحمل وسام جوقة الشرف رجلًا شريفًا عندما يفضّ بكارة فتاةٍ صغيرةٍ: فلديه لحظات ضعفه، ولكن مَن ليس لديه لحظات ضعفٍ؟ بينما الفتاة الصغيرة الّتي لا تبلغ منطقة الأخلاق وليست قاضيًا ولا جنرالًا ولا فرنسيًّا عظيمًا، لا شيء سوى فتاةٍ صغيرةٍ تقامر بقيمتها الأخلاقية في المنطقة الطارئة للجنس فاسقةٌ، ضالّةٌ، فاجرةٌ تصلح للإصلاحية. يستطيع الرجل في حالاتٍ عديدةٍ دون أن يلطّخ صورته أن يرتكب بالتواطؤ مع المرأة أفعالًا تفضحها. لا تفهم جيّدًا هذه الأمور؛ ما تفهمه هو أنّ الرجل لا يتصرّف تبعًا للمبادئ الّتي يعلنها وأنّه

يطلب منها ألّا تطيعها؛ لا يريد ما يقول إنّه يريده: بالتالي لا تعطيه هي ما تتظاهر بإعطائه له. فتكون زوجةً عفيفةً ومخلصةً: وتستسلم لرغباتها سرًّا؛ وتكون أمًّا تثير الإعجاب: لكنها تمارس «تحديد النسل» بعنايةٍ وتجهض عند الحاجة. ويتنصّل منها الرجل رسميًّا، إنها قاعدة اللعبة؛ لكنّه يعترف سرًّا لهذه «بعفتها»، ولتلك بعقمها. للمرأة دور هؤلاء العملاء االسرّيين الّذين ندعهم يُقتلون بالرصاص عندما يُمسَك بهم، ويُغمرون بالمكافآت عندما ينجحون؛ عليها تحمّل كلّ لاأخلاقيات الذكور: ليس فقط المومس، بل كلّ النساء اللّواتي يُستخدمن كمجاري للقصر المتلألئ والصحّي الّذي يسكنه أناسٌ شرفاءٌ. يجب ألّا نتعجّب عندما يرفضن «المشاركة» عندما يحدّثونهنّ بعد ذلك عن الكرامة والشرف والنزاهة وكلّ الفضائل الذكوريّة السامية. ويهزأن بشكلٍ خاصٍّ عندما يأتي الذكور الفضلاء ليلومونهنّ على كونهنّ نفعيّاتٍ وممثلاتٍ وكاذباتٍ[217]: يعرفن جيّدًا أنّ لا مخرج آخر أمامهنّ. «يهتمّ» الرجل أيضًا بالمال، والنجاح: لكنّ لديه وسائل اكتسابهما بعمله؛ بينما خُصّص للمرأة دور الطفيلية: وكلّ طفيليٍّ مستغِلٌّ بالضرورة؛ فهي بحاجةٍ للذكر لتكتسب كرامةً إنسانيةً، لتأكل، لتتمتع، وتنجب؛ وتؤمّن حاجاتها عبر الجنس؛ وبما أنّها تُحبَس ضمن هذه الوظيفة، فهي بكلّيتها أداة استغلالٍ. أما بالنسبة للكذب، ففيما عدا حالة البغاء، ليس بينها وبين حاميها اتّفاقٌ صريحٌ، حتّى أنّ الرجل يطالب أن تمثّل عليه: يريدها أن تكون الآخر؛ ولكن كلّ كائنٍ مهما أنكر نفسه بحرارة يبقى ذاتًا؛ ويريدها شيئًا: فتجعل نفسها شيئًا؛ وتمارس نشاطًا حرًّا في اللحظة الّتي تجعل من نفسها فيها كائنًا؛ تلك هي خيانتها الأصلية؛ الأكثر طاعةً وسلبيّةً هي أيضًا شعورٌ؛ ويكفي أحيانًا أن يلاحظ الذكر أنها تنظر إليه وتحكم عليه وهي تمنح نفسها له كي يشعر أنّه خُدِع؛ يجب ألّا تكون سوى شيءٍ ممنوحٍ، غنيمةٍ. مع ذلك، هذا الشيء، يطلب أيضًا أن تسلمه إياه بإرادتها: يطلب منها أن تشعر بالمتعة في السرير؛ في المنزل، يجب أن تعترف صادقةً بتفوّقه وميزاته؛ عليها أن تتصنّع الاستقلال وهي تطيعه، مع أنها في لحظاتٍ أخرى تمثّل بحيويّةٍ دور السلبية. وتكذب كي تحتفظ بالرجل الّذي يؤمّن لها خبزها اليومي: شجاراتٌ ودموعٌ، وفورة حبٍّ، ونوبة عصبيّةٍ؛ وتكذب أيضًا لتهرب من الاستبداد الّذي تقبله

217- «جميعهنّ بهذا المظهر الرقيق والمتعفّف الّذي ساهم بصنعه ماضٍ من العبوديّة، دون سلاحٍ ينقذهنّ ويكسبن عيشهنّ به سوى هذا المظهر الفاتن دون قصدٍ الّذي ينتظر ساعته». جول لافورغ Jules Laforgue.

عن مصلحةٍ. ويشجعها على تمثيلياتٍ يستفيد منها تسلطه وغروره: وتوجّه نحوه قدراتها على الإخفاء؛ وهكذا تنتقم بشكلٍ لذيذٍ ومضاعفٍ: لأنها إذ تخدعه تشبع رغباتٍ خاصّةٍ وتستمتع بخداعه. تكذب الزوجة والمحظية عندما تتظاهران بنشواتٍ لا تشعران بها؛ ثم تهزآن مع عشيقٍ وصديقاتٍ من غرور الساذج الّذي يخدعنه ويقلن بحقدٍ: «لا يكتفون بعدم إشباعنا، بل يريدون أيضًا أن نتعب أنفسنا بالصراخ من المتعة». تشبه هذه الأحاديث تلك الّتي يتبادلها الخدم وهم يغتابون أسيادهم ناعتين إياهم بالقرود. للمرأة نفس العيوب لأنها ضحية نفس الاضطهاد الأبوي الشكل؛ لديها نفس التهكّم لأنها ترى الرجل من الأسفل للأعلى كما يرى الخادم سادته. لكنّ من الواضح أنّ أيًّا من هذه السمات لا تُظهر جوهرًا أو إرادةً أصليّةً فاسدةً: إنها تعكس وضعًا. يقول **فوريه** Fourier: «يوجد زيفٌ في كلّ مكانٍ يوجد فيه نظامٌ تعسّفيٌّ. لا يفترق الحظر والتهريب في الحب عنه في البضائع». ويعرف الرجال جيّدًا أنّ عيوب المرأة تُظهر وضعها بحيث يشجعون لدى رفيقتهم هذه السمات ذاتها الّتي تجعلهم يحتقرونها، لاهتمامهم بالمحافظة على ترتيب الجنسين. لا شكّ في أنّ الزوج والعشيق يثوران من عيوب المرأة الخاصّة الّتي يعيشان معها؛ مع ذلك، إذ يمتدحان محاسن الأنوثة عمومًا، يظنّان أنها لا تنفصل عن عيوبها. تفقد المرأة سحرها إذا لم تكن غادرةً، تافهةً، جبانةً، بلا إحساسٍ. في «بيت الدمية»، يشرح **هلمر** كم يشعر الرجل أنّه عادلٌ قويٌّ متفهّمٌ متسامحٌ عندما يغفر للمرأة الضعيفة أخطاءها التافهة. وهكذا يشعر أزواج **برنشتاين** Bernstein بالعطف ـ بتواطؤٍ مع المؤلف ـ نحو المرأة اللّصة الشريرة الخائنة؛ يعطون حكمتهم الذكورية قيمةً حين ينحنون نحوها بتسامحٍ. كما يتمنى العنصريون الأمريكيون والمستعمرون الفرنسيون أن يظهر الأسود لصًّا كسولًا كاذبًا: فهو يثبت بذلك دناءته؛ ويُظهر الطغاة على حقٍّ؛ إذا أصرّ على أن يكون شريفًا نزيهًا، يُنظَر إليه على أنّه ذو طبعٍ سيّءٍ. تتفاقم عيوب المرأة إذن بقدر ما تتحلّى بها ولا تحاول مكافحتها.

ليس لدى المرأة حسّ العام، فهي ترفض المبادئ المنطقيّة، والضرورات الأخلاقيّة، ولا تثق بقوانين الطبيعة؛ يبدو لها العالم كجملةٍ مشوّشةٍ من الحالات الخاصة؛ ولهذا تصدّق بسهولةٍ هذر جارةٍ أكثر من تصديقها بحثًا علميًّا؛ لا شكّ أنها تحترم الكتاب المطبوع، ولكنّ هذا الاحترام ينزلق على طول الصفحات المكتوبة دون أن يدرك محتواها: وبالعكس تكتسي

الطرفة الّتي يرويها مجهولٌ ضمن صفّ انتظارٍ أو في صالونٍ حالًا أهمّيةً ساحقةً؛ في مجالها كلّ شيءٍ سحريٌّ؛ كلّ شيءٍ في الخارج غموضٌ؛ لا تعرف معيار الاحتماليات؛ تقنعها التجربة الآنية فقط: تجربتها أو تجربة الغير، ما إن يؤكّدها بقوّةٍ كافيةٍ. أما بالنسبة لها، بما أنها معزولةٌ في منزلها لا تواجه بقية النساء بشكلٍ حيويٍّ، فهي تعتبر نفسها تلقائيًّا حالةً منفردةً؛ وتنتظر دومًا أن يقوم القدر والرجال باستثناءٍ لصالحها؛ وتؤمن بالإلهامات الّتي تخترقها أكثر من إيمانها بالتفكير العقلاني الّذي يصلح للجميع؛ وتقبل بسهولةٍ أنّها أتتها من الله أو من روحٍ غامضةٍ في العالم؛ تفكّر بهدوءٍ بشأن بعض الحوادث: «لن يحدث لي ذلك»؛ وبالعكس، تتخيّل «أنّهم سيقومون باستثناءٍ» من أجلها: فتميل إلى الامتيازات غير القانونية؛ سيمنحها التاجر تخفيضًا، وسيدعها الشرطي تمرّ دون تصريحٍ؛ علّموها أن تثمّن عاليًا قيمة ابتسامتها ونسوا أن يقولوا لها إنّ كلّ النساء يبتسمن. لا تظنّ أنّها أروع من جارتها: ولكنّها لا تقارن نفسها بأحدٍ؛ ولنفس السبب يندر أن تكذّبها التجربة: تتحمّل فشلًا، ثم آخر، لكنها لا تجمع المحصّلة.

ولهذا لا تنجح النساء في بناء «عالمٍ مقابلٍ» متينٍ يستطعن به تحدّي الذكور؛ يقمن متفرّقاتٍ بذمّ الرجال عمومًا، يروين لبعضهنّ قصص السرير والولادة، ويتبادلن قراءات الطالع ووصفات الجمال. ولكن تنقصهنّ القناعة كي يبنين حقًّا «عالم الضغينة» هذا الّذي يتمناه حقدهنّ؛ موقفهنّ من الرجل متناقضٌ أكثر مما ينبغي. هو بالفعل طفلٌ، جسدٌ طارئٌ وسريع العطب، إنّه ساذجٌ، طنّانٌ طفيليٌّ، طاغيةٌ دنيءٌ، أنانيٌّ، مغرورٌ: وهو أيضًا البطل المحرّر، الإله الّذي يوزّع القيم. رغبته شهيّةٌ فظّةٌ، عناقه مشقّةٌ مُذلّةٌ: مع ذلك يبدو الاندفاع والقوّة الذكرية أيضًا طاقةً خلّاقةً. عندما تقول امرأةٌ بنشوةٍ: «إنّه رجلٌ!» فهي تعني في الوقت نفسه القوّة الجنسيّة والفعّالية الاجتماعيّة للذكر الّذي تعجب به: تتجلّى في كلتيهما نفس السيادة الخلّاقة؛ لا تتخيّل أن يكون فنّانًا عظيمًا، أو رجل أعمالٍ كبيرًا، أو جنرالًا، أو زعيمًا، دون أن يكون عشيقًا قويًّا: فنجاحاته الاجتماعية ذات جاذبيّةٍ جنسيّةٍ دومًا؛ وبالمقابل هي مستعدّةٌ للاعتراف بعبقريّة الذكر الّذي يشبعها. هنا تسترجع أسطورةً ذكريّةً. القضيب بالنسبة لـلورنس ولكثيرين سواه طاقةٌ حيّةٌ وهو التسامي البشري. بالتالي تستطيع المرأة أن ترى في متع السرير وحدة شعورٍ مع روح العالم. بتكريسها عبادةً صوفيّةً للرجل تضيع

وتجد نفسها ثانيةً في مجده. يزول التناقض هنا بسهولةٍ بفضل تعدّد الأفراد المشاركين في الذكورة. بعضهم ـ هؤلاء الّذين تشعر أنهم عارضون في الحياة اليومية ـ هم تجسيدٌ للبؤس الإنسانيّ؛ وتتمجّد عظمة الإنسان لدى آخرين. لكنّ المرأة تقبل حتّى أن تمتزج هاتان الصورتان في واحدةٍ. كتبت فتاةٌ مغرمةٌ برجلٍ كانت تراه متفوّقًا: «إذا أصبحت مشهورةً، سيتزوجني ر.. حتمًا لأنّ ذلك سيرضي غروره؛ سينفخ صدره وهو يتنزّه متأبّطًا ذراعي». مع ذلك كانت معجبةً به إلى حدّ الجنون. نفس الفرد يمكن أن يكون بنظر المرأة بخيلًا، دنيئًا، مغرورًا، مثيرًا للسخرية، وإلهًا: فللآلهة نقاط ضعفهم بعد كلّ شيءٍ. نشعر تجاه الشخص الّذي نحبّه في حرّيته، في إنسانيته بهذه الصرامة الحازمة الّتي هي الوجه الآخر للاحترام الأصليّ؛ بينما تستطيع المرأة الراكعة أمام رجلها أن تفخر «بمعرفتها كيفية الإمساك به والتعامل معه»، ترضي «ميوله الصغيرة» مجاملةً دون أن يفقد مهابته؛ وهذا هو الدليل على أنها لا تشعر بصداقةٍ مع شخصه الخاص، كما تكتمل في أفعالٍ حقيقيّةٍ؛ تذلّ نفسها بشكلٍ أعمى أمام الجوهر العام الّذي ينتمي إليه المعبود: الذكورة هالةٌ مقدّسةٌ، قيمةٌ معطاةٌ، جامدةٌ، تتأكّد رغم صغائر الفرد الّذي يحملها؛ وهو لا يهمّ؛ بالعكس تبتهج المرأة الّتي تغار من امتيازه حين تتفوّق عليه بخبثٍ.

يظهر غموض المشاعر الّتي تحملها المرأة للرجل في موقفها من نفسها ومن العالم؛ يحاصر عالم الرجال المجال الّذي هي حبيسةٌ فيه؛ ولكن تسكنه قوىً غامضةٌ يكون الرجال أنفسهم لعبةً لها؛ فإن اتّحدت مع ميزاتها السحرية تنال السلطة بدورها. يسخّر المجتمع الطبيعة؛ لكنّ الطبيعة تسيطر عليه؛ وتتأكّد الروح فيما وراء الحياة؛ لكنّها تذوي إن لم تعد الحياة تحتملها. وتسمح المرأة لنفسها بهذا الالتباس لتضفي حقيقةً على حديقةٍ أكبر مما على مدينةٍ، على مرضٍ أكثر ممّا على فكرةٍ، على ولادةٍ أكثر ممّا على ثورةٍ؛ تبذل جهدًا في إعادة هيمنة «الأمّ» على الأرض، كما حلم **باشوفن** Baschoffen بذلك، كي تجد نفسها أساسًا أمام اللاأساس. ولكن بما أنّها، هي أيضًا، كائنٌ مسكونٌ بالتسامي، لن تستطيع رفع قيمة هذه المنطقة الّتي تقبع فيها إلّا إذا جمّلتها: فتعطيها بُعدًا متساميًا. ويعيش الرجل في عالمٍ مناسبٍ هو واقعٌ مُتصوَّرٌ. بينما تتصارع المرأة مع واقعٍ سحريٍّ لا يمكن تصوّره: فتهرب منه بأفكارٍ خاصّةٍ ذات محتوىً حقيقيٍّ. وبدل الاضطلاع بوجودها، تتأمّل في السماء فكرة

قدرها المحضة، وتقيم تمثالها بالخيال بدل أن تتصرّف؛ وتحلم بدل أن تفكّر. من هنا ينتج أنّها مصطنعةٌ بما أنّها «مادّيةٌ» بهذا القدر، وبما أنّها تنتمي للأرض بهذا القدر فهي تجعل نفسها أثيريّةً. تمضي حياتها تفرك قدورًا وتجدها قصّةً رائعةً؛ تعتقد أنها معبودة الرجل بينما هي عبدته؛ تمجّد الحب وهي مهانةٌ في جسدها. وتجعل من نفسها كاهنة المثاليّة لأنّه محكومٌ عليها بألّا تعرف سوى وجود الحياة الطارئ.

تتّضح هذه الازدواجيّة في الأسلوب الّذي تدرك المرأة فيه جسدها. إنّه عبءٌ: ينهشه النوع، وينزف كلّ شهرٍ، ويتكاثر بشكلٍ سلبيٍّ، ليس بالنسبة لها الأداة الّتي تسيطر بها على العالم ولكنه وجودٌ عاتمٌ؛ لا يؤمّن لنفسه المتعة بشكلٍ أكيدٍ ويخلق لنفسه آلامًا تمزّقه؛ ويحتوي على تهديداتٍ: تشعر أنّها في خطرٍ في «أحشائها». إنّه جسدٌ هستريائيٌّ، بسبب الصلة الحميمة بين إفرازات الغدد الصمّ والجملة العصبية والودّية الّتي تتحكّم بالعضلات والأحشاء؛ يعبّر عن ردود أفعالٍ ترفض المرأة الاضطلاع بها: يفلت منها ويخونها في النحيب، والاختلاجات، والإقياءات؛ لديه حقيقته الحميمة، ولكنّها حقيقةٌ مخزيةٌ تُبقيها مخفيّةً. ومع ذلك، فهو أيضًا نسختها الرائعة؛ تتأمله بانبهارٍ في المرآة؛ إنه يعد بالسعادة، قطعةٌ فنّيةٌ، تمثالٌ حيٌّ؛ تقولبه، وتزيّنه، وتعرضه. عندما تبتسم لنفسها في المرآة تنسى وجودها الجسدي؛ و تزول صورته في العناق الغراميّ وفي الأمومة. لكنّها غالبًا، وهي تحلم بنفسها، تتعجّب من كونها هذه البطلة وهذا الجسد في آنٍ معًا.

وتقدّم لها الطبيعة بشكلٍ منتظمٍ وجهًا مزدوجًا: فهي تغذّي الطبخة وتحثّ التدفّق الروحانيّ. عندما أصبحت المرأة ربة منزلٍ وأمًّا، تخلّت عن انطلاقاتها الحرّة في السهول والغابات، فضّلت عليها الزراعة الهادئة لحديقة الخضار، لقد دجنت الزهور ووضعتها في آنيةٍ: مع ذلك تتحمّس أيضًا أمام ضوء القمر ومغيب الشمس. ترى في نباتات الأرض قبل كلّ شيءٍ أغذيةً وزينةً؛ مع ذلك يجري فيها نسغٌ كريمٌ سحريٌّ. الحياة ليست فقط مثوليّةً وتكرارًا: فلديها أيضًا وجهٌ باهرٌ من النور؛ في البراري المزهرة تبدو جمالًا.

تشعر المرأة أن النسمة هي روحٌ تحركها، ممنوحةٌ للطبيعة عبر خصوبة بطنها. وبقدر ما تبقى غير راضيةٍ، وتشعر أنها كالفتاة الشابة غير المكتملة، اللامحدودة، تغرق روحها أيضًا

في دروبٍ لا تنتهي، نحو آفاقٍ لا حدود لها. عبدةٌ للزوج والأطفال والمنزل، وتنتشي عندما تبقى وحدها، سيّدةٌ على سفوح التلال؛ لم تعد زوجةً وأمًّا وربة منزلٍ ولكنها إنسانٌ؛ تتأمل العالم السلبي: وتتذكر أنّها شعورٌ وحرّيةٌ لا يمكن اختزالها. ويزول تفوّق الذكر أمام غموض الماء، واندفاع القمم. وعندما تسير عبر نباتات الخلنج، عندما تغمس يدها في الجدول، لا تعيش من أجل الآخرين، ولكن من أجل ذاتها. المرأة الّتي حافظت على استقلالها عبر كلّ هذه العبوديات تحبّ في الطبيعة حرّيتها. بينما تجد الأخريات فيها فقط نشواتٍ متميّزةً؛ ويتردّدن في الغروب بين القلق من الإصابة بالزكام ونشوة الروح.

هذا الانتماء المزدوج للعالم الجسدي ولعالمٍ «شاعريٍّ» يحدّد ما وراء الطبيعة، الحكمة الّتي تنتمي إليها المرأة بشكلٍ واضحٍ قليلًا أو كثيرًا. وتبذل جهدًا في خلط الحياة والتسامي؛ ما يعني أنّها ترفض الديكارتيّة وكلّ المذاهب الّتي تماثلها؛ وتجد نفسها مرتاحةً ضمن طبيعيّةٍ مشابهةٍ لطبيعيّة الرواقيين أو أفلاطونيي القرن السادس عشر الجدد: من غير المدهش أنّ النساء، وعلى رأسهنّ **مرغريت دونافار**، متعلّقاتٌ بفلسفةٍ مادّيةٍ وروحانيةٍ بهذا القدر في آنٍ واحدٍ. المرأة المانويّة اجتماعيًّا بحاجةٍ عميقةٍ لأن تكون متفائلةً أنطولوجيًّا: لا تناسبها أخلاقيات العمل بما أنّها ممنوعةٌ من التصرّف؛ فهي تخضع للمعطى: يجب بالتالي أن يكون المعطى هو الخير؛ لكنّ خيرًا يُعتَرف به بالعقل كخير **سبينوزا** Spinoza، أو بالحساب مثل خير **ليبنيز** Leibniz لا يؤثّر بها. تطالب بخيرٍ يكون انسجامًا حيًّا تقع ضمنه من خلال العيش فقط. ومفهوم الانسجام هو أحد مفاتيح العالم الأنثويّ: فهو يفترض الكمال ضمن السكون، والتبرير الآنيّ لكلّ عنصرٍ انطلاقًا من الكلّ ومساهمته السلبية في المجموع. بهذا تبلغ المرأة في عالمٍ منسجمٍ ما يبحث عنه الرجل ضمن الفعل: فتتجاوز العالم، ويطلبها، وتساهم في انتصار الخير. الأوقات الّتي تعتبرها المرأة وحيًا هي تلك الّتي تكتشف فيها تطابقها مع واقعٍ يستند بسلامٍ إلى ذاته: إنها أوقات السعادة المتألّقة هذه الّتي تمنحها **ف. وولف** V.Woolf لبطلاتها كمكافأةٍ فائقةٍ، في **السيدة دالواي**، وفي **نزهة إلى المنارة**، و **ك. مانسفيلد** K.Mansfield في كتبها. الفرح الّذي هو قفزة حرّيةٍ مقصورٌ على الرجل؛ بينما تعيش المرأة انطباعًا باكتمالٍ هانئٍ[218]. نفهم أن تأخذ طمأنينة النفس البسيطة في نظرها

218- بين مجموعةٍ من النصوص، سأذكر هذه السطور لميبل دودج Mabel Dodge حيث العبور إلى رؤيةٍ شاملةٍ =

قيمةً عاليةً بما أنها تعيش عادةً ضمن توتّر الرفض والتجريم والمطالبات؛ ولا يمكن لومها على تذوّق عصرٍ جميلٍ أو نعومة مساءٍ. ولكن من الخطأ أن نبحث ضمن ذلك عن التعريف الحقيقي لروح العالم المخبأة. الخير ليس موجودًا؛ والعالم ليس انسجامًا ولا يوجد لأيّ فردٍ مكانٌ ضروريٌّ فيه.

هناك تبريرٌ، معاوضةٌ فائقةٌ عمل المجتمع دومًا على توزيعها على المرأة: هي الدين. الدين لازمٌ للنساء كما هو لازمٌ للشعب، لنفس الأسباب تمامًا: عندما نحكم على جنسٍ أو طبقةٍ بالمثولية، من الضروري أن نقدّم له وهم تسامٍ. للرجل مصلحةٌ في تحميل إلهٍ مسؤولية كلّ القوانين الّتي يصنعها: وخصوصًا بما أنه يمارس على المرأة سلطةً مطلقةً، فمن الحسن أن يكون الكائن الأعظم هو من منحه هذه السلطة. لدى اليهود والمحمديين والمسيحيين وسواهم، الرجل هو السيّد بفعل الحقّ الإلهيّ: الخوف من الله يخنق لدى المضطهَدة كلّ بذرة ثورةٍ. ويمكن الاعتماد على سذاجتها. تتبنّى المرأة أمام العالم الذكري موقف الاحترام والثقة: يبدو لها الله في سمائه بالكاد أقلّ بعدًا من وزيرٍ ويشبه غموض التكوين غموض المحطات الكهربائية. ولكن على وجه الخصوص إذا ارتمت بمحض إرادتها على الدين، فلأنّه يشبع لديها حاجةً عميقةً. يبدو أداة خداعٍ أكثر منه أداة ضغطٍ في الحضارة الحديثة الّتي تمنح الحرّية قيمةً مميّزةً حتّى لدى المرأة... يُطلب من المرأة أن تعتقد أنها بفضل الله مساويةٌ للذكر السيّد أكثر مما يُطلب منها أن تقبل دونيتها باسم الله؛ وتُلغى حتّى محاولة الثورة مدّعين إزالة الظلم. فلم تعد المرأة محرومةً من تساميها بما أنها ستوجّه مثوليتها لله؛ تقاس حسنات الأرواح فقط في السماء وليس بعملها على الأرض؛ هنا في الأسفل، لا يوجد أبدًا سوى انشغالاتٍ، حسب كلمة دوستويفسكي: تلميع الأحذية أو بناء جسرٍ، نفس التفاهة؛ أعيدت مساواة الجنسين فيما بعد التمييزات الاجتماعية. ولهذا ترتمي الفتاة الصغيرة والمراهقة في التّقى بحماسةٍ أكبر بكثيرٍ من إخوتها؛ نظرة الله الّتي تتجاوز تسامي

= للعالم غير واضح ولكنه مفترضٌ بوضوحٍ: «كان يومًا خريفيًا هادئًا ذهبيًا وأرجوانيًا. كنا ننتخب الثمار فريدا وأنا جالستين على الأرض، والتفاح الأحمر مكوّم حولنا. قمنا باستراحةٍ. كانت الشمس والأرض الخصبة تدفئاننا وتعطراننا، وكانت التفاحات علاماتٍ حيّةً على الإشباع والسلام والوفرة. كانت الأرض تفيض بنسغٍ كان يسيل أيضًا في عروقنا، وكنا نشعر أننا مرحتان حرّتان محمّلتان بثرواتٍ كالبساتين. وحّدنا للحظةٍ هذا الشعور الذي تشعر به النساء بأنهنّ كاملاتٌ، مكتفياتٌ، والّذي كان نابعًا من صحتنا الغنية والسعيدة».

الشاب تذلّه: يبقى للأبد طفلًا تحت هذه الوصاية القويّة، إنه إخصاءٌ أكثر جذريةً من الإخصاء الّذي يشعر أنه يتهدّده بوجود أبيه. بينما تجد «الطفلة الأزلية» خلاصها في هذه النظرة الّتي تحوّلها إلى أختٍ للملائكة؛ إنها تلغي امتياز القضيب. يساعد الإيمان الصادق البنت في تفادي كل مركب نقصٍ: فهي ليست ذكرًا ولا أنثى، ولكن من مخلوقات الله. لهذا نجد في كثيرٍ من القديسات العظيمات حزمًا ذكوريًّا: كانت القديسة **بريجيت**، والقديسة **كاترين دو سيين** تطالبان بغطرسةٍ بحكم العالم؛ لم تكونا تعترفان بأيّة سلطةٍ ذكوريّةٍ: حتّى أنّ **كاترين** كانت تعامل مدرائها بصرامةٍ؛ وتابعت **جان دارك** والقديسة **تيريز** طريقهما ببسالةٍ فاقت كل بسالة الرجال. وعملت الكنيسة على ألّا يسمح الله أبدًا للنساء بالتملّص من وصاية الذكور؛ فوضعت حصريًّا بين أيدي الذكور هذه الأسلحة المخيفة: رفض الغفران، والتحريم؛ وأُحرقت **جان دارك** إذ أصرّت على رؤاها. مع ذلك، رغم أنّ المرأة خاضعةٌ بإرادة الله نفسه لقوانين الرجال، فهي تجد فيه ملاذًا حصينًا ضدهم. ترفض الطقوس الدينية المنطق الذكوري؛ ويصبح غرور الذكور خطيئةً، وهياجهم ذنبًا وليس فقط أمرًا غير مفهومٍ: لماذا نقولب من جديدٍ هذا العالم الّذي خلقه الله ذاته؟ السلبية الّتي تُكرَّس لها المرأة مقدّسةٌ. وهي تسبّح بمسبحتها قرب النار، تعرف أنها أقرب إلى السماء من زوجها الّذي يتردّد على الاجتماعات السياسية. ليست بحاجةٍ للقيام بشيءٍ لخلاص روحها، يكفي أن تعيش دون أن تعصي. تمّ تركيب الحياة والفكر: لا تلد الأم جسدًا فقط، إنها تمنح الله روحًا؛ وهو عملٌ أسمى من اكتشاف أسرار الذرّة التافهة. بتواطؤٍ من الأب السماوي تستطيع المرأة أن تطالب الرجل بثقةٍ بتمجيد أنوثتها.

بذلك لا يعيد الله كرامة الجنس المؤنث فقط، ولكنّ ستجد كلّ امرأةٍ في السماء دعمًا خاصًّا؛ ليس لها وزنٌ كبيرٌ كإنسانٍ؛ ولكن ما إن تتصرّف باسم وحيٍ إلهيٍّ، حتى تصبح رغباتها مقدّسةً. تقول السيدة «**غيون**» أنها تعلّمت من مرض راهبةٍ «كيف يكون الأمر والطاعة بالكلمة الإلهية نفسها»؛ وهكذا تخفي الورعة سلطتها خلف طاعةٍ مستكينةٍ؛ بتربيتها أطفالها، أو بإدارتها ديرًا، أو بتنظيمها عملًا، ليست سوى أداةٍ مطيعةٍ بين أيدٍ فوق الطبيعة؛ لا يمكن عصيانها دون إهانة الرب نفسه. بالتأكيد لا يرفض الرجال كذلك هذا الدعم؛ لكنه ليس دعمًا متينًا عندما يواجهون أشباههم الّذين يتمتّعون بنفس الدعم: ويُحسم الصراع

على الصعيد البشريّ. تبتهل المرأة للإرادة الإلهيّة كي تبرّر سلطتها في نظر هؤلاء الّذين هم أصلًا تابعين لها، كي تبررها في نظر نفسها. إذا كان هذا التعاون مفيدًا لها بهذا القدر فلأنّها مشغولةً خصوصًا بعلاقاتها مع نفسها، حتّى عند علاقاتها بالغير؛ في هذه الصراعات الداخلية فقط يكون للصمت المطلق قوّة القانون. في الحقيقة، تتعلّل المرأة بالدين لتلبية رغباتها. باردةً، مازوشيّةً، ساديّةً، تطهّر نفسها بالتخلّي عن الجنس، بلعب دور الضحيّة، بخنق كلّ اندفاعٍ حيٍّ حولها؛ عندما تبتر ذاتها أو تلغيها تكسب مراتب في مواضع المختارين؛ عندما تعذّب الزوج والأطفال، بحرمانهم من كلّ سعادةٍ أرضيّةٍ تهيّئ لهم مكانًا مختارًا في الجنّة؛ تقول لنا المذكّرات التقيّة لـ**مارغريت دو كورتون** أنّها «كي تعاقب نفسها على خطاياها، كانت تعامل طفل خطيئتها بقسوةٍ؛ لم تكن تمنحه طعامًا إلّا بعد أن تطعم كلّ المتسوّلين العابرين؛ كره الطفل غير المرغوب به شائعٌ كما رأينا: إنها نعمةٌ أن تستطيع القيام به بهذا الاندفاع الورع. تتدبّر المرأة ذات الأخلاق المتساهلة أمرها مع الله بما يناسبها؛ وثقة المرأة الورعة بأنّ الغفران سيطهّرها غدأ من الخطيئة تساعدها غالبًا في التغلّب على هواجسها. سواءً اختارت الزهد أو الشهوانية، الغرور أو التواضع، يشجعها قلقها على خلاصها على الاستغراق في هذه المتعة الّتي تفضلها على كلّ ما سواها: أن تهتم بنفسها؛ فتصغي لنبضات قلبها، وتتقفّى انتفاضات جسدها، يبرّرها وجود النعمة فيها كما يبرّر وجود الجنين المرأة الحامل. لا تفحص نفسها فقط بانتباهٍ رقيقٍ، لكنّها تروي قصصها للمدير؛ كانت تنتشي فيما مضى باعترافاتٍ عامةٍ. يروى لنا أن **مارغريت دو كورتون** كي تعاقب نفسها على تصرّف غرورٍ صعدت على سطح منزلها وراحت تطلق صيحاتٍ كامرأةٍ تلد: «انهضوا يا سكان كورتون، انهضوا حاملين شموعًا ومصابيح واخرجوا لتسمعوا الخاطئة»! وكانت تعدّد كل خطاياها، تعلن مأساتها صارخةً حتى النجوم. كانت ترضي بهذا الإذلال الصارخ تلك الحاجة للاستعراض الّتي نجد أمثلةً عديدةً عليها لدى النساء النرجسيّات. تسمح الديانة للمرأة بالإعجاب بنفسها؛ تعطيها الدليل والأب والعشيق والحماية الإلهية الّتي تشعر بحاجةٍ يشوبها الحنين إليها؛ إنها تغذّي تخيّلاتها؛ وتشغل أوقات فراغها. لكنّها تؤكّد بشكلٍ خاصٍّ نظام العالم، وتبرّر الخنوع بإعطائها أملًا بمستقبلٍ أفضل في سماءٍ لا جنس لها. ولهذا ما تزال النساء اليوم بين يدي الكنيسة وسيلةً قويّةً؛ ولهذا تعادي الكنيسة بشدّةٍ

كلّ إجراءٍ يمكن أن يسهّل تحريرهنّ. الدين ضروريٌّ للنساء: والنساء، «النساء الحقيقيات»، ضرورياتٌ لاستمرار الدين.

نرى أنّ وضع المرأة يفسّر مجمل «صفاتها»: معتقداتها، قيمها، حكمتها، أخلاقها، ميولها، سلوكها. يحول عادةً منعها من التسامي بينها وبين بلوغ أعلى المواقف الإنسانية: البطولة، والثورة، والتجرّد، والابتكار، والإبداع؛ ولكنّها ليست شائعةً حتّى لدى الذكور. هناك كثيرٌ من الرجال القابعين كالمرأة في المجال الوسيط، اللاأساس، العادي؛ يهرب منه العامل عبر العمل السياسي معبّرًا عن إرادةٍ ثوريّةٍ؛ لكن يبقى فيه رجال الطبقات الّتي تسمّى «وسطى» بمحض إرادتهم؛ لا يملك الموظّف والتاجر والبيروقراطيّ أيّة فوقيّةٍ على رفيقاتهم، مكرّسين كالمرأة لتكرار المهامّ اليومية، مرتهَنين في قيمٍ جاهزةٍ، محترمين للرأي العام، لا يبحثون على الأرض سوى عن رفاهيةٍ مبهمةٍ؛ حين تطهو المرأة وتغسل وتدير منزلها وتربي أطفالها، تبدي مبادرةً واستقلالًا أكثر من الرجل الخاضع للتعليمات؛ فعليه طول اليوم إطاعة رؤسائه، وارتداء قبّةٍ مزيّفةٍ وتأكيد طبقته الاجتماعية؛ بينما يمكنها هي أن تتجوّل برداء الاستحمام في شقتها، وتغني، وتضحك مع جاراتها: فتتصرّف على هواها، ولا تخاطر كثيرًا، وتحاول بلوغ بعض النتائج بشكلٍ فعّالٍ. تعيش أقل من زوجها ضمن الأعراف والمظاهر. العالم البيروقراطي الّذي وصفه **كافكا** Hafka، هذا العالم المكوّن من الطقوس، والحركات المبهمة، والسلوكات الّتي لا هدف منها، هو ذكوريٌّ أساسًا؛ بينما تميل هي إلى الواقع أكثر؛ عندما يصفّ أرقامًا أو يحوّل علب سردينٍ إلى عملةٍ فهو لا يدرك سوى المجرّد؛ بينما الطفل الشبعان في مهده، والغسيل الأبيض، والشواء، أشياء حقيقيةٌ أكثر؛ مع ذلك، وتحديدًا لأنّها تشعر في متابعتها لهذه الأهداف بوجودها، وبالتالي بوجودها هي، يحدث غالبًا ألّا تُستَلب فيها: فتبقى حرّةً. أعمال الرجل هي في الوقت نفسه مشاريع وتهرّبٌ: يترك حياته المهنية وشخصيّته تنهشانه؛ فهو مهمٌّ وجدّيٌّ عن طيب خاطرٍ؛ ولا تقع هي في مثل هذه الشراك لأنها تنكر المنطق والعرف الذكوريين: هذا ما كان ستندال يتذوّقه لديها بقوّةٍ؛ وهي لا تتجنّب التباس وضعها بالغرور؛ لا تتهرّب وراء قناع الكرامة البشرية؛ تكتشف بصراحةٍ أكبر أفكارها غير المنتظمة، وانفعالاتها، وردود فعلها التلقائية. ولهذا حديثها أقل إحداثًا للملل من حديث زوجها، حين تتحدّث باسمها الخاص وليس كالنصف

المخلص لسيّدها؛ وتروي أفكارًا عامّةً كما يقال، أي كلماتٍ وجملًا نجدها في مذكراتها أو في مؤلفاتٍ متخصّصةٍ؛ تحكي عن تجربةٍ محدودةٍ لكنّها حقيقيّةٌ. في «الحساسية الأنثوية» الشهيرة شيءٌ من الأسطورة، شيءٌ من التمثيل؛ لكن الأمر أيضًا أن المرأة أكثر اهتمامًا من الرجل بنفسها وبالعالم. من ناحية الجنس تعيش في مناخٍ ذكوريٍّ خشنٍ: ولتعوّض ذلك لديها ميلٌ إلى «الأشياء الجميلة»، ما يمكنه أن يولد لطفًا متكلّفًا ولكن رقّةً أيضًا؛ تبدو لها الأشياء الّتي تبلغها ثمينةً لأن مجالها محصورٌ: فتكشف ثرواتها إذ لا تسجنها ضمن المفاهيم ولا ضمن المشاريع؛ وتتجلّى رغبتها في الانطلاق في ميلها للاحتفال: فتُفتن بباقة زهورٍ بسيطةٍ، بحلوى، بمائدةٍ مرتّبةٍ، وتُسرُّ بتحويل أوقات فراغها إلى عطايا سخيّةٍ؛ وهي تحب الضحك، والأغاني، والزينة، والتحف، وهي مستعدّةٌ كذلك لاستقبال كلّ ما يخفق حولها: مشهد الشارع، والسماء؛ تَفتح لها دعوةٌ أو خروجٌ آفاقًا جديدةً؛ يرفض الرجل غالبًا المشاركة في هذه المتع؛ عندما يدخل إلى المنزل، تصمت الأصوات المرحة، وتأخذ نساء الأسرة الهيئة الضجرة والمحتشمة الّتي ينتظرها منهنّ. تأخذ المرأة معنى خصوصيّة حياتها من قلب الوحدة والافتراق: فلديها تجربةٌ حميمةٌ أكثر من الرجل عن الماضي، والموت، ومرور الزمن: وتهتمّ بمغامرات قلبها وجسدها وفكرها لأنها تعرف أنّها نصيبها الوحيد على الأرض؛ وكذلك، بما أنها سلبيةٌ، تخضع للواقع الّذي يغمرها بطريقةٍ أكثر شغفًا، أكثر تأثّرًا من الشخص المستغرق في طموحٍ أو مهنةٍ؛ لديها الوقت والميل إلى أن تستسلم لانفعالاتها، وتدرس أحاسيسها وتستخرج منها معناها. عندما لا يتوه خيالها في أحلامٍ عبثيّةٍ، يصبح تعاطفًا: تحاول فهم الغير في خصوصيته وإعادة صنعه فيها؛ وهي قادرةٌ على تحقيق ذاتٍ حقيقيٍّ تجاه زوجها أوحبيبها: فتجعل مشاريعه مشاريعها وهمومه همومها بطريقةٍ لا يجاريها بها. وتمنح العالم كلّه انتباهها القلق؛ يبدو لها لغزًا، و قد يكون كلّ كائنٍ وكلّ شيءٍ جوابًا؛ وهي تطرح أسئلةً بالطبع. عندما تشيخ، ينقلب انتظارها الخائب إلى سخريةٍ وتهكّمٍ يلذّ لها تذوقهما؛ فترفض الخدع الذكوريّة، وترى الخلفية الطارئة المبهمة اللانفعية للصرح الضخم الّذي بناه الذكور. تمنعها تبعيتها من اللامبالاة؛ ولكنّها تأخذ أحيانًا من التفاني المفروض عليها كرمًا حقيقيًّا؛ فتنسى نفسها لصالح الزوج والحبيب والطفل، وتكفّ عن التفكير في نفسها، فتغدو بكلّيتها عطاءً ومنحًا. وبما أنها غير متأقلمةٍ جيّدًا مع مجتمع الرجال، فهي

غالبًا مرغمةً على ابتكار سلوكها بنفسها؛ ولا يمكنها الاكتفاء بوصفاتٍ جاهزةٍ، وكليشيهاتٍ؛ إن كانت راضيةً، فلديها قلقٌ أقرب إلى الأصالة من اعتداد زوجها الكبير.

لكن لن تكون لها هذه الامتيازات على الذكر إلّا بشرط رفض الخدع الّتي يعرضها عليها. في الطبقات العليا، تجعل النساء من أنفسهنّ شريكاتٍ متحمّساتٍ لسادتهنّ لأنّهنّ يحرصن على الاستفادة من المزايا الّتي يؤمنونها لهنّ. رأينا أنّ البرجوازيات الكبيرات، والأرستقراطيات، يدافعن دومًا عن مصالحهنّ الطبقيّة بعنادٍ أكثر من أزواجهنّ أيضًا: فهنّ لا يتردّدن في التضحية لأجلهم باستقلاليتهنّ كإنسانٍ؛ ويخنقن لديهنّ كل تفكيرٍ، وكلّ حكمٍ نقديٍّ، وكلّ اندفاعٍ تلقائيٍّ؛ ويكرّرن كالببغاء الآراء المقبولة، ويمتزجن بالمثال الّذي يفرضه عليهنّ التشريع الذكوريّ؛ يموت كلّ صدقٍ في قلوبهنّ وحتّى على وجوههنّ. تجد ربّة المنزل استقلالًا في عملها، في العناية بالأطفال، فتأخذ منهما خبرةً محدودةً إنّما ملموسةً، بينما لم يعد لتلك الّتي «يخدمها آخرون» أيّ تأثيرٍ على العالم؛ فهي تعيش في الحلم والتجريد، في الفراغ. لا تعرف مدى الأفكار الّتي تعلنها؛ فقدت الكلمات الّتي تنطقها كلّ معانيها في فمها؛ قد يتحمّل رجل المال والصناعي وحتى الجنرال أحيانًا متاعب وهمومًا ومخاطراتٍ؛ ويشترون امتيازاتهم بسعرٍ غير منصفٍ، لكنهم على الأقل يدفعون بأنفسهم؛ أمّا زوجاتهم فلا يعطين شيئًا مقابل كلّ ما يأخذنه، ولا يعملن شيئًا؛ ويعتقدن بإيمانٍ أعمى بحقوقهنّ الّتي لا يمحوها الزمن. غطرستهنّ العبثية، وعجزهنّ المطلق، وجهلهنّ العنيد، تجعل منهنّ كائناتٍ لا فائدة منها، أقلّ ما أنتجه الجنس البشري كفاءةً.

إذن من العبث كذلك أن نتحدث عن «المرأة» عمومًا بقدر ما نفعل عن «الرجل» الأزلي. ونفهم لماذا هي فارغةٌ كلّ المقارنات الّتي يبذلون فيها جهدًا في تقرير ما إذا كانت المرأة أعلى أو أدنى من الرجل أو مساويةً له: فوضعهما مختلفٌ بشكلٍ عميقٍ. إذا قارنّا هذين الوضعين، من الجليّ أن وضع الرجل مفضّلٌ بشكلٍ أكبر بكثيرٍ، أي أنّ لديه إمكانيّاتٍ ملموسةً أكثر بكثيرٍ في إسقاط حرّيته على العالم؛ ينتج عن ذلك بالضرورة أنّ ما يحققه الرجال يفوّق كثيرًا ما تحقّقه النساء: ممنوع عليهنّ تقريبًا فعل أيّ شيءٍ. مع ذلك، مقارنة استعمال الرجال والنساء لحريّتهم ضمن حدودها هو محاولةٌ لا معنى لها، بما أنّهم يستخدمونها بشكلٍ حرٍّ. بأشكالٍ شتّى، يقعون جميعًا في فخّ سوء النية، وخدعات الجدّية؛ الحرية كاملةٌ

لدى كل واحدٍ. وفقط لأنها تظلّ لدى المرأة مجرّدةً وفارغةً، فهي لا تحمل مسؤوليتها بشكلٍ أصليٍّ إلّا بالثورة: ذلك هو الطريق الوحيد المفتوح أمام هؤلاء الّذين ليس لديهم إمكانية بناء شيءٍ؛ يجب أن يرفضوا حدود وضعهم ويحاولوا أن يشقوا طرقًا لهم نحو المستقبل؛ فالخنوع ليس سوى انسحابٍ وهروبٍ؛ ولا يوجد للمرأة مخرجٌ آخر سوى أن تعمل على أن تتحرّر.

لا يكون هذا التحرّر إلّا جماعيًّا، ويستدعي قبل كلّ شيءٍ أن يكتمل التطوّر الاقتصاديّ للوضع النسائي. مع ذلك كان هناك وما يزال العديد من النساء اللّواتي يحاولن بشكلٍ إفراديٍّ تحقيق خلاصهنّ الشخصي. يحاولن تبرير وجودهنّ ضمن مثوليتهنّ، أي تحقيق التسامي ضمن المثولية. هذا الجهد النهائيّ ـ السخيف أحيانًا، والمؤثر غالبًا ـ للمرأة السجينة لقلب سجنها إلى سماءٍ من المجد، وعبوديتها إلى حريةٍ سيّدةٍ نجده لدى النرجسيّة ولدى العاشقة والصوفيّة.

القسم الثالث

التبريرات

الفصل الحادي عشر

النرجسية

زعموا أحيانًا أنّ النرجسيّة كانت الموقف الأساسي لكل امرأةٍ[219]؛ ولكن إن بسطنا هذا المفهوم بشكلٍ مبالغٍ به فسنقوّضه كما قوّض **لاروشفوكو** La Rochefoucauld مفهوم الأنانية. في الواقع إنّ النرجسية عملية استلابٍ محدّدةٌ: الأنا مطروحةٌ كغايةٍ مطلقةٍ ويتهرّب الشخص من نفسه فيها. تُصادف كثيرٌ من المواقف الأخرى ـ الأصليّة أو غير الأصليّة ـ لدى المرأة: سبق أن درسنا منها بعض الحالات. ما هو حقيقيٌّ، هو أنّ الظروف تدعو المرأة أكثر من الرجل إلى الالتفات إلى الذات وتكريس حبها لنفسها.

يتطلّب كلّ حبٍّ ثنائيّة ذاتٍ وموضوعٍ. تُقاد المرأة إلى النرجسية بطريقين متقاربتين. تشعر أنها مكبوتةٌ كذاتٍ؛ عندما كانت فتاةً صغيرةً كانت محرومةً من هذه *الأنا الأخرى* الّتي يكونها القضيب بالنسبة للصبي؛ فيما بعد تبقى شهوانيتها المثيرة غير مشبعةٍ. وما هو أكثر أهميةً بكثيرٍ، أنها ممنوعةٌ من الأنشطة الذكورية. إنها تشغل نفسها، لكنها لا تفعل شيئًا؛ لا يُعتَرف بها في خصوصيتها من خلال مهامها كزوجةٍ وأمٍّ وربة منزلٍ. حقيقة الرجل هي في المنازل الّتي يبنيها، والغابات الّتي يستصلحها، والأمراض الّتي يشفيها: وبما أنّ المرأة لا

219- راجع هيلين دويتش، سيكولوجية النساء.

تستطيع أن تكتمل من خلال مشاريع وغاياتٍ، فهي تبذل جهدًا في فهم نفسها ضمن مثولية شخصها. كتبت ماري بشكيرتسف ساخرةً من كلام سييس[220]: «من أنا؟ لا شيء. ماذا أودّ أن أكون؟ كلّ شيءٍ». تقصر العديد من النساء اهتمامهنّ بشدّةٍ على أناهنّ وحدها لأنّهنّ لا شيء، ويضخّمنها بحيث لم تعد تتميَّز عن الكلّ. قالت ماري بشكيرتسف أيضًا: «أنا بطلتي الخاصة». الرجل الّذي يفعل يواجه نفسه حتمًا. والمرأة غير الفعّالة، المنفصلة، لا تستطيع أن تعرف موقعها ولا قدرها، فتعطي نفسها أهميّةً كبيرةً لأنّها لا تصل إلى أيّ شيءٍ هامٍّ.

إن استطاعت بذلك أن تكون موضع رغباتها الخاصّة، فذلك لأنّها منذ الطفولة بدت لنفسها شيئًا. شجعتها تربيتها على الارتهان في جسدها بأكمله، كشف لها البلوغ هذا الجسد سلبيًّا ومرغوبًا؛ وهو شيءٌ يمكنها أن تدير نحوه يديها اللّتين يثيرهما الساتان والمخمل وتستطيع أن تتأمله بنظرة العاشق. يحدث عند ممارسة العادة السريّة أن تنقسم المرأة إلى جزأين: ذاتٍ مذكّرةٍ وموضوعٍ مؤنثٍ؛ وهكذا كانت إيرين الّتي درس حالتها دالبيز Dalbiez[221] تقول لنفسها: «سأحبّ نفسي» أو بشغفٍ أكبر: «سأمتلك نفسي» أو في ذروة الانفعال: «سألقّح نفسي». ماري بشكيرتسف هي في الوقت نفسه ذاتٌ وموضوعٌ عندما تكتب: «مع ذلك من المؤسف أن لا يرى أحدٌ ذراعيّ وصدري، كلّ هذه النضارة وكلّ هذا الشباب».

في الحقيقة، من غير الممكن أن يكون المرء لنفسه آخر بشكلٍ إيجابيٍّ، وأن يدرك نفسه على ضوء الشعور كشيءٍ. الازدواج حلمٌ فقط. تجسّد الدمية للطفلة هذا الحلم؛ فهي ترى نفسها فيها بشكلٍ محسوسٍ أكثر مما في جسدها ذاته لأنّ هناك انفصالًا بينهما. هذه الحاجة إلى أن تكون اثنتين كي تقيم بين الواحدة والأخرى حوارًا رقيقًا، عبّرت عنها السيدة دونواي في «كتاب حياتي».

> كنت أحبّ الدمى، كنت أعير جمودها حيوية وجودي؛ لم أنم تحت دفء غطاءٍ دون أن أدثّرها هي أيضًا بالصوف... كنت أحلم بالاستمتاع حقًّا بالوحدة المزدوجة... هذه

220- Sieyès راهب وسياسي في القرن السابع عشر (المترجمة).

221- التحليل النفسي. في طفولتها كانت إيرين تحبّ أن تتبوّل كالصبيان؛ تحلم غالبًا أنها حوريّة بحرٍ، ما يؤكّد أفكار هافلوك إليس Havelock Ellis حول علاقة النرجسيّة بما يسميه «مرض حوريات البحر»، أي نوع من الشهوانية البولية.

> **الحاجة للبقاء سليمةً، أن أكون أنا نفسي مرّتين، كنت أشعر بها بشرهٍ في طفولتي... آه! كم تمنيت في اللّحظات المأساويّة الّتي كانت فيها رقّتي الحالمة نهبًا للدموع الجارحة أن تكون إلى جانبي «أنا»، صغيرةٌ أخرى تلقي بذراعيها حول عنقي، وتواسيني، وتفهمني... خلال حياتي، كنت أصادفها داخل قلبي وأمسكها بشدّةٍ: أسعفتني ليس بالمواساة الّتي كنت آمل بها، ولكنّها أمدّتني بالشجاعة.**

تترك المراهقة دُماها تنام. ولكنّ المرأة، طول حياتها، تستعين بسحر المرآة في عملها على الانفصال والاتصال بنفسها. أوضح رانك Rank العلاقة بين المرآة والنسخة في الأساطير والأحلام. يتمثّل الانعكاس في الأنا خصوصًا في حالة المرأة. فالجمال الذكوري هو مشعرٌ للتسامي، ولجمال المرأة سلبيّة المثولية: الثاني وحده مصنوعٌ ليجتذب الأنظار وبالتالي كي تقع في فخ المرآة الجامد؛ الرجل الّذي يشعر ويريد أن يكون نشيطًا، ذاتًا، لا يتعرّف على نفسه في صورته الجامدة؛ لا تجذبه البتّة، بما أنّ جسد الرجل لا يبدو له موضوع رغبةٍ؛ بينما المرأة إذ تعرف وتجعل من نفسها شيئًا تعتقد حقًّا أنّها ترى نفسها في المرآة: الانعكاس شيءٌ مثلها، سلبيٌّ ومعطىً؛ وبما أنّها تشتهي الجسد الأنثوي، جسدها، تحرّك بإعجابها ورغبتها الفضائل الجامدة الّتي تراها. تبوح لنا السيّدة دونواي ذات الخبرة في هذا الشأن بما يلي:

> **كنت أقل زهوًا بمواهبي الفكريّة الكبيرة الّتي لم أشكّك بها قطّ، منّي بالصورة الّتي تعكسها لي مرآةٌ طالما كنت أحدّق بها... المتعة الجسدية وحدها ترضي الروح بشكلٍ كاملٍ.**

كلمات «المتعة الجسديّة» هنا مبهمةٌ وعامّةٌ. ما يرضي الروح هو أنّ الوجه الّذي نتأمّله موجودٌ، اليوم، معطىً، جازمًا، بينما على الفكر إثبات نفسه. كلّ المستقبل مجموعٌ هنا في هذه المساحة من النور الّتي يجعل منها الإطار عالمًا؛ ليست الأشياء سوى تشوّشٍ فوضويٍّ خارج هذه الحدود الضيّقة؛ ويصغر العالم ليبلغ حجم قطعة الزجاج هذه الّتي تتألّق فيها صورةٌ: الصورة الوحيدة. تسود كلّ امرأةٍ غارقةٍ في صورها على المكان والزمان، وحدها، ملكةً؛ لديها كلّ الحقوق على الرجال وعلى الثروة والمجد والشهوانية. كانت ماري بشكيرتسف مفتونةً بجمالها بحيث كانت تريد تثبيته في رخامٍ لا يفنى؛ بذلك تكرّس ذاتها للخلود:

لدى عودتي كنت أخلع ملابسي، وأقف عاريةً مسحورةً بجمال جسدي كما لو كنت أراه للمرة الأولى. يجب صنع تمثالٍ لي، ولكن كيف؟ هذا مستحيلٌ تقريبًا إن لم أتزوّج. ويجب قطعًا أن أجد زوجًا، حتّى لو لم يكن ذلك إلّا من أجل صنع تمثالي.

وتصف **سيسيل سوريل** نفسها بما يلي وهي تستعدّ لموعدٍ غراميٍّ:

أنا أمام مرآتي. أودّ لو كنت أجمل. أتعارك مع خصلات شعري الّتي تشبه لبدة الأسد. تنطلق شراراتٌ من مشطي. رأسي شمسٌ وسط شعري المنتصب كأشعةٍ ذهبيّةٍ.

أذكر أيضًا شابةً رأيتها ذات صباحٍ في مغاسل مقهىً؛ كانت تمسك بيدها وردةً وتبدو ثملةً بعض الشيء؛ قرّبت شفتيها من المرآة كما لو كانت تريد أن تشرب صورتها وتمتمت مبتسمةً: «رائعة، أجد نفسي رائعةً». تحلّق النرجسية، كاهنةً وإلهةً في الوقت نفسه، تحيط بها هالةٌ من المجد وسط الخلود، وفي الجهة الأخرى، مخلوقاتٌ راكعةٌ تعبدها: إنها إلهٌ يتأمل نفسه. كانت السيدة **مجروفسكي** تقول: «أحب نفسي، أنا إلهي!». أن يصبح المرء إلهًا يعني تحقيق الجمع بين «في الذات» و«من أجل الذات»: الأوقات الّتي يتخيّل فيها شخصٌ أنّه نجح هي بالنسبة له أوقاتٌ متميّزةٌ من الفرح والإجلال والاكتمال. عندما كان **روسل** Roussel في التاسعة عشرة من عمره، شعر ذات يومٍ وهو في العلّية بهالة المجد حول رأسه: وظلّ ذلك ملازمًا له دائمًا. والشابة الّتي رأت في المرآة في ملامحها الجمال والرغبة والحب والسعادة ـ يحركها شعورها كما تعتقد ـ ستحاول طيلة حياتها استهلاك ما يعد به هذا الكشف المبهر. قالت **ماري بشكرتسف** ذات يومٍ لصورتها في المرآة: «أنت من أحبّ». وكتبت في يومٍ آخر: «أحبّ نفسي كثيرًا، أسعد نفسي بحيث كنت كالمجنونة على العشاء». حتّى إن لم تكن المرأة ذات جمالٍ لا عيب فيه، سترى على وجهها انعكاسات غنى روحها الخاصّة وهذا كافٍ ليشعرها بالنشوة. تصف السيدة **كرودنر** Krüdener نفسها في الرواية الّتي مثّلت فيها نفسها في شخص **فاليري** بما يلي:

لديها شيءٌ خاصٌ لم أره بعدُ لدى أيّة امرأةٍ. قد تملك المرأة نفس السحر وجمالًا أكثر بكثيرٍ منها ولا تدانيها مع ذلك. ربما لا يُعجب المرء بها لكنّ لديها شيئًا مثاليًا وفاتنًا يجبره على الاهتمام بها. ليكاد المرء يقول لدى رؤيتها رقيقةً ورشيقةً بهذا القدر إنها بنفسجةٌ...

يجب ألّا نتعجّب من أنّ بإمكان الأقلّ حظًّا أن يشعرن بسحر المرآة هذا أحيانًا: فهنّ يتأثّرن لمجرّد كونهنّ جسدًا ماثلًا هناك؛ يكفي لإدهاشهنّ كالرجل كرم جسدٍ أنثويٍّ شابٍّ؛ وبما أنهنّ يعين أنفسهنّ كذاتٍ خاصّةٍ، بقليلٍ من سوء النيّة، فسيضفين سحرًا خاصًّا على صفاتهنّ النوعيّة؛ سيكتشفن في وجههنّ أو جسدهنّ تقاطيع جميلةً، نادرةً، مثيرةً؛ سيعتقدن أنهنّ جميلاتٌ لمجرّد شعورهنّ بأنهنّ نساءٌ.

عدا عن أنّ المرآة، مع أنّها مميّزةٌ، ليست أداة الازدواج الوحيدة. في الحوار الداخلي، يستطيع كلّ فردٍ أن يحاول خلق شقيقٍ توأمٍ. وبما أنّ المرأة وحيدةٌ معظم اليوم، وتمارس المهام المنزليّة بسأمٍ، فلديها فرصة تشكيل صورتها الخاصّة بالخيال. كانت تحلم بالمستقبل وهي فتيّةٌ؛ والآن وهي حبيسة حاضرٍ غير محدّدٍ، تروي لنفسها قصّتها؛ وتعدّلها بحيث تدخل عليها تعديلاتٍ جماليّةً، محوّلةً قبل موتها حياتها الموجودة إلى قدرٍ.

ونعرف كم تتعلّق النساء بذكريات طفولتهنّ؛ يثبت الأدب النسويّ ذلك؛ لا تحتلّ الطفولة سوى حيّزٍ ثانويٍّ في السير الذاتيّة الذكوريّة؛ وبالعكس، تكتفي النساء غالبًا برواية سنواتهنّ الأولى؛ وهي المادة المفضّلة في رواياتهنّ وقصصهنّ. حين تروي المرأة قصتها لصديقةٍ، أو عشيقٍ، تبدأ بهذه الكلمات: «عندما كنت فتاةً صغيرةً...». وتحتفظ بحنينٍ لهذه الفترة. ذلك أنّهنّ في ذلك الحين كنّ يشعرن فوق رأسهنّ بيد الأب العطوفة القويّة ويتذوقن في الوقت نفسه متعة الاستقلال؛ وإذ يمنحهنّ الكبار حمايةً وتبريرًا، فهنّ مستقلّاتٌ وأمامهنّ مستقبلٌ حرٌّ: بينما الآن لا يحميهنّ الزواج أو الحب بشكلٍ كاملٍ وأصبحن خادماتٍ أو أشياءً، سجينات الحاضر. كنّ يسيطرن على العالم، ويتغلّبن عليه يومًا بعد يومٍ: وها هنّ الآن منفصلاتٍ عنه، مكرّساتٍ للمثولية والتكرار. يشعرن أنّهن خُلعن من على عرشهنّ. لكنّ ما يشكون منه أكثر من سواه هو أنهنّ غائصاتٌ في العمومية: زوجةٌ أو أمٌّ أو ربة منزلٍ أو امرأةٌ بين ملايين النساء الأخريات؛ عندما كانت كلّ واحدةٍ منهنّ طفلةً عاشت وضعها بالعكس بطريقةٍ خاصّةٍ؛ كانت تجهل التشابه القائم بين تدرّبها على العالم وتدرّب رفيقاتها؛ كان أهلها وأساتذتها وصديقاتها يعترفون بها ضمن فرديّتها، كانت تعتقد أنّها لا تقارن بأيّة أخرى، موعودةً بفرصٍ فريدةٍ. وتلتفت بتأثّرٍ نحو هذه الأخت الصغرى الّتي تنازلت لها عن حرّيتها ومتطلّباتها والسيادة والّتي خانتها نوعًا ما. وتتحسّر إذ أصبحت امرأةً على هذا

الكائن البشري الّذي كانته؛ وتحاول أن تجد في أعماقها هذه الطفلة الميّتة. تؤثّر «بالفتاة الصغيرة» هذه الكلمات؛ ولكن تؤثّر بها أكثر كلمات: «فتاةٌ صغيرةٌ طريفةٌ»، الّتي تبعث من جديدٍ الطرافة المفقودة.

ولا تكتفي بالانبهار من بعيدٍ أمام هذه الطفولة النادرة، بل تحاول أن تعيد إنعاشها في نفسها. وتحاول إقناع نفسها بأنّ ميولها، وأفكارها، ومشاعرها احتفظت بنضارةٍ فريدةٍ. تسأل الفراغ، مرتبكةً، وهي تلعب بعقدٍ أو تفتل خاتمًا، وتتمتم: «هذا غريبٌ...، هكذا أنا... تصوّروا: يسحرني الماء... آه! أنا أهوى الريف». يبدو كلّ ما تفضّله غريبًا، وكلّ رأيٍ تحدّيًا للعالم. ذكرت دوروثي باركر Dorothy Parker هذه السمة الشائعة. ووصفت السيدة ويلتون كما يلي:

> **كانت تحبّ أن تفكّر أنها امرأةٌ لا يمكنها أن تكون سعيدةً إذا لم تكن محاطةً بزهورٍ يانعةٍ... كانت تعترف للناس في لحظات بوحٍ قليلةٍ كم كانت تحب الزهور. كان في هذا الاعتراف لهجة شبه اعتذارٍ، كما لو كانت تطلب ممّن يسمعها عدم الحكم على ميلها الغريب. كان يبدو أنها تتوقّع أن يصعق محدّثها مدهوشًا وصائحًا: «غير معقولٍ! إلى أين وصلنا!»، ومن وقتٍ لآخر كانت تعترف بتفضيلاتٍ صغيرةٍ أخرى؛ دائمًا ببعض الارتباك، كما لو كانت مع رقّتها تأنف بشكلٍ طبيعيٍّ من فتح قلبها، كانت تقول كم كانت تحب اللّون، والريف، والتسليات، ومسرحيّةً جيّدةً، وأقمشة جميلة، وملابس جيّدة التفصيل، والشمس. ولكن كان حبها للزهور هو أكثر ما تعترف به. كان لديها انطباعٌ أنّ هذا الميل يميّزها أكثر من أيّ ميلٍ آخر عن بقية الناس العاديّين.**

تحاول المرأة عن طيب خاطرٍ أن تؤكّد هذه التحليلات بتصرفاتها؛ تختار لونًا ما: «الأخضر هو لوني المفضّل»؛ لديها زهرةٌ مفضّلةٌ، وعطرٌ، وموسيقيٌّ مفضّلٌ، وتطيّراتٌ، وعاداتٌ مستهجنةٌ تتعامل معها باحترامٍ؛ ولا حاجة لأن تكون جميلةً كي تعبّر عن شخصيّتها بزينتها وأثاث منزلها. للشخصية الّتي تتّخذها ترابطٌ منطقيٌّ وابتكارٌ حسب ذكائها، وعنادها، وعمق اغترابها. يمزج بعضهن بشكلٍ عبثيٍّ بعض السمات المشتّتة المختلطة؛ وتصنع أخرياتٌ صورةً يلعبن دورها باستمرارٍ: قيل قبلًا إنّ المرأة لا تفلح في الانتقال بين هذه اللعبة والواقع. وتنتظم الحياة حول هذه البطلة في روايةٍ حزينةٍ أو رائعةٍ، غريبةٍ نوعًا ما دائمًا. أحيانًا هي روايةٌ سبق أن كُتبت. لا أعرف كم من الشابّات قلن لي إنّهن رأين

نفسهن في جودي بطلة «غبار»؛ أذكر سيّدةً مسنّةً قبيحةً جدًّا كانت معتادةً على قول: «اقرئي «زنبقة الوادي»، إنها قصّتي»؛ عندما كنت طفلةً، كنت أنظر بدهشةٍ واحترامٍ إلى هذه الزنبقة الذابلة. وتهمس أخرياتٌ بشكلٍ غامضٍ: «حياتي قصّةٌ». على جبهتهنّ نجمةٌ سعيدةٌ أو مشؤومةٌ. ويقلن: «هذه الأمور لا تحدث إلّا لي». يلاحقهنّ النحس، أو يبتسم لهنّ الحظّ: لديهنّ قدرٌ على كلّ حالٍ. كتبت سيسيل سوريل Cècile Sorel، بهذه السذاجة الّتي لا تفارقها على طول مذكّراتها: «وهكذا دخلت العالم. كانت أولى صديقاتي يدعونني العبقرية والجميلة». وفي «كتاب حياتي» الّذي هو مثالٌ صارخٌ للنرجسيّة، كتبت السيدة دونواي:

اختفت المربيات ذات يومٍ: حلّ القدر محلّهنّ. أساء معاملة المخلوقة القويّة والضعيفة بقدر ما حاباها قبلًا، أبقاها فوق خيبات الأمل حيث بدت كأوفيليا مقاتلة، تنقذ زهورها ويعلو صوتها دائمًا. طلب منها أن تأمل بأن يكون هذا الوعد النهائي صحيحًا حقًّا: اليونانيون يستخدمون الموت.

يجب أيضًا ذكر المقطع التالي كمثالٍ على الأدب النرجسي:

من الفتاة الصغيرة القويّة الّتي كنتها، ذات الأطراف الدقيقة المدوّرة، اكتسبت هذا الشكل الجسدي الأكثر هزالًا، والأكثر غموضًا، والّذي جعل مني مراهقةً محزنةً، رغم نبع الحياة الّذي قد ينبجس من صحرائي، من مجاعتي، من وفياتي الوجيزة والغامضة وذات نفس غرابة صخرة موسى. لن أمجّد شجاعتي كما يحقّ لي. أدمجها بقواي، بحظوظي. أستطيع وصفها كما يقال: عيناي خضراوان، شعري أسود، يدي صغيرةٌ وقويّةٌ...

وهذه الأسطر أيضًا:

مسموحٌ لي اليوم أن أعترف بأني عشت كما يحلو لي، تدعمني الروح وقوى تناغمها...

في غياب الجمال والتألّق والسعادة، تختار المرأة شخصية الضحيّة؛ وتصرّ على لعب دور «الأم المعذّبة»، والزوجة غير المفهومة، وترى أنها «أتعس امرأةٍ في العالم». وهذه حالة الكآبة الّتي يصفها ستيكل[222] Stekel:

222- في كتاب «المرأة الباردة».

كلّ عامٍ في عيد الميلاد، تأتي السيدة هـ. و. إليّ، شاحبة، مرتديةً ثيابًا قاتمةً، تشكو حظّها. تروي قصّةً حزينةً وهي تذرف الدموع. حياةٌ ضائعةٌ، وأسرةٌ فاشلةٌ! عندما أتت في المرة الأولى، تأثّرتُ حتى اغرورقت عيناي بالدموع وكدت أبكي معها... ثم مرّت سنتان طويلتان وظلّت قابعةً على أطلال آمالها تبكي حياتها الضائعة. وبدت على ملامحها علامات الانحدار ما أعطاها سببًا آخر للشكوى. «ماذا حلّ بي، أنا الّتي كان جمالي مثار الإعجاب!» وتعدّدت شكاويها معلنةً يأسها لأنّ كلّ أصدقائها يعرفون حظّها العاثر. وأزعجت الجميع بشكواها...وزاد ذلك من شعورها بأنها تعيسةٌ، وحيدةٌ، وغير مفهومةٍ. لم يعد هناك من مخرجٍ من متاهة الآلام هذه... كانت هذه المرأة تجد متعتها في هذا الدور المأساوي. كانت فكرة أنها أكثر النساء شقاءً في العالم تصيبها بالنشوة. وفشلت كلّ الجهود في جعلها تشارك في الحياة الفاعلة.

سمةٌ مشتركةٌ بين السيدة ويلتون الصغيرة وآنا دونواي الرائعة، ومريضة ستيكل قليلة الحظّ، والعديد من النساء اللّواتي أثّر فيهنّ قدرٌ استثنائيٌّ، هي أنهنّ يشعرن أنّ لا أحد يفهمهنّ؛ لا يعترف محيطهنّ ـ أو ليس بالقدر الكافي ـ بخصوصيّتهنّ؛ ويفسّرن إيجابيًّا جهل ولا مبالاة الآخرين بأنّهنّ يخفين في داخلهنّ سرًّا. المسألة أنّ كثيراتٍ أخفين بصمتٍ مراحل من طفولتهنّ وشبابهنّ كان لها أهمّيةٌ كبيرةٌ بالنسبة إليهنّ؛ ويعرفن أنّ سيرة حياتهنّ المعلنة لا تتوافق مع قصتهنّ الحقيقية. ولكن لأنّ النرجسية لم تحقّق ذاتها في الحياة فالبطلة الّتي تحبّها خياليّةٌ؛ لم يصنعها العالم الملموس: إنها مبدأٌ مخفيٌّ، نوعٌ من «القوّة»، من «الفضيلة» غامضةٌ كمصدر اللهب البدئي؛ تعتقد المرأة بوجودها، ولكن إن أرادت كشفها للغير، ستحرج كالمصابة بالوهط النفسي عندما تحاول الاعتراف بجرائم غير ملموسةٍ. في الحالتين، يقتصر «السرّ» على قناعةٍ فارغةٍ بامتلاك مفتاحٍ في أعماق النفس يسمح بتفسير وتبرير مشاعر وسلوكياتٍ. يأتي هذا الوهم من خمول المصابات بالوهط النفسي وجمودهنّ؛ وتعتقد المرأة أيضًا أنها مسكونةٌ بغموضٍ لا يمكن وصفه بسبب نقص القدرة على التعبير في العمل اليومي: تشجعها على ذلك أسطورة الغموض الأنثوي الشهيرة وتتأكّد بها بالمقابل.

تشعر المرأة، غنيّةً بكنوزها غير المعروفة، أنها تشبه أبطال المأساة الّتي يحكمها القدر

سواءً كانت محظوظةً أم لا. تتحوّل حياتها بأكملها إلى مأساةٍ مقدّسةٍ. وتحت الثوب الّذي اختارته تنتصب كاهنةٌ ترتدي الثوب الكهنوتي ومعبودةٌ مزيّنةٌ بأيدٍ مؤمنةٍ، معروضةً لتأليه الأتباع. ويصبح بيتها المعبد الّذي يتم فيه تقديسها. تولي ماري بشكيرتسف عنايةً للإطار الّذي تضعه حولها كعنايتها بأثوابها:

بقرب المكتب، مقعدٌ عتيق الطراز، بحيث أنّه عندما يدخل أحدٌ لا يكون عليّ سوى الإتيان بحركةٍ واحدةٍ لأجد نفسي أمامه... بقرب المكتب الفخم والكتب كخلفيّةٍ، بين لوحاتٍ ونباتاتٍ، وساقاي وقدماي ظاهرةٌ للعيان بدل أن يشطرني هذا الخشب الأسود إلى قسمين كما في السابق. فوق الأريكة عُلّقت آلتا الماندولين والقيثارة. ضعوا وسط ذلك شابّةً شقراء بيضاء ذات يدين صغيرتين دقيقتين تبدو أوردتهما الزرقاء.

عندما تتبختر المرأة في قاعات الاستقبال، وعندما تستسلم بين ذراعي عشيقٍ، تكمل مهمّتها: فهي **فينوس** توزّع على العالم كنوز جمالها. لم تكن **سيسيل سوريل** تدافع عن نفسها، بل كانت تدافع عن الجمال عندما كسرت زجاج صورة بيب الكاريكاتوريّة؛ نرى في مذكراتها أنها طول حياتها دعت الناس إلى عبادة الفنّ. وكذلك **إيزادورا دنكان** Isadora Duncan، كما وصفت نفسها في كتاب «حياتي»:

«بعد العروض، كنت جميلةً للغاية مرتديةً قميصي وشعري مكلّلٌ بالورود! لماذا لا أدع الآخرين يستفيدون من هذا السحر؟ لماذا لا تعانق هاتان الذراعان الرائعتان رجلًا يتعب فكره بالعمل طول النهار، ويجد بعض التعزية عن تعبه وبضع ساعاتٍ من الجمال والنسيان؟

تستفيد النرجسية من كرمها: تجد في عيون الغير المعجبة أكثر مما تجد في المرايا صورة نسختها المكلّلة بالمجد. تفتح قلبها لمُعرِّفٍ، لطبيبٍ، لمحلّلٍ نفسيٍّ؛ تستشير قارئي الكفّ والعرّافات، لعدم وجود جمهورٍ مسايرٍ. كانت إحدى النجمات الناشئات تقول: «لا أعتقد بهذه الأمور لكنّي أحبّ كثيرًا أن يحدّثوني عن نفسي!»؛ وتحكي أمورها لصديقاتها؛ وتبحث لدى العشيق عن شاهدٍ، بلهفةٍ أكبر من أيّ شيءٍ آخر. تنسى العاشقة أناها بسرعةٍ؛ لكن العديد من النساء غير قادراتٍ على حبٍّ حقيقيٍّ، تحديدًا لأنّهنّ لا ينسين أبدًا. يفضّلن مشهدًا أوسع على حميمية المخدع. من هنا تأتي أهمية الحياة الاجتماعية بالنسبة لهنّ: فهنّ

بحاجةٍ إلى نظراتٍ تتأمّلهنّ، وآذانٍ تصغي إليهنّ؛ يلزم شخصيتهنّ أوسع جمهورٍ ممكنٍ. وقد أفلت هذا الاعتراف من ماري بشكيرتسف وهي تصف غرفتها مرّةً أخرى:

بهذه الطريقة أكون وسط المشهد عندما يدخل أحدٌ ويراني أكتب.

وبعد قليلٍ:

قرّرت أن أمنح نفسي إخراجًا معتبرًا. سأبني منزلًا أجمل من منزل سارة ومشاغل أكبر...

من ناحيتها تكتب السيدة دونواي:

أحببت الساحة العامة وما زلت أحبها... لا أحبّ أن أمثّل أمام مقاعد فارغةٍ، بالتالي استطعت أن أطمئن بهذا الاعتراف الأصدقاءَ الّذين كانوا يخشون أن يزعجوني بعدد ضيوفهم.

ترضي الزينة والأحاديث كثيرًا هذا الميل الأنثوي للاستعراض. لكنّ النرجسيّة الطموح تتمنّى أن تعرض نفسها بشكلٍ أكثر ندرةً وأكثر تنوّعًا. يسرّها بشكلٍ خاصٍّ أن تمثّل حقًّا عندما تجعل من حياتها مسرحيّةً معروضةً لتصفيق الجمهور. روت مدام دوستايل طويلًا في «كورين» كيف سحرت الجماهير الإيطالية وهي تتلو قصائد رافقتها بعزفٍ على القيثارة. في كويت، كانت إحدى تسلياتها المفضّلة هي إلقاء خطبٍ تتعلّق بأدوارٍ مأساويّةٍ؛ كانت توجّه بطيب خاطرٍ بشخصية «فيدرا» تصريحاتٍ غراميةً متّقدةً للعشاق الشباب الّذين كانوا يتنكرون بزيّ هيبوليت. كانت السيدة كرودنر متخصّصةً في رقصة الشال، الّتي وصفتها بما يلي في «فاليري»:

طلبت فاليري شالها الموسلين الأزرق الداكن، أزاحت شعرها من على جبينها؛ ووضعت شالها على رأسها؛ كان ينزل على طول صدغيها وكتفيها؛ ارتسمت جبهتها على الطريقة القديمة، اختفى شعرها، وخفضت جفنيها، وامّحت ابتسامتها المعهودة شيئًا فشيئًا: انحنى رأسها، وسقط شالها رخوًا على ذراعيها المتصالبتين، على صدرها، وهذا اللباس الأزرق، كانت هذه الصورة النقيّة والرقيقة تبدو وكأنّ «لوكوريج» رسمها ليعبّر عن الاستسلام الهادئ؛ وعندما ارتفعت نظرتها، وحاولت شفتاها الابتسام، لكأنما ظهر الصبر، كما رسمه شكسبير، مبتسمًا للألم بقرب صرحٍ.

... يجب رؤية فاليري. الخجولة، هي النبيلة، الحساسة للغاية، الّتي تربك وتجرّ وتؤثّر وتنتزع الدموع وتجعل القلب يخفق كما يفعل عندما يتعرّض لتأثيرٍ كبيرٍ؛ هي الّتي تملك هذا السحر الفاتن الّذي لا يمكن أن يتعلّمه المرء والّذي كشفت الطبيعة سرّه لبعض الأشخاص المتميّزين.

لا شيء يمنح هذه النرجسية رضىً عميقًا بقدر تكريسها نفسها للمسرح أمام الجميع إذا سمحت لها الظروف. تقول جورجيت لوبلان:

«كان المسرح يمنحني ما كنت أبحث عنه فيه: سببًا للتمجيد. يبدو لي اليوم رسمًا هزليًا للعمل؛ شيئًا ضروريًا للأمزجة المتّقدة».

تستخدم تعبيرًا صارخًا: فالمرأة تبتكر بدائل للعمل لأنّها لا تعمل؛ ويمثّل المسرح للبعض بديلًا متميّزًا. عدا عن أنّ للممثلة غاياتٍ مختلفةً. التمثيل بالنسبة للبعض وسيلةٌ لكسب العيش، مجرّد مهنةٍ؛ وبالنسبة لأخرياتٍ هو الوصول إلى شهرةٍ تُستغَلُّ لغاياتٍ غراميّةٍ؛ ولأخرياتٍ أيضًا انتصارٌ نرجسيتهنّ؛ العظيمات منهنّ - راشيل، لادوز - فناناتٌ أصليّاتٌ يتسامين في الدور الّذي يبتدعنه؛ وبالمقابل لا تهتم الممثلة العاديّة بما تقوم به، بل بالمجد الّذي يأتيها منه؛ فتحاول إبراز نفسها قبل كلّ شيءٍ. والنرجسية العنيدة محدودةٌ في الفنّ كما في الحبّ لأنها لا تعرف العطاء.

يبدو هذا العيب بشكلٍ كبيرٍ في كلّ ما تفعله. فتغريها كلّ الدروب الّتي يمكن أن تقودها إلى المجد؛ ولكنّها لا تسلكها أبدًا دون تحفظٍ. والرسم والنحت والأدب ميادينٌ تتطلّب تدريبًا صارمًا وعملًا انفراديًا؛ كثيرٌ من النساء يجرّبن نفسهنّ فيه، لكنّهنّ يتخلّين عن الفكرة بسرعةٍ إذا لم تدفعهنّ رغبةٌ إيجابيّةٌ في الإبداع؛ العديد أيضًا من تينك اللّواتي يثابرن «يلعبن» فقط لعبة العمل. كانت ماري بشكيرتسف المتعطّشة للمجد تمضي ساعاتٍ أمام حامل اللوحة؛ لكنّها تحبّ نفسها لدرجةٍ لا تدع لها مجالًا لتحبّ الرسم حقًّا. وتعترف بذلك هي نفسها بعد سنواتٍ من السخط: «نعم، لا أتجشم عناء الرسم، تأمّلت نفسي اليوم، أنا أغشّ...» عندما تنجح امرأةٌ، كمدام دوستايل، مدام دونواي، في صنع عملٍ، فذلك يعني أن عبادتها لذاتها لم تستغرقها بشكلٍ حصريٍّ: لكن أحد العيوب الّتي تثقل كاهل العديد من الكاتبات، هو مسايرةٌ ذاتهنّ بشكلٍ يؤذي صدقهنّ ويحدّهنّ ويقزّمهنّ.

العديد من النساء المشبعات بشعورهنّ بالتفوّق لسن مع ذلك قادراتٍ على إظهاره أمام الناس؛ يصبح طموحهنّ عندئذٍ استخدام رجلٍ كوسيطٍ يقنعنه بمزاياهنّ؛ ولا يهدفن إلى قيمٍ خاصّةٍ من خلال مشاريع حرّةٍ؛ بل يرغبن في إلحاق قيمٍ جاهزةٍ بأناهنّ؛ ويلتفتن بالتالي نحو هؤلاء الّذين يملكون نفوذًا ومجدًا آملاتٍ ـ إذ يجعلن من أنفسهنّ ملهماتٍ وموحياتٍ ـ بالتماثل معهم. مثالٌ صارخٌ، هو مثال **ميبل دودج** في علاقاتها مع **لورنس** Lawrence:

> **تقول: «كنت أريد إغواء فكره، وإرغامه على صنع بعض الأشياء... كنت بحاجةٍ لروحه، لإرادته، لخياله الخلّاق ورؤيته المنيرة. كنت بحاجةٍ إلى أن أسيطر على دمه كي أصبح سيدة هذه الأدوات الأساسيّة... حاولت دومًا أن أجعل الآخرين يفعلون أشياءً، دون أن أحاول فعل أيّ شيءٍ بنفسي. كنت أشعر بنوعٍ من الفعاليّة، الخصوبة بالوكالة. كان ذلك نوعًا من التعويض عن شعور الأسى لأنّه لم يكن لدي ما أفعله».**

وبعد قليلٍ،

> **كنت أريد أن ينتصر لورنس بواسطتي، أن يستخدم خبرتي، ملاحظاتي، من فلسفتي الطاويّة وأن يصوغ ذلك كلّه في إبداعٍ فنّيٍّ رائعٍ.**

كذلك كانت **جورجيت لوبلان** تريد أن تكون بالنسبة لـ**مترلينك** Maeterlinck «غذاءً وشعلةً»؛ لكنها كانت تريد أيضًا أن ترى اسمها مكتوبًا على الكتاب الّذي ألّفه الشاعر. الأمر هنا لا يتعلّق بامرأةٍ طَموحٍ اختارت غاياتٍ شخصيّةً تستخدم الرجال في سبيل بلوغها ـ كما فعلت الأميرة **ديزورسين** و**مدام دوستايل** ـ ولكن بنساءٍ تحرّكهنّ رغبةٌ ذاتيّةٌ في اكتساب أهمّيةٍ، لا يهدفن إلى شيءٍ، ويطلبن الحصول على تسامي شخصٍ آخر. ولا ينجحن دائمًا في ذلك؛ لكنّهنّ بارعاتٌ في إخفاء فشلهنّ وإقناع نفسهنّ بأنّ سحرهنّ لا يقاوَم. وإذ يعرفن أنّهنّ لطيفاتٌ ومرغوباتٌ ومثيراتٌ للإعجاب، يشعرن بالثقة في ذلك. كلّ نرجسيّةٍ هي بيليز Bèlise. حتى «بريت» البريئة المتفانية **للورنس** تصنع لنفسها شخصيّةً صغيرةً تكسبها سحرًا كبيرًا:

> **أرفع بصري لأرى أنك تنظر إليّ بخبثٍ بهيئة الحيوان القنّاص، وبريقٌ مثيرٌ يلمع في عينيك. أرمقك بهيئةٍ مهيبةٍ ووقورةٍ إلى أن ينطفئ البريق على وجهك.**

قد تُحدِث هذه الأوهام هذياناتٍ حقيقيةً؛ ولذلك كان **كليرامبو** Clérambault يعتبر

المسّ الشبقي l'érotomanie «نوعًا من الهذيان المهني»؛ الشعور بأنك امرأةٌ هو الشعور بأنك مرغوبةٌ، الإيمانُ بأنك مرغوبةٌ ومحبوبةٌ. من اللافت أنّه من أصل عشرة مرضى مصابين «بوهم أنّهم محبوبون»، تسعٌ منهم نساءٌ. ونرى بوضوحٍ أنّ ما يبحثن عنه لدى عشيقهنّ الخيالي هو ذروة نرجسيتهنّ. يردنه مزوّدًا بقيمةٍ مطلقةٍ: كاهنًا، طبيبًا، محاميًا، رجلًا ذا مقامٍ عالٍ؛ والحقيقة الجازمة الّتي يكشفها سلوكه هي أن عشيقته المثالية أسمى من جميع النساء الأخريات، وأنها تملك فضائل ساميةً لا تقاوَم.

قد يظهر المسّ الشبقيّ في خضمّ ذهاناتٍ مختلفةٍ؛ لكنّ محتواه واحدٌ دومًا. الذات الملهمة والممجّدة عبر حبّ رجلٍ ذي قيمةٍ كبيرةٍ، سحرته مفاتنها فجأةً ـ في حين لم تكن تتوقّع منه شيئًا ـ وأظهر لها مشاعره بطريقةٍ مواربةٍ ولكن حاسمةٍ؛ تبقى هذه العلاقة أحيانًا مثاليةً، وتكتسي أحيانًا صبغةً جنسيةً؛ ولكنّ ما يميّزها بشكلٍ أساسيٍّ هو أن نصف الإله القويّ المظفّر يحِبّ أكثر مما يُحَبُّ وأنّه يظهر عاطفته بتصرّفاتٍ غريبةٍ ملتبسةٍ. من بين العدد الكبير من الحالات الّتي يذكرها الأطبّاء النفسيون، أورد هنا ملخّصًا لحالةٍ وصفيّةٍ ذكرها فردبير[223]. امرأةٌ في الثامنة والأربعين من عمرها، ماري إيفون، تبوح بما يلي:

> **الأستاذ أشيل، نائبٌ سابقٌ ووكيل وزارةٍ، وعضوٌ في مجلس نقابة المحامين. أعرفه منذ 12 أيار 1920؛ حاولت أن أقابله في اليوم السابق في القصر؛ لاحظت من بعيدٍ قامته القويّة، لكنّي لم أكن أعرف من هو؛ شعرت بقشعريرةٍ في ظهري... أجل، هناك بينه وبيني مسألة شعورٍ، شعورٍ متبادلٍ: تلاقت نظراتنا. من المرة الأولى الّتي رأيته فيها شعرت بضعفٍ تجاهه؛ ونفس الشيء من جهته... على كلّ حالٍ هو من بادر بالتصريح: كان ذلك في حوالي بداية 1922؛ كان يستقبلني في قاعة استقباله، وحدي دائمًا؛ حتّى أنّه ذات يومٍ طرد ابنه... وذات يومٍ... نهض وأتى نحوي مستمرًّا بحديثه. فهمت فورًا أنّ ذلك كان اندفاعًا عاطفيًا... وقال لي كلامًا ذا مغزىً. وأفهمني بتصرفاتٍ لطيفةٍ مختلفةٍ أنّ مشاعرنا متبادلةٌ. مرةً أخرى، في مكتبه أيضًا، دنا مني قائلًا: «أنت، أنت وحدك وليس أخرى، يا سيدتي، تفهمين». كنت مأخوذةً بحيث لم أعرف بماذا أجيب؛ قلت فقط: شكرًا يا أستاذ! مرةً أخرى أيضًا صحبني من مكتبه إلى الطريق؛ حتّى أنه تخلّص من رجلٍ كان يصحبه، أعطاه عشرين قرشًا في الدرج**

223- المسّ الشبقي L'érotomanie.

وقال له: دعني يا بنيّ، أنت ترى أني مع السيّدة! كلّ ذلك كي يرافقني ويبقى وحيدًا معي. كان يصافحني دومًا بقوّةٍ. وخلال مرافعته الأولى ألقى كلامًا منمّقًا كي يُفهِم أنّه عازبٌ.

لقد أرسل مغنّيًا إلى باحة منزلي ليعبر لي عن حبّه... كان ينظر باتّجاه نوافذي؛ يمكني أن أغنّي لكم أغنيته العاطفيّة... وجعل موسيقى البلديّة تمرّ أمام بابي. كنت غبيّةً. كان يجب أن أجيبه على كلّ مبادراته. أصيبت الأستاذ أشيل بالبرود... عندها اعتقد أنّي أصدّه وتغيّر؛ كان من الأفضل أن يتحدّث صراحةً؛ انتقم مني. كان الأستاذ أشيل يعتقد أني أكنّ عاطفةً ل ب... وشعر بالغيرة... وآذاني بسحرٍ صنعه مستعينًا بصورتي؛ هذا على الأقلّ ما اكتشفته هذه السنة لفرط ما قرأت كتبًا وقواميس. لقد اشتغل بما فيه الكفاية على هذه الصورة: وهذا سبب كلّ شيءٍ...

يتحوّل هذا الهذيان في الواقع بسهولةٍ إلى هذيان الاضطهاد. ونجد هذه العمليّة حتّى في الحالات العاديّة. لا تستطيع النرجسيّة قبول عدم اهتمام الغير بها بشغفٍ؛ إذا كان لديها الدليل الواضح على أنّها غير معبودةٍ، تفترض مباشرةً أنّه يكرهها. وتعزو كلّ الانتقادات إلى الغيرة، والسخط. وتظنّ أنّ فشلها نتيجة دسائس سوداء: ومن ذلك يزداد تأكدها من أهميتها. وتنزلق بسهولةٍ إلى الشعور بالعظمة أو إلى هذيان الاضطهاد الّذي هو الوجه المعاكس له: ها هي ذي مركز العالم المطلق لأنها مركز عالمها ولا تعرف عالمًا سواه.

لكنّ الملهاة النرجسية تجري على حساب الحياة الحقيقية؛ فالشخصية الخيالية تسترعي إعجاب جمهورٍ خياليٍّ؛ وتفقد المرأة ـ فريسة أناها ـ كلّ تأثيرٍ على العالم الملموس، ولا تهتم بإقامة أيّ صلاتٍ حقيقيةٍ مع الغير؛ لم تكن مدام دوستايل لتلقي «فيدرا» عن طيب خاطرٍ لو شعرت بتهكّمات «معجبيها» الّتي كانوا يدونونها مساءً على كرّاساتهم؛ لكنّ النرجسية ترفض التفكير بأنّ من الممكن رؤيتها بغير الشكل الّذي تظهر نفسها فيه: وهذا يفسّر أنها مع انهماكها بتأمل نفسها لاتنجح في الحكم على ذاتها وتغدو بسهولةٍ عرضةً للسخرية. لا تعود تسمع، فتتحدّث، وعندما تتحدّث تردّد دورها كالببغاء.

كتبت ماري بشكيرتسف:

«هذا يسلّيني. لا أتحدّث معه، أمثّل وبما أني أشعر أني أمام جمهورٍ جيّدٍ فأنا بارعةٌ بالأداء الطفولي والمبتكر والوضعيات».

تنظر إلى نفسها كثيرًا دون أن ترى شيئًا؛ لا تفهم من الغير سوى ما تعرفه منه؛ ما لا تستطيع مماثلته بحالتها، بقصتها، يبقى غريبًا بالنسبة لها. تستمتع بتعدّد التجارب: تودّ أن تعرف نشوة العاشقات وآلامهنّ، وبهجة الأمومة، والصداقة، والوحدة، والدموع، والضحكات؛ ولكنّ مشاعرها وانفعالاتها مصطنعةٌ لأنّها لا تستطيع أبدًا أن تمنح نفسها. لا شكّ أن ايزادورا دنكان بكت بدموعٍ حقيقيةٍ عند موت أطفالها. ولكن عندما ألقت رمادهم في البحر بحركةٍ مسرحيّةٍ، لم تكن سوى ممثلةٍ؛ ولا يمكن قراءة هذا المقطع من «حياتي» دون انفعالٍ، حيث تذكر حزنها:

> **أشعر بفتور جسدي. أخفض نظري نحو ساقيّ العاريتين اللّتين أمدّهما، ونعومة ثديي، وذراعيّ اللّتين لا تبقيان ساكنتين أبدًا، واللّتين تطوفان دون توقفٍ في تموجاتٍ رقيقةٍ، وأرى أني متعبةٌ منذ اثنتي عشرة سنةً، أنّ هذا الصدر يحتوي ألمًا لا ينضب، وأنّ هاتين اليدين دمغهما الحزن وأنّني عندما أكون وحيدةً، نادرًا ما تجفّ عيناي.**

تستطيع المراهقة أن تستمد من عبادة أناها الشجاعة على مواجهة المستقبل المقلق؛ لكنها مرحلةٌ يجب اجتيازها بسرعةٍ: وإلّا أُغلِق المستقبل من جديدٍ. العاشقة الّتي تحبس العشيق ضمن مثولية الثنائي تكرّسه معها للموت: وتتلاشى النرجسية عندما تستلب ضمن نسختها الخيالية. فتتجمّد ذكرياتها، وتصبح تصرفاتها مقولبةً، وتجترّ الكلمات، وتكرّر حركاتٍ فرغت شيئًا فشيئًا من كلّ محتوىً: من هنا يأتي انطباع الفقر الّذي تعطيه كثيرٌ من «اليوميات الحميمة»، أو «السير الذاتية النسائية»؛ المرأة المشغولة بامتداح نفسها والّتي لا تفعل شيئًا لا تجعل من نفسها شيئًا وبالتالي فهي لاتمدح شيئًا.

مأساتها هي أنّها، رغم كل سوء نيّتها، تعرف هذا العدم. لا يمكن وجود علاقةٍ حقيقيةٍ بين شخصٍ ومزدوجه لأنّ هذا المزدوج غير موجودٍ. تخضع النرجسية لفشلٍ جذريٍّ. ولا تستطيع إدراك نفسها ككلٍّ، كاكتمالٍ، لا تستطيع الإبقاء على وهم كونها في ذاتها من أجل ذاتها. تشعر بوحدتها، كوحدة كلّ إنسانٍ، كأمرٍ طارئٍ وهجرانٍ. ولهذا ـ إن لم تكن هناك محادثةٌ ـ محكومٌ عليها بالهروب من نفسها نحو الحشد، نحو الضجّة، نحو الغير. من الخطأ الشنيع الاعتقاد أنها تهرب من التبعية باختيارها ذاتها كفايةٍ مطلقةٍ: فهي على العكس تكرّس نفسها لأشدّ عبوديّةٍ؛ لا تستند إلى حرّيتها، بل تجعل من نفسها موضوعًا في خطرٍ في العالم

والوعي الغريب. ليس فقط أنّ جسمها ووجهها هما جسدٌ ضعيفٌ يخرّبه الزمن، ولكنّ تزيين المعبودة وإقامة نصبٍ لها وإنشاء معبدٍ مسألةٌ مكلفةٌ عمليًّا: رأينا أنّ **ماري بشكيرتسف** وافقت على زواجٍ من أجل المال من أجل حفر تقاطيعها على مرمرٍ خالدٍ. دفع رجالٌ ثرواتٍ ثمن الذهب والبخور والمرّ الّتي وضعتها **إيزادورا دنكان** أو **سيسيل سوريل** تحت عرشهما. وبما أنّ الرجل هو الّذي يمثّل القدر بالنسبة للمرأة، تقيس النساء عادةً نجاحهنّ بعدد الرجال الخاضعين لسيطرتهنّ ونوعيّتهم. لكن تلعب المعاملة بالمثل هنا من جديدٍ دورًا؛ «اليسروعة الراهبة»، الّتي تحاول أن تجعل من الذكر أداتها، لا تنجح بذلك في التحرّر منه لأنّ عليها أن تعجبه كي تربطه. وإذ تريد المرأة الأمريكية أن تكون معبودةً، تجعل من نفسها عبدة المعجبين بها، فلا تلبس ولا تعيش ولا تتنفس إلا عبر الرجل ومن أجله. النرجسية في الحقيقة تابعةٌ بقدر المحظية. إذا أفلتت من سيطرة رجلٍ بعينه، فذلك بقبولها استبداد الرأي العام. هذا الرباط الّذي يشدها للغير لا يفرض المعاملة بالمثل؛ ستكفّ عن كونها نرجسيةً إذا حاولت أن تنال اعتراف حريّة الغير بها معترفةً بها بدورها كغايةٍ من خلال أنشطةٍ. تناقض موقفها هو أنها تطالب بأن يمنحها قيمةً عالمٌ تنكر كلّ قيمةٍ له، بما أنها لا ترى شيئًا مهمًّا سواها. الصوت الغريب هو قوّةٌ لا إنسانيةٌ، غامضةٌ، نزويّةٌ، يجب محاولة التقاطه بشكلٍ سحريٍّ. تعرف النرجسية أنها مهدَّدةٌ رغم غطرستها السطحية؛ ولهذا هي قلقةٌ، مشكّكةٌ، سريعة الانفعال، متحفّزةٌ دومًا؛ لا يُشبَع غرورها أبدًا؛ وكلما هرمت بحثت قلقةً عن المديح والنجاح، وشكّت بوجود مؤامراتٍ حولها؛ تغوص في ليل سوء النية تائهةً، مهووسةً، وتنتهي غالبًا بإقامة هذيان جنون الاضطهاد حولها. ينطبق عليها بصورةٍ خاصّةٍ القول المأثور: «من يريد إنقاذ حياته يخسرها».

الفصل الثاني عشر

العاشقة

ليس لكلمة «حبّ» أبدًا نفس المعنى لدى الجنسين وذلك مصدر سوء فهمٍ كبيرٍ يفرّقهما. لقد قال بايرون Byron أنّ الحبّ ليس سوى أحد الاهتمامات في حياة الرجل، بينما هو حياة المرأة نفسها. وهي نفس الفكرة الّتي يعبّر عنها نيتشه Nietzsche في «المعرفة المرحة Le Gai Savoir» فيقول:

> **تعني كلمة «حبّ» نفسها في الواقع شيئين مختلفين بالنسبة للرجل وللمرأة. ما تفهمه المرأة من كلمة الحب واضحٌ للغاية: فهو ليس فقط الإخلاص، إنه منحٌ كاملٌ للجسد وللروح، دون تحفّظٍ، دون أيّ اعتبارٍ لأيّ شيءٍ كان. إنّه انعدام الشروط الّذي يجعل من حبّها «إيمانًا»[224]، الإيمان الوحيد الّذي تملكه. أما بالنسبة للرجل عندما يحبَ امرأةً، فإنَ ذلك الحبَ هو ما «يريده»[225] منها؛ وبالتالي هو لا يطالب نفسه البتّة بنفس الشعور الّذي يطالب به المرأة؛ إذا كان هناك رجالٌ يشعرون أيضًا بهذه الرغبة في الاستسلام الكلّي، لعمري إنّهم لن يكونوا رجالًا.**

استطاع رجالٌ أن يكونوا في بعض الأوقات عشّاقًا شغوفين، لكن لا يمكن تعريف أحدهم

224- يؤكّد نيتشه بنفسه على هذه الكلمة.

225- يؤكد نيتشه بنفسه على هذه الكلمة.

«بالعاشق الولهان»؛ فهم لا يتنازلون أبدًا بشكلٍ كاملٍ في أكثر لحظات جموحهم عنفًا؛ حتّى إن جثوا على ركبتهم أمام عشيقاتهم، فما يتمنّونه هو امتلاكهنّ، والحاقهنّ بهم؛ ويبقون هم ضمن حياتهم ذواتًا وسادةً؛ فالمرأة المحبوبة ليست سوى قيمةٍ من بين قيمٍ أخرى؛ يريدون دمجها في وجودهم، وليس إغراق وجودهم بأكمله فيها. وعلى العكس فالحبّ بالنسبة للمرأة تنازلٌ كاملٌ لصالح سيّدٍ.

كتبت سيسل سوفاج Cècile Sauvage:

«على المرأة أن تنسى شخصها عندما تحبّ. إنّه قانون الطبيعة. لا توجد المرأة دون سيّدٍ. بلا سيّدٍ تكون باقةً مبعثرةً».

في الحقيقة، لا يتعلّق الأمر بقانون الطبيعة. اختلاف وضعي الرجل والمرأة هو ما ينعكس على المفهوم الّذي يكوّنانه عن الحبّ. إذا كان الشخص الّذي هو ذاتٌ، الّذي هو نفسه، يميل إلى التسامي، فسيبذل جهدًا في توسيع تأثيره على العالم: فهو طموحٌ، يعمل. ولكن لا يمكن لشخصٍ غير أساسيٍ اكتشاف المطلق في قلب ذاتيّته؛ لن يستطيع شخصٌ مكرّسٌ للمثوليّة أن يحقّق نفسه ضمن أفعالٍ. بما أنّ المرأة حبيسة النسبيّ، مكرّسةٌ للذكر منذ طفولتها، معتادةٌ على أن ترى فيه سيّدًا غير مسموحٍ لها بالتساوي معه، فما تحلم به، وهي الّتي لم تتخلّ عن مطالبتها بأن تكون إنسانًا، هو تجاوز كيانها نحو أحد هذه الكائنات العليا، أن تتّحد وتختلط بالذات المهيمنة؛ فلا مخرج آخر أمامها سوى أن تندمج جسدًا وروحًا في ذلك الّذي قالوا لها إنّه المطلق والأساس. بما أنّه محكومٌ عليها على أيّة حالٍ بالتبعيّة، فبدل أن تطيع طغاةً ـ كالأهل والزوج والحامي ـ تفضّل أن تخدم إلهًا؛ وتختار أن ترغب بحرارةٍ بعبوديتها الّتي تبدو لها تعبيرًا عن حرّيتها؛ وترغم نفسها على التغلّب على وضعها كشيءٍ غير أساسيٍّ بالاضطلاع به بشكلٍ جذريٍّ؛ عبر جسدها، ومشاعرها، وسلوكها، فتمجّد الحبيب بشكلٍ فائقٍ، وتطرحه كالقيمة والحقيقة المطلقة: وتفنى أمامه. فيصبح الحبّ بالنسبة لها ديانةً.

رأينا أنّ المراهقة تبدأ بالرغبة في التماثل مع الذكور؛ وعندما تتخلّى عن ذلك تحاول عندئذٍ مشاركتهم ذكورتهم بأن تجعل أحدهم يحبّها؛ لا تسحرها خصوصيّة هذا الرجل أو ذاك؛ بل هي مغرمةٌ بالرجل عمومًا. كتبت إيرين ريفوليوتي Irène Reweliotty: «وأنتم، أيها الرجال الّذين سأحبّهم، كم أنتظركم! كم أبتهج بأن أعرفكم عما قريبٍ. خصوصًا

أنت، الأوّل». يجب بالطبع أن ينتمي الذكر إلى نفس طبقتها، وعرقها: لا يكون امتياز الجنس إلّا ضمن هذا الإطار؛ كي يكون نصف إلهٍ، عليه بالطبع أن يكون أوّلًا إنسانًا؛ بالنسبة لابنة الضابط الاستعماري، ابن البلاد الأصلي ليس رجلًا؛ إذا وهبت الشابة نفسها لشخصٍ «أدنى»، فذلك يعني أنها تحاول إنزال مرتبتها لأنها تظنّ أنها غير جديرةٍ بالحبّ. وتبحث عادةً عن الرجل الّذي يتأكّد لديه التفوّق الذكري؛ وتلاحظ بسرعةٍ أنّ كثيرًا من أفراد الجنس المختار هم دنيويون وعارضون بشكلٍ يدعو للرثاء؛ لكنّ لديها عنهم فكرةٌ مسبقةٌ لصالحهم؛ فهم غير مضطرين لإثبات قيمتهم: وهذا يفسّر كثيرًا من الأخطاء المؤسفة غالبًا؛ وتعلق الشابة الساذجة في انعكاس صورة الرجولة. وحسب الظروف تتجلّى القيمة الذكريّة في نظرها بالقوة العضلية أو الأناقة أو الغنى أو الثقافة أو الذكاء أو السلطة أو الوضع الاجتماعي أو بزّةٍ عسكريّةٍ: لكنّها تتمنى دومًا أن يجسّد العشيق جوهر الرجل. وتكفي الألفة غالبًا لهدم هيبته؛ فتنهار عند أوّل قبلةٍ، أو بالمعاشرة اليومية، أو خلال ليلة الزفاف. مع ذلك فالحب عن بعدٍ ليس سوى تخيّلٍ، وليس تجربةً حقيقيّةً. وعندما يتأكّد جسديًا تصبح الرغبة في الحبّ حبًّا جارفًا. وبالعكس، قد يولد الحبّ من العناق الجسديّ، إذ تمجّد المرأة الرجل الّذي سيطر عليها جنسيًّا والّذي كان يبدو لها في البداية بلا أهمّيةٍ. ولكن لا تنجح المرأة غالبًا في تحويل أيٍّ من الرجال الّذين تعرفهم إلى إلهٍ. ويحتلّ الحبّ في حياة المرأة غالبًا حيّزًا أقلّ مما زعموا. فالزوج والأطفال والمنزل والمتع والحياة الاجتماعيّة والزهوّ والجنس والمهنة أكثر أهمّيةً بكثيرٍ. لقد حلمت جميع النساء تقريبًا «بالحب الكبير»: وعرفن بدائل له، واقتربن منه؛ لقد زارهنّ بصورٍ غير مكتملةٍ، قاتلةٍ، مثيرةٍ للسخرية، ناقصةٍ، كاذبةٍ؛ لكنّ قليلاتٍ هنّ من كرّسن له وجودهنّ. العاشقات الكبيرات هنّ عادةً نساءٌ لم يستنفدن عواطفهنّ في غراميات صبا سطحيةٍ؛ وقبلن القدر الأنثوي التقليدي في البداية: زوجٌ وبيتٌ وأطفالٌ؛ أو أنّهنّ عانين من وحدةٍ قاسيةٍ؛ أو أنّهنّ راهنّ على مشروعٍ فشل نوعًا ما؛ فعندما يلمحن فرصة إنقاذ حياتهنّ المخيبة للآمال بتقديمها لشخصٍ من الصفوة، يستسلمن بشغفٍ لهذا الأمل. كانت الآنسة أيسيه، وجولييت درويه، والسيدة داغول في بداية حياتهنّ الغرامية في الثلاثين تقريبًا، وجولي دولسبيناس قريبةً من الأربعين؛ لم يكن أمامهنّ أيّة غايةٍ، لم يكن بإمكانهنّ القيام بأيّ شيءٍ يبدو لهنّ ذا قيمةٍ، لم يكن أمامهنّ من مخرجٍ سوى الحبّ.

وحتّى إن كانت النساء يتمتّعن بالاستقلاليّة، فما زال هذا الطريق هو الّذي يبدو أكثر جاذبيةً لغالبيتهنّ؛ فمن المثير لقلق المرء الاضطلاع بمشروع حياته؛ ويلتفت المراهق هو أيضًا عن طيب خاطرٍ نحو نساءٍ أكبر سنًّا منه يبحث لديهن عن مرشدةٍ، معلّمةٍ، أمٍّ؛ لكنّ تكوينه والعادات والتوجيهات الّتي يصادفها في ذاته تمنعه من أن يتوقّف بشكلٍ نهائيٍّ عند الحلّ السهل أي الاستسلام؛ ولا ينظر إلى هذه الغراميات إلّا كمرحلةٍ. حظّ الرجل ـ في سنّ النضج كما في الطفولة الباكرة ـ هو أنهم يرغمونه على الانخراط في طرقٍ وعرةٍ للغاية ولكنّها مؤكّدةٌ؛ ومأساة المرأة أنّها محاطةٌ بإغراءاتٍ لا تقاوَم تقريبًا؛ كلّ شيءٍ يحفزها على أن تسلك طريق القدر السهلة: وبدل أن تُدعى إلى الكفاح من أجل ذاتها، يقال لها إنّه ليس عليها سوى ترك نفسها تنزلق وأنها ستبلغ جنّاتٍ ساحرةً؛ عندما تدرك أنها خُدعت بسرابٍ، يكون الأوان قد فات؛ فقد استنفدت قواها في هذه المغامرة.

يدّعي المحللون النفسيون عن طيب خاطرٍ أنّ المرأة تلاحق في حبيبها صورة أبيها؛ ولكن لأنّه رجلٌ، وليس لأنّه أبٌ، ولأنّه كان يبهر الطفلة، ويساهم كلّ رجلٍ في هذا السحر؛ لا تتمنى المرأة إعادة تجسيد شخصٍ في آخر، ولكن إعادة إحياء وضعٍ: ذاك الّذي عرفته طفلةً صغيرةً، بمعزلٍ عن البالغين؛ كانت مندمجةً بشكلٍ عميقٍ في منزل الأسرة، وجربت فيه سلام نوعٍ من السلبية؛ سيعيد إليها الحبّ أمها وأباها، سيعيد إليها طفولتها؛ وما تتمناه هو العودة إلى سقفٍ فوق رأسها، وجدرانٍ تخفي عنها تخلّي الآخرين عنها وسط العالم، وقوانين تمنعها من امتلاك حريتها. يسكن هذا الحلم الطفولي العديدَ من قصص الغرام الأنثوية؛ وتشعر المرأة بالسعادة حين يناديها العشيق «يا ابنتي الصغيرة، يا طفلتي الحبيبة»؛ يعرف الرجال جيدًا أنّ هذه الكلمات: «تبدين كفتاةٍ صغيرةٍ»، هي إحدى الكلمات الّتي تمسّ قلب النساء بالتأكيد: وقد رأينا كم تعذّبت كثيراتٌ منهنّ عندما بلغن سنّ البلوغ؛ وتصرّ كثيراتٌ على «التصرّف كطفلةٍ»، على إطالة طفولتهنّ إلى ما لا نهايةٍ بسلوكهنّ وملابسهنّ. وتغمرهنّ السعادة حين يعدن طفلةً بين ذراعي رجلٍ. وهو موضوع هذه الأغنية الذائعة:

أشعر بين ذراعيك أنّي صغيرةٌ
صغيرةٌ للغاية يا حبّي...

يتكّرر هذا الموضوع بلا كللٍ في الأحاديث والمراسلات الغراميّة. يهمس العشيق: «يا طفلتي الصغيرة»؛ وتسمّي المرأة نفسها «صغيرتك». كتبت **إيرين ريفوليوتي**: «متى إذًا سيأتي ذاك الّذي سيعرف كيف يسيطر عليّ؟» وعندما اعتقدت أنها صادفته: «أحبّ أن أشعر أنك رجلٌ ومتفوّقٌ عليّ».

يظهر هذا الموقف بطريقةٍ مدهشةٍ لدى إحدى المصابات بالوهط النفسي الّتي درس حالتها جانيه[226] Janet:

> **لأبعد ما تبلغ بي الذاكرة أذكر أنّ كلّ الحماقات أو كلّ الأمور الحسنة الّتي قمت بها أتت من نفس السبب، هو التطلّع إلى حبٍّ كاملٍ ومثاليٍّ أستطيع أن أهب نفسي فيه بشكلٍ كلّيّ، وأسلم كياني كله لكيانٍ آخر، إلهٍ، رجلٍ أو امرأةٍ، يفوقني لدرجة أنّي لا أعود بحاجةٍ للتفكير في أن أتصرّف في الحياة أو أن أهتمّ بنفسي. أن أجد أحدًا يحبني بما يكفي ليبذل جهدًا في جعلي أعيش، أحدًا أطيعه بشكلٍ أعمى وثقةٍ تامةٍ، واثقةً من أنّه سيجنّبني كلّ ضعفٍ ويأخذني إلى الكمال مباشرةً وبرفقٍ وبكثيرٍ من الحبّ. كم أحسد الحبّ المثالي بين ماري مادلين ويسوع: أن أكون التابع المضطرم لسيّدٍ معبودٍ يستحقّ ذلك؛ أن أعيش وأموت من أجل معبودي، وأؤمن به دون أدنى شكٍّ، وأبلغ أخيرًا انتصار الملاك النهائي على البهيمة، وأبقى بين ذراعيه اللّتين تغمرانني، صغيرةً للغاية، متكوّرةً في حمايته مانحةً نفسي له بحيث لا أعود موجودةً.**

أثبت لنا العديد من الأمثلة قبلًا أن حلم التلاشي هذا هو في الحقيقة رغبةٌ متعطّشةٌ في الوجود. في كلّ الديانات، تمتزج عبادة الله بالنسبة للمؤمن بقلقه على خلاصه الشخصي؛ عندما تسلم المرأة نفسها بكلّيتها إلى المعبود تأمل أنّه سيجعلها تمتلك في آنٍ معًا نفسها والعالم الّذي يتلخّص فيه. ما تطلبه أوّلًا من عشيقها غالبًا هو تبرير وتمجيد ذاتها. كثيرٌ من النساء لا يستسلمن للحبّ إلّا إذا كنّ محبوباتٍ بالمقابل: وأحيانًا يكفي الحبّ الممنوح لهنّ لجعلهنّ مغرماتٍ. لقد حلمت الشابة بنفسها في عيني رجلٍ: وفي عيون الرجل تعتقد المرأة أنّها وجدت نفسها أخيرًا.

226- الهواجس والوهط النفسي.

كتبت سيسيل سوفاج:

«أمشي بقربك، أسارع خطوات قدميّ الصغيرتين اللّتين كنت تحبهما، شعوري بهما صغيرتين للغاية في الحذاء العالي ذي العنق المصنوع من اللّباد يمنحني حبًا لكلّ الحبّ الّذي كنت تحيطهما به. كانت أقلّ حركات يديّ في كمّي، وذراعيّ، ووجهي، وتغيّرات نبرة صوتي، تملؤني بالسعادة».

تشعر المرأة أنّها مزوّدةٌ بقيمةٍ أكيدةٍ وكبيرةٍ؛ أخيرًا يُسمح لها بأن تدلّل نفسها عبر الحبّ الّذي تلهمه. وتشعر بالنشوة إذ ترى في العشيق شاهدًا. وهذا ما تعترف به «متشردة» **كوليت**:

استسلمت، أعترف بذلك، استسلمت سامحةً لهذا الرجل بأن يعود غدًا، رغبةً في الاحتفاظ به ليس كحبيبٍ، ولا كصديقٍ، ولكن كمشاهدٍ متعطّشٍ لحياتي وشخصي... قالت لي مارغو ذات يومٍ إنّه لا بد أن يكون المرء قد تقدّم بالسنّ كثيرًا كي يتخلّى عن الزهوّ بالعيش أمام شخصٍ ما.

تروي **كاترين مانسفيلد** في إحدى رسائلها لـ**ميدلتون مري** أنها اشترت للتوّ مشدًّا بنفسجيًّا رائعًا؛ وتضيف حالًا: «خسارةٌ أنّه لا يوجد أحدٌ ليراه!». لا أشدّ مرارةً من شعور المرء بأنّه الزهرة أو العطر أو الكنز الّذي لا يرغب به أحدٌ: ما هي الثروة الّتي لا تغنيني أنا ولا يرغب بها أحدٌ؟ الحبّ هو الكاشف الذذي يُظهِر بشكلٍ إيجابيٍّ واضحٍ الصورة السلبية الكامدة العبثيّة ككليشيه بيضاء؛ بواسطته يفلت من الاحتمال ويصبح ضروريًّا وجه المرأة، وانحناءات جسدها، وذكريات طفولتها، ودموعها القديمة، وأثوابها، وعاداتها، ومحيطها، وكلّ ما هي عليه، وكلّ ما يخصّها: إنّها هديّةٌ رائعةٌ على مذبح ربّها.

قبل أن يضع يديه بلطفٍ على كتفيها، وقبل أن يشبع عينيه بمنظرها، لم تكن أبدًا سوى امرأةٍ عاديّة الجمال في عالمٍ كئيبٍ لا لون له. من اللّحظة الّتي قبّلها فيها، أصبحت واقفةً في نور الخلود اللامع[227].

لهذا يثير الرجال ذوو المكانة الاجتماعية والبارعون في إرضاء الغرور النسائي العواطف

227- م. ويب M.Webb، «ثقل الظلال».

حتّى وإن لم يكونوا يملكون أيّ سحرٍ جسديًّ. فهم يمثّلون القانون والحقيقة بوضعهم الراقي: ويكشف شعورهم حقيقةً لا جدال فيها. فتشعر المرأة الّتي يمتدحونها أنّها تحوّلت إلى كنزٍ لا يُقدّر بثمنٍ. ذلك مثلًا سبب نجاحات دانّنزيو، حسب ما تقول إيزادورا دنكان[228].

عندما يحب دانّنزيو امرأةً، يرفع روحها فوق الأرض إلى الأماكن الّتي تنفعل فيها بياتريس وتزدهر. يجعل كلّ امرأةٍ بدورها تشارك في الجوهر الإلهيّ، يحملها عاليًا، عاليًا لدرجة أنّها تتصوّر أنها فعلًا بمستوى بياتريس... كان يرمي على كلّ محظيّةٍ بدورها وشاحًا برّاقًا. فكانت تسمو فوق بقية الناس العاديين وتمشي محاطةً بنورٍ غريبٍ. ولكن ما إن كانت نزوة الشاعر تنتهي ويهجرها من أجل أخرى، حتّى يختفي وشاح النور، وتنطفئ الهالة وتعود المرأة صلصالًا عاديًا من جديدٍ... حين تسمع دانّنزيو يمدحها بهذا السحر الخاصّ به تشعر بمتعةٍ تقارن بتلك الّتي شعرت بها حوّاء عندما سمعت صوت الحيّة في الجنّة. يستطيع دانّنزيو إعطاء كلّ امرأةٍ الانطباع بأنّها مركز الكون.

في الحبّ فقط تستطيع المرأة أن توفّق بشكلٍ متناغمٍ بين شهوانيتها ونرجسيتها؛ رأينا قبلًا أنّ هناك تعارضًا بين هاتين الجملتين يجعل تأقلم المرأة مع قدرها الجنسيّ صعبًا جدًّا. حين تجعل من نفسها غرضًا جنسيًّا، غنيمةً، يناقض ذلك عبادتها لذاتها: إذ يبدو لها أنّ العناق يرخي جسدها ويلوّثه أو أنّ روحها تفقد مكانتها. ولهذا تختار بعض النساء البرود، معتقداتٍ بذلك أنّهن يحافظن على سلامة ذاتهنّ. وتميّز أخرياتٌ بين الشبق الحيواني والمشاعر السامية. حالة السيدة د. س. وصفيّةٌ، أوردها ستيكل وذكرتها سابقًا في معرض الحديث عن الزواج:

كانت باردةً مع زوجٍ محترمٍ، والتقت بعد وفاته بشابٍّ فنّانٍ أيضًا، موسيقيٍّ كبيرٍ، وأصبحت عشيقته. كان حبّها وما زال مطلقًا بحيث لم تكن تشعر بالسعادة إلّا بقربه. ملأ «لوثر» كلّ حياتها. لكنّها ظلّت باردةً بين ذراعيه مع أنّها تحبّه بشغفٍ. وصادفت رجلًا آخر. كان حارس غاباتٍ قويًا وفظًّا، ضاجعها ذات يومٍ كان فيه وحيدًا معها، ببساطةٍ، وبلا مقدّماتٍ. أذهلها ذلك لدرجة أنها تركته يفعل، لكنها شعرت بين ذراعيه بأقوى رعشةٍ. قالت: «بين ذراعيه أسترجع توازني لأشهرٍ. إنّها نشوةٌ وحشيّةٌ يليها

228- إ. دنكان، «حياتي».

اشمئزازٌ لا يوصف حالما أفكّر بلوثر. أكره بول وأحبّ لوثر. رغم ذلك بول يرضيني. كلّ شيءٍ لدى لوثر يجذبني. ولكن يبدو أنّي أتحوّل إلى بغيٍّ كي أنتشي بما أنّي كسيدة مجتمعٍ ممنوعةٌ من النشوة». وترفض أن تتزوّج بول لكنها تتابع مضاجعته؛ في هذه اللحظات «تتحوّل إلى شخصٍ آخر وينفلت من فمها فيضٌ من كلماتٍ لم تكن لتجرؤ أبدًا على النطق بها».

يضيف ستيكل أنّ «شرط بلوغ الرعشة بالنسبة لكثيرٍ من النساء هو الوقوع في الحيوانية». يرين في الحبّ الجسديّ تحقيرًا لا يتناسب مع مشاعر الاحترام والحنان. ولكن بالنسبة لأخرياتٍ على العكس يمكن إزالة هذا التحقير بواسطة احترام الرجل وحنانه وإعجابه. فلا يوافقن على الاستسلام لرجلٍ إلّا إذا اعتقدن جازماتٍ أنّه يحبّهنّ؛ وتحتاج المرأة إلى الكثير من الاستخفاف واللامبالاة أو الكبرياء كي تعتبر العلاقات الجسديّة تبادلًا للمتع يأخذ منه كلّ شريكٍ حصّته. ويثور الرجل بقدر المرأة أو ربما أكثر منها ضد من يريد استغلاله جنسيًّا[229]؛ لكنها هي الّتي تشعر عمومًا أنّ شريكها يستغلّها كأداةٍ. بإمكان الإعجاب أن يعاوض إذلال عملٍ تعتبره هزيمةً. وقد رأينا أنّ العمل الجنسي يتطلب منها استلابًا عميقًا؛ مغمضة العينين، مُغْفَلَةً، تائهةً، تغوص في فتور السلبية؛ تشعر أنّ موجةً ترفعها، والقلق يلفّها، والليل يدثّرها: ليل الجسد، والرحم، والقبر؛ منهكةً، تتبع الكلّ، وتُلغى أناها. ولكن عندما ينفصل الرجل عنها، تجد نفسها ملقاةً على الأرض، على سريرٍ، في الضوء؛ وتستعيد اسمًا، ووجهًا: إنّها مقهورةٌ، غنيمةٌ، شيءٌ. عندئذٍ يصبح الحبّ ضروريًّا لها. وكما يبحث الطفل بعد الفطام عن نظرة أبويه المُطَمئِنة، يجب أن تشعر المرأة في عيني الحبيب الّذي يتأملها أنّها اندمجت ثانيةً في الكلّ الّذي انفصل عنه جسدها بشكلٍ مؤلم. نادرًا ما تكون مُشبَعةً تمامًا؛ حتى إن شعرت بإشباع المتعة، فهي لم تتخلّص نهائيًّا من السحر الشهوانيّ: يستمرّ اضطرابها بشكل عاطفةٍ؛ عندما يمنحها الرجل الشهوة فهو يربطها به ولا يحرّرها. مع ذلك لا يعود يشعر تجاهها بالرغبة: ولا تغفر له هذه اللامبالاة العابرة إلّا إن قدم لها عاطفةً دائمةً مطلقةً. عندئذٍ يتم تجاوز اللحظة؛ ولا تعود الذكريات اللاهبة أسفًا بل كنزًا؛ عندما تنطفئ الشهوة تصبح أملًا ووعدًا؛ وتجد المتعة تبريرًا؛ وتستطيع المرأة بفخرٍ الاضطلاع بشهوانيتها لأنها

229- راجع «عشيق الليدي تشاترلي». على فم ميلور يعبّر لورنس عن نفوره من النساء الّلواتي يجعلن منه أداةً للمتعة.

ترفعها؛ فلم يعد الاضطراب والمتعة والرغبة حالةً ولكن هبةً؛ لم يعد جسدها شيئًا: إنّه أنشودةٌ، شعلةٌ. يمكنها أن تستسلم عندئذٍ بشغفٍ لسحر الشهوانية؛ ويتحوّل الليل إلى نورٍ؛ وتستطيع العاشقة أن تفتح عينيها، وتنظر إلى الرجل الّذي يحبّها والّذي تمجّدها نظرته؛ بواسطته يصبح العدم اكتمالًا للكينونة ويتحوّل الكائن إلى قيمةٍ؛ ولا تعود تغرق في بحرٍ من الظلمات، وترفعها أجنحةٌ، ممجّدةً نحو السماء. ويصبح الاستسلام نشوةً مقدّسةً. عندما تستقبل المرأة الرجل الحبيب، تسكنها روح القدس وتزورها كالعذراء، كما يسكن المؤمن القربان؛ وهذا ما يفسّر التشابه الفاحش بين الأناشيد الورعة والأغاني البذيئة: لا يعني هذا أنّ العشق الصوفي ذو صبغةٍ جنسيّةٍ دائمًا؛ لكنّ يكتسي الجنس والعاشقة صبغةً صوفيّةً. «يا إلهي، يا معبودي، يا سيدي...»، تخرج نفس الكلمات من فم القديسة الراكعة والعاشقة المستلقية على السرير؛ الواحدة تهدي جسدها للمسيح، وتمد يديها لتتلقّى الندوب وتستدعي حروق الحبّ الإلهي؛ والثانية تقدّم كذلك وتنتظر: وتتجسّد النبال والسهام في العضو الذكري. نفس الحلم لدى الاثنتين، الحلم الطفولي، الحلم الصوفي، الحلم الغرامي: بإلغاء نفسها ضمن الآخر، توجد تمامًا.

زعموا أحيانًا[230] أنّ هذه الرغبة في الفناء تقود إلى المازوشية. ولكن كما قلت بشأن الشهوانيّة، لا يمكن أن توجد المازوشية إلّا عندما أحاول «أن أجعل الغير يفتنونني بموضوعيتي»[231] أي عندما يلتفت شعور الذات نحو الأنا ليدركها في وضعها الذليل. غير أنّ العاشقة ليست فقط نرجسيّةً مستلَبةً ضمن أناها: إنها تشعر أيضًا برغبةٍ جامحةٍ في أن تفيض حدودها وتصبح لا نهايةً، بفضل وساطة آخر يبلغ الواقع اللامحدود. فتستسلم أوّلًا للحبّ كي تهرب؛ لكنّ تناقض الحب الوثني هو أنّها كي تهرب ينتهي بها الأمر إلى أن تنكر نفسها بشكلٍ كاملٍ. ويأخذ شعورها بعدًا صوفيًّا؛ فلا تعود تطلب من الله أن يعجب بها، ويوافقها؛ فتريد أن تنصهر فيه، أن تنسى نفسها بين ذراعيه. كتبت السيدة **داغو**: «*كنت أود لو كنت قديسةً للغرام. كنت أحسد الشهيد في مثل لحظات التمجيد والهيجان الزهدي هذه*». تبدو في هذه الكلمات الرغبة في تحطيمٍ جذريٍّ للذات يلغي الحدود الّتي تفصلها عن

230- راجع أطروحة هـ. دوتش، سيكولوجية النساء.

231- راجع سارتر، الوجود والعدم.

الحبيب: هذه ليست مازوشيّةً، إنّما حلم اتّحادٍ افتتانيٌ. إنّه نفس الحلم الّذي يوحي بهذه الكلمات لـ**جورجيت لوبلان**: «في هذه الفترة، لو سألوني ما أكثر ما أتمناه في هذا العالم كنت لأجيب بلا ترددٍ: أن أكون لفكره غذاءً وشعلةً».

ما تتمناه المرأة أوّلًا لتحقيق هذا الاتحاد هو أن تخدم؛ تشعر أنّها ضروريّةٌ حين تلبّي مطالب العشيق؛ فتندمج بوجوده هو، وتشارك في قيمته، وتصبح مبرَّرةً؛ حتّى الصوفيّون يسرّهم الاعتقاد، حسب قول **أنجلوس سيلزيوس** Angelus Silésius، أنّ الله بحاجةٍ للإنسان؛ وإلّا يكون منحهم لنفسهم لا فائدة منه. كلّما أكثر الرجل من الطلب كلما شعرت المرأة أنها راضيةٌ. رغم أنّ العزلة الّتي فرضها **هيغو** Hugo على **جوليبت درويه** ضغطت على الشابة، لكننا نشعر أنها سعيدةٌ بإطاعته: البقاء جالسةً بقرب النار، يعني القيام بشيءٍ لإسعاد السيّد. وتحاول بشغفٍ أن تفيده بصورةٍ إيجابيةٍ. فتطهو له أطباقًا شهيّةً، وتعتني بمنزله: وتقول بلطفٍ: «منزلك» الصغير الّذي يخصّنا؛ وتعتني بملابسه.

> **كتبت له: «أريدك أن تلوّث، أن تمزّق كلّ ملابسك بقدر الإمكان وأن أرتقها أنا وحدي وأنظفها دون مساعدةٍ».**

من أجله تقرأ صحفًا، وتقتطع مقالاتٍ، وتصنّف رسائل وملاحظاتٍ، وتنسخ مخطوطاتٍ. وتنزعج عندما يعهد الشاعر بجزءٍ من هذا العمل لابنته **ليوبولدين**. ونجد مثل هذه الصفات لدى جميع النساء المغرمات. تضطهد نفسها عند اللزوم باسم الحبيب؛ يجب أن تكرّس له كلّ ماهيتها، وكلّ لحظات حياتها، وتجد بذلك سببًا لوجودها؛ لا تريد امتلاك شيءٍ إلّا به؛ وتشعر بالتعاسة إذا لم يطلب شيئًا، لدرجة أنّ العاشق اللبق يخترع طلباتٍ. بحثت في البدء في الحبّ عن تأكيدٍ لما كانته، لماضيها، لشخصيتها؛ لكنها أدخلت فيه مستقبلها أيضًا: ولكي تبرّره ترصده لذاك الّذي يملك كلّ القيم؛ وهكذا تتحرّر من تساميها: فتربطه بتسامي الآخر الأساسي الّذي تجعل من نفسها تابعةً وعبدةً له. بدأت بالتلاشي فيه كي تجد نفسها وتهرب: تتوه فيه شيئًا فشيئًا؛ كلّ الحقيقة في الآخر. الحبّ الّذي كان يُعرَّف في البداية بأنّه تعظيمٌ نرجسيٌّ يكتمل في المتع الفجّة لتفانٍ يقود غالبًا إلى تشويهٍ ذاتيٍّ. في بدايات عاطفةٍ جامحةٍ، تصبح المرأة أجمل، وأكثر أناقةً من ذي قبل: كتبت **السيدة داغو**: «عندما تصفّف أديل شعري، أنظر إلى جبيني لأنك تحبّه». وجدت سببًا لوجود هذا الوجه، وهذا الجسد،

وهذه الغرفة، وهذه الأنا، وهي تحبّها عبر هذا الرجل المحبوب الّذي يحبّها بدوره. ولكن بعد قليلٍ، تتخلّى بالعكس عن كلّ تأنّقٍ؛ إذا رغب العشيق بذلك، وتغيّر هذه الصورة الّتي كانت في البداية أغلى لديها من الحبّ نفسه؛ ولا تعود مهتمةً بها؛ وتجعل من نفسها وما تملك إقطاعةً لسيّدها؛ وتنكر ما يرفضه؛ وتودّ أن تكرّس له كلّ خفقةٍ من قلبها، وكلّ قطرة دمٍ، ونخاع عظمها؛ وهذا ما يتجلّى في حلم الشهيد: المبالغة في منح النفس حتّى العذاب، حتّى الموت، أن تكون الأرض الّتي يدوسها الحبيب، ألّا تكون سوى تلبيةٍ لندائه. وتلغي باندفاعٍ كلّ ما لا يفيد الحبيب. إذا قُبِل ما تقدّمه من نفسها لا تظهر المازوشية: ونجد بعض أثرها لدى **جولييت درويه**. كانت تركع أحيانًا أمام صورة الشاعر، مبالغةً بالتعبّد، وتطلب منه المغفرة للأخطاء الّتي ارتكبتها؛ لم تكن تغضب من نفسها. لكنّ الانزلاق من الحماس الكريم إلى الغضب المازوشي سهلٌ. العاشقة الّتي تقف أمام حبيبها كما يقف الطفل أمام أبويه تشعر بالذنب الّذي كانت تشعر به أمامهما؛ ولا تختار أن تثور عليه لفرط حبّها له فتثور على نفسها. إن كان يحبّها أقلّ ممّا تتمنى، وإذا فشلت في استيعابه، في إسعاده، في أن تكفيه، تنقلب كلّ نرجسيتها إلى اشمئزازٍ وخزيٍ يدعوها إلى عقاب نفسها. فتجعل من نفسها ضحيّةً اختياريةً خلال فترة أزمةٍ قد تطول أو تقصر وقد تمتد على طول حياتها، وتستبسل في إيذاء هذه الأنا الّتي لم تستطع إرضاء العشيق. عندئذٍ يصبح سلوكها مازوشيًا صرفًا. ولكن لا يجب أن نخلط بين هذه الحالات الّتي تحاول العاشقة فيها تعذيب نفسها انتقامًا من ذاتها، وتلك الّتي تهدف فيها إلى تأكيد حرّية الرجل وسطوته. إنها فكرةٌ شائعةٌ ـ وحقيقةٌ على ما يبدو ـ أنّ المومس تفخر بأن يضربها رجلها: ولكن ما يثير حماسها ليست فكرة شخصها المضروب والمستعبَد، بل قوّة الذكر الّذي تتعلّق به وسلطته وهيمنته؛ كما تحبّ أن تراه يسيء معاملة ذكرٍ آخر، وكثيرًا ما تدفعه إلى منافساتٍ خطرةٍ، فتريد أن يملك سيّدها القيم المعترف بها في الوسط الّذي تنتمي إليه. المرأة الّتي تخضع مستمتعةً لنزواتٍ ذكوريّةٍ تُعجب أيضًا بالحرية المهيمنة الكامنة في الطغيان الّذي يمارس عليها. ويجب الحذر لأنّه إذا تحطمت هيبة العشيق لسببٍ ما تغدو الضربات والمتطلبات كريهةً: فليست لها قيمةٌ إلّا إذا عبّرت عن ألوهيّة المحبوب. في هذه الحال تغمرها سعادةٌ كلّها نشوةٌ لشعورها بأنها فريسة حرّيةٍ غريبةٍ: إنها أغرب مغامرةٍ بالنسبة لمخلوقٍ أن يجد نفسه قائمًا عبر إرادة آخر صارمةٍ؛ إذ

يتعب المرء من البقاء دائمًا ضمن نفس الإهاب؛ والطاعة العمياء هي الفرصة الوحيدة السانحة للإنسان لتغييرٍ جذريٍّ. ها هي ذي المرأة عبدةً، ملكةً، زهرةً، غزالةً، واجهةً زجاجيّةً مزخرفةً، ممسحة أقدامٍ، خادمةً، محظيّةً، ملهمةً، رفيقةً، أمًّا، أختًا، طفلةً حسب الأحلام الخاطفة وأوامر العشيق الصارمة: وهي تخضع مبتهجةً لهذه التغيّرات طالما لم تدرك بأنّ طعم الخضوع الحقيقي ما زال على شفتيها. على صعيد الحبّ كما الجنس، يبدو لنا أنّ المازوشية هي إحدى الطرق الّتي تسلكها المرأة غير راضيةٍ، خائبةً من الآخر ومن نفسها؛ لكنّ ذلك ليس السبيل السهل الطبيعي لتنازلٍ بهيجٍ. تديم المازوشيّة وجود الأنا بصورةٍ جريحةٍ خائرةٍ؛ ويهدف الحبّ إلى نسيان النفس لصالح الذات الأساسيّة.

والهدف الأسمى للحبّ البشري كما للحبّ الصوفي، هو التماثل مع المحبوب. توجد في شعوره مقاييس القيم، وحقيقة العالم؛ ولهذا مهما خدمناه لا يكفي. تحاول المرأة أن ترى بعينيه؛ وتقرأ الكتب الّتي يقرأ، وتفضّل اللّوحات والموسيقى الّتي يفضّل، ولا تهتم إلا بالمناظر الّتي تراها معه، والأفكار الّتي تأتي منه؛ وتتبنّى صداقاته، وخصوصيّاته، وآراءه؛ عندما تسأل نفسها تحاول سماع ردّه هو؛ تريد في رئتيها الهواء الّذي تنشقّه قبلًا؛ الثمار والأزهار الّتي لم تتلقّها من يديه ليس لها طعمٌ ولا رائحةٌ؛ حتّى أفكارها مضطربةٌ: لم يعد مركز العالم المكان الّذي تقف فيه ولكن ذلك الّذي يوجد فيه الحبيب؛ تنطلق كلّ الطرق من منزله وتقود إليه. تستخدم كلماته، وتكرّر حركاته، وتتّخذ عاداته المستهجنة. تقول **كاثرين** في «مرتفعات وذرنج»: «أنا هيثكليف»؛ وهذه صرخة كلّ عاشقةٍ؛ إنها تقمّصٌ آخر للحبيب، انعكاسه، مزدوجه: إنها هو. فتترك عالمها يسقط في الاحتمال وتعيش في عالمه هو.

سعادة العاشقة القصوى، هي أن يعترف بها الرجل المحبوب كجزءٍ منه؛ عندما يقول «نحن»، يشركها معه ويماثلها به، تشاركه مكانته وتهيمن معه على بقية العالم؛ ولا تتعب من أن تقول ثانيةً ـ حتى وإن بالغت في ذلك ـ هذه الـ «نحن» اللّذيذة. تعيش العاشقة في خضوعها امتلاك المطلق العظيم، لأنّها ضروريّةٌ لشخصٍ هو الضرورة المطلقة، ينطلق في العالم نحو غاياتٍ ضروريةٍ ويعيد لها تشكيل العالم بصورة الضرورة. تمنحها هذه القناعة بهجةً قصوى؛ فتشعر أنّها ارتقت إلى يمين الله؛ ولا يهمها كثيرًا ألّا يكون لها سوى المكان الثاني مادام مكانها، للأبد، في عالمٍ منظّمٍ بشكلٍ رائعٍ. تشعر أنّها مبرّرةٌ طالما تُحِب وتُحَبّ،

وتستمتع بالسلام والسعادة طالما هي ضروريّةٌ للحبيب. ربما كان هذا مصير الآنسة آيسيه مع الفارس **دايدي** قبل أن تربك روحها وساوس الدين، أو مصير **جوليت درويه** في ظلّ **هيغو**.

لكنّ من النادر أن يكون هذا الفرح المجيد مستقرًّا. فالرجل ليس إلهًا البتّة. وعلاقة الصوفية بالغياب الإلهي تتعلّق بورعها وحده: لكنّ الرجل المعظّم والّذي هو ليس إلهًا حاضرٌ. من هنا تنشأ آلام العاشقة. فمصيرها العادي يتلخّص في كلمات **جولي ليسبيناس** Julie Lespinasse الشهيرة: «أحبك في كلّ لحظات حياتي يا صديقي، وأتألّم وأنتظرك». بالنسبة للرجال أيضًا يرتبط العذاب بالحبّ بالتأكيد؛ ولكنّ إمّا أنّ آلامهم لا تستمرّ طويلًا أو أنها ليست قاسيةً جدًّا؛ لقد أراد **بنجامان كونستان** أن يموت من أجل **جوليت ريكامييه**، وشفي من حبّها بعد سنةٍ. وندم **ستندال** على **ميتيلد** طيلة سنواتٍ، لكنّ هذا الندم عطّر حياته بدل أن يدمّرها. بينما تخلق المرأة لنفسها جحيمًا عندما تحمل مسؤولية نفسها كغير أساسيّةٍ، وتقبل تبعيةً كاملةً. ترى كلّ عاشقةٍ نفسها في حوريّة **أندرسن** الصغيرة الّتي صارت تمشي على صنارتين وجمرٍ عندما استبدلت ذيل السمكة خاصتها بساقي امرأةٍ من أجل الحبّ. ليس صحيحًا أن الرجل الحبيب ضروريٌّ دون قيدٍ أو شرطٍ وهي غير ضروريةٍ له؛ إنه ليس بقادرٍ على تبرير تلك الّتي تكرّس نفسها لعبادته، ولا يدعها تملكه.

على الحب الحقيقي أن يضطلع بمسؤولية جواز الآخر، أي نقصه وحدوده ومجانيته الأصلية؛ لن يدّعي أنه خلاصٌ، ولكن علاقةٌ بين البشر. يمنح الحب الوثني المحبوب قيمةً مطلقةً: تلك أول كذبةٍ تفضحها نظرات الغرباء فيهمسون في أذن العاشقة: «إنه لا يستحق كلّ هذا الحب»؛ وتبتسم الأجيال التالية بإشفاقٍ عندما تذكر وجه الكونت **غيبير**. إنها خيبةٌ شديدةٌ بالنسبة للمرأة أن تكتشف عيوب معبودها وضحالته. كثيرًا ما أشارت **كوليت** ـ في «المتشردة» وفي «تدريباتي» ـ إلى هذا الاحتضار المرير؛ زوال الوهم أقسى من خيبة الطفلة الّتي ترى هيبة الأب تنهار لأنّ المرأة هي الّتي اختارت ذاك الّذي منحته كيانها كلّه. حتى إن كان الشخص المختار جديرًا بأعمق العواطف، فحقيقته أرضيّةٌ: لم يعد هو من تحبّ المرأة الجاثية أمام شخصٍ سامٍ؛ ويخدعها هذا المظهر الجادّ الّذي يرفض أن يضع القيم «بين مزدوجتين»، أي أن يعترف أنّ لها مصدرها في الوجود الإنساني؛ يقيم سوء نيّتها حواجز

بينها وبين ذاك الّذي تعبده. تعطره بالبخور، وتسجد له، لكنها ليست صديقةً له بما أنّها لا تدرك أنّه بخطرٍ في العالم، وأن مشاريعه وغاياته هشّةٌ مثله؛ عندما تعتبره القانون والحقيقة تجهل حرّيته الّتي هي تردّدٌ وقلقٌ. يفسّر هذا الرفض لتطبيق مقياسٍ بشريٍّ على الحبيب كثيرًا من التناقضات الأنثوية. وتطلب المرأة من العشيق خدمةً، ويمنحها إياها: فهو كريمٌ، غنيٌّ، عظيمٌ، ملكيٌّ، إلهيٌّ؛ إذا رفض، يصبح بخيلًا، حقيرًا، قاسيًا، إنه كائنٌ شيطانيٌّ أو بهيميٌّ. قد نعترض بقولنا: «إذا كانت «نعم» تفاجئنا كشيءٍ رائعٍ، هل يجب أن نستغرب «لا»؟ وإذا كانت «لا» تبدي أنانيّةً فائقةً، لماذا نستحسن «نعم» بهذا القدر؟ ألا يوجد هناك مكانٌ للإنساني بين الإنساني الفائق واللاإنساني؟».

ذلك أنّ الإله المخلوع ليس رجلًا: إنّه زيفٌ؛ وليس للعشيق من بديلٍ عن أن يثبت أنه حقًّا هذا الملك المؤلّه، أو أن يعترف أنه كاذبٌ. وحالما يكفّون عن عبادته يجب دوسه بالأقدام. باسم هذا المجد الّذي كلّلت العاشقة به جبين الحبيب، تمنعه من إبداء أيّ ضعفٍ؛ ويخيب أملها وتثور إذا لم يكن مطابقًا لهذه الصور الّتي استبدلته بها؛ إن كان متعَبًا طائشًا، أو إذا كان جائعًا أو عطشانًا في غير أوانه، إذا أخطأ، إذا ناقض نفسه، تقرّر أنّه «دون مستواه» وتلومه على ذلك. بهذا يبلغ بها الأمر أن تلومه على جميع المبادرات الّتي لا تعجبها؛ فتحكم على قاضيها، وكي يستحق أن يظلّ سيّدها، تنكر عليه حريته. تُشبَع عبادتها له أحيانًا بالغياب أكثر منها في الحضور؛ هناك نساءٌ يكرّسن نفسهنّ كما رأينا لأبطالٍ ميّتين أو لا يمكن بلوغهم، كيلا يكون عليهنّ أبدًا مقارنتهم بأشخاصٍ من لحمٍ ودمٍ؛ فهؤلاء يناقضون أحلامهنّ حتمًا. من هنا تأتي الشعارات المخيّبة: «يجب عدم الاعتقاد بوجود الأمير الساحر. والرجال ليسوا سوى أشخاصٍ مساكين». لم يكونوا ليبدون أقزامًا لو لم نطلب منهم أن يكونوا عمالقةً.

تلك هي إحدى اللعنات الّتي تثقل كاهل المرأة العاشقة: ينقلب كرمها فورًا إلى تطلّبٍ. بما أنها استُلِبت في آخر، تريد أيضًا أن تسترجع نفسها: عليها أن تضمّ هذا الآخر الّذي يملك كيانها. فتهب نفسها بكلّيتها له: ولكنّ عليه أن يكون مستعدًا لقبول هذه الهبة كما يجب. إنّها تقدّم له كلّ وقتها: عليه أن يكون حاضرًا في كلّ وقتٍ؛ لا تريد أن تعيش إلّا من خلاله: لكنها تريد أن تعيش؛ وعليه أن يكرّس نفسه ليجعلها تعيش.

كتبت السيدة داغو لـ ليست:

«أحبّك أحيانًا بغباءٍ، وفي تلك اللحظات، لا أفهم أني لا أستطيع ولاأعرف ولا يجب أن أكون بالنسبة لك فكرةً مستوعبةً كما أنت بالنسبة لي».

تحاول كبح الرغبة التلقائية في أن تكون كلّ شيءٍ بالنسبة له. نفس النداء نجده في شكوى الآنسة **دوليسبيناس**:

يا إلهي! لو كنت تعرف ما هي الأيّام، ماهي الحياة مجرّدةً من متعة رؤيتك! يا صديقي، أنت يكفيك اللهو والانشغال والحركة؛ وأنا سعادتي أنت، وأنت فقط؛ لا أودّ أن أعيش إذا لم يكن بإمكاني رؤيتك وحبّك في كلّ لحظات حياتي.

في البداية كانت العاشقة تبتهج بإشباع رغبة عشيقها؛ ثم تنهمك في إيقاظ هذه الرغبة كي يكون عليها إشباعها، كالإطفائي الأسطوري الّذي يشعل حرائق في كلّ مكانٍ حبًّا بمهنته؛ إذا لم تنجح في ذلك تشعر بالخزي، وأنّها عديمة الجدوى لدرجة أنّ العشيق يتظاهر بحرارةٍ لا يشعر بها. تجد أفضل وسيلةٍ لربطه أن تجعل من نفسها عبدةً. وتلك كذبةٌ أخرى من كذبات الحبّ فضحها عديدٌ من الرجال ـ **لورنس**، و**مونترلان** ـ بضغينةٍ: فهو يعتبر نفسه هديّةً بينما هو طاغيةٌ. رسم **بنجامان كونستان** بصرامةٍ في «أدولف» السلاسل الّتي تقيّد الرجلَ بها عاطفةُ امرأةٍ كريمةٍ. يقول عن **إليونور** بقسوةٍ: «لم تكن تحسب تضحياتها لأنها كانت مشغولةً بإرغامي على قبولها». القبول في الواقع التزامٌ يقيّد العشيق دون أن ينال امتياز الظهور كمن يقدّم هبةً؛ تطالبه المرأة بقبول الأعباء الّتي تثقل عليه بها شاكرًا. وطغيانه لا يشبع. الرجل العاشق متسلّطٌ: ولكنّه يرضى عندما يأخذ ما يريد؛ بينما لا حدود لتفاني المرأة المتطلّب. يقبل العشيق الّذي يثق بعشيقته غيابها وانشغالها بعيدًا عنه دون أن ينزعج: ولأنّه متأكّدٌ من أنها تخصّه، يفضّل أن يملك حرّيةً على أن يملك شيئًا. وعلى العكس، غياب العشيق هو دائمًا عذابٌ بالنسبة للمرأة: إنه نظرةٌ، حكَمٌ، ما إن يركّز نظره على شيءٍ سواها، حتى يصيبها بالإحباط؛ كلّ ما يراه يسرقه منها؛ بعيدًا عنه هي مجرّدةٌ من نفسها ومن العالم معًا؛ حتّى وهو جالسٌ بقربها يقرأ أو يكتب يهجرها ويخونها. تكره نومه. يشعر **بودلير** Baudelaire بالشفقة على المرأة النائمة: «عيناك الجميلتان متعبتان، أيتها الحبيبة

المسكينة». ويبتهج بروست Proust وهو يتأمّل ألبرتين النائمة[232]؛ ذلك أنّ الغيرة الذكورية هي ببساطةٍ رغبة التملك الاستئثاري؛ عندما يعيد النوم للحبيبة براءة الطفولة لا تعود ملكًا لأحدٍ: هذه القناعة كافيةٌ بالنسبة للرجل. لكن يجب ألّا يستسلم الله والسيّد لراحة المثوليّة؛ وتتأمل المرأة هذا التسامي المدمَّر بنظرةٍ عدائيةٍ؛ وتكره سكونه الحيواني، هذا الجسد الّذي لم يعد موجودًا بالنسبة لها ولكن في ذاته، مستسلمًا لجوازٍ ضريبتُه جوازُها هي. عبّرت فيوليت لودوك Violette Leduc عن هذا الشعور بقوةٍ:

أكره النائمين. أنحني فوقهم بسوء نيّتي. يغيظني خضوعهم. أكره صفاءهم اللاواعي، وخدرهم الزائف، ووجههم الّذي يشبه وجه الأعمى النشيط، سكرهم المعقول، مثابرتهم كعاجزين... ترقّبت، انتظرت طويلًا الفقاعة الزهريّة الّتي ستخرج من فم نائمي هذا. لم أكن أطلب منه سوى فقاعة حضورٍ، ولم أتلقّها... رأيت أنّ جفني ليله كانا جفني ميّتٍ... ولجأت إلى مرح جفنيه عندما كان هذا الرجل عنيدًا. النوم صعبٌ. لقد أخذ كلّ شيءٍ. أكره نائمي هذا الّذي يستطيع أن يصنع لنفسه باللاوعي سلامًا لا أشعر به. أكره جبهته العسليّة... يعمل في أعماقه من أجل راحته. لا أدري ماذا يراجع... كنا قد انطلقنا بسرعةٍ. كنا نريد أن نترك الأرض مستخدمين مزاجنا. حلّقنا، تسلّقنا، ترقّبنا، وانتظرنا، دندنّا، وصلنا، تأوّهنا، ربحنا وخسرنا معًا. كان ذلك مدرسة حضانةٍ جدّيةً. انتقينا نوعًا جديدًا من العدم. الآن أنت نائمٌ. انطواؤك غير شريفٍ... إذا تحرّك نائمي، تلمس يدي المني رغمًا عنها. إنّه مخزن الحبوب الخانق المستبدّ ذو الخمسين كيسًا من البذور. وقع في يديّ كيسا خصيتيّ الرجل النائم... في يدي أكياس المَني الصغيرة. في يدي الحقول الّتي ستُحرَث، والبساتين الّتي سيُعتنى بها، وقوّة المياه الّتي ستتحوّل، والخشبات الأربع الّتي ستُسمَّر، والأغطية الّتي ستُرفَع. في يدي الثمار والزهور والحيوانات المختارة. في يدي المشرط ومقصّ البستاني والمسبر والمسدّس والملاقط وكلّ هذا لا يملأ يدي. مَني العالم النائم ليس سوى الفائض المتأرجح من استطالة الروح...

أنت، عندما تنام، أكرهك[233].

232- أن تكون ألبرتين ألبرت لا يغيّر شيئًا؛ وضعية بروست هنا هي الوضعية الذكرية على أيّة حالٍ.

233- «أكره النائمين».

يجب ألّا ينام الإله، وإلّا يصبح طينًا، لحمًا؛ يجب ألّا يكفّ عن أن يكون حاضرًا، وإلّا تغرق خليقته في العدم. نوم الرجل شحٌّ وخيانةٌ بالنسبة للمرأة. يوقظ العشيق عشيقته أحيانًا: كي يحضنها؛ وتوقظه هي فقط كيلا ينام، كيلا يبتعد، كيلا يفكّر إلّا بها، كي يكون هناك، حبيس الغرفة، في السرير، بين ذراعيها ـ كالله في خيمة اليهود ـ هذا ما تتمنّاه المرأة: إنّها سجّانةٌ.

ومع ذلك، لا تقبل فعلًا ألّا يكون الرجل سوى سجينها. هنا إحدى تناقضات الحبّ المؤلمة: فالله الأسير يتجرّد من ألوهيّته. وتنقذ المرأة تساميها عندما توجّهه إليه: ولكن يجب أن يأخذها نحو العالم بأسره. إذا انغمس عاشقان معًا في العاطفة القصوى، تتدهور كلّ الحرّية إلى مثوليّةٍ؛ عندئذٍ يستطيع الموت وحده أن يجد لهما حلًّا: وهذا أحد معاني أسطورة تريستان وإيزولت. عاشقان يكرّسان مصيرهما الواحد للآخر بشكلٍ حصريٍّ هما ميّتان أصلًا: يموتان مللًا. وصف مارسيل آرلان Marcel Arland في «الأراضي الغريبة» هذا الاحتضار البطيء لحبٍّ ينهش ذاته. وتعرف المرأة هذا الخطر. وما عدا نوباتٍ من الغيرة الجامحة، تطلب هي ذاتها من الرجل أن يكون مشروعًا، عملًا: لا يعود بطلًا إذا لم يقم بأيّ إنجازٍ. الفارس الّذي يذهب نحو انتصاراتٍ جديدةٍ يخدش سيّدته؛ لكنها تحتقره إذا ظلّ جاثيًا على قدميها. ذلك هو تعذيب الحبّ المستحيل؛ تريد المرأة امتلاك الرجل بكامله، لكنّها تفرض عليه أن يتجاوز كلّ معطىً يمكن امتلاكه: ليس ثمّة حرّية؛ تريد أن تحبس هنا شخصًا هو «من الأشخاص البعيدين»، حسب قول هيدجر، وتعرف جيّدًا أنّ هذه المحاولة محكومٌ عليها بالفشل. لقد كتبت جولي دوليسبيناس: «أحبّك يا صديقي كما يجب أن يحبّ المرء، بإفراطٍ، بجنونٍ، بفورةٍ ويأسٍ». الحبّ الوثنيّ، إن كان واضحًا، لا يمكن إلّا أن يكون يائسًا. لأنّ الحبيبة الّتي تطلب من الحبيب أن يكون بطلًا، عملاقًا، نصف إلهٍ، تطلب ألّا تكون كلّ شيءٍ بالنسبة له بينما لا تستطيع أن تعرف السعادة إلّا بشرط أن تحتويه كلّه فيها.

يقول نيتشه[234] Nietzsche:

> «عاطفة المرأة، التخلّي التام عن كل الحقوق الشخصية، تفترض تحديدًا أنّ نفس العاطفة، نفس الرغبة في التخلّي لا توجد لدى الجنس الآخر، لأنّه إذا تخلّى

234- المعرفة المرحة.

الإثنان عن نفسهما من أجل الحبّ، لا أدري تمامًا ماذا كان لينتج عن ذلك، فلنقل ربما بشاعة الفراغ؟ تريد المرأة أن تؤخذ... وبالتالي تطلب أحدًا يأخذ، لا يهب نفسه ولا يستسلم، ولكن يرغب بالعكس بإغناء أناه بواسطة الحبّ... فالمرأة تهب نفسها، والرجل يكبر بها...

بإمكان المرأة على الأقلّ أن تجد بهجتها في هذا الإغناء الّذي تمنحه للحبيب؛ هي ليست كلّ شيءٍ بالنسبة له لكنها تحاول أن تعتقد أنه لا يمكن الاستغناء عنها؛ لا توجد درجاتٌ في الضرورة. إن «لم يكن يستطيع الاستغناء عنها» تعتبر نفسها أساس وجوده الثمين، ومن ذلك تأخذ قيمتها. وتجد بهجتها في خدمته: ولكن يجب أن يشعر بالامتنان لهذه الخدمة؛ يصبح العطاء تطلّبًا حسب جدليّة التفاني العاديّة[235]. وتتساءل المرأة ذات الفكر المتشكّك: أهو بحاجةٍ إليّ حقًّا؟ فالرجل يدلّلها ويرغب بها بحنانٍ وبرغبةٍ خاصّةٍ: ولكن أليس ممكنًا أن يكون لديه نفس الشعور الخاص تجاه أخرى؟ كثيرٌ من العشيقات يتركن أنفسهنّ ينخدعن؛ يردن تجاهل أنّ العامّ مغطّى بالخاصّ، ويسهّل لهنّ الرجل هذا الوهم لأنّه يشاركهنّ فيه أولًا؛ في رغبته غالبًا جموحٌ يبدو أنّه يتحدّى الزمن؛ في اللّحظة الّتي يريد فيها هذه المرأة، يريدها باحتدامٍ، ولا يريد سواها: واللحظة هي مطلقٌ بالتأكيد ولكن مطلق لحظةٍ. تنتقل المرأة إلى الأزل مخدوعةً. ممجّدةً بعناق السيّد، وتعتقد أنّها كانت دومًا ممجّدةً ومكرّسةً لله وحدها. لكنّ الرغبة الذكريّة عابرةٌ بقدر ما هي ملحّةٌ؛ ما إن يشبعها حتى تموت سريعًا بينما تصبح المرأة غالبًا أسيرته بعد الحبّ. وهذا مبحث أدبٍ سهلٍ كاملٍ وأغانٍ سهلةٍ. «شابٌّ يمرّ، وفتاةٌ تغنّي... شابٌّ يغنّي، وفتاةٌ تبكي». وإذا تعلّق الرجل بالمرأة بصورةٍ دائمةٍ، فذلك لا يعني أنّها ضروريّةٌ بالنسبة له. مع ذلك فهذا ما تطالب به، ولا ينقذها استسلامها إلّا بشرط أن تعيد له امبراطوريّته؛ فلا يمكن الهروب من لعبة المعاملة بالمثل. يجب إذن أن تتألّم، أو أن تكذب على نفسها. غالبًا ما تتشبّث أوّلًا بالكذب. وتتصوّر أنّ حبّ الرجل مماثلٌ لحبّها له؛ وبسوء نيّةٍ تعتبر الرغبة حبًّا، والانتصاب رغبةً، والحبّ ديانةً. وترغم الرجل على أن يكذب عليها: أتحبّني؟ مثل البارحة؟ أما زلت تحبّني؟ هل ستحبّني دومًا؟ تطرح الأسئلة ببراعةٍ في حين لا يكون هناك وقتٌ لإعطاء أجوبةٍ دقيقةٍ وصريحةٍ، أو حين لا تسمح الظروف

235- هذا ما حاولنا الإشارة إليه في بيروس وسينياس Pyrrhus et Cinèas.

بذلك؛ تسأل بإلحاحٍ أثناء العناق الغرامي، على هامش نقاهةٍ، أثناء النحيب أو على رصيف محطّةٍ؛ وتتباهى بالأجوبة المُنتَزعة قسرًا؛ وإذا لم تكن هناك أجوبةٌ، تأخذها من الصمت؛ كلّ عاشقةٍ حقيقيّةٍ تعاني قليلًا أو كثيرًا من التشكيك. أذكر صديقةً كانت تقول تجاه الصمت الطويل لعشيقٍ قديمٍ: «عندما يود المرء فصم العلاقة يكتب رسالةً»؛ ثم عندما تلقّت رسالةً لا لبس فيها قالت: «عندما يودّ المرء فعلًا فصم العلاقة لا يكتب رسالةً». من الصعب جدًّا أمام الاعترافات المتلقّاة تحديد أين يبدأ الهذيان المرضيّ. يبدو سلوك الرجل الّذي تصفه العاشقة الجزعة دائمًا مخالفًا للصواب: إنه عصابيٌّ، ساديٌّ، مكبوتٌ، مازوشيٌّ، شيطانٌ، متقلّبٌ، جبانٌ، أو كلّ ذلك معًا؛ يتحدّى أدقّ التفسيرات النفسيّة. «س... يعبدني، وهو غيورٌ جدًّا، يودّ لو أرتدي قناعًا عند الخروج؛ لكنه شخصٌ غريبٌ لا يثق بالحبّ لدرجة أنّه عندما أقرع بابه، يستقبلني على العتبة وحتّى لا يدعني أدخل». أو أيضًا: «كان ص... يعبدني. لكنّ كبرياءه كان يمنعه من أن يطلب مني أن أذهب لأعيش في ليون حيث يسكن: وذهبت إلى هناك وسكنت معه. وبعد ثمانية أيامٍ، ودون أن نتشاجر، طردني. رأيته ثانيةً مرّتين. في المرّة الثالثة الّتي اتصلت به فيها، أغلق السماعة في وسط المحادثة. إنّه عصابيٌّ». نجد تفسيرًا لهذه القصص الغامضة عندما يشرح الرجل موقفه: «لم أكن أحبّها قطعًا»، أو: «كنت أشعر تجاهها بالصداقة، لكن لم أكن لأتحمّل العيش معها شهرًا». إذا تعنّتت أكثر مما ينبغي، يقودها سوء النيّة إلى المصحّ العقليّ: إحدى السمات الثابتة للمسّ الشبقيّ هي أنّ سلوك العشيق يبدو لغزًا ومتناقضًا؛ بهذا ينجح هذيان المريضة دائمًا في كسر مقاومات الواقع. أحيانًا ينتهي الأمر بالمرأة الطبيعيّة إلى أن تقهرها الحقيقة، فتعترف أنّها لم تعد محبوبةً. ولكن طالما لم تُرغم على الاعتراف بهذا الأمر، تغشّ دائمًا بعض الشيء. حتّى في حالة الحبّ المتبادل، هناك اختلافٌ أساسيٌّ بين مشاعر العاشقين تجهد في إخفائه. ينبغي أن يكون الرجل قادرًا على تبرير نفسه من دونها بما أنها تأمل بأن يبرّرها هو. إن كان ضروريًّا لها، فهذا لأنها تهرب من حرّيتها: لكن إن كان يضطلع بالحريّة الّتي لا يكون من دونها بطلًا ولا رجلًا عاديًّا، لا شيء ولا أحد يمكنه أن يكون ضروريًّا بالنسبة له. تأتي التبعية الّتي تقبلها المرأة من ضعفها: كيف تجد تبعيّةً متبادلةً لدى ذلك الّذي تحبه ضمن قوّته؟

لا تستطيع الروح المتطلّبة بشغفٍ أن تجد الراحة في الحبّ لأنها تهدف إلى غايةٍ

متناقضةٍ. تخاطر ممزّقةً، معذّبةً، بأن تصبح عبئًا على ذلك الّذي كانت تحلم بأنها عبدته؛ عندما لا تشعر أنّه لا يستطيع الاستغناء عنها، تصبح مزعجةً، بغيضةً. وهذه أيضًا مأساةٌ شائعةٌ للغاية. وتستسلم العاشقة الأكثر تعقّلًا، الأقلّ تصلّبًا. فتقتنع أنّها ليست كلّ شيءٍ، وليست ضروريّةً: يكفيها أن تكون مفيدةً؛ فقد تحتل أخرى مكانها بسهولةٍ وتكتفي بأن تكون موجودةً هناك. وتعترف بعبوديّتها دون أن تطلب المعاملة بالمثل. عندها تستطيع التمتّع بسعادةٍ متواضعةٍ؛ ولكن، حتى ضمن هذه الحدود، لن تكون هذه السعادة صافيةً. وتنتظر العاشقة، متألّمةً أكثر من الزوجة بكثيرٍ. إذا كانت الزوجة نفسها عاشقةً حصرًا، فليس لأعباء المنزل والأمومة وأشغالها ومتعها أيّة قيمةٍ في نظرها: حضور الزوج هو الّذي ينتزعها من الملل. كتبت سيسيل **سوفاج** في بدايات زواجها[236]: «عندما لا تعود موجودًا، يبدو لي أنّه لم يعد مهمًّا أن أنظر إلى النهار؛ عندئذٍ يصبح كلّ ما يحدث لي كالموت، ولا أعود سوى ثوبٍ صغيرٍ فارغٍ ملقىً على كرسيٍّ». ورأينا أنّ الحب المتأجج يولد ويزدهر غالبًا خارج الزواج. أحد أكثر الأمثلة اللافتة للنظر على حياةٍ مكرّسةٍ كلّها للحبّ، هو مثال **جولييت درويه**: فحياتها انتظارٌ غير محدودٍ. وكتبت لـ**هيغو**: «تجب دائمًا العودة إلى نقطة الانطلاق، أي انتظارك إلى ما لا نهاية». «أنتظرك كسنجابٍ في قفصٍ». «يا إلهي! كم هو محزنٌ لطبيعةٍ مثل طبيعتي الانتظار من أول الحياة إلى آخرها». «يا له من نهارٍ! اعتقدت أنه لن يمرّ لفرط ما انتظرتك والآن أرى أنّه مرّ بسرعةٍ كبيرةٍ بما أني لم أرك...». «أجد النهار أزليًّا...». «أنتظرك لأني أفضّل أن أنتظرك على الاعتقاد بأنّك لن تأتي أبدًا». صحيحٌ أن **هيغو**، بعد أن جعل **جولييت** تقطع علاقتها مع راعيها الغني الأمير **دميدوف**، جعلها تقبع في شقّةٍ صغيرةٍ ومنعها من الخروج بمفردها اثنتي عشرة سنةً، كيلا تعود إلى أيٍّ من أصدقائها السابقين. ولكن حتّى عندما تحسّن وضع تلك الّتي كانت تدعو نفسها «ضحيتك المسكينة الحبيسة»، فقد ظلّ عشيقها سبب حياتها الوحيد وظلّت لا تراه إلّا لمامًا. وكتبت عام 1841: «أحبك يا حبيبي فيكتور، لكنّ قلبي حزينٌ ومليءٌ بالمرارة؛ أراك قليلًا جدًّا، قليلًا جدًّا، وحتى في هذا الوقت القليل أنت لست لي بما يكفي بحيث أنّ كلّ هذه الفترات القليلة جدًّا

236- يختلف الحال إذا وجدت المرأة استقلاليتها في الزواج؛ يمكن عندها للحبّ بين الزوجين أن يكون تبادلًا حرًّا بين شخصين يكتفي كل منهما بنفسه.

تصبح كلّاً من الحزن يملأ قلبي وفكري». وتحلم بالتوفيق بين الاستقلال والحبّ. «أودّ أن أكون مستقلّةً وعبدةً معًا، مستقلّةً عبر وضعٍ يغنيني وعبدةً لحبّي فقط». ولكن بما أنّها فشلت نهائيًّا في مهنتها كممثّلةٍ، اضطرّت «من أوّل الحياة إلى آخرها» لأن تقنع بألّا تكون سوى حبيبةٍ. رغم جهودها في خدمة المعبود، كانت الساعات فارغةً أكثر مما ينبغي: تشهد على ذلك السبعة عشر ألف رسالةٍ الّتي كتبتها لـهيغو بمعدّل ثلاثمئة إلى أربعمئة رسالةٍ سنويًّا. لم يكن بإمكانها سوى تمضية الوقت بين زيارات السيّد. الفظاعة الأسوأ، في ظرف امرأة الحريم، هو أنّ أيامها هي صحارى من الضجر: عندما لا يستخدم الذكر هذا الشيء أي ما هي بالنسبة له، لا تعود شيئًا أبدًا. وضع العاشقة مماثلٌ: لا تودّ أن تكون سوى هذه المرأة المحبوبة، ولا قيمة لشيءٍ غير ذلك في نظرها. كي توجد، ينبغي أن يكون العشيق بقربها، منشغلًا بها؛ تنتظر قدومه، ورغبته، واستيقاظه؛ وما إن يتركها، حتّى تعود لانتظاره ثانيةً. إنّها اللّعنة الّتي تلقي بثقلها على بطلة «الشارع الخلفي»[237] Back Street، وبطلة «الطقس الرديء»[238] Intempèries، كاهناتٍ وضحايًا للحبّ الخالص. إنّه العقاب القاسي المفروض على الّتي لم تقرّر مصيرها بنفسها.

انتظار فرحٍ ربّما؛ بالنسبة لتلك الّتي تترقّب الحبيب عارفةً أنّه يهرع إليها، عارفةً أنّه يحبها، الانتظار هو وعدٌ باهرٌ. ولكن بعد زوال نشوة الحبّ المطمئنّة الّتي تبدّل الغياب نفسه إلى حضورٍ، يختلط فراغ الغياب بعذاب القلق: قد لا يعود الرجل أبدًا. عرفت امرأةً كانت لدى كلّ لقاءٍ تستقبل عشيقها بدهشةٍ. كانت تقول: «كنت أظنّ أنّك لن تعود ثانيةً». وإذا سألها لماذا، تجيب: «كان يمكن ألّا تعود؛ عندما أنتظرك، لدي دومًا الانطباع بأني لن أراك بعد الآن». قد يكفّ عن حبّها: وقد يحبّ امرأةً أخرى. لأنّ الإصرار الّذي تحاول المرأة به إيهام نفسها قائلةً: «إنه يحبني بجنونٍ، لا يمكنه أن يحبّ سواي» لا يمنع عذاب الغيرة. وبسوء النية تطلق تأكيداتٍ شغوفةً ومتناقضةً. وهكذا المجنون الّذي يخال نفسه نابوليون لا يزعجه أن يعترف بأنّه أيضًا صبي حلّاقٍ. نادرًا ما توافق المرأة على أن تتساءل: هل يحبني حقًّا؟ لكنها تتساءل مئة مرّةٍ: ألا يحبّ أخرى؟ ولا تقبل أن تخبو جذوة العاشق شيئًا فشيئًا، ولا أن يعطي

237- فاني هرست Fanny Hurst، الشارع الخلفي.

238- ر. ليمان R. Lehmann، الطقس الرديء.

الحبّ قيمةً أقلّ مما تعطي هي: وتخترع غريماتٍ على الفور. وتعتبر الحبّ شعورًا حرًّا وافتتانًا سحريًا؛ وتعتبر أن «رجلها» يستمرّ في حبّها ضمن حرّيته بينما هو «مخدوعٌ»، «واقعٌ في فخّ» متآمرةٍ بارعةٍ. يفهم الرجل المرأة على أنّها مماثلةٌ له، ضمن مثوليتها؛ ولهذا يلعب بسهولةٍ دور بوبوروش[239] boubouroche؛ يصعب عليه تخيّل أنّها أيضًا واحدةٌ أخرى تفلت منه؛ لا تكون الغيرة لديه عادةً سوى أزمةٍ عابرة، كالحبّ نفسه: وقد تكون الأزمة عنيفةً وحتّى قاتلةً، ولكن يندر أن يلازمه القلق بشكلٍ دائمٍ. وتبدو الغيرة خصوصًا لديه كمصرفٍ: عندما تسوء أعماله، عندما يشعر أنّ الحياة أرهقته، عندها يقول لنفسه إنّ امرأته تهزأ به[240]. وعلى العكس، المرأة الّتي تحبّ الرجل في غيريته، في تساميه، تشعر أنّها بخطرٍ في كلّ لحظةٍ. لا تفترق خيانة الغياب كثيرًا عن الخيانة العاطفيّة. ما إن تشعر أنّ حبّه فتر حتّى تشعر بالغيرة: وهكذا الأمر دومًا قليلًا أو كثيرًا بما أنّها متطلّبةٌ؛ مهما كانت أعذار لومها وشكواها، تتجلّى بمشاحنات غيرةٍ: وهكذا تعبّر عن قلّة صبر الانتظار وضجره، وشعورها المرّ بتبعيتها، والأسف على أنّه ليس لديها سوى وجودٍ مبتورٍ. كلّ مصيرها على المحكّ في كلّ نظرةٍ يلقيها الرجل المحبوب على امرأةٍ أخرى بما أنّها تخلّت له عن كيانها كلّه. وتثور كذلك إذا التفتت عينا العشيق لحظةً نحو غريبةٍ؛ إذا ذكّرها بأنّها أطالت النظر للتوّ إلى رجلٍ غريبٍ؛ تقول بقناعةٍ: «هذا مختلفٌ». وهي على حقٍّ. الرجل الّذي تنظر إليه امرأةٌ لا يتلقّى شيئًا منها: لا يبدأ المنح إلّا عندما يصبح الجسد الأنثوي غنيمةً. بينما المرأة المشتهاة تتحوّل فورًا إلى شيءٍ يثير الرغبة؛ وتعود المرأة المرفوضة «صلصالًا عاديًا». وبالتالي تبقى دومًا متحفّزةً. ماذا يعمل؟ إلى ماذا ينظر؟ مع من يتحدّث؟ ما أعطتها إياه ابتسامةٌ، تستطيع ابتسامةٌ أخرى أن تأخذه منها؛ تكفي لحظةٌ لتلقي بها من «نور الخلود البرّاق» إلى الغسق اليومي. تلقّت كلّ شيءٍ من الحبّ، ويمكنها أن تفقد كلّ شيءٍ إذا فقدته. سواءً كانت الغيرة محدّدةً أم لا، لها أساسٌ أم لا، فهي بالنسبة للمرأة تعذيبٌ جنونيٌّ لأنّها رفضٌ جذريٌّ للحبّ: إذا كانت الخيانة أكيدةً، فيجب إمّا التخلّي عن هذا الحبّ أو التخلّي عن جعله ديانةً؛ وهو اضطرابٌ جذريٌّ لدرجة أنّنا نفهم كون العاشقة المشكّكة تارةً والمخدوعة تارةً أخرى مهووسةً بالرغبة وبالقلق من اكتشاف الحقيقة القاتلة.

239- إحدى شخصيات الكاتب جورج كورتلين.

240- هذا ما يظهر، من ضمن أشياء أخرى، من كتاب لاغاش Lagache: طبيعة الغيرة وأشكالها.

صلفةً وقلقةً معًا، يمكن أن تكون المرأة الغيورة باستمرارٍ على خطأٍ دومًا: ذاقت جولييت درويه عذاب الشك بما يخصّ كلّ النساء اللّواتي كان هيغو يقترب منهنّ، ناسيةً فقط أن تخشى ليوني بيار، الّتي كانت عشيقته خلال ثماني سنواتٍ. عندما يحدث الشكّ تكون كلّ امرأةٍ منافِسةً وخطرًا. ويقتل الحب الصداقة بما أنّ العاشقة تحبس نفسها ضمن عالم الرجل المحبوب؛ وتثير الغيرة وحدتها، وتزيد بذلك من تبعيّتها. مع ذلك تجد فيها ملاذًا من الضجر، فالاحتفاظ بزوجٍ عملٌ شاقٌّ، أما الاحتفاظ بعشيقٍ، فهو نوعٌ من الكهنوتيّة. وتعود المرأة الّتي كانت تهمل شخصها، غارقةً في عبادةٍ بهيجةٍ، للاهتمام بنفسها ما إن تستشعر تهديدًا. ويصبح التزيّن والاعتناء بالمنزل والاستعراضات الاجتماعية جزءًا من معركةٍ. فالنضال عملٌ منشّطٌ؛ تجد فيه المقاتلة متعةً كبيرةً طالما هي أكيدةٌ تقريبًا من الانتصار. لكنّ الخوف المشوب بالقلق من الهزيمة يحوّل المنحة المعطاة بسخاءٍ إلى عبوديّةٍ مذلّةٍ. ويهاجم الرجل كي يدافع عن نفسه. وتضطر المرأة، رغم كبريائها، إلى أن تصبح لطيفةً وسلبيّةً؛ وأفضل الأسلحة هي المناورات والحذر والابتسامات والفتنة والطاعة. ما زلت أرى هذه الشابة الّتي قرعتُ بابها ذات مساءٍ على حين غرّةٍ؛ كنت قد تركتها قبل ساعتين، دون زينةٍ وبثيابٍ مهملةٍ، وعينين كئيبتين؛ الآن كانت تنتظره؛ عندما لمحتني عاد وجهها إلى صورته المعتادة ولكني للحظةٍ رأيتها متهيّئةً من أجله، متشنّجةً ضمن الخوف والرياء، مستعدّةً لكلّ الآلام خلف ابتسامتها البشوشة؛ كانت قد صفّفت شعرها بعنايةٍ، وحُمرةٌ جريئةٌ تتوهّج على خديها وشفتيها، وقميصٌ من الدنتيلا أبيض ناصعٌ يكسوها. ملابس العيد أسلحة المعركة. ويعرف المدلّكون، ومزيّنو الوجه، وخبراء التجميل، الأهمّية الّتي توليها زبوناتهنّ لعنايةٍ تبدو تافهةً؛ يجب ابتكار إغراءاتٍ جديدةً للعشيق، يجب أن تصبح هذه المرأة الّتي يتمنّى لقاءها وامتلاكها. لكنّ لا طائل من كلّ جهدٍ: لن يحيي فيها صورة الأخرى الّتي اجتذبته في البداية، والّتي تستطيع اجتذابه لدى أخرى. ويوجد لدى العشيق نفس رياء الزوج وتطلّبه اللامعقول: يريد أن تكون عشيقته له فقط وغريبةً مع ذلك؛ يريدها مطابقةً تمامًا لحلمه ومختلفةً عن كلّ ما يبتكره خياله، استجابةً لما ينتظر ومفاجأةً غير متوقعةٍ. ويمزّق هذا التناقض المرأة ويودي بها إلى الفشل. فتحاول أن تقولب نفسها حسب رغبة العشيق؛ كثيرٌ من النساء اللّواتي كنّ قد ازدهرن في بدايات حبٍّ كان يؤكّد نرجسيتهنّ يهلعن ـ بعبوديّةٍ مهووسةٍ ـ عندما يشعرن

بأنّ حبّ العاشق قد فتر؛ ويثرن حفيظته لأنّهنّ مهووساتٍ، منهكاتٍ؛ بمنح المرأة نفسها له بشكلٍ أعمى، تفقد بُعد الحرّية هذا الّذي كان يجعلها ساحرةً في البداية. كان يبحث فيها عن صورته: ولكنّه يضجر إذا وجدها مطابقةً أكثر مما ينبغي. إحدى مآسي العاشقة، هي أنّ حبّها نفسه يشوّهها ويفنيها؛ لم تعد سوى هذه العبدة، هذه الخادمة، هذه المرآة المطيعة أكثر مما يجب، هذا الصدى المطابق أكثر مما ينبغي. عندما تدرك ذلك، ينزع عنها ضيقها قيمةً أخرى؛ وتفقد تمامًا كلّ جاذبيتها بالدموع والمطالب والشجار. الكائن هو ما يفعل؛ وكي تكون، اعتمدت على شعورٍ غريبٍ وتخلّت عن فعل أيّ شيءٍ. كتبت جولي دوليسبيناس: «لا أعرف سوى أن أحبّ». «أنا الّتي ليست سوى حبٌّ»: هذا العنوان لروايةٍ[241] هو شعار العاشقة؛ ليست سوى حبٌّ، وعندما يفقد الحبّ موضوعه، تصبح لا شيء.

وكثيرًا ما تفهم غلطتها؛ عندئذٍ تحاول إعادة تأكيد حرّيتها، واستعادة غيريتها؛ فتصبح مغناجًا. وعندما يرغب بها رجالٌ آخرون، يهتمّ بها ثانيةً العاشق الّذي سئمها: وقد تكرّر هذا الموضوع في العديد من الروايات «اللاذعة»؛ يكفي الابتعاد أحيانًا ليعيد لها مكانتها؛ تبدو ألبرتين مملّةً عندما تكون حاضرةً ومطيعةً؛ وعلى البعد تعود غامضةً ويعطيها بروست الغيور قيمةً من جديدٍ. لكنّ هذه المناورات دقيقةٌ؛ إذا اكتشفها الرجل، تكشف له بسخريةٍ عبوديّة عبدته. ولا يخلو نجاحها من خطرٍ: ينفر العشيق من عشيقته لأنّها ملكه، ولكنّه يتعلّق بها لأنّها ملكه كذلك؛ أتهدم الخيانة النفور أم التعلّق؟ قد يتحوّل الرجل مغتاظًا عن اللامبالية: يريدها حرّةً، فليكن؛ لكنّه يريدها ممنوحةً. وتعرف هذه المخاطرة: ويشلّ هذا غنجها. يستحيل تقريبًا على عاشقةٍ أن تلعب هذه اللعبة ببراعةٍ؛ إذ تخشى كثيرًا أن تقع في الفخ الّذي تنصبه. وبقدر ما يبقى عشيقها محترمًا لديها تأنف من أن تخدعه: كيف سيبقى في نظرها نصف إلهٍ؟ إذا كسبت الجولة، ستحطّم معبودها؛ وإن خسرتها، ستضيع هي. فأين المفرّ؟

العاشقة الحذرة ـ وهاتان الكلمتان متنافرتان ـ تبذل جهدًا في قلب عاطفة العشيق إلى حنانٍ، وصداقةٍ، واعتيادٍ؛ أو تربطه بروابط متينةٍ: كطفلٍ، أو زواجٍ؛ تلاحق هذه الرغبة

241- لدومينيك رولان Dominique Rolin.

في الزواج العديد من العلاقات: إنّها الرغبة في الأمان؛ وتستفيد العشيقة البارعة من كرم الحبّ الجديد لتؤمّن المستقبل: ولكن عندما تقوم بهذه المضاربات لا تعود تستحق اسم العاشقة. لأنّ هذه تحلم بجنونٍ بالاستيلاء على حرّية العشيق للأبد، ولكن ليس بإلغائه. ولهذا يقود الحبّ ـ الديانة إلى كارثةٍ، إلّا في حالةٍ نادرةٍ للغاية حيث يدوم الالتزام الحرّ طول الحياة. كانت الآنسة **دوليسبيناس** محظوظةً مع مورا لأنّها ملّت قبله: ملّت لأنّها كانت قد التقت بـ**غيبير** الّذي سريعًا ما ملّها بالمقابل. ومات حبّ السيدة **داغو** و«**ليست**» بهذه الجدليّة العنيدة: التوقّد، والحيويّة، والطموح الّتي كانت تجعل «**ليست**» محبوبًا بهذا الشكل كرّسته لغراميّاتٍ أخرى. ولم يعد بإمكان الراهبة البرتغالية سوى الخضوع للهجر. كانت خيانة **دانّنزيو** ضريبة الشعلة الّتي كانت تجعله فاتنًا[242]. قد تؤثّر القطيعة على الرجل بشكلٍ عميقٍ: ولكنّه يتابع حياته كرجلٍ. أمّا المرأة المهجورة فلا تعود شيئًا، ولا يعود لديها شيءٌ. إذا سألوها: «كيف كنت تعيشين قبلًا؟» لا تتذكّر ذلك حتّى. هذا العالم الّذي كان عالمها، تركته رمادًا كي تعتنق وطنًا جديدًا طُرِدت منه فجأةً؛ لقد أنكرت كلّ القيم الّتي كانت تعتقد بها، وتخلّت عن صداقاتها؛ وتجد نفسها الآن بلا سقفٍ فوق رأسها، تحيط بها الصحراء. كيف ستبدأ حياةً جديدةً بما أنّه ليس هناك من شيءٍ سوى الحبيب؟ وتلجأ لهذياناتٍ كما كان يحدث سابقًا في الدير؛ أو إذا كانت منطقيّةً أكثر مما يجب، لا يبقى أمامها سوى الموت: سريعًا، مثل الآنسة **دوليسبيناس**، أو ببطءٍ؛ قد يدوم الاحتضار طويلًا. عندما تكرّس امرأةٌ نفسها لرجلٍ جسدًا وروحًا لمدة عشر سنواتٍ، عشرين سنةً، عندما يبقى ثابتًا فوق النصب الّذي أقامته له، يصبح هجره لها كارثةً صاعقةً. سألت هذه المرأة الّتي تبلغ الأربعين: «ماذا يمكنني أن أفعل؟ ماذا أستطيع أن أفعل إذا لم يعد جاك يحبني؟». كانت تلبس وتصفّف شعرها وتتزيّن بدقّةٍ؛ لكن وجهها القاسي، الّذي تخرّب، لم يعد بإمكانه إيقاظ حبٍّ جديدٍ؛ هي أيضًا، بعد عشرين سنةً قضتها في ظلّ رجلٍ، هل بإمكانها أن تحبّ غيره؟ ما زالت هناك سنواتٌ طويلةٌ ليحياها المرء عندما يكون في الأربعين. أرى ثانيةً هذه المرأة الّتي ظلّت عيناها جميلتين، وتقاطيعها نبيلةً رغم وجهٍ مليءٍ بالآلام، وكانت الدموع تنساب على خديها أمام الناس دون أن تنتبه لذلك، عمياء، صمّاء. يقول الله الآن لأخرى الكلمات الّتي اختُرِعت

242- حسب قول إيزادورا دنكان.

من لأجلها؛ هي ملكةٌ مخلوعةٌ، لم تعد تعرف إذا كانت قد حكمت يومًا مملكةً حقيقيّةً. إذا كانت المرأة ما تزال شابّةً، فلديها فرصٌ في الشفاء: سيشفيها حبٌّ جديدٌ؛ أحيانًا تندفع فيه بقدرٍ أكبر قليلًا من التحفّظ، فاهمةً أنّ ما هو غير فريدٍ لن يكون مطلقًا؛ ولكن غالبًا تتحطّم فيه بعنفٍ أكثر من المرّة الأولى، لأنّ عليها التعويض أيضًا عن هزيمتها السابقة. فشل الحبّ المطلق ليس تجربةً مثمرةً إلّا إذا كانت المرأة قادرةً على أخذ زمام أمرها بيدها؛ بعد أن افترقت إيلويز عن أبيلار لم تتحطّم لأنّها كانت تدير ديرًا وبذا أنشأت لنفسها وجودًا مستقلًا. بطلات كوليت فخوراتٌ أكثر مما يجب ولديهنّ موارد أكثر بحيث لا يدعن خيبةً عاطفيّةً تحطّمهنّ: وتهرب رينيه ميري إلى العمل. وكانت سيدو تقول لابنتها أنّها لم تكن قلقةً كثيرًا على مصيرها العاطفي لأنها كانت تعرف أنّ كوليت ليست عاشقةً. وضع النفس بكاملها بين يدين أخريين جريمةٌ تستحق أقسى العقوبات.

يجب أن يقوم الحبّ الأصليّ على الاعتراف المتبادل بحرّيتين؛ عندها يشعر كلٌّ من العاشقين أنّه هو ذاته وأنّه الآخر؛ ولن يتخلّى أحدٌ عن تساميه، ولن يبتر أحدٌ نفسه؛ وسيكشفان معًا في العالم قيمًا وغاياتٍ. وسيكون الحبّ بالنسبة لكلٍّ منهما اكتشافًا لذاته عبر وهب الذات وإغناءً للكون. في كتاب جورج غسدورف George Gusdorf «معرفة الذات» يلخّص بدقّةٍ ما يطلبه الرجل من الحبّ:

> يكشفنا الحبّ لنفسنا عندما يجعلنا نخرج من نفسنا. نؤكّد ذاتنا باتّصالنا بما هو غريبٌ ومكمّلٌ. يكشف الحبّ كشكلٍ للمعرفة سماواتٍ جديدةً وأراضٍ جديدةً في نفس المشهد الّذي عشنا فيه دائمًا. وهنا السرّ الكبير: العالم آخر، أنا نفسي آخر. ولم أعد الوحيد الّذي يعرف ذلك. أكثر من ذلك حتّى: لقد علّمني ذلك أحدهم. تلعب المرأة إذًا دورًا ضروريًا وأساسيًا في إدراك الرجل لذاته.

من ذلك تأتي أهمّية التدريب الغرامي بالنسبة للشاب[243]؛ رأينا كم ابتهج ستندال ومالرو Malraux بمعجزة «أنا نفسي آخر». ولكن غسدورف مخطئٌ إذ يكتب: «وبالمثل يمثّل الرجل بالنسبة للمرأة وسيطًا ضروريًا منها إليها»، لأنّ وضعها اليوم اختلف؛ يظهر الرجل

243- انظر الجزء الأوّل.

بوجهٍ مختلفٍ لكنّه يظلّ هو نفسه ويندمج وجهه الجديد مع مجمل شخصيّته. ولا يكون الأمر مماثلًا لدى المرأة إلّا إذا كانت موجودةً أساسًا من أجل ذاتها؛ ما يفرض أن تملك استقلالًا اقتصاديًّا، وأن تنطلق نحو أهدافٍ خاصّةٍ وتتجاوز نفسها دون وسيطٍ نحو الجماعة. عندها يكون الحبّ بالتساوي ممكنًا، كذلك الّذي وصفه **مالرو** بين **كيو وماي**. يمكن حتّى أن تلعب المرأة الدور الذكريّ والمسيطر مثل السيدة وارنز تجاه **روسّو** Rousseau، و«**ليا**» تجاه «**شيري**». ولكن في معظم الحالات لا تعرف المرأة نفسها سوى أخرى: يختلط لديها «من أجل الغير» مع كيانها نفسه؛ والحبّ بالنسبة لها ليس وسيطًا من الذات للذات لأنّها لا تجد نفسها ضمن وجودها الذاتيّ؛ وتبقى مخبأةً ضمن هذه العاشقة الّتي لم يكشفها الرجل فقط وإنّما صنعها؛ ويتعلّق خلاصها الوحيد بهذه الحرّية المستبدّة الّتي أنشأتها والّتي تستطيع إلغاءها بلحظةٍ. وتُمضي حياتها ترتعد أمام ذلك الّذي يمسك بمصيرها بين يديه دون أن يعرف ذلك تمامًا، دون أن يريده تمامًا؛ إنها في خطرٍ ضمن آخر، شاهدٌ قلقٌ عاجزٌ على مصيرها. هذا الآخر طاغيةٌ رغمًا عنه، جلّادٌ رغمًا عنه، له وجه عدوٌّ رغمًا عنها وعنه: وتعيش العاشقة وحدةً مريرةً بدل الاتحاد المطلوب، والصراع والكره غالبًا بدل التشارك. الحبّ لدى المرأة محاولةٌ قصوى للتغلّب على التبعيّة المفروضة عليها بالاضطلاع بها؛ ولكن حتّى إن قبلت التبعيّة فلا يمكنها أن تعيشها إلّا ضمن الخوف والمذلّة.

أعلن الرجال أنّ الحبّ بالنسبة للمرأة اكتمالها الأسمى. وقال **نيتشه**: «المرأة الّتي تحبّ كامرأةٍ تصبح امرأةً بشكلٍ أعمق»، و**بلزاك**: «لدى الطبقة العليا، حياة الرجل هي المجد، وحياة المرأة هي الحبّ. لا تساوي المرأة الرجل إلّا إذا جعلت حياتها تقدمةً دائمةً، كما تكون حياة الرجل عملًا دائمًا». لكنّ هذه خدعةٌ قاسيةٌ أيضًا بما أنهم لا يهتمون أبدًا بقبول ما تقدّمه. والرجل ليس بحاجةٍ للتفاني غير المشروط الّذي يطالب به، ولا للحبّ المولع الّذي يرضي غروره؛ ولا يقبلهما إلّا بشرط عدم التعامل بالمثل بتأدية ما تفرضه هذه المواقف من متطلّباتٍ. ينصح المرأة بالعطاء ويرهقه هذا العطاء؛ فتجد نفسها محتارةً بهداياها الّتي لا فائدة منها، محتارةً بوجودها الّذي لا طائل منه. حين يمكن للمرأة أن تحبّ ضمن قوّتها، وليس ضمن ضعفها، وليس كي تهرب، ولكن كي تجد نفسها، ليس كي تعتزل، ولكن كي تؤكّد نفسها، عندئذٍ يصبح الحبّ بالنسبة لها كما بالنسبة للرجل مصدر حياةٍ وليس خطرًا مميتًا.

بانتظار ذلك، يلخّص بصورته الأكثر إثارةً للحزن اللعنة الّتي تثقل على المرأة الحبيسة ضمن العالم الأنثويّ، المرأة المبتورة، العاجزة عن الاكتفاء بنفسها. شهيدات الحبّ اللّواتي لا يمكن حصرهنّ شهدن على ظلم قدرٍ يمنحهنّ كخلاصٍ أقصى جحيمًا عقيمًا.

الفصل الثالث عشر

الصوفيّة

خُصِّص الحبّ للمرأة كنزعتها الأسمى، وعندما توجّهه للرجل، تبحث فيه عن الله: إذا منعتها الظروف من الحبّ البشريّ، وإذا كانت خائبةً أو متطلّبةً، تختار أن تعبد الألوهيّة في الله نفسه. كان هناك بالتأكيد رجالٌ احترقوا بهذه الشعلة أيضًا؛ لكنّهم نادرون واكتسى ورعهم مظهرًا فكريًّا نقيًّا. بينما النساء اللّواتي يستسلمن للذّات العرس السماويّ كثيراتٌ: ويعشن ذلك بطريقةٍ عاطفيّةٍ بشكلٍ غريبٍ. فالمرأة معتادةٌ على العيش راكعةً؛ تنتظر عادةً أن يهبط خلاصها من السماء حيث يتصدّر الذكور؛ هم أيضًا مغلّفون بالسحب: تتكشف عظمتهم فيما وراء أغطية حضورهم الجسدي. الحبيب غائبٌ دومًا نوعًا ما؛ يتواصل مع المولعة به عبر إشاراتٍ غامضةٍ؛ لا تعرف قلبه إلّا عبر برهان ثقةٍ؛ وكلّما بدا لها أعلى كلّما بدا لها سلوكه غير مفهومٍ. رأينا في المسّ الشبقيّ أنّ هذا اليقين يستعصي على كلّ تكذيبٍ. فالمرأة ليست بحاجةٍ إلى أن ترى أو تلمس كي تشعر بالحضور بقربها. وسواءً تعلّق الأمر بطبيبٍ أو كاهنٍ أو الله، فستشعر بنفس البديهيات الّتي لا يمكن إنكارها، وستستقبل في قلبها كعبدةٍ سيل حبٍّ يسقط من الأعلى. ويختلط الحبّ البشريّ والحبّ الإلهيّ، ليس لأن الثاني تصعيدٌ للأوّل، ولكن لأنّ الأوّل هو أيضًا حركةٌ نحو السامي، نحو المطلق. الأمر بالنسبة

للعاشقة على أيّة حالٍ هو إنقاذ وجودها العارض بضمّه إلى الكلّ المتجسّد في شخصٍ مهيمنٍ.

هذا الالتباس صارخٌ في العديد من الحالات ـ المرضية أو الطبيعيّة ـ حيث يؤلّه الحبيب، حيث يكتسي الله سماتٍ بشريّةً. سأذكر فقط هذه الحالة الّتي أوردها فردبير Ferdière في كتابه حول المسّ الشبقيّ. والحديث للمريضة:

تراسلت عام 1923 مع صحفيٍّ في صحيفة «لابرس»؛ كنت أقرأ كلّ يومٍ مقالاته حول الأخلاق، كنت أقرأ ما بين السطور؛ كان يبدو لي أنّه يجيبني، أنّه كان ينصحني؛ كنت أكتب رسائل حبٍّ؛ كنت أكتب له كثيرًا... عام 1924، خطرت ببالي فجأةً فكرةٌ: بدا لي أنّ الله كان يبحث عن امرأةٍ، أنّه سوف يأتي ليتحدّث إليّ؛ تولّد لديّ انطباعٌ بأنّه أعطاني مهمّةً، أنّه اختارني لأؤسّس معبدًا؛ كنت أظنّ أنّي مركز تجمّعٍ سكنيٍّ كبيرٍ فيه نساءٌ يعالجهنّ أطباء... في تلك اللحظة... نقلوني إلى مصحّ كلرمون للأمراض العقليّة... كان هناك أطباء شبابٌ كانوا يريدون إعادة صنع العالم: في زنزانتي، كنت أشعر بقبلاتهم على أصابعي، كنت أشعر في يدي بأعضائهم التناسليّة؛ قالوا لي مرّةً: «أنت لست حسّاسةً، ولكن جنسيّةً؛ استديري»؛ استدرت وشعرت بهم داخلي: كان الأمر ممتعًا جدًّا... رئيس الشعبة، الدكتور د...، كان كإلهٍ؛ كنت أشعر أنّ هناك شيئًا ما عندما كان يدنو من سريري؛ كان ينظر إليّ وكأنّه يقول: أنا كلّي لك. كان يحبّني حقًّا: نظر إليّ ذات يومٍ بإلحاحٍ بطريقةٍ رائعةٍ حقًّا... كان ينظر إلى التأثير الّذي يحدثه وهو يتحدّث إلى مريضةٍ أخرى ويبتسم... وبقيت مسمّرةً هكذا، مسمّرةً على الدكتور د...، لا يطرد مسمارٌ مسمارًا آخر ورغم كلّ عشّاقي (كان لدي خمسة عشر أو ستة عشر)، لم أستطع الانفصال عنه؛ كان ذلك ذنبه... منذ أكثر من اثني عشر عامًا وأنا أتحادث معه بعقلي... عندما كنت أريد نسيانه، كان يظهر من جديدٍ... كان يهزأ بعض الشيء أحيانًا...وكان يقول أيضًا: «أترين، أنا أخيفك، تستطيعين أن تحبّي آخرين لكنك ستعودين إليّ دومًا...» كثيرًا ما كنت أكتب له رسائل، وأحدّد فيها مواعيد كنت أذهب إليها. العام الفائت، ذهبت لرؤيته؛ اتّخذ موقفًا، وكان باردًا؛ شعرت أنّي غبيّةٌ وذهبت... يقولون لي إنّه تزوج امرأةً أخرى، لكنه سيحبّني دائمًا... إنّه زوجي ومع ذلك لم تقم بيننا أيّة علاقةٍ، العلاقة الّتي توحّد... يقول أحيانًا: «اتركي كلّ شيءٍ، معي سترتقين دومًا، لن تكوني مثل شخصٍ من الأرض». أنت ترى: كلما أبحث عن الله، أجد رجلًا؛ لم أعد أعرف الآن إلى أيّ ديانةٍ أتّجه.

الحالة هنا مرضيّةٌ. ولكن نرى هذا الخلط المعقّد بين الرجل والله لدى كثيرٍ من الورعات. الّذي يتلقى الاعتراف هو الّذي يشغل بين السماء والأرض مكانًا غامضًا. يسمع بأذنيّ الجسد التائبتين اللّتين تكشفان له روحها، لكنّ نورًا فوق الطبيعي يلمع في النظرة الّتي يغمرها بها؛ إنّه رجلٌ مقدّسٌ، إنّه الله حاضرًا تحت مظهر رجلٍ. تصف السيدة **غيون** بهذه الكلمات لقاءها مع الأب **لاكومب**: «بدا لي أنّ أثرًا من النعمة كان يأتي منه إليّ عبر حميميّة الروح ويعود مني إليه بحيث كان يشعر بنفس التأثير». تدخّل الديني هو ما انتزعها من الجفاف الّذي كانت تعاني منه منذ سنواتٍ وهو الّذي ألهب روحها حماسةً من جديدٍ. عاشت بقربه خلال كلّ فترتها الصوفيّة الكبيرة. وتعترف قائلةً: «لم يعد ذلك سوى وحدةٍ كاملةٍ، بحيث لم أعد أستطيع تمييزه من الله». نختصر كثيرًا إذا قلنا إنّها كانت تعشق رجلًا في الحقيقة وتتظاهر بحبّ الله: كانت تحبّ أيضًا هذا الرجل لأنّه كان في نظرها شيئًا آخر غير نفسه. وكمريضة **فردبير**، كانت تحاول بلوغ مصدر القيم الأسمى. وهذا ما تهدف إليه كلّ صوفيّةٍ. يفيدها الوسيط الذكر أحيانًا في انطلاقها نحو صحراء السماء؛ لكنه ليس ضروريًا. ولأنها لا تميّز الواقع جيّدًا من اللعبة، والفعل من السلوك السحري، والشيء من الخيالي، فالمرأة قادرةٌ على استحضار شخصٍ غائبٍ من خلال جسدها. ما هو أكثر جدّيةً بكثيرٍ، هو تمييز الصوفيّة عن المسّ الشبقي كما فعلنا أحيانًا: تشعر المصابة بالمسّ الشبقيّ أنّها تنال قيمتها عبر حبّ شخصٍ مهيمنٍ؛ وهو من يأخذ المبادرة في العلاقة الغراميّة، ويحبّ بجموحٍ أكثر من أن يكون محبوبًا؛ ويبدي عواطفه عبر إشاراتٍ واضحةٍ ولكن سرّيةٍ؛ وهو غيورٌ ويثور من فتور المحبوبة: لا يتردّد عندئذٍ في معاقبتها؛ ولا يتجلّى أبدًا تقريبًا بصورةٍ جسديّةٍ وملموسةٍ. توجد كلّ هذه السمات لدى الصوفيّات؛ بشكلٍ خاصٍّ، يحبّ الله منذ الأزل النفس الّتي يؤجّج فيها حبّه، لقد سكب دمه من أجلها، ويهيّئ لها تمجيدًا رائعًا؛ كلّ ما يمكنها فعله هو الاستسلام لعواطفها دون مقاومةٍ.

نقبل اليوم أنّ المسّ الشبقيّ يأخذ شكلًا أفلاطونيًا تارةً، وجنسيًا تارةً أخرى. وكذلك يدخل الجسد قليلًا أو كثيرًا في المشاعر الّتي تكرّسها الصوفيّة لله. تشبه فورتها تلك الّتي يشعر بها العشاق الأرضيون. وبينما كانت آنجيل **دوفولينيو** تتأمّل صورةً للمسيح يضمّ بين ذراعيه القدّيس فرانسوا، يقول لها: «سأضمّك هكذا، وأكثر بكثيرٍ مما يمكن للعين

أن تراه... لن أتركك أبدًا إذا كنت تحبينني». وكتبت السيدة **غيون**: «لم يكن الحبّ يترك لي لحظة راحةٍ. كنت أقول له: آه يا حبّي، يكفي هذا، دعني». «أريد الحبّ الّذي يخترق الروح بارتعاشاتٍ لا توصف، الحبّ الّذي يصيبني بالإغماء...»، «آه يا إلهي! لو تجعل أكثر النساء شهوانيّةً يشعرن بما أشعر به، لتركن فورًا متعهنّ الزائفة ليستمتعن حقًّا». ونعرف رؤيا القديسة **تيريز** الشهيرة:

> **كان الملاك ممسكًا بيديه سهمًا ذهبيًا طويلًا. ومن وقتٍ لآخر، كان يغرزه في قلبي ويدفعه حتّى أحشائي. عندما كان يسحب السهم، كان كأنّه سيقتلع أحشائي وكنت أظلّ اشتعل بالحبّ الإلهيّ... أنا متأكّدةٌ من أنّ الألم يدخل إلى أعماق الأحشاء ويبدو لي أنّها تتمزّق عندما يسحب زوجي الروحي السهم الّذي اخترقها به.**

يزعمون أحيانًا أنّ فقر اللغة يرغم الصوفية على استخدام تعابير جنسيّةٍ؛ لكن ليس لديها سوى جسدٍ واحدٍ، وتستعير من الحبّ الدنيوي ليس فقط الكلمات إنما الوضعيات الجسديّة؛ كي تهب نفسها لله تتصرّف كما تفعل عندما تهب نفسها لرجلٍ. عدا عن أنّ هذا لا ينقص قيمة مشاعرها. عندما تصبح **آنجيل دوفولينيو** تارةً «شاحبةً جافّةً» وتارةً أخرى «حمراء رطبةً»، حسب حركات قلبها، عندما تذرف شلّالاتٍ من الدموع[244]، عندما يخيب أملها لا يعود بالإمكان اعتبار هذه الظواهر «روحيّةً» فقط، ولكن إذا فسّرناها «بانفعاليّتها» الزائدة نكون بحاجةٍ إلى خشخاشٍ «مهدّئٍ»؛ الجسد ليس أبدًا سبب التجارب الذاتية بما أنّه بصورته الموضوعيّة الذات نفسها: وهذه تعيش أوضاعها في وحدة وجودها. يظنّ خصوم الصوفيّات والمعجبون بهنّ أن إعطاء مضمونٍ جنسيٍّ لنشوات القديسة **تيريز** يضعها في مصاف امرأةٍ هستريائيّةٍ. ولكن ما يحقّر الشخص الهستريائي ليس أنّ جسده يعبّر عن هوسه بل أنه مهووسٌ، أنّ حرّيته مسحورةٌ وملغاةٌ؛ سيطرة الفقير الهندي على جسده لا تجعله عبدًا له؛ قد تكون الحركات الجسديّة ملفوفةً بانطلاقة حرّيةٍ. لا لبس البتّة في نصوص القديسة **تيريز** وتبرّر تمثال **برنيني** الّذي يُظهر لنا القديسة مغشيًّا عليها ضمن نشوةٍ صاعقةٍ؛ من الخطأ كذلك تفسير انفعالاتها بأنّها «تصعيدٌ جنسيٌّ» بسيطٌ؛ فأوّلًا لا توجد رغبةٌ جنسيّةٌ مكتومةٌ تأخذ شكل حبٍّ إلهيٍّ؛ والعاشقة نفسها ليست فريسة رغبةٍ دون موضوعٍ

244- ورد في إحدى كتب سيرة حياتها: «كانت الدموع تحرق وجنتيها لدرجة أنها كانت تضطر لرشّهما بالماء البارد».

تتركّز فيما بعد على شخصٍ؛ إنّ حضور الحبيب هو ما يثير لديها اضطرابًا يتوجّه حالًا نحوه؛ وهكذا، بحركةٍ واحدةٍ، تحاول القديسة **تيريز** الاتحاد بالله وتعيش هذا الاتحاد في جسدها؛ ليست عبدة أعصابها وهرموناتها: يجب بالأحرى أن نُعجب بشدّة إيمانها الّذي يتغلغل في أعماق جسدها. في الحقيقة، كما فهمت ذلك القديسة **تيريز** نفسها، تقاس قيمة تجربةٍ صوفيّةٍ ليس حسب الطريقة التي عاشها الشخص بها ذاتيًّا، ولكن حسب مداها الموضوعيّ. ظواهر النشوة هي نفسها لدى القديسة **تيريز** و**ماري آلاكوك** Marie Alacoque: وأهمّية رسالتيهما مختلفةٌ جدًّا. تطرح القديسة **تيريز** بطريقةٍ فكريّةٍ المشكلة المأساوية للعلاقة بين الفرد والكائن الأسمى؛ لقد عاشت كامرأةٍ تجربةً يتجاوز معناها المواصفات الجنسيّة؛ يجب وضعها إلى جانب القديس **جان دولاكروا**. لكنّها استثناءٌ ساطعٌ. ما تعطينا إياه أخواتها الأصغر هو رؤيةٌ أنثويةٌ أساسًا للعالم وللخلاص؛ فهنّ لا يهدفن إلى السامي: بل إلى افتداء أنوثتهنّ[245].

تبحث المرأة أوّلًا في الحبّ الإلهيّ عما تطلبه العاشقة من حبّ الرجل: عن تمجيدٍ لنرجسيتها؛ بالنسبة لها هذه النظرة المهيمنة المركّزة عليها باهتمامٍ وحبٌّ نعمةٌ عجيبةٌ. من خلال حياة السيدة **غيون** كفتاةٍ، وشابّةٍ، كانت تؤرّقها دومًا رغبتها في أن تكون موضع حبٍّ وإعجابٍ. كتبت صوفيّةٌ بروتستانتيةٌ حديثةٌ، الآنسة «**فيه** Vée»: «لا شيء يجعلني تعيسةً مثل ألّا يكون لديّ أحدٌ يهتمّ بي بشكلٍ خاصٍّ ويستلطف ما يتمّ في داخلي». كانت السيّدة **كرودنر** تتخيّل أنّ الله كان مشغولًا بها باستمرارٍ، لدرجة أنها كانت، كما يروي **سانت بوف** Sainte-Beuve، «في ذروة لحظاتها مع عشيقها تتأوّه قائلةً: يا إلهي كم أنا سعيدةٌ! أستغفرك من فرط سعادتي!». نفهم النشوة الّتي تجتاح قلب النرجسيّة عندما تصبح السماء بأكملها مرآةً لها؛ فصورتها المقدّسة لا متناهيةٌ كالله ذاته، ولن تنطفئ أبدًا: وفي الوقت نفسه تشعر في صدرها اللاهب، الخافق، الغارق في الحب، بروحها المخلوقة المفتداة الّتي يحبها الأب الرائع؛ إنها نسخةٌ منها، إنها تعانق نفسها، وقد غدت عظيمةً بفضل تدخّل الله. هذه النصوص للقديسة **أنجيل دو فولينيو** ذات مغزىً خاصٍّ. إليكم كيف يتحدّث **المسيح** إليها:

يا ابنتي الرقيقة، يا ابنتي، يا حبيبتي، يا معبدي. يا ابنتي يا حبيبتي، أحبيني

245- مع ذلك تحتفظ الاهتمامات اللاهوتيّة لدى كاترين دو سيين أهمّيةً كبيرةً. فهي أيضًا من نمطٍ ذكوريٍّ.

لأني أحبك، كثيرًا، أكثر بكثيرٍ مما تستطيعين أن تحبيني. كلّ حياتك: طعامك، وشرابك، ونومك، كلّ حياتك تعجبني. سأجعل فيك أشياء عظيمةً في نظر الأمم؛ بك سيعرفونني وبك ستمجّد اسمي شعوبٌ كثيرةٌ. يا ابنتي، يا زوجتي الرقيقة، أحبك كثيرًا.

وكذلك:

يا ابنتي الرقيقة تجاهي أكثر مما أنا رقيقٌ تجاهك، يا بهجتي، قلب الله الجبار الآن فوق قلبك... وضع الله القويّ فيك كثيرًا من الحبّ، أكثر من أيّة امرأةٍ أخرى في هذه المدينة؛ صنع منك مباهجه.

ومرّةً أخرى:

أكنّ لك حبًا لدرجة أنّي لم أعد أحفل بعجزك ولم تعد تراه عيني. وضعت فيك كنزًا عظيمًا.

لن تتأخّر المختارة في الردّ بشغفٍ على تصريحاتٍ حارّةٍ بهذا الشكل تهبط من هذا العلو الشاهق. فتحاول الالتحاق بالحبيب عبر الأساليب المعتادة لدى العاشقة: بالإفناء. كتبت **ماري آلاكوك**: «ليس لديّ سوى قضيّةٍ واحدةٍ هي أن أحبّ، وأنسى نفسي، وأفنيها». تقلّد النشوة جسديًّا هذا الإلغاء للأنا؛ لا يعود الشخص يرى أو يشعر، فينسى جسده، وينكره. عبر عنف هذا الاستسلام، وعبر قبول السلبيّة بشغفٍ يُذكر الحضور الأسمى بشكلٍ غير مباشرٍ. تقيم طمأنينيّة السيدة غيون السلبيّ نظامًا: أمّا بالنسبة لها فقد كانت تمضي معظم وقتها بنوعٍ من الجمود؛ كانت تنام مستيقظةً.

لا تكتفي معظم الصوفيات بالاستسلام لله بشكلٍ سلبيٍّ: بل يعملن بنشاطٍ على التلاشي من خلال تخريب جسدهنّ. لقد مارس الرهبان والكهنة أيضًا التقشّف بالتأكيد. لكنّ استبسال المرأة في إهانة جسدها يأخذ صفاتٍ خاصّةً. رأينا كم يكون موقف المرأة من جسدها متناقضًا: تمجّده من خلال الإذلال والألم. حين تهب نفسها لعشيقٍ كشيءٍ للمتعة تصبح معبدًا ومعبودةً؛ وحين تمزّقها آلام الولادة تخلق أبطالًا. تعذّب الصوفيّة جسدها كي يكون لها الحقّ في المطالبة به، وبتحقيره تمجّده كأداةٍ لخلاصها. وبهذا نفسّر الشذوذات

الغريبة الّتي تستسلم لها بعض القديسات. تروي القديسة آنجيل دوفولينيو أنّها شربت بتلذّذٍ الماء الّذي غسلت به للتوّ أيدي وأرجل المجذومين:

> **غمرنا هذا الشراب بعذوبةٍ لدرجة أنّ البهجة غلّفتنا وأعادتنا إلى بيوتنا. لم أشرب في حياتي مثل هذا الشراب الّلذيذ. علقت بحلقي قطعة جلدٍ مقشورٍ من جروح المجذوم. بدل أن ألفظها، بذلت جهدًا لأبتلعها ونجحت في ذلك. بدا لي أنّي تناولت القربان. لن أعبّر أبدًا عن المتع الّتي غمرتني.**

نعرف أنّ **ماري آلاكوك** نظّفت بلسانها إقياءات مريضةٍ؛ وصفت في سيرة حياتها السعادة الّتي شعرت بها عندما ملأت فمها ببراز رجلٍ مصابٍ بالإسهال؛ وكافأها **يسوع** بإبقاء شفتيها ملتصقتين ثلاث ساعاتٍ بقلبه المقدّس. بشكلٍ خاصٍّ في البلدان ذات الشهوانيّة المتّقدة كإيطاليا وإسبانيا يأخذ الورع صبغةً شهوانيّةً: في إحدى قرى أبروز، ما زالت النساء حتى اليوم يمزّقن لسانهنّ على طول طريق الصليب وهنّ يلعقن حصى الأرض. في كلّ هذه الممارسات يقلّدن الفادي الّذي أنقذ الجسد بإذلال جسده هو: إنّهنّ حساساتٌ لهذا الطقس الديني الكبير بشكلٍ ملموسٍ أكثر بكثيرٍ من الذكور.

بطيبة خاطرٍ يبدو الله للمرأة بصورة الزوج؛ ينكشف أحيانًا ضمن مجده، باهر البياض والجمال، مسيطرًا؛ يكسوها بثوب عرسٍ، ويتوّجها، ويأخذ بيدها ويعدها بمجدٍ سماويٍّ. ولكنّه يكون غالبًا كائنًا من لحمٍ: فالخاتم الّذي أعطاه يسوع للقديسة **كاترين**، والّذي كانت ترتديه في إصبعها، غير مرئيٍّ، كان «تلك الحلقة من اللحم» الّتي انتزعها الختان منه. إنّه جسمٌ مهملٌ دامٍ: وتغرق في ورعٍ فائقٍ حين تتأمّل المصلوب؛ وتتماثل مع الأم العذراء الّتي تحمل على ذراعيها جثّة ابنها، أو **مادلين** واقفةً عند قدمي الصليب يبللها دم الحبيب. وهكذا تُشبع تخيّلاتٍ سادومازوشيّةً. في إذلال الله تُعجب بانحطاط الرجل؛ فالمصلوب، الخامد، السلبيّ، المغطّى بالجروح، هو الصورة المعكوسة للشهيدة البيضاء الملقاة للوحوش، للخناجر، للذكور، الّتي طالما تماثلت معها الفتاة الصغيرة: تصاب باضطرابٍ عندما ترى أنّ الرجل، الرجل ـ الإله، قد اضطلع بدورها. إنها هي المستلقاة على الخشب، موعودةً بروعة القيامة. إنها هي، وتثبت ذلك؛ جبينها ينزف تحت إكليل الشوك، ويداها، وقدماها، وخاصرتها مخترقةٌ بحديدٍ غير مرئيٍّ. من أصل الثلاثمئة وواحدٍ وعشرين موسومًا بجروح

المسيح الّذين أحصتهم الكنيسة الكاثوليكية، هناك سبعةٌ وأربعون رجلًا فقط؛ والبقية نساءٌ ـ **هيلين** الهنغارية وجان **دولاكروا** وج. **دوستن** وأوزان **دو مانتو** و**كلير** من مونفالكون ـ اجتزن في المتوسّط سن اليأس. أشهرهنّ، **كاترين إمريش**، وُسمت مبكّرًا. في سنّ الرابعة والعشرين، إذ تمنّت أن تعاني آلام إكليل الشوك، فرأت شابًا باهرًا قادمًا نحوها أدخل هذا الإكليل على رأسها. في اليوم التالي، تورّم جبينها وصدغاها، وبدأ الدم يسيل منها. بعد أربعة أعوامٍ، وهي بحالة نشوةٍ، رأت **المسيح** بجروحه الّتي كانت تنطلق منها أشعّةٌ مدبّبةٌ كشفراتٍ رفيعةٍ جعلت قطراتٍ من الدم تنبجس من يديّ القدّيسة وقدميها وخاصرتها. كانت تتعرّق دمًا، و تبصق دمًا. الآن أيضًا، كلّ يوم جمعةٍ عظيمةٍ، **تيريز نيومان** تدير هي أيضًا نحو زائريها وجهًا يرشح بدم **المسيح**. لدى الموسومين تكتمل الكيمياء الغامضة الّتي تغيّر الجسد إلى مجدٍ بما أنّهم حضور الحبّ الإلهيّ ذاته بصورة ألمٍ دامٍ. نفهم جيّدًا لماذا تتعلّق النساء بصورةٍ خاصّةٍ بتغيّر شكل النزيف الأحمر إلى شعلةٍ ذهبيةٍ صافيةٍ. يتسلّط عليهنّ وسواس هذا الدم الّذي يخرج من جنب ملك الرجال. تتحدّث القديسة **كاترين دوسيين** عن ذلك في جميع رسائلها تقريبًا. كانت **آنجيل دوفولينيو** تفني نفسها في تأمّل قلب المسيح والجرح المفتوح في جنبه. وكانت **كاترين إمريش** ترتدي قميصًا أحمر كي تشبه **يسوع** عندما كان يشبه «قطعة قماشٍ مغموسةً بالدم»، كانت ترى كلّ شيءٍ «من خلال دم يسوع». رأينا في أيّة ظروفٍ كانت **ماري آلاكوك** تستمتع خلال ثلاث ساعاتٍ بقلب **يسوع** المقدّس. هي الّتي اقترحت على المؤمنين عبادة الخثرة الكبيرة الحمراء المحاطة بهالةٍ من أشعّة الحبّ اللّاهبة. ذلك هو الشعار الّذي يلخّص الحلم الأنثوي الكبير: من الدم إلى المجد عبر الحبّ.

نشوةٌ، ورؤيا، وحوارٌ مع الله، تكفي هذه التجربة الداخلية بعض النساء. وتشعر أخرياتٌ بالحاجة إلى التواصل مع العالم عبر أفعالٍ. ويأخذ ارتباط العمل بالتأمل شكلين مختلفين. فهناك نساءٌ يعملن مثل القديسة **كاترين**، والقديسة **تيريز**، وجان **دارك**، اللّواتي يعرفن جيّدًا ما هي الأهداف الّتي وضعنها لأنفسهنّ ويبتكرن بجلاءٍ الوسائل لبلوغها: فتعطي تجلّياتهنّ شكلًا موضوعيًّا لقناعاتهنّ؛ وتشجعهنّ على سلوك الطرق الّتي رسمنها لنفسهنّ بدقّةٍ. وهناك نساءٌ نرجسياتٌ مثل السيدة **غيون**، والسيدة **كرودنر**، يشعرن فجأةً أنّهنّ

«في حالةٍ رسوليّةٍ[246]» بعد ورعٍ صامتٍ. لا يتوخّين الدقّة في مهامّهنّ؛ ومثل سيدات الأعمال الخيرية اللواتي يملن إلى الحركة، لا يهمّ ما يفعلن، المهم أن يفعلن شيئًا ما. وهكذا بعد أن عرضت السيدة **كرودنر** نفسها كسفيرةٍ، وكاتبةٍ، كتمت في داخلها رأيها بمواهبها: ليس كي تدافع عن أفكارٍ بعينها، ولكن كي تؤكد دورها كمُلهَمةٍ من الله أخذت بيدها مصير **ألكسندر الأول**. إذا كان بعض الجمال والذكاء كافيًا أحيانًا كي تشعر المرأة أنّ لها صفةً مقدّسةً، فستظنّ بالأحرى أنّها مكلّفةٌ بمهمّةٍ عندما تعرف أنّ الله اختارها، وتبشّر بمذاهب غير مؤكّدةٍ، وتؤسس طوائف بطيب خاطرٍ، ما يسمح لها أن تعدّد شخصيتها عبر عدد أعضاء المجموعة الّتي تلهمها.

ويمكن دمج الورع الصوفي كالحبّ والنرجسية ذاتهما في حياةٍ نشيطةٍ ومستقلّةٍ. ولكن هذه الجهود من أجل خلاصٍ فرديٍّ لا تؤدي إلّا إلى الفشل؛ فإما تقيم المرأة علاقةً مع شخصٍ غير حقيقيٍّ: نسخة منها، أو الله؛ أو أنها تخلق علاقةً غير حقيقيةٍ مع شخصٍ حقيقيٍّ؛ وفي جميع الأحوال ليس لها من تأثيرٍ على العالم؛ ولا تهرب من ذاتيتها؛ وتبقى حرّيتها خدعةً؛ ولا توجد سوى طريقةٍ واحدةٍ للقيام بها بشكلٍ أصليٍّ: هي طرحها في المجتمع الإنساني من خلال عملٍ.

246- السيدة غيون.

القسم الرابع

نحو التحرير

الفصل الرابع عشر

المرأة المستقلة

لم يعد القانون الفرنسي يصنّف الطاعة ضمن واجبات الزوجة وأصبحت كلّ مواطنةٍ ناخبةً؛ تبقى هذه الحرّيات المدنيّة مجرّدةً عندما لا تترافق باستقلالٍ اقتصاديٍّ؛ لم تتحرّر المرأة المُعالة ـ زوجةً كانت أم محظيّةً ـ من الذكر لأنّ بيدها بطاقة الانتخاب؛ إذا فرضت عليها الأعراف ضغوطًا أقلّ من السابق، فلم تغيّر هذه التسهيلات السلبية وضعها بشكلٍ عميقٍ؛ وظلّت حبيسة وضعها كتابعةٍ. اجتازت المرأة بالعمل جزءًا كبيرًا من المسافة الّتي تفصلها عن الذكر؛ يستطيع العمل وحده أن يضمن لها حرّيةً ملموسةً. ما إن تكفّ عن أن تكون طفيليةً حتّى ينهار النظام القائم على تبعيّتها؛ لم تعد هناك حاجةٌ لوسيطٍ ذكريٍّ بينها وبين الكون. اللعنة الّتي تثقل كاهل المرأة التابعة هي أنّه لا يُسمَح لها بفعل شيءٍ: عندئذٍ تتشبّث بالملاحقة المستحيلة للكينونة من خلال النرجسية، والحب، والدين؛ وتستعيد تساميها ثانيةً، منتجةً، فعّالةً؛ تؤكّد نفسها في مشاريعها بشكلٍ راسخٍ كذاتٍ؛ وتثبت مسؤوليتها عبر علاقتها بالغاية الّتي تسعى إليها، بالمال والحقوق الّتي تنالها. تعي نساءٌ كثيراتٌ هذه الامتيازات، حتى من بين تينك اللّواتي يمارسن أكثر المهن تواضعًا. سمعت إحدى عاملات التنظيف تقول وهي تغسل بلاط قاعة فندقٍ: «لم أطلب أبدًا شيئًا من أحدٍ، وصلت وحدي». كانت

فخورةً باعتمادها على نفسها كأنها فردٌ من عائلة روكفلر. مع ذلك يجب ألّا نعتقد أنّ مجرّد وجود حقّ التصويت والمهنة هو تحرّرٌ كاملٌ: فالعمل اليوم ليس هو الحرّية. فقط في عالمٍ اشتراكيٍّ عندما تصل المرأة إلى أحدهما تحصل على الآخر. أغلبية العمال اليوم مُستغَلّون. من ناحيةٍ أخرى، لم تتغيّر البنية الاجتماعيّة كثيرًا بتطوّر وضع المرأة؛ هذا العالم الّذي كان دائمًا للرجال ما زال يحتفظ بنفس الشكل الّذي صنعوه عليه. يجب ألّا نغفل هذه الوقائع الّتي تجعل مسألة عمل المرأة معقّدةً. مؤخّرًا قامت سيدةٌ مهمةٌ ومفكّرةٌ بتحقيقٍ عن العاملات في مصانع رينو: تؤكّد أنّهنّ يفضّلن البقاء في البيت على العمل في المصنع. لا شك أنّهن لم يحصلن على الاستقلال الاقتصادي إلا ضمن طبقةٍ مسحوقةٍ اقتصاديًّا؛ ومن جانبٍ آخر لا تعفيهنّ المهام الّتي يؤدّينها في المعمل من أعباء المنزل[247]. لو خُيِّرن بين أربعين ساعة عملٍ أسبوعيًّا في المصنع أو في المنزل، لكانت إجاباتهنّ مختلفةً دون شكٍّ؛ وربما حتّى كنّ ليقبلن الاثنين معًا بسرورٍ إذا اندمجن كعاملاتٍ في عالمٍ يكون عالمهنّ، يساهمن في إنشائه ببهجةٍ وفخرٍ. في هذه الساعة، دون حتّى أن نتحدّث عن الفلاحات[248]، معظم النساء اللّواتي يعملن لا يتخلّصن من العالم الأنثوي التقليدي؛ لا ينلن من المجتمع ولا من الزوج المساعدة الضرورية لهنّ كي يصبحن حقًّا مساوياتٍ للرجال. فقط تلك اللّواتي لديهن عقيدةٌ سياسيةٌ، اللّواتي ينشطن في النقابات، الواثقات من المستقبل، يستطعن إعطاء معنىً أخلاقيٍّ للتعب اليومي؛ أمّا النساء المحرومات من الراحة، اللّواتي ورثن تقاليد خضوعٍ، فمن الطبيعي أن يبدأن بالكاد بتطوير حسٍّ سياسيٍّ واجتماعيٍّ. ومن الطبيعي أنّهنّ إذا لم يتلقّين مقابل عملهنّ مكاسب معنويّةً واجتماعيّةً من حقّهنّ توقعها، فسيتحمّلن الضغوط دون حماسةٍ. نفهم أيضًا أنّ الفتاة العاملة، والموظّفة، والسكرتيرة لا يرغبن في التخلّي عن امتيازات دعمٍ ذكوريٍّ. قلت قبلًا أنّ وجود فئةٍ ذات امتيازاتٍ يُسمح للشابة بالانضمام إليها فقط عبر تقديم جسدها هو إغراءٌ لا يقاوم تقريبًا بالنسبة لها؛ وتتعرّض للمغازلة بما أن راتبها قليلٌ بينما مستوى المعيشة الّذي يتطلّبه منها المجتمع مرتفعٌ للغاية؛ إذا اكتفت بما تكسب، لن تكون

247- قلت في «الجنس الآخر»، الجزء الأول، القسم الثاني «التاريخ»، المقطع الخامس، كم هي ثقيلةٌ هذه الأعباء على المرأة الّتي تعمل خارج البيت.

248- اللّواتي درسنا وضعهنّ في الجزء الأول، نفس المذكور آنفًا. ص127.

سوى منبوذةٍ: مسكنٌ رديءٌ، وملابسٍ رديئةٌ، ولا يسمح لها بأيّ تسليةٍ ولا حتى بالحب. ويعظها الناس الأتقياء بالزهد؛ نظامها الغذائي في الحقيقة غالبًا متقشّفٌ كنظام راهبةٍ كرمليةٍ؛ ولكن لا يستطيع الجميع اتخاذ الله حبيبًا: يجب أن تعجب الرجال لتكون حياتها ناجحةً كامرأةٍ. إذًا ستطلب العون: وهذا ما يترقّبه بخبثٍ رب العمل الّذي يعطيها راتبًا لا يقيها المجاعة. أحيانًا يسمح لها هذا العون بتحسين وضعها واكتساب استقلالٍ حقيقيٍّ؛ وأحيانًا على العكس تترك مهنتها ليعيلها أحدهم. وتجمع الاثنين غالبًا؛ فتتحرّر من عشيقها بالعمل، وتهرب من عملها بفضل العشيق؛ لكنها تعرف هي أيضًا العبودية المزدوجة لمهنةٍ وحمايةٍ ذكوريّةٍ. بالنسبة للمرأة المتزوجة، لا يمثّل الراتب عمومًا سوى دعمٍ؛ ويبدو الدعم الذكوري غير أساسيٍّ بالنسبة للمرأة الّتي «يساعدها أحدهم»؛ ولكنّ كلتيهما لا تبتاعان بجهدهما الشخصي استقلالًا كاملًا.

مع ذلك يوجد اليوم عددٌ لا بأس به من المحظوظات اللّواتي يجدن في مهنتهنّ استقلالًا اقتصاديًا واجتماعيًّا. ويمثّلن ردًّا على التساؤلات عن إمكانيات المرأة ومستقبلها. ورغم أنّهنّ لا يشكلن حتى الآن سوى أقلّيةٍ، فمن المهمّ دراسة وضعهنّ عن قربٍ؛ ويطول الجدل بشأنهنّ بين أنصار الحركة النسوية ومناهضيها. فيؤكّد هؤلاء أنّ نساء اليوم المتحرّرات لا ينجحن بصنع أيّ شيءٍ هامٍّ في العالم، ومن جهةٍ أخرى أنّ لديهنّ صعوبةً في إيجاد توازنهنّ الداخلي. يبالغ هؤلاء في استنتاجاتهم ويغمضون أعينهم عن تشوّشهم. في الحقيقة لا شيء يستدعي القول أنّهنّ أخطأن السبيل؛ ومع ذلك من المؤكّد أنّهنّ لسن مستقرّاتٍ باطمئنانٍ ضمن وضعهنّ الجديد: فما زلن في منتصف الطريق. المرأة الّتي تتحرّر من الرجل اقتصاديًّا لا يجعلها ذلك في وضعٍ معنويٍّ واجتماعيٍّ ونفسيٍّ مماثلٍ لوضعه. يتعلّق الأسلوب الّذي تلتزم في مهنتها به وتكرّس نفسها لها بالمفهوم الّذي كوّنه شكل حياتها بالإجمال. غير أنّها عندما تدخل حياتها كبالغةٍ لا يكون وراءها نفس ماضي صبيٍّ؛ ولا ينظر إليها المجتمع بنفس الطريقة؛ ويختلف منظور الكون المقدّم لها. كونها امرأةً يطرح اليوم على الإنسان المستقل مشاكل خاصّةً.

الامتياز الّذي يحظى به الرجل والّذي يظهر منذ طفولته، هو أنّ كونه إنسانًا لا يناقض مصيره كذكرٍ. يجد أنّ نجاحه الاجتماعيّ أو الروحيّ يكسبه هيبةً ذكوريّةً عبر مماثلة القضيب

بالتسامي. إنه ليس موزّعًا. بينما يُطلب من المرأة كي تكمل أنوثتها أن تجعل من نفسها شيئًا وغنيمةً، أي أن تتخلّى عن مطالبها كذاتٍ سيّدةٍ. وهذا هو الصراع الّذي يميّز وضع المرأة المتحرّرة بشكلٍ خاصٍّ. فهي ترفض أن تُحصَر في دورها كأنثى لأنها لا تريد أن تُبتَر؛ ولكن رفضها لجنسها هو بترٌ أيضًا. الرجل إنسانٌ جنسانيٌّ[249]؛ ولا تكون المرأة شخصًا كاملًا مساويًا للذكر إلّا إن كانت هي أيضًا إنسانًا جنسانيًّا. التخلّي عن أنوثتها يعني التخلّي عن جزءٍ من إنسانيتها. لطالما انتقد أعداء المرأة إهمال النساء المثقفات لنفسهنّ؛ لكنّهم نصحوهنّ أيضًا قائلين: إذا أردتنّ أن تكنّ مساوياتٍ لنا، توقّفن عن طلي وجوهكنّ وأظافركنّ. وهذه النصيحة الأخيرة لا معنى لها. لأنّ العادات والموضة تحديدًا هي الّتي حدّدت فكرة الأنوثة بشكلٍ مصطنعٍ، فهي تُفرَض على كلّ امرأةٍ من الخارج؛ ويمكنها أن تتطوّر بحيث تتقارب مفاهيمها من المفاهيم الّتي يتبناها الذكور: لقد أصبح البنطال نسائيًّا على الشواطئ. وهذا لا يغيّر شيئًا من المسألة: فالفرد ليس حرًّا بقولبتها حسب مزاجه. وتلك الّتي لا تلتزم بها تفقد قيمتها جنسيًّا وبالتالي اجتماعيًّا بما أنّ المجتمع أدخل القيم الجنسيّة. حين ترفض صفاتٍ أنثويةً لا تكتسب صفاتٍ ذكريّةً؛ حتّى مغايرة الهويّة الجنسية (la travestie) لا تنجح في أن تجعل نفسها رجلًا: فهي مغايرة الهوية الجنسية. رأينا أن المثلية الجنسية تشكّل هي أيضًا خصوصيّةً: فالحياد مستحيلٌ. لا يوجد وضعٌ سلبيٌّ لا يفرض مقابلًا إيجابيًّا. كثيرًا ما تعتقد المراهقة أنّ باستطاعتها ببساطةٍ احتقار التقاليد؛ ولكن بذلك نفسه تعلن رأيها؛ وتخلق وضعًا جديدًا يؤدي إلى نتائج عليها تحمّلها. ما إن يخرج المرء عن تشريعٍ موضوعٍ حتى يُصبح ثائرًا. تكذب المرأة الّتي ترتدي زيًّا غريبًا عندما تؤكّد ببساطةٍ أنّها تتبع متعتها لا أكثر: إنها تعرف تمامًا أنّ اتّباع المتعة الخاصّة هو خروجٌ عن المألوف. وبالعكس، تلك الّتي لا ترغب في الظهور كخارجةٍ عن المألوف تلتزم بالقواعد العامة. اختيار التحدّي هو حسابٌ خاطئٌ إلّا إذا كان يمثّل عملًا فعّالًا إيجابيًّا، فهو يستهلك وقتًا وجهدًا أكثر مما يوفّرهما. على المرأة الّتي لا تريد صدم الآخرين، الّتي لا تريد فقد قيمتها الاجتماعية، أن تعيش كامرأةٍ وضعها كامرأةٍ: كثيرًا ما يتطلّب نجاحها المهني ذلك. ولكن بينما التقليدية أمرٌ طبيعيٌّ بالنسبة للرجل ـ بما أنّ العادات ضُبِطت حسب احتياجاته كفردٍ مستقلٍّ فعّالٍ ـ على

249- Sexué = جنسانيّ، أي ذو شقٍّ يمكنه من التناسل (المترجمة).

المرأة الّتي هي أيضًا ذاتٌ ونشاطٌ أن تدخل عالمًا كرّسها للسلبيّة. إنها عبوديةٌ ثقيلةٌ بقدر ما تضخّمها النساء القابعات في الفلك الأنثوي: فقد جعلن من الزينة والتنظيف فنونًا صعبةً. ليس على الرجل الاهتمام بملابسه؛ فهي مريحةٌ تناسب حياته النشيطة، ولا حاجة للسعي وراءها؛ فهي بالكاد جزءٌ من شخصيته؛ عدا عن ذلك، لا يعتني بها بنفسه: تخلّصه بعض النساء المتطوعات أو المأجورات من هذه المهمة. وعلى العكس تعرف المرأة أنهم عندما ينظرون إليها لا يميّزونها عن مظهرها: يحكمون عليها، ويحترمونها، ويرغبون بها من خلال زينتها. كانت ملابسها مخصّصةً لتكريسها للعجز وظلّت سريعة العطب: فالجوارب تتمزّق؛ والكعوب تبلى، والقمصان والأثواب الفاتحة تتّسخ، والثنيات تزول؛ مع ذلك عليها أن تصلح بنفسها معظم هذه الحوادث؛ لن تتطوّع قريناتها لمساعدتها وستتردّد في تحميل ميزانيتها عبء أعمالٍ تستطيع هي القيام بها بنفسها: فتجعيد الشعر، وتصفيفه، والتزيّن، والأثواب الجديدة تكلّف أصلًا مبالغ طائلةً. في المساء عندما تعود السكرتيرة والطالبة يكون لديهما دومًا جوربٌ يجب أن يرفأ، وقميصٌ يجب أن يُغسل، وتنورةٌ يجب أن تكوى. وتجنّب المرأة ذات الدخل الكبير نفسها هذه الأعباء؛ لكنها مرغمةٌ على أن تكون مفرطة الأناقة، وتضيع وقتًا في التسوّق، والقياس، إلخ.. كما تفرض التقاليد على المرأة، حتى العازبة، الاهتمام بمنزلها؛ الموظّف الّذي انتقل إلى مدينةٍ جديدةٍ يحلّ بسهولةٍ في الفندق؛ بينما تحاول زميلته أن تجد لها مسكنًا؛ وعليها العناية به بدقّةٍ لأنّ الآخرين لا يعذرونها إن كان بيتها مهملًا، الأمر الّذي يجدونه طبيعيًّا لدى الرجل. وليس اهتمامها برأي الآخرين هو الوحيد الّذي يدعوها لتكريس وقتٍ وعنايةٍ لجمالها وبيتها. فهي ترغب في البقاء امرأةً حقيقيةً لتشعر بالرضى. ولا تنجح في قبول نفسها من خلال الحاضر والماضي إلّا إذا أضافت الحياة الّتي صنعتها لنفسها إلى المصير الّذي أعدّته لها أمها ولعب طفولتها وتخيلات مراهقتها. لقد غذّت أحلامًا نرجسيّةً؛ واستمرت في وضع إجلال صورتها مقابل الزهو القضيبي؛ تريد أن تعرض نفسها، وتفتن. لقد أوحت لها أمها ومن يكبرنها سنًّا بحبّ المسكن: كان منزلها الخاص الشكل البدئي لأحلامها في الاستقلال؛ ولا تنوي التخلّي عنه حتى عندما وجدت حرّيتها على دروبٍ أخرى. وبقدر ما تشعر بعدم طمأنينةٍ في العالم الذكوري، تبقى لديها حاجةٌ إلى خلوةٍ، رمز هذا الملجأ الداخلي الّذي اعتادت البحث عنه في ذاتها. ستلمّع أرضياتها الخشبية، مطيعةً

للتقاليد النسائية، وتطهو طعامها بنفسها، بدل الذهاب للمطعم كزميلها. تريد أن تعيش كرجلٍ وكامرأةٍ في الوقت نفسه: وبذلك ستزيد مهامها وتعبها.

إذا أرادت البقاء امرأةً بكل معنى الكلمة، فذلك لأنّها تريد أن يكون لديها أكبر الفرص في مواجهة الجنس الآخر. وتُطرح المشاكل الأصعب في مجال الجنس. كي تكون المرأة فردًا كاملًا، مساويةً للرجل، يجب أن تدخل عالم الرجال كما يدخل الذكر عالم النساء، أن تصل إلى الآخر؛ لكنّ متطلبات الآخر ليست متساويةً في الحالين. اكتساب الثروة والشهرة اللّتين تبدوان ميزاتٍ مثوليةً يمكنه زيادة الجاذبية الجنسية للمرأة؛ لكن كونها نشاطًا مستقلًا يناقض أنوثتها: وهي تعرف ذلك. تتألّم المرأة المستقلة كأنثى ـ وخاصّةً المثقفة الّتي تدرك وضعها ـ من عقدة نقصٍ؛ ولا تسنح لها الفرصة للعناية بجمالها كالمغناج الّتي همها الوحيد الإغراء؛ مهما تبعت نصائح الأخصائيين، لن تكون في ميدان الأناقة سوى هاويةٍ؛ السحر الأنثوي يتطلّب من التسامي الّذي انحطّ إلى المثوليّة ألّا يبدو سوى خفقةٍ جسديّةٍ دقيقةٍ؛ يجب أن تكون غنيمةً مقدَّمةً تلقائيًّا: تعرف المثقفة أنها تقدم نفسها، تعرف أنها شعورٌ، ذاتٌ؛ لن ينجح المرء في قتل نظرتها كما يشاء وتغيير عينيها إلى بركةٍ من السماء أو الماء؛ لن يوقف حتمًا انطلاق جسدٍ يمتدّ نحو العالم، ليغيره إلى تمثالٍ تحركه اهتزازاتٌ صمّاء. وتحاول المثقفة بحماسةٍ تعادل خوفها من الفشل: لكن هذه الحماسة الواعية هي أيضًا نشاطٌ لا يبلغ هدفه. وتقترف أخطاءً مماثلة للّتي يسببها سن اليأس: فتحاول إنكار عمرها؛ وترتدي ملابس الفتاة الصغيرة، وتثقل جسدها بالزهور والزينات البغيضة والأقمشة الصارخة؛ وتبالغ بالحركات الطفوليّة والمتعجّبة. فتتحرك، وتقفز، وتثرثر، وتتظاهر بالمرح، والطيش، والاندفاع. لكنها تشبه هؤلاء الممثلين الّذين لأنهم لا يشعرون بالانفعال الّذي يؤدي إلى استرخاء بعض العضلات يقلّصون إراديًّا العضلات المعاكسة، فيخفضون الجفنين أو زاويتي الفم بدلًا من تركها تهبط؛ وهكذا كي تقلد المرأة المثقفة هذا الاستسلام تتشنّج. وتشعر بذلك، وتثور؛ وتعبر الوجه الساذج فجأةً بارقة ذكاءٍ حادةٍ؛ وتُزمّ الشفتان الواعدتان. وإذا كانت تجد صعوبةً في إثارة الإعجاب فذلك لأنها ليست مثل أخواتها الصغيرات العبدات إرادةً صافيةً للإعجاب؛ لم تصل الرغبة في الإغراء، مهما كانت حادّةً، إلى أعماق عظامها؛ ما إن تشعر أنها خرقاء، حتى تثور على عبوديتها؛ وتريد أن تثأر مزوّدةً بأسلحةٍ ذكوريّةٍ: فتتحدّث

بدل أن تصغي، وتعرض أفكارًا حاذقةً، وانفعالاتٍ غير مسبوقةٍ؛ وتعارض محدّثها بدل أن توافقه، وتحاول التغلّب عليه. وقد كانت مدام دوستايل تمزج الأسلوبين ببراعةٍ فائقةٍ لتنال انتصاراتٍ ساحقةً: كان من النادر مقاومتها. لكن وضعية التحدّي، الشائعة لدى الأمريكيين وسواهم، تزعج الرجال أكثر مما تسيطر عليهم؛ عدا عن أنهم هم الّذين يستدرّونها بسلوكهم المتحدّي؛ إذا كانوا يقبلون أن يحبّوا امرأةً شبيهةً لهم بدل عبدةٍ ـ كما يفعل هؤلاء المجردون من الصلف وعقدة النقص ـ لكانت النساء أقل اهتمامًا بأنوثتهنّ؛ وأصبحن أكثر طبيعيةً وبساطةً، وكنّ أصبحن نساءً دون كبير عناء بما أنهنّ كذلك، بعد كل شيءٍ.

الأمر أنّ الرجال بدأوا بالإذعان لوضع المرأة الجديد؛ فقد أصبحت في رغدٍ كبيرٍ إذ لم تعد تشعر أنها محكومةٌ سلفًا: فالمرأة العاملة لا تهمل أنوثتها اليوم ولم تفقد جاذبيتها الجنسية. مع ذلك يبقى هذا النجاح ـ الّذي يشير إلى تطوّرٍ نحو التوازن ـ ناقصًا؛ ما زال من الصعب على المرأة أكثر من الرجل إقامة العلاقات الّتي تريدها مع الجنس الآخر. وتواجه حياتها الجنسية والعاطفية الكثير من العقبات. عدا عن أنّه ليست هناك أيّ امتيازاتٍ للمرأة التابعة في هذه الناحية: معظم الزوجات والمحظيات مكبوتاتٌ جنسيًّا وعاطفيًّا بشكلٍ جذريٍّ. وإذا كانت الصعوبات أكثر جلاءً لدى المرأة المستقلّة، فذلك لأنها لم تختر الاستسلام ولكن النضال. تجد كلّ المشاكل الحيّة في الموت حلّاً صامتًا؛ إذًا فالمرأة الّتي تكدح في الحياة موزّعةٌ أكثر من تلك الّتي تدفن إرادتها ورغباتها؛ ولكنّها لن تقبل أن تتّخذها مثالًا. وتعتبر أنّها تعاني من الإجحاف فقط عندما تقارن نفسها بالرجل.

تحتاج المرأة الكادحة، ذات المسؤوليات، الّتي عرفت قسوة الكفاح ضدّ مقاومات العالم ـ كالذكر ـ ليس فقط لإرضاء رغباتها الجسدية ولكن للشعور بالاسترخاء والترويح عن النفس اللّذين تجلبهما مغامراتٌ جنسيةٌ موقّتةٌ. غير أنّه ما تزال هناك أوساطٌ لا تعترف بهذه الحرّية؛ فهي تخاطر، إذا استخدمتها، بالإساءة إلى سمعتها وحياتها المهنية؛ يُطلَب منها نفاقٌ يثقل عليها. وكلما نجحت في فرض نفسها اجتماعيًا، كلما غضّوا النظر بطيب خاطرٍ عنها؛ ولكنّهم يراقبونها بصرامةٍ في معظم الحالات، وخصوصًا في الأقاليم. حتى في أفضل الظروف ـ عندما لا تعود تخشى ما يقال ـ لا يساوي وضعها وضع الرجل. تأتي الاختلافات من التقاليد ومن المشاكل الّتي تفرضها طبيعة الشهوانية الأنثوية الخاصة.

يستطيع الرجل بسهولةٍ الحصول على علاقاتٍ عابرةٍ تكفي عند اللزوم لتهدئة جسده واسترخائه معنويًّا. وقد طالب عددٌ قليلٌ من النساء بفتح مواخير للنساء؛ وفي روايةٍ عنوانها «رقم 17»، اقترحت امرأةٌ ابتكار بيوتٍ تستطيع النساء فيها «التخفيف عن أنفسهنّ جنسيًّا» عبر نوعٍ من «فتى التاكسي[250]». ويبدو أنّ مؤسسةً من هذا النوع كانت موجودةً سابقًا في سان فرانسيسكو؛ كانت تتردّد عليها فتيات المواخير فقط، ليتسلّين بالدفع بدل أن يُدفع لهنّ: وأغلقها قوادوهنّ. وعدا عن أنّ هذا الحلّ طوباويٌّ وغير مرغوبٍ فيه كثيرًا، فلم يكن لينجح دون شكٍّ: رأينا أنّ النساء لا يحصلن على «راحةٍ» بشكلٍ آليٍّ كالرجل؛ معظمهنّ لا يعتبرن هذا الوضع مناسبًا لاستسلامٍ شهوانيٍّ. في كل حالٍ هذا المصدر ممنوعٌ عليهنّ اليوم. أمّا الحلّ الّذي يقضي بالتقاط شريكٍ من الشارع لليلةٍ أو ساعةٍ ـ على افتراض أنّ المرأة شبقةٌ للغاية وتجاوزت كلّ النواهي، فلا تشمئزّ منه ـ فهو حلٌّ أكثر خطرًا عليها منه على الرجل. خطر الأمراض التناسليّة أشدّ عليها بما أنّ عليه هو أن يتّخذ احتياطاتٍ ليتحاشى العدوى؛ ومهما كانت حذرةً فخطر الحمل يتهدّدها. اختلاف القوّة الجسديّة مهمٌّ للغاية خصوصًا في العلاقات بين غرباءٍ الّتي تتم بشكلٍ فظٍّ. لا يخشى الرجل المرأة الّتي يصحبها إلى منزله؛ يكفي بعض الانتباه. يختلف الأمر بالنسبة للمرأة الّتي تصحب ذكرًا إلى منزلها. رووا لي قصة شابتين قدمتا حديثًا إلى باريس، متعطّشتين «لرؤية الحياة»، وبعد بضع كؤوسٍ من شراب Grands-ducs دعْتا قوّادين وسيمين من مونمارتر إلى عشاءٍ: في الصباح وجدتا نفسيهما مسروقتين وقد تعرّضتا للعنف وهُدِّدتا بالابتزاز. حالةٌ وصفيةٌ أكثر هي حالة هذه المرأة ذات الأربعين عامًا، المطلقة، الّتي كانت تكدح طول النهار لتعيل ثلاثة أطفالٍ كبارٍ وأقارب مسنّين. كانت ما تزال جميلةً وجذّابةً ولكن لم يكن لديها الوقت لتقيم حياةً اجتماعيةً وتتأنّق وتقوم بشكلٍ لائقٍ ببعض مبادرات الإغواء الّتي كانت لتضجرها. مع ذلك، كانت حواسها متطلّبةً؛ وكانت تعتبر أن لها الحق في إرضائها كالرجل. في بعض الأمسيات كانت تذهب لتطوف في الشوارع وتحاول التقاط رجلٍ. ولكن ذات ليلةٍ، بعد ساعةٍ أو اثنتين قضتهما في دغلٍ في غابة بولونيا، لم يوافق عشيقها على أن تذهب: كان يريد اسمها

250- يشرح الكاتب ـ الّذي نسيت اسمه، ولا يبدو لي تذكّره أمرًا ملحًا ـ بإسهابٍ كيف يستطيعون الحصول عل انتصابٍ يرضي أيّة زبونةٍ، وما نوع الحياة التي يجب فرضها عليهم، إلخ..

وعنوانها، أن يراها ثانيةً، أن يسكن معها؛ وحين رفضت، ضربها بعنفٍ ولم يتركها إلّا مثخنةً بالجراح، هلعةً. أما مسألة ربط عشيقٍ، كما يربط الرجل عشيقته به عن طريق إعالتها أو مساعدتها، فهذا لا يتوفر إلّا للنساء الموسرات. هناك من تناسبه هذه الصفقة: عندما يدفعن للذكر، يجعلن منه أداةً، ما يسمح لهنّ باستعماله بتجاهلٍ مهينٍ. ولكن عادةً يجب أن يكنّ مسنّاتٍ ليميّزن صراحةً بين الشهوة والمشاعر، الّتي تكون مترابطةً بشكلٍ عميقٍ في سنّ المراهقة الأنثوية كما رأينا. هناك حتّى العديد من الرجال الّذين لا يقبلون أبدًا هذا التمييز بين الجسد والإدراك. وبالأحرى غالبية النساء لا يقبلن تخيّله. عدا عن أنّ هنا خدعةً يتأثّرن بها أكثر من الرجال: فالزبون الّذي يدفع هو أيضًا أداةٌ، تستخدمه شريكته لكسب عيشها. ويحول الكبرياء الذكوري دون إدراك الذكر لتناقضات المأساة الشهوانية، فيكذب على نفسه تلقائيًّا؛ وتشعر المرأة بالإهانة بصورةٍ أسهل، وهي أكثر تشكيكًا، وكذلك أكثر وعيًا؛ ولا تنجح في إغماض عينيها إلّا عندما يكون لديها سوء نيّةٍ أكثر مكرًا. عمومًا لن يبدو لها شراء ذكرٍ أمرًا مُرضيًا، على فرض أنّ لديها الإمكانية لذلك.

بالنسبة لمعظم النساء ـ والرجال أيضًا ـ لا يتعلّق الأمر بإشباع رغباتهنّ، ولكن بالحفاظ على كرامتهنّ كإنسانٍ عبر إشباعها. عندما يستمتع الذكر بالمرأة ويجعلها تستمتع، يطرح نفسه كالذات الوحيدة: مسيطرًا منتصرًا، أو واهبًا كريمًا، أو الاثنين معًا. وبشكلٍ متبادلٍ تريد تأكيد أنّها تستخدم شريكها لمتعتها وأنّها تغدق عليه عطاياها. وكذلك عندما تفرض نفسها على الرجل إمّا بالفوائد الّتي تعده بها، أو عندما تراهن على ذوقه، أو بإيقاظ رغبته في عموميتها بواسطة مناوراتٍ، فهي تقنع نفسها بطيب خاطرٍ أنّها تنعمه. بفضل هذه القناعة الّتي يمكن استغلالها، يمكنها أن تدعوه دون أن تشعر بالإذلال بما أنّها تدّعي أنّها تتصرّف بداعي الكرم. وهكذا في «القمح الفجّ» تقول السيدة الّتي ترتدي الأبيض باستعلاءٍ لـ«فيل» وهي تطلب أن يداعبها: «لا أحبّ سوى المتسوّلين والجائعين». وهي تتصرّف ببراعةٍ في الحقيقة كيما يأخذ موقف المتوسِّل. وتقول **كوليت**: عندئذٍ «تسرع نحو المملكة الضيقة المعتمة حيث يستطيع كبرياؤها أن يصدّق أن الشكوى هي اعترافٌ بالخطر وحيث الشحّاذات من جنسها يشربن وهم الإحسان». السيدة وارنز هي نموذجٌ لهذه النساء اللّواتي يخترن عشّاقًا شبابًا أو من وضعٍ أدنى لإعطاء شهيّتهنّ مظهر الكرم. ولكن هناك أيضًا جسوراتٌ

يتعاملن مع أقوى الذكور وينتشين بالإغداق عليهم في حين أنّهم لم يستسلموا إلّا أدبًا أو خوفًا.

وبالعكس، إذا أرادت المرأة الّتي توقع الرجل في شراكها أن تحسّ أنها تمنح، فتلك الّتي تعطي تريد تأكيد أنّها تأخذ. قالت لي يومًا صحفيّةٌ شابّةٌ: «أنا امرأةٌ تأخذ». في الحقيقة لا أحد يأخذ الآخر حقًّا في هذه القضية، ما عدا في حالات الاغتصاب؛ لكنّ المرأة هنا تكذب على نفسها بشكلٍ مزدوجٍ. لأن المسألة هي أنّ الرجل يغوي غالبًا بحماسته، بعدوانيّته، وينال موافقة شريكته بحيويةٍ. وفيما عدا حالاتٍ استثنائيّةٍ ـ من بينها مدام دوستايل الّتي ذكرتها قبلًا ـ لا يجري الأمر هكذا لدى المرأة: فلا يمكنها أبدًا أن تقوم سوى بمنح نفسها؛ لأنّ معظم الذكور هم غيورون بشكلٍ حادٍّ على دورهم؛ يريدون أن يوقظوا لدى المرأة اضطرابًا خاصًّا، وليس أن يُختاروا لإشباع رغبتها عمومًا، وإلّا شعروا أنّهم مستغَلّون[251]. قال لي شابٌّ: «المرأة الّتي لا تخاف الرجال تخيفهم». وكثيرًا ما سمعت بالغين يقولون: «أكره أن تقوم المرأة بالمبادرة». إذا عرضت المرأة نفسها بجرأةٍ كبيرةٍ يتهرّب الرجل، فهو يحبّ الغزو. إذًا لا تستطيع المرأة أن تأخذ إلّا عندما تجعل من نفسها غنيمةً: يجب أن تصبح شيئًا سلبيًّا، وعدًا بالخضوع. إذا نجحت تظنّ أنّها قامت بهذه المؤامرة السحرية عمدًا، وتجد نفسها ذاتًا. لكنها تخاطر بأن تصبح شيئًا لا فائدة منه بسبب ازدراء الذكر. ولهذا تشعر بإذلالٍ عميقٍ إذا رفض مبادراتها. يغضب الرجل أيضًا أحيانًا عندما يعتبر أنّه قد خُدِع؛ مع ذلك، يكون قد فشل في مشروعٍ لا أكثر. بينما قبلت المرأة بأن تجعل من نفسها جسدًا ضمن الاضطراب والانتظار والوعد؛ ولم يكن بإمكانها أن تربح إلّا عندما تخسر، فظلّت تائهةً. يجب أن يكون المرء أعمىً فظًّا أو ثاقب الفكر بشكلٍ استثنائيٍّ كي يذعن لمثل هذه الهزيمة. وحتى عندما ينجح الإغواء، يبقى النصر مبهمًا؛ في الواقع، الرجل هو الّذي ينتصر حسب الرأي العام، هو الّذي يملك المرأة. ولا يُقبَل أن تستطيع الاضطلاع برغباتها كالرجل: إنها طريدته. من المفهوم أنّ الذكر دمج القوى النوعيّة بفرديته: بينما المرأة عبدة النوع[252]. أحيانًا يرونها

251- هذا الشعور هو المقابل للشعور الّذي أشرنا إليه لدى الشابة. لكنها تستسلم في النهاية لقدرها.

252- رأينا في الجزء الأول، الفصل الأول، أنّ هناك بعض الحقيقة في هذا الرأي. ولكن عدم التناظر لا يتجلّى في لحظة الرغبة: بل في الإنجاب. في الرغبة يقوم الرجل والمرأة بوظائفهما الطبيعية.

سلبيةً صرفةً: فهي «استلقي هناك يا ماري؛ مرّ الجميع على جسدك ولم يبق سوى الحافلة الّتي لم تمرّ»؛ جاهزةً، منفتحةً، أداةً؛ تستسلم بفتورٍ لسحر الاضطراب، يسحرها الذكر الّذي يقطفها كثمرةٍ. وأحيانًا أخرى يُنظر إليها كفعّاليّةٍ مستلَبةٍ: هناك شيطانٌ يرفس ضمن رحمها، وفي أعماق مهبلها أفعى نهمةٌ تترقب أن تشبع من مني الذكر. في جميع الأحوال، يُرفض التفكير بأنّها بكل بساطةٍ حرّيةٌ. في فرنسا خصوصًا يخلطون بعنادٍ بين المرأة الحرّة والمرأة السهلة، بما أنّ فكرة السهولة تفترض غياب المقاومة وضبط النفس، ونقص الحريّة أو حتى انعدامها. ويحاول الأدب النسائيّ مقاومة هذه الأفكار المسبقة: مثلًا في «غريزليديس»، تلحّ **كلارا مالرو** Clara Malraux على أنّ بطلتها لا تستسلم لتدريبٍ إنما تقوم بفعلٍ تطالِب به. ويعترفون في أمريكا بوجود حرّيةٍ للنشاط الجنسي للمرأة، ما يشكّل تعزيزًا كبيرًا لها. لكن الاحتقار الّذي يبدونه في فرنسا للنساء اللّواتي «يضاجعن» الرجال الّذين يستغلّون خدماتهنّ يشلّ عددًا كبيرًا من النساء. إذ يستفظعن التصوّرات الّتي سيثيرها سلوكهنّ والكلمات الّتي ستقال عنهنّ.

وحتّى إن كانت المرأة لا تلقي بالًا إلى الشائعات المُغفَلة، فهي تشعر بصعوباتٍ ملموسةٍ في علاقتها بشريكها؛ لأنّه يجسّد الرأي العام. كثيرًا ما يعتبر السرير ميدانًا عليه أن يؤكّد فيه تفوّقه العدوانيّ. يريد أن يأخذ وليس أن يتلقّى، يريد أن يسلب وليس أن يتبادل. يحاول امتلاك المرأة فوق ما تعطيه إياه؛ ويطلب أن تكون موافقتها هزيمةً، والكلمات الّتي تهمس بها اعترافاتٍ ينتزعها منها؛ بقبولها متعتها تعترف بعبوديتها. عندما تتحدى **كلودين رينو** بسرعتها في الخضوع له، يسبقها: ويسارع إلى اغتصابها بينما كانت ستهبه نفسها؛ ويرغمها على إبقاء عينيها مفتوحتين ليتأمّل انتصاره في دورانهما. وهكذا، في «الوضع الإنساني»، يصرّ **فيرال** المتسلّط على إضاءة المصباح الّذي تريد **فاليري** إطفاءه.

تواجه المرأة الذكر كخصمٍ، فخورةً، مطالِبةً؛ وهي أقلّ منه بكثيرٍ تسلّحًا في هذا الصراع؛ فأوّلًا لديه القوّة الجسديّة ومن السهل عليه أكثر فرض إرادته؛ رأينا أيضًا أن التوتّر والنشاط ينسجمان مع شهوانيته بينما عندما ترفض المرأةُ السلبيّةَ تخسر الافتتان الّذي يوصلها للّذّة؛ ولا تبلغ المتعة إن قلّدت السيطرة في سلوكها وحركاتها، ومعظم النساء اللّواتي يراعين كبرياءهنّ يصبحن بارداتٍ. قلائلٌ هم العشّاق الّذين يسمحون لعشيقتهنّ بإشباع

ميولها للسيطرة أو للساديّة؛ وأندر أيضًا هنّ النساء اللّواتي ينلن من هذه الطاعة رضىً جنسيًا كاملًا.

هناك طريقٌ تبدو للمرأة أقلّ أشواكًا: هي طريق المازوشيّة. عندما يعمل المرء أثناء النهار، ويكافح، ويتحمّل مسؤولياتٍ ومخاطر، يسترخي ليلًا باستسلامه لنزواتٍ جامحةٍ. وسواءً كانت المرأة عاشقةً أم ساذجةً، فهي تسرّ في الواقع غالبًا بإلغاء نفسها لصالح إرادةٍ مستبدّةٍ. ولكن يجب أيضًا أن تشعر أنّها تحت الهيمنة فعلًا. ليس سهلًا على تلك الّتي تعيش يوميًا بين رجالٍ أن تعتقد بتفوّق الذكور غير المشروط. لقد ذكروا لي حالة امرأةٍ ليست مازوشيّةً حقًّا إنما مفرطة الأنوثة، أي تستمتع بعمقٍ بالتنازل بين ذراعي رجلٍ؛ اعتبارًا من سنّ السابعة عشرة كان لها عدة أزواجٍ وكثيرٌ من العشّاق الّذين استمتعت معهم للغاية؛ وقد قادت بنجاحٍ مشروعًا صعبًا ترأست فيه رجالًا، وكانت تشكو من أنّها أصبحت باردةً: كان لديها تنازلٌ هانئٌ غدا مستحيلًا بالنسبة لها لأنها اعتادت السيطرة على الذكور، ولأنّ هيبتهم تلاشت. عندما تبدأ المرأة في الشكّ بتفوّقهم، لا تؤدّي مطالباتهم إلّا إلى الإقلال من احترامها لهم. في السرير، في الأوقات الّتي يريد الرجل فيها أن يكون ذكرًا أكثر من سواها، ولأنّه يمثّل الذكورة، يبدو طفوليًا لعيونٍ خبيرةٍ: فكلّ ما يفعله هو استدعاء عقدة الإخصاء القديمة، وظلّ أبيه، أو تخيّلاتٍ أخرى. لا ترفض العشيقة دومًا عن كبرياءٍ الخضوع لنزوات عشيقها: فهي تتمنى أن تتعامل مع بالغٍ يعيش لحظةً حقيقيةً من حياته، وليس مع غلامٍ يتخيّل. المازوشية بشكلٍ خاصٍّ خائبةٌ: فمجاملةٌ أموميّةٌ زائدةٌ أو متساهلةٌ ليست الاستسلام الّذي تحلم به. فإما عليها أن تكتفي هي أيضًا بألعابٍ مثيرةٍ للسخرية، متظاهرةً بتصديق أنّها خاضعةٌ ومستعبَدةٌ، أو أن تركض خلف الرجال «المتفوقين» أملًا بانتقاء سيّدٍ لها، أو أنها ستصبح باردةً.

رأينا أنّ من الممكن الهروب من إغراءات السادية والمازوشية عندما يعترف الشريكان بشكلٍ متبادلٍ بأنهما متماثلان؛ ما إن يكون لدى الرجل ولدى المرأة بعض التواضع وبعض الكرم، حتّى تنهار فكرة الانتصار والهزيمة، وتصبح عملية الحب تبادلًا حرًّا. ولكن، وبشكلٍ متناقضٍ، الاعتراف بأنّ شخصًا من الجنس الآخر هو شبيهٌ أصعب بكثيرٍ على المرأة منه على الرجل. تحديدًا لأن طائفة الرجال تملك التفوّق، يستطيع الرجل أن يكنّ احترامًا عطوفًا

لعدة نساءٍ متميّزاتٍ: من السهل أن يحبّ امرأةً، فلديها أولًا امتياز إدخال العشيق إلى عالمٍ مختلفٍ عن عالمه يسرّه استكشافه بقربها؛ وتحيّره، وتسلّيه، على الأقلّ خلال فترةٍ ما؛ ثم بما أنّ وضعها محدودٌ، تابعٌ، فكلّ ميزاتها تبدو مكتسباتٍ بينما تُغفَر أخطاؤها. يُعجَب ستندال بالسيدتين دورونال وشاستليه رغم أفكارهما المسبقة البغيضة: لا يرى الرجل أنّ المرأة مسؤولةٌ إن كانت أفكارها خاطئةً، أوإن لم تكن ذكيّةً، ولا حادة الذهن، ولا شجاعةً، فهو يظنّ أنها ضحيّة وضعها، وهو مصيبٌ في ذلك غالبًا؛ ويحلم بما كان ينبغي أن تكون، وبما ستصبح ربما: يمكن منحها ثقةً، وكثيرًا من الخصائص بما أنها ليست محدّدةً؛ ويملّ العاشق بسرعةٍ بسبب هذا الغياب: ولكن يأتي الغموض منها، وكذا السحر الّذي يغويه ويجعله حنونًا. من الصعب الشعور بالصداقة تجاه رجلٍ: لأنّه صنيعة نفسه، بمفرده؛ يجب أن تحبّه بحضوره وحقيقته، وليس بالوعود والإمكانيات غير المؤكّدة؛ إنه مسؤولٌ عن تصرفاته، وأفكاره؛ فلا عذر له. معه لا توجد أخوّةٌ إلّا إذا وافقنا على أفعاله وغاياته وآرائه؛ يستطيع جوليان أن يحب مناصرةً للملكية؛ بينما لا تستطيع لاميل أن تحبّ رجلًا تحتقر أفكاره. يصعب على المرأة تبنّي موقفٍ متساهلٍ حتّى وإن كانت مستعدةً لتسوياتٍ. لأنّ الرجل لا يفتح لها جنّة الطفولة الخضراء، إنها تقابله في هذا العالم الّذي هو عالمهما المشترك: فلا يُحضِر سوى نفسه. ولا يشجّع الأحلام، منغلقًا على نفسه، محدّدًا، عازمًا؛ يجب الإصغاء إليه عندما يتكلّم؛ ويعتدّ بنفسه، وإذا لم يشدّ الانتباه يبعث على الملل، فوجوده ثقيلٌ. الشباب الصغار فقط يتحلّون بالبساطة الرائعة، يمكن أن يبحث المرء لديهم عن الغموض والوعود، ويجد لهم أعذارًا، ويتعامل معهم بسطحيةٍ: هذا أحد الأسباب الّتي تجعلهم في نظر النساء الناضجات فاتنين بهذا القدر. لكنّهم معظم الوقت يفضّلون من ناحيتهم نساءً شاباتٍ. تُدفع المرأة ذات الثلاثين عامًا نحو الذكور البالغين. ولا شك أنّها تصادف من بينهم من سيرحب باحترامها وصداقتها؛ لكنها ستكون محظوظةً إذا لم يكن صلفًا. عندما تتمنى أن تعيش حكايةً أو مغامرةً ينخرط فيها قلبها وجسدها، تكمن المشكلة في الالتقاء برجلٍ يمكنها اعتباره مساويًا دون أن يعتبر نفسه متفوّقًا.

سيقال لي إنّ النساء عمومًا لا يخلقن مثل هذه المشاكل؛ فهنّ يقتنصن الفرصة دون أن يطرحن على أنفسهنّ أسئلةً، ثم يتدبّرن الأمر مع كبريائهنّ وشهوانيّتهنّ. وهذا صحيحٌ.

لكنّ ما هو صحيحٌ أيضًا أنّهنّ يخفين في أعماق قلبهنّ العديد من الخيبات والإذلال والأسف والضغينة لا نجد لها معادلًا ـ في المتوسّط ـ لدى الرجل. ويكسب الرجل المتعة من علاقةٍ غير كاملةٍ؛ أما هي فقد لا تنال منها أيّ مكسبٍ؛ وتمنح نفسها للعناق بتهذيبٍ دون مبالاةٍ عندما تحين اللحظة الحاسمة: ويحدث أن يجد العشيق نفسه عاجزًا وتعاني هي لأنها تورّطت في مغامرةٍ تافهةٍ؛ إذا لم تصل إلى المتعة، تشعر أنها خُدِعت، استُغِلّت؛ وإذا أُشبِعت، تتمنى استبقاء عشيقها بشكلٍ دائمٍ. ونادرًا ما تكون صادقةً تمامًا حين تدّعي أنها لا تطلب سوى مغامرةٍ عابرةٍ آملةً بالمتعة، لأنّ المتعة تربطها بدل أن تحرّرها؛ ويجرحها الافتراق حتى وإن كان ودّيًا. أن نسمع امرأةً تتكلّم عن عشيقٍ سابقٍ بطريقةٍ ودّيّةٍ أمرٌ أكثر ندرةً من حديث الرجل بودٍّ عن عشيقاته.

تحثّ المرأة طبيعتها الشهوانية وصعوبات حياةٍ جنسيةٍ حرّةٍ على الزواج الأحادي. مع ذلك يتوافق الزواج أو العلاقة مع المهنة بالنسبة إليها بشكلٍ أصعب مما بالنسبة إلى الذكر. يحدث أن يطلب منها العشيق أو الزوج التخلّي عنها: فتتردّد، كمشرّدة **كوليت** الّتي تتمنى بحرارةٍ وجود دفءٍ ذكوريٍّ بقربها لكنها تخشى عراقيل الزواج؛ فإن تنازلت تصبح عبدةً من جديدٍ؛ وإن رفضت تحكم على نفسها بالوحدة. يقبل الرجل اليوم عمومًا أن تحتفظ شريكته بعملها؛ أصبحت روايات **كوليت إيفر** Colette Yver قديمةً بعض الشيء حيث تبدي لنا الشابة مرغمةً على التضحية بعملها للحفاظ على السلام المنزلي؛ والحياة المشتركة لشخصين حرّين هي بالنسبة لكليهما إغناءٌ ويجد كلّ واحدٍ في اهتمامات شريكه ضمانًا لاستقلاله هو؛ فالمرأة الّتي تكفي نفسها تحرّر زوجها من الاستعباد الزوجي الّذي كان المقابل لاستعبادها. إذا كان الرجل حسن النيّة، يصل العشّاق والأزواج إلى مساواةٍ تامةٍ بكرمٍ غير مفروضٍ[253]. حتى أنّ الرجل أحيانًا يلعب دور الخادم المخلص؛ وهكذا خلقت **ليوس** بقرب **جورج إليوت** المناخ الملائم الّذي تخلقة الزوجة عادةً للزوج الإقطاعي. ولكن المرأة ما تزال في معظم الوقت هي الّتي تحمل عبء انسجام الأسرة. ويبدو طبيعيًا للرجل أن تدير هي البيت، وتؤمّن وحدها العناية بالأطفال وتربيتهم. وتعتبر المرأة نفسها أنها حين تتزوج تضطلع بأعباءٍ لا تعفيها منها حياتها الشخصية؛ ولا تريد أن تحرم زوجها من الامتيازات الّتي كان يمكن أن

253- يبدو أن حياة كلارا وروبير شومان كانت لفترةٍ من الزمن نجاحًا من هذا النوع.

يجدها بارتباطه «بامرأةٍ حقيقيّةٍ»: تريد أن تكون أنيقةً وربة منزلٍ جيدةً وأمًّا متفانيّةً كما تكون الزوجات تقليديًّا. وهي مهمّةٌ تصبح مرهقةً. فتضطلع بها مراعاةً لشريكها وإخلاصًا لنفسها معًا: يهمّها كما رأينا سابقًا ألا يفوتها شيءٌ من مصيرها كامرأةٍ. فتكون مزدوجًا للزوج وذاتها في الوقت نفسه؛ وتحمّل نفسها همومه، وتساهم في نجاحاته بقدر ما تهتم بمصيرها هي وحتّى أكثر أحيانًا. وبما أنها تربّت على احترام التفوّق الذكوري، قد تعتبر أيضًا أنّ على الرجل احتلال المقام الأول؛ أحيانًا كذلك تخشى هدم زواجها إن طالبت بهذا المقام؛ فتصبح مقسّمةً، ممزّقةً، موزّعةً بين الرغبة في تأكيد الذات والرغبة في الانزواء.

مع ذلك هناك امتيازٌ تستطيع المرأة نيله من دونيتها ذاتها: بما أنّ فرصها في البدء أقلّ من فرص الرجل، فلا تشعر أنّها أصلًا مذنبةٌ تجاهه؛ ليس عليها تعويض الظلم الاجتماعيّ، وغير مطلوبٍ منها ذلك. على الرجل حسن النية أن «يجامل» النساء بما أنّه أكثر حظًّا منهنّ؛ يكبّله إحساسه بالواجب والشفقة، ويغامر بأن يكون فريسة نساءٍ «ملحّاتٍ»، «مفترساتٍ» بما أنّهنّ عزلاواتٍ. ولدى المرأة الّتي تكتسب استقلالًا ذكوريًّا امتيازٌ كبيرٌ بالتعامل جنسيًّا مع أفرادٍ مستقلين هم أيضًا وناشطين لن يلعبوا في حياتها عمومًا دور الطفيلي، لن يقيّدوها بضعفهم وحاجاتهم. لكن في الحقيقة تندر النساء اللّواتي يعرفن كيف يخلقن علاقةً حرّةً مع شريكهنّ؛ إذ يصنعن بأنفسهنّ السلاسل التي لم يشأ هو فرضها عليهنّ: يتبنّين تجاهه موقف العاشقة. خلال عشرين عامًا من الانتظار، والحلم، والأمل، داعبت خيال الفتاة أسطورة البطل المحرّر والمنقذ: ولا يكفي الاستقلال المكتسَب بالعمل لإلغاء رغبتها باستسلامٍ رائعٍ. كان يجب أن تُربّى تمامًا[254] كفتىً لتستطيع التغلّب بسهولةٍ على نرجسيّة المراهقة: لكنّها تستمرّ خلال حياتها كبالغةٍ بعبادة الأنا الّتي أخضعها شبابها لها؛ وتصنع من نجاحاتها المهنيّة ميزاتٍ تغْني بها صورتها؛ فهي بحاجةٍ إلى نظرةٍ آتيةٍ من فوق تكشف قيمتها وترسخّها. حتى إن كانت صارمةً تجاه الرجال الّذين تقيّمهم يوميًّا، لا يمنعها ذلك من احترام الرجل وإذا صادفته فهي مستعدةٌ لتخرّ على ركبتيها. أن يمنحها إلهٌ تبريرًا لأسهل من أن تفعل ذلك بجهدها؛ ويشجعها العالم على الاعتقاد بإمكانية خلاصٍ معطىً: فتختار أن تصدّقه. تتخلّى أحيانًا بشكلٍ كلّيٍّ عن استقلالها، فلا تعود سوى عاشقةٍ؛ وتحاول غالبًا

254- أي ليس فقط حسب نفس المناهج، ولكن في نفس المناخ، الأمر المستحيل اليوم رغم كل جهود المربّي.

التوفيق؛ لكنّ الحبّ الوثنيّ، الحب المستسلم مدمّرٌ: إنه يشغل كل الأفكار، وكلّ اللحظات، إنّه هوسٌ، متسلّطٌ. في حال حدوث فشلٍ مهنيٍّ، تبحث المرأة بانفعالٍ عن ملجأٍ في الحب: ويتجلّى فشلها بمشاحناتٍ ومتطلّباتٍ يدفع ثمنها العاشق. لكنّ آلام قلبها لا تزيد من حماسها المهنيّ، وبشكلٍ عامٍّ تثور بالعكس على نمط الحياة الّذي يغلق في وجهها الطريق الملكيّ للحب الكبير. هناك امرأةٌ كانت تعمل منذ عشر سنواتٍ في مجلّةٍ سياسيّةٍ تديرها نساءٌ، كانت تقول لي أنّهنّ كنّ في المكاتب يتحدّثن نادرًا عن السياسة ودون توقفٍ عن الحبّ: فهذه كانت تشكو من أنّهم كانوا يحبّون جسدها فقط، متجاهلين ذكاءها اللماح؛ وتلك تنوح لأنهم لم يُعجبوا إلّا بفكرها دون الاهتمام بمفاتنها الجسديّة. هنا أيضًا لكي تستطيع المرأة أن تحب بأسلوب الرجل، أي دون أن تطرح كيانها نفسه للمناقشة، ضمن الحرّية، يجب أن تفكّر أنها مساويةٌ له، وأن تكون كذلك فعلًا: يجب أن تلتزم في مشاريع بنفس التصميم، وهذا غير شائعٍ كما سنرى.

هناك وظيفةٌ أنثويةٌ يستحيل تقريبًا الاضطلاع بها بحرّيةٍ اليوم، هي الأمومة؛ في إنجلترا وأمريكا، تستطيع المرأة رفضها بإرادتها بفضل ممارسة «تحديد النسل»؛ ورأينا أنّها مضطرةٌ غالبًا في فرنسا للجوء إلى إجهاضاتٍ صعبةٍ ومكلفةٍ؛ تتحمّل غالبًا عبء طفلٍ لم ترغب به يهدم حياتها المهنيّة. إذا كان هذا العبء ثقيلًا، فذلك لأنّ الأعراف بالمقابل لا تسمح للمرأة بالإنجاب عندما يحلو لها: فالأم العازبة تثير الفضيحة، وبالنسبة للطفل، ولادته غير الشرعية عارٌ؛ من النادر أن تتمكن من أن تصبح أمًّا دون قبول أغلال الزواج أو دون خسارة سمعتها. إذا كانت فكرة التلقيح الاصطناعيّ تهمّ النساء لهذه الدرجة فذلك لا يعني أنّهنّ يرغبن في تفادي عناق الذكر: بل لأنهنّ يأملن بأنّ الأمومة الحرة ستصبح مقبولةً أخيرًا من المجتمع. يجب أن نضيف أنّه بسبب نقص دور الحضانة ورياض الأطفال المنظمة بشكلٍ مناسبٍ، يكفي طفلٌ واحدٌ لشلّ نشاط الأمّ بكامله؛ لا تستطيع الاستمرار في العمل إلّا إن تركته لأقارب أو أصدقاءٍ أو خادماتٍ. فعليها أن تختار بين العقم الّذي تشعر به غالبًا ككبتٍ مؤلمٍ وبين أعباءٍ لا تتطابق مع ممارسة مهنةٍ.

وهكذا فالمرأة المستقلة اليوم موزّعةٌ بين مصالحها المهنيّة وهموم نزعتها الجنسية؛ يصعب عليها إيجاد توازنها؛ فإذا أمّنته فلقاء تنازلاتٍ وتضحياتٍ ومهاراتٍ تتطلّب منها

توتّرًا مستمرًّا. يجب البحث هنا عن سبب العصبية والهشاشة اللّتين نلاحظهما غالبًا لديها أكثر من بحثنا في المعطيات الفيزيولوجية. من الصعب أن نقرّر إلى أيّ حدٍّ يشكّل التكوين الجسدي للمرأة بحدّ ذاته عائقًا. لطالما تساءلنا حول العقبة الّتي يشكلها الطمث. كان يبدو أنّ النساء اللّواتي اشتهرن بأعمالهنّ لا يعلّقن على الطمث كبير أهمّيةٍ: هل كان ذلك تحديدًا لأنّ سبب نجاحهنّ متعلّقٌ ببساطة الاضطرابات الشهرية لديهنّ؟ يمكن بالعكس أن نتساءل إن لم يكن اختيارهنّ لحياةٍ نشيطةٍ طموحةٍ هو ما منحهنّ هذا الامتياز: لأنّ الأهمية التي توليها المرأة لتوعّكاتها تزيدها؛ فالرياضيات والنساء الناشطات يعانين منها بشكلٍ أقلّ من الأخريات لأنّهنّ لا يهتممن بآلامهنّ. قد يكون لدى هاته أيضًا أسبابٌ عضويةٌ وقد رأيت نساءً فائقات الحيوية يمضين كلّ شهرٍ أربعًا وعشرين ساعةً في السرير نهبًا لآلامٍ لا ترحم؛ لكنّ ذلك لم يعرقل مشاريعهنّ أبدًا. أنا مقتنعةٌ بأنّ معظم التوعّكات والأمراض الّتي ترهق النساء ذات أسبابٍ نفسيّةٍ: هذا ما قاله لي الأطباء النسائيون أصلًا. تظلّ النساء متعباتٍ منهكاتِ القوى بسبب التوتّر المعنويّ الّذي تحدثت عنه، بسبب كلّ المهامّ الّتي يضطلعن بها، والتناقضات الّتي يتخبّطن وسطها؛ هذا لا يعني أنّ آلامهنّ وهميّةٌ: إنها حقيقيةٌ ومضنيةٌ كالوضع الّذي تعبّر عنه. لكنّ الوضع لا يتعلّق بالجسد، بل الجسد يتعلّق بالوضع. وهكذا، لا تؤذي صحة المرأة عملها عندما يكون للعاملة في المجتمع المكان المناسب لها؛ على العكسِ، يساعد العمل بقوّةٍ في توازن جسدها عنما يحول بينها وبين الاهتمام به باستمرارٍ.

عندما نقيّم إنجازات المرأة المهنيّة وانطلاقًا منها نتوقّع مستقبلها، يجب ألّا نغفل النظر عن مجمل هذه الأمور. فهي تنخرط في مهنةٍ ضمن وضعٍ مضطربٍ، وهي ما تزال عبدةً للأعباء الّتي تفرضها الأنوثة تقليديًّا. ولا تساعدها الظروف الموضوعيّة في ذلك. من الصعب دومًا أن يأتي فردٌ جديدٌ ويحاول أن يشقّ له طريقًا عبر مجتمعٍ مُعادٍ أو مشكّكٍ على الأقلّ. أظهر ريتشارد رايت Richard Wright في «الصبي الأسود» كم تكون طموحات فتىً صغيرٍ أسود في أمريكا مسدودةً منذ البداية وأيّ صراعٍ عليه أن يخوضه فقط ليرتفع إلى المستوى الّذي تبدأ عنده مشاكل البيض؛ يعرف السود الّذين أتوا من إفريقيا إلى فرنسا أيضًا الصعوبات ـ في أنفسهم وفي الخارج ـ المماثلة لتلك الّتي تعرفها النساء.

فأولًا تجد المرأة نفسها في مرحلة التدرّب في وضعٍ دونيٍّ: أشرت إلى ذلك قبلًا فيما

يخصّ الفتاة الشابة، ولكن يجب العودة إليه بتدقيقٍ أكبر. خلال دراستها، في السنوات الأولى الحاسمة للغاية، يندر أن تأخذ المرأة فرصها فعلًا: ويعوق الانطلاق السيّء كثيراتٍ فيما بعد. في الواقع، بين الثامنة عشرة والثلاثين من العمر تبلغ الصراعات الّتي تحدثت عنها ذروتها: في هذه الفترة يتحدّد المستقبل المهنيّ. وسواءً كانت المرأة تعيش ضمن أسرتها أو متزوّجةً، فنادرًا ما يحترم المحيطون بها جهدها كما يحترمون جهد الرجل؛ فتُفرض عليها خدماتٌ، وأعباءٌ، ويعرقلون حرّيتها؛ وما تزال هي نفسها متأثّرةً بتربيتها بشكلٍ عميقٍ، تحترم القيم الّتي تؤيّدها من يكبرنها سنًّا، تسكنها أحلام الطفلة والمراهقة؛ ولا توفّق جيّدًا بين موروث ماضيها ومصلحة مستقبلها. فترفض أنوثتها أحيانًا، وتتردّد بين العفّة، والمثلية الجنسية، أو سلوك امرأةٍ مسترجلةٍ مستفزٌّ، وتهمل ملابسها أو تتنكّر: وتضيع الكثير من الوقت والجهد في تحدّياتٍ، وتمثيلياتٍ، وسورات غضبٍ. وكثيرًا ما تريد تأكيد أنوثتها على العكس: فتتأنّق وتخرج وتعاشر الرجال وتقع في الحبّ، متأرجحةً بين المازوشيّة والعدوانيّة. على كلّ حالٍ تتساءل، وتتحرك، وتتشتّت. ولا تلتزم بكلّيتها بمشروعٍ لأنها نهبٌ لهمومٍ غريبةٍ؛ وبالتالي لا تنال منه مكاسب كثيرةً، ما يغريها بالتخلّي عنه. أكثر الأمور إحباطًا للمرأة الّتي تحاول الاكتفاء بذاتها، هو وجود نساءٍ أخرياتٍ ينتمين لنفس الطبقة الاجتماعية، كان لديهن في البداية نفس وضعها ونفس فرصها، يعشن متطفلاتٍ؛ قد يشعر الرجل بالحقد تجاه ذوي الامتياز: لكنه يتضامن مع طبقته؛ وبالمجمل، يصل أصحاب الفرص المتكافئة في البداية إلى نفس مستوى المعيشة تقريبًا؛ بينما من خلال الرجل تملك نساءٌ من نفس الوضع ثرواتٍ مختلفةً. الصديقة المتزوجة أو الّتي يعيّشها عشيقٌ حياة رفاهيّةٍ هي إغراءٌ لتلك الّتي تضطر إلى تأمين نجاحها بنفسها؛ يبدو لها أنّها مضطرّةٌ اعتباطًا إلى سلوك الطرق الأصعب: وتتساءل عند كلّ عقبةٍ إن لم يكن من الأفضل لو اختارت طريقًا أخرى. كانت طالبةٌ صغيرةٌ فقيرةٌ تقول لي مستنكرةً: «عندما أفكر أنّ عليّ أن أستخرج كلّ شيءٍ من دماغي!». وينقاد الرجل لضرورةٍ ملحّةٍ: على المرأة تجديد قرارها باستمرارٍ؛ تتقدم دون أن تحدّق إلى غايةٍ أمامها مباشرةً ولكن تاركةً نظراتها تهوم حولها؛ لذا يكون عملها خجولًا غير مؤكّدٍ. بالإضافة إلى أنّه يبدو لها ـ كما قلت قبلًا ـ أنها كلما سارت للأمام، كلما تخلّت عن فرصها الأخرى؛ عندما تجعل من نفسها متحذلقةً، مثقّفةً، لن تُعجب الرجال عمومًا؛ أو أنها

ستهين زوجها أو عشيقها من أجل نجاحٍ باهرٍ. لا تبذل جهدًا فقط في أن تبدو أنيقةً، عابثةً، إنما تكبح انطلاقتها. يتضافر الأمل في أن تتحرّر يومًا من اهتمامها بنفسها، والقلق من اضطرارها، باضطلاعها بهذا الهم، إلى التخلي عن هذا الأمل، لتمنعها من الانكباب على دروسها ومهنتها دون تحفّظٍ.

بما أنّ المرأة تود أن تكون امرأةً، يخلق لديها وضعها المستقلّ عقدة نقصٍ؛ وبالعكس، تجعلها أنوثتها تشكّك في فرصها المهنيّة. وتلك نقطةٌ هامّةٌ. رأينا أنّ الفتيات في الرابعة عشرة صرّحن ضمن تحقيقٍ بأنّ «الصبيان أفضل؛ يجدون عملًا بشكلٍ أسهل». فالفتاة مقتنعةٌ أنّ قدراتها محدودةٌ. وبما أنّ الآباء والأساتذة يقرّون بأنّ مستوى البنات أدنى من مستوى الصبيان، فالتلاميذ يقرّون بذلك أيضًا بطيب خاطرٍ؛ وبالفعل، رغم تماثل البرامج، فثقافتهنّ في المدارس الثانويّة أقلّ تطوّرًا. وما عدا بعض الاستثناءات، المستوى الإجمالي لصف إناثٍ في الفلسفة مثلًا أدنى بوضوحٍ من صفّ ذكورٍ: وعددٌ كبيرٌ من التلميذات لا ينوين متابعة دراستهنّ، فيشتغلن بشكلٍ سطحيٍّ وتعاني الباقيات من قلّة المنافسة. ولا يبدو تقصيرهنّ واضحًا طالما تعلّق الأمر بامتحاناتٍ سهلةٍ؛ ولكن عند تقديم مسابقاتٍ جدّيةٍ، تدرك الطالبة ما ينقصها؛ وتعزوه ليس إلى ضحالة تعليمها، ولكن إلى اللعنة الظالمة المرتبطة بأنوثتها؛ وتزيد من عدم المساواة هذا حين ترضخ له؛ وتقنع نفسها بأنّ فرصها في النجاح تكمن في صبرها، واجتهادها؛ وتقرّر أن توفّر قواها: وذلك حسابٌ بغيضٌ. فالأسلوب النفعيّ ضارٌّ في الدراسات والمهن الّتي تتطلّب بعض الابتكار والطرافة وبعض الاكتشافات الصغيرة؛ قد تكون أحاديثٌ وقراءاتٌ على هامش البرامج ونزهةٌ يسرح فيها الفكر بحرّيةٍ مفيدةً أكثر حتّى لترجمة نصٍّ يونانيٍّ من تجميعٍ كئيبٍ لتراكيب كلاميّةٍ كثيفةٍ. تقتل الطالبة المجدّة في نفسها الحسّ النقديّ والذكاء ذاته، يسحقها احترام السلطات وثقل المعرفة الواسعة، والنظرات المتغامزة. ويولد سعيها الحثيث المنهجيّ توتّرًا وضجرًا: في الصفوف الّتي تعدّ فيها طالبات الثانويّة مسابقة «سيفر Sèvres» يسود جوٌّ خانقٌ يثبّط كلّ التميّزات الحيويّة. عندما تخلق المتسابقة لنفسها جحيمًا، لا تتمنى سوى أن تهرب منه؛ ما إن تغلق الكتب، حتّى تفكّر في مواضيع أخرى. ولا تعرف هذه اللّحظات المثمرة الّتي تختلط فيها الدراسة بالتسلية، حيث تأخذ مغامرات الفكر حرارةً حيويةً. رازحةً تحت ثقل مهامها، تشعر شيئًا فشيئًا أنها غير

قادرةٍ على القيام بها بشكلٍ جيّدٍ. أذكر طالبةً في شهادة الأستاذية كانت تقول، في الوقت الّذي كانت فيه هناك مسابقةٌ مشتركةٌ بين الرجال والنساء في الفلسفة: «يستطيع الفتيان أن ينجحوا في سنةٍ أو سنتين؛ أما نحن، فيلزمنا على الأقل أربع سنواتٍ». وأخرى حُدِّدت لها قراءة كتابٍ حول كانت Kant، مؤلّف البرنامج، قالت: «إنه كتابٌ صعبٌ جدًّا: إنّه كتابٌ من أجل طلاب دار المعلّمين!» كان يبدو أنّها تتخيّل أنّ النساء يقدرن أن ينجحن في المسابقة بالمساعدة؛ وبانطلاقهنّ من فكرة الهزيمة سلفًا، كنّ يتركن فعليًّا كلّ فرص النجاح للرجال.

نتيجةً لهذه الانهزامية، تقنع المرأة بسهولةٍ بنجاحٍ متواضعٍ؛ ولا تجرؤ على التطلّع للأعلى. وعندما تبدأ مهنتها بتدريبٍ سطحيٍّ، تضع فورًا حدودًا لطموحاتها. وغالبًا ما يبدو لها كسب عيشها بنفسها جدارةً كبيرةً؛ كان بإمكانها ككثيراتٍ غيرها أن تعهد بمصيرها لرجلٍ؛ وتحتاج لجهدٍ هي فخورةٌ به لكنّه يضنيها لتستمرّ في الرغبة باستقلالها. يبدو لها أنها فعلت ما يكفي منذ أن اختارت أن تفعل شيئًا. وتفكر بأنّه «لا بأس بهذا بالنسبة لامرأةٍ». وكانت امرأةٌ تمارس مهنةً غريبةً تقول: «لو كنت رجلًا، كنت سأشعر بأنّي مضطرّةٌ لبلوغ الصفّ الأوّل؛ لكني المرأة الوحيدة في فرنسا الّتي تشغل مثل هذا المنصب: وهذا يكفيني». هناك بعض الحذر في هذا التواضع. تخشى المرأة أن تجهد نفسها في محاولتها التقدّم إلى الأمام. ويجدر القول إنّها تنزعج من فكرة أنّهم لا يثقون بها. وبصورةٍ عامّةٍ، تعادي الفئة العليا القادمين حديثًا من الفئة الأدنى: ولا يذهب البيض لعيادة طبيبٍ أسود، ولا الذكور لعيادة الطبيبات؛ لكنّ الأفراد من الفئة الأدنى، الّذين يشعرون بدونيتهم النوعيّة، والحاقدين غالبًا على ذاك الّذي قهر القدر، يفضّلون أيضًا الذهاب إلى الأسياد؛ وخصوصًا معظم النساء، حبيسات عبادة الرجل، يبحثن عنه بشراهةٍ في الطبيب، والمحامي، ورئيس الدائرة، إلخ... ولا يحب الرجال ولا النساء الخضوع لأوامر امرأةٍ. وحتى وإن كان رؤساؤها يحترمونها، سيشعرون دومًا تجاهها ببعض التسامح المتعجرف؛ أن تكون امرأةً، فهذا على الأقلّ شيءٌ خاصٌّ، إن لم يكن عيبًا. وعلى المرأة باستمرارٍ اكتساب ثقةٍ لم تُمنحها في البدء: يشكّ فيها بالبداية، فتضطرّ لأن تبرهن على مقدرتها. إذا كانت ذات قيمةٍ، فستثبت ذلك كما يقولون. لكن القيمة ليست جوهرًا معطىً: إنها نتيجة تطوّرٍ ناجحٍ. إن شعرت بأن فكرةً مسبقةً سلبيّةً تثقل عليها فهذا لا يساعدها بالتغلب عليها. يؤدي الشعور البدئي بالنقص، كما هو معتادٌ، إلى ردّ فعلٍ دفاعيٍّ

هو إظهارٌ مبالغٌ به للسلطة. معظم النساء الطبيبات مثلًا لديهن رد الفعل هذا قليلًا جدًّا أو كثيرًا جدًّا. إذا ظللن طبيعياتٍ، لا يُرهبن لأنّ مجمل حياتهنّ يؤهّبهنّ بالأحرى للإغراء أكثر من التحكّم؛ المريض الّذي يحبّ أن يخضع للسيطرة يشعر بالخيبة إزاء نصائح معطاةً ببساطةٍ؛ وإذ تدرك الطبيبة ذلك، تتّخذ صوتًا رصينًا، ولهجةً حاسمةً؛ لكنّ ذلك لا يعطيها بساطة الطبيب الواثق من نفسه. ويعتاد الرجل على فرض نفسه؛ فيؤمن زبائنه بكفاءته؛ ويستطيع أن يترك نفسه على سجيتها: فسيظلّ مؤثّرًا. ولا توحي المرأة بنفس شعور الأمان؛ فتتعاظم، وتبالغ، وتفرط في العمل. وتبدو ذات ضميرٍ، مدقّقةً وسريعة العدوانيّة في الأعمال وفي الإدارة. وكما في دراستها، تنقصها الطلاقة، والانطلاق، والجرأة. تتشنّج كيما تصل. عملها هو مجموعةٌ من التحديات وتأكيدات الذات المجرّدة المتتالية. وذلك هو أكبر عيبٍ يحدثه نقص الثقة في النفس: فلا يستطيع الشخص نسيان نفسه. ولا يهدف إلى غايةٍ ما: بل يحاول إعطاء ما يُطلَب منه كبراهين على قيمته. إن رمى نفسه بجرأةٍ نحو غاياتٍ، يخاطر بالتعرّض للفشل: ولكن قد يبلغ أيضًا نتائج لم يكن يأمل بها؛ والحذر يؤدّي إلى الضحالة. نادرًا ما نصادف لدى المرأة حب المغامرة، والتجربة المجّانيّة، والفضول الموضوعي؛ وهي تحاول «صنع مسارٍ مهنيٍّ» كما تبني أخرياتٌ سعادتهنّ؛ وتبقى خاضعةً للسيطرة، يحيط بها عالم الذكر، ولا تملك الجرأة على ثقب سقفه، ولا تغرق بحماسةٍ في مشاريعها؛ وتعتبر حياتها أيضًا عمليّةً ماثلةً، لا تهدف إلى غرضٍ، إنما إلى نجاحها الذاتيّ ضمن الغرض.. وهذا موقفٌ صارخٌ خصوصًا لدى الأميركيات؛ إذ يروق لهنّ الحصول على «عملٍ» وإثبات أنّ بإمكانهنّ تأديته بشكلٍ صحيحٍ: لكنهنّ غير شغوفاتٍ بمحتوى مهامّهنّ. وفي الوقت نفسه تميل المرأة إلى تعليق أهميةٍ زائدةٍ على إخفاقاتٍ صغيرةٍ، ونجاحاتٍ متواضعةٍ؛ فتارةً تيأس وتارةً تنتفخ زهوًا؛ عندما يكون النجاح متوقّعًا، يُستقبل ببساطةٍ، لكنه يصبح انتصارًا باهرًا إذا لم يكن حدوثه متوقعًا؛ وذاك عذر النساء المتعطّشات لاكتساب الأهمّية واللّواتي يتباهين بأقلّ إنجازاتهنّ. ينظرن خلفهنّ باستمرارٍ ليقسن الطريق الّتي قطعنها، وهذا يقطع انطلاقتهنّ. بهذه الوسيلة بإمكانهنّ تحقيق مسارٍ مهنيٍّ مشرّفٍ ولكن ليس تحقيق أعمالٍ كبيرةٍ. يجب أن نضيف أنّ كثيرًا من الرجال لا يعرفون كذلك سوى صنع مستقبلٍ ضحلٍ. بالنسبة لأفضلهم فقط يبدو لنا أنّ المرأة ما تزال في المؤخّرة إلّا في حالاتٍ نادرةٍ استثنائيّةٍ. تشرح الأسباب

الّتي ذكرتها ذلك بشكلٍ كافٍ دون ربط المستقبل بشيءٍ. ما ينقص المرأة اليوم كي تقوم بأشياء عظيمةٍ هو نسيان الذات، ولكن كي تنسى نفسها يجب أوّلًا أن تتأكّد جيّدًا من أنّها وجدتها أصلًا. ما تزال المرأة مشغولةً جدًّا بالبحث عن نفسها، هي القادمة الجديدة إلى عالم الرجال الّذين يدعمونها بشكلٍ رديءٍ.

هناك فئةٌ من النساء لا تنطبق عليهنّ هذه الملاحظات بما أنّ حياتهنّ المهنيّة لا تؤذي تأكيد أنوثتهنّ بل تقوّيه؛ هنّ اللّواتي يحاولن بالتعبير الفنّيّ تجاوز المعطى ذاته الّذي يشكّلنه: الممثلات، والراقصات، والمغنّيات. خلال ثلاثة قرونٍ كنّ الوحيدات تقريبًا اللّواتي يملكن استقلالًا ملموسًا في المجتمع وما زلن يحتللن اليوم مكانًا مميّزًا. فيما مضى كانت الممثلات ملعوناتٍ من قبل الكنيسة: وسمح لهنّ هذا الإفراط في الصرامة نفسه دائمًا بحرّيةٍ أخلاقيّةٍ كبيرةٍ؛ فغالبًا ما كانت لديهنّ علاقاتٌ غراميةٌ وأمضين معظم يومهنّ بصحبة الرجال كالمحظيات: ولكن بما أنّهن يكسبن عيشهنّ بأنفسهنّ، ويجدن في عملهنّ معنى وجودهنّ، فقد تحرّرن من نيرهم. الامتياز الكبير الّذي ينعمن به، هو أنّ نجاحاتهنّ المهنيّة تساهم ـ كما لدى الذكور ـ في رفع قيمتهنّ الجنسية؛ بتحقيق أنفسهنّ كإنسانٍ، يكتملن كنساءٍ: فلسن ممزّقاتٍ بين طموحاتٍ متناقضةٍ؛ بل بالعكس يجدن في مهنتهنّ تبريرًا لنرجسيتهنّ: فالتزيّن، والعناية بالجمال، والسحر جزءٌ من واجباتهنّ المهنيّة؛ إنّه لرضىً كبيرٌ لامرأةٍ تعشق صورتها أن تصنع شيئًا بعرض نفسها فقط؛ وهذا العرض يتطلّب في الوقت نفسه تصنّعًا ودراسةً كافيين، ليبدو، حسب قول **جورجيت لوبلان**، بديلًا عن العمل. وتهدف الممثلة الكبيرة إلى ما هو أعلى: فتتجاوز المعطى بالأسلوب الّذي تعبّر به عنه، وتكون فنّانةً فعلًا، مبدعةً تعطي معنىً لحياتها بإعطائها معنىً للعالم.

لكن هذه الامتيازات النادرة تخفي أيضًا فخاخًا: فبدل دمج إعجابها النرجسي بنفسها بحياتها الفنية، والحرية الجنسية الّتي مُنحت لها، تغرق الفنانة غالبًا في عبادة الذات أو في الغراميات؛ وقد تحدثت قبلًا عن هاته «الفنانات» الزائفات اللّواتي يبحثن في السينما أو المسرح فقط عن الشهرة الّتي تمثّل رأس مالٍ يجب استغلاله بين ذراعي الرجل؛ فراحة الدعم الذكوري مغريةٌ بالمقارنة مع مخاطر مهنةٍ والصرامة الّتي يتطلّبها كلّ عملٍ حقيقيٍّ. ولا تتوافق الرغبة في الوصول دومًا بسهولةٍ مع الرغبة في مصيرٍ نسائيٍّ ـ زوجٍ وأسرةٍ وأطفالٍ ـ

وسحر الحب. لكن الإعجاب الّذي تشعر به الممثّلة لأناها يحدّ في كثيرٍ من الحالات موهبتها؛ فتخلق لنفسها أوهامًا بشأن قيمة حضورها وحده لدرجة أنّ العمل الجادّ يبدو لها دون فائدةٍ؛ وتهتم قبل كلّ شيءٍ بإبراز وجهها، وتضحّي من أجل هذا التصنّع بالشخصية الّتي تلعب دورها؛ هي أيضًا ليست كريمةً بحيث تنسى نفسها، ما يجرّدها من إمكانية تجاوز نفسها: نادراتٌ هنّ النساء مثل راشيل أو دوز، اللّواتي يتجاوزن هذه العقبة ويجعلن من شخصهنّ أداة فنّهنّ بدل أن يرين في الفنّ خادمًا لأناهنّ. مع ذلك تبدي الممثلة الثانوية في حياتها الخاصة كل العيوب النرجسية بشكلٍ مفرطٍ: تبدو مغرورةً، مشكّكةً، ممثّلةً، وتعتبر العالم كله مسرحًا.

فنون التعبير ليست الوحيدة الّتي تُعرض على النساء اليوم؛ إذ تجرّب كثيراتٌ منهنّ أنشطةً مبدعةً. وضع المرأة يؤهلها للبحث عن خلاصٍ في الأدب والفنّ. وإذ تعيش على هامش العالم الذكوريّ، لا تدركه بصورته الشاملة، ولكن عبر رؤيةٍ خاصّةٍ؛ فهو بالنسبة لها ليس مجموعة أدواتٍ ومفاهيم، إنما مصدر مشاعر وانفعالاتٍ؛ تهتم بنوعية الأشياء بمجانيتها وسرّيتها؛ وإذ تتبنى موقف نفيٍ، ورفضٍ، لا تغوص في الواقع: تحتجّ ضده بكلماتٍ؛ وتبحث عبر الطبيعة عن صورة روحها، فتستسلم لتخيّلاتٍ، وتودّ بلوغ كيانها: وتفشل؛ إذ لا تستطيع استعادته إلا في الخيال. وتغرق في العدم كيلا تترك حياةً داخليةً لا تفيد بشيءٍ، كي تؤكّد نفسها ضد المعطى الّذي تكابده ثائرةً، كي تخلق عالمًا مختلفًا عن ذاك الّذي لا تستطيع فيه بلوغ ذاتها، هي بحاجةٍ إلى أن تعبّر عن نفسها. معروفٌ أيضًا أنها ثرثارةٌ تكتب بلا عنايةٍ، وتفتح قلبها خلال الحديث، وفي الرسائل، ودفتر يومياتها الخاصة. يكفي أن يكون لديها بعض الطموح، وها هي ذي تكتب مذكراتها، محولةً سيرة حياتها إلى روايةٍ، ممجّدةً مشاعرها في قصائد. وهي تتمتّع بأوقات فراغٍ كبيرةٍ تساعدها في هذه الأنشطة.

لكن الظروف الّتي توجّه المرأة نحو الإبداع تشكّل أيضًا عقباتٍ غالبًا ما تعجز عن التغلب عليها. عندما تقرر أن ترسم أو تكتب بهدف ملء فراغ أيامها، تُعامل اللوحات أو الكتابات «كأشغالٍ نسويّةٍ»، ولا تكرّس لها مزيدًا من الوقت ولا من العناية وتكون لها تقريبًا نفس القيمة. ترتمي المرأة غالبًا على الفرشاة أو القلم في وقت انقطاع الطمث كي تعوض عن نقائص وجودها: تأخر الوقت؛ ستبقى دائمًا هاويةً بسبب غياب تشكيلٍ جدّيٍّ. حتّى إن بدأت

صغيرةً، يندر أن تنظر إلى الفنّ كعملٍ جادٍّ؛ فهي معتادةٌ على الفراغ، ولم تشعر في حياتها بضرورةٍ ملحةٍ لدراسةٍ منهجيّةٍ، وليست قادرةً على بذل جهدٍ مستمرٍّ، فلن تُكره نفسها على اكتساب تقنيّةٍ راسخةٍ؛ تأنف من التردّد الكريه الفردي للعمل الّذي لا تظهره لأحدٍ، الّذي يجب تخريبه وإعادة عمله مئة مرةٍ؛ وكما علموها منذ طفولتها أن تثير الإعجاب علموها أن تغشّ، وتأمل تدبّر أمرها ببعض الحيل. وهذا ما تعترف به **ماري بشكيرتسف**: «أجل، لا أتعب نفسي بالرسم. راقبت نفسي اليوم... أنا أغشّ...» تمثّل المرأة بطيب خاطرٍ أنها تعمل، لكنها لا تعمل؛ فهي تخلط بين الرقية والعمل، بين الحركات الرمزية والتصرفات الفعالة مؤمنةً بالفوائد السحرية للسلبيّة؛ وتتنكر في إهاب تلميذةٍ في الفنون الجميلة، وتتسلّح بالفراشي؛ وتعسكر أمام حامل لوحتها، وتنتقل نظرتها من اللوحة البيضاء إلى مرآتها؛ لكن باقة الأزهار، وطبق الفاكهة، لا يأتيان من تلقاء نفسهما لينطبعا على قماش اللوحة. تؤمّن المرأة لنفسها عذرًا هادئًا متخيّلةً أنها كاتبةٌ، جالسةً أمام منضدتها، تجترّ قصصًا مبهمةً: يجب أن تخطّ شيئًا على الورقة البيضاء، ويجب أن يكون لها معنىً في عيون الآخرين. عندئذٍ تنكشف الخدعة. يكفي خلق أوهامٍ خادعةٍ كي تثير الإعجاب: لكنّ العمل الفنّي ليس وهمًا، إنه شيءٌ ملموسٌ؛ يجب لإنشائه أن يكون الشخص بارعًا بمهنته. لم تصبح **كوليت** كاتبةً كبيرةً فقط بسبب مواهبها أو طبعها؛ لقد كسبت عيشها بقلمها وفرضت عليه عملًا متقنًا يفرضه الحرفيّ على أداته؛ من «كلودين» إلى «بداية النهار»، أصبحت الهاوية مهنيّةً: الطريق الّتي قطعتها تُظهِر بشكلٍ ساطعٍ فوائد التدريب الصارم. معظم النساء مع ذلك لا يفهمن المشاكل الّتي تطرحها رغبتهنّ في التواصل: وذلك ما يشرح في جزءٍ كبيرٍ كسلهنّ. لقد اعتبرن أنفسهنّ دائمًا معطياتٍ؛ ويعتقدن أن ميزاتهنّ تأتي من نعمةٍ تسكنهنّ ولا يتخيّلن أنّه يمكن اكتساب القيمة؛ وكي يغرين، لا يعرفن سوى أن يظهرن: فإما أن يعمل سحرهنّ أو لا يعمل، وليس لديهنّ أيّ تأثيرٍ على نجاحه أو فشله؛ ويفترضن أنّه يكفي بشكلٍ مماثلٍ إظهار نفسهنّ ليعبّرن عن ذاتهنّ؛ وبدل صنع عملهنّ بشكلٍ مدروسٍ يثقن بتلقائيتهنّ؛ الكتابة أو الابتسام بالنسبة لهنّ أمرٌ واحدٌ: يجرّبن حظّهنّ، فإما يأتي النجاح أو لا يأتي. واثقاتٍ من نفسهنّ، يأملن في أن يجد الكتاب أو اللوحة نجاحًا بلا جهدٍ؛ خجولاتٍ، يثبطهن أقل انتقادٍ؛ يجهلن أن الخطأ قد يفتح طريق التقدّم، يرينه كارثةً غير قابلةٍ للإصلاح، كالتشوّه. ولهذا

يبدون غالبًا مشكّكاتٍ بشكلٍ يؤذيهنّ: فلا يعترفن بأخطائهنّ إلّا ثائراتٍ محبطاتٍ بدل أن يأخذن منها دروسًا مثمرةً. التلقائية لسوء الحظّ ليست سلوكًا بسيطًا بقدر ما تبدو عليه: تناقض الأفكار السائدة ـ كما يشرحه **بولان** Paulhan في «زهور تاربس» ـ هو أنّها تختلط غالبًا مع الترجمة الفورية للتعبير الذاتيّ؛ بحيث أنّه في اللّحظة الّتي تعتقد المرأة فيها أنها متميّزةٌ، مظهرةً الصورة الّتي تتشكّل فيها دون اعتبارٍ للغير، لا تقوم سوى بإعادة كليشيه عاديّةٍ؛ إذا قيل لها ذلك تستغرب، وتغتاظ وتلقي بقلمها؛ ولا تدرك أن الجمهور يقرأ بعينيه وفكره وأنّ وصفًا حديثًا يمكن أن يوقظ في ذاكرته ذكرياتٍ عديدةً مستخدَمةً؛ إنها موهبةٌ ثمينةٌ بالتأكيد أن يعرف المرء كيف يلتقط انطباعاتٍ حيّةً من داخله ليأتي بها إلى سطح اللغة؛ يُعجَب المرء بتلقائية **كوليت** الّتي لا تصادف لدى أيّ كاتبٍ ذكرٍ: ولكن لديها تلقائيّةٌ مدروسةٌ، رغم أنّ هذين اللفظين متنافران: فترفض بعض مشاركاتها ولا تقبل غيرها إلّا عن درايةٍ: وبدل أن ترى الهاوية في الكلمات علاقةً بين الأفراد، نداءً للآخر، ترى فيها إظهارًا مباشرًا لحساسيتها؛ ويبدو لها الاختيار والشطب إنكارًا لجزءٍ منها لا تريد أن تضحي بشيءٍ منه لأنها تُسرّ بما هي عليه ولا تأمل أن تصبح أخرى. ينجم غرورها العقيم من أنها تحب نفسها دون أن تجرؤ على بنائها.

وهكذا من بين الأعداد الكبيرة من النساء اللّواتي يجرّبن الآداب والفنون، قليلاتٌ للغاية من يثابرن عليها؛ حتّى من يجتزن هذه العقبة الأولى يبقين غالبًا موزّعاتٍ بين نرجسيتهنّ وعقدة النقص. عدم التمكن من نسيان النفس هو عيبٌ يثقل عليهنّ أكثر مما يفعل في أيّة مهنةٍ أخرى؛ إذا كان هدفهنّ الأساسي هو تأكيدٌ مجرّدٌ للذات، والرضى القطعي بالنجاح، فلن يسترسلن في تأمّل العالم: فهنّ عاجزاتٌ عن خلقه من جديدٍ. قرّرت **ماري بشكيرتسف** أن ترسم لأنها كانت تريد أن تصبح مشهورةً؛ يقف هاجس المجد بينها وبين الواقع؛ ففي الحقيقة هي لا تحب الرسم: الفنّ ليس سوى وسيلةٍ؛ لن تكشف لها أحلامها الطموحة الجوفاء معنى لونٍ أو وجهٍ. وبدل أن تهب المرأة نفسها بسخاءٍ للعمل الّذي تقوم به، تعتبره غالبًا زينةً بسيطةً لحياتها؛ فالكتاب واللّوحة ليسا سوى وسيطٍ غير أساسيٍّ يسمح لها بعرض هذا الواقع الأساسي أمام الجمهور: شخصها. شخصها هو الموضوع الرئيسي ـ والوحيد أحيانًا ـ الّذي يهمّها: لا تكلّ السيدة **فيجيه لبرون** Vigèe-Lebrun عن تصوير أمومتها

الباسمة في لوحاتها. حتّى إن تحدّثت المرأة الكاتبة عن مواضيع عامةٍ، فستتحدّث أيضًا عن نفسها: لا يمكن أن نقرأ وقائع مسرحيّةٍ دون أن تكون لدينا فكرةٌ عن طول مؤلفتها وعرضها، ولون شعرها وخصائص طبعها. الأنا ليست بغيضةً بالتأكيد. بعض الاعترافات مشوّقةٌ أكثر من معظم الكتب: ولكن يجب أن تكون صادقةً وأن يكون لدى الكاتب ما يعترف به. نرجسية المرأة تفقرها بدل أن تغنيها؛ ولفرط ما لا يكون لديها ما تفعله سوى تأمّل نفسها، تتلاشى؛ حتّى حبّها لذاتها يتقولب: فلا تكشف في رواياتها تجربتها الأصليّة، بل وثنًا خياليًّا أنشئ على كليشيهات. لن تلام على إظهار نفسها في رواياتها كما فعل **بنجامان كونستان** وستندال: لكن المأساة هي أنّها غالبًا ترى قصتها مسرحيّةً تافهةً؛ فتغطي الشابة واقعها الّذي تخيفها فجاجته بالروائع: من المؤسف أنّها عندما تصبح بالغةً تظلّ تغرق العالم وشخصياتها ونفسها بضبابٍ شاعريٍّ. عندما تنكشف الحقيقة خلف هذا القناع، نحصل أحيانًا على نجاحٍ؛ ولكن أيضًا، بجانب «غبار» أو «الحورية ذات القلب المخلص»، كم هناك من روايات التسلية الباهتة والفاترة!

من الطبيعي أن تحاول المرأة الهروب من هذا العالم الّذي تشعر فيه غالبًا أنّ لا أحد يعرفها أو يفهمها؛ الأمر المؤسف هو أنّها لا تجرؤ عندئذٍ على انطلاقةٍ جريئةٍ كجيرار **دونرفال** أو «بو». لخجلها أسبابٌ عديدةٌ. همّها الأكبر إثارة الإعجاب؛ وتخاف غالبًا، فقط لأنها تكتب، من ألّا تُعجِب كامرأةٍ: ما زال لكلمة «متحذلقة» صدىً بغيضٌ رغم أنها قديمةٌ؛ وكذلك لا تجرؤ على ألّا تُعجِب ككاتبةٍ. يثير الكاتب المبدع الفضائح طالما ظلّ حيًا؛ ويثير الجديد القلق ويزعج؛ وما تزال المرأة مدهوشةً ومزهوّةً بقبولها في عالم الفكر والفن، الّذي هو عالمٌ رجاليٌّ: فتلزم حدود التعقّل؛ لا تجرؤ على أن تزعج، وتستكشف، وتنفجر؛ ويبدو لها أنّ عليها أن تحاول التكفير عن تبجّحاتها الأدبية بتواضعها وحسن ذوقها؛ فتراهن على قيم التقليدية الأكيدة؛ وبالكاد تُدخِل في الأدب هذه اللمسة الشخصية المُنتظَرة منها، وبعض الأناقة الّتي تُذكّر بأنّها امرأةٌ، وتظارفًا وحذلقةً مختارةً؛ وهكذا تنجح في كتابة بعض الكتب «الأكثر مبيعًا»؛ ولكن يجب عدم الاعتماد عليها في المغامرة على دروبٍ غير مسبوقةٍ. ليس أنّ النساء يفتقرن إلى الابتكار في سلوكهنّ ومشاعرهنّ: فهناك بينهنّ من يجب حبسهنّ لفرط غرابتهنّ؛ بالإجمال، كثيرٌ منهنّ أكثر شذوذًا وغرابةً من الرجال الّلذين يرفضن أنظمتهم.

ولكنّهنّ يظهرن عبقريّتهنّ الغريبة في حياتهنّ وأحاديثهنّ؛ فإذا حاولن الكتابة، يشعرن أنّ عالم الثقافة يسحقهنّ لأنّه عالم رجالٍ: فيتلعثمن فقط. وعلى العكس، المرأة الّتي تحاول التفكير والتعبير عن نفسها حسب التقنية الذكورية تندفع في خنق خصوصيّةٍ تتحدّى نفسها بها؛ كالطالبة، سرعان ما تركّز وتتحذلق؛ فتتصنّع الصرامة، الصرامة الذكوريّة. بإمكانها أن تصبح منظّرةً ممتازةً، وتكتسب موهبةً متينةً؛ لكنّها ستفرض على نفسها التخلّي عن كلّ ما هو «مختلفٌ» لديها. هناك نساءٌ مجنوناتٌ ونساء لديهنّ موهبةٌ: ليس لدى أيٍّ منهنّ هذا الجنون المندمج في الموهبة والّذي يسمّونه العبقريّة.

ما حدّد حتّى الآن حدود الموهبة النسائية هو التواضع العقلانيّ قبل كلّ شيءٍ. كثيرٌ من النساء أبطلن ـ وما زلن يبطلن أكثر فأكثر ـ فخاخ النرجسية والخارق المزيّف؛ لكن لم تطأ أيٌّ منهنّ بالأقدام كلّ حذرٍ لتحاول الانبثاق من الجانب الآخر للعالم المعطى. فأوّلًا هناك عددٌ كبيرٌ منهنّ يقبلن المجتمع كما هو؛ وهنّ مدّاحات البورجوازيّة الممتازات بما أنّهنّ يمثّلن في هذه الطبقة المهدَّدة العنصر الأكثر محافظةً؛ يذكرن لباقة حضارةٍ «نوعيّةٍ» بصفاتٍ مختارةٍ؛ ويمجّدن المثال البورجوازيّ للسعادة ويخفين مصالح طبقتهنّ بألوان الشِّعر؛ وينسّقن الخدعة المخصّصة لإقناع النساء «بالبقاء نساءً»؛ بيوتٌ قديمةٌ، حدائق وبساتين وجدّاتٌ أصيلاتٌ، وأطفالٌ متمرّدون، وغسيلٌ، ومربّياتٌ، وأعيادٌ عائليّةٌ، وتزيّنٌ، وقاعاتٌ، وحفلاتٌ، وزوجاتٌ مُحزناتٌ إنّما مثاليّاتٌ، وجمال التفاني والتضحية، وآلام الحبّ الزوجي الصغيرة ومباهجه الكبيرة، وأحلام الشباب، والاستسلام الناضج، استغلّت روائيات إنجلترا وفرنسا وأمريكا وكندا واسكندينافيا هذه المواضيع حتّى الثمالة؛ وكسبن منها مجدًا ومالًا لكنّهن بالتأكيد لم يُغنين رؤيتنا للعالم. الأكثر جدارةً بالاهتمام هنّ الثائرات اللّواتي وجّهن أصابع الاتّهام لهذا المجتمع الظالم؛ قد يُنتج أدبٌ مُطالِبٌ أعمالًا جيّدةً وصادقةً؛ استقت جورج إليوت George Eliot من ثورتها رؤيةً دقيقةً ومؤثرةً لإنجلترا العصر الفيكتوري؛ مع ذلك، مثلما تلاحظ فيرجينيا وولف، فقد اضطرت جين أوستن، والأخوات برونتي، وجورج إليوت، إلى إنفاق قدرٍ كبيرٍ من الطاقة بشكلٍ سلبيٍّ ليتحرّرن من الضغوط الخارجيّة بحيث وصلن لاهثاتٍ إلى هذه المرحلة الّتي ينطلق منها كبار الكتّاب الرجال؛ لم يعد لديهن من القوى ما يكفي للتمتّع بانتصارهنّ وقطع كلّ حبال مراسيهنّ:

فمثلًا، لا نجد لديهنّ تهكّم ستندال وطلاقته ولا صراحته الهادئة. لم يكن لديهنّ كذلك غنى تجربة **دستويفسكي** أو **تولستوي**: ولهذا فكتاب «ميدلمارش Middlemarch» الجميل لا يعادل «حرب وسلم»؛ ورغم عظم «مرتفعات وذرنج» فهو لا يداني «الإخوة كرامازوف». تجد النساء اليوم صعوبةً أقلّ في تأكيد أنفسهنّ؛ ولكنّهنّ لم يتغلّبن تمامًا على التمييز القديم الّذي يحبسهنّ ضمن أنوثتهنّ. فالفكر الثاقب مثلًا هو مكسبٌ يفخرن به بحقٍّ ولكن يرضين به بسرعةٍ. فالمرأة التقليدية هي شعورٌ مُتلاعَبٌ به وأداةٌ للخداع؛ تحاول أن تتجاهل تبعيّتها، وهي طريقةٌ للقبول بها؛ وفضح هذه التبعيّة هو تحرّرٌ أصلًا؛ والتهكّم هو دفاعٌ ضدّ الإذلال والخزي: إنّه مشروع مسؤوليّةٍ. وإذ تريد الكاتبات أن يكنّ ثاقبات الفكر، فهنّ يقدّمن أكبر خدمةٍ لقضيّة المرأة؛ ولكنّهنّ ـ دون أن يدركن ذلك عمومًا ـ يبقين راغباتٍ بخدمة هذه القضيّة لدرجة أنّهنّ لا يتبنّين تجاه العالم هذا الموقف الموضوعي الّذي يفتح أوسع الآفاق. عندما أزحن غلائل الوهم والكذب، اعتقدن أنّهن قمن بما يكفي: مع ذلك، تجعلنا هذه الجرأة السلبيّة أيضًا أمام لغزٍ؛ لأنّ الحقيقة نفسها ملتبسةٌ، هوّةٌ سحيقةٌ، غموضٌ: بعد تعيين الحضور يجب التفكير فيه، إعادة صنعه. من الحسن ألا يكون المرء مخدوعًا: ولكن انطلاقًا من ذلك يبدأ كلّ شيءٍ؛ تستنفد المرأة شجاعتها في تبديد أوهامٍ وتتوقّف خائفةً على عتبة الواقع. ولهذا هناك مثلًا سير حياةٍ نسائيّةٌ صادقةٌ ومؤثّرةٌ: ولكن لا يمكن مقارنة أيٍّ منها مع «اعترافات»، أو «ذكريات نرجسيّةٍ». ما زلنا منهمكاتٍ للغاية باستيضاح الأمور بحيث لا يمكننا استكشاف ظلماتٍ أخرى وراءها.

كان أحد الكتّاب يقول لي: «لا تدخل النساء أبدًا إلى الأعماق». وهذا صحيحٌ. ما زلن متعجّباتٍ لأنّه سُمِح لهنّ باستكشاف هذا العالم، ويجردن ما فيه دون أن يحاولن اكتشاف معناه. يتفوّقن في ملاحظة ما هو معطىً: يصلحن لأن يكنّ مراسلاتٍ ممتازاتٍ؛ لم يتفوّق أيّ صحفيٍّ ذكرٍ على شهادات **أندريه فيولي** Andrée violli حول الهند الصينيّة والهند. يعرفن كيف يصفن الأجواء، والشخصيات، ويشرن إلى العلاقات الدقيقة فيما بينها، ويجعلننا نشارك في حركات أرواحها السرّية: تحدّثت **ويلا كاثر**، **وإديث وارتون**، **ودوروثي باركر**، **وكاثرين مانسفيلد** بطريقةٍ حادةٍ ومتنوّعةٍ عن أشخاصٍ ومناخاتٍ وحضاراتٍ. يندر أن ينجحن في خلق أبطالٍ رجالٍ مقنعين **كهيثكليف**: لا يدركن في الرجل سوى الذكر؛ لكنّهنّ

وصفن غالبًا بسعادةٍ حياتهنّ الداخليّة، وتجربتهنّ، ومحيطهنّ؛ يقدّمن تجربتهنّ طازجةً من خلال نعوتٍ عذبةٍ، وصورٍ شهوانيّةٍ، مرتبطاتٍ بجوهر الأشياء الملموس، مسحوراتٍ بخصوصيّة مشاعرهنّ: تكون ألفاظهنّ عادةً لافتةً للنظر أكثر من تراكيبهنّ لأنهنّ يهتممن بالأشياء أكثر من اهتمامهنّ بعلاقاتها؛ لا يهدفن إلى أناقةٍ مجرّدةٍ ولكن بالمقابل تخاطب كلماتهنّ الحواس. أحد الميادين الّتي استكشفنها بحبٍّ كبيرٍ هي الطبيعة؛ تمثّل الطبيعة بالنسبة للفتاة وللمرأة الّتي لم تتنازل تمامًا ما تمثّله المرأة نفسها للرجل: نفسه وعكسه، مملكةً ومنفىً؛ إنها كلّ شيءٍ بصورة الآخر. عندما تتكلّم الروائيّة عن الأراضي البور وحدائق الخضار فهي تكشف لنا تجربتها وأحلامها بحميميةٍ فائقةٍ. هناك الكثيرات ممّن يحبسن أعاجيب النسغ والفصول ضمن أوعيةٍ وآنية ومساكب زهورٍ؛ وأخرياتٌ يحاولن أن يتملّكن النباتات والحيوانات بالحب والاهتمام الّذي يولينه لها دون سجنها: مثل **كوليت وكاثرين مانسفيلد**؛ نادراتٌ تلك اللّواتي يقاربن الطبيعة ضمن حريّتها اللاإنسانية، اللّواتي يحاولن حلّ لغز معانيها الغريبة ويشردن كي يتّحدن مع هذا الوجود الآخر: لم يغامر بدخول الدروب الّتي ابتدعها روسو سوى **إميلي برونتي وفرجينيا وولف** وأحيانًا **ماري ويب**. نستطيع بالأحرى أن نعدّ على أصابع اليد النساء اللّواتي اجتزن المعطى بحثًا عن بُعده السرّيّ: استجوبت **إميلي برونتي** الموت، و**فرجينيا وولف** الحياة، و**كاثرين مانسفيلد** الحوادث اليومية والعذاب أحيانًا وليس كثيرًا. لم تكتب أيّة امرأةٍ «القضية» أو «موبي ديك» أو «أوليس» أو «قواعد الحكمة السبعة». لا يعترضن على الوضع الإنساني لأنّهنّ بالكاد بدأن يتحمّلن مسؤوليّته. وهذا ما يفسّر افتقار كتبهنّ عمومًا إلى الصدى الميتافيزيقي وكذلك للكوميديا السوداء؛ لا يضعن العالم بين قوسين، ولا يطرحن عليه أسئلةً، ولا يفضحن تناقضاته: بل يأخذنه على محمل الجدّ. غير أنّ لدى غالبية الرجال نفس التحديد؛ تبدو المرأة ضئيلةً عندما تُقارَن مع بعض الفنانين النادرين الّذين يستحقون لقب «العظماء». لا يحدّها قدرٌ: نفهم بسهولةٍ لماذا لم يُسمح لها بلوغ أعلى القمم، ولماذا لن يُسمح لها ذلك قبل زمنٍ طويلٍ ربما.

الفنّ، والأدب، والفلسفة، هي محاولاتٌ لتأسيس العالم من جديدٍ على حرّيةٍ إنسانيّةٍ: حرّية الخالق؛ يجب أوّلًا طرح الذات دون لبسٍ كحرّيةٍ للتفكير في مثل هذا المطلب. تحدّ

التضييقات الّتي تفرضها التربية والعادات على المرأة من سيطرتها على الكون؛ عندما تكون معركة إيجاد مكانٍ في هذا العالم شاقّةً للغاية، لا يمكن التخلّي عنه؛ غير أنه يجب أولًا الانبثاق منه ضمن وحدةٍ مطلقةٍ إذا أردنا أن نحاول تملّكه ثانيةً: ما ينقص المرأة أولًا هو أن تتدرّب ضمن القلق والكبرياء على هجرانها وتساميها.

كتبت ماري بشكيرتسف:

«ما أرغب به، هو حرّية التنزّه وحدي، أن أذهب وأعود، وأجلس على مقاعد حديقة التويلري. هذه هي الحرّية الّتي لا يمكن من دونها أن يصبح المرء فنانًا حقيقيًا. تظنون أنّ المرء يستمتع بما يراه عندما يكون بصحبة آخرين أو عندما يجب انتظار عربته أو رفيقته أو عائلته للذهاب إلى اللوفر!... هذه هي الحريّة غير الموجودة والّتي لا يمكن من دونها أن يصبح المرء شيئًا. الفكر مقيّدٌ بهذه الإعاقة الغبيّة والمستمرة... يكفي هذا لتسقط الأجنحة. وهذا أحد أسباب عدم وجود نساءٍ فنّاناتٍ».

بالفعل، لا يكفي أن يثقّف المرء نفسه كي يصبح مبدعًا، أي أن يُدخِل لحياته عروضًا ومعلوماتٍ؛ يجب الحصول على الثقافة من خلال حركة ارتقاءٍ حرّةٍ؛ يجب أن يرتمي الفكر بكل غناه نحو سماءٍ خاليةٍ عليه أن يعمّرها؛ ولكنّ انطلاقته تنقطع إذا كان يربطه بالأرض ألف رباطٍ رفيع. لا شك أنّ الشابة تخرج اليوم بمفردها ويمكنها أن تتنزّه في التويلري؛ لكنّي قلت قبلًا كم تجد الشارع معاديًا لها: في كلّ مكانٍ عيونٌ وأيدٍ تترقّب؛ إن هامت على وجهها، مطلقةً أفكارها للريح، أو أشعلت لفافةً على رصيف مقهىً، إن ذهبت وحدها للسينما، يحدث فورًا حادثٌ عرضيٌّ مؤسفٌ؛ فعليها أن توحي بالاحترام في ملابسها وسلوكها، يعيدها هذا الهمّ للأرض وإلى ذاتها. «تسقط الأجنحة». في سن الثامنة عشرة، قام ت. **لورنس** T.E.Lawrence وحده بجولةٍ واسعةٍ بالدراجة عبر فرنسا؛ لا يُسمح للفتاة بالقيام بمثل هذه المغامرة: ولن تستطيع كذلك أن تقوم بما قام به **لورنس** بعد سنةٍ حين غامر بجولةٍ سيرًا على الأقدام في بلدٍ نصف مقفرٍ وخطيرٍ. مع ذلك مثل هذه التجارب ذات مدىً لا يحصى: يتعلّم الفرد من خلالها ضمن نشوة الحريّة والاكتشاف أن ينظر إلى الأرض بأكملها كإقطاعةٍ له. المرأة مجرّدةٌ طبيعيًا أصلًا من دروس العنف: قلت كم يميل بها ضعفها الجسديّ إلى السلبية؛ عندما يحلّ شابٌّ معركة بقبضتيه، يشعر أنّ بإمكانه الاعتماد على نفسه في حلّ

همومه؛ على الأقلّ على سبيل التعويض ينبغي أن يسمح للفتاة بالرياضة والمغامرة والزهو بالتغلّب على العقبة. ولكنّ هذا ممنوعٌ. بإمكانها أن تشعر أنّها وحيدةٌ ضمن العالم: لا تقف في مواجهته أبدًا، وحيدةً مطلقةً. يحفزها كلّ شيءٍ على أن تخضع لحصار أشخاصٍ غرباء وسيطرتهم: وخاصّةً في الحبّ، تنكر نفسها بدل أن تؤكّدها. بهذا المعنى تكون التعاسة والمصيبة غالبًا تجارب مثمرةً: عزلة **إميلي برونتي** هي الّتي سمحت لها بكتابة كتابٍ قويٍّ صاخبٍ؛ أمام الطبيعة، والموت، والقدر، لم تكن تنتظر النجدة إلّا من نفسها. كانت **روزا لوكسمبورغ** قبيحةً، لم تنجذب أبدًا إلى عبادة صورتها، إلى أن تجعل من نفسها شيئًا، فريسةً وفخًّا: كانت بكلّيتها منذ شبابها فكرًا وحرّيّةً. حتى عندئذٍ، من النادر للغاية أن تحمل المرأة بشكلٍ كاملٍ مسؤوليّة هذه المواجهة المقلقة مع العالم المعطى. تمنعها الضغوط الّتي تحيط بها وكلّ التقاليد الّتي تثقل عليها من الشعور بأنها مسؤولةٌ عن الكون: وهذا هو السبب العميق لضحالتها.

الرجال الّذين نسمّيهم عظماء هم هؤلاء الّذين حملوا العالم على أكتافهم بطريقةٍ أو بأخرى: ونجحوا في ذلك قليلًا أو كثيرًا، نجحوا في إعادة تشكيله أو غرقوا؛ ولكنّهم حملوا هذا العبء الهائل في البداية. وهذا ما لم تفعله أيّة امرأةٍ، ما لم تستطع أيّة امرأةٍ أبدًا فعله. عليها أن تنتمي لطائفة المميّزين كي تنظر إلى الكون على أنه لها، كي تعتبر نفسها مذنبةً بأخطائه وممجّدةً بتقدّمه؛ يعود لهؤلاء وحدهم الّذين يتحكّمون به أن يسوّغوه عبر تغييره وتصوّره وكشفه؛ وحدهم يستطيعون التعرّف على نفسهم فيه وطبعه ببصمتهم. استطاع الإنسان حتّى الآن أن يتجسّد في الرجل، وليس في المرأة. غير أنّ الأشخاص الّذين يبدون لنا مثاليين، هؤلاء الّذين يعتبرون عباقرةً، هم هؤلاء الّذين أرادوا أن يحرّكوا ضمن وجودهم الخاصّ مصير الإنسانية بأكملها. لم تعتقد أيّة امرأةٍ أنّه يُسمح لها بذلك. كيف كان بإمكان **فان غوغ** أن يولد امرأةً؟ لم تكن امرأةٌ لتُرسَل في مهمّةٍ في «البوريناج»، ما كانت لتشعر بأنها سبب بؤس الناس، ما كانت لتبحث عن افتداءٍ؛ بالتالي ما كانت أبدًا لترسم أزهار عباد الشمس الّتي رسمها **فان غوغ**. ولا ننسى أنّ نمط حياة الرسام ـ عزلة آرل Arles، والتردّد على المقاهي، والمواخير، وكلّ ما كان يغذّي فن **فان غوغ** عندما كان يغذّي حساسيّته ـ ممنوعٌ عليها. لم يكن باستطاعة امرأةٍ أن تصبح **كافكا** Kafka: ما كانت لتعرف بشكوكها

وقلقها قلق الإنسان المطرود من الجنّة. لا يوجد سوى القديسة **تيريز** الّتي عاشت الوضع الإنساني من جهتها في تخلٍّ تامٍّ. بما أنها تقع في ما وراء المراتب الأرضيّة، لم تشعر بسقفٍ فوق رأسها يحميها مثل القديس **جان دولاكروا**. بالنسبة للاثنين كان هناك نفس الليل، ونفس إشعاع النور، وفي داخلهما نفس العدم، وفي الله نفس الاكتمال. عندما سيكون من الممكن أخيرًا لكلّ مخلوقٍ بشريٍّ أن يضع كبرياءه خارج التمييز الجنسي، ضمن مجد وجوده الحرّ الصعب، عندها فقط ستستطيع المرأة أن تخلط قصتها ومشاكلها وشكوكها وآمالها مع مثيلاتها العائدة للإنسانية؛ عندها فقط سيمكنها أن تحاول في حياتها وأعمالها كشف الواقع بأكمله وليس فقط شخصها. طالما ما يزال عليها أن تكافح لتصبح إنسانًا، لن تكون خلّاقةً.

مرةً أخرى، لشرح حدودها يجب البحث عن السبب في وضعها وليس في جوهرٍ غامضٍ: يبقى المستقبل مفتوحًا على مصراعيه. لقد تعلّلوا بعدم امتلاك المرأة للرغبة في «العبقرية الخلّاقة»؛ وهذه هي النظرية الّتي تدافع عنها السيدة **مارت بوريلي** Marthe Borély وغيرها، وقد كانت معاديةً شهيرةً للحركة النسويّة: ولكن لكأنّها حاولت أن تجعل من كتبها برهانًا حيًّا على اللامنطقيّة والغباء الأنثوي، وبذلك ناقضت كتبها نفسها. عدا عن أنّه يجب رفض فكرة «غريزةٍ» مبدعةٍ معطاةٍ مثل فكرة «المؤنّث الأزلي». يؤكّد بعض أعداء المرأة أنّ المرأة لا تستطيع خلق أيّ شيءٍ ذي قيمةٍ باعتبارها عُصابيّةً: لكنّ هؤلاء نفسهم كثيرًا ما يؤكدون أنّ العبقريّة هي عُصابٌ. في جميع الأحوال، يُظهِر مثال **بروست** أنّ عدم التوازن النفسي الجسدي لا يعني العجز، ولا الضحالة. أما الحجّة الّتي نحصل عليها من فحص التاريخ فرأينا أنّ لا قيمة لها؛ لا يمكن اعتبار الحدث التاريخيّ تعبيرًا عن حقيقةٍ أزليّةٍ؛ فهو يعبّر عن وضعٍ يتجلّى تحديدًا كتاريخيٍّ بما أنّه يتغيّر. كيف تكون النساء عبقريّاتٍ بينما يمنعن من كل إمكانيّةٍ لإتمام عملٍ عبقريٍّ، أو حتّى أيّ عملٍ عاديٍّ؟ في السابق أشبعت أوروبا العجوز الأميركيين الهمج احتقارًا لأنّه ليس لديهم فنانون ولا كتّابٌ، فأجاب **جفرسون** Jefferson بقوله: «دعونا نعيش قبل أن تطلبوا منّا مسوّغًا لوجودنا». ويجيب السود بنفس القول العنصريين الّذين يلومونهم لأنّهم لم يقدموا شخصًا مثل **وايتمان** Whitman ولا **ملفيل** Melville. لا يمكن للطبقة العمالية الفرنسية كذلك أن تقدّم أشخاصًا مثل راسين

Racine ومالارميه Mallarmè. المرأة الحرّة في طريقها للولادة؛ وعندما يتمّ ذلك، ربّما ستحقّق نبوءة رامبو Rimbaud: «سيصبح هناك شاعراتٌ! عندما تنتهي عبوديّة المرأة الدائمة، عندما ستعيش من أجل نفسها ومن خلال نفسها، بما أنّ الرجل ـ الّذي كان حتّى الآن بغيضًا ـ أعاد إليها فرصتها، ستصبح شاعرةً هي أيضًا! ستجد المرأة المجهول! هل تختلف عوالم أفكارها عن عوالم أفكارنا؟ ستجد أشياء غريبةً، لا يمكن سبر غورها، منفّرةً، لذيذةً، سنأخذها، وسنفهمها[255]». غير مؤكّدٍ أن «عوالم أفكارها» مختلفةٌ عن تلك العائدة للرجال بما أنّها ستتحرّر متشبّهةً بهم؛ وكي نعرف بأيّ قدرٍ ستظلّ مختلفةً، وإلى أيّة درجةٍ ستبقى هذه الخصوصيات مهمّةً، يجب أن نغامر بتوقّع أمورٍ جريئةٍ. ما هو مؤكّدٌ، هو أنّ إمكانيات المرأة كُتِمت حتى الآن وأضاعتها البشريّة وأنّه قد حان الوقت أخيرًا لمصلحتها ومصلحة الجميع أن تُعطى جميع فرصها.

255- رسالة إلى بيير دمني، 15 مايو 1871.

خاتمة

«كلّا، المرأة ليست أخانا؛ بالكسل والفساد جعلنا منها كائنًا على حدةٍ، مجهولًا، ليس لديه سلاحٌ سوى الجنس، وهذا لا يعني الحرب المستمرة فقط، إنما أيضًا سلاحًا غير صريحٍ، يحبّ أو يكره، ولكنّه ليس رفيقًا صريحًا، كائنًا يشكّل فيلقًا بروح الجسد، وماسونيّةً، شكوك العبد الصغير الأزلي».

ما زال كثيرٌ من الرجال يوافقون على كلام **جول لافورغ** Jules Laforgue هذا؛ يفكّر الكثيرون أنّه سيظلّ هناك دومًا بين الجنسين «دسائس واضطراباتٌ» وأنّهما لن يتمكّنا من التآخي أبدًا. الأمر أنّه لا الرجال ولا النساء راضون اليوم عن بعضهم البعض. لكن المسألة هي معرفة إن كان هذا لعنةً أصليّةً تحكم عليهم بأن يمزّق بعضهم بعضًا أو إن كانت الصراعات فيما بينهم ليست سوى لحظةٍ عابرةٍ في التاريخ البشريّ.

رأينا أنّه رغم الخرافات لا يفرض أيّ قدرٍ فيزيولوجيٌّ على الذكر أو الأنثى كما هما عدائيّةً أزليّةً؛ حتّى السرعوفة الراهبة الشهيرة لا تأكل ذكرها إلّا إن لم تجد غذاءً غيره ولصالح النوع: كلّ الأفراد من أعلى السلّم الحيواني لأسفله يتبعون مصلحة النوع. عدا عن أنّ البشريّة هي شيءٌ مختلفٌ عن النوع: تطوّرٌ تاريخيٌّ؛ يتحدّد بالطريقة الّتي تضطلع بها بالوجود الطبيعيّ. في الحقيقة، من المستحيل كشف تنافسٍ فيزيولوجيٍّ بين الذكر والأنثى

البشريين ولو بسوء نيّةٍ. يمكن بالأحرى تحديد موقع عدائيتهما في الميدان الّذي يقع بين البيولوجيا وعلم النفس والّذي هو التحليل النفسي. يقال إنّ المرأة تحسد الرجل على قضيبه وترغب في إخصائه، لكنّ الرغبة الطفوليّة في القضيب لا تكتسب أهمّيةً في حياة المرأة البالغة إلّا إن شعرت بأنّ أنوثتها مبتورةٌ؛ تتمنى عندئذٍ امتلاك العضو الذكري باعتباره يمثّل امتيازات الذكورة. نقبل بطيب خاطرٍ أنّ لحلمها بالإخصاء معنىً رمزيًّا: يظنّون أنّها تريد حرمان الذكر من تساميه. لكنّ أمنيتها كما رأينا متناقضةٌ أكثر بكثيرٍ: بشكلٍ متناقضٍ تريد أن تحصل على هذا التسامي، ما يفترض أن تحترمه وتنكره في آنٍ معًا، وأن ترتمي فيه وتحفظه داخلها. هذا يعني أن المأساة لا تجري على صعيدٍ جنسيٍ؛ عدا عن أنّ الجنس لم يبدُ لنا أبدًا كمحدِّدٍ لمصيرٍ، أو مفتاح سلوكٍ بشريٍّ، ولكن معبّرًا عن كامل وضعٍ يساهم في تحديده. لا يدخل صراع الجنسين مباشرةً في تشريح الرجل والمرأة. في الحقيقة، عندما نذكره، نقبل أنّ هناك معركةً تجري في سماء الأفكار الأزليّة بين هذين الجوهرين غير الأكيدين: المؤنّث الأزلي والمذكر الأزلي؛ ولا نلاحظ أنّ هذه المعركة الهائلة تكتسي على الأرض شكلين مختلفين تمامًا، يوافقان لحظاتٍ تاريخيّةٍ مختلفةٍ.

تحاول المرأة المحبوسة في المثوليّة أن تحتجز الرجل أيضًا في هذا السجن؛ وهكذا يختلط السجن بالعالم ولا تتألّم بعدها من سجنها فيه: فالأم والزوجة والعشيقة سجّاناتٌ؛ والمجتمع الّذي قنّنه الرجال يعلن أنّ المرأة أدنى: ولا يمكنها إلغاء هذه الدونيّة إلّا بتخريب التفوّق الذكوريّ. فتحاول بتر الرجل والسيطرة عليه، وتعارضه، وتنكر حقيقته وقيمه. لكنّها بذلك تدافع عن نفسها فقط؛ لم يكرّسها للمثوليّة والدونيّة جوهرٌ ثابتٌ ولا اختيارٌ خاطئٌ. لقد فُرِضتا عليها. وكلّ اضطهادٍ يولّد حربًا ولا تشذّ هذه الحالة عن ذلك. ويطالب الكائن الّذي يُعتَبر غير أساسيٍّ باستعادة سيادته.

تأخذ المعركة اليوم شكلًا آخر؛ فبدل أن ترغب المرأة بحبس الرجل في زنزانةٍ، تحاول الإفلات منها؛ لم تعد تحاول جرّه إلى مناطق المثوليّة ولكن البروز إلى نور التسامي. وهنا يخلق موقف الذكور صراعًا جديدًا: يحيل الرجل الأمر للمرأة على مضضٍ. يروق له أن يظلّ الذات المهيمنة، الرئيس المطلق، الكائن الأساسي؛ يرفض أن يعتبر رفيقته مساويةً له فعلًا؛

وتردّ على ارتيابه بموقفٍ عدائيٍّ. لم يعد الأمر حربًا بين أفرادٍ كلٌّ منهم حبيس مجاله: هناك طائفةٌ ذات مطالب تهاجم وتُفشل هجومها الطائفة ذات الامتيازات. إنها مواجهةٌ بين تساميين؛ تريد كلّ حرّيةٍ السيطرة على الأخرى بدل أن تعترفا ببعضهما بشكلٍ متبادلٍ.

يظهر اختلاف المواقف هذا على الصعيد الجنسي كما على الصعيد الروحيّ؛ تحاول المرأة «الأنثى» عندما تجعل من نفسها غنيمةً سلبيّةً أن تهبط بالذكر أيضًا إلى سلبيته الجسدية؛ تنهمك في إيقاعه في الفخ، في تقييده بالرغبة الّتي تثيرها عندما تجعل من نفسها شيئًا مطيعًا؛ وعلى العكس تريد المرأة «المتحرّرة» أن تكون فاعلةً، مُمسكةً، وترفض السلبية الّتي يريد الرجل فرضها عليها. وكذلك تنكر إليز ومنافساتها قيمة الفعاليات الذكوريّة؛ فيضعن الجسد فوق الفكر، والاحتمال فوق الحرّية، وحكمتهنّ الروتينيّة فوق الجرأة الخلّاقة. لكنّ المرأة «الحديثة» تقبل القيم الذكوريّة: فتفتخر بالتفكير والتصرّف والعمل والإبداع مثل الذكور؛ وبدل أن تحاول الانتقاص منهم، تؤكّد أنّها مساويةٌ لهم.

وبقدر ما تعبّر عن نفسها بتصرّفاتٍ ملموسةٍ، تكون هذه المطالبات شرعيّةً؛ عندها يلام الرجال على فظاظتهم. ولكن كي نعذرهم يجدر القول إنّ النساء يخلطن الأوراق بطيب خاطرٍ. كانت ميبل دودج تريد استعباد لورنس بسحر أنوثتها كي تهيمن عليه فيما بعد روحيًا؛ يبذل كثيرٌ من النساء جهدًا في تأمين دعمٍ ذكوريٍّ جنسيًا كي يُظهِرن بنجاحهنّ أنّهن معادلاتٌ للرجل؛ يراهنّ على شيئين معًا، مطالباتٍ في الوقت نفسه بمراعاةٍ قديمةٍ واحترامٍ جديدٍ، مراهناتٍ على سحرهنّ القديم وحقوقهنّ الحديثة؛ ونفهم أن يقف الرجل ثائرًا موقف الدفاع عن النفس لكنّه هو أيضًا منافقٌ عندما يعلن أنّ المرأة تلعب اللعبة بنزاهةٍ بينما يرفض بتشكيكه وعدائيّته منحها الوسائل الضروريّة. في الحقيقة، لا يمكن للصراع بينهما أن يكون واضحًا بما أنّ كيان المرأة نفسه غامضٌ؛ فهي لا تقف أمام الرجل كذاتٍ ولكن كشيءٍ مزوّدٍ بالذاتيّة بشكلٍ متناقضٍ؛ تضطلع بنفسها في الوقت نفسه كنفسها وكآخر، وهو تناقضٌ يؤدّي إلى نتائج محيّرة. عندما تتسلّح بضعفها وقوّتها معًا، فذلك ليس حسابًا مشوّشًا: إنّها تبحث تلقائيًا عن خلاصها بالطريقة الّتي فرضت عليها، طريقة السلبيّة، وفي الوقت نفسه تطالب بسيادتها بحيويّةٍ؛ ولا شكّ في أنّ هذا السلوك «غير نزيهٍ» ولكن أملاه

عليها الوضع الملتبس الّذي فرضوه عليها. مع ذلك فحين يعاملها الرجل كحرّيةٍ يستنكر أن تظلّ فخًّا بالنسبة له؛ فإن امتدحها وأغدق عليها باعتبارها غنيمته، ينزعج من مطالبتها بالاستقلال؛ ومهما فعل يشعر أنّه مخدوعٌ وتشعر أنّها مغبونةٌ.

وسيدوم الشجار طالما لم يعترف الرجال والنساء بأنّهم متشابهون، أي طالما ظلّت الأنوثة كما هي؛ مَن مِن الطرفين أكثر إصرارًا على إبقائها كما هي؟ تريد المرأة الّتي تحررت منها الاحتفاظ بامتيازاتها مع ذلك؛ وعندها يطالب الرجل بأن تلتزم بحدودها. يقول **مونتينيه** Montaigne: «اتّهام جنسٍ أسهل من عذر الآخر». من العبث توزيع اللوم وشهادات الرضى. في الحقيقة، إذا كان من الصعب هنا كسر الدارة المعيبة، فذلك لأنّ كلًّا من الجنسين ضحيّة نفسه والجنس الآخر؛ من الممكن عقد اتّفاقٍ بسهولةٍ بين خصمين متواجهين ضمن حرّيتهما المحضة؛ لكنّ تعقيد كلّ هذه القضية يأتي من أنّ كلّ معسكرٍ متواطئٌ مع عدوّه؛ تلاحق المرأة حلمًا بالتنازل، والرجل حلمًا بالاستلاب؛ وانعدام الأصالة لا يفيد: يلوم كلّ واحدٍ الآخر للتعاسة الّتي أحدثها لنفسه باستسلامه لإغراءات السهولة؛ وما يكرهه كلٌّ من الرجل والمرأة لدى الآخر هو الفشل الذريع لسوء نيّته الخاصّ وجبنه.

رأينا لماذا استعبد الرجال النساء أصلًا؛ كان هبوط قيمة الأنوثة مرحلةً ضروريّةً للتطوّر البشريّ؛ لكن كان بإمكانه أن يُحدِث تعاونًا بين الجنسين؛ يُفسَّر الاضطهاد بميل الكائن إلى الهروب من نفسه بأن يُستَلب في الآخر الّذي يضطهده لهذه الغاية؛ ويوجد هذا الميل اليوم لدى كلّ رجلٍ: وتستسلم له الأغلبية العظمى؛ فيبحث الزوج عن نفسه لدى زوجته، والعشيق لدى عشيقته، بصورة تمثالٍ حجريٍّ؛ يتابع فيها أسطورة رجولته، سيادته، واقعه المباشر. تقول المرأة: «لا يذهب زوجي أبدًا إلى السينما»، فينطبع الرأي الذكري المتردّد على مرمر الأزل. ولكنّه هو نفسه عبد مزدوجه: أيّ عناءٍ يتكبّده لإقامة صورةٍ يكون فيها دائمًا في خطرٍ! إنها قائمةٌ رغم كلّ شيءٍ على حرّية النساء الهوائيّة: ويجب باستمرارٍ جعل هذه الحرّية مناسبةً له؛ والرجل مهمومٌ بإظهار نفسه ذكرًا، مهمًّا، متفوّقًا؛ ويتظاهر بأشياء كي يفعل الآخرون الشيء نفسه؛ وهو أيضًا عدوانيٌّ، قلقٌ؛ لديه عداءٌ تجاه النساء لأنّه يخشاهنّ، ويخشاهنّ لأنّه يخشى الشخصيّة الّتي يختلط بها. كم يبدّد من الوقت والقوّة في تصفية وتصعيد ونقل عقدٍ، والحديث عن النساء، وإغوائهنّ، والخشية منهنّ! كان ليتحرّر

إذا حرّرهنّ. ولكن هذا ما يخشاه بالتحديد. فيتشبّث بالخدع المكرّسة لإبقاء المرأة في أغلالها.

يدرك كثيرٌ من الرجال أنها مخدوعةٌ. ويقول **كيركغارد**[256] Kierkegaard: «أيّ شقاءٍ أن يكون المرء امرأةً! ومع ذلك فالمأساة عندما يكون امرأةً هي في الحقيقة ألّا يفهم أنّه كذلك». لقد أصرّوا منذ زمنٍ طويلٍ على إخفاء هذا الشقاء. فألغوا الوصاية مثلًا: وأعطوا للمرأة «حاميًا» وإذا كانت له نفس حقوق الأوصياء القدماء فذلك لمصلحتها. ومنعها من العمل وإبقاؤها في المنزل، هو حمايتها من نفسها، وتأمين سعادتها. كما رأينا تحت أيّ أغطيةٍ شاعريّةٍ أخفوا الأعباء الرتيبة المفروضة عليها: كأعمال المنزل والأمومة؛ وأهدوها مقابل حرّيتها كنوز «أنوثتها» الخدّاعة. لقد وصف **بلزاك** جيّدًا هذه المناورة عندما نصح الرجل بمعاملتها كعبدةٍ مقنِعًا إياها في الوقت نفسه بأنّها ملكةٌ.

كثيرٌ من الرجال الأقلّ صلفًا يقنعون أنفسهم أنّها ذات امتيازاتٍ. هناك علماء اجتماعٍ أمريكيون يدرّسون اليوم بجدّيّةٍ نظرية «Low-class gain» أي «مكاسب الفئات الدنيا». في فرنسا أيضًا كثيرًا ما أعلنوا ـ ولو بطرقةٍ أقلّ علميّةً ـ أنّ العمال كانوا محظوظين لأنهم غير مضطرّين «للظهور بمظهرٍ جيّدٍ»، والشحّاذين أيضًا الّذين يستطيعون أن يرتدوا أسمالًا وينـاموا على الأرصفة، وهي متعٌ ممنوعةٌ على **الكونت بومون** وهؤلاء السادة المساكين في شركة وندل[257] Wendel. مثل المقمّلين اللامبالين الّذين يحكّون حشراتهم بمرحٍ، مثل العبيد السعداء تحت ضربات السياط وهاته العربيّات من مدينة سوسة اللّواتي يدفنّ مبتسماتٍ أطفالهنّ الّذين ماتوا جوعًا، تتمتّع المرأة بهذا الامتياز الفريد: اللامسؤوليّة. يبدو أنّ لها «النصيب الأفضل»، فهي دون ألمٍ، ولا عبءٍ، ولا همٍّ. والمحيّر هو أنّه بسبب شرٍّ عنيدٍ ـ مرتبطٍ حتمًا بالخطيئة الأصليّة ـ عبر القرون والبلدان يحتجّ أصحاب النصيب الأفضل

256- الحقيقة في الخمر In vino veritas ويقول أيضًا: «يعود الغزل أساسًا للمرأة وكونها تقبله دون تردّدٍ يفسَّر بعناية الطبيعة بالأضعف، والأقلّ حظًّا والّذي يعني له الوهم أكثر من تعويضٍ. لكنّ هذا السراب محتّمٌ عليه... أليس الشعور بالتحرّر من الشقاء بفضل الخيال، الانخداع بالخيال، سخريةً أكبر؟... المرأة ليست مهجورةً لكنّها كذلك بمعنىً آخر بما أنّه ليس بإمكانها أبدًا أن تتحرّر من السراب الّذي استخدمته الطبيعة لتستعبدها».

257- شركة استثمارات فرنسية كبيرة (المترجمة).

على المحسنين إليهم قائلين: هذا كثيرًا يكفيني نصيبكم! لكنّ الرأسماليين العظماء، المستعمرين الكرماء، الذكور الرائعين، يصرّون: احتفظوا بالنصيب الأفضل، احتفظوا به!

المسألة هي أنّ الرجال يجدون لدى رفيقتهم تواطؤًا أكبر مما يجده المضطَهِد عادةً لدى المضطَهَد؛ ويستندون إلى ذلك بسوء نيّةٍ ليعلنوا أنّها أرادت المصير الّذي فرضوه عليها. رأينا أنّ كلّ تربيتها في الحقيقة تساعد في سدّ طرق الثورة والمغامرة أمامها؛ المجتمع بكامله ـ بدءًا من أبويها الموقّرين ـ يكذب عليها إذ يمجّد القيمة الكبيرة للحبّ، والتفاني، وبذل النفس، مخفين عليها أنّ العشيق والزوج والأطفال غير مستعدين لتحمل عبئها الثقيل. وتقبل هذه الأكاذيب بمرحٍ لأنّها تدعوها إلى اتّباع السبيل السهل: وتلك هي أكبر جريمةٍ تُقتَرف بحقّها؛ منذ طفولتها وعلى طول حياتها يدلّلونها ويفسدونها عندما يقولون لها إنّها تميل إلى هذا التنازل الّذي يغري كلّ كائنٍ قلقٍ بشأن حرّيته؛ إذا دعونا طفلًا إلى الكسل بتسليته طيلة النهار دون منحه فرصة الدراسة، دون أن نخبره عن فائدتها، يجب ألّا نقول عندما يبلغ سنّ الرّجال إنّه اختار أن يكون عاجزًا وجاهلًا: هكذا تُربّى المرأة، دون تعليمها ضرورة الاضطلاع بوجودها بنفسها؛ فتترك نفسها بطيب خاطرٍ تعتمد على الحماية والحبّ والمساعدة وإدارة الغير؛ وتستسلم لسحر الأمل في أن تحقّق ذاتها دون أن تفعل شيئًا. وهي تخطئ إذ تستسلم للإغراء؛ ولكن ليس من حقّ الرجل أن يلومها على ذلك بما أنّه هو الّذي أغراها به. عندما ينشب صراعٌ بينهما، يتّهم كلٌّ منهما الآخر بأنّه سبب الوضع؛ تلومه لأنّه خلقه: لم يعلّموني كيف أفكّر، وأكسب عيشي... ويلومها هو لأنّها قبلت به: لا تعرفين شيئًا، أنت غير مؤهّلةٍ... ويعتقد كلّ جنسٍ أنّه يبرّر مسلكه بالهجوم: لكنّ خطأ أحدهما لا يبرّئ الآخر.

وتأتي الصراعات العديدة الّتي تنشأ بين الرجال والنساء من أنّ أيًّا من الاثنين لا يضطلع بنتائج هذا الوضع الّذي يطرحه أحدهما ويخضع له الآخر؛ هذا المفهوم المحيّر عن «المساواة في اللامساواة»، الّذي يستخدمه أحدهما لإخفاء استبداده والآخر جبنه، لا يقاوم التجربة: في تبادلاتهما تطالب المرأة بالمساواة المطلقة الّتي ضمنوها لها، والرجل بعدم المساواة الملموسة الّتي يراها. نتيجةً لذلك يستمرّ نقاشٌ غير محدّدٍ في جميع العلاقات حول التباس كلمتي العطاء والأخذ: تشكو من أنّها تعطي كلّ شيءٍ، ويحتجّ لأنها تأخذ منه كلّ

شيءٍ. يجب أن تفهم المرأة أن التبادلات ـ وهو قانونٌ أساسيٌّ في الاقتصاد السياسيّ ـ تُنظَّم حسب قيمة البضاعة المعروضة لدى المشتري، وليس لدى البائع: خدعوها عندما أقنعوها بأنّ قيمتها لامتناهيةٌ؛ في الحقيقة إنّها بالنسبة للرجل تسليةٌ فقط، متعةٌ، رفقةٌ، ملكٌ غير أساسيٍّ؛ بينما هو روح وجودها ونعمته؛ بالتالي لا يتمّ التبادل بين شيئين بنفس الخصائص؛ ويظهر عدم المساواة هذا خصوصًا في أنّ الوقت الّذي يمضيانه معًا ـ والّذي يبدو نفس الوقت بينما هو غير ذلك ـ ليس له نفس القيمة لدى الشريكين؛ خلال الأمسية الّتي يقضيها العشيق مع عشيقته بإمكانه تأدية عملٍ يفيد حياته المهنيّة، أو أن يرى أصدقاء، أو ينمّي معارف، أو يتسلّى؛ بالنسبة لرجلٍ مندمجٍ بشكلٍ طبيعيٍّ بالمجتمع، الوقت ثروةٌ إيجابيةٌ: مالٌ، وسمعةٌ، ومتعةٌ. وعلى العكس، بالنسبة للمرأة المتبطّلة، الّتي تشعر بالسأم، هو عبءٌ تطمح إلى التخلّص منه؛ إذ تحصل على مكاسب حين تنجح في قتل ساعاتٍ: حضور الرجل مكسبٌ بحتٌ؛ في حالاتٍ عديدةٍ، وأكثر ما يهمّ الرجل في علاقةٍ ما هو المكسب الجنسيّ الّذي يحصل عليه منها: في أقصى حدٍّ يستطيع أن يكتفي بأن يقضي مع عشيقته فقط الوقت اللازم للقيام بالعمل الجنسي؛ ولكن بالنسبة لها ما تتمنّاه ـ فيما عدا استثناءاتٍ ـ هو «تمرير» كلّ هذا الفائض من الوقت الّذي لا تعرف ماذا تفعل به: وكالبائع الّذي لا يبيع البطاطا إلّا إذا «أخذوا» منه لفتًا، لا تمنح جسدها إلّا إذا «أخذ» العشيق فوق البيعة ساعاتٍ من المحادثة والخروج. يحصل التوازن إذا لم تظهر الكلفة الإجماليّة مرتفعةً جدًّا للرجل: وهذا يتعلّق بالطبع بشدّة رغبته وأهمّية الانشغالات الّتي يضحي بها بالنسبة له؛ ولكن إذا كانت المرأة تطلب ـ أو تمنح ـ وقتًا أكبر مما يجب، تصبح بكاملها مزعجةً، كالنهر الّذي يفيض على جانبيه، ويختار الرجل ألّا يأخذ شيئًا بدل أن يأخذ أكثر مما ينبغي. وبالتالي تعتدل في طلباتها؛ ولكن كثيرًا ما يحدث التوازن لقاء توتّرٍ مزدوجٍ: فهي تعتقد أنّ الرجل أخذها بسعرٍ مخفّضٍ؛ ويفكّر هو أنّه دفع ثمنًا غاليًا أكثر مما ينبغي. بالطبع هذا العرض ساخرٌ بعض الشيء؛ مع ذلك يوجد هذا الصراع في الحنان، والرغبة، والحبّ نفسه، إلّا في حالات العاطفة الغيورة الاستئثارية حيث يريد الرجل المرأة بكلّيتها؛ وللرجل دائمًا «شيءٌ آخر يفعله» بوقته؛ بينما تحاول هي التخلّص من وقتها؛ وهو لا يعتبر الساعات الّتي تمنحه إياها عطاءً، ولكن عبئًا. وبصورةٍ عامةٍ يقبل أن يتحمّلها لأنّه يعرف جيّدًا أنّه في جهة المحظوظين، «إذا أحسّ بالخطأ»؛ وإن

كان لديه بعض الإرادة الحسنة يحاول أن يعوّض عدم تساوي الوضعين بالسخاء؛ مع ذلك، يتعلّل بأنّه مثيرٌ للشفقة وعلى الفور يتّهم المرأة بانّها جاحدةٌ، ويثور: أنا طيّبٌ أكثر مما يجب. وتشعر أنّها تتوسّل بينما هي مقتنعةٌ بقيمة هداياها الكبيرة، وتشعر بالخزي لذلك. وهذا ما يفسّر القسوة الّتي تبدو المرأة قادرةً عليها غالبًا؛ تشعر أنّها «على صوابٍ»، لأنّها في الجهة السيئة؛ ولا تعتبر أنّها مضطرّةٌ لأيّ مراعاةٍ تجاه الفئة المحظوظة؛ حتى أنها لتكون سعيدةً جدًا إذا أتيحت لها فرصة إظهار ضغينتها للعشيق الّذي لم يعرف كيف يرضيها: بما أنّه لا يعطي ما يكفي، فستأخذ منه كلّ شيءٍ بمتعةٍ وحشيّةٍ. عندئذٍ يكتشف الرجل الجريح الثمن الشامل للعلاقة الّتي كان يزدري كلّ لحظةٍ منها: إنّه مستعدٌّ لكل الوعود، حتّى وإن كان سيعتبر نفسه من جديدٍ مُستغَلّاً عند تنفيذها؛ ويتّهم عشيقته بابتزازه: وتلومه على بخله؛ ويجد كلاهما نفسه مخدوعًا. هنا أيضًا، من العبث توزيع الأعذار والملامات: إذ لا يمكن أبدًا خلق عدالةٍ ضمن الظلم. فالمدير المستعمر لا يملك إمكانيّة التصرّف الجيّد تجاه سكان البلاد الأصليين، ولا الجنرال تجاه جنوده؛ الحلّ الوحيد هو ألّا يكون المرء مستعمرًا ولا زعيمًا؛ ولكن الرجل لا يستطيع الامتناع عن أن يكون رجلًا. ها هو إذًا مذنبٌ رغمًا عنه ومُضطهَدٌ لهذا الخطأ الّذي لم يرتكبه هو نفسه؛ وكذلك هي ضحيّةٌ وسليطةٌ رغمًا عنها؛ يثور أحيانًا، ويختار القسوة، ولكنّه يصبح عندئذٍ شريكًا في الظلم، ويصبح الخطأ فعلًا خطأه؛ وأحيانًا يترك ضحيّته المطالبة تدمّره، تلتهمه: ولكن عندئذٍ يشعر أنّه خُدِع؛ كثيرًا ما يقبل بتسويةٍ تقلّل من شأنه وتتركه غير راضٍ. يمزّق الوضع الرجل ذا الإرادة الحسنة أكثر من المرأة ذاتها: بمعنىً ما من الأفضل دائمًا أن يكون المرء من جهة الخاسرين؛ ولكن إذا كانت ذات إرادةٍ حسنةٍ هي أيضًا، غير قادرةٍ على الاكتفاء بنفسها، تأنف سحق الرجل تحت ثقل مصيرها، ستتخبّط في تشوّشٍ لا فكاك منه. نجد الكثير من هذه الحالات في الحياة اليومية والّتي لا تتضمن حلّاً مرضيًا لأنها محدّدةٌ بظروفٍ غير مرضيةٍ: فالرجل الّذي يرى نفسه مجبرًا على الاستمرار ماديًّا ومعنويًّا في إعالة امرأةٍ لم يعد يحبّها يشعر أنّه ضحيّةٌ؛ ولكن إذا ترك من دون موارد تلك الّتي التزمت به طول حياتها، ستكون ضحيّةً مظلومةً بنفس القدر. لا يأتي السوء من فسادٍ شخصيٍّ ـ ويبدأ سوء النيّة عندما يهاجم كلٌّ منهما الآخر ـ بل يأتي من وضعٍ يقف كلّ سلوكٍ خاصٌ عاجزًا أمامه. النساء «لجوجاتٌ»، يثقلن، ويتألّمن

من ذلك؛ لأنّهنّ يعشن حياة الطفيلي الّذي يمتصّ حياة عضويّةٍ غريبةٍ؛ فإن أعطين عضويّةً مستقلّةً، واستطعن أن يكافحن ضدّ العالم وينتزعن منه لقمتهنّ، فستزول تبعيتهنّ: وتبعية الرجل أيضًا. وسيعود ذلك دون شكٍّ بالخير على الجميع، رجالًا ونساءً.

من السهل تخيّل عالمٍ يكون فيه الرجال والنساء متساوين لأنّه هو بالتحديد ما وعدت به الثورة السوفييتية: النساء اللّواتي تربّين وتشكّلن تمامًا كالرجال سيعملن بنفس الشروط[258] وبنفس الراتب؛ وستقبل الأعراف الحرّية الجنسيّة، لكن لن يُنظَر إلى العمل الجنسيّ على أنّه «خدمةً» ذات أجرٍ؛ وستضطرّ المرأة إلى تأمين وسيلةٍ أخرى لكسب عيشها؛ وسيقوم الزواج على التزامٍ حرٍّ يستطيع الزوجان إلغاءه حين يشاءان؛ وستكون الأمومة حرّةً، أي سيُسمح بتحديد النسل والإجهاض وبالمقابل ستمنح جميع الأمهات وأطفالهنّ نفس الحقوق تمامًا، سواءً كنّ متزوجاتٍ أم لا؛ وستكون إجازات الحمل مدفوعة الأجر من قبل المجموعة الّتي ستضطلع بأعباء الأطفال، وهذا لا يعني أنّهم سيؤخذون من أهلهم ولكن لن يُتخلّى عنهم.

ولكن هل يكفي تغيير القوانين والمؤسسات والأعراف والرأي العام وكلّ السياق الاجتماعيّ كي يصبح النساء والرجال متشابهين فعلًا؟ يقول المشكّكون: «ستظلّ النساء دائمًا نساءً»؛ ويتنبأ منجّمون آخرون أنّهنّ حين يتخلّين عن أنوثتهنّ لن ينجحن في أن يتحوّلن إلى رجالٍ بل سيصبحن مسوخًا. وهذا قبولٌ بأنّ امرأة اليوم هي من خلق الطبيعة؛ يجب أن نكرّر مرّةً أخرى أنّ لا شيء طبيعيٌّ في المجموعة البشريّة وأنّ المرأة نتاجٌ من إعداد الحضارة؛ تدخّل الغير في مصيرها أصليٌّ ولو كان هذا العمل قد تمّ بشكلٍ مختلفٍ لكانت النتيجة مختلفةً تمامًا. لا يحدّد المرأة هرموناتٌ ولا غريزةٌ غامضةٌ ولكن الطريقة الّتي تدرك بها، من خلال الشعور الغريب، جسدها وعلاقتها بالعالم؛ تمّ حفر الهوّة الّتي تفصل بين المراهقة والمراهق منذ طفولتهما الأولى بطريقةٍ مدبّرةٍ؛ فيما بعد، لا نستطيع الحيلولة دون أن تكون المرأة ما صنعوها وستجرّ دومًا هذا الماضي وراءها؛ إذا قسنا ثقله، نفهم بجلاءٍ أنّ مصيرها ليس ثابتًا أبديًا. بالتأكيد، يجب ألّا نظنّ أنّه يكفي أن نبدّل وضع المرأة

258- إن منعن من بعض المهن الشاقّة فذلك لا يناقض هذا المشروع: بين الرجال نفسهم يُبحث أكثر فأكثر عن تحقيق الملائمة المهنيّة؛ قدراتهنّ الجسديّة والفكريّة تحدّ خياراتهنّ؛ ما نطلبه في أيّ حالٍ هو عدم وضع أيّة حدودٍ للجنس أو الفئة.

الاقتصاديّ كي تتحوّل: كان هذا العامل وسيظلّ العامل الأهمّ في تطوّرها؛ ولكن طالما لم يؤدِّ إلى النتائج المعنويّة والاجتماعية والثقافية إلخ.. الّتي يعلنها ويفرضها فلن تظهر المرأة الجديدة؛ لم تتحقّق اليوم في أيّ مكانٍ، ولا في الاتحاد السوفييتي ولا فرنسا ولا أمريكا؛ ولهذا فامرأة اليوم منقسمة بين الماضي والمستقبل؛ تبدو غالبًا «امرأةً حقيقيّةً» متنكّرة بزيّ رجلٍ، وتشعر أنّها غير مرتاحةٍ لا في جسدها كامرأةٍ ولا في ثيابها الرجالية. يجب أن تجدّد إهابها وأن تصنع لنفسها ملابسها الخاصّة. ولن تتمكّن من ذلك إلّا بفضل تطوّرٍ جماعيٍّ. لا يمكن لتربيةٍ منعزلةٍ اليوم أن تشكّل «إنسانًا مؤنّثًا» مماثلًا تمامًا «للإنسان المذكّر»: إذا تربّت الفتاة كصبيٍّ تشعر أنّها استثنائيّةٌ وبذا تخضع لنوعٍ جديدٍ من التخصيص. فهم ذلك جيّدًا ستندال الّذي كان يقول: «يجب زراعة الغابة كلّها دفعةً واحدةً». ولكن إن افترضنا على العكس مجتمعًا يتحقّق فيه تساوي الجنسين بصورةٍ واقعيةٍ، فسيتأكّد هذا التساوي من جديدٍ لدى كلّ فردٍ.

إذا تربّت الفتاة منذ نعومة أظفارها بنفس الواجبات والمكافآت، ونفس الصرامة والتسامح، كإخوتها، مشاركةً بنفس الدراسات، ونفس الألعاب، موعودةً بنفس المستقبل، محاطةً بنساءٍ ورجالٍ يبدون لها متساوين دون التباسٍ، فسيتغيّر كثيرًا معنى «عقدة الإخصاء» و«عقدة أوديب». وستتمتّع الأم بنفس المكانة الدائمة عندما تضطلع كالأب بمسؤوليّة الأسرة الماديّة والمعنويّة؛ وستشعر الطفلة حولها بعالمٍ خنثويٍّ وليس بعالمٍ ذكوريٍّ؛ ولو كانت منجذبةً عاطفيًّا أكثر لأبيها ـ ما هو غير مؤكّدٍ حتّى ـ فسيكون حبّها له مشوبًا برغبةٍ في المنافسة وليس بشعور العجز: ولن تتّجه نحو السلبيّة؛ وإذ يُسمح لها بإثبات قيمتها في العمل والرياضة، منافسةً الذكور بحيويّةٍ، فلن يكفي غياب القضيب ـ المعاوَض بما يعد به مستقبل الطفلة ـ لتوليد «عقدة نقصٍ»؛ وبشكلٍ مترابطٍ لن يكون للصبي تلقائيًّا «عقدة تفوّقٍ» إذا لم يوحى بها إليه وإذا احترم النساء كالرجال[259]. بالتالي لن تبحث الفتاة عن معاوضاتٍ عقيمةٍ في النرجسيّة والحلم، ولن تنظر إلى نفسها على أنّها مُعطاةٌ، بل ستهتمّ بما تفعله، وستلتزم

259- أعرف صبيًّا صغيرًا في الثامنة من عمره يعيش مع أمّه وخالته وجدّته، وثلاثتهنّ مستقلّاتٌ وفاعلاتٌ، وجدٌّ نصف عاجزٍ. لديه «عقدة نقصٍ» فادحة تجاه الجنس المؤنث، رغم أنّ أمّه تحاول مكافحتها جاهدةً. في المدرسة يحتقر الرفاق والأساتذة لأنّهم ذكورٌ بائسون.

دون تحفّظٍ بمشاريع. قلت كم سيكون بلوغها أسهل إذا تجاوزته كالصبي نحو مستقبلٍ حرٍّ كبالغةٍ؛ لا يوحي لها الطمث بكلّ هذا النفور إلّا لأنه يشكّل سقوطًا حادًّا في الأنوثة؛ وستضطلع بشكلٍ هادئٍ أكثر بشهوانيتها إذا لم تكن تشعر بالاشمئزاز المذعور من مصيرها بمجمله؛ وسيساعدها تدريبٌ جنسيٌّ ملائمٌ كثيرًا في تخطّي هذه الأزمة. وبفضل التعليم المختلط، لن يولد غموض الرجل المهيب: ستزيله الألفة اليوميّة والمنافسات الصريحة. تفترض الاعتراضات المقدّمة على هذا النظام دائمًا احترام المحرّمات الجنسيّة؛ ولكن من العبث المطالبة بكبح الفضول والمتعة لدى الطفل؛ هذا لا يفضي إلّا إلى خلق كبتٍ وهواجس وعُصاباتٍ؛ إثارة العاطفيّة، وحماسة المثلية الجنسيّة، والشغف الأفلاطوني لدى المراهقات بكل ما يتبعها من حماقاتٍ وطيشٍ هي أكثر إيذاءً بكثيرٍ من بعض اللهو الطفوليّ وبعض التجارب المعيّنة. ما يفيد الفتاة خصوصًا، هو أنّها عندما لا تبحث لدى الذكر عن نصف إلهٍ ـ ولكن فقط عن رفيقٍ، صديقٍ، شريكٍ ـ لن تتحوّل عن الاضطلاع بوجودها بنفسها؛ وستتّخذ الشهوانيّة والحبّ صفة تجاوزٍ حرٍّ وليس صفة تنازلٍ؛ سيكون بإمكانها أن تعيشهما كعلاقة ندٍّ لندٍّ. بالطبع، غير واردٍ بجرّة قلمٍ إلغاء كلّ الصعوبات الّتي على الطفلة التغلّب عليها لتصبح بالغةً؛ لن تعفيها التربية الأكثر ذكاءً، الأكثر تسامحًا، من خوض تجربتها على حسابها؛ ما نطلبه هو ألّا توضع العراقيل في طريقها. سيكون تطوّرًا ألّا توسم الفتيات «الفاسقات» بعد الآن بالحديد المحمّى؛ لقد ثقّف التحليل النفسي الأهل قليلًا؛ ومع ذلك فالظروف الحاليّة الّتي يتمّ بها تكوين وتدريب المرأة مؤسفةٌ لدرجة أنّ أيًا من الاعتراضات المقدّمة على فكرة تغييرٍ جذريٍّ لن تكون صالحةً. من غير الوارد إلغاء عوارض الوضع الإنسانيّ وبؤسه، ولكنّنا نستطيع إعطاءها إمكانيّة تجاوزه.

المرأة ليست ضحيّة أيّ لعنةٍ غامضةٍ؛ تأخذ الخصائص الّتي تميّزها أهمّيتها من المعنى الّذي تكتسبه؛ ويمكن تجاوزها ما إن يتم إدراكها ضمن الإمكانيّات الجديدة؛ وهكذا رأينا أنّ المرأة عبر تجربتها الجنسيّة تشعر بسيطرة الذكر وتكرهها غالبًا: يجب ألّا نستنتج من ذلك أنّ مبيضيها يحكمان عليها بأن تعيش إلى الأبد راكعةً. ولا تبدو عدوانية الذكر امتيازًا سياديًّا إلّا ضمن منظومةٍ تساهم في تأكيد الهيمنة الذكوريّة؛ ولا تشعر المرأة بنفسها سلبيّةً بهذا القدر في عمليّة الجماع إلّا لأنّها تظنّ نفسها كذلك. كثيرٌ من النساء الحديثات إذ يطالبن

بكرامتهنّ الإنسانيّة ما زلن يدركن حياتهنّ الجنسية انطلاقًا من تقاليد العبوديّة: يبدو لهنّ مذلاً كذلك أن يكنّ مستلقياتٍ تحت الرجل، مخترقًا إياهنّ ويتشنّجن في برودٍ جنسيٍّ: ولكن إن كان الواقع مختلفًا فسيختلف معه المعنى الّذي تعبّر عنه رمزيًّا الحركات والوضعيات الغرامية: مثلًا تستطيع المرأة الّتي تدفع، الّتي تسيطر على عشيقها، أن تشعر بأنّها فخورةٌ ببطالتها الرائعة وتعتبر أنّها تستعبد الذكر الّذي يجهد نفسه بنشاطٍ، ومن الآن فصاعدًا هناك العديد من الأزواج المتوازنين جنسيًّا حلّت لديهم فكرة التبادل محلّ مفاهيم الانتصار والهزيمة. في الحقيقة، الرجل جسدٌ كالمرأة، وبالتالي سلبيّةٌ، لعبة هرموناته والنوع، فريسةٌ قلقةٌ لرغبته؛ وهي مثله ضمن الحمّى الجنسية قبولٌ، وعطاءٌ اختياريٌّ، وفعّاليّةٌ؛ ويعيش كلٌّ منهما بطريقته الالتباس الغريب لوجودٍ أضحى أجسادًا. في هذه المعارك الّتي يظنّان أنّهما يتواجهان فيها، يصارع كلٌّ منهما نفسه، عاكسًا في شريكه هذا الجزء من ذاته الّذي يرفضه؛ وبدل أن يعيش كلّ واحدٍ تناقض وضعه يجهد في أن يحمّل الآخر حقارة هذا الوضع ويحتفظ لنفسه بمجده. مع ذلك إذا اضطلع به كلاهما بتواضعٍ واضحٍ، بتلازمٍ مع كبرياءٍ أصليٍّ، سيعترفان بأنّهما متشابهان ويعيشان المسألة الجنسيّة كأصدقاءٍ. أن يكون المرء إنسانًا أهمّ بكثيرٍ من كلّ الخصوصيات الّتي تميّز البشر؛ ليس المعطى أبدًا ما يمنح التفوّق: إذ تتحدّد «الفضيلة» كما كان القدماء يدعونها على صعيد «ما يتعلّق بنا». وتجري لدى الجنسين نفس ملهاة الجنس والروح، المحدوديّة والتسامي؛ ويتآكل الزمن الاثنين، ويترقّبهما الموت، ولديهما نفس الحاجة الأساسية للآخر؛ ويمكنهما الحصول على نفس المجد من حرّيتهما؛ فإن كانا يعرفان كيف يتذوقانها، لن يعودا إلى التخاصم بسبب امتيازاتٍ زائفةٍ؛ ويمكن للأخوّة عندئذٍ أن تنشأ بينهما.

سيقال لي إنّ كل هذه الاعتبارات طوباويّةٌ بما أنّه يلزم «لإعادة تشكيل المرأة» أن يجعلها المجتمع فعلًا مساويةً للرجل؛ لم يوفّر المحافظون أبدًا في كلّ الظروف المشابهة فرصة استنكار هذه الحلقة المعيبة: مع ذلك فالتاريخ يمضي للأمام. ولا شكّ في أنّنا لو أبقينا فئةً بوضعٍ دونيٍّ، فستبقى دونيّةً: لكن بإمكان الحرّية أن تكسر الحلقة؛ إذا تركنا السود يصوّتون، سيكونون جديرين بالتصويت؛ وإن أعطينا للمرأة مسؤوليّاتٍ، ستضطلع بها؛ المسألة أنّنا لا ننتظر من المضطهِدين كرمًا مجّانيًّا؛ ولكنّ ثورة المضطهَدين من جهةٍ، وتطوّر الفئة ذات

الامتيازات من جهةٍ أخرى سيخلقان أوضاعًا جديدةً؛ وهكذا اضطر الرجال لمصلحتهم الخاصة إلى أن يحرّروا النساء جزئيًّا: لم يعد عليهنّ سوى متابعة ارتقائهنّ، تشجّعهنّ على ذلك النجاحات الّتي سيحصلن عليها؛ ويبدو من الأكيد تقريبًا أنّهنّ سيبلغن المساواة الكاملة الاقتصادية والاجتماعية في وقتٍ قصيرٍ أو طويلٍ، ما سيؤدّي إلى تغيّرٍ داخليٍّ.

على كلّ حالٍ، سيعترض البعض بأنّه إذا كان مثل هذا العالم ممكنًا، فهو غير مرغوبٍ فيه. عندما ستصبح المرأة «نفس» ذكرها، ستفقد الحياة «ملحها ونكهتها». وهذه الحجة أيضًا ليست جديدةً: أصحاب المصلحة في إبقاء الوضع الراهن سيذرفون الدموع دومًا على الماضي المدهش الّذي سيختفي دون أن يبتسموا للمستقبل الوليد. صحيحٌ أنّنا بإلغاء سوق النخاسة قتلنا المزارع الواسعة الّتي تزيّنها زهور الأزاليا والكاميليا البهيّة، وفجّرنا كلّ الحضارة الجنوبيّة الرقيقة؛ وانضمت الدانتيلّا القديمة في سقيفة الزمن إلى أصوات خصيان كنيسة السكستين الرنان وهناك بعض «السحر الأنثويّ» الّذي يهدّد بالزوال هو أيضًا. أوافق على أنّ المرء يكون همجيًّا حين لا يُعجَب بالزهور النادرة، والدانتيلّا، وصوت الخصيّ الّذي يشبه رنّة الكريستال، والسحر الأنثويّ. عندما تتفاخر «المرأة الساحرة» ببهائها تكون شيئًا مُمجَّدًا أكثر من «اللوحات الغبيّة، وتيجان الأبواب، والزخارف، ولوحات رسّامي الطريق، واللافتات، والمنمنمات الشعبيّة» الّتي كانت ترعب رامبو؛ تأتي من أعماق الأزمان، من طيبة، من مينوس، من شيشن إتزا، مزيّنةً بأحدث الحيل، وبأحدث التقنيّات؛ وهي أيضًا الطوطم المغروس في قلب أدغال إفريقيا؛ إنها هليكوبتر وطائرٌ؛ وها هي أروع الروائع: يصبح حفيف الأوراق فكرًا تحت شعرها المصبوغ وتنطلق الكلمات من ثدييها. ويمدّ الرجال أيادٍ متلهّفةً نحو المعجزة؛ ولكن ما إن يمسكوها حتّى تتلاشى؛ تتحدّث الزوجة والعشيقة مثل الجميع بفمهما: تساوي كلماتهما ما تساويه، وأثداؤهما كذلك. هل تستحق معجزةٌ عابرة بهذا القدر ـ ونادرةٌ كذلك ـ أن نُديم وضعًا مؤذيًا للجنسين؟ نستطيع أن نُعجَب بجمال الزهور، وسحر النساء، ونقدّرهما حقّ قدرهما؛ ولكن إذا كان ثمن هذه الكنوز دمًا أو شقاءً، فيجب أن نضحّي بها.

المسألة هي أنّ هذه التضحية تبدو للرجال فادحةً؛ ونتمنّى من أعماق القلب أن تنهي المرأة اكتمالها؛ لا يرى هؤلاء الّذين يحتقرونها ما كان بإمكانهم أن يكسبوا من ذلك، ويرى

هؤلاء الّذين يحبّونها ما يخسرونه بذلك؛ صحيحٌ أنّ التطوّر الحالي لا يهدّد فقط السحر الأنثويّ: عندما تبدأ المرأة بالوجود من أجل ذاتها، ستتخلّى عن وظيفة المزدوج والوسيط الّتي تعطيها مكانها المتميّز في العالم الذكوري؛ وبالنسبة للرجل العالق بين صمت الطبيعة والوجود المتطلّب لحرّياتٍ أخرى، يبدو وجود شخصٍ يكون شبيهه وشيئًا سلبيًّا في آنٍ واحدٍ كنزًا كبيرًا؛ قد تكون الصورة الّتي يرى رفيقته عليها وهميّةً، لكن الخبرات الّتي هي مصدرها حقيقيّةٌ فعلًا: ولا يوجد ما هو أثمن منها، أو أكثر حميميّةً، أو تأجّجًا؛ لا يمكن إنكار أن التبعيّة والدونيّة والبؤس الأنثوي تمنحها صفتها الخاصّة؛ لا شكّ في أنّ استقلاليّة المرأة، وإن كانت تعفي الذكور من كثيرٍ من الإزعاجات، ستحرمهم من العديد من التسهيلات؛ سنفقد بالتأكيد في عالم الغد بعض طرق عيش المغامرة الجنسيّة: لكنّ ذلك لا يعني استبعاد الحبّ والسعادة والشعر والحلم. فلننتبه إلى أنّ نقص الخيال لدينا يُفرِغ المستقبل دومًا؛ فهو ليس سوى تجريدٍ بالنسبة لنا؛ كلٌّ منّا يأسف سرًّا لغيابه فيه؛ ولكن البشريّة ستعيشه غدًا ضمن جسدها وحرّيتها، سيكون حاضرها وبدورها ستفضّله؛ وستولد علاقاتٌ جسديّةٌ وعاطفيّةٌ جديدةٌ بين الجنسين ليست لدينا فكرةٌ عنها: لقد ظهرت بين الرجال والنساء صداقاتٌ، ومنافساتٌ، وتواطؤاتٌ، وزمالاتٌ، عفيفةٌ أو جنسيّةٌ، لم تكن لتبتكرها القرون الماضية. وأكثر ما يبدو لي قابلًا للجدل الشعار الّذي يكرّس العالم الجديد للتماثل، وبالتالي للملل. لا أرى الملل غائبًا عن هذا العالم ولا أنّ الحرّية تخلق التماثل. فأوّلًا، سيبقى هناك دومًا بين الرجل والمرأة بعض الاختلافات؛ فشهوانيتها، وبالتالي عالمها الجنسي، الّذي يأخذ شكلًا خاصًّا سيولد لديها شهوانيّةً، حساسيّةً خاصّةً: علاقاتها بجسدها، بالجسد الذكري، بالطفل، لن تكون أبدًا مماثلة لعلاقة الرجل بجسده، والجسد الأنثوي، والطفل؛ سيوافقني هؤلاء الّذين يتحدثون طويلًا عن «المساواة ضمن الاختلاف» على أنّ من الممكن وجود اختلافاتٍ ضمن المساواة. من جهةٍ أخرى، المؤسسات هي الّتي تخلق الرتابة: فجواري السرايا الشابات والجميلات هن دومًا نفسهنّ بين ذراعي السلطان؛ وأعطت المسيحيّة للجنس طعم الخطيئة والخرافة بتزويد أنثى الرجل بروحٍ؛ فإن أعيدت لها خصوصيتها السامية، فهذا لن ينزع عن العناق الغرامي طعمه المحزن. من غير المفهوم الادّعاء بأنّ التهتّك والرذيلة والنشوة والعاطفة ستصبح مستحيلةً إذا كان الرجل والمرأة متماثلين بشكلٍ ملموسٍ؛ ولن تزول أبدًا

التناقضات الّتي تضع الجسد مقابل الروح، واللحظة مقابل الزمن، ودوار المثوليّة مقابل الدعوة إلى التسامي، والمتعة المطلقة مقابل عدم النسيان؛ سيتجسّد دائمًا في الجنس التوتّر، والتمزّق، والفرح، والفشل، وانتصار الوجود. تحرير المرأة هو رفض حبسها ضمن العلاقات الّتي تقوم بينها وبين الرجل، ولكن ليس إنكارها؛ فإن طرحت نفسها من أجل ذاتها فستظلّ موجودةً من أجلهٔ أيضًا: عندما يعترفان ببعضهما بشكلٍ متبادلٍ كذاتٍ سيبقى كلٌّ منهما مع ذلك بالنسبة للثاني آخر؛ لن تلغي علاقاتهما المتبادلة العجائب الّتي يحدثها انقسام البشر إلى فئتين منفصلتين: وهي الرغبة، والامتلاك، والحبّ، والحلم، والمغامرة؛ وستحتفظ الكلمات الّتي تؤثّر بنا بمعناها: العطاء، الاكتساب، الاتحاد؛ بل على العكس عندما سيلغى استعباد نصف البشريّة وكلّ نظام النفاق الّذي يفرضه سيظهر «تقسيم» البشريّة معناه الأصلي وسيجد الثنائي الإنساني شكله الحقيقي.

قال **ماركس**[260] Marx: «علاقة الإنسان بالإنسان المباشرة والطبيعية والضروريّة هي علاقة الرجل بالمرأة. من شكل هذه العلاقة يظهر كم فهم الرجل نفسه ككائنٍ نبيلٍ، كرجلٍ؛ علاقة الرجل بالمرأة هي أكثر العلاقات طبيعيّةً بين كائنين بشريّين. يبدو فيها إذًا إلى أيّة درجةٍ أصبح الإنسان كائنه الطبيعي، إلى أيّة درجةٍ أصبحت *طبيعته الإنسانيّة طبيعته*».

لن يمكننا أن نقول أفضل مما قلنا. يعود للرجل ضمن عالمٍ معطىً أن يجعل الحرّية تسود؛ وللحصول على هذا الانتصار الفائق من الضروري أن يؤكّد الرجل والمرأة أخوّتهما دون لبسٍ، وفيما بعد اختلافاتهما الطبيعيّة.

260- الأعمال الفلسفية، الجزء 6. ماركس هو من يؤكّد على الكلمات.

مؤلفات سيمون دوبوفوار

(في منشورات غاليمار)

1. روايات

المدعوة (1943)

دم الآخرين (1945)

كل الرجال زائلون (1946)

المثقفون (1954)

الصور الجميلة (1966)

عندما يتفوّق الروحي (1979)

2. سرد

موتٌ لطيفٌ جدًّا (1964)

3. قصص

المرأة المنهكة (1968)

4. مسرح

الأفواه عديمة الجدوى (1945)

5. أبحاث أدبيّة

بيروس وسينياس (1944)

من أجل مغزى الغموض (1947)

أمريكا يومًا بيوم (1948)

الجنس الآخر 1، 2 (1949)

امتيازات (1955). (أعيد إصدارها باسم: هل يجب أن نحرق ساد؟)

المسيرة الطويلة، بحث حول الصين (1957)

مذكرات فتاة رصينة (1958)

قوّة العمر (1960)

قوّة الأشياء (1963)

الشيخوخة (1970)

بعد كل شيء (1972)

كتابات سيمون دوبوفوار (1979)، بقلم كلود فرنسيس وفرناند غونتييه.

احتفال الوداع، متبوعًا بلقاء مع جان بول سارتر، آب - أيلول 1974 (1981)

رسائل إلى سارتر (1990) طبعة من تقديم وإعداد وشرح سيلفي لوبون دوبوفوار

1. 1930-1939

2. 1940-1963

حب عبر الأطلسي (رسائل إلى نلسون ألغرين 1947-1964). نص من تقديم وإعداد وشرح وترجمة عن الإنجليزية سيلفي لوبون دوبوفوار (1997).

6. شهادات

جميلة بوباشا (1962)، بالتعاون مع جيزيل حليمي.

7. سيناريو

سيمون دوبوفوار (1979) فيلم لجوزيه دايان ومالكا ريبوفسكا، إخراج جوزيه دايان.

8. يوميات

يوميات الحرب، أيلول/ سبتمبر 1939 ـ كانون الثاني/ يناير 1941 (1990). طبعة من تقديم وإعداد وشرح سيلفي لوبون دوبوفوار.

9. مراسلات

سيمون دوبوفوار، جاك ـ لوران بوست، مراسلات متشابكة (1937-1940). طبعة من تقديم وإعداد وشرح سيلفي لوبون دوبوفوار.

Simone de Beauvoir

Le deuxième sexe
II
L'expérience vécue

Editions Gallimard, 1949, renouvelé en 1976

لا يولد المرء امرأةً: إنّه يصبح كذلك. لا يوجد أيّ قدرٍ بيولوجيّ أو نفسيّ أو اقتصاديٍّ يستطيع تحديد الصورة التي تبدو عليها الأنثى البشرية ضمن المجتمع. إنّ مجمل الحضارة هو الذي يصنع هذا المنتج الذي يقع بين الذكر والخصيّ والذي يصفونه بالمؤنث. فقط تدخّل الآخرين يمكنه أن ينشئ شخصًا كآخر.

نرى أنّ كلّ العيوب الّتي نلوم المراهقة عليها تعبّر عن وضعها. إنّه وضعٌ صعبٌ أن تعرف أنّها سلبيّةٌ وتابعةٌ في سنّ الأمل والطموح، في السنّ الّتي تتأجّج فيها إرادة الحياة واحتلال مكانٍ في هذا العالم؛ في هذه السنّ الغازية تتعلّم المرأة أنّه لا يُسمَح لها بغزو أيّ شيءٍ، أنّ عليها أن تنكر ذاتها، أنّ مستقبلها يتعلّق بمتعة الرجال. على الصعيد الاجتماعيّ كما على الصعيد الجنسيّ لا تستيقظ لديها طموحاتٌ جديدةٌ إلاّ وتجد نفسها محكومةً بالبقاء دون إشباعٍ؛ تُغلَق فورًا كلّ اندفاعاتها الحيويّة أو الروحيّة. نفهم لماذا تجد صعوبةً في إيجاد توازنها. مزاجها المتقلّب، دموعها. نوباتها العصبيّة هي علامة عدم تأقلمها العميق أكثر من كونها ناجمةً عن هشاشةٍ فزيولوجيّةٍ.




ISBN 978-9933-9145-8-5